



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة - الجزائر
الشيخ العلامة مبارك بن محمد الإبراهيمي المبلي الجزائري
قسم اللغة العربية وآدابها

ظاهرتا الفقر والبؤس في الروايتين الفرنسية والمغربية

- دراسة تحليلية مقارنة -

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في الأدب المقارن

إشراف: أ. د. نادية تيحال

إعداد: سميرة شبال

لجنة المناقشة:

رئيسا	المدرسة العليا للأساتذة	أستاذ التعليم العالي	أ. د. محمد الهادي بوطارن
مقررا	المدرسة العليا للأساتذة	أستاذ التعليم العالي	أ. د. نادية تيحال
مناقشا	جامعة بومرداس	أستاذ التعليم العالي	أ. د. قدور عمران
مناقشا	جامعة الجزائر 2	أستاذة التعليم العالي	أ. د. فاطمة شعبان
مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة	أستاذة محاضرة أ	د. زهرة مزوني
مناقشا	المدرسة العليا للأساتذة	أستاذة محاضرة أ	د. صراح سكيبة تلمساني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شكر وعرفان:

الحمد لله الذي أعانني وذل كل العقبات أمامي وأعطاني القوة على مواصلة درب البحث
الممتع والشاق في الوقت نفسه.

كما أتوجه بالشكر والامتنان إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد على انجاز هذا
البحث المتواضع وأخص بالذكر أستاذتي المشرفة الأستاذة الدكتورة نادية تيحال على
رحابة صدرها وابتسامتها الرقيقة وعلى جودها عليّ بنصائحها القيّمة وتوجيهاتها السديدة
جزها الله كل خير.

ولا يفوتني أن أشكر الأساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على قبولهم قراءة هذا العمل
ومناقشته.

الإهداء :

أهدي ثمرة جهدي إلى:

روح والدي الطاهرة، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

أمي الغالية حفظها الله وأطال في عمرها.

ابنتي وقرة عيني التي شجعتني كثيرا وساعدتني في إنجاز هذا البحث.

الأخت والصديقة "جميلة بوعبد الله" التي كانت دوماً إلى جانبي ووقفت معي في الأوقات

الصعبة.

كل الزميلات والزملاء في المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة الذين هم نعم الأخوات

والأخوة.

سميرة شبال

مقدمة

مقدمة:

قال أرسطو: إن الفرق بين الشاعر (الأديب) والمؤرخ لا يكمن في كون أحدهما يروي الوقائع شعرا والثاني نثرا وإنما في كون الأديب يرويها في صورتها الكاملة المتكاملة أي يقدمها للمتلقي كما ينبغي أن تكون بينما يقدمها المؤرخ كما هي بالفعل بتشوهاتنا ونقائصها فهو لا يسعى إلى تجميلها وسد الثغرات التي فيها لذا فهي تصل ناقصة إلى المتلقي وعليه فإن "الشعر يروي الكلي بينما التاريخ يروي الجزئي".*

إن طبيعة موضوع هذا البحث يمت بالصلة الوثيقة للتاريخ والأدب في الوقت نفسه، فكم من مؤرخ أرخ للثورة الفرنسية ولمختلف الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية في القرن التاسع عشر من بينهم "موريس أغولون" (Maurice Agulhon) و"جورج لوفيفر" (Georges Lefebvre) و"جان بول بيرتران" (Jean-Paul Bertrand) و"فرانسيس ديمير" (Francis Démir) وغيرهم.

وكم من روايات ألفت أيضا حول هذه الحقبة الزمنية من قبل أسماء أدبية ذات سمعة عالمية أمثال "فيكتور هوغو" و"أونوري دو بالزاك" و"غوستاف فلوبير" و"إميل زولا"... وفي المقابل اهتم العديد من المؤرخين من مختلف الجنسيات للتأريخ للاحتلال الفرنسي في منطقة الشمال الإفريقي ولاسيما الجزائر ومنهم

نذكر "شارل أندري جوليان" (Charles André Julien) و"بيير بورديو" (Pierre Bourdieu) و"شارل روبير أجيرون" (Charles Robert Agéron) و"بينيامين ستورا" (Benjamin Stora) و"أوليفي لوكورجران ميزون" (Olivier Le Cour Grandmaison) إضافة إلى المؤرخين الجزائريين أمثال "أبو القاسم سعد الله" و"محفوظ قداش" و"يحي بوعزيز" وغيرهم.

* أرسطوطاليس، فن الشعر ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1953، ص26.

كما حاول العديد من الروائيين المغاربة وخاصة الجزائريين منهم تخليد هذه الفترة الزمنية المهمة من تاريخ هذه المنطقة من خلال أعمالهم ومن بينهم "محمد ديب" و "مولود فرعون" و "مولود معمري" و "مالك حداد" و "آسيا جبار" و "إدريس شرايبي"...

ولعل المتأمل في مختلف الكتب التي أرخت للثورة الفرنسية ومختلف أحداث القرن التاسع عشر أو الثورات التحريرية في منطقة المغرب الكبير سيدرك أن اهتمام المؤرخين كان منصبا على الأحداث الكبرى وعلى أهم المعارك وأسماء قادتها وتواريخ حدوثها بالضبط إضافة إلى الأزمات الاقتصادية الكبرى والمجاعات والأوبئة والصراعات الاجتماعية (الطبقية) إلى غير ذلك، فالتاريخ لا يتغلغل في أعماق المجتمعات ولا يهتم بمختلف الشرائح الاجتماعية ليكشف لنا عن أوضاعها ومعاناتها وكيفية تعايشها مع الأحداث المحيطة بها سواء جراء الأنظمة السياسية الاستبدادية كما هو حال الطبقات البروليتارية في فرنسا أثناء القرن التاسع عشر أو جراء الاحتلال مثلما هو حال الشعوب المغربية ولاسيما الشعب الجزائري الذي تعرض لاستعمار استيطاني، فالأديب هو الذي يهتم بمختلف الأوضاع المعيشية الصعبة التي يتخبط فيها أبناء وطنه وهو من يعمل على فضح أسبابها وعواملها ونتائجها، فهو لا يكتفي بالعموميات بل يتغلغل في أعماق مجتمعه ليصل إلى الحقائق التي لا يمكن للمؤرخ الوصول إليها، فالأديب هو من يقدم صورة حية عن واقعه من خلال بعض العينات المتمثلة في مجموع العائلات أو الشخصيات وهي في صراع مستمر مع أوضاعها المزرية حتى تبقى على قيد الحياة.

وهذا هو الدافع الأساسي الذي جعل الدراسات المقارنة تتخذ من الأدب بالذات وسيلة للوصول إلى الكشف عن العمق الثقافي للمجتمع الذي ينتمي إليه أدب من الآداب ثم الخصوصية القومية لكل ثقافة والتي لا تبرز إلا عن طريق المقارنة.

وقد كان فن الرواية من بين الفنون الأدبية السردية في العصر الحديث التي كان لها الدور الأكبر في فضح مختلف القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية وإخراجها إلى العلن ليعي المتلقي مدى خطورتها وفضاعتها.

ومن هنا كان الروائيون الفرنسيون الذين تعايشوا مع أوضاع عدم الاستقرار طيلة القرن التاسع عشر وشاهدوا معاناة أبناء الطبقات الشعبية البسيطة يسعون إلى نقل مختلف المسائل والعراقيل التي كانت تعترض حياة هؤلاء باستمرار وقد ركزوا كل اهتمامهم على ظاهرتي الفقر والبؤس اللتين غطتا على مختلف المشاكل والآفات الأخرى التي كانت إما سببا أو نتيجة لهما.

وقد سار الروائيون المغاربة على نهجهم في فضح الواقع المعيشي لمجتمعاتهم التي كانت تعاني الأمرين جراء الاحتلال الفرنسي الذي حرّمها من حقوقها وسلبها أراضيها وممتلكاتها، خاصة في الجزائر، حتى باتت الأغلبية الساحقة منها ضمن الفقراء والمعدمين لا يملكون حتى قوت يومهم وهذا ما أجبر العديد منهم على الموافقة على العمل في أراضي المعمرين الذين كانوا يعاملونهم كالعبيد أو على الهجرة إلى المدن الكبرى أو إلى فرنسا بحثا عن عمل يضمن لهم دخلا مقبولا يسمح لهم بإعالة أبنائهم.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في اهتمامه بظاهرتي الفقر والبؤس اللتين تعتبران قضيتين إنسانيتين وجدتا منذ أن وجد الإنسان على وجه الأرض وأنهما لن تفنيا إلا بفنائهما وفي سعيه إلى الكشف عن معاشية المجتمعات الفرنسية والمغربية لهاتين الظاهرتين وكيفية تمكنها من الخروج منهما سالمة ومنتصرة أم بقائها تحت نيرهما، لأن من مهام الأدب تقديم دروس للمتلقي من خلال تجارب بعض المجتمعات.

ونظرا لاهتماماتي بالأدبيين الفرنسي والعربي عامة والمغربي خاصة لقد لفت انتباهي التقارب الموجود بين الروائيتين الفرنسية خلال القرن التاسع عشر والمغربية خلال فترة

الخمسينات من القرن العشرين - ولاسيما الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية لأنها هي التي كانت بارزة حينذاك وهي التي تمكنت من احتواء معاناة شعوبها وتقديمها بصورة واقعية ودقيقة للمتلقي - بالتزامهما في طرح مختلف القضايا الإنسانية والاجتماعية السائدة في عصرهما ولاسيما قضيتي الفقر والبؤس.

كما لم ينشغل المقارنون الجزائريون أو المغاربة -لاسيما أصحاب اللسان العربي - كفاية بدراسة علاقة الأدباء المغاربة ولاسيما الذين كتبوا باللغة الفرنسية بالآداب الأجنبية عنهم بل انصببت جل دراساتهم على البحث في المسائل الإيثوغرافية والمحلية من عادات وتقاليد وطقوس وغير ذلك في هذه الروايات و أما القلة القليلة من الدراسات المقارنة التي أنجزت في هذا المجال فقد شملت خاصة علم الصورة وبالذات صورة الفرنسي في الروايات الجزائرية أو في الروايات المغربية وكذا الأنا والآخر إلى غير ذلك وأما ما يتعلق بموضوع الفقر والبؤس فلم ينل حقه الكافي من الاهتمام بل اكتفى جل الدارسين بتخصيص مساحات صغيرة جدا له في أبحاثهم بينما يشكل المحور الأساسي في جل هذه الروايات خاصة ثلاثية "محمد ديب" وروايات "مولود فرعون" و "مولود معمري" و"إدريس شرايبي" وغيرها من الأعمال التي تقترب كثيرا في مضامينها والبعض من اتجاهاتها وأفكارها بالروايات الفرنسية في القرن التاسع عشر التي اهتمت هي الأخرى بفضح ظاهرتي الفقر والبؤس اللتين استغللتا في عصرهم.

ولدراسة هذا الموضوع تبادرت إلى ذهني مجموعة من التساؤلات تتمثل فيما يلي:

- ما هي العوامل التي أدت إلى بروز ظاهرتي الفقر و البؤس في أوساط الطبقات الشعبية البسيطة في فرنسا خلال القرن التاسع عشر وفي المنطقة المغربية أثناء فترة الاحتلال الفرنسي مع الإشارة إلى أن فرنسا كانت من البلدان الاستعمارية الكبرى وقوة عسكرية واقتصادية إذ كانت من بين البلدان الأوروبية التي ظهرت فيها الثورة الصناعية بعد انجلترا وكانت تعج بالمصانع والمناجم والورش ؟

- وهل هناك تقارب بين الأوضاع الاجتماعية التي عاشتها الطبقات الشعبية في كلا المجتمعين؟ ثم ما مدى اقتراب هؤلاء الروائيين من واقعهم وكيفية تقديمهم للحقائق الاجتماعية والتاريخية السائدة آنذاك؟

- و هل هناك تقارب في الموضوعات التي طرقها الروائيون الفرنسيون والمغربيون للكشف عن ظاهرتي الفقر والبلوس؟

-وما هي درجة تأثر الروائيين المغاربة بالروائيين الفرنسيين في تقديمهم ومعالجتهم لظاهرتي الفقر والبلوس؟

- هل كان تأثر الروائيين المغاربة بالروائيين الفرنسيين واضحا على المستويين الفني والجمالي مع الملاحظة أن معظم الروائيين المغاربة كانوا في بداية مشوارهم الإبداعي وقد كان الروائيون الفرنسيون هم قدوتهم ومثلهم الأعلى في هذا المجال بحكم كون الأدب الفرنسي هو أول أدب عالمي احتكوا به واطلعوا عليه بسبب ظروف الاحتلال التي قاربت بين الثقافتين إضافة إلى إصرار فرنسيين على نشر لغتهم و ثقافتهم على مختلف مستعمراتهم و لاسيما الجزائر؟

- هل كان الروائيون المغاربة الذين كتبوا باللغة الفرنسية حينذاك أتباعا للروائيين الفرنسيين ولثقافة الفرنسية كما يزعم البعض؟

وللإجابة على هذه الأسئلة ارتأيت أن أقسم هذا البحث إلى قسمين رئيسيين، خصصت القسم الأول منه للقضايا النظرية ويتشكل من بابين ويعنى الباب الأول منه بظاهرتي الفقر والبلوس الماهية والواقع ويحتوي على فصلين، يتطرق الفصل الأول منه إلى المدلولات اللغوية و الاصطلاحية المختلفة للفقر ثم إلى أنواعه ومستوياته وأسبابه ونتائجه وكيفية مكافحته.

أما الفصل الثاني فيتناول مختلف مفاهيم البؤس اللغوية والاصطلاحية ثم أنواع البؤس ومظاهره وأسبابه ونتائجه وكيفية محاربته فالعلاقة بين الفقر والبؤس.

أما الباب الثاني فقد خصصته لدراسة ظاهرتي الفقر والبؤس في المجتمعين الفرنسي خلال القرن التاسع عشر والمغاربي ابتداء من الاحتلال الفرنسي للمنطقة أي عام 1830 إلى قبيل اندلاع الثورات التحريرية أو بالأحرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ويعد هذا الباب بمثابة الخلفية التاريخية للمجتمعين والعصرين اللذين اهتم بهما الروائيون الفرنسيون والمغاربة و عملوا على كشف مختلف أسرارهما و خباياهما.

وقد عني الفصل الأول منه بالأوضاع السياسية غير المستقرة وبالأوضاع الاقتصادية المتذبذبة و خاصة مع بروز الرأسمالية والاشتراكية إضافة إلى أزمة الكساد العالمي التي أثرت كثيرا على الاقتصاد الفرنسي ومست خاصة الطبقات الاجتماعية البسيطة التي ازداد حالها تدهورا وبؤسا وينته هذا الفصل بإعطاء نظرة عامة حول حال الرواية الفرنسية حينذاك و مدى اقترابها من واقعها.

وأما الفصل الثاني منه فقد تطرق إلى ظاهرتي الفقر والبؤس في المنطقة المغاربية إبان الاحتلال الفرنسي ومن أهم ما ورد فيه حال المنطقة المغاربية قبل الاحتلال و ذلك حتى يتسنى لنا المقارنة بين الفترتين ثم الكشف عن العوامل المسهمة في دخول المحتل الفرنسي إلى هذه المنطقة ثم سياسته الجائرة اتجاه الشعوب المغاربية ولاسيما الجزائر كمصادرة الأراضي والاستيلاء على الممتلكات وسياسة التعمير والاستيطان إضافة إلى العنف والإبادة الجماعية وكذا انتهاج سياسة التجهيل والتجويع والعمل على طمس مقومات الشخصية الوطنية كاللغة والدين. و من ثم سُلط الضوء على العوامل التي أسهمت في استفاقة الشعوب المغاربية من غفوتها والعمل على التفكير في كيفية التحرر نهائيا من ظلم المحتل.

وفي آخر الفصل تطرقت إلى حال الرواية المغاربية أثناء تلك الفترة و ما درجة مواكبتها للأحداث السائدة حينذاك.

هذا وقد خصصت القسم الثاني من هذا البحث للدراسة التطبيقية المقارنة وينقسم بدوره إلى بابين.

لقد درست في الباب الأول منه كيفية تجسيد الروائيين الفرنسيين والمغاربة لظاهرتي الفقر والبؤس من خلال أعمالهم ومدى التقارب الموجود بينهم.

وقد كان الفصل الأول منه يتتبع نقاط التشابه بين الروائيتين الفرنسية والمغربية في طرح ظاهرة الفقر وتقديم أسبابها ومظاهرها ونتائجها وكيفية محاربتها.

بينما عني الفصل الثاني منه بدراسة ظاهرة البؤس لدى الروائيين الفرنسيين والمغاربة وتقاربهم الشديد خاصة في تركيزهم على أسباب البؤس وأنواعه.

وأما الباب الثاني منه فقد اهتم بالدراسة الفنية والجمالية وقد خُصص الفصل الأول منه لدراسة حيثيات البناء الفني والجمالي للشخصيات الروائية المجسدة لظاهرتي الفقر والبؤس في الروائيتين الفرنسية والمغربية ودرجة التقارب الموجودة بينهما.

وأما الفصل الثاني منه فقد عني بإبراز تجليات البنى الزمانية والمكانية واللغوية المجسدة لظاهرتي الفقر والبؤس ومدى تأثير الأدباء المغاربة بالفرنسيين في ذلك.

وبهذا حاولت الكشف عن بعض الجوانب التي جمعت بين الروائيين الفرنسيين والمغاربة أثناء تناولهم لظاهرتي الفقر والبؤس اللتين استفعلتا في مجتمعهما وعصرهما.

و لدراسة مختلف هذه القضايا لقد استعنت بمجموعة من المناهج نظرا لطبيعة المواد المتنوعة و انتهجت المنهج المقارن خاصة في الجزء التطبيقي من البحث إضافة إلى المنهج التحليلي و الوصفي ثم المنهج السيميائي خاصة في دراسة الشخصيات و البنى

الزمنية و المكانية فالمنهج التاريخي لاسيما في دراسة مختلف الأحداث التاريخية للفترتين المدروستين .

وما هذا البحث سوى محاولة متواضعة في بحر الدراسات المقارنة وبالذات في هذا الموضوع الإنساني الذي لا يزال موضوع الساعة رغم التطورات العلمية التي حققتها البشرية وأتمنى أن يكون بداية لأبحاث أخرى في هذا المجال.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى الأستاذة الدكتورة "نادية تبحال" التي شرفتني بإشرافها على هذا البحث وخصصت لي جزءاً من وقتها الثمين لقراءة كل فصل وتتبع كل جزئية من جزئياته وعلى نصائحها القيمة وتوجيهاتها السديدة.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأساتذات و الأساتذة أعضاء اللجنة الموقرة الذين شرفوني بقبولهم الإطلاع على هذا البحث المتواضع و مناقشته و إسهامهم في تقويم أي اعوجاج فيه.

أولاً:

القسم النظري

الباب الأول:

الفقر والبؤس

الماهية والواقع

الباب الأول

الفصل الأول:

الفقر الماهية والواقع

لا تخلو أي أمة أو شعب في مختلف العصور والأزمنة من الفقر والفقراء. ويعتبر الفقر من أصعب الآفات الممكن أن تلحق بالمجتمعات و تعمل على إضعافها و تحطيمها اقتصاديا و اجتماعيا و حتى فكريا و نفسيا مما جعله محل اهتمام الكثير من العلماء و الأدباء في كل الأوقات كما اهتمت به أيضا الكتب السماوية و تحدثت عليه شخصيات مشهورة وعظيمة أمثال: "علي بن أبي طالب" الذي نسبت إليه المقولة التالية : "لو كان الفقر رجلا لقتلته"¹، وورد أيضا في أحد الأحاديث الشريفة " ... كاد الفقر أن يكون كفرا".

وعلى نحو هذين القولين نجد الكثير من الأحاديث الشريفة والأقوال لعلماء و مشاهير تتحدث بطريقة سلبية عن هذه الظاهرة التي حاول كل على مستواه و في إطار تخصصه طرح إشكالية الفقر و العمل على إيجاد حلول لها ، و لكن من أهم المعضلات التي صادفتهم هي صعوبة تحديد مفهوم لفظة "فقر" و هذا ما استوقفنا ودفعنا إلى البحث في مختلف مفاهيمها و دلالاتها علنا نتوصل إلى ضبط معناها اللغوي و الاصطلاحي معا .

1) مدلولات الفقر:

1.1 (المدلول اللغوي للفقر:

لقد حاول "ابن منظور" أن يجمع أكبر عدد ممكن من المفاهيم اللغوية المستعملة في كلمة "فقر" كما أورد عددا من الأسماء التي حاولت تفسير هذه اللفظة عن طريق إعطاء بعض الشواهد لإثبات صحة أقوالها و يتضح ذلك فيما يلي:

¹ محمد الريشهري ،ميزان الحكمة ، تحقيق دار الحديث ، ط1، (د.ت)، (د.ط)، عام 1422 هـ ، ص 2438

"فقر: الفقر والفقر: ضد الغنى [...] الليث: والفقر لغة رديئة، ابن سيده: وقدر ذلك أن يكون له ما يكفي عياله، ورجل فقير من المال، وقد فقر فهو فقير والجمع فقراء [...] ابن السكيت: الفقير الذي له بُلغة من العيش، قال الراعي يمدح عبد المالك بن مروان ويشكو إليه سعادته:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال، فلم يترك له سبْدُ

قال والمسكين الذي لا شيء له. وقال يونس: الفقير أحسن حالا من المسكين، قال: وقلت لأعرابي مرة: أفقر أنت؟ فقال: لا والله بل مسكين، فالمسكين أسوأ حالا من الفقير. وقال ابن الأعرابي: الفقير الذي لا شيء له، قال والمسكين مثله. والفقر: الحاجة وفعله الافتقار والنعت فقير وفي التنزيل العزيز (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)¹، سئل أبو العباس عن تفسير الفقير والمسكين فقال: قال أبو عمرو بن العلاء فيما يروي عنه يونس: الفقير الذي له ما يأكل والمسكين الذي لا شيء له ويروى عن خالد بن يزيد أنه قال: كأن الفقير إنما سُمي فقيرا لزمانة تصيبه مع حاجة شديدة تمنعه الزمانة من التقلب في الكسب عن نفسه فهذا هو الفقير، الأصمعي: المسكين أحسن حالا من الفقير، قال: وكذلك قال أحمد بن عبيد، قال أبو بكر: وهو الصحيح عندنا لأن الله تعالى سَمَّى من له الفُلْك مسكينا، فقال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر [...] وقيل الفقير الذي لا شيء له والمسكين له بعض ما يكفيه وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه، [...] وقال الفراء في قوله عز وجل: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)² قال الفراء: هم أهل صفة النبي (ص) كانوا لا عشائر لهم، فكانوا يلتمسون الفضل في النهار ويأوون إلى المسجد، قال: والمساكين الطوافون على الأبواب، وروي عن الشافعي، رضي الله عنه، أنه قال: الفقراء الزمَنَى الضعاف الذين لا حرفة لهم، وأهل الحرفة الضعيفة التي لا تقع حرفتهم من

¹ سورة التوبة الآية 60.

² نفسها.

حاجتهم موقعا، والمساكين: السُّؤال ممن له حرفة تقع موقعا ولا تغنيه وعياله [...] قال ابن عرفة: الفقير عند العرب، المحتاج، قال الله تعالى: (أنتم الفقراء إلى الله)¹ أي المحتاجون إليه فأما المسكين فالذي قد أذله الفقر [...] فإذا كان هذا إنما مسكنته من جهة الفقر حلت له الصدقة وكان فقيرا مسكينا، وإذا كان مسكينا قد أذله سوى الفقر فالصدقة لا تحل له، إذ كان شائعا في اللغة أن يُقال: ضُرب فلان المسكين وظلم المسكين وهو من أهل الثروة واليسار وإنما لحقه اسم المسكين من جهة الذلة [...] إذا حرمت صدقة المال على مسكين الذلة أباحته له صدقة القدرة.²

وهكذا يميز ابن منظور بين الفقر المادي والفقر المعنوي ولكن من خلال كلمتين مختلفتين هما: الفقير وهو المحتاج ماديا والمسكين وهو المحتاج نفسيا ومعنويا.

ويرى "أحمد بن فارس" صاحب "مقاييس اللغة" أن كلمة "فقر: الفاء والقاف والراء أصل صحيح يدل على انفراج في شيء [...] من ذلك الفقار للظهر، الواحدة فقارة، سميت للحزوز والفصول التي بينها. والفقير: المكسور فقار الظهر وقال أهل اللغة: منه اشتق اسم الفقير، وكأنه مكسور فقار الظهر، من ذلته مسكنته، ومن ذلك فقرتهم الفاقة وهي الداهية كأنها كاسرة لفقار الظهر، وبعض أهل العلم يقولون الفقير: الذي له بُلغةٌ من عيش ويحتج بقوله:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبْدُ

قال: فجعل له حلوبة وجعلها وفقا لعياله، أي قوتا لا فضل فيه³

¹ سورة فاطر، الآية 15.

² أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفرقي المصري، لسان العرب، دار صادر بيروت (د.ط) (د.ت)، مجلد 5، ص 60، 61.

³ أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء 4، ص 443، 444.

وذهب الفيروز آبادي إلى أن "الفقر: ويُضم ضد الغنى، وقدره أن يكون له ما يكفي عياله، أو الفقير من يجد القوت والمسكين من لا شيء له، أو الفقير المحتاج والمسكين من أدله الفقر أو غيره من الأحوال. الشافعي: الفقراء الزمّنى الذين لا حرفة لهم، وأهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعا ولا تغنيهم وعيالهم أو الفقير: من له بُلغة¹ والمسكين من لا شيء له أو هو أحسن حالا من الفقير أو هما سواء".¹

كانت هذه أهم المفاهيم اللغوية الواردة في أمهات المعاجم العربية والتي تتفق على أن الفقر هو الحاجة لشيء ما وهو في الغالب مادي كالاختياج للمال أو للمأكل أو للملبس وللحياة الكريمة على العموم، كما عملوا على التمييز بين الفقير والمسكين وتوصلوا إلى أن الفرق بينهما هو مجرد فرق في درجات العوز المادي.

ومن أهم الشروح والتفسيرات التي قدمتها أشهر المعاجم الفرنسية نذكر ما يلي:

لقد جاء في موسوعة "لاروس" (Larousse) أن الفقر يتمثل في قلة الموارد والممتلكات والأموال، يُقال عن رجل فقير: غير مكثفي، وهو أيضا الشيء الوضيع والزهيد والتافه.²

وفي معجم "أنكارتا" (Encarta): الفقر هو: حالة شخص لا يملك إلا القليل من المال الذي لا يكفي ولا يضمن له الحياة الكريمة وهو أيضا مرادف للعوز والاحتياج وللشح وعدم الاكتفاء.³

وفي قاموس "روبرت الصغير" (Le Petit Robert) وردت كلمة فقير كنعت لنوعية من الموضوعات أو الأشياء مثل: الاحتياج للأشياء أو للأمور الضرورية وعندما توضع لفظة

¹ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ببيروت لبنان سنة 1426هـ - 2005م، الطبعة الثامنة، ص457.

² Dictionnaire Larousse Encyclopédique, Librairie Larousse 1979, p1058.

³ Microsoft Encarta, 2008.

فقير أمام اسم ما فهي تعطيه معنى سلبيا مثل: إنسان تافه (Pauvre type) وتؤدي أيضا معنى الشفقة والضعف وعدم الكفاية...¹

ومن خلال ما سبق، نلاحظ أن القواميس الفرنسية كانت أكثر توسعا في مختلف المرادفات والمعاني التي يمكن أن تشملها لفظة "فقر" أو "فقير"، ولكنها تتفق مع المعاجم العربية في جل ما قدمته من أمثلة وشروح التي يغلب عليها معنى قلة المال وشحه فإذا "أطلق لفظ الفقر فهم منه ضد الغنى ولا يدل على غيره إلا بقريضة تشير إليه".²

2.1 (المدلول الاصطلاحي للفقر:

الفقر هو ظاهرة عامة تشمل العديد من المجالات والنواحي الحياتية في أي شعب من الشعوب أو أمة من الأمم بل غالبا ما كان "سببا ودافعا للعديد من الثورات الاجتماعية والتغيرات الكبرى والاضطرابات السياسية الممتدة [...] وكان أيضا مصدر إلهام للفكر الإنساني والفلاسفة والمصلحين الاجتماعيين ولظهور العديد والعديد من النظريات السياسية والاتجاهات الفكرية والإيديولوجية".³

وبهذا تتعدد المفاهيم الاصطلاحية "الفقر" بحسب اختلاف الحقول والمجالات التي تشملها وتتواجد فيها.

لقد عرف محمد بن حسين باقر الفقر بأنه "حالة الحرمان المادي الذي تتجلى أهم مظاهرها في انخفاض استهلاك الغذاء، كما و نوعا، وتدني الحالة الصحية والمستوى

¹ Ogien Ruven, Théorie ordinaire de la pauvreté, P U F, pp39, 40

² عبد السلام حمدان اللوح ومحمود هاشم عنبر، علاج مشكلة الفقر، مجلة الجامعة الإسلامية غزة، المجلد 17، العدد 1 يناير 2009م، ص317.

³ عبد الرزاق الفارس، الفقر و توزيع الدخل في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2001، ص19.

التعليمي والوضع السكني والحرمان من تملك السلع المعمرة والأصول المادية الأخرى، وفقدان الاحتياطي أو الضمان لمواجهة الحالات الصعبة كالمرض والإعاقة والبطالة والكوارث والأزمات"¹ ويقول الدكتور عبد الرزاق الفارس في المجال نفسه أن الفقر هو "عدم القدرة على تحقيق مستوى معين من المعيشة المادية يمثل الحد الأدنى المعقول والمقبول في مجتمع ما من المجتمعات في فترة زمنية محددة"².

وفي الشريعة الإسلامية، يختلف العلماء في معنى الفقر وحده "الذي لا يجيز الأخذ من الصدقة وحد الغنى الذي لا يجوز معه الأخذ منها على عدة أقوال: والزكاة عند أبي حنيفة عشرون دينارا أو مائتا درهم حيث قال القرطبي وقال أبو حنيفة: "من معه عشرون دينارا أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة"³ بينما قال الإمام أحمد والثوري وابن المبارك بأن حد الفقر شرعا ألا يكون للشخص خمسون درهما أو ما قيمتها من الذهب وحد الغنى أن يكون للشخص خمسون درهما أو ما قيمتها من الذهب، واستدل أصحاب هذا القول بما رواه الدار قطني عن عبد الله قال: لا تحل الصدقة لرجل له خمسون درهما.⁴

وذهب الحسن البصري بما رواه عبد الله بن مسعود، قال سمعت رسول الله (ص) يقول: "من سأل الناس وهو غني جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش فقيل يا رسول الله وما غناؤه؟ قال: أربعون درهما أو ما قيمتها ذهبا،⁵ وقال قوم إن حد الفقر شرعا ألا يملك

¹ دريدي فاطمة و إبراهيمي قدور، المقاربات السوسولوجية للفقر المبرمج في الجزائر دراسة تحليلية للواقع الاجتماعي، مجلة التميز، المجلد 02، العدد 02، سنة 2020، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 35.

المرجع السابق، ص 19، 20.²

³ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة و آي الفرقان، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006، الجزء 10، ص 251

⁴ المرجع السابق، ص 251.

⁵ أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان الدار قطني، السنن، المكتبة العصرية للطباعة و النشر، يناير 2006، ص 315.

المرء عشاء ليلة وحد الغنى عكسه -وقد رُوي هذا القول عن علي كرم الله وجهه،¹ وقد احتج أصحاب هذا القول بحديث علي عن النبي (ص) أنه قال: من سأل مسألة عن ظهر غني استكثر بها من رصف جهنم قالوا: يا رسول الله وما ظهر الغني؟ قال: عشاء ليلة".²

كما ذهب مالك والشافعي إلى أن حد الفقر شرعا "هو ألا يملك الإنسان ما يكفيه من المال وحد الغنى عكس ذلك، لكن أصحاب هذا الرأي اختلفوا في تحديد وبيان الضابط لما يكفي الإنسان من المال".³

أما في الثقافة المسيحية، فهناك نوعان من الفقر هما: الفقر الواقعي والفقر الاختياري أو الفقر الإنجيلي.

- الفقر الواقعي هو "فقر مفروض وصاحبه مضطر إلى تحمله [...] وهو شر مطلق لا يمكن لأحد، مسيحي أم لا، أن يقبل به، إنه الأكثر شيوعا والأصعب محاربة".⁴

- الفقر الاختياري (الفقر الإنجيلي): وهو نوع من حياة التقشف والزهد في مختلف أنواع البهرج المادي والعزوف عن الجري وراء ربح الأموال، والعمل على تحقيق الغنى الروحي، وهو فقر اختياري يتجه إليه الإنسان بمحض إرادته واستجابة لدعوة السيد المسيح (عليه السلام) الذي قال: "بيعوا ما لكم وأعطوا صدقة اعملوا لكم أكياسا لا تفنى وكنزا لا ينفذ في السماوات حيث لا يقرب سارق ولا يُبلي سوس، لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم

¹ أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان الدارقطني، السنن، ص 315.

² المرجع السابق، ص 315.

³ عبد السلام حمدان اللوح و محمود هاشم عنبر ،علاج مشكلة الفقر ،دراسة قرآنية موضوعية ،مجلة الجامعة الإسلامية المجلد 17 ،العدد الأول يناير 2009 ، ص319، 320.

⁴ الأب برنار أوليفيه، الفقر الإنجيلي ،ترجمه جورج إلياس عازار ،فرق السيدة ، ص 20.

أيضا¹، كما قال: "من له ثوبان فليعط من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا"² وقال "لا يقدر خادم أن يخدم سيدين الله والمال لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر".³

وهذا النوع من الفقر هو فقر داخلي وغالبا ما يخصص صاحبه نفسه لخدمة الله أو لخدمة البشر.⁴

إضافة إلى ذلك، هناك "مفاهيم عديدة للفقر في الأدبيات الحديثة ذات العلاقة بموضوع الفقر والتي تصف الفقراء بأنهم أولئك الذين ليس بمقدورهم الحصول على سلة السلع الأساسية التي تتكون من الغذاء والملابس والسكن، إضافة إلى الحد الأدنى من الاحتياجات الأخرى مثل الرعاية الصحية والمواصلات والتعليم".⁵

والفقر هو "من ليس له الحد الأدنى للحياة. وهذا [...] يختلف بالطبع من بلد إلى بلد ومن عصر إلى آخر، فقيمة قطعة الخبز ليست نفسها في كل مكان و زمان ، لكن المعنى واضح، فالفقر هو من لا يستطيع أن يأكل عندما يجوع أو أن يجد سقفا ينام تحته أو أن يلقي العناية اللازمة عندما يمرض. وبكلمة، هو من لا يستطيع تأمين حاجاته الحيوية [...] الفقير هو من ليس له".⁶

كما لا يشمل الفقر الجانب المادي فحسب من حياة الإنسان بل كثيرا ما يتجاوزه إلى الجانب الروحي والمعنوي لاسيما في عصرنا هذا حيث طغت المادة على كل شيء،

¹ الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، طبعة فاندايك، مصر 2002، إنجيل لوقا، الإصحاح 12، الآية 33، 34

² إنجيل لوقا، الإصحاح 3، الآية 11.

³ إنجيل لوقا، الإصحاح 16 الآية 13 و إنجيل متى، الإصحاح 6، الآيات 19-21.

⁴ الفقر الإنجيلي، ص 20.

⁵ حاج قويدر قورين، ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي في ظل الطفرة المالية، البطالة والتضخم، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد 12، جوان 2014، ص 17.

⁶ الفقر الإنجيلي، ص 19.

ومنها كان الفقر إلى العاطفة والحنان: هل هناك "أشد ألما على المرء من أن يجد نفسه وحيدا في الحياة أمام حدث معين؟ هل يمكن اعتبار رجل كرس نفسه لحياته المهنية الناجحة أم الفاشلة ولكنه لم يتسنّ له رؤية أولاده وهم يكبرون، هل يمكن اعتبار مثل هذا الرجل في آخر حياته غنيا؟ خصوصا إذا كان أولاده يجدون صعوبة في الانخراط في المجتمع والعالم؟ ثم كيف يمكن لأي شخص أن يعيش حياة سعادة واطمئنان ومنها يتمكن من أداء رسالته على أحسن وجه إن كان أسير المحيط والمجتمع الذي يعيش فيه، اجتماعيا ونفسيا وفكريا... و ما قيمة حياة تتغذى مما هو دارج وشائع (الموضة) دون أية مرجعية أدبية أو أخلاقية.¹

وهكذا يمكن للإنسان أن يكون فقيرا بسبب نقص المال وكذا بسبب الفراغ العاطفي أو الأخلاقي أو الروحي.²

علاوة على ما سبق، تحمل كلمة "فقر" أيضا أبعاد ودلالات كثيرة ومتنوعة نتيجة تغلغلها في ميادين متعددة من الحياة ويمكننا ذكرها فيما يلي:

3.1 (المدلول الاجتماعي للفقر:

يعد الفقر ظاهرة اجتماعية منتشرة بنسب متفاوتة وأشكال مختلفة عبر العصور والأزمنة وفي مختلف أنحاء المعمورة، فلم يسلم منه أي بلد مهما بلغت درجة تطوره الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والثقافي والعلمي، فالولايات المتحدة الأمريكية مثلا هي من بين البلدان التي تحتوي على أكبر نسبة من الفقراء في العالم رغم أنها من أقوى الدول في العالم، ولهذا اهتم علماء الاجتماع بالفقر والفقراء وكرسوا العديد من أبحاثهم لهذا

¹ الفقر الإنجيلي، ص19.

² المرجع السابق، ص20.

الموضوع الذي تناولوه من زوايا مختلفة، كما أطلقوا عليه اسم الفقر الاجتماعي، وقد ورد تعريفه في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية بأنه "عدم المساواة الاجتماعية والمركز الذي يحتله الفقير كما يحدده نسق القيم الاجتماعية السائد في المجتمع"،¹ ويرى علماء الاجتماع أن هناك حاجات أساسية وبيولوجية ينبغي إشباعها لدى الإنسان وفي "حالة عدم إشباعها يعرف الناس كفقراء"،² وهذا يعني أن الفرق بين الفقير وغير الفقير هو "المؤشر الاجتماعي كخط فاصل إلا أن الحاجات الأساسية والبيولوجية غير كافية لوحدها كمحددات للفقر، فالناس يأكلون ويحيون ومع ذلك يعتبرون أنفسهم ويراهم الآخرون فقراء بالمعنى الاجتماعي"،³ وهناك من يذهب إلى أن الفقر هو "حالة عجز لدى الفرد أو الأسرة تؤدي إلى الحرمان من الكثير من الأشياء والضروريات الحياتية وهذا العجز المؤدي إلى الحرمان يرجع إلى عدم كفاية الدخل أو إلى انعدامه أصلاً"⁴ ويؤكد المفهوم التالي هذه الفكرة إذ يذهب صاحبه إلى أن الفقر هو "حالة من الحرمان تتجلى في انخفاض استهلاك الغذاء وتدني الأوضاع الصحية والمستوى التعليمي وقلة فرص الحصول عليه وتدني أحوال الإنسان"،⁵ وقد توسع قاموس علم الاجتماع في هذا المفهوم إذ أورد أن الفقر هو "مستوى معيشي منخفض بالاحتياجات الصحية والمعنوية المتصلة

¹ أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت، 1986، ص322.

² علياء شكري وآخرون، الحياة اليومية لفقراء المدينة، دراسة اجتماعية واقعية، جامعة عين شمس، القاهرة 2005، ص34.

³ صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم اجتماع التنمية، تحت إشراف الأستاذ الدكتور إسماعيل قيرة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2007/2008، ص13.

⁴ فريد كورتيل، الفقر ومسبباته، آثار وسبل الحد منه، حالة الجزائر، مجلة الاقتصاد والمناجمت، كلية العلوم الاقتصادية والتسيير، جامعة تلمسان، العدد 02، سنة 2003م، ص182.

⁵ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي وإشكاليات محاربتها، دروس مستفادة من فلسفة التجربة الماليزية، الملتقى الدولي الثاني حول المالية الإسلامية من تنظيم جامعة صفاقس تونس بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية جدة من 27 إلى 29 جوان 2013، ص3.

بالاحترام الذاتي للفرد أو مجموعة من الأفراد"¹ ويتجاوز الفقر الاجتماعي "عدم المساواة الاقتصادية الناتجة عن نقص الدخل والممتلكات وانخفاض مستوى المعيشة ليشمل بشكل أوسع عدم المساواة الاجتماعية والدونية والافتكال والشعور بالنقص والاستغلال"² ويُقال أيضا أنه (الفقر) حالة واقعية وليست وحدة تصويرية ويمثل مجموعة من المشكلات غير المترابطة مثل تفشي البطالة واللامساواة في الرفاهية والهجرة وتفاوت الخدمات في البيئة الحضرية أي أن الفقر واقع اجتماعي يتطلب التفسير.³

هذا ولم تهمل المنظمات الدولية كالأمم المتحدة والبنك الدولي هذه الظاهرة بل أولتها اهتماما معتبرا، لقد قدم البنك العالمي "تصورا واضحا لقضية الفقر فهو يتضمن الأوضاع الاجتماعية من تعليم وصحة وتغذية"⁴ ويتوسع ذلك من خلال تقريره عن التنمية في العالم بأنه (الفقر): الحرمان الشديد من الحياة الرضية والحرمان المادي من دخل وصحة وتعليم والمعاناة من التعرض للمخاطر كالمرض وقلة الدخل والعنف والجريمة والكوارث والانتزاع من المدرسة وعدم قدرة الشخص على إسماع صوته وانعدام أو نقص الحريات المدنية والسياسية"⁵ وما تلك الأصوات المرتفعة إلا دليل على المعاناة من الحرمان المادي

¹ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي وإشكالية محاربتة ، دروس مستفادة من فلسفة التجربة الماليزية ، ، ص3.

² المرجع السابق، ص3.

³ حسين عبد الحميد رشوان، أضواء على الحياة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية سنة 1999م، ص94.

⁴ إسماعيل سراج الدين، الفقر والأزمة الاقتصادية، مركز ابن خلدون ودار الأمين للنشر والتوزيع القاهرة، 1997م، ص38.

⁵ صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه ، ص14.

(انخفاض الدخل أو الاستهلاك...) أو الحرمان المعنوي (الحريات الجوهرية والأحداث الخارجة عن سيطرتهم وانعدام حيلتهم)¹.

ونتيجة لذلك عدّ البعض من الدارسين الفقر نوعاً من التعدي على "كرامة الإنسان شكلاً من أشكال الحرمان هو الأكثر خطورة لأنه يمكن أن يكون مصدراً للحروب والصراعات والعنف".²

4.1 (المدلول الاقتصادي للفقر:

لا يمكن للفظـة "فقر" أن تحصر في مجال واحد وضيق ولا يعقل أيضاً أن ننظر إليها من زاوية واحدة فحسب لأنه حينها لن نتوصل إلى الفهم الشامل والواضح لها إذ الفقر هو مفهوم متعدد الأوجه وعليه سنحاول فيما يلي أن نسلط الضوء على الجانب الاقتصادي منه.

"تشير الكتابات الاقتصادية و الأدب الاقتصادي [إلى] أن خمس سكان العالم يمكن تصنيفهم بأنهم فقراء، محرومون من الحدود الدنيا لفرص العيش الأمين وتتفاقم مشكلة الفقر في المجتمعات النامية بشكل خاص عندما يلهث نموها الاقتصادي وراء نموها السكاني"³، هذا ولا يزال الفقر "مشكلة عالمية متعددة الأبعاد فمن بين سكان العالم البالغ عددهم ستة مليارات يعيش 2.7 مليار نسمة بأقل من دولارين في اليوم ومليار نسمة بأقل من دولار في اليوم ومن كل مائة رضيع يموت ستة قبل بلوغ سنة واحدة من العمر

¹ صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه ، ص14.

² فريديريكو مايور وجيروم باندي، عالم جديد، ترجمة خليل خلفات، دار المنار للنشر بيروت، ط1، سنة 2002م، ص65.

³ صادق علي طعان، الفقر الاقتصادي والفقر المعرفي، مقارنة اقتصادية، جامعة الكوفة، كلية الإدارة والاقتصاد، مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والإدارية، المجلد الخامس، العدد 16، سنة 2010م، ص42.

وثمانية قبل بلوغ سن الخامسة، تقدر نسبة السكان الذين يعيشون تحت خط الفقر في البلدان العربية 23% منها 19% في بلدان المشرق و9.2% في بلدان المغرب العربي سنة 2000.¹ كما تشير تقديرات برنامج الأمم المتحدة الإنمائي إلى أن نحو 800 مليون شخص سيعيشون من واحد دولار في اليوم وأن 1700 مليون شخص سيعيشون بأقل من 2 دولار في اليوم وسوف تتراجع حالات فقر الدولار الواحد في اليوم عالميا من 20% عام 2005م إلى 14% عام 2015م.²

هذا وقد عرف البنك الدولي الدول المنخفضة الدخل أي الفقيرة بأنها تلك الدول التي ينخفض فيها دخل الفرد عن 600 دولار وعددها 45 دولة معظمها في إفريقيا منها 25 دولة يقل فيها متوسط دخل الفرد عن 300 دولار سنويا،³ ويكشف المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة أنه "في كل سنة يموت حوالي ثمانية ملايين طفلا نتيجة الأمراض كما يصاب 50 مليون طفلا بعجز عقلي أو بدني بسبب سوء التغذية و130 مليون طفلا يحرمون من الدراسة و260 مليون طفلا يعانون من فقر الدم"،⁴ كما قام البنك العالمي للتنمية سنة 1994م ببعض المقارنات بين المستوى المعيشي في البلدان النامية والبلدان المتطورة ومدى تأثيرها على السكان، مثلا إن توقعات الحياة في اليابان تقارب الثمانين سنة بينما لا تتعدى الخمسين سنة في إفريقيا، ونسبة وفيات الأطفال دون الخامسة من العمر تصل إلى 170 في الألف جنوب آسيا وهي لا تتجاوز 10 في الألف

¹ برنامج الأمم المتحدة، تقرير التنمية البشرية سنة 2005، التعاون الدولي على مفترق الطرق المعونة والتجارة والأمن في عالم متساو، ص42.

² المرجع السابق، ص42.

³ محمد زيدان وبكدي فاطمة، دروس مستفادة من التجربة الماليزية في مكافحة الفقر، جانفي 2010، ص2.

⁴ ينظر المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة: حقوق الإنسان والفقر المدقع، لجنة حقوق الإنسان، الدورة 55، سنة 1998م.

في السويد والجدير بالملاحظة أن أعباء الفقر تقع بصفة خاصة على شريحتي النساء والأطفال وبخاصة الإناث منهم".¹

ودائماً في مجال الفقر الاقتصادي تصادفنا مجموعة أخرى من المفاهيم وضعها البنك الدولي في تقريره الثالث عشر لعام 1990 للفقر أنه:

- عدم القدرة على تحقيق حد أدنى من مستوى المعيشة.

- و هو عدم القدرة على تحقيق مستوى معين من المعيشة المادية والذي يمثل الحد الأدنى المعقول والمقبول في مجتمع من المجتمعات في فترة زمنية محددة.

- و بمفهومه العام والمبسط هو انخفاض مستوى المعيشة عن مستوى معين ضمن معايير اقتصادية واجتماعية والافتقار إلى القدرة على التعليم واكتساب المعارف. وهكذا فإن الجزء المشترك بين جميع تعريفات الفقر (السابقة الذكر) يدور حول مفهوم الحرمان،² وهذا ما يؤكدته تقرير منظمة التنمية العالمية لسنتي 2000 و2001 الذي يرى أن الفقر هو "حالة من الحرمان من المزايا أو الركائز الاقتصادية والاجتماعية والبشرية ويشمل الأصول الاقتصادية والمادية، الأرض [...] والسكن والمهارات والصحة الجيدة والعمل وغيرها من العناصر المادية التي توفر قاعدة لتوليد الدخل والإنتاج سواء في الحاضر أو في المستقبل"،³ وهو أيضا "عجز الأفراد أو الأسرة الموجودة في المجتمع عجزاً تاماً عن توفير الحد الأدنى من الموارد أو القدرة على تحقيق أقل قدر من الإشباع للحاجات

¹ إسماعيل قيرة، عولمة الفقر، دار الفجر للنشر والتوزيع، النهضة الجديدة، القاهرة، 2003م، ص18.

² صادق علي طعان، الفقر الاقتصادي والفقر المعرفي، مقارنة اقتصادية، ص33.

³ برنامج الأمم المتحدة، تقرير التنمية البشرية سنة 2005، التعاون الدولي على مفترق الطرق المعونة والتجارة والأمن في عالم متساو، ص42.

الأساسية أو الضروريات التي تمكنهم من البقاء على قيد الحياة ومزاولة أعمالهم، وقد تم استنتاج الفقر على أنه قصور القدرة الإنسانية¹.

(2) أنواع الفقر:

تنوعت مفاهيم كلمة "فقر" وتطورت عبر العصور ومع ظهور الثورة الصناعية في أوروبا في حوالي القرن الثامن عشر حيث تغيرت الأوضاع على مختلف الأصعدة، مما أدى إلى ظهور عدة أنظمة اقتصادية وسياسية واجتماعية وإيديولوجية ومن ثم لم تتوقف التطورات والتغيرات في العالم إلى يومنا هذا مما أدى إلى وجود أنواع عدة من الفقر، رغم اتفاق الأغلبية الساحقة من الباحثين على أنه (الفقر) الحاجة والعوز والحرمان والشح والضعف... إلخ، ومن أهم أنواع الفقر نذكر ما يلي:

(1.2) الفقر المطلق والفقر النسبي:

لقد ميز علماء الاقتصاد بين نوعين من الفقر: الفقر المطلق والفقر النسبي.

(1.1.2) الفقر المطلق (المدقع):

وهو "البؤس وشدة الفقر، لا مسكن له ولا طعام ولا حاجات أساسية أخرى"²، وقد فضل البعض لفظتي "معدم" و"محتاج" لأنها أكثر شمولاً من معنى الفقر، لأن لفظ "المعدم"

¹ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة حالة صندوق الزكاة في الجزائر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، قسم العلوم الاقتصادية سنة 2010/2011، ص 14.

² صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، ص 10.

يشير إلى الفقر المطلق، بينما "الحرمان" بشكل عام هو صفة الحاجة غير المشبعة و"الفقر الكادح" غالبا ما يوصف أيضا بأنه مستحق للمساعدة"،¹ أما "ماركس" فقد طرح قضية "الإفقار" في كتابه "رأس المال" [...] وما يسميه "ماركس" "الإفقار": هو ميل نحو الاستئجار المطرد كما تم وصف ظروف الأجير بعبارات الاستغلال والبطالة، وضمن هذا الاتجاه ينجم الإفقار عن ثلاث سياقات:

- سياق الاستغلال أي سياق قوة العمل التي يتمكن فيها الرأسمالي من الحصول على فائض قيمة الرأسمال الموظف.

سياق الاكتظاظ السكاني المتزايد

- سياق تجمع تركز الرأسمال، والنتيجة أن أصحاب المهن المستقلة والحرفيين، صغار، و أصحاب المشاريع، يجدون أنفسهم مستغلين وعاطلين عن العمل".²

2.1.2) الفقر النسبي:

ويرتبط "الفقر النسبي" بالجوع، فالفقراء هم المحرومون من الوصول إلى الموارد المتوافرة أو المحرمون من استخدامها مما يجعلهم غير قادرين على تلبية حاجات أساسية وهذه الحاجات تشمل الغذاء واللباس والمأوى، إضافة إلى التعليم والصحة والمشاركة في الحياة الاجتماعية".³

ويميز "حسين كشك" بين نوعين من الإفقار (الفقر) هما الإفقار المطلق والإفقار النسبي.

¹ صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، ص11.

² المرجع السابق، ، ص11.

³ المرجع السابق، ، ص10.

- الإفقر المطلق: "يعني فصل المنتجين المباشرين (الحرفيين) عن وسائل الإنتاج واستمرار عملية التهميش أو التكدح من جراء سياسات الدولة أو تحت تأثير بعض عناصر البنية الفوقية التي تؤدي إلى تفتيت الملكية، وما ينجر عن ذلك من بطالة وتشغيل أطفال ونساء بأجور زهيدة".¹

- الإفقر النسبي: وهو يعبر عن "اتجاه الأجور الحقيقية نحو الانخفاض، مما يؤدي إلى تدهور أوضاع إعادة إنتاج الوجود الاجتماعي للمنتجين المباشرين وأسرهم، ومنه يمكن القول بأن عملية الإفقر تدل على اتساع الحرمان البشري وإضعاف قدراتهم واستبعادهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي... الخ".²

2.2 (الفقر الحضري والفقر الريفي:

والفقر الحضري هو ظاهرة "مميزة لكل المجتمعات الإنسانية متقدمة أو نامية، ومهما بلغ معدل النمو الاقتصادي بها، مستوى الرفاهية الاقتصادية أو الاجتماعية، فالفقر الحضري إذن صفة طبيعية لطبيعة التمايز الاجتماعي في المدينة ومشكلة حضرية استأثرت ومازالت تستأثر باهتمام الباحثين و الدارسين من مختلف تخصصات العلوم الاجتماعية".³

ومن الملاحظ أن الفقر الحضري ليس بظاهرة جديدة أو وليدة العصر الحديث بل تعود إلى "فجر الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر، والتي تطلبت يد عاملة كبيرة

¹ صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، ص 11.

² المرجع السابق، ، ص 11.

³ المرجع السابق، ، ص 17.

ونتج عن ذلك هجرة الريفيين الفقراء إلى المدن الصناعية، ومع تطور الحياة الحضرية بشكل سريع في دول العالم، بدأت الكثير من المدن تعاني من ظاهرة الفقر خاصة مدن البلدان النامية¹، كما يكون الفقر الحضري أكثر بروزاً في المدينة بسبب تطور الأساليب الحضرية وزيادة اللاتجانس والفردية².

ولعل ما يلفت الانتباه، أن ظاهرة الفقر الحضري "هي ظاهرة ملموسة وواضحة بتلك المناطق المتخلفة والتي تعبر عن تناقضات البناء الاجتماعي الحضري القائم على الاستغلال واللامساواة"³ وقد ورد في تقرير الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية أن معظم فقراء الحضر "يعيشون في مساكن متدنية النوعية مزدحمة، بنيت ذاتياً، وقلماً تصل إليها المرافق العامة [...]؛ يفتقر الفقراء إلى الإمداد بالمياه الصالحة للشرب واللازمة للنظافة ويفتقرون للمواد اللازمة للتخلص من الفضلات والنفايات الأخرى وعدم التمتع بالخدمات التي تدل على الحياة والتنمية الإنسانية (التعليم، الخدمات الصحية، أسواق الغذاء...) إضافة إلى كون الفقراء أكثر عرضة للتلوث الكيميائي والضوضاء، طبيعة مساكنهم تمنعهم من حماية أنفسهم من الأخطار، بل حتى عاداتهم التقليدية تسهم دون قصد في خلق الأمراض والعلل كالنظافة الشخصية، وطريقة تحضير الطعام لأن سوء التغذية وعدم كفاية الغذاء يضعفان مقاومة الجسم للأمراض"⁴.

وفي هذا الصدد، يرى بعض الباحثين أن فقراء المدن يمارسون بعض "الأنشطة الهامشية وغير الرسمية و[يقيمون] في مناطق عشوائية متدهورة و [يتخذون] أرض الحضر انطلاقا

¹ لوجلي صالح الزوي، علم الاجتماع الحضري، منشورات جامعة خان يونس بنغازي، ط1، سنة 2002م، ص37.

² صليحة مقاسوي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، ص18.

³ إبراهيم التوهامي وآخرون، التهميش والعنف الحضري، سلسلة الدراسات الحضرية، مخبر الإنسان والمدينة، جامعة منتوري قسنطينة سنة 2004، ص57.

⁴ برنامج الأمم المتحدة للبيئة ومنظمة الصحة، تحسين أحوال صحة البيئة في المستوطنات الفقيرة، أسلوب مرتكز على المجتمع لتحديد الاحتياجات والأولويات، منشورات منظمة الصحة العالمية بالأوفست رقم 100، سنة 1989م، ص5.

لهم كإطار إيكولوجي مكاني تتفاعل فيه المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية مع البيئة الطبيعية، وفي المقابل، يرى فريق آخر أن فقراء الحضر هم وقود كل ثورة وهم أدوات كل عنف سياسي وهم مصدر تفريغ كافة صور الجريمة والانحراف".¹

"إن هذا الطرح يدفعنا إلى القول بأن ظاهرة الفقر تنمو في سياقات اجتماعية متباينة، وتفرض صوراً متعددة تتمثل أساساً في انتشار الشحاذين والمتشردين والعاطلين عن العمل، وعلى الرغم من أن فقراء الحضر يمثلون نسبة ضئيلة إذا ما قورنوا بفقراء الريف إلا أنهم يتزايدون بوتيرة عالية تحت ضربات الرأسمالية المتخلفة مع احتفال تدني أوضاعهم خلال السنوات القادمة".²

هذا ويعتبر "آدم سميث" (A. Smith) و"ريكاردو" (Ricardo) و"مالتوس" (Malthus) الفقر كثن لتطور الرأسمالية أما بالنسبة لـ"ماركس" (Marx) فإن إفقار الطبقة العاملة يمثل نتيجة حتمية لطبيعة الإنتاج الرأسمالي".³

3.2 (الفقر المادي والفقر المعنوي:

يُقال: "نحن جميعاً فقراء في وقت أو في آخر، ساعة عدم الفهم أو الفشل أو المرض أو الموت".⁴

¹ محمد الجوهري وآخرون، المشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، سنة 1995م، ص60.

² صليحة مقاوسي، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، ص19.

³ La pauvreté urbaine, vice présidence relations internationales (EPFL), Ecole Polytechnique Fédérale de Lausanne, Décembre 2007, Cahier de la coopération n°5, Editeur Jean Claude Bolay, p19.

⁴ الأب برنار أوليفيه، الفقر الإنجيلي ، ص24.

عندما نتحدث عن الفقر فأول ما يتبادر إلى أذهاننا هو الفقر المادي المتمثل في عدم القدرة على الحصول على ما نصبو إليه من ماديّات كالمنازل والسيارات والألبسة الفاخرة والتعلم في أحسن المدارس والجامعات... ولكن ساعة تعرضنا للآلام النفسية وشعورنا بالوحدة وبالملل وحينما تفقد الأشياء معناها وبريقها وتصبح باهتة وقتها فقط ندرك كم نحن فقراء وكم نحن مفلسون روحياً ومعنوياً وهنا فقط نشعر بالفقر الروحي رغم امتلاء محافظتنا بالأوراق النقدية.

لقد انتشر في عصرنا هذا كل من الفقر المادي والفقر المعنوي بشكل ملحوظ، فهل "يلتقي هذان الوجهان من أوجه الفقر: الفقر المادي والفقر الروحي؟ أم أنهما من مستويين مختلفين؟"¹

1.3.2) الفقر المادي:

الفقير مادياً هو من "ليس له شيء ويتحدد أدق من ليس له إلا الحد الأدنى للحياة (أن يأكل عندما يجوع وأن ينام في فراش وأن يلقى العناية عندما يمرض. [...]) الفقر هو العوز أو الفاقة، والعيش يوماً بيوم والحرمان على كافة الأصعدة. الفقر هو أن تكون حياتك مرتبطة بالآخرين، بالمجتمع، بأحداث الحياة ومفاجأتها القاسية أو ليتغلب عليها، فهو يعيش في القلق من الغد".²

¹ الأب برنار أوليفيه، الفقر الإنجيلي ، ص25.

² المرجع السابق ، ص25.

2.3.2 (الفقر الروحي (المعنوي):

في خضم التكنولوجيا الحديثة وصخب الابتكارات السريعة والكثيرة والإعلانات المغرية يجذب إنسان العصر الحديث إلى عالم الماديات رغما عنه ويبتعد شيئا فشيئا، دون أن يعي ذلك أحيانا، عن الدفء الإنساني وعن العلاقة بينه وبين خالقه وينغلق على ذاته مع آله سواء كانت الحاسوب أو الهاتف أو حتى السيارة أحيانا، أو أي شيء آخر يسلب منه وقته وجهده ومع الوقت يجد نفسه وحيدا وشقيا وقلقا ولا معنى لحياته إذ يصبح مثل الآلة التي سجن نفسه فيها مما يؤدي به، في معظم الأوقات، إلى الاكتئاب واليأس وقد يصل إلى حد الانهيار النفسي ثم الانتحار، فما أكثر هذا النوع من الفقر في عصرنا الذي طغت عليه الماديات.

أما في الثقافة المسيحية فالفقير روحيا هو "الإنسان الواثق الذي يتكل على الله في شؤون حياته ويجد سعادته العظمى في الخضوع للإرادة الإلهية ، الفقر الروحي هو الخروج من الذات والتجرد منها"¹، وهو تسليم كل مقاليد الحياة لله حتى يقودها حسب مشيئته وإلغاء الإرادة الذاتية (الإنسانية) لتحل محلها الإرادة الإلهية.

فالفقر الروحي هو شيء إيجابي بل ضرورة في المسيحية حتى يتمكن الإنسان من التقرب من العالم الروحي ومن الله وفي هذا الصدد قال السيد المسيح: "طوبى للمساكين (الفقراء) بالروح لأن لهم ملكوت السموات".²

¹ الأب برنار أوليفيه، الفقر الإنجيلي ، ص27.

² إنجيل متى الإصحاح 5 الآية 3.

* ماجد رحنامه هو باحث وديبلوماسي ووزير إيراني سابقا. ولد بطهران سنة 1924م وتوفي في أبريل 2015. مثل بلده إيران في الأمم المتحدة وفي منظمة اليونسكو، كما كان شديد الاهتمام بموضوع الفقر وكل ما له علاقة به ومن أشهر أعماله: "عندما يطرد البؤس الفقر".

هذا وقد رأى الباحث الإيراني "ماجد رحنامه" (Majid Rahnema) أن هناك ثلاثة أنواع من الفقر هي:

الفقر السهل (La pauvreté conviviale) والفقر الإرادي (La pauvreté volontaire) والفقر الحديث (La pauvreté modernisée).

4.2 (الفقر البسيط أو السهل:

لقد ذهب "ماجد رحنامه" إلى أن الفقر السهل (البسيط) خاص بالمجتمعات التقليدية ذات نظام شبيه بالنظام القبلي الذي عرف في المجتمعات العربية قديما، فهي لا تعترف بالشخص الفردي، إذ لم يكن للفرد أي وجود أو قيمة إلا داخل المجتمع الذي يكون سلسلة متماسكة وموحدة. لم يكن الفقر يؤثر في هذه المجتمعات لأنها كانت قنوعة أولا ثم كانت تهب كرجل واحد لمواجهة الفقر ولذا لم تكن (هذه المجتمعات) تعرف الجوع اللهم إلا في بعض الحالات الاستثنائية كالمجاعات الكبرى ، لقد كان مجتمع "الياكوت" أو "الياقوت" (Les Yakouts) مثلا حسب "ليفى شتراوس" (Levi Strauss) يرفض تصديق إمكانية وجود شخص ما في العالم بإمكانه أن يموت جوعا، لأنه كلما كان أحدهم جائعا باستطاعته الذهاب إلى أي من الجيران ليتقاسم طعامه معه بكل عفوية ودون أي إحراج ، لقد كان مبدأ المشاركة يبعد فكرة الرفض والتهميش.¹

ولم تكن الحياة ضمن هذه المجتمعات مثالية وخالية من العيوب والنقائص ولكن روح التماسك والتعاون كانت تطغى عليها، إذ كان الأشخاص الأقل فقرا فيها يساعدون الأكثر فقرا منهم مما أزال تلك المفارقات بين الأفراد وكان الكل تقريبا يعيش في نفس المستوى، ولكن للأسف، توصل اقتصاد السوق والرأسمالية إلى القضاء نهائيا على الفقر البسيط.²

¹ « Quand la misère chasse la pauvreté » : entretien avec Majid Rahnema par Jean

Tonglet , mercredi 2 fevrier 2011 mis en ligne par Dial.

² المرجع السابق .

5.2 (الفقر الإرادي:

عادة ما يُفرض الفقر على الإنسان، فهو إما أن يقبله عن مضض أو يسعى إلى محاربته للتخلص منه ولكن أن يتجه نحوه بمحض إرادته ويختاره كنظام لحياته فهذا هو الأمر غير العادي ويمكننا اعتبار صاحبه شخصية ماخوية.*

حقيقة، لا يمكن لأي شخص عادي أن ينحو في هذا المنحى اللهم إلا الشخصيات القوية والحكيمة التي لا تطلب حياة التقشف لذاتها بل لأجل تحقيق هدف أسمى وأعظم ومن أهم هذه الشخصيات نذكر الفيلسوف اليوناني "سقراط" والسيد "المسيح" و "رابعة العدوية" و"فرانسوا داسيز" (François d'Assise) وهو ابن أحد التجار الأثرياء في القرن الثالث عشر بإيطاليا وأحد قديسي الكنيسة الكاثوليكية، وكذا "موهنداس غاندي" (Mohandas Gandhi) الذي اختار حياة الفقر والتقشف حتى يناضل من أجل تحرير بلده من الاحتلال البريطاني.¹

وفي العصر الحديث، انتشر الفقر الإرادي في مختلف أنحاء العالم واتخذ أشكالا وتسميات كثيرة ومتنوعة، ففي مدينة "كيبك" (Quebec) بكندا و"بوان فيفير" (Buen vivir) بأمريكا اللاتينية يسمى "البساطة الإرادية" (Simplicité Volontaire) وفي الولايات المتحدة الأمريكية يسمى بـ "الاكتفاء بالحد الأدنى" (minimalism) [...] أو حياة بسيطة في أنحاء أخرى من العالم.² لقد ظهرت حركة "البساطة الإرادية

(Simplicité Volontaire) في كيبك في السبعينات من القرن العشرين وقد كانت بداية إدراك العالم لمختلف التحديات البيئية والاقتصادية وغيرها من العوامل التي كان لها تأثير

* الشخصية الماخوية: شخصية مختلة نفسيا تشعر باللذة عند التعذيب.

¹ Dominique Boisvert, La pauvreté serait-elle l'avenir du monde ? revue « possibles » automne 2016, volume 40, n°2, p119.

² المرجع السابق، ص 119.

كبير على التنمية.¹ وقد جاءت هذه الحركة لتعيد تقييم الأمور وإعادة الاعتبار لبعض القيم الأخلاقية والفكرية والروحية والمعنوية في وسط عالم غارق في الماديات ومحاولة تحرير الإنسان من نفوذها وسيطرتها ليدرك فوائد حياة التقشف وقيمتها.²

كما أعطيت لحركة "البساطة الإرادية" عدة مفاهيم منها:

- أنها إحدى الطرق المعيشية المعتمدة على التقشف في المال وفي الوقت وفي استهلاك الموارد الطبيعية لكوكب الأرض.

- وهي أيضا الاكتشاف بأننا نستطيع العيش أحسن بأقل تكلفة

- ثم هي إجراء فردي لتخفيف الحياة من كل ما يجعلها مزدحمة.

- هي اختيار إعطاء الأولوية للكائن على الموجود وللكفاية بدل التبذير، للعلاقات الإنسانية بدل الماديات، الاستمتاع بالوقت بدل الجري وراء الوقت لرفع رصيدنا البنكي، المشاركة بدل الاستيلاء، المشاركة بدل الفردية، الاشتراك في مواطنة فعالة ونشطة بدل الاستهلاك السلبي.³

لقد كانت حركة "حياة بسيطة" بمثابة نوع من الدعوة والتحفيز للتقشف في المال والاستهلاك عامة وفي التغذية وفي الترفيه وفي السكن وفي العمل وفي النفايات وفي تنظيم المشاريع...⁴

¹ Dominique Boisvert, La pauvreté serait-elle l'avenir du monde ? revue « possibles » automne 2016, volume 40, n°2, p119, 120.

² المرجع السابق، ص 119.

³ Dominique Boisvert, La pauvreté serait-elle l'avenir du monde ? revue « possibles » automne 2016, volume 40, n°2, p122.

⁴ المرجع السابق، ص 126.

6.2 (الفقر الحدائي:

كان الإنسان في العصور الماضية ينتج لنفسه ولعائلته ولقريته أما الآن فلا يوجد من ينتج لعائلته أو لجماعته، فهو ينتج لكي يصدر و ليجلب العملة الصعبة والربح، وهكذا وصلنا إلى الفضيحة الكبرى في الثمانينات من القرن الماضي أثناء المجاعة الكبرى في إفريقيا، بينما كان الناس يموتون من الجوع كانت كل من الصومال ومصر تصدران أكل القطط والكلاب.¹

وهكذا أسهم الفكر الذاتي (L'individualisme) - السائد في العصر الحديث - بكل قوة في ظهور الفقر المادي والمعنوي.

كما يزعم الخطاب الاقتصادي السائد على الساحة العالمية : إن لم يكن اقتصاد أي بلد مزدهرا ومتطورا فهو فقير إن كان هذا الكلام حقيقيا فكيف نفسر تطور الولايات المتحدة الأمريكية اقتصاديا و احتوائها لحوالي 35 مليون من الفقراء؟² وكان يجد علماء الاقتصاد، حسب "ماجد رحنامه"، صعوبة في فهم صيرورة الاقتصاد الحديث الذي لا يكتفي بالإنتاج الوفير للمواد والسلع فحسب بل ينتج أيضا الندرة والشح بالنسبة للفقراء.³

وبهذا أسهمت الأنظمة الاقتصادية الحالية في ظهور الفقر وانتشاره أكثر في مختلف أنحاء العالم.

¹Jean Tonglet , Quand la misère chasse la pauvreté avec Majid Rahnema, DIAL 3137

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

3 (مستويات الفقر :

يستخدم البنك الدولي طريقة "خط الفقر" لقياس نسب الفقر، فهو "يقوم بتحديد عدد الفقراء الذين يعيشون تحت خط الفقر ومن ثم تحديد نسب الفقراء بالنسبة لإجمالي السكان إلا أن وجود أنواع جديدة من خطوط الفقر يتطلب تحديد رؤية واضحة لتلك الأنواع".¹
ومن أهم خطوط الفقر نذكر:

1.3 (خط الفقر المطلق:

ويتمثل في تلك الحالة التي "لا يستطيع فيها الإنسان عبر التصرف بدخله الوصول إلى إشباع الحاجات الأساسية المتمثلة في الغذاء والسكن والملبس والتعليم والصحة والنقل، كما يمثل [...] كلفة تغطية تلك الحاجات سواء الفرد أو الأسرة وفق نمط الحياة القائمة في المجتمع المعنى بحدوده الدنيا".²

2.3 (خط الفقر النسبي:

وهو يقوم بتحديد درجة الفقر "وفق نسبة معينة من الدخل المتوسط أو بالحد الأعلى لدخل 10% من السكان الأدنى دخلاً، وعليه فإن خط الفقر النسبي يتغير بتغير الدخل من بلد إلى بلد آخر أو من وقت لآخر".³

3.3 (خط الفقر القومي:

وهو يحدد "مقدار الحاجات اللازمة من المواد الغذائية الأساسية والمعدلة في إطار معيار القوة الشرائية والذي يعد معيار مقارنة بين الدول المختلفة".¹

¹ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة، ص 18.

² المرجع السابق، ص 18.

³ المرجع السابق، ص 19.

4.3 (خط الفقر الثابت:

"هو الذي يحدد بمقدار دولار واحد أو دولارين في اليوم وأن تدني مستوى الدخل القومي للفرد الواحد عن هذا المستوى يعد ضمن دائرة الفقر. إن هذا المقياس استخدمه البنك الدولي، إلا أنه غالباً ما لا يأخذ في اعتباره الجنس أو العمر أو الظروف في المجتمع".²

5.3 (خط الفقر المدقع:

والمراد منه هو عدم توصل الإنسان من خلال دخله إلى سد حاجياته الغذائية والمتمثلة في "عدد معين من الأسعار الحرارية التي تمكنه من مواصلة حياته عند حدود معينة. ويمثل خط الفقر المدقع كلفة تغطية الحاجات الغذائية سواء للفرد أو الأسرة وفق النمط الغذائي السائد في المجتمع المعني وبحدود معينة".³

6.3 (خط فقر الغذاء:

لتحديد خط فقر الغذاء، يوجد طرق متعددة [...] نقدم أهمها:

- خط فقر الغذاء الأقل كلفة.
- خط فقر الغذاء على أساس النفقات.⁴

¹ المرجع السابق ، ص 19.

² حفصي بونبعو ياسين ، ص 20.

³ المرجع السابق، ص 20.

⁴ حفصي بونبعو ياسين، ص 20.

وفي هذا الإطار نشر برنامج الأمم المتحدة للتنمية سنة 1998م أشكالاً أخرى من الفقر في تقرير له بعنوان: "التغلب على الفقر الإنساني" ومن بينها:

- الفقر الإنساني: بمعنى انعدام القدرات الإنسانية الضرورية من قراءة وكتابة.
- الفقر في الدخل: أي نقص الحد الأدنى الكافي من الدخل أو النفقات.
- الفقر الشديد: وهو العوز أو الفقر المدقع وعدم القدرة على سد الحد الأدنى من الاحتياجات الغذائية...¹

من خلال ما سبق نستنتج أن منظمة الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات العالمية معنية بشكل كبير بموضوع الفقر والفقراء علماً أنها تصل إلى إيجاد بعض الحلول للإنقاص من هذه الظاهرة التي تزداد نسبها أكثر فأكثر.

4 (أسباب الفقر:

هناك مجموعة من العوامل وأسباب المسهمة في حدوث ظاهرة الفقر و هي تتنوع بتنوعها ، فهي "ذات طابع تاريخي أو اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي، وتعتبر تلك الأبعاد ذات تأثير قوي على الفرد والمجتمع".²

و من بين هذه الأسباب نذكر:

¹ روبنز ريكوبيرو، الأزمة النهائية والمثلث لهذا القرن، رسالة اليونيسكو، صفقة جديدة للفقراء، منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة (اليونسكو)، العدد 17، باريس، 1999م، ص22.

² صادق علي طعان، الفقر الاقتصادي والفقر المعرفي، مقارنة اقتصادية، ص33.

1.4 (الأسباب الاجتماعية للفقر:

لا يمكن لظاهرة الفقر أن توجد في أي مجتمع وتنتشر فيه إلا إذا وجدت التربة الخصبة التي تمكنها من العيش والنمو، كالمبادئ التي يقوم عليها المجتمع من حيث المساواة واللامساواة بين الأفراد وعدم "تقديم الخدمات مثل الرعاية الصحية والتعليم وفرص العمل [...] التي تعبر من أهم الأسباب المؤدية لظهور الفقر"،¹ زد على ذلك، النظام الطبقي المبني على التمايز والتفاضل بين أفراد المجتمع الواحد الذي يمنع من وجود مشاركة فعالة وفعلية لكل الأفراد في مختلف المشاريع التنموية للبلاد.²

هذا وقد اهتمت الدارسون حاليا إلى العلاقة الكامنة بين المشكلات التربوية والثقافية لبلد معين و"التحولات الاقتصادية والاجتماعية وليس من قبيل الصدفة أن نلاحظ العلاقة الجدلية بين الجوع والأمية والتخلف الاقتصادي، ولابد هنا من أخذ مفهوم التربية أو التعليم في علاقته بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية [...] وتعلمنا دروس التاريخ أن الانعكاسات الحضارية والتاريخية التي منيت ومازالت ترسف تحتها الأمة العربية تعود في أغلبها إن لم تكن كلها إلى حالة التخلف والجهل والتبعية التي تقف كشاهد عيان على فشل تلك المشاريع الفكرية العربية"،³ ويرى أحد الباحثين الغربيين أنه لا يمكننا مشاهدة تلك الحشود الكبيرة من الناس ذوي المستويات التعليمية الضعيفة جدا إلا في البلدان الفقيرة، حيث يكون التكوين العام محدودا جدا ونسبة الذين لم يتموا المرحلة الابتدائية معتبرة، فالتكوين المهني قليل جدا مما أدى إلى عدم امتلاك اليد

¹ حاج قويدر قورين، ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي في ظل الطفرة المالية، البطالة والتضخم، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد 12، جوان 2014، ص18.

² المرجع السابق، ص18.

³ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي وإشكالية محاربته، ص4.

العاملة المؤهلة ومن ثم يكون الإنتاج قليلا،¹ ولا تختلف المجتمعات كثيرا في هذا المجال، "فلاحظ أن ظاهرة الفقر المزمن بين العديد من العائلات ترجع بشكل أساسي إلى الأمية ونظرا لضعف تعليم الوالدين وقلة إدراكهم لعملية التعليم أو عدم امتلاكهم الموارد التي تسمح بتوفيره لذريتهم أو عدم قدرتهم على التضحية بالحاضر - العمل المنزلي أو في المزرعة- من أجل مستقبل أفضل فإن الأولاد يكونون أيضا غير متعلمين ما يعزز استمرار ظاهرة الفقر من جيل لآخر ضمن العائلة الواحدة".²

1.1.4) معضلة الانفجار السكاني :

بالإضافة إلى ذلك، "تعتبر ظاهرة الانفجار السكاني من بين الظواهر التي تسرع في عولمة الفقر، بحيث أنها أصبحت قضية عالمية تؤرق المجتمع الدولي بأسره وتعتبر من أخطر المشاكل التي عرفها الجنس البشري وتتخلص هذه المشكلة في أن الحياة على الكرة الأرضية لا يمكنها أن تتحمل أكثر من ستة مليارات من البشر الآخذين في التزايد بمعدلات هندسية غير معقولة بحيث سيصبح عدد سكان العالم 10 مليارات خلال السنوات القادمة، فالعالم الذي يضم حاليا أكبر عدد من الفقراء، ونسبة الفقراء من إجمالي سكان الأرض هي الأعلى في التاريخ، فلقد أصبح الفقر في حد ذاته فقرا مطلقا ومركبا لیتضمن الحرمان من كل مقومات الحياة. أما عدد الدول الفقيرة حيث معدل دخل الفرد لا يزيد على 400 دولار سنويا فقد بلغ 80 دولة من أصل 195 دولة في العالم من بينها 30 دولة هي الأكثر فقرا وتسمى دول حزام البؤس، تواجه الدول المتخلفة بلا استثناء انفجار سكاني وإن اختلفت درجته وحدته، وقد بدأ هذا الانفجار يظهر بحدة منذ نهاية

¹ Jean Labbens, Sociologie de la pauvreté, Le tiers monde et le quart monde, n r f Gallimard, p214.

² عبد الرزاق الفارس، الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربي ، ص 82.

الحرب العالمية الثانية"¹ ولم يتوقف المشكل عند هذا الحد بل مس أيضا حجم الأسرة ولاسيما في البلدان النامية والمتخلفة، إذ كثيرا ما يؤدي "كبر حجم الأسرة وارتفاع معدلات الإعالة إلى زيادة الأعباء على نفقات الأسرة وبالتالي مواجهة حالة العجز عن توفير كل متطلبات الأسرة ذات الحجم الكبير وقد تزداد حالة العجز هذه باستمرار وتتفاقم وينتج عنها الفقر بآتم معناه"²، مما ينجم عليه مشاكل كثيرة ومتنوعة .

2.1.4 (معضلة نقص التغذية :

وتتجلى هذه المعضلة خاصة في البلدان النامية والفقيرة حيث تكون تغذية الطبقات البسيطة، في الغالب، ناقصة، كما ونوعا ، لأن الإنتاج الفلاحي ضعيف جدا، زد على ذلك وضعية السكنات وحال النظافة المزريتان، وعليه "فإن هؤلاء العمال لا يتمتعون بصحة جيدة تسمح لهم برفع المردود، إن القدرات الفكرية وبوادر الإبداع تتأثر بنقص التغذية وغياب البروتينات والفيتامينات وهذا دون أن نشير إلى قلة التغذية في السنوات الأولى من عمر الإنسان"³، هذا وقد أشارت الدراسة الاجتماعية والاقتصادية الموسعة التي قامت بها الأمم المتحدة لغرب آسيا عن السكان و المواد الغذائية والبيئة في الوطن العربي، "على أن العرب يعانون مشكلات جوهرية أهمها [...] الكساد واتساع مساحة الفقر والامية والتخلف التقني وفقدان الأمن الغذائي والمائي، ولقد استغربت هذه الدراسة في بحثها عن سوء التغذية في الوطن العربي من أن العرب

¹ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة ، ص32.

² شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي وإشكالية محاربته ، ص4.

³ Jean Labbens, Sociologie de la pauvreté , pp213, 214.

يستوردون 17% من حجم التجارة العالمية للحبوب، في حين أنهم يشكلون فقط 4.6% من مجموع سكان العالم.¹

3.1.4 (معضلة التهميش والحرمان:

لقد أسهمت هذه المشكلة في رفع نسبة الفقر في المجتمعات النامية والمتخلفة ولاسيما في وسط النساء والأطفال الذين يُحرمون من التعليم والعمل، ففي العالم العربي فقط يوجد أكثر من 80 مليون عربي يعيشون تحت مستوى خط الفقر، مع وجود أكثر من 60 مليون عربي لا يحصلون على الغذاء الكافي وحرمان معظم سكان المناطق الريفية العربية من المياه النقية وعدم حصولها على الخدمات الصحية²، وقد قال أحد الفلاحين المصريين: "عندما تعطش الأرض يجوع الفلاح" وهكذا يوجد في مصر العديد من النقائص وانتشار بعض الأمراض الناتجة عن سوء التغذية وأخرى طفيلية بسبب نقص النظافة.³

4.1.4 (معضلة البطالة:

قال أحد الدارسين الفرنسيين أن معظم سكان الأحياء القصديرية في فرنسا، وهم من شمال إفريقيا، بطالين وليس لهم من الأكل إلا ما يكفيهم حتى لا يموتوا جوعا،⁴ هذا ورغم قلة الإحصائيات الحديثة عن نسبة البطالة في البلدان العربية عامة إلا أن بعض الدراسات

¹ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة ، ص 38.

² المرجع السابق، ص 38.

³ Charles Richet, Pathologie de la misère, Société de Diffusion Médicale et Scientifique (S.D.M.S), Paris, 1957, p35.

⁴ Charles Richet, Pathologie de la misère, p35.

تشير إلى أن معدل "البطالة الكلية الحالية للقوى العاملة العربية يتراوح ما بين حوالي 11.5% أو ما يقرب من 10 ملايين نسمة وفق تقديرات التقرير الاقتصادي العربي الموحد (الأمانة العامة سنة 1999م) ونحو 14% أو حوالي 12.5 مليون عاطل عن العمل وفق وقائع مؤتمر العمل العربي لمنظمة العمل العربية عام 2000م وهي من أعلى معدلات البطالة في العالم".¹

أما في الدول المتقدمة فمع "ظهور العولمة، وهو التقدم التقني الذي يسمح بزيادة إنتاج الخيرات فإنه بالمقابل لا يخلق مناصب شغل جديدة بل يتسبب في القضاء على بعضها استجابة لما يتطلبه التقدم التكنولوجي الهائل، وضمن هذا السياق، فإن أصحاب الشركات الكبرى لا يأبهون بالجانب الإنساني بقدر ما يتهافون على المزيد من الأرباح مفضلين الاستغناء عن جزء من [عمالهم] وغلق بعض الوحدات التابعة لها فقد أغلقت شركة جنرال موتورز (General Motors) في الولايات المتحدة 21 معملا وسرحت 20000 عاملا و10000 إطارا، كما ألغت شركة "إ ب م" (IBM) 20000 منصب عمل [...]. كما سرحت فرنسا 1800000 عاملا في القطاع الصناعي وبلغت نسبة البطالة 12.3% سنة 2000، ولعل من آثار العولمة والتقدم التكنولوجي تنامي الشركات المتعددة الجنسيات التي تستحوذ على 70% من التجارة العالمية بينما لا تشغل سوى ربع القوة العاملة في العالم".²

وبهذا الشكل تسهم مختلف الأوضاع الاجتماعية السائدة في كل مجتمع سواء المتطور منه أو المتخلف (النامي) في ظهور العديد من المشاكل وعلى رأسها الفقر وكما يقال: تعددت الأسباب والموت واحد.

¹ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي وإشكالية محاربته ، ص4.

² حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة ، ص 34، 35.

2.4 (الأسباب الاقتصادية للفقر:

يعتبر الباحثون المختصون الفقر مشكلة اقتصادية من الدرجة الأولى وتتمثل أساسا في "انخفاض مستوى المعيشة أي انخفاض متوسط استهلاك من سلع و خدمات انخفاضا كبيرا مقارنة بالدول المتقدمة" ¹ " و يرى أحد الباحثين أن "الفقر هو ندرة المادة أو تبديدها أو توزيعها على نحو غير عادل" ² و يعني أيضا "عجز فئة من الأفراد والأسر عن توفير الدخل اللازم للحصول على السلع التي يحتاجون إليها لتحقيق الحد الأدنى من مستوى المعيشة" ³ ويذهب "مالتوس" (Malthus) إلى أن "السكان يزدادون بمتتالية هندسية بينما يزداد الغذاء بمتتالية حسابية" ⁴ مما يؤدي إلى "سريان قانون تناقص الغلة بعد فترة من الزمن" ⁵.

ولابد من الملاحظة أن أي اقتصاد "لا يخلو من ظاهرة الفقر، ولكن اتساع تلك الظاهرة - كما هو الحال في كثير من البلدان العربية- هو الأمر المقلق، إذ يرتبط ذلك بجملة من الأسباب أهمها:

مسألة العدالة الاقتصادية والاجتماعية، فالسياسات الاقتصادية الموجهة لصالح الطبقة الغنية هي إحدى أهم آليات إنتاج الفقر، وأهم السياسات المسببة للفقر هي السياسة النقدية من خلال التأثير في سعر الفائدة في خفض المرتبطة بالاستثمار سواء المحلي أو الأجنبي، ويسبب ذلك انخفاض الطلب على العمالة.

¹ إبراهيم مذكور، معجم العلوم الاجتماعية، الهيئة العامة للكتاب، 1975، ص433.

² فيليب عطية، أمراض الفقر و المشكلات الصحية في العالم الثالث، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت 1992، ص 10.

³ حصروري نادية، تحليل و قياس الفقر في الجزائر، جامعة منتوري قسنطينة، 2008- 2009، ص 16.

⁴ علي وهب، خصائص الفقر و الأزمات الاقتصادية في العالم الثالث، دار الفكر اللبناني، بيروت 1996، ص35.

⁵ محمد حامد دويدار، أصول الاقتصاد السياسي، الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1996، ص214.

كما يربط بعض الاقتصاديين الجوع وسوء التغذية بالزيادة السكانية الكبيرة في الأقطار العربية وكذا بالتقلبات المناخية التي تؤثر في الإنتاج، فضلا عن قلة فرص العمل وانخفاض مستوى التكنولوجيا الزراعية بالإضافة إلى التذرع بالبعد عن الأسواق الرئيسية للتبادل".¹

ويرى "صموئيل عبود" أن "حالة الفقر والجوع ليست حالة ثابتة وأزلية مع البلدان العربية بل إن أغلب هذه البلدان فقيرة نتيجة لعملية النهب المتواصل التي قامت بها الدول الأوروبية أثناء توسعها الاستعماري والتي مازالت مستمرة إلى وقتنا الحاضر عن طريق ما يسمى بـ "الاستعمار الجديد".²

وفي السياق نفسه يرى "رمزي زكي" أن "التزايد السكاني في العالم الثالث - بما فيه الوطن العربي - ليس خاصية لهذه الشعوب وأن بداية الاحتلال الذي حدث بين النمو السكاني المرتفع ودرجة التقدم الاقتصادي والاجتماعي في هذه الدول كان نتاجا حتميا للاستعمار ونتيجة مترتبة على نشأة رؤوس الأموال الأجنبية داخل هذه الدول".³

وقد قال رئيس جنوب افريقيا "ثابو مبيكي" في مؤتمر الأرض بـ "جوهانسبورغ": "لقد أصبح العالم اليوم جزيرة أغنياء تحيط بها بحار من الفقراء"،⁴ وبهذا الشكل يفوق عدد الفقراء عدد الأغنياء في العالم بعدة أضعاف وذلك بسبب عدم التوزيع العادل والمتكافئ للثروات التي يزخر بها كوكب الأرض القادر - حسب عدد من الخبراء - على تقديم الرفاهية "للسنة مليارات من البشر الذين يعيشون فوقه لو تم توزيعها بالحد الأدنى من

¹ آسيا بلخير، الوطن العربي ومواجهة الفقر من الإرث الاستعماري إلى تحديات العولمة الاقتصادية، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية لبنان، مجلد 38 العدد 439 سبتمبر 2015، ص43.

² صموئيل عبود، خمس مشكلات أساسية لعالم متخلف، دار الحداثة بيروت 1984، ص72.

³ رمزي زكي، المشكلة السكانية والخرافة المالتوسية الجديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 48، 1984، ص 308.

⁴ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي، ص5.

العدالة، إذ تبلغ ثروة ثلاثة من أغنى أغنياء العالم ما يعادل الناتج المحلي لأفقر 48 دولة كما أن ثروة 200 من أغنى الأغنياء تتجاوز نسبتها دخل 41% من سكان العالم مجتمعين، وفي ذلك بيان على أن الفقر في حقيقة الأمر هو الوجهة الأخرى لصور التمايز الاجتماعي واللامساواة [...] الذي ظل ومازال يهدد الحياة البشرية والحضارات الإنسانية¹، بالإضافة إلى صعوبة تحصل الفقراء على قروض بنكية إذ "لا يزالون مستبعدين من مصادر الائتمان، فغالبا ما تتجاوز ضمان الائتمان مقدرة الفقراء، نفس الشيء للحصول على الخدمات العامة والسبب راجع إلى سوء التسيير الإداري، فمن المفروض أن تكون النظم القانونية وسيلة لضمان حقوق الفقراء ولكننا نشاهد العكس فهم مستبعدين بوجه خاص [...] وهو ما يؤدي إلى تهميش الفقراء وتزايد معاناتهم"².

وعلاوة على ذلك، يرجع سبب تدني المستوى المعيشي في البلدان الفقيرة أو النامية إلى "ضعف الإنتاجية المؤدي بدوره إلى ضعف المردودية. ويرى علماء الاقتصاد أن السبب [...] يكمن في سوء إدارة وتسيير الإنتاج"³، زد على ذلك أن هذه البلدان لا تزال تعتمد على الوسائل البدائية سواء في الزراعة أو في الصناعة وغيرها مما دفعها إلى الاعتماد على المواد الأولية كالمحروقات ومختلف المعادن الأخرى، ولكن حصة المحروقات كانت الأكبر إذ تبلغ حوالي 95% من صادرات البلدان الفقيرة، "وقد أدى الاعتماد على مورد واحد للاقتصاد وعدم التنوع إلى تقليص إمكانيات التشغيل للفقراء خاصة عند تدهور الأسعار في الأسواق العالمية وبالتالي إلى تقليص إمكانيات التشغيل للفقراء خاصة عند تدهور الأسعار في الأسواق العالمية وبالتالي إلى تقليص إمكانية زيادة مداخلهم في حين زيادة أسعار المواد الغذائية وهذا يؤثر سلبا على ظروفهم المعيشية"⁴.

¹ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي، ص 5.

² حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة، ص 35، 36.

³ Jean Labbens, Sociologie de la pauvreté , pp 212, 213.

⁴ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة، ص 38.

وقد أدى هذا النمط المعيشي الصعب الذي تعيشه البلدان النامية والفقيرة إلى نتائج وخيمة نذكر منها:

1.2.4 (المديونية الخارجية:

عندما تعجز الدول على بناء اقتصاد قوي يضمن لها الاستقلالية الفعلية والمكانة المرموقة وسط البلدان المتطورة و الغنية، وعندما تفشل في خلق صناعة مزدهرة وأماكن عمل للشباب ومشاريع تنموية تسير بالبلد نحو التطور وتعتمد أساسا على صادراتها من المحروقات أولا ثم من المعادن ثانيا، ستصبح رهينة الأسواق العالمية المرتبطة بالعرض والطلب وكذا ببعض الظروف السياسية العالمية والحروب والأزمات الاقتصادية وغيرها، وهكذا كثيرا ما تجد هذه البلدان نفسها مضطرة للجوء إلى المديونية الخارجية التي ستدخلها في متاهات لا آخر لها مما يؤدي إلى فقدان السيطرة على اقتصادها وعلى "السياسة المالية والنقدية و(إعادة) تنظيم البنك المركزي ووزارة المالية"¹ مما يؤدي إلى تفكك مؤسسات الدولة وتسريح العمال وتقشي البطالة ومن ثم ارتفاع نسبة الفقر.

2.2.4 (التضخم:

وهو "الارتفاع العام في أسعار السلع والخدمات معبرا عنها بالنقود يؤدي إلى انخفاض القدرة الشرائية للنقود وبالتالي تتأثر المداخل الحقيقية للأسر وتصل إلى حالة العجز عن اقتناء كل المتطلبات التي تحتاجها وتصبح ضمن تعداد الفقراء، بغض النظر عن درجة الفقر، فالتضخم سيزيد من عبء الإعالة التي تقع على العاملين في إعالة غير النشيطين في ظروف التضخم المتسارع".²

¹ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة ، ص 40.

² المرجع السابق، ص 39.

3.2.4 (الفساد والبيروقراطية:

من أهم الآفات التي تعاني منها البلدان النامية والفقيرة: البيروقراطية التي تلعب دورا مهما وفعالا في تعطيل العديد من المشاريع التنموية التي يمكنها أن تنعش الاقتصاد وتخلق - ربما - فرص عمل جديدة وإضافية وتخفيض نسبة البطالة وتحسن وضعية بعض العائلات الفقيرة، وذلك بمطالبة المستثمرين بملفات ضخمة تستدعي الرجوع إلى مصالح كثيرة ومكاتب إدارية عدة للتمكن من تكوينه وهذا ما ينهك المستثمر في أغلب الأحيان ويجعله يتخلى عن مشروعه أو يلجأ إلى طرق أخرى كالرشوة والوساطة إلى غير ذلك، وهكذا تسهم البيروقراطية في خلق الفساد في هذه البلدان.

"وقد رصد تقرير الفساد لعام 2005م الذي يصدر عن منظمة الشفافية العالمية، أربعة جوانب يؤثر فيها الفساد بدرجة كبيرة جدا على البنية التحتية ومن ثم على تكلفة الخدمات بالنسبة للفقراء من خلال رفعه لتكلفة رأس المال، تتمثل في أن:

(أ) الفساد يؤخر ويقلص الإنفاق الاستثماري على البنية التحتية على المستوى الكوني.
(ب) الفساد يقلص النمو الذي يتم تخليقه عبر الإنفاق على الاستثمارات في البنية التحتية.

(ج) الفساد يرفع تكلفة تشغيل المستوى المتوافر من خدمات البنية التحتية.
(د) الفساد يقلل نوعية ومستوى البنية التحتية ويقلص القدرة على الاستفادة منها خصوصا بالنسبة للفقراء، فالفساد يؤدي الفقراء بشكل غير مباشر لأنه يعرقل النمو الاقتصادي ويكرس عدم المساواة ويلحق الأذى بتوزيع الإنفاق العام.

ومن خلال قنوات أخرى عديدة، فإنه يقف عائقا أمام تخفيف حدة الفقر".¹

¹ شريف غياط وعبد المالك مهري، مشكلة الفقر في العالم العربي ، ص5.

3.4 (الأسباب السياسية للفقر :

تتنوع الأسباب السياسية المتسببة في فقر المجتمعات والدول، فمن أنظمة حكم جائرة إلى حالات اللاأستقرار والحروب والأزمات السياسية وغيرها.

كثيرا ما تمسك الأنظمة الديكتاتورية بقبضة من حديد أسباب الرفاهية والازدهار فتجعل الثروة في يد الأقلية من الناس بينما تبقى الأغلبية الساحقة محرومة من الضروريات، أحيانا، زد على ذلك، بعض الأزمات السياسية التي تنشب بين بعض البلدان وغالبا ما تنتهي بفرض الحصار على البلاد النامية أو الفقيرة مما يتسبب في توقيف أي "نشاط أو استثمار وبالتالي لا يجد أفراد المجتمع أمامهم إلا الموارد المتاحة لهم والمحدودة وبالتالي يصلوا إلى مرحلة الفقر المطلق".¹

وأما في حالات الحروب واللاأستقرار فغالبا ما تتعرض البلدان خاصة الفقيرة منها إلى التفكك الذي ينجم عنه "مشكلة اللاجئين الذين يضطرون للهجرة وتزايد حدة الفوارق الاجتماعية والطبقية بين أفراد المجتمع الواحد، فتتدنى أوضاع التنمية البشرية وبخاصة فيما يتعلق بالتعليم والصحة والإسكان والرعاية الاجتماعية ومما يفاقم أكثر هذه الوضعية هو الانفجار السكاني الذي يزيد في مثل هذه الحالة بوتيرة أعلى من الحالات العادية، مثل ما حدث في "روندا" منتصف التسعينات أو في جنوب السودان حيث دامت الحرب الأهلية أكثر من عشرين سنة، أو في الصومال أو في العراق أو في أفغانستان [...] وقد تسببت في انتشار مذهب للفقر والأمراض ومن آثار هذه النزاعات [...] تخصيص جزء كبير من ميزانيتها الوطنية للتسلح وذلك على حساب الخدمات الضرورية الأخرى".²

¹ حاج قويدر قورين، ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي ، ص18.

² حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة ، ص 40، 41.

4.4 (الأسباب البيئية للفقر:

قد تبدو لنا، الأسباب البيئية للفقر، أمرا عجيبا فعلا، إذ اعتدنا على حصر أسباب الفقر في الأسباب الاقتصادية والاجتماعية وعليه فإن هذه الأسباب (البيئية) هي وليدة العصر الحديث أسهمت في وجودها المصانع الكبرى وعدد السيارات الضخم وبعض السلوك السلبي وغيرها مما أدى إلى "ندرة المياه وسوء توزيعها بإنصاف والتصحّر وتدهور الأراضي القاحلة والكوارث الطبيعية والأمراض المتنقلة عبر المياه أو تلوث الهواء، وبعبارة مختصرة مجمل التحديات البيئية تضر بالدرجة الأولى الفقراء".¹

بالإضافة إلى ذلك، تتركز ظاهرة الفقر "بصفة عامة في الأرياف، نظرا للفوارق الموجودة بين المداخل الحضرية والريفية والتي تتزايد بفعل انخفاض الدخل الحقيقي لسكان الأرياف وبالتالي انخفاض الأجور الحقيقية".²

وعلى العموم تنتشر ظاهرة الفقر في المناطق الريفية أكثر من المدن مما يدفع بسكان القرى والأرياف للهجرة إلى المدن الكبرى وهذا ما يسبب ظهور الأكواخ والأحياء القصديرية في المدن الكبرى،³ مع العلم أن حال معظم هؤلاء المهاجرين لم تكن تتحسن بل بالعكس تزداد سوءًا وتدهورا، حسب الكثير من الدراسات ومن بينها دراسة صدرت عن منظمة "الاسكو" عن "واقع الحياة في المدن العربية الكبرى على أن العديد من هذه المدن تشهد تدهورا لأحوال المعيشة عموما ، وانتشار الفقر الحاد وانخفاض نصيب الفرد من الدخل وارتفاع معدلات البطالة إلى جانب افتقار الحيز العمراني للمعيشة إلى الخدمات

¹ بوساق كريمة، سياسات مكافحة الفقر بالدول النامية، حالة الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير 2004/2003م، ص113.

² بوعويّنة سليمة، ظاهرة الفقر وانتشارها في الجزائر، جامعة الجزائر كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، 2013م، ص23.

³ مكافحة الفقر في الدول اليورومتوسطية، تقرير المجلس الاقتصادي الاجتماعي ، بروكسل، سبتمبر 2006، ص14.

الأساسية كالمياه والمرافق الصحية والكهرباء والطرق مما يؤدي إلى تدهور البيئة الحضرية".¹

5 (انتشار ظاهرة الفقر في العالم:

رغم التطورات التي يشهدها العالم حالياً في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية إلا أن الإحصاءات تبين ارتفاع عدد الفقراء واستفحال ظاهرة الفقر في مختلف أنحاء المعمورة ، وقد ورد عن البنك العالمي أن عدد الفقراء في العالم بلغ حوالي بليون فرداً، وقد عرف البنك الدولي الدول المنخفضة الدخل أي الفقيرة "بأنها تلك الدول التي ينخفض فيها دخل الفرد عن 600 دولار [سنوياً] وعددها 45 دولة معظمها في إفريقيا منها 15 دولة يقل فيها متوسط دخل الفرد عن 300 دولار سنوياً،"² كما يضيف برنامج الإنماء للأمم المتحدة "معايير أخرى تعبر مباشرة عن مستوى رفاهية الإنسان ونوعية الحياة (Livelihood) هذا الدليل وسع دائرة الفقر بمفهوم نوعية الحياة لتضم داخلها 70 دولة من دول العالم، أي هناك حوالي 45% من الفقراء يعيشون في مجتمعات غير منخفضة الدخل [...] ويكتفي هنا بذكر أن 30 مليون فرداً يعيشون تحت خط الفقر في الولايات المتحدة الأمريكية (15% من السكان)"،³ أما في البلدان الآسيوية، وعلى رأسها الهند فهي تضم حوالي 630 مليون شخص يعيش في فقر مدقع و"أكثر من نصف سكان بنغلاديش البالغ عددهم 92 مليوناً من البشر يعيشون دون مستوى الكفاف، وتنتقل وكالة رويتر للأخبار أن 10% من سكان العاصمة داكا والبالغ عددهم 2.5 مليون نسمة هم من الشحاذين".⁴

¹ عبد الرزاق الفارس، الفقر وتوزيع الدخل في الوطن العربية ، ص 22.

² World Bank Sees Progress Against Extreme Poverty, But Flags Vulnerabilities, The World Bank, February 29, 2012.

³ المرجع السابق.

⁴ جريدة الأنوار البيروتية اليومية، العدد 16، تشرين الثاني نوفمبر 1982م، ص12، 13.

وفي سنة 1995 قدر عدد المعدمين في العالم بمليار و180 مليون نسمة أغلبهم من الآسيويين والأمريكيين واللاتينيين والإفريقيين والشرق أوسطيين، وإذا رفعنا دخل الفقير من 1 دولار إلى 3 دولار في اليوم نجد أن متوسط دخل الفرد أقل من ذلك في 57 دولة وفقا لبيانات تقرير التنمية للعالم سنة 1997 وهي تضم نسبة 63% من إجمالي سكان المعمورة، فيما عدا ثلاث بلدان أوروبية لا يتجاوز سكانها 10 ملايين نسمة هي "مولدوفا" و"مقدونيا" و"ألبانيا" ودول عربية كبيرة كـ "اليمن" و"موريتانيا" و "السودان" و"مصر".¹

ومن ناحية أخرى "أفاد تقرير اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية والكاريبي، أن أكثر من 36% من سكان بلدان هذه المنطقة يعيشون في الفقر، فضلا عن تردي أوضاع الفقراء وتزايدهم بوتيرة عالية في كل من إفريقيا وجنوب شرق آسيا ولقد ارتبط هذا التزايد بانتشار ظاهرة الجوع ووفاة الأطفال في كثير من البلدان النامية بسبب قلة الموارد أو سوء التغذية وضعف الرعاية الصحية فضلا عن ذلك تشير تقارير المنظمات الدولية إلى توقعات الحياة في اليابان تقارب الثمانين عاما في حين لا تتعدى الخمسين في إفريقيا، كما أن نسبة وفيات الأطفال دون الخمس سنوات تصل إلى حوالي 170 في الألف في دول جنوب آسيا".²

ومن الملاحظ أن أكبر نسبة من هؤلاء الفقراء هم من النساء اللائي لا يزلن إلى حد الساعة تعاني من التهميش والضغط الاجتماعي المختلفة، وتشير بعض التقارير إلى أن حوالي 60% من فقراء العالم هم من النساء وأن عدد اللائي يقمن بإعالة أسرهن في تزايد وبلغ في بعض البلدان إلى الثلث.³

¹ المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، معهد التخطيط القومي، مصر القاهرة، المجلد الرابع، العدد الأول، 2003، ص13.

² حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة، ص25.

³ المرجع السابق، ص25.

أما في البلدان المتطورة، فقد أكد تقرير معهد "خبز من أجل العالم" أنه يوجد في الولايات المتحدة الأمريكية حوالي 31 مليون شخصا يعانون الجوع، وجاء في التقرير أن "برنامج الجوع 2000" الذي أنجزه المعهد ذاته أن نسبة الجائعين ضمن العائلات الأمريكية بلغت 3.6% فيما بلغت نسبة العائلات التي تعيش على حافة الجوع 10.2%¹ ومن هنا نستنتج أنه مهما بلغت البلدان الأوروبية من تطور على المستوى الاجتماعي والاقتصادي وغيرها فإن الفقر لا يزال موجودا بشكل ملحوظ وأن حسب تقرير المجموعة الأوروبية عن الحماية الاجتماعية والضمان الاجتماعي لسنة 2005م فإن أكثر من 68 مليون شخص (15% من عدد سكان أوروبا) مهددين بأن يصبحوا فقراء.² وبهذا يصبح الفقر ظاهرة عالمية، إذ غزا كل القارات وكل البلدان حتى الأكثر تطورا منها كالولايات المتحدة الأمريكية وغيرها.

6 (نتائج الفقر:

ومن جراء الفقر ينجم العديد من الآفات والنتائج السلبية التي كثيرا ما تكون جد وخيمة على المجتمعات ومن بينها نذكر:

¹ حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة ، ص25.

² مكافحة الفقر اليورومتوسطي، ص8.

1.6 (سوء التغذية:

يقول "هلفدن ماهر"، المدير العام لمنظمة الصحة العالمية: "سوء التغذية هو في الوقت نفسه أحد نتائج الظلم الاجتماعي وأحد العوامل التي تسهم في بقاء هذا الظلم".¹

انتشرت ظاهرة سوء التغذية بشكل ملحوظ في مختلف أنحاء العالم ولاسيما في البلدان النامية، لقد جاء في أحد تقارير "الفاو" أن أكثر من مليار نسمة في العالم لا يحصلون على كفايتهم من الغذاء، وجاء في الأرقام المقدمة إلى مؤتمر باريس للدول الأقل نموا المنعقد سنة 1982 أن 63% من سكان آسيا و 61% من سكان إفريقيا و 36% من سكان أمريكا اللاتينية و 33% من سكان الشرق الأوسط يواجهون حالة الجوع.²

كما تعتبر مشكلة الغذاء في العالم من أهم المشكلات نظرا لتزايد معدلات النمو السكاني وبالتالي معدلات الطلب على الغذاء "ويوجد في العالم الآن ما لا يقل عن 500 مليون فردا يعانون إما من حالة الجوع المطلق أو الجوع النسبي أو سوء التغذية"،³ ويتواجد معظم هؤلاء في البلدان النامية والفقيرة.

2.6 (استغلال الطفولة:

نظرا لسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ولانتشار الفقر خاصة في البلدان النامية والفقيرة، يضطر الأطفال لترك مدارسهم في سن مبكرة والالتحاق بعالم الشغل حيث يقومون بأية مهمة أو أي عمل إذ المهم بالنسبة إليهم هو مساعدة أوليائهم، فكم من طفل

¹ نبيل صبحي الطويل، الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ط1، 1985م، ص68.

² كاميل حسن، مأساة البلدان النامية "الجوع في عالم الوفرة" مجلة الأمة العدد 52 عام 1405هـ، ص76-79.

³ فرانسيس مولاييه وجوزيف كوليز، صناعة الجوع، ترجمة: أحمد حسان، كتاب عالم المعرفة، العدد 64 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1404هـ، ص18.

نصادفه وهو يهرع لمسح زجاج السيارات أو أمام طاولة لبيع السجائر أو بيع الخبز أو أي مادة أخرى، وهناك العديد من المستخدمين الذين يستغلون ظروف هؤلاء الأطفال الصعبة ليشغلهم في مصانعهم أو ورشهم، دون تأمين اجتماعي يضمن لهم حقوقهم لأن القانون في معظم بلدان العالم يمنع تشغيل الأطفال.

بالإضافة إلى هؤلاء، هناك أطفال تخلى عنهم أولياؤهم بسبب فقرهم الشديد وعجزهم عن التكفل بهم ومن ثم أصبح مأواهم الوحيد هو الشارع وهكذا لقبوا بأطفال الشوارع. "إن وضعية أطفال الشوارع هي من أعقد مظاهر الفقر جميعها، فالطفل يغادر تماما المدرسة [أو لا يدخلها على الإطلاق] ويجد نفسه مضطرا لتدبر قوت يومه من أجل العيش [...] ومن أجل أن يعيش دائما يجد نفسه يبحث عن إقامة توازنات تسمح له بتخفيف الضغط عليه من خلال اللجوء إلى المخدرات"¹ التي تجبره على السرقة والعنف.

3.6 (الفقر والعنف:

بالإضافة إلى أبعاده الاقتصادية فإن الفقر هو " جملة من الضغوطات النفسية ومظهر من مظاهر الإقصاء الاجتماعي بمختلف صوره التي يكون لها أثرا خطيرا في حياة الجماعة على السواء لأن هذه الحالة قد تكون تربة صالحة للتطور باتجاه مزيد من التطرف و الانحراف و العدوانية"² وكثيرا ما يبحث الفقير عن وسيلة تنسيه حاضره وواقعه فيلجأ إلى المخدرات أو إلى الخمر وغيرها من الأساليب التي بإمكانها أن توفر له الراحة والمتعة الوقتية ولكن سرعان ما يزول مفعولها و يرجع إلى واقعه المرير الذي لم يعد قادرا على تقبله ولا تحمله مما يولد العنف والعدوانية في نفسه و يحقد على كل من

¹ سامية قطوش، معضلة الفقر آثارها ومظاهرها، جامعة الجزائر ،موقع <https://www.academia.edu>

² حاج قويدر قورين، ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي.

حواله وكثيرا ما يتطور هذا الشعور إلى عنف ، وبهذا يكون الفقر خطرا على "الفكر الإنساني [...] وعلى الأسرة وعلى تكوينها واستمرارها وعلى تماسكها، الفقر خطر على المجتمع واستقراره".¹

زيادة لما سبق، من نتائج الفقر، يمكننا ملاحظة:

- ظهور الأمية وانخفاض مستوى المهارة.
- ظهور وانتشار الأمراض وانخفاض مستوى الرعاية الصحية مما يؤدي إلى ارتفاع معدل الوفيات.
- تدني مستوى الإسكان.
- قلة فرص التعليم.
- نقص القدرة والضعف الجزئي والكلي على المشاركة بفاعلية في الحياة الاجتماعية والاستمتاع بثمر التطور الحضاري والتنمية.²

هكذا كان للفقر آثار سلبية للغاية بل مدمرة على الفرد وعلى المجتمع مما دفع العديد من المنظمات والهيئات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية من مختلف أنحاء العالم للعمل على قدم وساق من أجل إيجاد حلول ناجعة للحد من ظاهرة الفقر أو على الأقل للتخفيف من شدتها.

¹ مفهوم الفقر وأنواعه، الملتقى الدولي حول الفقر، جامعة البليدة، 2 سبتمبر 2007، ص6، 7.

² حاج قويدر قورين، ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي، ص18.

7 (مكافحة الفقر:

نظرا لنتائج الفقر الوخيمة على الإنسان عامة سواء في البلدان النامية والفقيرة أو في البلدان المتطورة والتي قد تهدد أمن واستقرار الشعوب وقد تدخلهم في متاهات يصعب الخروج منها، قامت مختلف المنظمات العالمية (الأمم المتحدة ومنظماتها) والبنك العالمي بتنظيم برامج تسمح لها بمعالجة هذا المشكل العويص والمعقد.

ففي عام 2000 التزمت البلدان الأعضاء في الأمم المتحدة وعددها 189 بلدا بالأهداف الإنمائية للألفية الجديدة (MDGS)* وهي عبارة عن سلسلة من الأهداف الملموسة لتخفيض أعداد الفقراء، وفيما يلي الأهداف الثمانية التي كان يُطمح إلى تحقيقها بحلول عام 2015:

- تقليص نسبة الفقراء الذين يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم ويعانون من الجوع لتصل إلى نصف ما كانت عليه في عام 1990م.
- إكمال الأولاد والبنات على حد سواء لتعليمهم الابتدائي.
- القضاء على التفرقة بين الجنسين على جميع المستويات .
- خفض معدل وفيات الأطفال الأقل من خمس سنوات بنسبة الثلثين عن المعدل المسجل في عام 1990م.
- خفض وفيات الأمهات بنسبة الثلثة أرباع عن المعدل المسجل سنة 1990م.
- العمل على الحد من انتشار مرض الإيدز.
- تأسيس شراكة عالمية من أجل التنمية".¹

*Millenium Development Goals

¹ نحو مجتمع المعرفة، سلسلة دراسات يصدرها مركز الإنتاج الإعلامي جامعة الملك عبد العزيز، العدد 13، بعنوان مكافحة الفقر، جدة، 1427هـ، ص81، 82.

كما قام البنك العالمي بإعداد برامج مساعدات خاصة بكل بلد من أجل "تحسين فاعلية مشروعاته في البلدان النامية ويتم ذلك عن طريق استراتيجية المساعدة القطرية (CAS : Country Assistance Strategy) وهي عبارة عن خطة عمل أعدها البنك الدولي بالتشاور مع الحكومة وأصحاب المصلحة الحقيقية والشركاء الخارجيين لتدعيم النمو القابل للاستثمار وتخفيض أعداد الفقراء".¹ زد على ذلك قيام (البنك العالمي) بمحاولة تخفيض الديون التي تعاني منها البلدان الأكثر فقرا في العالم (The Heavily Indebted Poor Country HIPC) وذلك ابتداء من أفريل سنة 2004م،² وفي هذا السياق كون الوزير الأول البريطاني السابق "توني بلير" (Tony Blair) "لجنة إفريقيا" التي أصدرت قرارا تدعو فيه إلى ضرورة إعفاء البلدان الأفقر في العالم من ديونها بنسبة 100% ومضاعفة المساعدات المقدمة للبلدان الإفريقية لتصل إلى 8.6 مليار دولار بحلول عام 2010م على شرط أن يعلن القادة الأفارقة التزامهم بوجود حكومات نزيهة في أوطانهم.³

وكذا العمل على "إنهاء المشاكل الداخلية المتمثلة في الحروب والنزاعات الحدودية والقبلية والقضاء على عوامل الفساد"⁴ وبالطبع يقترح البنك الدولي على البلدان الغنية أن ترفع من مستوى المعونة وتحرير التجارة العالمية.⁵

ومن أجل مكافحة الفقر، حاول معهد الأمم المتحدة للبحوث والتنمية الاجتماعية من خلال السياسة الاجتماعية التحويلية التي لا يمكنها أن تكون فعالة عن طريق تأمين حياة الفقراء

¹ نحو مجتمع المعرفة، سلسلة دراسات يصدرها مركز الإنتاج الإعلامي جامعة الملك عبد العزيز، العدد 13، بعنوان مكافحة الفقر، جدة، 1427هـ، ص83.

² المرجع السابق، ص83، 84.

³ المرجع السابق، ص87.

⁴ المرجع السابق، ص 92.

⁵ المرجع السابق، ص92.

اجتماعيا فحسب بل عليها أن تتناول " الأهداف الاقتصادية والاجتماعية والسياسة [بشكل أوسع] كالتوزيع والحماية والإنتاج وإعادة الإنتاج [...] أما التركيز على تحقيق هدف واحد وإغفال الأهداف الأخرى فيعوق تحقيق جميع فوائد الهدف المقصود".¹ إضافة إلى ذلك، تقوم برامج التنمية والحماية الاجتماعية بحماية الفقراء في فترات العجز أو المرض أو الإعاقة أو التقدم في السن. هذا وقد قامت الدول الأوروبية بوضع برنامج واسع لوضع حد لآفة الفقر، وقد دعت من خلاله إلى التعاون السياسي والتعليم المتبادل وتنظيم شبكة عمل على المستوى الأوروبي و"المشاركة في سوق العمل وتحديث أنظمة الحماية الاجتماعية والتعليم [...] والسكن اللائق والحصول على الخدمات وجودتها والقضاء على العنصرية".²

وفي المقابل حاولت الدول الإسلامية وضع خطط وبرامج من أجل الخروج من الفقر الذي ينتشر بشكل كبير في معظمها . ورغم دعوة الإسلام إلى تطبيق مبدأ العدالة الاجتماعية ولكن أخفق العالم الإسلامي -اللهم إلا ماليزيا -في ذلك، إذ لم تتوصل تلك المشاريع والخطط إلى كل الفقراء وإلى كل المناطق المتضررة من هذا الشكل الخطير.

هكذا حاولت مختلف البلدان والمنظمات والحكومات والجمعيات الحكومية وغير الحكومية في العالم، إيجاد حل أو حلول ناجعة لمشكلة الفقر التي لا تفتأ تتزايد مع الانفجار الديموغرافي، خاصة في البلدان الفقيرة، حيث ارتفعت نسبة البطالة والأمية والمحرومين من السكن اللائق ومن الخدمات الاجتماعية والصحية وغيرها...

زد على ذلك التغيرات المناخية وظاهرة التصحر التي لم تزد إلا الأوضاع تفاقمًا فكم من مساحات زراعية تعرضت للجفاف وأخرى للفيضانات، إضافة إلى النظام الرأسمالي الذي

¹ مكافحة الفقر وعدم المساواة: التغيير الهيكلي والسياسة الاجتماعية والسياسة العامة، معهد الأمم المتحدة للبحوث والتنمية الاجتماعية، جونيف سويسرا، 2010م، ص16.

² مكافحة الفقر اليورومتوسطي، ص9.

وسع الهوة بين الطبقات الاجتماعية ووضع حواجز كبيرة فيما بينها و أسهم في ظهور النزعة الفردية التي استفحلت في الآونة الأخيرة بفعل التطور التكنولوجي الذي جعل الإنسان ينغلق على ذاته بمعوية هاتفه أو حاسوبه ولا يهتم بمسائل الآخرين حتى الأقربين منه وبهذا الشكل طغت المادة على المشاعر التي تجاوزها الزمن، حسب البعض، رغم أن الله خلق الإنسان ليعيش في محبة وسلام ووثام ومساعدة أخيه الإنسان، كما ورد في الآية الكريمة : ...إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا¹، والتعارف يعني الاقتراب من بعضنا البعض والشفقة على بعضنا البعض والتفاهم مع بعضنا البعض... كما ورد في الحديث الشريف: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (صحيح مسلم ص50 رقم 45) (ص26 رقم 13 بخاري)

وفي الثقافة المسيحية أيضا دعا السيد المسيح عليه السلام إلى محبة الآخر (تحب قريبك كنفسك)² و نادى أيضا إلى ضرورة محبة الأعداء والصلاة لأجلهم (أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم)³

لو طبق الإنسان هذه التعاليم لما وُجد الغنى الفاحش والفقر المدقع.

¹ سورة الحجرات الآية 13.

² إنجيل متى، الإصحاح 22، الآية 39.

³ إنجيل متى، الإصحاح 5، الآية 44.

الباب الأول

الفصل الثاني:

البؤس الماهية والواقع

لعل أول ما يتبادر إلى أذهاننا فور سماعنا لكلمة "بؤس" هو المعاناة و الشقاء و الألم و التعاسة...و ذلك على مختلف الأصعدة والمستويات و غالبا ما يرد البؤس مصحوبا بالفقر ، فرغم اختلافهما إلا أن هناك تقاربا بينهما إذ الفقر أيضا هو مرادف للشقاء و الألم أو بالأحرى هو يجلب التعاسة و الأسى و الألم و لتوضيح معنى البؤس أكثر يجدر بنا العودة إلى أمهات المعاجم العربية

1 (مدلولات البؤس:

1.1 المدلول اللغوي للبؤس:

ورد في معجم لسان العرب في مادة "ب أ س" : [...] و البأساء اسم الحرب و المشقة والضرب، و البأس: العذاب .و البأس : الشدة في الحرب ، و في حديث علي ،رضوان الله عليه ، كنا إذا اشتد البأس اتقينا برسول الله (ص)يريد الخوف و لا يكون إلا مع الشدة .ابن الأعرابي :البأس و البئس على مثال فعل العذاب الشديد.ابن سيده : البأس الحرب ثم كثر حتى قيل لا بأس عليك و لا بأس أي لا خوف، قال قيس بن الخطيم :

يقول لي الحداد و هو يقودن إلى السجن : لا تجزع فمابك من بأس

أراد فما بك من بأس ،فخفف تخفيفا قياسيا لا بدليا [...] . و البئس: كالبأس. و إذا قال الرجل لعدوه : لا بأس عليك فقد أَمَّنَه لأنه نفى البأس عنه و هو في لغة حمير لبات أي لا بأس عليك[...].

وفي الحديث: نهى عن كسر السكة الجائزة بين المسلمين إلا من بأس، يعني الدنانير والدراهم المضروبة، أي لا تكسر إلا من أمر يقتضي كسرها [...].

والبؤس الشدة والفقر، وبئس الرجل يبأس ببؤسا وبأسا وبئيسا إذا افتقر واشتدت حاجته، فهو بئس أي فقير وفي حديث الصلاة: تقنع يديك وتبأس هو من البؤس والخضوع والفقر، ويجوز أن يكون أمرا وخبرا، ومنه حديث عمار "بؤس ابن سمية!" كأنه ترحم له من الشدة التي يقع فيها [...].

وقوله تعالى: أخذناهم بالبأساء والضراء، قال الزجاج: البأساء الجوع والضراء في الأموال والأنفس.

وبئس وبئس الأخيرة نادرة [...]. وأبأس الرجل: حلت به البأساء [...]. و البئس : المبتلى ، قال سيبويه: البئس من الألفاظ المترحم بها كالمسكين [...] والبئس: الرجل النازل به بلية أو عُدْم يرحم لما به [...]. والبأساء الشدة [...] والبؤسى: خلاف النعمى، الزجاج: البأساء والبؤسى من البؤس، قال ذلك ابن دريد وقال غيره: هي البؤسى والبأساء ضد النعمى والنعماء، [...] وابتأس الرجل، فهو مبتئس. ولا تبتئس أي لا تحزن ولا تشتك، والمبتئس: الكاره والحزين [...] قال ابن بري: الأحسن فيه عندي قول من قال: إن مبتئسا مفتعل من البأس الذي هو الشدة، ومنه قوله سبحانه: فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، أي لا يشتد عليك أمرهم¹.

وفي معجم "مقاييس اللغة"، بأس: الباء والهمزة والسين أصل واحد، الشدة وما ضارعها.

فالبأس الشدة في الحرب، ورجل ذو بأس وبئس أي شجاع وقد بأس بأسا فإن نعته بالبؤس قلت بؤس و البؤس : الشدة في العيش و المبتئس المفتعل من الكراهة و الحزن ، قال:

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس منه وأقعد كريما ناعم البال².

¹ ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، ص20، 21.

² أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، الجزء الأول، ص328.

كما ورد في معجم "تاج العروس" في مادة "ب أ س": البأس: العذاب الشديد [...].
والبأس: الشدة في الحرب [...] وقال ابن سيدة البأس: الحرب ثم كثر حتى قيل: لا بأس عليك: أي لا خوف [...] قال: ويروى: "بئيسا" بالتثوين. إذ افتقر واشتدت حاجته فهو بائس [...] وقال أيضا البائس: من الألفاظ المترحم بها كالمسكين [...] وعذاب بئس، بالكسر وبئس [...] وفي التنزيل العزيز: "بعذاب بئس بما كانوا يفسقون" * وقال ابن بري: الأحسن فيه عندي قول من قال: إن مبتئسا مفتعل من البأس الذي هو الشدة ومنه قوله سبحانه وتعالى: "فلا تبتئس بما كانوا يفعلون" ** أي لا يشتد عليك أمرهم، فهذا أصله، [...] والتبؤس بالمد ويجوز التبتؤس، بالقصر والتشديد وهو التفقر عند الناس وهو أن يُرى تخشع الفقراء إخباتا وتضرعا [...] والبأساء: الجوع قاله الزجاج، وأبأس الرجل: حلت به البأساء قاله ابن الأعرابي، والبائس: المبتلى وجمعه بُؤس بالضم [...] والبائس أيضا: النازل به بلية أو عُدْم يُرحم لما به [...] والبؤوس كصبور: الظاهر البؤس.¹

وفي "القاموس المحيط" البأس هو: "العذاب والشدة في الحرب، بؤس ككرم بأسا فهو بئس: شجاع وبئس كسمع، بؤسا وبؤوسا وبأسا وبؤسى وبئسى: اشتدت حاجته والبأساء والأبؤس: الداهية [...] وبنات بئس: الدواهي، والمبتئس: الكاره الحزين والتبؤس: التفقر."²

وورد في "المعجم الوسيط": بئس: بأسا وبؤسا وبئيسا: افتقر اشتدت حاجته فهو بائس [...] بئس: فعل جامد للذم ضد نعم في المدح وفي التنزيل العزيز: "بئس الشراب وساءت

* سورة الأعراف الآية 165.

** سورة هود الآية 36.

¹ محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، معجم تاج العروس من جواهر القاموس، مطبعة حكومة الكويت 1394 هـ 1974 م، الجزء 15، ص 430-435.

² الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 531، 532.

مرتفعاً"، أبأس أصابه البؤس [...] البأساء: المشقة، والفقر والحرب والداهية. البؤس: المشقة والفقر، البؤسى: البؤس".¹

أما في معجم "المعاني الجامع"، جاءت كلمة "بؤس" كالتالي: "بئس حاله: افتقر، عاش في بؤس، بئس الرجل: افتقر واشتدت حاجته انتشلوه من البؤس [...] يعيش في بؤس شديد، في فقر في وضع مزر، في مشقة، كان بؤسه لا يحتمل [...] تقلب على رمضاء البؤس: اكتوى بنار الفقر وعانى من مرارته وشقائه".²

هذا وقد وردت لفظة "بئس" في القرآن مقترنة بكلمة "فقير" وذلك في قوله تعالى: "فكلوا منها وأطعموا البئس الفقير" * فالفقير من صفة البئس وهو الذي ناله البؤس وشدة الفقر يقال بئس يبأس بأساً إذا افتقر فهو بئس".³

وقال ابن كثير في معنى البئس الفقير: "قال عكرمة هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس وهو الفقير المتعفف وقال مجاهد: هو الذي لا يبسط يده، وقال الطبرسي في معنى البئس: الذي ظهر عليه أثر البؤس من الجوع والعري وقيل البئس الذي يمد يده بالسؤال ويتكفف للطلب، أمر سبحانه أن يعطي أولئك من الهدى".⁴

وفي اللغة الفرنسية، تعكس كلمة "بؤس" حالة من التأهب والاستنفار وتعني المصيبة والألم والحزن والفقر المدقع وترتبط أيضاً بالخسة والوضاعة وبالشعور بالرفض أو الفصل الاجتماعي، كما تنقل لنا قصة النبي أيوب عليه السلام - حسبما وردت في الكتاب

¹ إبراهيم أنيس، عبد الحليم منتصر، عطيه الصوالحي، محمد خلف الله، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004، ط4، ص36.

²<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/> البؤس

* سورة الحج الآية 28.

³ محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة 2006، الجزء 14، ص377.

⁴ عبد السلام حمدان اللوح ومحمود هاشم عنبر، علاج مشكلة الفقر (دراسة قرآنية موضوعية) مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد السابع عشر، العدد الأول، يناير 2009، ص323.

المقدس - حالة من البؤس الإنساني، كما يحدد لنا "بلاز باسكال" (Blaise Pascal) في كتابه "أفكار" (Pensées) موضوع البؤس على أنه الحياة بدون الله.¹

كما ورد في "القاموس الموسوعي لاروس" أن كلمة "بؤس" تعني: حالة من الفقر الشديد والضعف والعجز وهو احتياج شديد لشيء ما، ويتمثل أيضا في حادث أليم يستدعي الشفقة، وقد يكون شيئا ذا قيمة زهيدة [...] والبائس أو البائسة هو الفقير بدون عائدات والمتسول والمحتاج والمعوز والمثير للشفقة وأهل للاحتقار والازدراء.²

أن البؤس : (Toupie) و قد ذكر القاموس الإلكتروني الفرنسي توبي

- هو حالة من الفقر الشديد والحرمان من المصادر الأساسية للعيش ومن مرادفاته: الاحتياج والعوز والضيق والتأهب والقحط والجذب والمجاعة وعدم امتلاك الثروة والإملاق...

- هو ما يثير الشفقة سواء لدى الإنسان أو لدى أي حالة أو ظاهرة، وقد يكون البؤس جسديا أو معنويا ومن مرادفاته: الضيق والنكبة والمصيبة.

- هو حالة من الاحتياج الكبير بسبب الفقر والعوز الاجتماعي والروحي.

- وهو مرادف للضعف والعجز البشريين والشخص البائس هو الشخص المعدوم.

- وهو كل ما ليست له قيمة ومن مرادفاته: التفاهة والوضاعة.

- وهو يعني أيضا القلق وأي مشكل صحي أو مالي أو عاطفي ومن مرادفاته:

المصائب والآلام والأحزان.³

وفي موقع إلكتروني فرنسي آخر، نجد العديد من الدلالات الواردة تحت إطار لفظة "بؤس"، نذكر من بينها:

¹ Pascal Blaise, Les Pensées, la renaissance du livre, Paris, p43.

² Dictionnaire Encyclopédique Larousse, p924.

³ <https://www.toupie.org/dictionnaire/misere.htm>

– البؤس هو حالة من التعاسة والهم مثل: بؤس الزمن أو سوء حال الأعمال، وهو ضعف الإنسان وتفاهته وكذا العسر والضيق، ويقال فراش البؤس عن الفراش الذي تعاني فيه المرأة من آلام المخاض قبل الولادة وهو أيضا يعني الفقر المدقع والحرمان من ضروريات الحياة وغيرها...¹

ومن خلال ما سبق، نلاحظ تقارب المعاجم العربية والقواميس الفرنسية في المعاني والمفاهيم التي قدمتها لكلمة "بؤس": فهو حالة من الفقر الشديد وسوء المعيشة بمعناها الواسع، والبائس هو الشخص الشقي والمسكين المثير للشفقة.

2.2 (المدلول الاصطلاحي للبؤس:

وعلى المستوى الاصطلاحي أيضا تحمل كلمة "بؤس" مدلولات عديدة ومتنوعة، يرى أحد الباحثين الفرنسيين أن البؤس لا يشمل دائما الجانب المادي فقد يعني الشعور بالوحدة و لاسيما عند المتقدمين في السن و المتواجدين في ديار المسنين الذين يعيشون كالأموات ،و قد يكون الإحساس بالشدة و الضيق و الفقر الذي ينتاب السجين و المتشرد و غيرهما ممن أضرتهم الحياة كثيرا إلى أن عجزوا على الاندماج مع الآخرين في مجتمعاتهم لأنهم يعيشون في عالم مخالف.²

أما بالنسبة لـ"كارل ماركس" (Karl Marx) ، فالبؤساء هم المحرومون من المأوى ومن الدفء ومن الانتماء ومن الحقوق... وقد استطاع التصنيع أن يرفع من عدد هؤلاء عن طريق تحويل العديد من العمال والمنتجين إلى عمال من الطبقة الكادحة وبدون قيمة.³

¹ <https://www.notre famille.com/dictionnaire/définition/misère/>

² Mercier Charles ,université de Bordeau in :univ-bordeau .academia.edu

³ Jean Labbens, Sociologie de la pauvreté, p306.

والبؤس أيضا عبارة عن سقوط في عالم بدون معالم حيث يشعر الشخص فجأة أنه سلب كل قواه الحيوية الذاتية والاجتماعية والضرورية لصنع مصيره، والبؤس هو المحروم من وسائله الدفاعية والمصاب بحالة من العجز الكامل والمحطم جسديا وروحيا.¹

2 (أنواع البؤس:

تتميز لفظة "بؤس" بكثرة مفاهيمها ومرادفاتها سواء على المستوى اللغوي أو الاصطلاحي - كما رأينا في المبحث السابق - وأثناء بحثنا هذا اهتمينا إلى أنواع عديدة من البؤس، سنوردها فيما يلي:

1.2 (البؤس الجسدي:

غالبا ما يرتبط البؤس بالفقر الشديد والعوز والحرمان من أساسيات الحياة وهذا جدير بإحداث مضاعفات ومشاكل كبيرة على المستوى الجسدي للإنسان، فالبؤس الجسدي هو مرض جسدي ونفسي في الوقت ذاته، يتسبب "في فقدان الوزن ولاسيما الكتلة العضلية من الجسم التي قد تصل إلى 30% أو 40% من الكتلة الجسدية الكلية، وفي انخفاض درجة حرارة الجسم العامة، وتراجع في نبضات القلب مع انخفاض في الضغط الدموي وضيق في التنفس و"الأديناميا" أي الضعف في الحركة والنشاط وعدم القدرة حتى على الأكل أو الشرب، إضافة إلى الإرهاق الجسدي الشديد الذي يمنع صاحبه من التحكم في

¹ <https://agora.qc.ca /dossier/misère>.

عملية التبول زد على ذلك الإمساك وضعف الذاكرة وعدم التعرق الذي يجعل الجلد ناشفا".¹

هذه بعض الأعراض الجسدية التي تظهر جليا على الأشخاص الذين يعيشون في الفقر والحرمان والجوع والعوز... أي البؤس حسب الدكتور "شارل ريشيه"، وهي تظهر خاصة عند المتشردين والمتسولين والذين من دون مأوى.

إضافة إلى ذلك، أجرى باحثان فرنسيان بحثا عن سبب التخلف الجسدي والفكري عند أطفال المدارس الابتدائية في فرنسا وأخذا كنموذج لدراستهما مدرستين: الأولى للذكور والثانية للإناث، وقد توصلا إلى ما يلي:

من بين 20 طفلا متخلفا في مدرسة الذكور نجد 11 منهم ممن يترددون على المطعم المجاني وكذا من بين 35 طفلة متخلفة هناك 17 ممن تترددن على المطعم المجاني و هذا ما يبين أنهم من عائلات معدمة وبائسة.²

وبعد ذلك طلب الباحثان من مديري المدرستين أن يقسما التلاميذ إلى أربعة أفواج هي: فوج البؤس وفوج الفقر، فوج الكفاف وفوج اليسر أو الرفاهية.

وقد بلغ عدد أطفال فوج البؤس 60 طفلا من مدرسة الذكور فإنهم يستفيدون من اللباس من صندوق المدرسة ويأكلون في المطعم المجاني، وينتمي 77 طفلا إلى فوج الفقراء الذين يستفيدون من الملابس المقدمة من صندوق المدرسة ولكنهم لا يأكلون في المطعم المجاني، و118 طفلا من فوج الكفاف الذين ليسوا بحاجة إلى أي مساعدة.

¹ Charles Richet, Pathologie de la misère, p46.

² Binet André et Simon Thomas, La misère physiologique et la misère sociale, l'année psychologique, Octobre 1905, Tome 12, pp17, 18.

وتبلغ نسبة الأطفال الذين لديهم النمو العادي 12% في فوجي البؤس والفقر و24% من فوجي الكفاف والرفاهية.

أما الأطفال المتخلفون عن سنهم فنسبتهم 21% في فوجي الفقر والبؤس و11% في فوجي الكفاف والرفاهية.

وأما المتقدمون فيزيولوجيا على سنهم، فعددهم قليل أي حوالي 12% في فوجي الفقر والبؤس و17% في فوجي الكفاف والرفاهية.¹

2.2) البؤس المعنوي (La misère morale) :

بسبب الوضعية الصعبة التي يعيشها الشخص البائس فهو كثيرا ما يصاب بحالة من الحزن الشديد والملل والاستسلام تارة أو الثورة والانفعال تارة أخرى ومن أهم مسببات هذا النوع من البؤس:

- غياب الأمل في التحسن المادي، إذ هناك عدد من العمال الأكفاء والأذكاء والأمناء الذين لا يستطيعون اجتياز مستواهم الاجتماعي والاقتصادي (وهو الأدنى عادة) لعدم إحرازهم على شهادات علمية عالية وعدم تمكنهم من عقد علاقات مع أشخاص مرموقين وذوي قيمة عالية علمهم يمدون لهم يد العون للخروج من بؤسهم.
- فقدان الأمل في المستقبل.
- غياب حرية التعبير التي تمكنهم من توصيل معاناتهم وانشغالاتهم إلى الجهات المعنية.
- غياب كل مصادر السعادة والفرح في حياة هؤلاء¹

¹ Binet André et Simon Thomas, La misère physiologique et la misère sociale, pp19, 20.

وزد على ذلك العزلة التي يقع فيها الأغنياء والفقراء معا وسرعان ما تؤدي بهم إلى الروح الفردية (L'individualisme) وذلك بسبب إلغاء العلاقات الاجتماعية التي كانت موجودة بشكل كبير في الماضي وكذا لبعض الأفكار الخاصة بهم.² هذا والبؤس المعنوي هو الذي يجرد ضحاياه من إنسانيتهم وهو لا يخص الفقراء فحسب بل يمس الأغنياء أيضا ولكن بشكل أسوأ، ففي هذه الحالة الأخيرة يمثل البؤس هوس مرضي هدفه الكسب أكثر واللامبالاة التامة بالآخرين.³ وبناء على ما سبق، فالبؤس المعنوي هو أحد الأسباب الرئيسية التي تؤدي بصاحبها إلى الغرق في اليأس والقنوط ومن ثم الانتحار أو الجنون أحيانا.

3.2) البؤس الاجتماعي الاقتصادي (La misère socio-économique)

اجتهدت فئة من الباحثين من مدارس فكرية مختلفة في وضع مفاهيم لهذا النوع من البؤس، ففي مجال الديمغرافيا مثلا هو العيش تحت خط الفقر وعند "بيير بورديو" (P. Bourdieu) هو الافتقار أو الغياب الشبه تام للرأس مال⁴، والرأس المال الاجتماعي عنده يعبر عن مجموعة من العلاقات التي ينشئها الفرد في إطار الشبكة الاجتماعية التي ينتمي إليها و دون ذلك لا يمكنه أن يستثمر علاقاته الاجتماعية لزيادة رأسماله المتمثل في علاقات الجيرة و القرابة و الصداقة⁵ مما يؤدي به إلى العزلة و الإنطواء على الذات .

¹ Charles Richet ,Pathologie de la misère ,pp 45, 46

² Cherbuliez Antoine Elisée, Etude sur les causes de la misère tant morale que physique et sur les moyens d'y porter remède , Paris librairie de Guillaumin et Cie 1858, p85

³ <https://agora.qc.ca/dossier/misere>.

⁴ عبد الكريم بزاز، علم اجتماع بيار بورديو، جامعة منتوري قسنطينة، سنة 2006 - 2007، ص 62.

⁵ Field Johan, Social capital ,Routledge, London2003, p 17.

لقد أدى انحصار الثروات في أيدي مُلاك الصناعات الكبيرة إلى القضاء على الصناعات الصغيرة مما أسهم في ظهور البؤس الاجتماعي، ونظرا للتغيرات والتقلبات التي كانت تشهدها الصناعات الكبرى بشكل مستمر وجدت فترات كانت تصل فيها الفئات الجادة والمثابرة إلى الحد الأقصى من إمكاناتها في العيش وترى أجورها تُخفض بكل صرامة، فعندما يدخل البروليتاريون في صراع مستمر مع أقصى درجات البؤس فلن يتوصلوا حينها إلى الوقوف ثانية على أرجلهم إلا بعد عناء شديد، ولمدة قصيرة جدا، إذ سرعان ما يدخلون مرة أخرى في الصراع ذاته.¹

كما عرف "كارل ماركس" في كتابه الشهير "الرأسمال" (Le capital) البؤس الاجتماعي بأنه تراكم الفقر والمعاناة والجهل والتجهيل والعزلة والانحطاط الخلقي والعبودية، ويرى أنه (البؤس الاجتماعي) يتعلق بواقع اجتماعي وليس بمجرد حسابات منطقية على مستوى الأملاك المادية فحسب، هذه (الأملاك) التي سترتفع حتما بفضل الإنتاج، وهذا محل المفارقة إذ كلما قامت الطبقة البروليتارية بزيادة نسبة ممتلكاتها المادية كلما سهلت على نفسها أعباء الحياة المادية ولكنها بهذا الشكل تقوم بسجن نفسها أكثر فأكثر في الوقت نفسه، زد على ذلك احتكار الطبقة البورجوازية أكثر للخيرات التي تنتجها.²

أما فيما يتعلق بالملكية الخاصة، فهي تتخذ مفاهيم معاكسة، إذ يثابر كل شخص على خلق احتياج جديد للآخر ليرغمه على القيام بتضحية جديدة ويجعله تابعا له ويدفعه إلى نمط جديد من المتعة والتسلية وهذا ما يتسبب في دمار الاقتصاد. و في هذا الإطار كان الكل يسعى إلى خلق قوة أساسية أجنبية للسيطرة على الآخرين ليرضي أنانيته وغروره

¹ Cherbuliez.A .E ,Etudes sur les causes de la misère, pp 62, 63.

² La paupérisation selon Marx ,4 ème partie : une misère sociale .in [https:// lesmaterialistes. com](https://lesmaterialistes.com)

وبهذا يصبح الكائن البشري أكثر فقرا على المستوى الإنساني، ومن ثم كلما زادت أمواله ازداد في المقابل فقره.¹

هذا وبفضل الاكتشافات العلمية والتكنولوجية الحديثة، غزت الآلات المصانع والورشات والمناجم وأسهمت في الرفع من نسبة الإنتاج والأرباح والحلول محل اليد العاملة البشرية في انجاز العديد من المهام التي كانت تتطلب عددا كبيرا من العمال وهذا ما كانت تبحث عنه الرأسمالية، وعليه قام العديد من المصانع بتسريح الكثير من عمالها وتعويضهم بالآلات التي لا تكلفها كثيرا وبهذا تقلصت اليد العاملة في المصانع والورشات مما دفع بأرباب العمل إلى استغلالهم لساعات طويلة مقابل أجور زهيدة، وبهذا وقع العمال في حالة البؤس الشديد لأنهم كانوا مجبرين على قبول العمل في تلك الأوضاع المزرية لئلا يكون مصيرهم الطرد ومن ثم البطالة التي لن تزيد حالهم إلا سوءا وبؤسا.

وأما الفئات الفقيرة جدا والمعدمة فتتمثل في اليتامى وضحايا المصانع من مرضى ومشوهين وأرامل... و كان عددهم يتزايد بتزايد عدد الآلات الخطيرة والمناجم والمصانع الكيميائية.²

وبهذا تكون الرأسمالية قد أفقرت العمال والفلاحين وزادت من بؤس الفقراء والبؤساء.

و قد كانت القارة الإفريقية من بين القارات التي تضررت كثيرا بفعل الاستغلال اللاعقلاني لشعوبها و لأراضيها ،لقد عانت من " كوارث الجوع والتصحر والأمراض المنتشرة و الديون المتراكمة من الغرب بأكمله الذي عامل سكان القارة باحتقار ونسف كل علاقة إنسانية بين البشر [...] بعد الحرب العالمية لثانية التي دمرت أوروبا، جاء مشروع

¹ La paupérisation selon Marx ,4 ème partie : une misère sociale.<https://lesmaterialistes.com>

² La paupérisation selon Marx 1ere ,2eme et 3 eme partie in <https://lesmaterialistes.com>

مارشال ليعيد لشعوب القارة ما فقدوه، ومع أن تلك الحرب دمرت بعض دول القارات الأخرى، فقد بقيت رصيда لاستنزافها من أجل رفاهية قارتي أمريكا الشمالية وأوروبا.¹

وفي سبيل ذلك، استنزفت قارة إفريقيا من كل خيراتها، ولكن العواقب كانت وخيمة على المجتمعات الإفريقية، فهي تفتقر إلى أدنى شروط الحياة الكريمة كالصحة والغذاء والمياه والتعليم...

لقد باتت هذه القارة "مركز استيطان الأمراض بكل أنواعها وقد لا تصل نسب التعليم لعموم شعوبها إلى مستويات الحدود الدنيا لدول فقيرة جدا [...] ولو قدر أن تحولت القارات الثلاث أمريكا وأوروبا وآسيا إلى دول صناعية ذات إنتاج كبير لاستوعبته أسواقها، فإن المستهلك المنتظر سيتحدد بدول العالم الثالث والتي تقطن قارتي إفريقيا وأمريكا الجنوبية، وبدون تحويل شعوب تلك القارتين إلى مستويات مقبولة في إعمار محيطها وتطوير سكانها، فإنهما لن تستطيعا أن تكونا طاقات مستهلكة، إضافة إلى رعب الهجرات وانتشار الأمراض واتساع دوائر الإرهاب التي تتشكل وفق حالات القهر والفقر وتباين العقائد والتمييز بين الشعوب..."²

وبهذا تكون الأنظمة الاقتصادية قد أسهمت في تقسيم المجتمعات إلى طبقات وميزت بين الغني والفقير وخلقت بينهما هوة كبيرة لا تفتأ تتسع خاصة مع النظام الرأسمالي الذي كرس كل أفكاره ووسائله... لخدمة المصانع الكبرى وأرباب العمل وسخر كل الوسائل البشرية والمادية لخدمتهم بينما همش العمال والفقراء بشكل ملحوظ واستغلوا بكل وحشية وقسوة.

¹ بؤس الفقراء ومنة الأغنياء، جريدة "الرياض" الإثنين 6 جمادى الأولى 1426هـ - 13 يونيو 2005م، العدد 13503.

² المرجع السابق.

4.2) البؤس النفسي (La misère psychologique) :

البؤس النفسي هو حالة "تعاسة نفسية مقترنة بالضيق والتوتر النفسي والارتباك السلوكي المرتكز على افتقاد الشعور بالأمن النفسي وانسداد أفق الأمل في المستقبل".¹

ويتشكل البؤس النفسي، حسب بعض الباحثين، من بعدين هما:

أ) "البعد المرتكز على الذات كتجسيد لحالات الاكتئاب وخواء المعنى والاغتراب والتشاؤم واستمرار لعب دور الضحية والاستمتاع بالإهانة وتقبل الظلم والاستكانة..."

ب) البعد المتعدي إلى الآخرين بمتضمناته من تعبيرات سلوكية فكرية وانفعالا وفعلا متعسفا بحمي الانتقام والإسراف فيه والاندفاع بموجبه نحو مخاصمة الحياة وبالتالي تخوين الآخر وإهانته وتصفيته نفسيا [...] بإخراجه من حيز الفاعلية والتأثير إلى حيز الانفعالية والتأثر".²

ويتجلى البؤس النفسي لدى الإنسان من خلال مجموعة من المؤشرات نذكر منها ما يلي:

- بروز سمات الحزن والكآبة على الهيئة العامة للشخص ويعلوه العبوس
- فقدان الأمل في تغيير الواقع المعيش مما يولد المشاعر السلبية والملل.
- السلوك بالعنف واللامبالاة بالآخر.
- الشعور بالملل والتعب من الحياة التي لم تعد مجالا للفرح والسعادة.
- الاصطدام بين طموحات الإنسان وواقعه الذي يحول دون تحقيقها.
- عدم الشعور بالأمان والخوف من المستقبل الذي يبدو مجهولا.

¹ محمد السعيد عبد الجواد أبو حلاوة، تخوين الآخر وإدانته، قراءة في سيكولوجية المشهد السياسي المصري المعاصر، إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية، أوت 2013، ص9.

² محمد السعيد عبد الجواد أبو حلاوة، تخوين الآخر وإدانته، ص74.

- العنف السلوكي الذي يتجلى من خلال لغة الإنسان المليئة بالسباب والشتائم والألفاظ البذيئة مصاحبة بالصوت العالي.
- عدم الصبر والتأني لوقوع تغيير في الأحداث أو في الواقع.
- التمرد على السلطة سواء كانت أبوية بالنسبة للمراهقين والشباب أو سلطة البلاد بالنسبة للكبار.
- الصراع بين الأجيال وعدم احتمال اختلاف كل جيل عن جيل آخر وعدم قبول بعضهما البعض.
- العزلة والانغلاق على الذات.¹

وهناك مجموعة من العوامل التي تسهم في البؤس النفسي منها:

- الفقر وهو أحد العوامل الأساسية والرئيسية التي توقع الإنسان في البؤس النفسي، فهو (الفقر) يشعره بالحرمان والنقص والعجز و الدونية.
- عدم المساواة بين الطبقات الاجتماعية المختلفة وغياب العدالة الاجتماعية.
- أوضاع العمل الصعبة.
- أوضاع التمدرس الصعبة.
- العلاقات الأسرية غير المستقرة (العلاقات بين الأزواج والعلاقات بين الآباء والأبناء) والتي تشوبها صراعات شديدة وحادة.²

¹ محمد السعيد عبد الجواد أبو حلاوة، تخوين الآخر وإدانته ، ص75، 76.

² Pauvreté ,santé mentale, détresse psychologique :situations connexes ou pure coincidence ? document de travail rédigée par Monika Jekovska(agente de recherche du C R D S :comité régional en développement social, centre du Québec, Mars 2008, p19.

وبهذا نستنتج أن البؤس النفسي هو نتيجة الظروف المعيشية السيئة سواء على المستوى المادي أو المعنوي، كما أنه لا يخص فقط فئة معينة من المجتمع بل تعاني منه مختلف الشرائح الاجتماعية ومن مختلف المستويات العلمية والثقافية.

5.2) البؤس الفكري (La misère intellectuelle) :

البؤس الفكري هو سلب الإنسان فكره وتفكيره وجعله كآلة يمكن التحكم فيها عن بعد وتحريكها في أي اتجاه، فالبائس فكريا لا يعي إلا الأشياء التي يريد الآخر توصيلها له، وهو لا يستطيع أن يتخذ قرارات حاسمة تغير مجرى حياته . وينتشر هذا البؤس خاصة في بلدان العالم الثالث أو البلدان النامية والفقيرة والشعوب التي احتلت لمدة زمنية طويلة مثل البلدان الإفريقية ولاسيما بلدان الساحل الإفريقي وشماله، التي كان المستعمر الفرنسي في الماضي يعمل على إفراغ فكر سكانها من كل محتوياته ليغرس فيه أفكاره ورؤاه، مثلما فعله مع الشعب الجزائري الذي حاول طمس مقوماته الوطنية كاللغة والدين، لعل أول ما قام به مباشرة بعد الاحتلال هو غلق المدارس المنتشرة عبر التراب الوطني وفرض اللغة الفرنسية عنوة في المدارس العمومية وكذا غلق العديد من المساجد وتحويل البعض الآخر إلى كنائس إضافة إلى سياسة القهر والتجويع والعمل على إيهام الشعب بأنه (المحتل) جاء لينتقله من التخلف والوحشية وينقل إليه الحضارة والازدهار ويقنعه بأنه لو غادر هذا البلد فإنه سيعود إلى ما كان عليه من فوضى وتخلف،¹ كما رأى الباحث الإفريقي "محمد كامارا" في مقاله: "التربية والغزو الاستعماري لبلدان الساحل الإفريقي" أن : المدرسة الاستعمارية شوّهت أفكار الأطفال الأفارقة و سلوكهم بتحويلهم إلى عبيد لها أو رجال

¹ Moneyang Patrick Hervé, La misère intellectuelle dans quelques fictions démographiques et littéraires de l’afrique subsaharienne, thèse de doctorat en philosophie présenté à l’université d’Oregon en septembre 2013, p 18.

ونساء ثائرين وعنيفين،¹ وبهذا كان المحتل يهيء من خلال هؤلاء إطارات تخدمه وتساعد على إتمام مشاريعه وتنفيذ أوامره،² وتغرس فيهم فكرة الولاء والتبعية للسيد حتى بعد الاستقلال، وتخلق فيهم ذلك الإعجاب والانبهار الذي سيمس حتى أجيال الاستقلال التي لن تفكر إلا في بلد المحتل إن رغبت في الهجرة أو في طلب اللجوء.

إضافة إلى ذلك، يعيش الإنسان المعاصر في عالم غزته التكنولوجيا في كل الميادين حتى صار عبدا لها إذ لم يعد باستطاعته الاستغناء عن حاسوبه أو هاتفه الذكي - حيث يخزن كل المعلومات الضرورية في حياته - ولو للحظات، فهو لم يعد قادرا على التفكير أو على انجاز أي عمل دون حاسوبه فهو لا يفتأ يلجأ إلى الشبكة العنكبوتية حتى في أبسط الأمور، وبهذا حلت الآلة الذكية محل الفكر البشري الذي خلقه الله لكي يسود من خلاله على كل الكائنات الأخرى وحتى يستخدمه في الإبداع والتطوير والتغيير.... وهكذا أصبحت التكنولوجيا الحديثة القادمة من العالم الغربي المتطور أداة خطيرة تستولي من خلالها على المجتمعات الفقيرة والنامية وتعمل على تغييب فكرها وشل تفكيرها لتصبح أدوات طيعة في يدها وتجعلها تابعة لها إلى الأبد بعدما فشلت في ذلك بالماضي.

6.2 البؤس الثقافي (La misère culturelle) :

يتمثل البؤس الثقافي في مجموع "الأفكار البائسة التي تحيط بالمبدعين من جميع الجهات، الأصلية والفرعية، الرأسية منها والأفقية تحاول جاهدة أن تحبط كل فكرة إبداعية وقتلها في مهدها من خلال تغليب عدم الإمكان على فرص الإمكان والتمكين ووضع

¹ Moneyang Patrick Hervé, La misère intellectuelle dans quelques fictions démographiques et littéraires de l'afrique subsaharienne, p 23.

المرجع السابق، ص 26.

الصعاب والعراقيل في الطريق المؤدي لتحقيق ما ترمي تلك الأفكار إلى بلوغه و ضخ الروح الانهزامية في نفوسهم والعمل على تخفيض درجة حرارة حماسهم وتفتير عزيمتهم".¹

ويفترض أن يكون المثقف والمبدع إنسانا متميزا ومتفوقا بفضل موهبته وعمق تفكيره وسمو أحاسيسه وسعة خياله و في هذا السياق يقول غرامشي: "جميع الناس مثقفون [...]". لكن وظيفة المثقف في المجتمع لا يقوم بها كل الناس"². وهو أيضا ابن بيئته يتأثر بظروفها وأزماتها ويعمل جاهدا على تقديم حلول ناجعة ليساعد شعبه على الخروج من محنته، و هو حسب بورديو "الضمير الحي للمجتمع العميق الذي يعبر عن واقع و حقيقة هوية المجتمع الفعلي".³ ولكن الأوضاع تغيرت حاليا فأصبح المثقف كأي عامل في مجال آخر وهو ينتمي إلى الطبقة البروليتارية - حسب إمّا غولدمان - وقد أسمتها بالبروليتارية الثقافية وتقول إنها: "مثلا مثل العاملين في المتاجر والمناجم، تعول وجودها البائس مفتقدة للأمن ويزيد اعتمادها على أرباب أعمالها بدرجة تفوق العمالة اليدوية [...]". كذا قد تتمتع طبقة البروليتاريا الثقافية [...] بوسائل الراحة المادية والمكانة الاجتماعية لكنها مع ذلك تظل بروليتارية، نظرا لاعتمادها الخانع كليا [...] على الجوائز المهنية والمؤسسات الإعلامية وإيرادات المسارح والصحف والناشرين [...] هذه التبعية البائسة لمن يمكنه دفع الثمن وإملاء الشروط المحددة للأنشطة الثقافية، هي أكثر ضعة وخزيا من وضع العامل في أية مهنة أو حرف أخرى".⁴

و يرى بورديو أن المثقف حاليا لم يعد يصارع " ضد شرور تسييس الظواهر الاجتماعية و أدلجة القضايا الثقافية لاستعمالها لصالح السلطة الحاكمة [...] بل أصبح هذا المثقف في

¹ Moneyang Patrick Hervé, La misère intellectuelle dans quelques fictions démographiques et littéraires de l'afrique subsaharienne, p 26.

² أنطوني غرامشي، كراسات السجن ، ترجمة عادل غنيم ، دار المستقبل العربي ، 1994، ص 24، 25

³ محمد بقوح، مسألة المثقف عند بورديو ، مركز الدراسات و الأبحاث العلمانية في العالم العربي ، 2017/ 05 /28

⁴ إمّا غولدمان، بؤس البروليتاريا الثقافية ، ترجمة عبد الرحمن أبو ذكري ، ص 363 عن مجلة Mother Earth ,Vol number12 ,february 1914 .08

مواجهة يومية مباشرة و عنيفة مع شرور من الدرجة القصوى لحركة العولمة المتوحشة المخربة لكل ما هو حي في المجتمعات بأبعادها السياسية و غاياتها الاقتصادية المدمرة التي تقودها القوى المضللة للفكر الليبيرالي الجديد في جميع مناطق العالم ¹.

إضافة إلى بؤسهم المادي، يعاني المثقفون، خاصة الموهوبون منهم، من الغربة النفسية والروحية وهم في أوطانهم ومع ذويهم حيث "يُساء فهمهم ويُتبرأ منهم ويُجحدون وحتى إذا أجبروا أهل زمنهم على الاعتراف بهم مثل "إميل زولا" و "هنريك إِبسن" (Henrik Ibsen) و "ليون تولستوي" (Léon Tolstoi) فما ذلك إلا لعبقرية استثنائية تمتعوا بها [...] في حين لم يصل "إدجار ألان بو" (Edgar Allan Poe) و "والت ويتمان" Walt Whitman) ² إلى ذلك، لأن القيود التي يفرضها الواقع على هؤلاء ليست بالهينة فحرياتهم "أقل بكثير من حريات العاملين في المتاجر والمناجم" ³ لأنهم بصدد مواجهة ذهنيات متحجرة ورجعية و ليس من السهل التصدي لها ومقاومتها، فهي تحتاج إلى شجاعة قوية ومجهود جبار.

إضافة إلى ذلك، أضحى المسؤولون والمشفرون على الثقافة في مختلف البلدان يهتمون بالكم على حساب الكيف فهذا في حد ذاته بؤس ثقافي، لأن الثقافة التي لا تخدم المجتمع ولا تسعى إلى تغيير الواقع وتطويره وتحسينه فوجودها كعدمه، وعندما يتحكم الربيع الثقافي "في رسم ملامح باهتة للثقافة ووضع صورة ميكيفيلية للمثقف"، ⁴ هنا تقع الثقافة في بؤس حقيقي وتصبح "من دون ملامح، هلامية، هجينة، فجّة، مستلبة تعاني من اغتراب مقيت في الزمان والمكان [...] وفي خضم التيه التربوي الذي خلفه انسحاب

¹ محمد بقوق ، مسألة المثقف عند بيبير بورديو ، مركز الدراسات و الأبحاث العلمانية في العالم العربي،

2017/05/28

² إمّا غولدمان، بؤس البرليتياريا الثقافية، ص365.

³ المرجع السابق، ص365.

⁴ عبد القهار الحجابي، بؤس العمل الثقافي وسبل الممانعة، صحيفة المثقف، العدد 4048، 2017/10/05.

الأسرة من التربية الثقافية وتدهور التعليم، فقوي الجهل والتجهيل [...] ومن ثم بدأ التخطيط لاستدامة البؤس الثقافي كامتداد للبؤس الاقتصادي والاجتماعي كي لا يتناقض الوعي المتقدم الممكن مع الواقع المتأخر الكائن".¹

وزد على ذلك الحصار السياسي المضروب على الثقافة، إذ لا تجد الأنظمة الجائرة أي مانع في حجز ومصادرة كل ما يمكن أن يشكل خطرا على سياستها ووجودها و كل ما يتعارض مع أفكارها وإيديولوجيتها فكم من أعمال أدبية راقية صودرت وكم من عناوين لجرائد ومجلات حجبت عن الأنظار، وكان هذا المنحى أيضا من بين العوامل التي فتحت المجال أمام الرداءة على حساب الجودة والنوعية.

هذا وبعدما انفتح العالم على بعضه بفضل العولمة، فتح المجال واسعا أمام كل من هب ودب لنشر أعماله وأفكاره التي أصبحت في متناول كل المتلقين وهذا أمر خطير جدا لأن جل هؤلاء لا يعرفون التمييز بين الجيد والرديء مما يقرئونه، وهذا ما أدى إلى انتشار الفكر السطحي الذي لا يهتم إلا بالشكليات ظنا منه أن ما ينشر على الجدران الافتراضية هو الثقافة الفعلية.

وهناك مجموعة من العوامل أسهمت في وقوع العالم حاليا في البؤس الثقافي ولاسيما بلدان العالم الثالث، نسرد منها:

- وجود الأنظمة القمعية التي تحاصر الإبداع والمبدعين وتقضي على كل ما هو أصيل وراق.

- نظرة دور النشر إلى الكتاب على أنه مورد للربح المادي، فهي كثيرا ما ترسخ لقانون العرض والطلب وتقوم بنشر كتب التسلية والطبخ والأبراج والحب... الخ

عبد القهار الحجاري، بؤس العمل الثقافي وسبل الممانعة، صحيفة المثقف، العدد 4048، 2017/10/05.¹

على حساب الأعمال الراقية التي لا تطلبها إلا النخبة من المجتمع وعددها قليل بالطبع.

- تجاهل الصحف والمجلات للإصدارات الجديدة من الكتب الجيدة وفي الحالات القليلة التي تلتفت فيها إلى كتاب معين فيكون ذلك غالبا لاعتبارات شخصية.
- تخلي البعض من الأدباء على مبادئهم وأفكارهم في سبيل الوصول إلى تبوء مراكز مهمة وعالية أو لاعتبارات مادية بحتة.¹

3 (مظاهر البؤس:

يرتبط مفهوم البؤس بدلالات كثيرة من بينها الفقر الشديد والحرمان والخزي والعار والشقاء... ومن هنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال التالي: ما هي المظاهر التي تجسد ظاهرة البؤس في الواقع؟

تتنوع مظاهر البؤس بتنوع البؤساء في مختلف المجتمعات ولكننا سنركز على السمات المشتركة بين كل بؤساء العالم، ومن هذه المظاهر يمكننا إيراد ما يلي:

في الماضي كانت الأحياء السكنية في المدن تضم مختلف أنواع السكان والسكنات، فقد كانت تجمع بين البيوت الفاخرة والواسعة الموجودة في الشوارع الرئيسية والكبيرة وبين البيوت المتواضعة المتواجدة في خلف هذه الشوارع أو في الشوارع الفرعية الضيقة والصغيرة والتي تأوي الفقراء، أما الآن فقد تغيرت الأوضاع وأصبح الفاصل بين الطبقات الغنية والفقيرة كبيرا جدا بل وأضحت هناك أحياء كاملة للأغنياء وأخرى للفقراء والبؤساء

¹ شاكر فريد حسن، الكتاب العرب و حالة البؤس الثقافي، جريدة الحياة الجديدة، 4 يناير 2010.

الذين يقيمون في أكواخ قذرة بالية أو في أحياء قصديرية أو أحياء أنشأت بشكل استعجالي خاصة في أوروبا.¹

هذا وقد أورد الباحث الفرنسي "شارل ريشيه" بعض العينات من أوضاع البؤساء في فرنسا، فيقول أن هناك عائلات بأكملها تتواجد في ظروف مزرية سواء على مستوى السكن أو الغذاء أو الملابس...، فهي (هذه العائلات) تسكن في أكواخ من القش وتقتات من الذرى و الجودار، أطفالها نصف عراة، هدامهم قديم جدا وبالي ومتسخ، أما الأحذية فقد كانت شيئاً فاحراً جداً يفوق كثيراً إمكاناتهم ولم تكن لديهم المياه الصالحة للشرب كما أنهم لا يعرفون الطبيب على الإطلاق إن مرضوا... الخ وكذا كانت الأحياء الخاصة بهم معزولة وبعيدة بالعشرات الكيلومترات من المراكز الكبيرة، لقد كان البؤس يحاصرهم من كل جانب.²

ومن بين العينات التي تمثل البؤس والبؤساء أيضاً: المتشردون الذين يهيمنون في الطرقات لساعات طويلة بمفردهم في معظم الأوقات أو برفقة رفيق، وعادة ما تكون لديهم لحية طويلة ويحملون على ظهورهم كيساً ثقيلاً أو يجرون عربة.³

وهناك أيضاً المسنونون البائسون الذين يعيشون في وحدة قاتلة سرعان ما تنعكس على أجسادهم الهزيلة والشاحبة، ومن أهم طباعهم عدم التسامح.

ويتمثل هؤلاء خاصة في المسنين الذين يرفضون الذهاب إلى الدور الخاصة بهم وليس لديهم معاشا ولم يدخروا المال الكافي تحسباً لهذه المرحلة، ليس لديهم أي شيء إلا المساعدة التي تقدمها لهم الدولة شهرياً وتبلغ حوالي 5000 أو 6000 فرنكا فرنسيا حينذاك، وهي لا تكفيهم إلا لتناول وجبة واحدة في اليوم، أما الوجبة الثانية وهي غالباً ما

¹ Jean Labbens, Sociologie de la pauvreté , pp 119, 120.

² Charles Richet, Pathologie de la misère, p39.

المرجع السابق، ص 39.

تكون في العشاء وتتكون من رغيف خبز مع شيء من الحليب، إن وجد، ومن حسن حظهم أنهم كانوا يحافظون على ملابسهم... ولكنهم غالبا ما يعانون في صمت.¹

وهناك نوع آخر من المسنين البائسين الذين يسلمون لأبنائهم كل ممتلكاتهم مقابل معاش شهري يفترض أن يقدم لهم إلا أن الأبناء كانوا يخلفون بوعودهم في معظم الأحيان مما يؤدي إلى سقوط هؤلاء في حالة من البؤس الشديد على المستويين المادي والمعنوي.²

أما في إفريقيا، تعد ظاهرة البؤس ظاهرة عامة ولا نستثني منها سوى التجار والمصنعين والمزارعين الكبار في شمال إفريقيا، ثم الحكام والسكان البيض من الأجانب في إفريقيا السوداء، ففي نيجيريا والكامرون مثلا تبلغ عدد المراكز التي تحتضن البؤساء قليلة جدا لأن أغليبيتهم يلجئون إلى المدن الكبرى للاستقرار و البحث عن العمل.³

بينما يتجلى البؤس في البلدان الرأسمالية من خلال الاستغلال الجائر للعمال حينما تصل مدة عملهم إلى ذروتها وأجورهم إلى أدناها،⁴ إذ الأهم عند أرباب العمل هو زيادة الإنتاج والأرباح دون الاهتمام بصحة العامل أو راحته أو حياته، فإنه يبعد عن زوجته و أولاده عنوة، وعن كل ما هو علم وثقافة حتى يطور نفسه وبهذا يسقط العامل في العزلة والجهل والانحلال الخلقي أحيانا وفي العبودية خاصة،⁵ كما يتعرض للإرهاق والتعب ومختلف الأمراض النفسية والجسدية التي تقتضي الاستغناء عنه واستبداله بعامل آخر لأن اليد العاملة متاحة أمامهم بسبب انتشار البطالة التي تعد أحد أسباب انتشار الفقر والبؤس في هذه المجتمعات.

¹ Charles Richet, Pathologie de la misère, p 41.

المرجع السابق، ص 42.

المرجع السابق، ص 35.

⁴ La paupérisation selon Marx 2eme partie :honteusement inferieur au niveau normal in <https://les matérialistes. Com>

المرجع السابق.

إضافة إلى الثورة الصناعية والاكتشافات العلمية التي سمحت بدخول الآلات الجديدة والحديثة إلى المصانع والورش والتي كانت أقوى وأسرع وأكثر إنتاجاً وأقل تكلفة من العامل بل كانت (الآلة) قادرة على تعويض مجموعة من العمال، ولهذا لجأ أرباب العمل إلى فصل أعداد كبيرة من العمال بحجج مختلفة مما زاد في عدد العائلات البائسة والشقية.

وبهذا أسهم النظام الرأسمالي بنسبة كبيرة في وجود البؤس الذي يعاني منه ثلثي البشرية ولم يكن هناك أي نظام قبله توصل إلى إحداث هذا الدمار في المجتمعات.¹

4 (أسباب البؤس:

تتعدد أسباب البؤس بتعدد أنواعه والمجالات التي يشملها ويمسها، هناك أسباب اجتماعية واقتصادية وفكرية ونفسية وذاتية إلى غير ذلك.

وقد قسمها أحد الباحثين في هذا الموضوع إلى قسمين أساسيين هما: الأسباب المادية أو العارضة ثم الأسباب المعنوية أو الدائمة.

1.4 (الأسباب المادية أو العرضية:

وهي تتعلق عادة بالسن والحالة الصحية ووجود عاهة معينة أو بالحوادث كالوفاة ومغادرة المسئول الأول عن العائلة، أو هجر الأبناء لوالديهم المسنين أو هجر الأزواج لزوجاتهم، وبأوضاع الصناعة وتحولاتها وتغيراتها اللامتناهية وبالآزمات الاقتصادية والبطالة وحال

¹ Destremau Blandine, La misère de la pauvreté, A propos de M. Rahnema et J. Robert, la puissance des pauvres, Acte sud, Revue de « la vie des Idées », 2009, p 2.

الأجور الناجمة عن المنافسة بين العمال وقلة تصريف المواد المصنعة، وغياب العمل في الأراضي الزراعية أثناء فصل الشتاء أو إلغاء صناعة محلية وذاتية واستبدالها بعمل ميكانيكي في المساحات الكبرى وعدم حماية النساء العاملات ونقص المعرفة والتجربة المهنية بالنسبة للعمال القادمين من الأرياف، زد على ذلك ما يسببه سوء الأحوال الجوية وقسوة فصل الشتاء الذي يتطلب تغذية غنية ولباساً دافئاً، وكذا قلة الإنتاج الفلاحي المتسبب في ارتفاع أسعار المواد الغذائية ومن ثم غلاء المعيشة، وكل هذه العوامل تسهم في حدوث البؤس.¹

2.4 (الأسباب المعنوية أو الدائمة:

وتتمثل الأسباب المعنوية في بعض السلوك أو الصفات الموجودة في الإنسان والتي تتطلب مجهود كبير للتخلص منها ويمكننا ذكرها فيما يلي:

1.2.4 (إدمان السلوك السيئ:

إن الإدمان على الخمر والتردد على الملاهي الليلية والمقاهي تدمر الصحة وتفقد الإنسان حب العمل والرغبة فيه، وهذه كلها عوامل أساسية تؤدي إلى البؤس حسب التقرير الذي قامت به الوزارة الداخلية الفرنسية في ديسمبر من سنة 1874،² إضافة إلى لعب القمار الذي يصرف فيه اللاعب أموالاً كثيرة بل ويمكنه أن يلجأ في سبيل ذلك إلى السرقة عند

¹ Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes. Librairie Germer Baillière et Cie, Paris, 1877, pp 43, 44.

المرجع السابق، ص 2.45

الحاجة أو رهن البيت وكل الممتلكات المتوفرة لديه وقد يصل إلى حد القتل قصد الحصول على المزيد من الأموال لإنفاقها في لعب القمار.

2.2.4 (الجهل:

وهو الذي يمنع الإنسان من إنتاج كل ما يمكن إنتاجه، وكم من عمل مربح يعجز العامل على انجازه بحجة أنه لا يعرف أو ليست له المؤهلات اللازمة لذلك، زيادة عليه أن الفرد غير المتعلم لا يحسن استغلال وقت فراغه بعد العودة من عمله ، فليست له تطلعات علمية حتى يبحث في الكتب عن بعض الموضوعات المهمة لديه ليطور نفسه و يوسع آفاقه العلمية أو يتصفح الجرائد والمجلات ليتطلع على ما يحدث في واقعه من أحداث وقضايا، أو يشارك أفراد عائلته ما قرأه هنا وهناك، ولكن الجهل جعله يلتحق بالملاهي الليلية ليلقي أصدقاءه ؛ والملهى هو مصدر كل الانحرافات ففيه لعب القمار وأصدقاء السوء والأفكار السلبية والشريرة.¹

3.2.4 (الكسل والخمول:

كثيرا ما يؤدي الكسل والخمول بصاحبه إلى الرغبة عن العمل والبحث عن الطرق السهلة والمريحة لكسب قوت يومه أو إعالة أسرته، كطلب المساعدة من المحسنين أو الجمعيات الخيرية أو بعض الأقارب والمعارف أو يتجه مباشرة نحو التسول والاحتيال والنصب.

¹ Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes, p 48.

4.2.4 (عدم الحكمة والتبصر:

يتمثل عدم الحكمة والتبصر في عدم التفكير في المستقبل بشكل جدي، إذ هناك من لا يفكر مثلاً في ادخار بعض المال للأيام الصعبة فعندما يكون له عمل مستقر لا يفكر في إمكانية البطالة أو المرض أو الإعاقة أو غلاء المعيشة... الخ

هذا وقد يتزوج العامل البسيط في سن مبكرة وقبل أن تكون وضعيته المادية جيدة، ثم سرعان ما ينجب عدداً كبيراً من الأطفال دون فاصل كبير بينهم إلى غير ذلك من الأمور التي تؤدي به إلى حال من البؤس الشديد أحياناً وهذا كله يعود إلى عدم الحكمة والتبصر.

وإلى جانب هاتين المجموعتين من الأسباب هناك عوامل أخرى يمكننا التطرق إليها فيما يلي:

5.2.4 (الأنظمة الاقتصادية الجديدة :

لقد سلب التطور الاقتصادي العمال الفقراء قدراتهم المعيشية وقد أجبر نظام التسوق الجديد في حوالي القرن التاسع عشر أكثر من نصف البشرية على إرهاق قوتها وبذل كل مجهودها مقابل أجر يتناقص أكثر فأكثر.¹ وكذا كانت الأنظمة الاقتصادية الحديثة نقمة على أبناء الطبقة الفقيرة، فبدل أن تحسن من وضعيتهم وترفع من مستوى معيشتهم زادتهم فقراً بل وأوقعتهم في بؤس شديد ولاسيما النظام الرأسمالي الذي كان يخدم الأغنياء وأرباب الأعمال وأصحاب المال. وهكذا كان المسؤولون وأصحاب المصانع يستغلون العمال استغلالاً لا إنسانياً بل كان يصل بهم الأمر إلى تحويلهم إلى عبيد أو آلات، ففي النظام الرأسمالي كل الطرق المساهمة في مضاعفة العمل وكل الوسائل الممكنة لتطوير

¹ Destremau Blandine, La misère devoiement de la pauvreté , p3.

الإنتاج تتحول إلى أدوات ناجعة للسيادة على المنتج (العامل) واستغلاله فإنهم (أرباب العمل) يجعلون من العامل إنسانا مبتورا ممزقا أو ملحقا بآلة فإنهم يكلفونه أكثر من طاقته ويضيقون عليه من خلال فرض بعض القيود الصعبة تصل إلى درجة الاستبداد والطغيان، إنهم يحولون حياته كلها إلى أوقات للعمل رامين بزوجته وأبنائه إلى الجحيم "هذا هو القانون الذي يقيم علاقة قدرية مزدوجة بين تراكم الثروة وتراكم الفقر والمعاناة والجهل والنهاية والتدهور الفكري والأخلاقي ثم العبودية".¹

ومن هنا يصبح العامل في النظام الرأسمالي كالعبد في يد سيده لأنه كلما عمل أكثر تحصل على أجر أكبر ولكن على حساب صحته الجسدية والنفسية والفكرية، إذ المال لا يخرج صاحبه دائما من البؤس بل قد يزيده بؤسا لأن البؤس ليس ماديا فقط بل هو فكري وروحي ونفسي...

هذا ويرى الباحث الفرنسي "أنطون إليزي شيربولي" (A. E. Cherbuliez) أن من أهم أسباب البؤس النزعة الفردية (L'individualisme) التي جاءت نتيجة التغيرات التي شهدتها أوروبا منذ القرن الثامن عشر ولاسيما على المستوى الديني والأخلاقي وبفعل تراكم الثروات المنقولة إذ ارتفعت رؤوس الأموال بفضل المجهود المشترك لكل من قطاعي الصناعة والتجارة والتي فاقت بكثير رؤوس الأموال الخاصة بالفلاحة، مما فتح المجال أكثر لتطور الصناعة وخلق ما يسمى بالصناعات الكبيرة المعتمدة على الآلات والمحركات الميكانيكية.

وبهذا صار همّ أرباب العمل هو تحقيق المزيد من الإنتاج والربح، وهدف العمال هو العمل أكثر زمنيا حتى يزداد راتبهم ومن هنا ظهرت منافسة شديدة بين العمال من جهة ومن بين أصحاب الثروة من جهة أخرى وهكذا انعزلت كل فئة في مجالها الخاص بها

¹ La paupérisation selon Marx 3eme partie in <https://lesmaterialistes.com>

وأضحى كل واحد منهم لا يفكر إلا في نفسه وفي كيفية تحسين وضعيته أو تزويد ثروته¹ وهذا ما أدى إلى انتشار البؤس بنسب أكبر في عصرنا هذا وخاصة البؤس النفسي والفكري والروحي والثقافي إلى غير ذلك، لأن الإنسان المعاصر بات يعاني بمفرده ويتألم لوحده ولا يوجد من يقاسمه همومه ويشاركه أحزانه ويسعى إلى التخفيف عنه سواء ماديا أو معنويا، لقد أصبح الإنسان ميكيافيليا، فلم يعد يشعر بأي مانع للتضحية بأخيه أو صديقه أو قريبه في سبيل تحقيق غايته ضاربا في ذلك عرض الحائط بكل المبادئ والمشاعر الإنسانية الراقية كالرحمة والشفقة، لقد تجرد الإنسان من إنسانيته وأصبح كالألة التي لا تتحكم فيها سوى المصالح.

5 (نتائج البؤس:

لا تقل نتائج البؤس قسوة عن أسبابه ومظاهره وأنواعه وهي كثيرة ومتنوعة وتتمثل فيما يلي:

1.5) الألم والمعاناة:

من أهم النتائج التي يمكنها أن تتجم عن البؤس مهما كان نوعه هو الألم والمعاناة لأن الإنسان لا يشعر فيه بالراحة والطمأنينة بل بالخوف والتعاسة والقلق وعدم الرضا عن حاله المزرية سواء على المستوى المادي أو المعنوي، "فإن نظرنا إلى مسكنه الكئيب لرأينا أهله شبه عراة ويعانون من الجوع والبرد والمرض وهو لا يدري كيف سيعيلهم مستقبلا، لا

¹ Cherbuliez Antoine Elisée, Etude sur les causes de la misère, tant morales que physiques et sur les moyens d'y porter remède. Librairie de Guillaumin et Cie, Paris 1853, pp 49, 50.

أحد يعرف هذه المنازل المقفرة الموحشة حيث لا يدخل الفرح ولا السعادة إليها أبدا"¹، ويتجلى هذا المنظر واضحا في الوضعية السيئة التي تتواجد عليها معظم البلدان الإفريقية (السوداء)، فبعد خمسون سنة من الاستقلال فهي لا تملك ما تأكله ولا مراكز علاجية واستشفائية للعلاج ولا كهرباء أو مياه صالحة للشرب... الخ كما لا تملك اقتصادا قويا أو صناعة أو زراعة أو تجارة ذات شأن، اللهم إلا بعض المنتجات التقليدية المحلية، ومن ثم فهي تابعة بشكل شبه كامل للبلدان المتطورة، وكذا على المستوى الفكري والثقافي فهي تعيش حالة من الصراع بين الأفكار المحلية، بما فيها العادات والتقاليد، وما يقدمه العالم المتطور من أفكار وإيديولوجيات... وهذا ما يولد التمزق والألم والمعاناة وعدم الرضا عن الحياة المعيشة.

2.5 (التحطم والانهييار :

ورد في إحدى الموسوعات أن البؤس لا يجعل البؤساء تعساء فحسب بل يجعلهم سيئين وبشعين وضعفاء، قد يظن البعض من البورجوازيين أن البؤس وسيلة ثقافية أو تمرين يقوم به الإنسان ليثبت فضيلته وسموه ولكن الاشتراكيين يعلمون أن البؤس الاقتصادي يمنع الإنسان من التحسن والتقدم فكريا ومعنويا، فالبؤس هو وسيلة من وسائل العبودية دون منازع ونحن نعلم أن كل تحرر فكري ومعنوي هو تحرر عابر ما لم يكن مصحوبا بتحرر اقتصادي.²

هكذا يمكن للبؤس الاقتصادي خاصة أن يجعل الإنسان عبدا لشغله وعبدا للمادة فهو لا يفتأ يعمل أكثر فأكثر حتى يتحصل على أجر أكبر وهذا ما يحطمه فكريا وروحيا ويصبح كالألة دون مشاعر إذ لا يكثرث لأمر بيته وزوجته وأطفاله، فعندما تغطي المادة على

¹ Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes, p 51.

² <https://agora.qc.ca/dossier/misere>.

الإنسان فهو يفقد إنسانيته ويصير كالحیوان المفترس الذي يدوس على كل شيء حتى المبادئ والأخلاق التي كان يؤمن بها في سبيل تحقيق طموحاته وهذا ما يعرضه، بعد مرور الزمن، إلى الشعور بالوحدة والكآبة والحزن ويفقده كل رغبة في الحياة وهناك من يتعرض إلى أمراض جسدية خطيرة بسبب الإرهاق الشديد وسوء التغذية كداء السل القاتل خاصة في السنوات الماضية، أو السرطان المنتشر بشكل مخيف خاصة في البلدان الفقيرة والنامية وهناك من يتعرض إلى حوادث خطيرة من جراء الآلات التي يعمل عليها يوميا في المصانع والتي قد تؤدي به إلى الإصابة بعاهة مستدامة تجعله مقعدا إلى الأبد وتقضي على حياته وعلى طموحاته بشكل كامل.

3.5 (التسول:

وهو من أهم العوامل التي تحط من قيمة الإنسان و تفقده كرامته و تعمق بؤسه أكثر إذ يبدأ المتسول بطلب المعونة بطريقة محتشمة وسرية من شخص واحد ثم سرعان ما يوسع دائرة نشاطه (التسول) لينتقل من شخص إلى آخر ومن عائلة إلى أخرى وهذا خاصة عندما يدرك أنه بإمكانه الحصول على مبلغ من المال بكل أريحية وبدون أي جهد أو عمل.

بالفعل لا يختار الإنسان أن يكون متسولا كما لا يتجه نحو التسول إلا إذا بلغت حاله درجة كبيرة من السوء والتدهور المادي ولا يجد حلا آخر لمعضلات حياته ، ولكن مع مرور الزمن تترتب عليه نتائج وخيمة جدا مثل:

فقدانه الإنسان لعادة الشغل وتعوده على الفراغ الذي يُنتج الكذب والخداع، ومن ثم اختراع بعض الآلام ليؤثر على مشاعر الناس حتى يجودون عليه بالمال وهناك من يصل به

الأمر إلى اختلاق بعض الأحداث المحزنة ويُرى بعض الجروح المصنوعة على جسده... إلخ وهكذا يفقد المتسول ضميره وكرامته في الوقت نفسه.

هذا وإن التسول في القرى أخطر منه في المدن، فقد تُرى جماعات من المتسولين في القرى وهم ينتقلون من مزرعة إلى أخرى ومن قصر إلى آخر يطلبون الخبز أو المال وغالبا ما كانوا يستخدمون وسائل التهديد، وقد انتشرت هذه الظاهرة خاصة في أوروبا أثناء القرن التاسع عشر.¹

وهكذا يصبح المتسول، بسبب البؤس، إنسانا كسولا وكاذبا ومحتالا وعنيفا أحيانا. وبعد كل هذه النتائج ، بات من الضروري البحث عن الوسائل الناجعة لوضع حد لآفة البؤس.

6 (محاربة البؤس :

ترى "سيسيل كوكيرمان" (Cécile Cukierman) أن "البؤس هو خرق لحقوق الإنسان الأساسية وهو ليس بشيء قدرى لذا ينبغي محاربته عن طريق محاربة غياب العدالة الاجتماعية التي لا تفتأ تنمو دون توقف"،² وإن الليبيرالية الاقتصادية تقوي أكثر بؤس الطبقات الشعبية، ولمواجهة ذلك، تعد الدولة الضامن الأساسي لتوفير الخدمات الضرورية للشعب، هذه الخدمات التي يعجز السوق على تقديمها له، مثل الخدمات العمومية الخاصة بالصحة والمواصلات والتربية وغيرها، وقد حط المدافعون عن الليبيرالية من قيمة هذه الخدمات بدعوى أنها مكلفة جدا وذات مردودية ضعيفة جدا، إن الليبيرالية الاقتصادية

¹ Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes , pp 51, 52.

² <http://humanité.fr/humanité-contre-la-misère-le-régime-capitaliste-est-il-responsable-de-la-pauvreté-586986>

تؤدي إلى طريق مسدود فيما يتعلق بالفقر والبؤس¹ وعليه ينبغي الوقوف في وجهها والتصدي لها حتى لا تسبب كوارث أخرى للطبقات الشعبية البسيطة.

وتعود عملية محاربة البؤس إلى منتصف القرن التاسع عشر وبالذات إلى سنة 1848 أي بعد الثورة الفرنسية، حين قام السياسي الفرنسي "أرمان دي مولان" (Armand de Melun) بتشجيع الناس على التصويت لأهم القوانين الكبرى فيما بين سنتي 1841 و1851 ومن بينها: الحد من عمل الأطفال وتوفير السكن اللائق والصحي للمحتاجين وإنشاء صندوق التقاعد وتقديم المساعدات القضائية والاستشفائية... الخ، وقد اقترح "دي مولان" أمام المجلس التشريعي تعيين لجنة من ثلاثين عضوا لتحضير القوانين النسبية وت فحصها هذه القوانين الخاصة بالاحتياط والتعاون العمومي، وقد افتتح هذا اللقاء، المنعقد في يوم 9 جويلية 1848، بخطاب تشجيعي ألقاه الأديب الفرنسي "فيكتور هوغو" (Victor Hugo) ومن أهم ما ورد في هذا الخطاب هو "إن البؤس موجود في فرنسا وفي باريس وفي العصر الذي نعيش فيه: هناك في باريس وضواحيها عائلات بأكملها تعيش في بؤس وفوضى، لا أفرشة لديهم ولا أغذية ولا ملابس تقريبا لديهم إذ هي مجرد قطع قذرة مأخوذة من المزابل...، أيها السادة لا يمكن لهذه الأشياء أن تكون موجودة في بلدنا لذا ينبغي على الكل أن يتجند ويبذل كل مجهوده وقدراته وإرادته للقضاء على هذه الظاهرة."²

وفي نفس الفترة الزمنية، تقريبا، رأى الباحث الفرنسي "جول سيجفريد" (J. Siegfried) أن هناك نوعين من المساعدات الممكن استخدامها لمحاربة البؤس هما: المساعدات العمومية والوسائل الوقائية.

¹ <http://humanité.fr/humanité-contre-la-misère-le-régime-capitaliste-est-il-responsable-de-la-pauvreté-586986>

* سيسيل كوكيرمان هي سياسية فرنسية من مواليد أبريل 1976 وهي عضو ناشط في الحزب الشيوعي الفرنسي.

² Ensemble refusons la misère, ATD Quart Monde ,dossier pédagogique 2014/2015 , p12.

1.6) المساعدات العمومية:

وهي موجودة بطريقة جد منظمة في فرنسا وهي تنقسم إلى مساعدات مدنية و ولائية وبلدية وقد أسندت مهمة مساعدة الفقراء والمرضى للبلديات ومع ذلك نجد السلطات الولائية والمدنية تأخذ على عاتقها الحالات العامة وبهذا تكون الدولة هي المالكة والمسيرة لمجموع المآوى والمراكز تحت تسمية المؤسسات العامة لعمل الخير مثل: مركز الأشخاص المختلين عقليا بـ"شارونتون" (Chareton) بفرنسا ومركز آخر للمكفوفين وللصم والبكم في باريس وغيرها.¹

كما تتكفل البلدية بالمستشفيات وملاجئ المسنين والمعوقين والأطفال مجهولي النسب، أما الجهات المكلفة بالإحسان فهي تنشط بطرق عديدة كالتبرعات التي تتم غالبا بسرية كبيرة إضافة إلى الإغاثات وغيرها، ويعود الفضل لهذه الهيئات في إنشاء حضانات الأطفال وبعض المراكز المهنية² حيث يتكون كل ما لا حرفة له حتى يجد عملا محترما يخرج من حال البؤس والشقاء.

2.6) الوسائل الوقائية:

وتتمثل في صناديق التوفير والتقاعد والمستشفيات والملاجئ وغيرها وهي من إنشاء الخواص وتقوم الدولة بدعمها وتشجيعها ولكن سرعان ما أصبحت هي (الدولة) المشرفة على تسييرها وإدارتها فيما بعد.

صحيح أن هذه المراكز والمؤسسات مهمة جدا وتلبي احتياجات الكثير من الفقراء والبؤساء إلا أنها غير كافية وهذا خاصة في الأرياف حيث يكثّر البؤساء والمعدمين

¹ Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes , p 55, 56.

المرجع السابق، ص 57.²

ولاسيما في مواسم الحصاد السيئة. زد على ذلك ظاهرة البطالة التي هي في تزايد مستمر بسبب الآلات الميكانيكية التي تستخدمها الورش وبعض المصانع القليلة جدا خارج المدن الكبرى والتي حلت محل الإنسان العامل، إضافة إلى النقص الفادح الذي يشهده القطاع الصحي خاصة في الأطباء والصيادلة¹ وكذا الفوضى العارمة التي عرفت المساعداة والأعمال الخيرية ، وبناء على هذا كان العمال من مختلف القرى في فرنسا يهاجرون نحو المدن الكبرى علم يجدون ما يسد رمقهم.

وفي النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين أي في سنة 1957 أسس الراهب الفرنسي "جوزيف فريزنسكي" (J. Wresinski) منظمة دولية لا حكومية تحت اسم (ATD Quart monde) تضم أكثر من ثلاثين دولة وهي موجودة في مختلف القارات: إفريقيا وآسيا وأمريكا وأوروبا، هدفها محاربة البؤس بمختلف أنواعه والتعريف بكل الذين سلبت منهم كرامتهم،² وقد انضم إلى المجلس الاقتصادي الاجتماعي سنة 1979 و حرر تقريرا بعنوان "البؤس وعدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي"، وفي 17 أكتوبر 1987 اجتمع "جوزيف فريزنسكي" بالآلاف من الأشخاص في الساحة الأمامية لمقر الحريات وحقوق الإنسان بباريس حيث نقشت الجملة التالية: "حيث حكم على الناس أن يعيشوا في البؤس فهناك تكون حقوق الإنسان منتهكة وإن اجتماعنا من أجل فرضها هو واجب مقدس".³

¹ Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes , pp 57, 58.

² Wresinski Joseph, Les plus pauvres révélateurs de l'invisibilité des Droits de l'Homme édition Quart monde 1998, p 23.

³ Ensemble refusons la misère, ATD Quart monde, dossier pédagogique des enseignants, animateurs, éducateurs, 2014/ 2015, p 17.

وفي سنة 1992 ، اعترفت الجمعية العامة للأمم المتحدة بهذا اليوم (17 أكتوبر) كيوم عالمي لرفض البؤس.¹

كما حرر "فريزنسكي" تقريراً حول البؤس وكيفية محاربته ولقد صادق عليه المجلس الاقتصادي الاجتماعي في 11 فيفري 1987 ، وكان يدعو من خلاله إلى ضرورة الاعتراف بأن البؤس خرق لحقوق الإنسان² وأن مكافحته هو قضية الكل.

وبعد وفاة "فريزنسكي" سنة 1988 استلمت "جونفيف دي غول أنطونيوز" (Geneviève de Gaulle Anthonioz) رئاسة هذه المنظمة وواصلت عمل سلفها وخاصة لدى المجلس الاقتصادي والاجتماعي سنة 1988 ، وقد قدمت نص القانون التوجيهي لمقاومة الاستعباد والتهميش في 9 جويلية 1998 أمام مجلس النواب.

وقد فتح هذا القانون جبهة جديدة للصراع ضد البؤس، وقد حققت (هذه الجبهة) تقدماً على المستوى الاجتماعي مثل التغطية الطبية العالمية (CMU) سنة 1999 والاحتجاج بالحق في السكن (DALO) سنة 2007.³

ومن بين الوسائل المقترحة من قبل المختصين لمحاربة البؤس هي: العمل على توفير العدالة الاجتماعية:

"إن المساواة بين البشر هي الصورة الصحيحة للعدالة بأنواعها، تبرز تلك المساواة أهمية عيش الإنسان لإنسانيته بفخر واعتزاز من دون نقصان بل محافظاً على كرامته الشخصية [...]. هل يدرك أبناء البشرية أن العدالة الاجتماعية تحقق المساواة والكرامة الإنسانية؟

¹ Ensemble refusons la misère, ATD Quart monde, dossier pédagogique des enseignants, animateurs, éducateurs, 2014/ 2015, p 18.

المرجع السابق، ص 13.

المرجع السابق، ص 13.

واحترام الآخر وعيش المحبة [...]تحاول كل عدالة اجتماعية أن تحد من البؤس المستشري في عالما، عبر روح الأخوة التي تتغلب على الأنانية والفردية.¹

وقد خصت الأمم المتحدة يوم 20 شباط من كل عام للاحتفال باليوم العالمي للعدالة الاجتماعية التي لو تحققت ستساهم في التخفيف من حالة البؤس في المجتمع وتحد من العنف والاقتتال...²

إضافة إلى ذلك، يقول "أوزا نام" (Ozanam) ، وهو أحد المناضلين من أجل وضع حد للبؤس وتأثيراته السلبية على الإنسان، أنه لا يكفي تقديم مساعدات مادية للمحتاج بدون أي احترام أو ابتسامة أو نظرة حنان، لأننا إن اكتفينا بتقديم رغيف لأحدهم بدون أي مشاكل فسنساهم في إبقائه على قيد الحياة، ولكن كحيوان بدون مشاعر وأحاسيس، لأننا في هذه الحال نشعر أنه غير قادر على سد حاجياته بنفسه وهنا قد نتسبب في إهانته و نسهم في إيقاظ مشاعر العنف و العدوانية فيه وعليه فإن البؤس في أمس الحاجة إلى الحنان والمحبة والدفع.³

وبهذا الشكل تعمل مختلف المؤسسات والمنظمات الاجتماعية والحقوقية والخيرية في مختلف أنحاء المعمورة بكل جد إلى يومنا هذا و تسعى إلى حل مشكلة البؤس التي لا تزال حاضرة في وسطنا حاليا رغم التطورات الكبيرة التي حققها الإنسان على مختلف الأصعدة.

¹ نجيب بعقلين، عدالة اجتماعية للحد من البؤس في <http://claudebouchara.com>

² المرجع السابق.

³ Mercier Charles, université de Bordeau/LAES-E3D. pp 5, 6.

7 (العلاقة بين الفقر والبؤس:

كثيرا ما نخلط بين كلمتي "فقر" و"بؤس" فهما تبدوان للوهلة الأولى وكأنهما مترادفتان لأننا كثيرا ما نربطهما بالجانب المادي دون سواه ولكن عندما ندقق جيدا في معنييهما يتجلى لنا الفارق بينهما، وهذا الفارق هو الذي يختلف فيه الباحثون مما نتج عنه تعدد في الآراء وتنوع في وجهات النظر التي حاولنا أن نورد البعض منها فيما يلي:

يرى الباحث الإيراني "ماجد راحنامه" أن الفقر ليس بالبؤس بل غالبا ما يسعى الثاني إلى طرد الأول والخلط بينهما يؤدي إلى نتائج وخيمة.¹

وورد في موسوعة الأغورة الإلكترونية أن الفقر هو نظام حياة ووضعية معينة مبنية خاصة على أسس البساطة والاعتدال واحترام الآخرين بينما يمثل البؤس حالة أخرى مختلفة، فهي عبارة عن سقوط في عالم بدون معالم حيث يشعر الشخص فجأة أنه سلب قواه الحيوية الذاتية والاجتماعية الضرورية له لكي يصنع مصيره.²

وهناك من لا يميز بين الفقر والبؤس ولكن الخلط بين هذين المفهومين يمكنه أن يؤدي إلى نتائج عكسية وخاطئة، كما لا يمكننا أن ننظر إلى الفقر والبؤس على أن هناك بضعة درجات قليلة فقط تفرق بينهما وكأن البؤس يسجل درجة أكبر من الاحتياج والفقر، ولكن علينا أن نأخذ بعين الاعتبار كون هذين المفهومين اللذين سيحيلاننا إلى مسائل اجتماعية مختلفة. وللتوضيح أكثر، فإن البؤس يظهر بصورة مختلفة عن الفقر فهو غالبا ما يكون مصحوبا بتدهور للحالة الإنسانية لصاحبها، وهو (البؤس) يخص شرائح مختلفة من المجتمع: كالمنبوذيين والمنفيين والمطرودين... هذه في المجتمعات التقليدية، أما حاليا فهناك عائلات بدون دخل ومحرومة من كل المعالم الثقافية ومنغمسة في إهمال الأحياء القصدية ولا سيما في بلدان الجنوب ولكن هذه الظاهرة ليست حكرا عليها بل سرعان ما

¹ Destremau Blandine, La misère devoiement de la pauvreté, pp 1, 2.

² Agora.qc.ca/dossier/misère

نجدها في البلدان المصنعة وتتمثل في أقلية منبوذة ومعزولة وهي عرضة للتمييز وغالبا ما تكون بدون مسكن قار ومهمشة... ولكنها سرعان ما تسقط في فخ التطور الذي يجبرها على الدخول في مشاكل اقتصادية واجتماعية: كالبطالة المطولة وتراكم الديون والتمزق العائلي...إلخ.

هذا ويسمى البؤس أحيانا الفقر المدقع أو الفقر الشديد لأنه يضم عدة دلالات و يشمل مجموعة من الاحتياجات بفعل نتائج النفي والعزلة المولدة لآلام قاسية جدا على المستوى المادي والمعنوي، و بصيغة أخرى، يجاور البؤس الشقاء والشدة والضيق والتعاسة وسوء الحظ...، وهو يبقى حالة سلبية للغاية ينبغي التخلص منها بسرعة.¹

أما الفقر فهو يشمل حقائق متنوعة ومتناقضة، عادة نعتبر الفقر حالة معاناة وحرمان على المستوى المادي [...] وهنا تتبادر إلى أذهاننا صورة العمال الحرجة الذين يندمجون بشكل جيد في مجتمعاتهم ولكنهم يواجهون حالة من الضيق المادي ولكنها ليست بنفس الخطورة والحدة التي توجد عليها في البؤس لأنه ليس مرادفا للتدهور والانحطاط والحرمان المعيشي بشكل مؤلم، وحتى إن تسبب في بعض الصعوبات للبعض ولكنه (الفقر) لا يقترن بالكرامة المجروحة ولا بالمعاناة الجسدية أو التهميش الاجتماعي.²

زيادة على ذلك، يمكن للبعض أن يختاروا حياة الفقر (اختيار فلسفي أو ديني) مثل "غاندي" الذي اختار الفقر كنوع من الحكمة والأسلوب الذي انتهجته لتحرير شعبه، ولكن لا أحد يستطيع اختيار العيش في البؤس لأنه يدوس على كرامة الإنسان [...] وهذه حقيقة غير معروفة بصورة جيدة وواضحة عبر التاريخ لعدم إتاحة الفرصة للبؤساء للتعبير

¹ Mallard Bruno, Le paradoxe de la négation de la misère : Savoir et non-savoir de l'expertise internationale. GRESAL/MSH-Alpes, p6.

المرجع السابق، ص 6. ²

عن حالهم ووصف آلامهم لأن البؤس غالبا ما يحتجز صاحبه في الخزي والوحدة.¹ ولعل الأسوأ في البؤس هو الازدراء الذي يتعرض إليه البائس من قبل مواطنيه، هذا الازدراء الذي غالبا ما يبعد هؤلاء عن حقوقهم وما يمنع الآخرين من الاعتراف بجدارتهم وكفاءتهم حتى يتمكنوا من تبوء المسؤولية.²

هذا ولا يتخذ البؤس أشكالا مادية بالضرورة، فوحدة الشخص المسن المحجوز في مأوى للمسنين مثلا، تجعل حياته شبيهة بالموت [...] كما ندرك بشاعة البؤس من خلال بعض المتشردين المحطمين والمتلفين نفسيا حتى عجزوا على الاندماج مجددا في المجتمع لأنهم في عالم آخر.³

ويرى "جوزيف فريزنسكي" أن البؤس هو أقصى أنواع الفقر فهو الفقر المدقع الذي يهدد حياة الإنسان وهو العيش على حافة البركان و العجز عن سد الحاجيات الضرورية جدا. وهناك عاملان أساسيان يفرقان بين الفقر والبؤس بالنسبة لـ"فريزنسكي"، فيما يتعلق بالفقر، يتصارع الشخص ضد الشدائد والصعوبات، ويتشبث بمجتمعه رغم أنه همش، وفي المقابل يشارك الشخص البائس في تحطيم نفسه، فهو يستسلم كلية للظروف، لأنه إنسان منهزم وتعلوه الروح الانهزامية.

كذا يجد الفقير نفسه ضمن علاقات اجتماعية(عائلة، أرباب عمل...) ومن الناحية الثانية يرتبط البائس بإلغاء العلاقات الاجتماعية وخاصة العلاقات العمودية، فالبؤس هو الإقصاء من المجتمع البشري.

¹ Ensemble refusons la misère, ATD Quart monde, Dossier pédagogique 2014/ 2015 des enseignants, animateurs, éducateurs, p 15.

² Wresinki Joseph, Les plus pauvres révélateurs de l'indivisibilité, p 23.

³ Charles Mercier, p 14.

وفي هذا السياق، فإن البؤس لا يعني فقط الفقر المدقع وإنما العلاقة مع الذات ومع الآخرين. فهو قطع للعلاقات.¹

ومن هنا يعتبر "فريزنسكي" البؤس في البلدان الغنية أشع بكثير منها في البلدان النامية والفقيرة.²

وبناء على ما سبق، يمكننا القول أن الفقر ليس بالبؤس رغم التقارب الموجود بينهما.

¹ Charles Mercier, p2.

المرجع السابق، ص 2.²

الباب الثاني:

ظاهرتا الفقر والبؤس في

المجتمعين الفرنسي والمغربي

الباب الثاني:

الفصل الأول:

الفقر والبطس في المجتمع
الفرنسي خلال القرن التاسع
عشر

شهدت فرنسا خلال القرن التاسع عشر ما لم تشهده في القرون الماضية على الإطلاق، لقد كانت فترة الثورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و التغيرات الفكرية و الإيديولوجية و التجديدات الفنية والأدبية و الابتكارات العلمية و الصناعية. وقد اختلف المؤرخون حول تحديد هذه الحقبة التاريخية بالذات، فهناك من رأى أنها تبدأ في سنة 1789م وهو تاريخ اندلاع الثورة الفرنسية وذهب آخرون إلى سنة 1814م المصادف لتاريخ انهزام جيوش نابليون، كما وقع أيضا جدال حاد بين المختصين حول تاريخ انتهائها (هذه الفترة) الموافق لبداية الحرب العالمية الأولى لدى البعض و الحرب العالمية الثانية لدى البعض الآخر، ورغم هذه الاختلافات و الخلافات، فإن الحدود التقليدية للقرن التاسع عشر هي 1814م و 1914م ، نظرا لامتداد أحداثه إلى ما بعد القرن العشرين. وفيما يلي سنورد أهم الأحداث و الظروف التي عرفت فرنسا أثناء هذه الفترة المهمة و الحاسمة لأنها غيرت المسار السياسي و الفكري و الاجتماعي و الاقتصادي لهذا البلد.

1) الأوضاع السياسية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر:

1.1) الأنظمة السياسية:

عُرف القرن التاسع عشر بعدم الاستقرار السياسي في فرنسا، فقد شهد أنظمة سياسية عديدة و متنوعة، إذ بعد فترة قصيرة من اندلاع الثورة الفرنسية أُسقط النظام الملكي و أُعلن النظام الجمهوري و ولدت الجمهورية الأولى سنة 1792م ثم أُعدم الملك لويس السادس عشر و زوجته "ماري أنطوانيت" (Marie Antoinette) في عام 1793م لأنه لم يكن مستعدا لمواجهة التحولات الاقتصادية العميقة: كانتعاش التجارة و الصناعة و شروط التمدن و تصاعد الطبقة البرجوازية وتطورات إيديولوجية و فلسفية إضافة إلى المشاركة في تموين حرب التحرير في الولايات المتحدة الأمريكية (1778-1783م) التي

رفعت من مكانة فرنسا في الخارج و لكنها أنهكت الخزينة.¹ وزد على ذلك سوء تسييره لنظام الحكم الذي كان ملكيا مطلقا و مستبدا وسماحه لكل من زوجته و حاشيته و كبار النبلاء و رجال الدين للتأثير عليه بشكل سلبي للغاية وكذا سوء الأوضاع الاجتماعية التي كان يعيشها السواد الأعظم من الشعب الفرنسي: فقد كان يعاني من البؤس و الفقر إلى حد عدم إيجاد رغيف من الخبز لإسكات جوعه، ومن هنا، كان العديد من الباحثين يجزمون بأن الثورة الفرنسية هي ثورة الفقر و الحرمان.

هذا و لقد "شكلت الثورة الفرنسية تحولا أساسيا في التاريخ الفرنسي و الأوروبي و في إقرار الديمقراطية و حقوق الإنسان فهي حدث تاريخي مهم بدا على شكل انقلاب سياسي في فرنسا (1789م) و أثر في العالم كله".² لقد كان لها الفضل في توعية البلدان الأوروبية المجاورة التي كانت تحت وطأة الأنظمة الاستبدادية الجائرة و الهاضمة لحقوق الأغلبية الساحقة من شعوبها التي كانت تعاني من ويلات تلك السياسات. و من أهم الأنظمة التي عرفتتها فرنسا طيلة هذه الحقبة الزمنية نذكر:

1.1.1 نابليون بونابرت و الإمبراطورية الأولى (1804-1814م):

استغل نابليون بونابرت انقلاب نوفمبر عام 1799م و عين نفسه قنصلا أولا للجمهورية و فرض على البلاد دستورا يتميز بالاستبدادية حتى يضمن له السلطة التنفيذية و التشريعية معا، وفي سنة 1802 نصب نفسه قنصلا مدى الحياة و رئيسا للجمهورية الإيطالية، و ابتداءً من سنة 1803م تواصلت الحرب بين فرنسا و انجلترا

¹ Le Petit Robert 2, Dictionnaire universel des noms propres dirigé par Alain Ray, Paris 1984, p671.

² يوسف العاصي الطويل، النظام السياسي الفرنسي من الثورة إلى الجمهورية الخامسة (1789-2007م)، إشراف د/رياض العيلة جامعة الأزهر بغزة كلية الاقتصاد و العلوم الإدارية قسم العلوم السياسية (الدراسات العليا)، ص7.

و في تلك الأثناء اكتشف نابليون مؤامرة من قبل الملكيين و منها قرر تنصيب نفسه إمبراطورا للفرنسيين و ملكا لإيطاليا بلقب نابليون الأول عام 1804م.¹

هذا وقد طبق نابليون الأول ما يسمى بالسياسة التوسعية فقد كانت الإمبراطورية حينذاك تضم فرنسا و بلجيكا و هولندا و هامبورغ و الضفة اليسرى لنهر الراين و شمال إيطاليا و غيرها، كما كان ملك إسبانيا و ملك نابولي أتباع الإمبراطور نابليون الأول²، و قد كانت انتصاراته لا تفتأ تتواصل و لكنها في الوقت نفسه كانت توقظ في تلك الشعوب الروح القومية و الرغبة الشديدة في التخلص من سيطرته و طغيانه عليها، و هكذا كانت تلك الدول تثور عليه الواحدة تلو الأخرى إلى أن اتحدت و تحالفت* مع بعضها و قررت أن تواجهه بكل قوة في معركة "واترلو" (Waterloo) الشهيرة بقيادة "الدوق دي ويلينغتون" (Le Duc de Wellington) الانجليزي و "الماريشال بلوخر" (Le maréchal Blucher) الألماني و كان ذلك في عام 1815م و قد انهزمت فيها جيوش نابليون شر هزيمة و نفي بعدها إلى جزيرة "القدسية هيلين" (sainte-Hélène) حيث قضى حوالي ست سنوات إلى أن وافته المنية يوم 21 ماي 1821م، ومعه انتهت الإمبراطورية الأولى في فرنسا.

2.1.1 (عودة الحكم الملكي (1815-1848م):

بعد سقوط "نابليون بونابرت" عاد النظام الملكي إلى الحكم الفرنسي و قد دام حوالي أربع و ثلاثين عاما و هي فترة زمنية لا يُستهان بها و تنقسم إلى مرحلتين أساسيتين هما:

¹ Dictionnaire encyclopédique Larousse, p961.

² Dictionnaire Le Petit Robert 2, p584.

* تتكون دول التحالف من: بريطانيا و هولندا و هانوفر و بروسيا*

- مرحلة الإعادة و الإصلاح (La restauration) التي كانت فيما بين 1814م و 1830م، و كانت تحت قيادة الملكين: "لويس الثامن عشر" و "شارل العاشر".

- مرحلة ملكية يوليو (La monarchie de Juillet) فيما بين 1830 و 1848م و كانت تحت قيادة الملك لويس فيليب الأول (Louis Philippe Ier). و تعتبر هذه الفترة فترة عودة "آل بوربون" (Les Bourbons) إلى الحكم في فرنسا و في هذه الأثناء تم تعيين لويس الثامن عشر ملكا على فرنسا.

"لقد كان لويس الثامن عشر مجبرا على تحمل احتقار و ازدراء الشعب الذي ثار على آل بوربون و طردهم، و باتت فرنسا إثرها تعيش في دوامة مروعة، فصاحبة المبادئ السامية أصبحت هي الواقعة تحت نير الاحتلال، وكانت هي المطالبة بالدستور فإذا بها تحت ملكية بوربوننة بغیضة النظام وصحافة مكمة الأفواه [...] و كنيسة تريد أن تستعيد سلطتها و أملاكها في مواجهة اتجاهات علمانية قوية".¹

و لمواجهة هذه الأوضاع الحساسة حاول "لويس الثامن عشر" أن يكون معتدلا في سياسته و حكيمًا في سلوكه، " فلم يندفع في المطالبة بحقوق الملكية الإلهية و إنما أراد أن يحكم كملك دستوري وأبقى على قوانين نابليون [...] و أرضى المهاجرين دون سحب ما بيد الفلاحين من أرض أو حقوق اكتسبوها خلال عهد الثورة و نابليون، و عمل على تحرير البلاد و دفع الغرامة المفروضة على فرنسا"² كما عمل على ضمان "حقوق الأفراد و المساواة و الحرية الشخصية و الدينية و إطلاق حرية الصحافة ضمن حدود تعيينها

¹ نوار عبد العزيز سليمان و جمال الدين محمود محمد، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي مصر، سنة 1999م، ص321.

² المرجع السابق، ص321.

القوانين".¹ هذا و قد انتهج لويس الثامن عشر نظاما سياسيا شبيها بالنظام الانجليزي، إذ وضعت السلطة التشريعية في يد الملك بمعية مجلسين: الأول وراثي وهو خاص بأثرياء القوم و الثاني نيابي و ينتخب من الشعب، وأما السلطة التنفيذية فيقودها الملك مع البعض من الوزراء المسؤولين "ولكن الدستور ترك مجالا كبيرا للشرح والتأويل و لاسيما فيم يتعلق بقواعد الانتخاب و حرية الصحافة و انتخاب الوزارة، فأخذت الأحزاب المختلفة تستخدم هذا الغموض في مصلحتها".²

ونتيجة لذلك ظهر هناك ثلاثة أحزاب تتمثل في :

أ- الملكيون المتطرفون : و قد كان هدفهم هو تدمير قواعد الحرية المهضومة في الدستور

ب- المستقلون : و كانوا من أنصار مبدأ سيادة الأمة و ينتقدون فشل الدستور في تحقيق أعظم أسس الديمقراطية.

ج- الملكيون الدستوريون : و هم ممن يقبلون الدستور كما هو بحذافيره لأنه يكفل اختلاط مختلف العناصر و توفير أرضية ملائمة للنفاهم بين المؤيدين للثورة و المنحازين للزمن القديم.³

¹ قاسم محمد و حسني حسين ، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة 1929م، ط 6، ص 90.

² المرجع السابق، ص 90.

³ المرجع السابق، ص 90، 91.

كما عرفت هذه الفترة ثلاثة مراحل مهمة وأساسية هي:

أ- الملكية المتطرفة (1815-1816م):

و لما كنت عودة الملكية قد اقترنت بأشد أنواع المظالم و الاضطهاد إزاء أنصار نابليون و رجال الثورة، فقد استطاع المليون المتطرفون، في ظل هذا الإرهاب "الأبيض" أن يحرزوا أغلبية المقاعد في مجلس النواب و لذلك أطلقوا العنان لسياسة العنف و التطرف و مطاردة أشياع الثورة و تقييد الحرية الشخصية و حرية الصحافة على الرغم من مقاومة الوزارة المعتدلة التي كان يرأسها "ريشوليو" (Richelieu) حتى خيل للناس أنهم على أبواب انقلاب جديد [...] و أن فرنسا تتعرض لأعظم الأخطار [...] فقررت الوزارة حل هذا المجلس [...] وكانت النتيجة أن انتقلت الأغلبية في المجلس الجديد إلى طائفة المعتدلين من فريق الملكيين الدستوريين¹.

ب- الملكية المعتدلة (1816-1820م):

لقد أعادت فرنسا في هذه المرحلة تنظيم بيتها و سادت الثقة و الراحة في سائر البلاد و لكن سرعان ما أدى إلى إطلاق حرية الصحافة و إصلاح قانون الانتخابات إلى ارتفاع عدد الجمهوريين - وهم أعداء النظام الملكي- في المجلس مما جعل "ريشوليو" يقيد شروط الانتخابات مرة أخرى و لكنه قبل برفض الملك لهذا القرار مما دفعه إلى الاستقالة و خلفه في ذلك "إيلي ديكاز" (Elie d'Ecazes) و هو من أهم الشخصيات المجسدة للملك الدستوري الذي عمل على تقليص الهوة الفاصلة بين الملك و الشعب كما سن عدة قوانين تدل على ليبراليته، "إلا أن دخول الكثير من رجال الثورة الغابرين أمثال "لافاييت"

¹ قاسم محمد و حسني حسين، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى، ص 91.

(Lafayette) و "جريجوار" (Grégoire) في المجلس النيابي و حادث مقتل "دوق بري" ثاني ولدي "الكونت دارتوا" (Le Comte d'Artois) [...] عزز سياسة الملكيين المتطرفين الذين كانوا يعملون جهدهم في إسقاط وزارة "ديكاز" حتى فازوا أخيرا بما كانوا يبتغون".¹

ج - عودة الملكية المتطرفة (1820-1827م):

وقد استلم في هذه المرحلة زمام الوزارة "فيلال" (Villèle) و هو زعيم الرجعيين، الذي أعاد تغيير قانون الانتخابات و فرض الرقابة على الصحافة، و شكل مجلسا جديدا من الرجعيين الذين كانوا يطبقون سياسة العنف و الاضطهاد في مختلف المجالات، و لمجابهة هذا الخطر تحالف خصوم الوزارة و أسسوا حزبا يجمع بين الملكيين و الأحرار و الجمهوريين من أنصار "لافاييت" و "غيزو" (Guizot) و "تيير" (Thiers)، مما سمح لهم بالفوز الساحق في الانتخابات وفي سنة 1824 توفي الملك "لويس الثامن عشر" الذي عمل على أن يكون ملكا دستوريا حتى ينال رضا الأغلبية من الفرنسيين و مختلف التيارات السياسية حينذاك، فبعد أن تعود الفرنسيون على بعض الحريات و الانجازات التي "دفعوا ثمنها من دمائهم أثناء الثورة الفرنسية ما كانوا مستعدين للتراجع عنها، وهذا يعني أن الفرنسيين إذا كانوا قد قبلوا بعودة الملك لويس الثامن عشر إلى الحكم فإن ذلك على أساس أنه حكم ملكي دستوري لا ملكي إطلاقا".²

و لكن سرعان ما انقلبت الأوضاع بصورة ملحوظة مع جلوس "شارل العاشر" على عرش فرنسا عام 1824م خلفا لأخيه و قد عُرف "شارل العاشر" بتطرفه الشديد، و كان حلمه

¹ قاسم محمد و حسني حسين، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى ص 91، 92.

² يوسف العاصي الطويل النظام السياسي الفرنسي، ص 11.

هو إعادة مُلك العائلة البوربونيه المطلق كما كان عليه قبل الثورة الفرنسية "فأعاد إلى الكنيسة سلطانها المطلق، ووضع التعليم بيد "اليسوعيين" (Les Jésuites) المشايعين للملكية المطلقة ووهب الأشراف المهاجرين تعويضا كبيرا على أملاكهم التي فقدوها كما أمر بجل الحرس الأهلي و طرد بقية ضباط "نابليون" من الجيش، على أن هذه السياسة المتطرفة [...] أثارت روح المقاومة بين الملكيين أنفسهم فضلا عن الأحرار الدستوريين بحيث تعذر على الحكومة الاحتفاظ بمركزها و مقامها في البلاد، فتقرر حل المجلس"¹، الذي رفض أن يشدد الرقابة أكثر على الصحافة، و بعد استقالة "فيلال" من الوزارة سنة 1827 خلفه "مارتيناك" (Martignac) وهو أكثر انفتاحا من سابقه كما كان يحاول أن يكون معتدلا و لكنه سرعان ما أسقط من قبل الملكيين و الأحرار معا لأنه لم ينجح في نيل رضاهم و بسقوط "مارتيناك" سقطت فرنسا مرة أخرى في سياسة العنف و الاضطهاد و ذلك من خلال الوزارة الجديدة التي تولاها "بولينياك" (Polignac) وهو من الزعماء الرجعيين ، وقد حكم البلاد دون برلمان لفترة تربو على سبعة أشهر ووقف بذلك في وجه المعارضة و تحداها بشدة، ولكن سرعان ما أجريت انتخابات جديدة أسفرت عن "زيادة عدد المعارضين ، فقرر الملك في 26 يولييه سنة 1830- اعتمادا على الانتصارات التي أحرزتها الجنود الفرنسية في الجزائر- إلغاء الانتخابات و تحوير قانون الانتخابات و تقييد الصحافة فانقطع بذلك سبيل المعارضة الدستورية، ولم يبق إلا سبيل المقاومة الفعلية، فلجأ المعارضون إلى إثارة الشعب الحانق على الملكية وأنصارها"² و كانت الأوضاع في صالحهم و هكذا و بعد يومين من المقاومة، سيطر الشعب على باريس وأحكم السيطرة عليها و حينها "تألفت هيئة مؤقتة تتولى الدفاع عن الأموال و الأرواح فأعادت تنظيم الحرس الأهلي ريثما تشكل الحكومة الجديدة".³

¹ محمد قاسم و حسين حسني، تاريخ القرن 19 في أوروبا، ص92.

² المرجع السابق، ص92.

³ المرجع السابق، ص93.

لقد كانت "ثورة جويلية" (La révolution de Juillet) من أقصر الثورات الشعبية في التاريخ لأنها لم تستغرق سوى ثلاثة أيام، من 27 جويلية إلى 29 منه، لهذا لقبت بثورة المنتصرات الثلاث (Les trois glorieuses)، لقد قادتها ثلة من الثوار، وهم من المثقفين وكان يؤيدهم شعب باريس و قد عجز "شارل العاشر"، رغم قوة جيوشه وأسلحته، على القضاء عليهم أو حتى على مواجهتهم لأن إرادتهم و ثقتهم بأنفسهم ووحدة صفوفهم كانت أقوى من كل سلاح ومن أي جيش، وبهذا تيقن الملك من هزيمته و لاسيما بعدما قام "تيير" وحزبه من الملكيين الدستوريين بخلعهم و ترشيح ملك آخر بدله و هو "دوق أورليان" (Le Duc d'Orléans)، و قد أقدم على الفرار في 30 جويلية 1830م لينجو بنفسه و لكن لم يتسن له ذلك، إذ سرعان ما أُلقي القبض عليه و نفي من البلد، و بهذا ينتهي حكم آل بوربون نهائيا في فرنسا.

و في جويلية من عام 1830م، جلس "لويس فيليب الأول" الملقب بـ"دوق أورليان" على عرش فرنسا و قد سمي عهده بـ "ملكية جويلية" (La monarchie de Juillet) التي دامت حتى عام 1848م.

كان "لويس فيليب الأول" ينتمي إلى طبقة النبلاء من "آل أورليان" المعادية لآل بوربون و المنافسة لها على عرش فرنسا و كان هو و والده يؤيدان الثورة الفرنسية كما كان يحمل سمات البرجوازية الديمقراطية و له الكثير من المناصرين في أوساط الشعب و غيرها من السمات التي خولت له تولي سدة الحكم في فرنسا عام 1830م.

وقد "اعتلى لويس فيليب العرش [...] على قاعدة قبوله الحكم الدستوري و اعترافه بالدستور كعهد قائم بين الملك و الرعية".¹

¹ محمد قاسم و حسين حسني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص 117.

هذا و قد واجه في بداية ملكه ثلاثة أحزاب سياسية هم:

أ - أنصار الملكية الشرعية: الذين وقفوا في وجه "لويس فيليب" لأنه في رأيهم استولى على العرش من غير حق و كانوا يسعون إلى إسقاطه.

ب - الجمهوريون: وكانوا يعتبرونه ملكا غير شرعي لأنه لم ينتخب من قبل الشعب.

ج - الملكيون الدستوريون: وانقسموا إلى طائفتين، كانت إحداها ترى أن ما أتت به ثورة جويلية 1830 ليس سوى بداية للتغييرات الفعلية التي ينبغي أن تتبع بتغييرات و إصلاحات فعلية حتى تتسجم مع التطورات التي تشهدها البلاد.

أما الثانية فكانت تذهب إلى أنه ينبغي التزام سياسة السلم على المستويين الداخلي و الخارجي من أجل الحفاظ على انجازات الثورة و جلب ثقة الدول الكبرى.

وقد فضل الملك الانضمام إلى "جانب رجال الطبقة الوسطى من الملكيين الدستوريين الذين كان يدين لهم بارتقائه العرش، فعدل قانون الانتخاب تعديلا يكفل أغليبتهم في المجالس التشريعية و أعاد تنظيم الجيش على قواعد تجعل للطبقة المتوسطة السيطرة عليها، وبذلك عولت الملكية الجديدة على تعزيز حزب واحد لها، و أغفلت الأحزاب الأخرى[...]. فتعرضت لمقاومة الحزبين [...]. حتى اضطرت إلى حماية نفسها بوسائل لا تستقيم مع المبادئ التي قامت عليها"¹ و هكذا بدأت بوضع قيود على الصحافة و كل ما ينشر من وثائق سياسية و الوقوف في وجه الملكيين و الجمهوريين معا.

هذا و قد كانت الحالة الاقتصادية لفرنسا حينذاك جد صعبة بسبب حروب "نابليون" و الثورة الصناعية التي أدت إلى انتشار البطالة و انخفاض الأجور، و لم تحرك حكومة

¹ محمد قاسم و حسين حسني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص118، 119.

الطبقة الوسطى إثرها أي ساكن لحل هذه المشاكل مما فتح المجال أمام الأفكار الاشتراكية للظهور و الانتشار بشكل واسع في فرنسا، ومن أهم قادتها "سان سيمون" (Saint Simon) الذي كان ينادي بضرورة التصالح بين العمال و أرباب العمل، ولكنه لم يقدم أي خطة لتحقيق ذلك، و لهذا اتجه العمال إلى زعيم آخر و هو "لويس بلان" (Louis Blanc) الذي كان شديد الاهتمام بمشاكل العمال و قضاياهم ووضع برنامجا دقيقا في كتابه بعنوان "تنظيم العمل" (Organisation du travail) يسمح بالخروج من تلك الأزمات، فقد نادى بحق كل إنسان في العمل و طالب الجهات المعنية بإنشاء مناصب عمل و تشييد مصانع جديدة يقوم العمال بإدارتها و تسييرها ثم اقتسام أرباحها، و قد أثرت هذه الأفكار كثيرا في العمال.

و من هنا بدأت العلاقة تسوء بين مختلف التيارات: بين الملكية الجديدة و بين الشعب من ملكيين و جمهوريين و اشتراكيين و كذا بين الملكية والملكيين الدستوريين،¹ نظرا لرغبة الملك في إعطاء الوزارة إلى جماعة من المتطرفين من الملكييين الدستوريين الذين حاولوا إحاطة الملكية بأنظمة شبه جمهورية ومن هنا نقل الملك الوزارة إلى المحافظين أنصار سياسة السلم في الداخل و في الخارج إلى أن سلوك الملك المتسلطة و رغبته في دفع الوزارة لتحقيق و تنفيذ سياسته أدى إلى انقسام هذه الطائفة إلى فريقين:

لقد كان الفريق الأول بزعامة "تيير" يحبذ تولي الملك على العرش و لكن دون أن يحكم أو بالأحرى دون التدخل في شؤون الحكم بينما كان الفريق الثاني بزعامة "غيزو" يذهب إلى حق الملك في انتخاب وزارته و حقه في التدخل في إدارة الحكم.

و نظرا للتوافق الكبير بين آراء الملك و آراء "غيزو" أوكلت إليه الوزارة.²

¹ ينظر محمد قاسم و حسين حسيني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص119، 120.

² محمد قاسم و حسين حسيني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص120.

- وزارة "غيزو":

كان "غيزو" يسير في نفس النهج الذي كان يسير عليه الملك، إذ كان يرى أن النظام السياسي المتبع حينذاك كامل و لا يحتاج إلى أي تغيير أو إضافة وأن فرنسا و الفرنسيين لا يطمحون إلى أكثر مما هم عليه على الصعيدين الداخلي و الخارجي و هكذا باتت سنوات حكمه الأكثر جمودا و عقما في تاريخ فرنسا، وكان المجلس يوافق على هذه السياسة رغم كل ذلك، و لكن في الواقع كان "غيزو" يشتري أصوات النواب و بهذا يكون قد حطم كل قواعد الاستقامة و السمو في هذا البلد.

و قد لقيت هذه السياسة "وما اقترن بها من الرشوة و إفساد الأخلاق، أشد معارضة من الملكيين الشرعيين و الجمهوريين و الاشتراكيين بل و أنصار "تيير" و كانت هذه المعارضة تدور حول السياسة الخارجية التي درجت عليها الوزارة، كما كانت تدور حول إصلاح قواعد الانتخاب حتى تمتنع وسائل الرشوة".¹

و لكن سرعان ما عارض "غيزو" هذه الإصلاحات و قرر أنصار الإصلاح في المجلس إثرها اللجوء إلى الرأي العام حتى يتمكنوا من إقناع الملك بضرورة إصلاح الدستور، و لذلك "نظموا في نهاية عام 1847م اجتماعات في كافة أنحاء فرنسا لإمضاء عرائض الموافقة على هذا الإصلاح، و قد انضم إلى الحركة الجمهوريون و الاشتراكيون بل و رجال الدين [...] غير أن "غيزو" [...] عارض هذه الحركة وضرب على يدها، فانفجر بركان الثورة في فبراير 1848م و عبثاً حاولت السلطات قمعها، فإن الحرس الأهلي أبى أن يعتدي على الشعب و لذلك اعتزل "غيزو" الوزارة و أجاب الملك على مطالب أنصار الإصلاح".²

¹ محمد قاسم و حسين حسيني، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص121.

² المرجع السابق، ص122.

و لكن ما كان هذا ليستكت الجمهوريين الذين جاءتهم الفرصة للثورة على الملك و على حكومته، كما استغلوا بعض الاشتباكات التي حدثت بين الشعب و الجيش و التي انتهت بمقتل عدد من أبناء الشعب الفرنسي لإثارة الجموع الغفيرة من الأهالي و الهتاف باسم الجمهورية، و "عشنا حاول الملك أن يعيد الأمن إلى نصابه فقد عجز "تيير" الذي عهدت إليه الوزارة كما عجزت الجنود على إيقاف هذا التيار الجارف و لذلك اعتزل "لويس" العرش و أقام حفيده "الكونت دي باريس" مقامه و لما أخذ المجلس يبحث في هذا التغيير الخطير فاجأه الشعب بالهجوم و شنت أعضائه الملكيين وأقام على الأثر حكومة مؤقتة اشترك فيها أعضاء جمهوريين و اشتراكيون على السواء".¹

3.1.1 (الجمهورية المؤقتة:

أعلنت الجمهورية المؤقتة في فبراير من سنة 1848م وقررت ما يلي:

- حرية الصحافة و حق كل فرنسي من الانضمام إلى الحرس الأهلي.
- انتخاب مجلس لكي يضع نظام الجمهورية عن طريق الانتخاب.
- فتح مصانع أهلية لتحقيق طموحات العمال و تحسين وضعيتهم.

و لكن سرعان ما فشلت الجمهورية في تجسيد تلك القرارات في الواقع، و كان ذلك بسبب الاشتراكيين الذين أرادوا أن يجلبوا الناس إليهم بأي وسيلة كانت، لذا "بدل افتتاح المصانع كما كان يدعو "بلان" استخدموا العمال في الأعمال العامة مقابل فرنكين في اليوم للعامل إن كان هناك ما يعمل و إلا ففرنك و نصف و خفضت بعدها إلى فرنك واحد إن كان لا يعمل شيئاً [...] فازداد عدد الطالبين من 6000 في مارس إلى 117000 في مايو

¹ محمد قاسم و حسين حسيني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص123.

وأصبح الكسل و البطالة ضاربين أطناهما في البلاد، و ثقلت ميزانية الحكومة بما يزيد عن سبعة ملايين لدفع نفقات المصانع".¹

و لكن سرعان ما تجاوزت فرنسا محنتها بفضل انعقاد المجلس في مايو عام 1848م الذي انتخب على الجمهوريين المعتدلين، و قد عادت الاضطرابات مرة ثانية إلى الواجهة عندما قرر المجلس إلغاء المصانع الأهلية إلا أنها أخذت بسرعة فائقة. و بعد ذلك شرع المجلس في وضع دستور جديد للجمهورية و كان ذلك في 4 نوفمبر عام 1848م ، و من أهم القرارات الواردة فيه:

- وضع السلطة التشريعية في يد المجلس المتكون من 750 عضوا يُعَيَّنون عن طريق الانتخاب لمدة لا تتجاوز الثلاث سنوات.
- وضع السلطة التنفيذية في يد رئيس الجمهورية الذي سيكون منتخبا لمدة أربع سنوات فحسب.

و هكذا انتخب رئيس الجمهورية الثانية في ديسمبر عام 1848م بينما انتخبت الجمعية التشريعية في مايو من عام 1849م و كان الجزء الأكبر منها يتشكل من الكاثوليك و الملكيين و أنصار النظام و الباقي من الجمهوريين و الاشتراكيين".²

و مع ما قدمته "ملكية يوليو من خدمات إلا أنها لم تشكل صورة قوية لفرنسا لا في الداخل و لا في الخارج. فلقد وصفها أحد المؤرخين بقوله أنها لم تكن ملكية كاملة و لا ديمقراطية كاملة و لا إمبراطورية، كانت مزيجا غير واضح يرهق الفرنسي في تحديد معالمه".³

¹ محمد قاسم و حسين حسني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص123، 124 .

² المرجع السابق، ص124، 125.

³ عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جلال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص328.

4.1.1 (الجمهورية الثانية (1848-1852):

ترشح لمنصب رئيس الجمهورية الفرنسية أربعة مرشحين و هم: "لامارتين" (Lamartine) و "ليدرو رولان" (Ledru-Rollin) و "كافينياك" (Cavaignac) و "لويس نابليون بونابرت" (Louis-Napoléon Bonaparte)، " كان لامرتين خطيبا جمهوريا محبوبا، و كان ليدرو رولان راديكاليا أما كافينياك فكان أشد أعداء الحركة الاشتراكية، و لكل منهم أنصار دون أن يكون واحد منهم قادرا على استقطاب أغلبية الشعب تحت لوائه. أما المرشح الأخير لويس نابليون فكان غير موهوب و إن كان يعتقد أنه صاحب رسالة تعيد مجد فرنسا على يد بيت نابليون، [...] و كان أيضا أمل الشعب الفرنسي [...] لأن الشعب في حاجة إلى حكومة قوية".¹

و هكذا تفوق "لويس نابليون" في الانتخابات الرئاسية على كل منافسيه و فاز بالأغلبية الساحقة وأصبح رئيسا للجمهورية الثانية في فرنسا.

لقد دخل الرئيس الفرنسي منذ البداية في صراع مع السلطة التشريعية المنتخبة في ماي 1849م التي لم تدرك إلا مؤخرا طموحاته الملكية، لهذا قام "لويس نابليون" بزرع روح الانشقاق و التفرقة بين مختلف الأحزاب السياسية الموجودة في المجلس، فقد حرّض الملكيين على الجمهوريين و بعدها دخل في صراع مع الملكيين الذين قاموا بتحقيق ما يتماشى و أغراض "لويس نابليون" و طموحاته إذ وضعوا التعليم في يد رجال الدين ، حسب قانون مارس 1850م كما قضوا على حرية الصحافة و حرية التجمع و الضغط على العمال و حرمان ثلث المنتخبين الأكثر فقرا من الانتخاب² حسب قانون 31 ماي 1850م.

¹ عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جلال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص 341، 342.

² Larousse Encyclopédique, p 1206.

و في المقابل كان "لويس نابليون" يتجول في مختلف المدن الفرنسية عاملا على استمالة قلوب الشعب إليه و كسبهم إلى صفه حتى يتشجع أكثر و يمضي قدما نحو تحقيق طموحاته.

و هكذا اقترح على المجلس إلغاء قانون 31 ماي 1850م، بدعوى الدفاع عن حقوق الشعب، وقد رفض المجلس ذلك الاقتراح و كانت الفرصة المنتظرة لحله و كان ذلك في ديسمبر من عام 1851 زاعما أن الجمهورية في خطر كما أمر الجنود بالانتشار في مختلف أنحاء البلاد للتصدي لأي إضراب و أمر بسجن كل من لا يذعن لأوامره و لا يسير في نفس اتجاهه و عندما حاولت فئة من هؤلاء (من أعضاء المجلس) الاجتماع لعزل الرئيس و محاكمته تدخل الجند و منعوهم و شتتوهم و حاول هؤلاء التصدي للجنود و لكنهم سرعان ما انهزموا " و ما انقضى يوم 5 ديسمبر إلا و كان نابليون قابضا على ناصية الحال في باريس و الأقاليم.

ولما استقر الأمر لنابليون و اختفت عوامل المقاومة [...] عرض "لويس" على البلاد دستورا يماثل دستور القنصلية في 14 يناير سنة 1852م و به تقرر أن ينتخب رئيس الجمهورية لعشر سنين و تكون الوزارة مسئولة أمامه ويعاونه مجلس ينتخبه الرئيس لتحضير القوانين، ومجلس تشريعي ينتخبه الشعب بالاقتراع العام لمناقشة الضرائب و القوانين، و مجلس شيوخ يعينه الرئيس للمصادقة على القوانين و الإشراف على النظام الدستوري".¹

و قد صادق الشعب الفرنسي بالأغلبية على هذا الدستور الذي جعل "لويس نابليون" حاكما مطلقا و لم يبق له سوى القليل ليصبح إمبراطورا، و قد وافق الشعب و كذا المجالس التشريعية على تنصيب نفسه إمبراطورا لفرنسا و كان ذلك في 2 ديسمبر عام 1852م، وبهذا تعود فرنسا مرة ثانية إلى النظام الملكي بل الإمبراطوري.

¹ محمد قاسم و حسين حسني تاريخ القرن التاسع عشر، ص152.

وقد عارض العديد من المفكرين و الأدباء هذا التحول و اعتبروه انقلابا على النظام الجمهوري وعلى رأسهم "فيكتو هوغو" (Victor Hugo) "الذي وقف مدافعا عن الحرية و الديمقراطية [...] و لم يكتف "هوغو" بالقلم بل خرج إلى الشارع طالبا من الشعب أن يثور ضد من سماه بالطاغية [...] و حاول هو و أنصاره مقاومة هذا التغير لكن محاولتهم باءت بالفشل".¹

5.1.1 (الإمبراطورية الثانية (1852-1870م):

تحت ظل الإمبراطورية الثانية، عاد النظام الاستبدادي إلى الواجهة، مثلما كان عليه في الإمبراطورية الأولى و قد أجبرت المعارضة على الصمت و لاسيما "معارضة الحمر" (Les rouges) كما كانت الجماهير الشعبية في فرنسا راضية على النظام الذي يؤمن لها رفاهية لم يسبق لها مثل : عتاد بنكي عصري و شبكة للسكك الحديدية و تطوير الصناعة النسيجية و الحديدية²، و بناء الطرق و الموانئ و نشر السلم و إنشاء نظام جديد للتعليم و إصلاح منازل العمال في المدن و القرى و مساعدة الفقراء و العجزة و تشجيع النقابات العمالية و كذا تطوير الزراعة و الصناعة و التجارة... و قد كانت هذه الإصلاحات جد مكلفة وقد أثقلت ميزانية الدولة التي لجأت إلى سياسة الاقتراض حتى بلغت ديونها حوالي 240 مليون جنيها.

أما على المستوى الخارجي، لقد كان نابليون الثالث يسعى إلى استرجاع مكانة فرنسا المرموقة بين الأمم مثلما كانت عليه في الماضي، و عليه دخل حرب "القرم" التي لم يكن الفرنسيون راضين عليها، كما قام بعدها بنصرة الإيطاليين حتى ينال رضا الأحرار من

¹ يوسف العاصي الطويل، ص12، 13.

² Larousse Encyclopédique, p 486.

الفرنسيين، "غير أن هذا التدخل كان من شأنه أن يثير معارضة الملكيين و الكاثوليك الذين كانوا يرغبون في صيانة أملاك البابا و أملاك البوربون في نابلي".¹ و فيما بين 1860م و 1868م عمل نابليون الثالث على جلب الشعب الفرنسي إليه، "فأعلن في 24 نوفمبر 1860م فك القيود البرلمانية قليلا بأن خول لمجلس الشيوخ و المجلس التشريعي بعض حقوق دستورية كحق مناقشة الوزراء و نشر محاضر الجلسات [...] و أمر بالعفو عن المسجونين و المنفيين منهم خارج البلاد، غير أن هذا كله لم يجذب قلوب الأحرار الذين ساء لهم تعثر الحكومة في سياستها كما ساء لهم تضيقها على أغلى مبادئ الحرية في البلاد".²

و هكذا كانت سياسة نابليون الثالث الخارجية جد فاشلة مما أدى إلى مطالبته بوجوب انتقال الحكم إلى الشعب حتى تتجنب فرنسا الأخطار الكبيرة المحدقة بها من كل جانب حينذاك، كما قام الاشتراكيون بدورهم - بعدما فقدوا الثقة في الملك - بدعوته للقيام بالتغييرات، لأن الإصلاحات التي قام بها في السابق لم يستفد منها العمال و الفقراء و العجزة، بل الأغنياء و أصحاب المال.

و على هذا الأساس، حاول نابليون أن يجري إصلاحات أخرى عليها تهديء من روع الفرنسيين، فأعلن عام 1868م عن إلغاء القيود المفروضة على الصحافة و إعادة حرية الاجتماعات ما عدا الاجتماعات السياسية، و لم يزد هذا إلا من إضعاف سياسة الإمبراطور حتى اضطر إلى "الاستمرار في سياسة الخضوع لإرادة البلاد، فقرر عام 1869م عودة الحكم البرلماني وإشراك الأمة في حكومة البلاد إشراكا فعليا".³

و في عام 1870م قاد الإمبراطور حربا ضد الألمان و لكنه سرعان ما مني بفشل ذريع مما أدى إلى وقوعه في يد الأعداء، و بهذا تنتهي الإمبراطورية الثانية في فرنسا بعدما

¹ محمد قاسم و حسن حسنين تاريخ القرن التاسع عشر، ص154.

² المرجع السابق، ص154.

³ المرجع السابق، ص 156.

تمكن الألمان من "محاصرة مدينة باريس العاصمة و خسرت فرنسا في النهاية مقاطعتي "الألزاس" و"اللورين"، ومن رحم هذه الهزيمة انطلقت الجمهورية الثالثة".¹

6.1.1 (الجمهورية الثالثة (1870-1940م):

أثناء الحرب التي دارت بين ألمانيا و فرنسا فيما بين 1871-1875م كانت الجمعية الوطنية المنتخبة هي التي انتخبت على دستور الجمهورية الثالثة، كما أسندت إليها مهمة المصادقة على شروط الهدنة، بعد هزيمة الفرنسيين النكراء أمام الجيوش الألمانية، وكان "تيير" يرى أنه ينبغي على الفرنسيين أن يتقبلوا هذه الهزيمة وأن يعملوا على تجاوزها، و هكذا أرسل جيشا كبيرا تحت قيادة القائد "مكماهون" (Mac Mahon) - إلى باريس "و قاتل المدافعين عنها بشراسة من شارع إلى شارع و من متراس إلى متراس حتى سيطرت قوات جمعية "بورديو" على باريس بعد أن سقط صريعا ما يربو على ثمانين ألف مواطن فرنسي أواخر مايو 1871م [...] بعد ذلك أصبح على الفرنسيين أن يحددوا شكل الحكم الذي سيتولى أمور البلاد من بعد، و كان "تيير" يميل إلى الملكية الدستورية [...] وهو بذلك يكون قد خيب آمال الملكيين في جمعية "بورديو" فضايقوا به حتى أرغموه على الاستقالة في 24 مايو 1873م² وحل محله المارشال "مكماهون" لمدة أربع سنوات. و في 30 جانفي عام 1874م أعلنت الجمعية على كيفية انتخاب رئيس الجمهورية ثم صدر الدستور عام 1875م الذي حدد أسس الحكم الجمهوري في فرنسا، و من بين هذه الأسس نذكر:

¹ يوسف العاصي الطويل، ص13.

² عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص 385.

- 1) يُنتخب رئيس الجمهورية من قبل مجلسي النواب و الشيوخ معا.
- 2) أن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب.
- 3) ينتخب مجلس النواب بانتخاب عام.
- 4) مدة مجلس الشيوخ تسع سنوات.¹

و على مستوى الإدارة، قامت الدولة الفرنسية بعملية تطهير واسعة قصد القضاء على الفساد المالي و الأخلاقي المنتشر بشكل ملحوظ فيها، كما سارت فرنسا بوتيرة سريعة في تطوير الصناعات الحديثة و خلق نوع من التوازن بين الزراعة و الصناعة. هذا و قد وضع المسؤولون في الدولة الفرنسية مجموعة من الأهداف يرجى تحقيقها في إطار الجمهورية ، ومنها نذكر:

- 1) ضرورة إعطاء الجبهة الداخلية نوعا من الاستقرار
- 2) التنمية الاقتصادية إحدى وسائل التفوق الفرنسي.
- 3) ضرورة استرجاع فرنسا لمكانتها الدولية على المستوى السياسي و الثقافي.²

و قد أخفقت الدولة الفرنسية في تحقيق هذه الأهداف كلها نظرا للظروف الصعبة و حال اللأستقرار الذي عاشته على مختلف الأصعدة منذ انهزامها في حرب السبعين مع ألمانيا (1870م)، و لم يتوقف الوضع عند هذا الحد بل شهدت فرنسا أيضا عدة أحداث و أزمات صعبة في هذه الحقبة التاريخية نذكر منها:

- المشكلة التعليمية
- الحركة الاشتراكية و اليمين.

¹ عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص 386.

² المرجع السابق، ص 387، 388.

- فضيحة قناة بنما .
 - الأزمة البولندية (Boulanger) .
 - قصة دريفوس (Dreyfus)
 - الحوار الفرنسي الألماني حول الألزاس و اللورين.¹
- هذا و قد كانت الفترة الممتدة ما بين حرب السبعين و الحرب العالمية الأولى في فرنسا فترة سادها السلم و لكنه كما يسميه البعض سلم مسلح.
- "يعتبر السلم المسلح إحدى نتائج معاهدة فرنكفورت التي انتزعت من فرنسا بعض مقاطعاتها الفرنسية، و جعلت الصلح بينهما و بين ألمانيا عسير الوقوع".²
- كما شاهدت هذه الفترة تنافسا شديدا بين الدول الأوروبية الكبرى (ألمانيا و إنجلترا و فرنسا وإيطاليا) في مجال التسلح و التجارة و لاسيما ما يتعلق بالترويج للبضائع المحلية و استيراد الآلات و المواد الأولية و الخام التي تتطلبها مصانعها و كذا في التوسعات الاستعمارية، فكل بلد يريد الاستحواذ على مساحات أكثر و أجود لاحتلالها.

و إلى جانب هذه المنافسات نشأت بين الدول الأوروبية بعض التحالفات:

- التحالف الذي جمع بين ألمانيا و النمسا و روسيا في سنة 1872م.
- التحالف بين ألمانيا و النمسا في سنة 1879م ثم سرعان ما انضمت إليها إيطاليا سنة 1882م.
- التحالف بين فرنسا و روسيا سنة 1891م و 1892م
- الوفاق الودي بين إنجلترا و فرنسا في 1904م و 1905م

¹ عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص 388.

² محمد قاسم و حسين حسني تاريخ القرن التاسع عشر، ص 250، 251.

- الوفاق الثلاثي الذي وقع عندما تقاربت إنجلترا و روسيا في 1907م و 1908م.¹

و مما يميز الجمهورية الثالثة في فرنسا تعاقب العدد الهائل من الرؤساء الذين يبلغ عددهم أربعة عشر رئيسا، نذكر من بينهم:

- لويس أدولف تيير (Louis Adolphe Thiers) الذي حكم فرنسا فيما بين 1871م و 1873.

- باتريس دي ماكماهون (Patrice de Mac Mahon) من 1873م إلى 1879م.

- جول غريفي (Jules Grévy) من 1879م إلى 1887م.

- ماري فرنسوا سادي كارنو (Marie-François-Sadi Carnot) من 1887م إلى 1894م.

- جان كازيمير بيرري (Jean-Casimir Perier) من 1894م إلى 1895م.

- فليكس فور (Félix Faure) من 1895م إلى 1899م.

- إميل لوبي (Emile Loubet) من 1899م إلى 1906م.

هكذا و رغم كل الحروب و الأزمات و الفضائح التي عرفتھا الجمهورية الثالثة في فرنسا إلا أنها استطاعت و إلى حد كبير، أن تحقق الديمقراطية ضمن النظام النيابي، "حيث تم في عهدها إنشاء المدرسة العمومية العلمانية الإجبارية و إقرار حرية الصحافة و الحرية النقابية و حرية إنشاء الجمعيات المدنية ثم فصل الكنيسة عن الدولة رسميا".²

¹ محمد قاسم و حسين حسني تاريخ القرن التاسع عشر، ص 250.

² يوسف العاصي الطويل، ص14.

2.1 (التيارات السياسية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر:

في خضم الفوضى السياسية و حالة عدم الاستقرار التي اجتاحت فرنسا في القرن التاسع عشر، ظهرت مجموعة من التيارات ذات الطابع السياسي استطاعت أن تحدث تأثيرا عميقا على مختلف المراحل السياسية و أنظمة الحكم الفرنسية و منها ما لا يزال موجودا إلى حد الساعة، و تتجلى هذه التيارات في:

1.2.1 (الجمهوريون (Les Républicains):

انبثقت حركة الجمهوريين الفرنسيين في القرن التاسع عشر من الحركة الليبرالية، و لم تتشكل كحزب معترف به علنا إلا في عهد ملكية جويلية 1830 كما كان هؤلاء غير محبوبين من الحركات و التيارات الأخرى حينذاك و خاصة منها الملكية أو ذات الصبغة الملكية.

و كان التيار الجمهوري يقف في وجه النظام الملكي و يرفضه و هو لا يفتأ يناضل من أجل إزالته و إقامة نظام جمهوري يمكنه من إعادة الاعتبار لمختلف الشرائح الاجتماعية و لاسيما تلك التي لا طالما كانت محرومة من أبسط حقوقها طيلة الفترات السابقة من التاريخ الفرنسي، سأم الجمهوريون من الأوضاع المزرية التي كانت تعيشها فرنسا على مختلف الأصعدة و خاصة بعد الثورة الفرنسية التي أعادت إليهم الأمل مرة ثانية، و لكنهم سرعان ما اصطدموا بالواقع الذي أثبت شيئا آخر غير ما نادى به تلك الثورة من مبادئ راقية و حقوق للإنسان تعيد له كرامته و قيمته.

لقد مُنع الجمهوريون من المساهمة في صنع القرار في بلادهم و ذلك بمنعهم من التصويت مفضلين البرجوازيين و النبلاء عليهم، لأن هؤلاء كانوا يساندون النظام.

و لكن رغم ذلك، لم يستسلم الجمهوريون بل ناضلوا بكل ما أوتوا من قوة حتى توصلوا إلى إثبات وجودهم و دخولهم إلى غرفة النواب ابتداءً من عام 1816م و هو تاريخ إنهاء

صلاحية "الغرفة المفقودة" (La Chambre Introuvable) التي قضت على صفوفهم في السابق.¹

هذا و قد كان التيار الجمهوري ينمو في الخفاء و كان يجمع مناصريه من جماعات سرية كما كان يعزز نضاله عن طريق الصحافة وفي عام 1820م قرر الجمهوريون القضاء على النظام الملكي و حرضوا الشعب على التمرد و العصيان و لكن سرعان ما انتهى ذلك بالفشل الذريع الذي نجم عنه نفي أهم القادة و المحركين للأحداث و كذا إصدار أحكام قاسية ضد البعض كانت تصل أحيانا إلى حد الإعدام.²

و بعد هذه الفترة من الانتكاسات، قرر الجمهوريون إعادة بناء ذاتهم من الداخل و لاسيما بعد انضمام ثلثة من الجيل الجديد إليهم، وقد كان ذلك في عهد الملك "شارل العاشر" ومن ثم تولدت لديهم فكرة التحالف مع الملكيين المعتدلين (Les royalistes modérés) و قد نجح هذا التحالف في الانتخابات التشريعية سنة 1827م مما أعاد إليهم الأمل في إمكانية الوصول إلى السلطة.³

و في هذه الأثناء كان الجمهوريون يحضرون انتفاضة جديدة ضد النظام في سرية تامة و لكن سرعان ما حولها وزير الداخلية حينذاك و هو "تيير"، لصالح خصومهم من الملكيين و الليبراليين الذين شكلوا نظاما ملكيا برلمانيا حينذاك.

و في فبراير من سنة 1848م، نزل الجمهوريون إلى شوارع باريس للمطالبة بفصل الوزير الأول "غيزو" (Guizot)، وقد تصدى لهم الجنود بقوة كبيرة بلغت حد إطلاق النار عليهم و بهذا تشتعل باريس و توضع الحواجز في كل مكان و يتنازل "الملك لويس فيليب" عن

¹ Goujon Bertrand, Monarchies postrévolutionnaires, 1814-1848, Paris, Seuil, collection « L'univers historique, Histoire de la France contemporaine », 2012, pp120, 121.

² Jeanne Gilmore, La république clandestine (1818-1848), Aubier 1997, pp 24-50.

³ المرجع السابق، ص 59-76.

العرش لصالح حفيده "الكونت دو باريس" (Le compte de Paris) بتاريخ 24 فبراير 1848م.¹

و لكن الأمور لم تنته عند هذا الحد، بل اقتحم الجمهوريون في التاريخ نفسه غرفة الجمهورية الثانية التي تم الإعلان عنها في ذلك اليوم بالذات أي 24 فبراير 1848م، و قد كونوا بعد ذلك حكومة مؤقتة وخلال الأربعة أشهر الأولى لهذه الجمهورية، كان الجمهوريون المعتدلون و المتطرفون يتنافسون بشدة على سدة الحكم و في تلك الأثناء اتخذت الحكومة المؤقتة تدابير ذات طابع إنساني و اجتماعي نذكر من بينها: إلغاء العبودية و عقوبة الإعدام للمساجين السياسيين و تحديد ساعات العمل اليومية، و تأكيد الحق في العمل ... و غيرها.²

و في الثمانينات من القرن التاسع عشر قامت وزارة "جول غريفي" (Jules Grévy) بالقضاء على التأثير الكبير الممارس من الكنيسة على قطاع التربية و التعليم و تحويله إلى تعليم لائكي إجباري ومجاني و منع التعليم الديني في المدارس العمومية و إعطاء الحق للإناث في التعليم الثانوي، الذي كن محرومات منه، كما اعترفت الحكومات المتتالية بالحريات الجماعية و الفردية و بحرية الصحافة و حرية التجمع و الحرية النقابية و الحق في الطلاق إلى غير ذلك.³

¹ Olivier Lecour Grandmaison, Coloniser et exterminer , sur la guerre et l'état coloniale, Casbah Editions 2005, pp 316-327.

² Samuel Hayat ,Au nom du peuple français la représentation politique en question autour de la révolution de 1848 en France, Université Paris 8, Saint-Denis, décembre 2011, p 14.

³ كلود نيكوليه، فكرة الجمهورية في فرنسا (1789- 1924) بحث في التاريخ النقدي ، ترجمة و تقديم محسن الخوني ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت 2011 ، ص 360، 361.

هذا و قد تعرضت الجمهورية و الجمهوريون في أواخر القرن التاسع عشر إلى عدة أزمات منها أزمة "بولانجي"^{*} (Boulanger) نسبة إلى جورج بولانجي (Georges Boulanger) ولكنها لم تكن مؤثرة فيها بنسبة كبيرة،¹ إضافة إلى قضية "دريفوس" (Dreyfus)^{**}.

و هكذا ترك التيار الجمهوري بصمته بشكل عميق في هذه الحقبة الزمنية و قد توصل بالفعل إلى ترسيخ دعائم النظام الجمهوري في فرنسا.

2.2.1) الملكيون (Les Royalistes):

كان تيار الملكيين تيارا فكريا في القرن التاسع عشر و كان يهدف إلى تأسيس مملكة دائمة في فرنسا و قد ساد هذا التيار على الحياة السياسية بفرنسا من 1814م إلى 1851م وقد شارك في حكومات تلك الفترة الزمنية ما عدا حكومة 1848م. انقسم الملكيون إلى فئتين:

أرادت الفئة الأولى التوفيق بين الحكم الملكي ومبادئ الثورة الفرنسية و كانت تشجع على إقامة مملكة دستورية برلمانية و يمثل هذه الفئة الملكيون الدستوريون. أما الفئة الثانية فكان هدفها تأسيس نظام ملكي قوي شبيه بالأنظمة القديمة وكان يمثلها الملكيون المتطرفون.²

و في عام 1832م طرد "آل بوربون" من حكم فرنسا و حل محلهم أقاربهم من "آل أورليون" (Les Orléans)، و قد انبثق من هذا التيار حزبان:

^{*} ينظر عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص390.

¹ La crise boulangiste ,<https:// gallica.bnf.fr>

^{**} ينظر عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص390، 390.

² Jean Louis ormières, Politique et religion en France ? complexe 2002, p52.

A. Fayet et M. Fayet, L'histoire de France : Des origines à nos jours ? Eyrolles 2009, p 261.

كان أحدهما يصف الملك "لويس فيليب أورليون" بالمغتصب للعرش و لا يقبل بغير "شارل العاشر أو حفيده "الكونت دي شامبور" (Le comte de Chambord) ملكا، وكان أغلبية أنصار هذا الحزب يعودون إلى الأفكار الملكية المتطرفة و كانوا يطلقون على أنفسهم لقب "الشرعيين" (Les légitimistes).

و أما ثانيهما فكان يعتبر الملك "لويس فيليب" و سلالته هم الملوك الشرعيون لفرنسا، وقد اعتمد أنصار هذا الحزب على الأفكار الملكية الدستورية و الليبرالية و كانوا يلقبون "بأنصار الأورليونيون" أو الأورليانيون (Les orléanistes)،¹ الذين تولوا مقاليد الحكم في فرنسا فيما بين 1830 و 1848م، وقد انبثق عنهم اتجاهان هما:

- الليبراليون و هم أنصار و دعاة التطوير الدستوري للنظام و كانوا يدعون إلى توسيع رقعة الحريات العامة و قد تجمعوا في حزب يسمى بحزب "الحركة" (Le parti du mouvement).

- المحافظون و هم من دعاة التطبيق الصارم لميثاق 1830م بدون أي تعديل و قد تجمعوا في حزب يسمى حزب "المقاومة" (Le parti de la résistance).²

3.2.1 (Les Nationalistes) الوطنيون :

ظهر التيار الوطني في فرنسا خلال القرن الثامن عشر في ظل البرجوازية الفرنسية و عن طريق كتابات فلاسفة عصر الأنوار، و قد كان مفهوم الوطنية عندهم يعني أن الشعب هو الذي يجسد الوطن، و هذا عكس ما كان سائدا في النظام القديم الذي كان يرى أن البلد مجسد في ملك فرنسا. وفي القرن التاسع عشر، بات تيار الوطنيين تيارا مقاوما و معارضا للأمم الأخرى بل و للشعوب الأخرى، وقد اتضحت هذه الفكرة أكثر في أواخر

¹ Hubert Néant, La politique en France du 19^{ème} siècle à nos jours, Paris Hachette 2010, p106.

² المرجع السابق ، ص 107.

ذلك القرن، من خلال الحركات السياسية التي دخلت في اللعبة السياسية مع النظام الديمقراطي الفرنسي المولود عام 1870م مع الجمهورية الثالثة. و كانت كل الأحزاب آنذاك تنادي بشكل جلي بأفكار وطنية و ضد ألمانيا، نظرا لانتصارها (ألمانيا) في معركة 1870م ضد فرنسا و استيلائها على منطقتي "الألزاس" و"اللورين".¹

و قد شهد الوطنيون الأوروبيون تطورات فعلية أثناء الفترة الممتدة ما بين 1870م و 1914م، وعليه لقد اتخذ مفهوم "الوطنية" ابتداءً من 1870م مفهوماً آخر عما كان عليه في السابق، فأصبح يركز أكثر على أولوية الدفاع عن القيم و المصالح الوطنية، وقد سمح هؤلاء باستخدام أي وسيلة في سبيل تحقيق ذلك الهدف، و هكذا صار العنف في خدمة الوطنية، و تتأكد الوطنية من خلال الدوافع و المطالب الممكن تحقيقها.²

4.2.1) الإشتراكيون (Les Socialistes):

كان الجيل الأول من الاشتراكيين في فرنسا يُدعون بالاشتراكيين المثاليين (Socialistes utopiques) أو سان سيمونيين (Les saints Simoniens) نسبة إلى "سان سيمون" المتوفى سنة 1825، كان هؤلاء ينتمون إلى البورجوازية المتنورة، و لكن تأثيرهم على الأوساط الشعبية كان ضعيفاً.³ و لقد دخلت كلمة "اشتراكية" (Socialisme)

¹ Cyprian P Blamires, A historical Encyclopedia, World Fascism, September 2006, A-K. ABC-CLIO, p749.

² Paul Choplin, Royalismes et royalistes dans la France révolutionnaire ,Annales historiques de la Révolution Française , 2021, Volume 1, n 403, pp24, 25.

³ محمد قاسم و حسين حسني ،تاريخ القرن التاسع عشر ، ص.119

إلى فرنسا سنة 1834م بفضل عامل في مجال الطباعة وهو "بيير لورو" (Pierre Leroux)¹.

و ظهر التيار الاشتراكي كرد فعل لحالة البؤس المنتشرة في أوساط الطبقة العمالية و لمواجهة الأزمات الاجتماعية التي سببتها الرأسمالية، و حسب "بيير لورو" تتحدد الاشتراكية بشكل واضح من خلال طرحها لبعض القضايا و المسائل، و مناداتها بضرورة تخلي المجتمع عن النزعة الفردية،² و لكن بعد 1831م، بدأت نتائج الثورة الصناعية تظهر بوضوح، لقد أدت ظروف العمل القاسية إلى ثورات عدة سرعان ما قوبلت بالقمع و العنف، و من بين هذه الثورات نذكر : ثورة عمال النسيج بمنطقة ليون الفرنسية (Les Canuts Lyonnais) سنة 1831 و ثورة جوان 1848م و أحداث بلدية باريس عام 1871م ... و غيرها من الثورات³، هذا و قد أظهرت ثورة 1848 الاختلافات الموجودة بين الديمقراطيين و الاشتراكيين، ومن ثم يمكننا التمييز بين الإصلاحيين (Les réformistes) أمثال: "لودرو- رولان" و "لويس بلان" و أنصار القطيعة مع الرأسمالية الذين لا يرفضون الحركة العنيفة⁴ "بلانكي" (Blanqui) و "باربيس" (Barbès) (ممن كانوا يرون أن هذه الحركة ضرورية لفترة الإصلاحات التي عرفها حكم "آل بوربون" و "مملكة جويلية"، حين كان الشعب محروما من حقوقه المدنية.

¹ Pierre Leroux, De l'égalité précédé de l'individualisme et du socialisme, revue Romantisme, 1998 , numéro 101, pp123 , 124

² المرجع السابق ، ص 124

³ Hélène Delpech, « La revolte des canuts », Histoire par l'image (en ligne) consulté le 14 mai 2022. URL : <http://histoire-image.org/fr/etude/revoltes-canuts>.

⁴ محمد قاسم و حسين حسني، تاريخ القرن التاسع عشر ، ص 119.

إن الصراع من أجل الجمهورية ضد النظام الملكي الإقطاعي و ضد الإمبراطورية الثانية يتضافر مع الصراع ضد الأوضاع الجديدة للعمل و للحياة (المعيشة) الناجمة عن الثورة الصناعية.¹

و بعد عشر سنوات من حل الجمعية العالمية للعمال تشكلت جمعية ثانية سنة 1889م بباريس وقد كانت تأثيرات "كارل ماركس" على أفكارها بارزة، و بعد الاعتراف بالحق النقابي عام 1884م تكونت الكونفدرالية العامة للشغل (La CGT) سنة 1895م و اعتمدت ميثاق "آميان" (La charte d'Amiens) سنة 1906م التي تكرر مبدأ الاستقلال النقابي بالنسبة للأحزاب السياسية و من هنا كان غياب العلاقات بين الأحزاب و النقابات و هذا ما يميز بين الاشتراكية الفرنسية و التيار السوسيو ديمقراطي لأوروبا الشرقية.²

هذا و قد اتحدت الاشتراكية السياسية بفرنسا عام 1905م، تحت أمر قضائي عالمي، في المؤتمر العالمي إذ جمعت مختلف التيارات أمثال "البلانكيست" و "الألمانيست" و المصلحين... في الفرع الفرنسي الجديد للحركة العالمية (SFIO)، وهكذا شيئاً فشيئاً بدأ النائب الفرنسي "جان جوريس" (Jean Jaurès) يفرض نفسه كشخصية أساسية و هامة للاشتراكية الفرنسية، و قد برز خاصة من خلال نضاله من أجل الاتحاد بين الجمهورية والاشتراكية و بين الوطنية و العالمية ثم بين أفكار الماركسية وأعراف الثورة الفرنسية الليبرالية.

و هكذا أحرزت الحركة العالمية (SFIO) التي أرادت أن تكون حزبا عماليا على قاعدة انتخابية و حزبية واسعة، فقد كان العمال و الفلاحون و الحرفيون يجاورون المثقفين و الموظفين فيها.³

¹ كلود نيكوليه، فكرة الجمهورية في فرنسا، ص253.

² Le mouvement ouvrier et le syndicalisme, <https://solidaire.org>

³ المرجع السابق.

لقد كانت مسيرة التيار الاشتراكي الفرنسي منذ الثورة الفرنسية عبارة عن سلسلة من النضالات أسهمت في تطوير العديد من الأفكار وإصلاح الكثير من الوضعيات.

(2) الأوضاع الاقتصادية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر:

رأت ثلة من الباحثين أن الاقتصاد الفرنسي، كان طيلة فترة المملكتين (1815-1848م) و الجمهورية الثانية في طور التجدد و لكنه لم يكن قادرا على الانطلاق بشكل جيد نحو التطور والازدهار لأنه دخل الثورة الصناعية بعجز كبير عكس الاقتصاد البريطاني.¹

هذا و قد كانت السوق الفرنسية حتى سنة 1815م سوقا مغلقة على ذاتها و ذلك بسبب الحظر الاقتصادي الذي كان مفروضا عليها من انجلترا و ما يتطلبه استخراج مادة الفحم من مناجمها و كذا منافسة الفحم البلجيكي للفحم الفرنسي في الأسواق العالمية، مع العلم أن الفحم هو المادة الطاقوية الأولى المستعملة في الصناعات المختلفة حينذاك و هذا أيضا ما يفسر تأخر الصناعة الفرنسية مقارنة مع مثيلاتها في أوروبا.

علاوة على ذلك، كانت الصناعة الفرنسية تفتقر إلى اليد العاملة، بسبب معاناتها الطويلة، التي تتجاوز العشرين سنة من الحروب المتواصلة والمؤدية إلى موت أعداد هائلة من أبنائها كما كان نموها الديمغرافي ضعيفا، زيادة على تفضيل الأغلبية من الفرنسيين العمل في الزراعة خوفا من نقص في الأغذية أو حصول مجاعات.²

¹ Dominique Barjot, Jean Pierre Chaline et André Encrevé , La France au 19^{ème} siècle (1814-1914) PUF 1995, p91.

² كارلتون.ج.ه.هيز ،الثورة الصناعية، ترجمة أحمد عبد الباقي ،مطبعة العاني،ط1 ، 1950، ص 14،16 .

ومما أثر سلبا أيضا على الاقتصاد الفرنسي في القرن التاسع عشر هو كون النظام البنكي الفرنسي عتيق جدا و قد تجاوزه الزمن إذ لم يكن يشجع الاستثمارات¹. و لكن ابتداءً من أواخر عام 1840م بدأ الاقتصاد الفرنسي ينتعش و ذلك بفضل تطوير شبكة السكة الحديدية الممولة بالثلث من الرأسمال الأجنبي و فرض النظام الملكي أثناء فترة التجديد و الاستعادة لنظام حماية جمركية قوي جدا يحمي الاقتصاد الفرنسي من الصادرات الأجنبية و لاسيما البريطانية منها.² و لعل ما طبع الاقتصاد الأوروبي عامة و فرنسا خاصة في القرن التاسع عشر هو الثورة الصناعية التي بلغت مبلغا مهما من التطور و الازدهار في تلك الفترة بالذات، و عليه لا يمكننا الحديث عن الاقتصاد الفرنسي حينذاك دون الوقوف عند الثورة الصناعية للكشف عن مدى تأثيرها، إن سلبا أو إيجاباً، عليه.

1.2 الثورة الصناعية:

استعملت عبارة "الثورة الصناعية" لأول مرة في أوروبا سنة 1837م من قبل عالم الاقتصاد الفرنسي "أدولف بلانكي" (A. Blanqui) و أعاد استخدامها بعد ذلك "فريدريش إنجلز" (F. Engels) في سنة 1840م³. و الثورة الصناعية هي ثورة فعلية على المجتمع الأوروبي الذي كان مجتمعا فلاحيا تقليديا و محافظا، و قد جاءت هذه الثورة لتدفع بالمزارعين و الحرفيين نحو الصناعة و التجارة، و من أهم العوامل التي سهلت تلك العملية هي شبكة السكك الحديدية.⁴

¹ أحمد حسن برعي ، الثورة الصناعية ، ص 85.

² D. Barjot, J.P.Chaline, A. Encrevée, La France au 19^{ème} siècle, p92-94.

³ أحمد حسن برعي ، الثورة الصناعية، ص 9.

⁴ كارلتون ج.ه.هيز، الثورة الصناعية، ص79.

هذا و قد أثرت الثورة الصناعية بصورة عميقة على مختلف المجالات: السياسية و الاجتماعية والاقتصادية وحتى البيئية.

1.1.2 (نظام المصانع:

لعل أهم ما يميز الثورة الصناعية في أوروبا هو الآلة التي باتت هي أساس كل الصناعات حينذاك، فبعدما كانت الصناعة فيها تقليدية و بسيطة تعتمد أساسا على آلات يدوية و كان العمال الحرفيون هم الذين يعملون بها في ورشات أو مصانع صغيرة منتشرة في مختلف أنحاء البلاد، و لكن بعد ظهور الآلات الكبرى التي تشتغل بالمحركات بدأت تلك الصناعات البسيطة تختفي شيئا فشيئا من الوجود لتحل محلها المصانع الكبرى التي توظف المئات من العمال و قد استقرت خاصة في المناطق الجبلية أو المناطق القريبة من مناجم الفحم.¹

2.1.2 (تركيز السكان في المدن:

و من أهم تأثيرات الثورة الصناعية على المجتمع الأوروبي عامة و الفرنسي خاصة هي الهجرة الداخلية أو الهجرة من القرى نحو المدن الكبرى حيث المصانع و لاسيما بعد إفلاس العديد من الورشات و المشاغل الصغيرة الموجودة في الأرياف و انتشار البطالة و الفقر.²

¹ داليا عادل الزيايدي، النظم الاقتصادية المقارنة، كلية التجارة جامعة عين شمس، مصر، مراجعة د/أحمد مندور،

(التعليم المفتوح كلية التجارة)، ص 35.

² محمد حسن برعي ، الثورة الصناعية ، ص270.

3.1.2) تقدم وسائل النقل و الاتصال:

كان القرن التاسع عشر بالفعل قرن التغيرات و التطورات في مختلف الميادين، ففي هذه الفترة توصل الإنسان إلى بناء سفن تجارية ضخمة تسير بمحركات كبيرة و قطارات بخارية، كما ظهر أيضا الهاتف و التليغراف اللذان سهلا الاتصالات بين الناس في مختلف الأنحاء¹.

4.1.2) نمو التجارة الداخلية و الخارجية:

بفضل تطور الصناعة ووسائل المواصلات و الاتصالات المختلفة توسع مجال التجارة و تطور على المستويين الداخلي و الخارجي فزادت و سهلت عملية الاستيراد و التصدير بين مختلف المدن و البلدان.

5.1.2) نمو الرأسمالية و تطورها:

لقد أسهم التطور الصناعي و التجاري في خلق رجال أعمال كبار من ذوي رؤوس الأموال الضخمة الذين كانوا من أرباب العمل و من ممولي المشاريع الكبرى، و كانت هذه الاختراعات و الصناعات لا تفتأ تزيدهم غنى و رأس مال².

6.1.2) نتائج الثورة الصناعية:

لقد أثرت الثورة الصناعية على مختلف مجالات الحياة: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

¹ محمد حسن برعي، الثورة الصناعية، ص 71.

² داليا عادل الزيايدي ، النظم الاقتصادية المقارنة، ص36.

1.6.1.2 (النتائج الاقتصادية:

لقد أسهمت الثورة الصناعية في فرنسا في تحسين وسائل الصناعة و الإنتاج و ابتكار آلات جديدة تسهل عملية التحري و الكشف عن المعادن المختلفة و استخراجها ثم استغلالها بطرق جيدة، وقد ساعدت كل هذه العوامل على زيادة نسبة الإنتاج التي كانت تتطلب أموالا كثيرة لشراء آلات جديدة و إنشاء مصانع جديدة للرفع من مستوى الإنتاج وكان هذا بدوره مما أدى إلى نمو التجارة الخارجية خاصة.¹

2.6.1.2 (النتائج الاجتماعية:

و من أهم الأدوار التي لعبتها الثورة الصناعية في حياة المجتمع الفرنسي خاصة هو ارتفاع المستوى المعيشي للمواطن البسيط، فرغم تركيزها (الثورة الصناعية) على الجانب المادي أي على الآلة وأدوات الإنتاج و غيرها و لكنها قامت بجمع أعداد هائلة من العمال في المصانع مما أدى إلى إشراكهم لبعضهم البعض لمعاناتهم و همومهم مما أدى إلى اتحادهم و تنظيم عملهم و نضالهم من خلال إنشاء نقابات عمالية كما عملت هذه الأوضاع أيضا على تحسين وضعية المرأة العاملة التي باتت تتقاضى أجرا مقابل عملها هذا الذي كانت محرومة منه عندما كانت تشتغل بالزراعة.²

3.6.1.2 (النتائج السياسية:

ففي تلك الآونة كان للرأسمالية الصناعية تأثير عميق على الأنظمة السياسية و على الحكومات المختلفة، فقد كانت تحرص دائما على الحفاظ على مصالحها و حمايتها، وفي المقابل كانت الطبقات الشعبية و لاسيما العمال لا يلبثون يعملون على تحسين ظروفهم و

¹ داليا عادل الزيايدي ، النظم الاقتصادية المقارنة، ص37.

² المرجع السابق، ص38.

القضاء على سياسة الاستغلال غير العادلة لهم من أرباب العمل الذين كان همهم الوحيد هو تحقيق المزيد من الأرباح بشتى الطرق وإن كان ذلك على حساب العامل البسيط و حقوقه، وعليه كان العمال يعملون بكل قوة على انتزاع حقوقهم المهضومة من خلال الاتحادات العالمية و النقابات و من ثم عن طريق الأحزاب.

هذا و قد كانت الدول الأوروبية آنذاك ومنها فرنسا تسعى جاهدة لتحقيق استقلالها الاقتصادي الذي لم يكن يقل قيمة ولا أهمية عن الاستقلال السياسي.

وفي هذه الآونة كانت الدول أيضا تجتهد في صنع الأسلحة و المعدات الحربية حتى تطمئن لأمنها و لسلامتها بين الأمم.¹ وقد يكون النظامان الاقتصاديان: الرأسمالي و الاشتراكي من أهم ما أنتجته الثورة الصناعية في أوروبا في القرن التاسع عشر.

2.2 (الرأسمالية (Le Capitalisme):

لعل أول ما وظف مصطلح "الرأسمالية" كان للدلالة على حقبة زمنية معينة، تتمثل في المرحلة الموالية للنظام الحرفي "ابتداءً من القرن السادس عشر، و قد كانت الرأسمالية في مرحلتها الأولى رأسمالية تجارية (عهد التجارين) وذلك لسيطرة رأس المال التجاري على مجمل النشاط الاقتصادي و لسيطرة الصناعة و رأس المال الصناعي [...] على النشاط الاقتصادي".²

هذا و قد ظهر النظام الرأسمالي كنظام اقتصادي قوي مؤثر على الاقتصاد العالمي في النصف الأول من القرن التاسع عشر نتيجة لمختلف الأفكار و المبادئ التي ناد بها

¹ داليا عادل الزيايدي ، النظم الاقتصادية المقارنة، ص39.

² عابد عبد الكريم غريسي، دور الدولة في الاقتصاد (نظرة تحليلية تاريخية) دراسة حالة الجزائر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الاقتصادية تحت اشراف البروفيسور: باركة محمد الزين، جامعة أوبكر بلقايد، تلمسان، كلية العلوم الاقتصادية و التسيير و العلوم التجارية، سنة 2010/2011، ص15.

علماء الاقتصاد في القرن الثامن عشر و كذا المستوى الذي بلغته الصناعة و التجارة خلال القرن التاسع عشر.

وقد دعا الرأسماليون إلى ضرورة "إطلاق حرية الصناعة و التجارة و إلغاء النقابات التي كانت تقيدھا و تحدد دائرة نشاطها".¹

وقد أسهمت مجموعة من العوامل في ظهور الرأسمالية و نذكر منها:

1.2.2 تراكم رؤوس الأموال:

و المقصود بتراكم رؤوس الأموال هنا هو التوفر الهائل للأموال السائلة، إضافة إلى "الأدوات ووسائل الإنتاج المادي والأراضي و المباني المتعددة، فضلا عن القيم و الحقوق المترتبة على ذلك".²

وقد توصلت المصانع الكبرى آنذاك بإنتاجها الوافر إلى توفير رؤوس الأموال بشكل معتبر.

2.2.2 التحرر السياسي و الديني:

لقد كان القرن التاسع عشر عصر التفتح و الليبرالية في الفكر و الاقتصاد و السياسة و حتى المعتقد وقد أثر ذلك في نظرة الفرنسيين إلى "الإنتاج و العمل و التجارة فقاموا بإعادة توزيع الأراضي والثروات مما أدى إلى القضاء على نظام الإقطاع و تحقيق العدالة في توزيع الملكية و بذلك زاد الدخل القومي و ارتفعت مستويات المعيشة الحقيقية كما نجد أن الأفكار الدينية أباحت الحصول على الفوائد باعتبار أنها مشاركة في الربح و ليست ربا".³

¹ محمد قاسم و حسين حسني، تاريخ القرن التاسع عشر، ص 241.

² داليا عادل الزيايدي، ص 41.

³ المرجع السابق، ص 42، 43.

3.2.2 (مميزات الرأسمالية :

تتسم الرأسمالية بمميزات عدة نذكر منها:

1.3.2.2 (الملكية الفردية لوسائل الإنتاج:

في إطار الرأسمالية تكون وسائل الإنتاج ملكا خاصا لفئة قليلة من الأشخاص أو الأفراد القادرين على امتلاكها زد على ذلك الأرض و الموارد الطبيعية أي المواد الأولية و موارد الطاقة الضرورية للصناعة، يتبادلها أصحاب الأموال فيما بينهم مقابل مبالغ مالية قصد الرفع من الإنتاج الذي أدى إلى ظهور طبقتين: "الملاك الذين يحصلون على أرباح و العمال الذين يحصلون على أجر مقابل عملهم".¹

2.3.2.2 (الحرية الاقتصادية:

يملك العامل في ظل النظام الرأسمالي الحرية في اختيار المجال الذي سيعمل فيه و كذا طبيعة العمل الذي سيمارسه إذ الأهم هو الراتب المدفوع في المقابل.

3.3.2.2 (الليبرالية الفردية:²

وهي أساس النظام الرأسمالي و تتجلى فيما يلي:

- النظام الطبيعي
- الرشاد أو الحكمة
- الحرية
- الفردية و النفعية

¹ عابد عبد الكبير غريسي، دور الدولة في الاقتصاد، ص15.

² زينب حسين عوض الله، علم الاقتصاد السياسي ، منشأة المعارف الإسكندرية سنة 1984، ص151-156.

- حافظ الربح

- المنافسة

و من خلال ما سبق، نستخلص أن الرأسمالية هي نظام اقتصادي مبني أساسا على الليبرالية (الحرية) في ممارسة الصناعة و التجارة و غيرها بهدف تحقيق أكبر نسبة من الأرباح.

3.2 (الاشتراكية (Le Socialisme):

ظهر النظام الاشتراكي كرد فعل للأوضاع السائدة في المجتمعات الغربية جراء نظام التصنيع و التشغيل الذي كان يستغل العمال استغلالا غير إنساني إذ كانوا يُشغلون لساعات طويلة و في ظروف مزرية للغاية مقابل أجور زهيدة جدا؛ نظرا لارتفاع عدد العمال بالمقارنة مع عدد المناصب و هذا بسبب ارتفاع معدل المواليد و انخفاض نسبة الوفيات بفضل تطور الطب و ظروف المعيشة، زد على ذلك ارتفاع نسبة سكان المدن بفعل الهجرة الداخلية التي عرفتتها فرنسا في هذه الفترة للبحث عن منصب أحسن و ربح أكبر لأن الزراعة لم تعد مربحة مثلما كان يطمح إليه الفلاح أو حتى صاحب الأرض كما أدى استخدام الآلة أيضا في المصانع الكبرى إلى الاستغناء عن عدد كبير من العمال و الحرفيين، و غيرها من الظروف التي أجبرت العديد من العمال سواء من الرجال أو النساء أو الأطفال لقبول الأعمال التي كانوا يكلفون بها حتى لا يموتوا جوعا، وقد كانت هذه الظروف القاسية للعمال من أهم الأسباب التي "دفعت عددا من المفكرين و علماء الاجتماع و الاقتصاديين إلى نقد الأوضاع القائمة و الدعوة لتغيير النظام القائم و إحلال نظام أكثر عدالة و أحسن تنظيما".¹

¹ زينب حسين عوض الله، علم الاقتصاد السياسي ، منشأة المعارف الإسكندرية سنة، ص 76.

1.3.2 (الأسس الرئيسية للنظام الاشتراكي:

بني النظام الاشتراكي على مجموعة من الأسس و المبادئ نذكر منها:

1.1.3.2 (تدخل الدولة:

يستدعي النظام الاشتراكي ضرورة تدخل الدولة في "التصرفات الاقتصادية للأفراد من أجل تحقيق المصلحة العامة للدولة، فلم يعد هناك أي قدر من الحريات للأفراد، فلا توجد حرية العمل و لا حرية الإنتاج و لا حرية الاستهلاك و لا حرية التعاقد، فتقوم الدولة بتحديد كمية و نوعية السلع و الخدمات التي يتعين على المجتمع إنتاجها وفقا لرغبات المخططين".¹

2.2.3.2 (الملكية العامة:

لا يسمح النظام الاشتراكي لأيّ بامتلاك وسائل الإنتاج بل ينبغي أن تكون ملكا للدولة، كما لا يسمح بالملكية الخاصة إلا في حدود ضيقة جدا أو في إطار الملكية التعاونية "التي تعود لمجموعة محددة من الأفراد و ليس لأفراد المجتمع ككل".²

3.2.3.2 (التخطيط المركزي:

التخطيط هو العمود الفقري للنظام الاشتراكي، فهو لا يفتأ يلجأ إليه كلما صادفته مشكلة اقتصادية، فيقوم المختصون بدراستها ثم يضعون مخططا محكما لحلها من خلال تحديد الأهداف المرجو بلوغها بأقل تكلفة ممكنة.

¹ زينب حسين عوض الله، علم الاقتصاد السياسي ، ص 76.

² المرجع السابق، ص 76.

4.2.3.2 (المصلحة العامة):

يهدف النظام الاشتراكي إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع لأنه من خلالها ستتتحقق المصلحة الخاصة للفرد.¹

ومن هنا يمكننا القول أنه إذا كانت الرأسمالية تسعى إلى تحقيق المصلحة الفردية على حساب المصلحة الجماعية، فقد حاولت الاشتراكية أن تعيد التوازن للمجتمع من خلال عملها على تحقيقهما معا.

بالإضافة إلى الثورة الصناعية، لعل أهم ما ميز الاقتصاد الأوروبي في القرن التاسع عشر هو أزمة الكساد الكبير فيما بين 1873 و 1896م.

4.2 (أزمة الكساد الكبير (La Grande Dépression):

أزمة الكساد الكبير أو الانكماش الكبير هو فترة تباطؤ شهدتها الاقتصاد العالمي فيما بين 1873 و 1896م، و قد بدأت بمشهد قاسٍ وعنيف يتمثل في الأزمة البنكية لشهر ماي عام 1873م و التي كانت مسبقة بحركة مزدوجة من المضاربات العقارية و المضاربات في الأسواق المالية الناتجة عن تحرير الخدمات المصرفية لسنة 1870م في مختلف البلدان الأوروبية.²

هذا و قد دعم ملوك الإمبراطوريات النمساوية الهنغارية و الفرنسية والألمانية فكرة إنشاء مجموعة من المؤسسات أو الوكالات التي ستقوم بإصدار قروض الرهن العقاري في مجالات البناء الخاصة بالبلديات و الأخرى الخاصة بالإسكان. و هكذا انفجر القطاع العقاري في باريس و فيينا و برلين إذ كانت قيمة الأراضي في تصاعد سريع يبدو و كأنه

¹ زينب حسين عوض الله، علم الاقتصاد السياسي ، منشأة المعارف الإسكندرية سنة، ص 78.

² Hubert Bonin ,La grande dépression française à la fin du 19^{ème} siècle :réflexion sur sa datation et sur sa fonction, Histoire, économie et société/Année 1987/6-4/pp512-515

انحدار في النمو في تصاعد دائم، و لم يتردد المقترضون الجشعون في تكديس القروض المالية مقدمين مَبَانٍ غير مبينة أساسا أو غير منهية كضمان لهم.¹

و في عام 1871م، انتهت الحرب الفرنسية الألمانية بمعاهدة فرنكفورت التي أجبرت فرنسا على دفع تعويضات باهظة عن تلك الحرب، كما أسهمت الأزمة البنكية لشهر ماي 1873م في حدوث هذه الأزمة الكبرى، لقد بدأت يوم الجمعة 9 ماي 1873م في بورصة فيينا التي تأثرت لإفلاس المئات من البنوك النمساوية التي فشلت في استرجاع مستحققاتها من الرهانات العقارية، و هكذا تتوسع هذه الأزمة لتشمل باريس و برلين مما تسبب في انكماش أو كساد سريع: لقد كانت البنوك الأوروبية تفتقر إلى السيولة المالية كما لم يكن هناك أي بنك يثق في الآخر مما جعل عملية القروض ما بين البنوك مكلفة جدا.²

كما امتد الانهيار المالي إلى بورصة نيويورك في الولايات المتحدة الأمريكية، و تأثرت الصناعات الحديثة في أوروبا و السكك الحديدية في أمريكا بهذه الأزمة، وأدت المضاربة في مجال السكك الحديدية بفرنسا و أمريكا إلى انهيار مالي كبير في سنتي 1882 و 1884م على التوالي مما تسبب في اختفاء ما يدعى ببنوك الأعمال (Banques d'affaires) ومن بينها بنك "الاتحاد العام" (L'Union générale) بفرنسا.

ولم يسلم من هذه الأزمة الاقتصادية قطاعا الزراعة و صناعة الكتان و الحطب و الصناعات الغذائية.

هكذا كانت العشريتان الأخيرتين من القرن التاسع عشر في أوروبا عموما فترة عصيبة و لاسيما في المجال الاقتصادي: لقد انخفضت نسب أرباح المؤسسات بشكل تنازلي و انخفضت نسبة النمو بـ 50% بمعدل 2% من الفشل المصرفي (faillite bancaire)

¹ Antoine Robitaille, Pas 1929, 1873 !9 octobre2008, ledevoir.com

² Hubert Bonin, La grande dépression, Histoire ,économie et société/Année 1987/6-4/ p511

مثل بنك "الاتحاد العام" بفرنسا سنة 1882م، و قد بلغت هذه المؤشرات إلى ذروتها بسبب تباطؤ الطلب خاصة في ميدان الصناعات الحديدية كما كانت إيرادات الاستثمار تُهَرَّبُ إلى العالم الجديد (الولايات المتحدة الأمريكية)، و مما زاد الأوضاع تفاقمًا هو ظهور أزمة غذائية في المجتمعات القروية على وجه الخصوص.¹ ولقد اشتدت هذه الأزمة أكثر بسبب مشاكل الفلاحة، فكانت تتميز بسوء التسويق المتزايد و انخفاض أسعار البيع بالجملة، فبعدما بلغ مؤشر الأسعار فيها الرقم 144 انخفض إلى الرقم 92 سنة 1887م.²

1.4.2 (نتائج أزمة الكساد الكبيرة:

لقد عانت معظم البلدان العالمية من أزمة الكساد الكبير، لكن بنسب متفاوتة و في فترات زمنية مختلفة، فبينما كانت شديدة في أوروبا في الفترة الممتدة من سنة 1873م إلى سنة 1878م تأجلت إلى سنتي 1882 و 1884م في الولايات المتحدة الأمريكية.³

و من أهم نتائج أزمة الكساد الكبير نذكر:

- سعي أرباب العمل في أوروبا إلى الحفاظ على مكانتهم العالمية رغم قلة الأسواق التي تسمح لهم بتسويق بضاعتهم.
- اختيار البلدان الأوروبية الاتجاه نحو سياسة الاحتلال من أجل فرض الفائض من منتجاتها على مستعمراتها.

¹ Ekladata.com>les-crisis-économiques-et-leurs-effets-sociaux-et-politiques-dans-un-long-vingtième-siècle-(1873-2008), p3.

² المرجع السابق، ص 4.

³ المرجع السابق، ص4.

- ارتفاع نسبة الأعمال الإجرامية للمتشردين في باريس بنسبة 48% فيما بين 1880 و 1882م.

- تدهور عالم الريف بفعل التوسع الحضري الناجم عن الهجرة من الريف إلى المدينة .
- ظهور قوى صناعية أخرى جديدة في الأفق و أخذها لمكانتها أمام البلدان الأوروبية أو تصدرها لها أحيانا مثل الولايات المتحدة الأمريكية.¹
ورغم كل ذلك، ظلت أوروبا هي المنطقة المهيمنة على الصناعة و التجارة في العالم و ذلك حتى بدايات القرن العشرين.

3) الأوضاع الاجتماعية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر:

لقد أحدثت الثورة الفرنسية ثورة فعلية على الأنظمة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، كما تم خلالها الإعلان على الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان و المواطن سنة 1789م و تنص المادة الأولى منها على أن البشر يولدون أحرارا و متساوين في الحقوق، و من أهم الشعارات التي خرجت بها هذه الثورة هي: "الحرية و الأخوة والمساواة " الذي تبنته الجمهورية الفرنسية الثانية بصورة رسمية سنة 1848م و كُتب في عهد الجمهورية الثالثة على واجهات مباني و مؤسسات الدولة بمناسبة الاحتفال باليوم الوطني في 14 جويلية 1830م.

¹ Ekladata.com>les-crisis-économiques-et-leurs-effets-sociaux-et-politiques-dans-un-long-vingtième-siècle-(1873-2008), pp 7, 8.

إضافة إلى الأفكار التنويرية و "نظريات العقد الاجتماعي و الحقوق الطبيعية التي نادى بها ثلة من المفكرين أمثال: "جان جاك روسو" و "جون لوك" و "فولتير" و "مونتيسكيو" و غيرهم في القرن الثامن عشر.¹

لقد كانت كل هذه الإنجازات و الأفكار تبشر بوجود مجتمع سعيد، في القرن التاسع عشر، تسود فيه العدالة الاجتماعية و المساواة في الحقوق و الواجبات و عدم وجود أنظمة سياسية جائرة و لا أنظمة اجتماعية طبقية و لا يظلم فيها أي إنسان، و لكن الواقع أثبت عكس ذلك تماما، إذ كان المجتمع الفرنسي مجتمعا طبقيا بامتياز، و قد حلت فيه الطبقة البورجوازية محل الطبقة الإقطاعية وظهرت فئة قليلة من أصحاب الأموال الذين أصبحوا أصحاب أملاك و مصانع و مؤسسات كبيرة حيث تشغل الأعداد الهائلة من العمال في ظروف صعبة للغاية.

لقد كانت هذه التناقضات من أهم الدوافع التي استدعت الوقوف عند هذا الموضوع و محاولة الكشف عن البنية الاجتماعية للمجتمع الفرنسي و مدى تأثره بالأوضاع المحيطة به.

3.1 البنية الاجتماعية الفرنسية:

يرتبط مفهوم الطبقات بالنسبة للعديد من علماء الاجتماع و من بينهم: "جورج غورفيتش" (Georges Gurvitch) بظهور المجتمعات الصناعية.² و هي تتشكل من خلال ضم مجموعة من الأشخاص الذين تتوفر فيهم مجموعة من الشروط أو تجمع بينهم سمات

¹ جان جاك روسو، في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي، ترجمة و تقديم عبد العزيز لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2011، ص 79 و ص 92، 93.

² La société française au 19^{ème} siècle ,<http://ekldata.com>

معينة، ويرى "كارل ماركس" أن هناك طبقتين اجتماعيتين تسهمان في بناء أي مجتمع و هما: الطبقة البورجوازية و الطبقة البروليتارية.¹
ويتكون المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر من هاتين الطبقتين.

1.1.3 الطبقة البورجوازية:

لم تكن الطبقة البورجوازية وليدة الثورة الصناعية كما يدعي البعض أمثال "ماركس" بل ترجع أصولها إلى زمن أبعد و لعل "أبلغ دليل على ذلك هو الأصل اللغوي للكلمة نفسها فالبورجوازية تعني ساكن البرج أو المدينة و ما يميزه على وجه الخصوص أنه يحصل على دخله من عمل غير يدوي.²

لقد حلت الطبقة البورجوازية محل الطبقة الإقطاعية و طبقة نبلاء الفروسية المتحكمة في زمام الأمور في العصور السابقة ولكن بعد انتصار الثورة الفرنسية، بدأت الطبقة البورجوازية تظهر بشكل ملحوظ وبدأت سلطتها تنمو و تتطور ابتداءً من عهد "لويس السادس عشر" (1774-1792م) وقد بلغت مبلغاً مهماً في القرن التاسع عشر إذ كانت تمثل جزءاً مهماً من المجتمع الفرنسي كما كان حضورها لا يفتأ يزداد في المجال السياسي.³

كما يذهب أحد الباحثين إلى أن هناك بورجوازية كبيرة تتمثل في أصحاب الأموال و أرباب المصانع وغيرهم و بورجوازية متوسطة و تتمثل في الأطباء والقضاة و المهندسين

¹ La société française au 19^{ème} siècle, <http://ekladata.com>

² أحمد حسن برعي، الثورة الصناعية، ص 199.

³ La société française au 19^{ème} siècle, <http://ekladata.com>

والأساتذة والموظفين الساميين والمحامين و غيرهم وهم لا يصلون إلى مستوى البورجوازية الكبيرة ولكنهم أحسن من العمال والفلاحين.¹

وعلى العموم كانت الطبقة البورجوازية في تلك الحقبة الزمنية هي الطبقة المسيطرة والحاكمة في المجتمع الرأسمالي وهي طبقة غير منتجة لكنها تعيش من فائض قيمة عمل العمال ، حيث أن البورجوازيين هم الطبقة المسيطرة على وسائل الإنتاج² والجدير بالذكر هنا أن الطبقة البورجوازية هي التي قامت بالثورة الفرنسية بتحالف مع طبقة العمال والفلاحين وبعد ذلك انقلبت على مبادئ الجمهورية الأولى بدعم الجيش بقيادة "نابليون بونابرت" ومن ثم سيطرت البورجوازية على إدارة الثورة الفرنسية، بعدما استطاعت الإطاحة بطبقة النبلاء ورجال الدين و إخماد غضب الطبقة الكادحة بعد تصدير الأزمة الداخلية إلى الخارج باحتلال الجزائر.³

2.1.3 (الطبقة البروليتارية:

غالبا ما تكون البروليتارية مرتبطة بعالم العمال، وإذا عدنا إلى التحليل الاقتصادي للمجتمع حسب "كارل ماركس" الذي قسم المجتمع إلى قسمين كبيرين هما: الرأسماليون والبروليتاريون، فنجد أنه يميز بين الأرستوقراطية المالية والبورجوازية الصغيرة و طبقة العمال

¹Anwar Younes Kaddis Youssef, La société bourgeoise Française au 19^{ème} siècle et au 20^{ème} siècle vu par les écrivains contemporains, Thèse de doctorat sous la direction de Michel Hau Université de Strasbourg, Ecole doctorale des sciences de l'homme et des sociétés ; Art, Histoire et Civilisation de l'Europe, Décembre 2011, p33.

² أحمد حسن البرعي ،الثورة الصناعية و آثارها الاجتماعية و القانونية ،دار الفكر العربي ،القاهرة 1982، ص197.

³Anwar Younes Kaddis Youssef, La société bougeoise française au 19^{ème} siècle, pp 126,127.

والبروليتاريا الفقيرة جدا أو المعدمة (Lumpenproletariat) والطبقة الفلاحية الجزئية (La paysannerie parcellaire).¹

هذا وتشكل البروليتاريا من العمال الذين يعملون في المصانع لمدة لا تقل عن اثني عشرة ساعة بل وقد تصل إلى خمس عشرة ساعة في اليوم و ستة أيام في الأسبوع دون عطلة سنوية.²

هكذا كان العمال الفرنسيون (البروليتاريون) يعيشون في حالة من الفقر الشديد، أغلبهم قادم من الأرياف بحثا عن ظروف أحسن، أجورهم ضعيفة جدا وتغذيتهم سيئة جدا وفقيرة جدا من حيث القيمة الغذائية، وكم من مرة كانوا يحرمون حتى من الأكل، و نظرا لهذه الظروف الصعبة، اضطر الأطفال ابتداءً من سن الثامنة من عمرهم للخروج إلى العمل في المصانع والورش و المناجم... وزد على ذلك ، لم تكن أماكن العمل ملائمة ومريحة، بل كان يملؤها الضجيج والقاذورات وعدم وجود تهوية جيدة ولا شروط الأمن، هذا بالنسبة للمصانع والورش، أما المناجم فهي الأسوأ على الإطلاق: أجواؤها خانقة هوائها ملوث جدا، وكثيرا ما يخرج العمال منها موتى أو مصابون بأمراض خطيرة.

هذا وقد كان عدد الأطفال المشتغلين في هذه المناجم كبيرا جدا فهم يقومون بجر العربات المملوءة بالفحم ويدخلون في الأروقة الضيقة، التي لا يقدر الكبار على الدخول فيها، مما يشكل خطورة كبيرة على حياتهم وذلك كله مقابل أجور ضعيفة جدا.

كما كان هؤلاء يسكنون في أحياء مكتظة بالسكان: شوارعها ضيقة وقذرة وهي تعج دائما بالأطفال، منازلهم صغيرة جدا وشبه مظلمة وتعلوها الرطوبة والبرد نظرا لانعدام التدفئة.

¹ Patrice Cailleba, La genèse du concept de prolétariat chez le jeune Marx (1841-1845) in Revue de philosophie économique ,Vol 18,numéro 2 2017,<https://www.cairn.info>

² Bourgeois et ouvriers au 19^{ème} siècle ,<https://lewebpedagogique.com>

ونتيجة لذلك، كان العديد من أبناء هذه الطبقة يلجئون إلى الخمر ويدمنون عليه هروبا من واقعهم المر ولكن كثيرا ما كان يوقعهم ذلك في أمراض خطيرة بل مميتة حينذاك كمرض السل.¹

وهذا ما سيقودنا إلى التطرق إلى الحالة الصحية لأبناء هذه الطبقة في تلك الحقبة الزمنية.

1.2.1.3) الوضعية الصحية للطبقة البروليتارية:

شهدت نسبة الولادات في المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر انخفاضا ملحوظا فمن 36 في الألف سنة 1780م إلى 33 في الألف فيما بين 1816 و1820م ثم إلى 28.4 في الألف فيما بين 1836 و1840م.

ويرجع ذلك أساسا إلى كثرة الحروب التي شهدتها فرنسا في تلك الحقبة الزمنية إضافة إلى ارتفاع نسبة الوفيات رغم الإنجازات العلمية الهائلة والاكتشافات البيولوجية والصيدلانية العظيمة،² ولكن كان تدني المستوى المعيشي ونقص التربية الصحية والنظافة أقوى من ذلك، زيادة على سوء التغذية على المستويين الكمي والنوعي مما فتح المجال أمام أمراض معدية كالسل الذي كان يُسمى بداء العصر أو ألم العصر، وكذا الأوبئة كالكوليرا الذي حصد العديد من الأرواح سنة 1832م بفرنسا،³ لقد بلغ عدد ضحايا هذا الوباء في مدينة "موز" (Meuse) الفرنسية حوالي 4571 ضحية أي ما يعادل 1% من سكان تلك المنطقة، وكان أغليبتهم من العمال الذين يعملون بطرق تقليدية

¹ Bourgeois et ouvriers au 19^{ème} siècle ,<https://lewebpedagogique.com>

² Karine Lavandier, contribution à l'étude de la pratique médicale en France au 19^{ème} siècle, Université Henri Poincaré, Nancy1, Faculté de Médecine de Nancy, Le 20 décembre 2000, p22.

³ المرجع السابق، ص27.

ويدوية أمثال صانعي النبيذ الذين توفي منهم 13% أثناء وجود وباء الكوليرا بالمدينة نفسها (موز) سنة 1854م و 8% من الفلاحين المزارعين و 6% من عمال البناء وغيرهم.¹

وزيادة على الأعداد الهائلة التي كانت تحصدتها حمى التيفوئيد والديفتيريا والسعال الديكي وداء الجذري وداء السل...²

ومن هنا يتجلى لنا مدى تدهور الحال الصحية لأبناء الطبقة البروليتارية التي كانت نتيجة حتمية ومنطقية للظروف المزرية التي يعيش فيها هؤلاء سواء في سكناهم أم في مقرات أعمالهم.

4 (نتائج الفقر والبؤس في المجتمع الفرنسي:

1.4 (الزحف الريفي (التصنيع والتمدن):

كان الفلاح الفرنسي في القرن التاسع عشر، يعيش في حالة من الفقر والبؤس الشديدين، إذ لم يكن هناك تكافؤ بين مساحات الأراضي، و لاسيما الصالحة للزراعة منها، وبين عدد السكان: لقد كانت الأرياف الفرنسية مكتظة بالسكان حتى سنة 1850م، كما كانت الزراعة فيها جد محدودة وكانت حصة الحبوب الخاصة بصنع الخبز هي الأكثر انتشارا من بين المزروعات، وزد على ذلك، اعتماد هذه الزراعة على الوسائل التقليدية اليدوية كالمحراث الذي يجر من الحيوانات و الحصاد الذي

¹ Karine Lavandier, contribution à l'étude de la pratique médicale en France au 19^{ème} siècle, p 104, 105..

² المرجع السابق، ص 110-121.

يعتمد على اليد العاملة البشرية والوسائل البدائية كالمنجل، ولهذا كانت المحاصيل الزراعية لا تكاد تسد الحاجيات اليومية للفلاحين وعائلاتهم.¹

وبناء على ذلك ، لجأ العديد من الفلاحين إلى الهجرة نحو المدن آملين في إيجاد عمل ملائم لهم والعيش الكريم، وبهذا تدفقت الأعداد الهائلة من القرى نحو المدن الفرنسية الكبرى التي لم تكن مستعدة حينذاك لاستقبالها ؛ ومن جراء ذلك تضاعف عدد سكان المدن في أوروبا عامة وفي فرنسا خاصة بسبع مرات، ونتيجة لذلك بدأت تلك المدن تتسع أكثر فأكثر وكانت تظهر من حولها أحياء جديدة كما كان أصحاب الأموال يتسابقون لبناء المصانع في المساحات الشاسعة وكانوا يبنون أمامها سكنات للعمال حتى يضمنوا اليد العاملة الرخيصة وبهذا ظهر ما يسمى في فرنسا "بالضواحي" (Les banlieues).²

هذا وقد كانت السلطات ، تقوم بهدم المساكن القديمة لتبني مكانها عمارات ضخمة تحتوي على عدد كبير من الشقق وهذا ما يسمى ب (HLM) وذلك حتى تتوصل إلى وضع أكبر عدد ممكن من السكان فيها، ولتسهيل التنقل، أنشأت شوارع أوسع ووسائل نقل جماعية كالحافلات والحافلات الكهربائية (Tramway)، كما أحدثت شبكة للمياه الصالحة للشرب وغاز المدينة وكذا وسعت رقعة مجاري المياه القذرة، كما وضعت أعمدة كهربائية أكثر لتوفير الإنارة العمومية خاصة في الأحياء الجديدة، وبهذا شهدت المدن الفرنسية تحولا جذريا وعميقا، فمن مدن صغيرة بشوارعها الضيقة ومنازلها الفردية الصغيرة وعرباتها القليلة باتت بفضل التطور الصناعي مدنا كبرى بكل ما تحمله الكلمة من معنى.³

¹Le 19^{ème} siècle, <http://ekladata.com>

² المرجع السابق.

³ المرجع السابق.

2.4) النضال الاجتماعي و النقابي:

رغم الانجازات العظيمة التي حققتها الثورة الصناعية في أوروبا إلا أنها لم تتجح في التخفيف من "حجم البؤس بالحواضر الأوروبية التي عرفت هجرة متزايدة من المناطق الريفية التي لم تكن بها ظروف العيش أقل رتابة".¹ كما أنها لم تفلح في تحسين حال العامل الأوروبي الذي كان يعمل لساعات طويلة في ظروف سيئة للغاية مقابل أجر زهيد جدا مما جعل وضعيته صعبة جدا.

1.2.4) وضعية الطبقة العمالية:

لقد مرت الطبقة العمالية بفرنسا في الفترة الممتدة من 1875 إلى 1896م بمرحلة عصيبة جدا بسبب الأزمة الاقتصادية أو ما يسمى بالكساد الكبير، فقد كانت وضعية عمال المصانع خاصة تزداد سوءاً، وقد يكون حال العامل أحسن نسبيا عندما يوفر له صاحب العمل الإيواء ولكن كثيرا ما كان ذلك يوقعه تحت رحمته و يجعله تابعا له، ويتجلى ذلك في عمال المناجم والنسيج في فرنسا حينذاك.

وقد أدى هذا الوضع المأساوي للطبقة العاملة و"الذي لا يوازيه عند البرجوازية الناشئة إلا الثراء الفاحش مع ازدهار الرأسمالية الصناعية و المالية [...] [إلى] إثارة الأذهان النيرة والضماير الحية".²

وفي حوالي منتصف القرن التاسع عشر بدأت تبرز إلى الوجود حركة يمثلها أرباب العمل وتدعى "بالحركة الأبوية" (Le Paternalisme) ومن أهم روادها "مونيي" (Meunier) و"شنايدر" (Schneider) و"ميشلان" (Michelin) وتسعى هذه الحركة إلى تثبيت العمال في مؤسساتهم وتوفير سكن محترم لهم ولعائلاتهم والتكفل بهم اجتماعيا بتوفير

¹ محمد العودي، فقراء زمن العولمة، منشورات دار التوحيد، سلسلة العلوم الإنسانية، ط1 الرباط 2008، ص64.

² المرجع السابق، ص61.

مصاريف النقل وغيرها من الامتيازات الاجتماعية الأخرى، وفي هذه الأثناء أي في 1874م حدد قانون سن الدخول للعمل في المصانع ب إثني عشرة سنة، ولكن لم يطبق هذا القانون مباشرة بعد صدوره بل كان يطبق بطريقة تدريجية.¹

2.2.4 (التنظيمات العمالية:

كان عدد عمال المصانع في فرنسا في النصف الأول من القرن التاسع عشر قليلا كما كانوا يمارسون عملا شاقا وفي أوضاع جد قاسية، مع العلم أن معظمهم كان غير مؤهل وغير مكون للقيام بتلك الأعمال وعليه كانوا مستسلمين وراضين بتلك الأوضاع إضافة إلى عدم وجود نقابات أو منظمات عمالية تقوم بتوعيتهم وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم، ومع ذلك كانت هناك فئات قليلة جدا من الحرفيين الذين كانوا يقومون ببعض الاحتجاجات والإضرابات، أحيانا، للمطالبة بالحد الأدنى من الأجور وبخفض ساعات العمل اليومية، ولعل أهم تلك الإضرابات: إضراب وعصيان عمال الورشات بمنطقة "ليون" (Lyon) بفرنسا فيما بين 1831 و1834م.²

هذا ولم يكن من السهل على العمال حينذاك أن ينظموا أنفسهم في منظمات عمالية، لذا كانت إضراباتهم تقمع بشدة من قبل قوات الأمن بدعوى عدم شرعيتها ولكن بفضل مجهود العديد من المناضلين الاشتراكيين، اعترفت السلطات بحق الإضراب في إنجلترا أولا سنة 1824م ثم في فرنسا سنة 1864م.³

¹ Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale– solidaires industrie, p11. <https://solidaires.org>

² المرجع السابق، ص 6.

³ Bourgeois et ouvriers au 19^{ème} siècle in <https://lewebpedagogique.com>

أما قبل ذلك، كان العمال ينشئون جمعيات وتنظيمات فيما بينهم لمساعدة بعضهم البعض في حال البطالة أو التعرض لحادث ما¹، لقد عاشت فرنسا فيما بين 1825 و 1848 "فترة من الاضطراب الاجتماعي قل أن عرفه بلد آخر [...] إن نزول العمال إلى الشارع و مشاركتهم في المظاهرات [...] كان في الأصل لأسباب اقتصادية². هذا و لم يمنع تحريم السلطات الفرنسية للتجمعات العمالية "من ممارسة العمل الجماعي سواء في نطاق جمعيات قائمة و معروفة [...] أو في شكل مظاهرات و إضرابات تميزت بالعنف".³

و قد كان عصر الإمبراطورية الثانية يتميز بالتفتح و الليبرالية و قد بدأت فيها الحكومة تبدي اهتماما بالطبقة العمالية و من أهم إنجازاتها فيما يخص القانون الاجتماعي "إلغاء النصوص التي تجرم الجمعيات العمالية و تعطي للعمال الحق في التجمع و التوقف عن العمل بصورة جماعية [...] أي اعترف القانون للعمال بالحق في الإضراب⁴. و بعد مرور ثلاث عشرة سنة على أحداث بلدية باريس أي في عام 1884 و في ظل الجمهورية الثالثة "يعترف المشرع للعمال بحق إقامة الجمعيات [...] و يعتبر هذا القانون من أهم القوانين العمالية [...] حتى هذا التاريخ"،⁵ و من أهم قراراته السماح "بإنشاء نقابات بكل حرية، في جميع المهن و بأقل قدر من الإجراءات الشكلية... الخ⁶

¹ أحمد حسن البرعي، الثورة الصناعية، ص 387، 388.

² المرجع السابق، ص 389، 390.

³ المرجع السابق، ص 387.

⁴ المرجع السابق، ص 427.

⁵ المرجع السابق، ص 429.

⁶ المرجع السابق، ص 429.

3.2.4 (الحركات العمالية:

كان قانون العقوبات في عهد الإمبراطورية الأولى (1800-1814م) يمنع أي تجمع أو تحالف للعمال من أجل التوقف عن العمل أو منع العمال للذهاب إلى مكان عملهم أو المكوث فيه وإن حاول أي شخص مخالفة ذلك القانون فسيكون مآله السجن لمدة شهر على الأقل أو ثلاثة أشهر على الأكثر.

وقد كانت الحركة العمالية حينذاك جد ضعيفة لأن معظم الشباب كانوا منشغلون في الحروب والغزوات كما كانت سياسة نابليون الجائرة تتصدى لأي حركة بالمرصاد بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث أعاد قانون العبودية سنة 1802م في المستعمرات الفرنسية والذي كان قد ألغي في "سان دومينغ" (St Domingue) أثناء الثورة الفرنسية سنة 1795م.¹ أما في فترة الإصلاحات وعودة المملكات (1815-1848م) فكانت حال الصناعة بطيئة وغير منتظمة، لقد حلت الآلة البخارية بشكل بطيء جدا محل الآلة المائية أو الهيدروليكية ولاسيما في بعض المناطق من فرنسا، وقد كانت الصناعة حينذاك تشغل حوالي ثلاث مرات أقل من اليد العاملة المشتغلة في القطاع الزراعي كما كان العديد من الحرفيين في الأرياف يعملون في بيوتهم وقد كانت حالهم جد مزرية مما دفع بهم إلى الهجرة نحو المدن وهذا بدوره ولد خوفا كبيرا في نفوس عمال المصانع الذين كانوا يخشون من تخفيض أجورهم أو من البطالة.

ونظرا لتلك الأحوال الصعبة التي كان يعيشها العمال حينذاك اقترح الفلاسفة أمثال "كارل ماكس" و"برودون" (Prudhon) والمحسنون كـ"سان سيمون" (St. Simon) و"فوريي" (Fourier) و"أوان" (Owen) وغيرهم حلولاً ستؤثر لاحقا على الحركة الاشتراكية.²

¹ Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale– solidaires industrie, p5. <https://solidaires.org>

² المرجع السابق، ص 5، 6.

وابتداءً من سنة 1872م أعيد تشكيل الغرف النقابية في باريس و في مختلف المناطق الأخرى، ولكن لم يكن بإمكان هذه النقابات أن تجتمع مثلما كانت قبل أحداث بلدية باريس، وفي سنة 1876م نظم في باريس مؤتمر جمع حوالي 151 منظمة عمالية تمثل حرف ووظائف معينة وقد كانت تركز خاصة على الجمعية التعاونية وتصر على التكوين والتعليم المهنيين، وفي هذه الفترة أيضا أنشئت "نوادي الدراسات الاشتراكية وبمناسبة انعقاد مؤتمر العمال سنة 1879م أنشئ "حزب العامل" وذلك بفضل "جول غيد" (Jules Guesde)، وقد بينت القرارات الصادرة عن هذا المؤتمر وجود وعي جديد، وفي أواخر القرن التاسع عشر قرر المؤتمر أن ينظموا أنفسهم في أحزاب سياسية.¹

4.2.4) النضالات العمالية:

كان الحرفيون في عهد "لويس فيليب دي أورليون" يعانون من "أزمة بطالة حادة وتدهور في الدخل بسبب استخدام الآلات كما تزايدت أعداد العمال وانطلقت الهجرة للعمل في المدن فازدحمت بالسكان ، وانحطت الأجور، الأمر الذي أدى إلى تفاوت كبير بين الطبقات ثرية والفقيرة.²

وبعد الإطاحة بالملك "لويس فيليب" وتشكل الحكومة المؤقتة، تقدم وفد من العمال إليها وذلك يوم 25 فبراير عام 1848م للمطالبة بالحق في العمل و الحق في الانضمام إلى الحكومة المؤقتة.

وقد أصدرت هذه الحكومة مرسوما في الحال تتعهد فيه بضمان وجود العامل من خلال العمل كما تضمن العمل لكل المواطنين.وقد اعترفت الحكومة بوجوب اشتراك العمال مع بعضهم البعض لإنجاز بعض الأعمال والاستفادة من أرباحها.

¹ Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale- solidaires industrie, p 7.

² عبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوروبي الحديث، ص330.

هذا وقد حاولت الحكومة حل مشكلة البطالة التي كانت في الارتفاع وتطبيق شعار "الحق في العمل" بدعوتها إلى إقامة مشاريع عمومية وكانت تعد بتشجيعها للعمال على الأخذ بزمام النشاط الاقتصادي من خلال تكوين تعاونيات إنتاجية وهكذا فتحت عدة ورشات تحت اسم "الورش الوطنية"، ولكن سرعان ما فشلت في ذلك بسبب وصول أعداد هائلة من العمال المطالبين بالعمل وأيضا سوء تنظيم هذه العملية وعدم فعاليتها.¹

وفي 23 جوان 1848م اندلعت الثورة بشكل عفوي في باريس بين العمال والحرس الوطني، وقد دامت ثلاثة أيام فقط ولكن نتائجها كانت وخيمة على العمال، إذ قُتل منهم حوالي 10 آلاف عامل كما سجن منهم حوالي 25 ألف عامل وحكم على 10 آلاف آخر منهم بالسجن أو الترحيل، وقد كانت هذه الثورة حاسمة بالنسبة لتاريخ الحركة العمالية وللجمهورية الفتية.²

ولقد شهدت هذه الجمهورية ذات العمر القصير (1848-1851م) عددا من الثورات الاجتماعية ما لم تشهده أي مرحلة أو فترة أخرى من تاريخ فرنسا، ومن خلالها تحصلت بعض القطاعات على أيام عمل بـ 9 أو 10 ساعات.³

كما أقر "نابليون الثالث" سنة 1864م بإلغاء جنحة التجمع والتحالف، نتيجة لإضراب عمال المطابع الباريسية، وبعدم محاكمة ومعاقبة المضربين عن العمل، إذ لكل فرد الحق في الإضراب ولكن من حق صاحب العمل فسخ عقد العامل وفصله عن عمله وهو غير مجبر على إعادة إدماجه في منصبه، وقد بقي هذا القرار ساري المفعول بفرنسا إلى غاية سنة 1950م.

¹ Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale- solidaires industrie, p 7 .<https://solidaires.org>

² المرجع السابق ، ص 7.

³ المرجع السابق ، ص 8.

"وقد قاوم أصحاب الأعمال تأسيس [...] النقابات عهدا طويلا ولكنها أخذت في النهاية صبغة قانونية فأثرت تأثيرا محسوسا في الحياة الاقتصادية والاجتماعية سواء بتقصير ساعات العمل أم بزيادة العمل وتنظيم توزيع العمال الخ..."¹

ولكن في 25 مارس 1852م، ألغى نابليون الثالث الحرية النقابية، وابتداءً من عام 1862م بات العمال يطالبون بإنشاء غرف نقابية تلعب دور التعاضديات والتعاونيات الإنتاجية، وابتداءً من عام 1866م سمحت الحكومة بوجود الغرف النقابية كما أدت الاجتماعات بين النقابيين وقادة العمال من مختلف البلدان إلى إنشاء أول جمعية عالمية للعمال في لندن سنة 1864م تحت اسم "الجمعية العالمية للعمال" (L'AIT) وقد قدمت هذه الجمعية (1864-1872م) إطارا وأفكارا للحركة العمالية بفرنسا.²

هذا وقد اتسمت الفترة الممتدة ما بين 1878 و1882م بتصاعد مهم للإضرابات ولاسيما في قطاع النسيج وفي منطقة الشمال الفرنسي، وقد كانت معظم هذه الإضرابات غير مهيأة ولا منظمة إذ غالبا ما كانت تحدث بشكل مفاجئ ومصحوبة بمسيرات تصل إلى حد الفوضى والشغب أحيانا، ولعل أكثر تلك الإضرابات رمزية ودلالة هو إضراب عمال مناجم "دي كازفيل" (Decazeville) بمنطقة "أفيرون" (Aveyron) سنة 1886م والذي دام 108 يوما.

وفي مارس عام 1884م، صادق البرلمان على قانون النقابات: بحيث تمنح الجمعيات قانونا خاصا بها، وكانت الجمهورية الجديدة تصبو إلى تأطير أفضل للصراعات والنضالات والإضرابات الخاصة بالطبقة العمالية وهكذا أصبحت النقابات جمعيات شرعية تحظى بحرية كما يمكنها تنظيم صفوفها في اتحادات نقابية.³

¹ عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال، ص 243.

² Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale- solidaires industrie, p9. <https://solidaires.org>

³ المرجع السابق، ص 12.

و قد كانت الاحتفالات السنوية باليوم العالمي للعمال المصادف ل1 ماي من كل سنة مصحوبة بموجة من الإضرابات وعادة ما كانت تتبع بالقمع والضرب من قبل أرباب العمل والشرطة وكانت تصل أحيانا إلى القتل عن طريق إطلاق النار، مثلما وقع في مدينة "فورمي" (Fourmies) بفرنسا في 1 ماي من عام 1891م.

وقد توالى الإضرابات وأعمال الشغب، ومن أهمها نذكر:

- إضراب عمال المناجم بمنطقة "كارمو" (Carmaux) بناحية "طارن" (Tarn) سنة 1892م والذين ساندتهم "جان جوريس".

- إقدام عمال البناء على القيام بإضراب والمطالبة بحقوقهم ولاسيما الآلاف منهم القادمون من الأرياف والذين يشتغلون في حفر الأنفاق لدى شركة ميترو باريس في حوالي عام 1900م.

ولم تقتصر الإضرابات و الاحتجاجات على باريس فقط بل امتدت إلى مناطق أخرى من فرنسا كـ "لابروتاني" (La Bretagne) و"اللورين" (La lorraine) ، وبالطبع كانت هذه الأحداث مصحوبة بالقمع الشديد في كل مكان، فبعد حادثة مقتل 1100 عاملا في كارثة منجم "كورير" (Courrières) سنة 1906م، وجد الأربعون ألفا من عمال هذا المنجم، بعدها بقليل، أنفسهم في مواجهة 20.000 جنديا.¹

وموازة مع الحركات العمالية والنقابية، ظهر حراك قوي وسط الفلاحين والمزارعين الذين كانوا يتظاهرون ويحتجون بشدة على انهيار سوق الخمر، أهمها تجمع صانعي النبيذ بمنطقة "بيزي" (Béziers) الذين قوبلوا بالقمع من قبل الشرطة، ولكنهم لم يستسلموا بل واصلوا نضالهم حتى توصلوا إلى الحصول على حقهم في العمل لمدة لا تتجاوز الثماني

¹ Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale- solidaires industrie, p 16.

ساعات يوميا وكان ذلك في 1 ماي عام 1906م كما تمت المصادقة لهم أيضا على قانون 13 جويلية عام 1906 الذي يجعل عطلة آخر الأسبوع إجبارية.¹ ولكن مع دخول الاشتراكيين على إدارة بلدية "باريس" بدأت تظهر القوانين الأولى التي تحمي بعض الأصناف من العمال أمثال عمال بلدية باريس سنة 1895م وعمال العاصمة باريس سنة 1898م وعمال الغاز والكهرباء سنة 1906م وعمال السكك الحديدية سنة 1909م، كما كانت نسب المنخرطين في النقابات العمالية حينذاك في ارتفاع مستمر، فقد ارتفع عدد المنخرطين من 250 ألف عامل إلى مليون عاملا في غضون ثلاثين سنة.² وهكذا كان القرن التاسع عشر في فرنسا يعج بالثورات و التصعيدات و التغيرات و التقلبات و المظاهرات و الأزمات على مختلف الأصعدة .

5 (الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر:

لقد وفرت هذه الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مادة خصبة ودسمة للأدب في القرن التاسع عشر المتميز بوجود أهم المدارس الفنية التي أحدثت ثورة فعلية في الأدب والفن كالمدرسة الرومانسية والواقعية بمختلف أنواعها واللتان اقتربتا من الطبقات الاجتماعية البسيطة ومن الفئات البائسة والمعدمة وحاولت أن تعيد لها الاعتبار فنيا وجماليا وحتى اجتماعيا.

¹ Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours)

Formation syndicale- solidaires industrie, p 16.

² المرجع السابق، ص 16.

وكانت الرواية بالطبع هي الجنس الأدبي الذي تربع على عرش الساحة الأدبية حينذاك، لأنه هو النوع الأمثل القادر على استيعاب مختلف الأحداث والصراعات والمستجدات التي كانت تعج بها الساحة الأوروبية والفرنسية خاصة في القرن التاسع عشر.

هذا ولم تظهر الرواية الاجتماعية بالمعنى الفعلي إلا في عام 1840م معاصرة للأفكار الاجتماعية التحررية التي نشرها "لامونييه" (Lamennais) و"لورو" (Leroux) و"برودون" (Prudhon) و أثرت في العديد من الأدباء الذين عُنيوا بمسائل مجتمعاتهم و لاسيما هموم أبناء الطبقة الشعبية مما أدى إلى ميلاد مجموعة من المؤلفات و نذكر منها: كتاب "الشعب" (Le peuple) لجول ميشليه (Jules Michelet) في عام 1846م، ثم كتاب "العاملة" لجول سيمون (Jules Simon) في عام 1861م، ومن أهم الروايات نذكر: رواية "الرفيق في جولة حول فرنسا" سنة 1840م ورواية "فرانسوا الذي وجد في الحقل" (François dans le Champi) فيما بين 1847 و 1848م لـ"جورج ساند" (Georges Sand) و"أسرار باريس" (Les mystères de Paris) لـ"سو" (Sue) فيما بين 1842 و1843م و"البؤساء" لـ"فيكتور هوغو" (Victor Hugo) في عام 1862م.¹

هذا "وقد اهتمت الرواية الرومانسية بشكل ملحوظ بعلاقة الفرد بالمجتمع وكيفية ظلم المجتمع له سواء من خلال العادات والتقاليد أو من خلال بعض السلوك والذهنيات وغيرها ولهذا كان الفرد في الرواية الرومانسية لا يفتأ ينزوي بمفرده ويهرب إلى عوالم أخرى وبيئات خيالية بعيدة حتى يحقق أهدافه وطموحاته وكل ما منعه المجتمع من الحصول عليه"،² كما كان الرومانسيون ينظرون إلى مجتمعاتهم بنوع من العدائية لأنها، حسب رأيهم، ظالمة وآثمة "فيعطفون على ضحاياها من البائسين".³

¹ Nelly Wolf, le peuple dans le roman français de Zola à Céline, PUF 1990, p25.

² محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، دار العود بيروت، 1981م، ط6، ص123.

³ المرجع السابق، ص 124.

وأما فيما يخص سلوك الفرد في المجتمع فيتجلى في "إعذار الفرد فيما يرتكب من آثام لأنه ضحية القدر أو ضحية نظم المجتمع القاسية ولذا أثار الرومانسيون الشفقة على طريد المجتمع بل على كثير من المجرمين فيه فأحاطوهم بما يشفع لهم من ظروف قاهرة سيقوا فيها سوا [...] فهم طائفة من الضعفاء سدت دونهم طرق الفضيلة وجرى عليهم القدر بما لا حيلة لهم فيه أو جرتهم النظم القائمة إلى مسلكهم الأثيم وقد يكونون في دخيلة أنفسهم نبلاء النفس"¹ وعليه كثيرا ما يكون المذنبون في الرواية الرومانسية أهلا للشفقة والمياميس أهلا للاحترام والتقدير لأنهن نبيلات وعفيفات في أعماق ذاتهن واللوم كل اللوم على المجتمع وعاداته والحكام وقوانينهم، وكان "فيكتور هوغو" لا يرى أي تناقض بين العدالة والرحمة إذ يقول: "أقيموا العدل نعم، ولكن كونوا رحماء"² ويقول أيضا: "إنني لأنجذب إلى من يُضطهدون ومن يُضربون ومن يُسحقون فأشعر أنني أخ لهم".³

وكرد فعل لهذا الغلو العاطفي والخيالي، حسب البعض، ظهرت الواقعية، وفي أيام ازدهار المذهب الرومانسي، ازدهر المذهب الواقعي [...] ودعا [...] إلى الموضوعية في الخلق الأدبي والملاحظة الدقيقة لصور الأشياء الخارجة عن نطاق الذات والثورة على شرور الحياة والثقة بقدر العلم على حل مشكلات الإنسانية".⁴

كما كان الأدباء الواقعيون يستلهمون موضوعاتهم من معضلات الواقع الاجتماعي المعيش ولاسيما من قلب الطبقة البورجوازية المتوسطة ومن وسط الطبقات الدنيا من المجتمع بهدف فضح الآفات والمشاكل والصراعات والمآسي المتفشية في هذه البيئات

¹ محمد غنيمي هلال، الرومانتيكية، ص 131، 132.

² المرجع السابق، ص 139.

³ المرجع السابق، ص 140.

⁴ نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر

1984، ص 323.

وانتقادها للوقاية من نتائجها الوخيمة، لأن "غاية الواقعيين أن يصبح الإنسان سيد الطبيعة في مجتمع عادل".¹

ومن أهم رواد الواقعية النقدية في منتصف القرن التاسع عشر في فرنسا نذكر: بلزاك، فلوبيير، ستندال وموباسان وغيرهم.

ومن رحم الواقعية النقدية ولدت الواقعية الطبيعية وقد كان ذلك في عام 1865م والمصادف للسنة التي ظهر فيها كتاب "كلود بيرنار" (Claude Bernard) بعنوان "مقدمة للطب التجريبي" (Introduction à la médecine expérimentale) ورواية "جيرميني لاسيرتو" (Germinie Lacerteux) لـ "الإخوة غونكور" (Les frères Goncourt) المسبوقة بمقدمة يعلن مؤلفوها من خلالها عن ميلاد الواقعية الطبيعية ويتجلى ذلك في قولهم: "يحب المتلقي الروايات المزيفة وهذه الرواية حقيقية ويحب الكتب المتظاهرة بالذهاب نحو العالم والاهتمام به وهذا الكتاب آت من الشارع، لماذا كتبناه؟ ألكي نصدم به الجمهور ونثير سخطه؟ لا، ولكن ونحن نعيش في القرن التاسع عشر في عصر يسود فيه حق الانتخاب العام والديمقراطية والليبرالية، لقد تساءلنا أليس من حق الطبقات الدنيا أن يكون لها حق وقسط في الرواية، هذا العالم (الفقراء والبؤساء) الذي يعيش مهمشا ومحتقرا من قبل الأدباء الذين صمتوا تماما عن انشغالاتهم أما حاليا وعندما فرضت الرواية نفسها على الساحة العالمية، "يستطيع هؤلاء أن يطالبوا بالحرية والصراحة، وعليه عنيت الواقعية الطبيعية بدراسة هوامش الصحة السليمة والانحلال الخلوي والجنون والعُصاب وخاصة أثر علم الوراثة والوسط الاجتماعي على الإنسان".²

¹ نسيب نشاوي، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ص 324.

² Carole Marteau et Irène Nouailhac, La littérature française, Les grands mouvements littéraires du 19^{ème} siècle, Libio, E.J.h. 2009, p60.

هذا وقد كان الأدباء الطبيعيون أكثر تطرفاً من الواقعيين، إذ يعتبرون أن طبيعة الإنسان هي المسئولة الوحيدة على أفعاله وليس عقله ولا خياله ولا القوى الإلهية، ويتحدد مصير كل واحد حسب الوسط الذي يعيش فيه، وينبغي أن تساعد الرواية على فهم الإنسان وقيادات المجتمع من خلال الوصف العلمي للواقع حتى وإن كان دنيئاً وقذراً: فإن الطبيعة كاملة هي مجالها.¹

وعلى هذا الأساس أقام الأديب الفرنسي "إميل زولا" روايته التجريبية (Le roman experimental) "معتقداً أن العصر هو عصر العلم وأن على الأديب أن يطبق مكتشفات "دارون" 1809-1882م، و"كلود برنار" 1813-1878م، ونظرية أصل الأنواع [...] وقانون الوراثة، وقد استمدوا كثيراً من فلسفة "أوغست كونت" (Auguste Comte) 1798-1857م و"جون ستيوارت ميل" (John Stewart Mill) 1806-1873م [...] وسواهم".²

كما كان الطبيعيون يطبقون هذه المناهج العلمية والنظريات الفلسفية بطريقة آلية وتعسفية على شخصياتهم التي كانوا يصورونها كأنها حيوانات تتحكم فيها غرائزها وأن "الغدد والأجهزة العضوية هي التي تملي على الإنسان إحساسه وأفكاره وسلوكه".³ وقد تأثر "إميل زولا" كثيراً بالعالم "كلود برنار" وحاول السير على خطاه وقام بتأليف كتاب بعنوان "الرواية التجريبية" على غرار كتابه "الطب التجريبي"، وقد صرح "زولا" من خلاله أنه "على الروائي أن يعمل في الطباعة والأهواء ... الإنسانية والاجتماعية كما يعمل الكيميائي أو الفيزيائي في الأجسام الخام"،⁴ وهذا ما طبقه "زولا" في معظم رواياته

¹ Carole Marteau et Irène Nouailhac, La littérature française, Les grands mouvements littéraires du 19^{ème} siècle, Librio, E.J.h. 2009, p60.

² نسيب نشاوي، المدارس الأدبية، ص327.

³ المرجع السابق، ص 327.

⁴ المرجع السابق، ص 328.

ولقد أكد ذلك في مقدمته لرواية "تيريز راكان" (Thérèse Raquin) حين قال: "لقد اخترت أشخاصا تسيرهم أعصابهم ودمائهم، أشخاصا تجردوا من الإرادة الحرة، وانقادوا في جميع أفعالهم لأقدار كياناتهم العضوي... إنهم حيوانات بشرية، لا أكثر".¹ هكذا حاولت الرواية تحت راية المدرسة الرومانسية والواقعية النقدية ثم الواقعية الطبيعية، أن تكشف -كل واحدة منها بأساليبها الخاصة- حقيقة الواقع الاجتماعي والإنساني لمختلف الشرائح الاجتماعية للطبقات الدنيا في المجتمع الفرنسي أثناء القرن التاسع عشر، وكذا مجموع الصراعات والنضالات التي كانت تخوضها المنظمات العمالية والنقابات العاملة جاهدة على استرجاع حقوق العمال المهضومة حينذاك ولاسيما عند النساء والأطفال الذين كانوا يستغلون في المعامل والمناجم بطريقة غير إنسانية مقابل أجور زاهدة جدا.

وإذا كانت الرواية الرومانسية تتعاطف مع المظلومين وترثي لحالهم، فإن الواقعيين والطبعيين خاصة وقفوا في صف هؤلاء المحرومين وأسهموا بشكل فعال في توصيل قضاياهم وإسماع أصواتهم للجهات المعنية التي استجابت بعد لأي لطلباتهم وحققت أمنياتهم.

¹ نسيب نشاوي، المدارس الأدبية، ص 328.

الباب الثاني:

الفصل الثاني:

الباب الثاني الفصل الثاني:

ظاهرتا الفقر والبؤس في

المجتمع المغاربي أثناء فترة

الاحتلال الفرنسي

المغرب العربي أو المغرب الكبير هو منطقة واقعة في الجزء الشمالي من قارة إفريقيا وتمثل البوابة نحو إفريقيا بالنسبة للأوروبيين ومركز عبور نحو أوروبا بالنسبة للأفارقة.

لقد كانت في الأزمنة الماضية منطقة موحدة في لغتها و شعبها و ثقافتها المتمثلة في الأمازيغية وفي القرن السابع الميلادي ومع الفتوحات الإسلامية، اعتنق هؤلاء الإسلام وتبنوا معه اللغة العربية التي لا تزال هي اللغة الرسمية في كل بلدان هذه المنطقة إلى حد الآن.

كما تتميز هذه الرقعة الجغرافية بسهولها الواسعة والخصبة وسلاسلها الجبلية التالية والأطلسية وسواحلها الممتدة من تونس إلى المملكة المغربية، زد على ذلك صحاريها وغاباتها و ثرواتها الطبيعية ومعادنها النفيسة.

هكذا وبفضل جمالها وغناها وموقعها الاستراتيجي، كانت هذه المنطقة مطمع العديد من الغزاة والمحتلين: كالرومان و الوندال و الفينيقيين والأتراك وآخرهم الفرنسيون الذين خرجوا من ثورتهم سنة 1799م منتصرين على النظام الإقطاعي و جوره منادين بحقوق الإنسان والمواطن وبالمبادئ النبيلة والراقية، ولقد كان أشهر شعار للثورة الفرنسية هو: "الحرية والمساواة والأخوة"، ولكنه لم يتجسد على ساحة الواقع إلا بعد حوالي قرن من الزمن، لأن القرن التاسع عشر كله كان عصر تقلبات كما ورد في الفصل الماضي .

ونظرا لفقر الأراضي الفرنسية من حيث المعادن والموارد الطاقوية: كالبترول والغاز، لم يكن أمام الفرنسيين من حل، حسب سياساتها وحكامها، سوى التوسعات الاستعمارية، وكانت منطقة المغرب العربي الأقرب إليها جغرافيا ومن هنا بدأت تخطط للاستيلاء عليها، وبالفعل تم لها ذلك في عام 1830م من خلال احتلالها لأول بلد فيها وهو الجزائر الذي تعرض للاحتلال الاستيطاني ثم فرضت حمايتها من ثم على تونس سنة 1881م وبعدها المملكة المغربية سنة 1912م.

1) حال المغرب العربي قبل الاحتلال الفرنسي:

مع مطلع العصر الحديث أي في حوالي القرن السادس عشر، شهد المغرب العربي تواجدا عثمانيا في الجزائر وتونس والسعديين ثم المرينيين بالمملكة المغربية وكان ذلك بدعوى تخلص هذه المنطقة من التهديدات الاستعمارية الأوروبية ولاسيما الإسبانية والبرتغالية.

وفي تلك الحقبة الزمنية، عرفت هذه الدول نوعا من الازدهار والرخاء على المستوى الاقتصادي، فكانت الجزائر مثلا "تتمتع بإمكانيات اقتصادية ضخمة قبل الاحتلال. فقد كانت أرضها خصبة ولاسيما في الشمال، تدر أنواعا مختلفة من الحبوب والخضر والفواكه، ويوجد فيها [...] مناجم الحديد والرصاص والملح، وغابات كثيرة كانت تفيض عن الحاجات المحلية لبناء السفن والتسخين وبناء المنازل بالإضافة إلى الموانئ الكثيرة الواسعة [...] وإلى جانب ذلك كانت هناك طرق القوافل التي تربط الجزائر الشمالية بالسودان القديم عبر الصحراء".¹

كما كانت تجارتها الخارجية جد مزدهرة، إذ كانت تصدر الحبوب والأخشاب والحوامض والريش والعسل والشمع والصوف والجلود والحديد كما كانت تستورد الكتان والجواهر والأسلحة وغيرها.²

هذا وقد عُرِفَت الجزائر بسهولها الواسعة والخصبة كسهل وهران و المتيجة وسهل عنابة وبلاد النمامشة التي كانت منتجاتها وفيرة رغم اعتمادها على الوسائل التقليدية، كما كانت "معظم الأراضي في الجزائر، قبل الاحتلال الفرنسي، ملكا مشاعا للأعراش التي كانت

¹ أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3 سنة 1982م، ص149، 150.

² المرجع السابق، ص150.

تستثمرها جماعيا لتحقيق الاكتفاء الغذائي الذاتي وتصدير الفائض من الإنتاج إلى المشرق وإفريقيا السمراء وإلى بلاد جنوب أوروبا على وجه الخصوص".¹

و إلى جانب الزراعة، كانت الصناعة في هذه الحقبة الزمنية، موجودة رغم أنها تقليدية ومعتمدة على الوسائل اليدوية ، فقد كان هناك العديد من الورش والمصانع الصغيرة هنا وهناك في مختلف أرجاء الجزائر مع أنها لم تكتشف ولم تستغل بعد إلا القلة القليلة جدا من المعادن والثروات الطبيعية التي تزخر بها أراضيها ؛ لقد كانت هناك صناعة الحديد وكذا "صناعة الملح في منطقة أرزيو، [...] وكان بنو عباس وبنو يني وفليسة يصنعون البنادق والمكاحل والسيوف والمدافع أيضا [...] وكان بعضهم يصنعون الأشياء الخشبية والأساور وآخرون يصنعون الأقمشة القطنية وكان بعضهم يجلبون الحديد وآخرون يصنعونه"²، كما كان مختلف الحرفيين في الجزائر حينذاك يجتمعون في "نقابات حسب التخصص بحيث تجد النجارين في شارع والحدادين في آخر والشواشين في ثالث والصباغين في رابع والدباغين في خامس... إلخ وكانت كل نقابة تسيّر من قبل أمين ينتخب بديمقراطية ويختار لما له من خبرة وحكمة وحسن سلوك، وللأمناء مجتمعين مكانة مرموقة لدى الحكومة المركزية أما أمين الأمناء، فإنه يحضر الاجتماعات مع السلطات العليا ويشارك، فعليا، في اتخاذ القرارات سواء منها الاقتصادية أو السياسية".³

وأما عن التعليم فقد تحدث الرحالة الفرنسي فانتور ديبارادي الذي زار الجزائر في القرن 18 عن وجود "ثلاث جامعات لتعليم المذهب المالكي في مدينة الجزائر وحدها"⁴ بينما كان المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله يرى "أنه لم يكن في الجزائر كلها جامعة واحدة

¹ محمد العربي زبيري، تاريخ الجزائر المعاصر (ج1)، منشورات اتحاد الكتاب العرب سنة 1999م، ص17.

² أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، ص154، 155.

³ محمد العربي زبيري، تاريخ الجزائر المعاصر (ج1)، ص19.

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500- 1830، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي ، ط1، بيروت

1998، ص 273.

بالمعنى المتعارف عليه [...] و لم يكن للجزائر جامعة إسلامية كالأزهر و القرويين و الزيتونة ، غير أن دروس جوامعها الكبيرة كانت تضاهي بل قد تفوق أحيانا دروس الجامع الأموي بدمشق و الحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها و تردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي".¹

و أما التعليم الابتدائي فقد انتشر في مختلف أرجاء الجزائر ،لم يكن أي حي من أحياء الجزائر يخلو من مدرسة حتى القرى و الأرياف و المناطق الجبلية مما جعل "جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها و انتشار التعليم و ندرة الأمية بين السكان".² و قد ذكر "السيد بانانتي أوائل القرن 19 أنه كان في مدينة الجزائر في وقته ثلاث مدارس عامة و عند دخول الفرنسيين كان بها حوالي مائة مدرسة بين ابتدائية و غيرها "³، أما الكتاتيب فكانت منتشرة في كل الأحياء و المساجد وكان المشرفون على تشييدها و فتحها من "جميع طبقات المجتمع ،فالباشاوات و البايات والموظفون السامون مع الأهالي".⁴

هكذا كانت حال الجزائر قبل دخول المحتل الفرنسي الذي عاث فساداً في الأرض وفي البشر وحطم كل ما كان جميلاً فيها، وفي هذا السياق يشهد شاهد من أهلها وهو المؤرخ الفرنسي "ألكسيس دي طوكفيل" (Alexis de Tocqueville) في قوله : "تركنا المدارس تتدنس وبعثرنا الحلقات الدراسية لقد انطفأت الأنوار من حولنا وتوقف انتقاء رجال

¹ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500 - 1830، الجزء الأول، ص 273.

² المرجع السابق ، ص 274.

³ المرجع السابق ، ص 276.

⁴ المرجع السابق ، ص 277.

الدين ورجال القانون وهذا يعني أننا جعلنا المجتمع الإسلامي أشد بؤسا وأكثر جهلا وأشد همجية بكثير مما كان عليه قبل أن يعرفنا".¹

أما تونس فقد كانت قبل الاحتلال الفرنسي تتمتع بالرخاء هي الأخرى ، إذ كانت صناعتها متنوعة ومزدهرة، أما الفلاحة فكانت هي السائدة في المجتمع التونسي وكانت هي مصدر رزق أغلبية الشعب كما كانت هي الباروميتر الذي تقاس به حال الأعمال في البلد،² ولكن سرعان ما زال هذا الرخاء والازدهار وذلك بعد التغلغل التجاري الأوروبي فيما بين 1820 و1830م الذي أحدث تحولات جذرية في الهياكل التجارية وسبل التجارة في تونس.

هذا وقد كانت تونس مختصة في صناعة البضائع ذات المصدر النباتي والحيواني وهي عادة ما تكون موجهة للصناعات الأوروبية كزيت الزيتون الذي كان يستعمل بنسبة 75% في صناعة صابون مارسيليا والإضاءة في القرن التاسع عشر ،زد على ذلك الصوف والجلود المستخدمة في الصناعات النسيجية والأحذية وغيرها، مع الملاحظة أن كل هذه الصناعات كانت صناعات تقليدية، ولكن بعد اتصالها بأوروبا، أصبحت تونس تستورد كميات أكبر من البضائع المصنعة في فرنسا، وكانت في معظمها سلع كمالية، وكانت على حساب السلع الأساسية التي كانت موجهة لبعض الصناعات التقليدية المهمة في تونس حينذاك كصناعة الشاشية (القبعات التقليدية)، وهكذا تم إضعاف مختلف القطاعات الصناعية التقليدية التونسية من خلال إدخال المواد الأوروبية المصنعة المماثلة لها،

¹ Charles Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine (1830-1969), Tafat éditions, 2016, p31.

² Azzam Mahjoub, Economie et société : la formation du sous développement, l'évolution socio-économique de la Tunisie, Institut de Recherches et d'études sur les mondes arabes et musulmans. IREMAM-UMR7310-CNRS/Aix Marseille Université dans <https://books.openedition.org/ireman/2551/>

ومنها الأقمشة والألبسة والجلود والأغراض المعدنية والخزفية ومواد البناء والأثاث وغيرها.¹

وقد أدت هذه الأوضاع في تونس إلى أزمة اقتصادية حادة وكان لها نتائج جد وخيمة على المجتمع ولاسيما الطبقات البسيطة منها ومما زاد الحال تدهورا هو لجوء البايات إلى الاستدانة من البلدان الأجنبية وضعف نظام الضرائب المفروضة وكذا القيام بمصادرات عشوائية وتعسفية للأموال ومحاولة احتكار التجارة الخارجية.²

أما الاقتصاد المغربي فقد كان منذ قرون اقتصادا كفافيا ومعيشيا ولاسيما أنه يتشكل في الغالب من فلاحين وحرفيين متخصصين في صنع الأسلحة والأقمشة والجلود والحلي والفخار إلى غير ذلك،³ وقد حاول ملوك المغرب في القرن التاسع عشر أن يدخلوا التقنيات الحديثة لبلدهم كما بادروا بإرسال الطلاب إلى أوروبا حتى يتعلموا ويتأقلموا مع الآلات الحديثة لينقلوا الحداثة والتطور الذي كان السلطان "محمد بن عبد الرحمن" يهتم به على وجه الخصوص.

وتحقيقا لطموح هذا الملك، تم إنشاء أول مصنع حديث في المغرب على غرار المصانع الأوروبية، يقوم بصناعة السكر، وأسندت مهمة تركيبه لمهندس إنجليزي يدعى "جون كلاركسون غي" (John Clarkson Guy) وقد أسهم هذا المصنع في تطوير صناعة السكر حتى بات من أهم صادرات المغرب نحو أوروبا إلى جانب القطن، ولكن سرعان ما شهدت هذه الصناعة مشاكل جادة: كصعوبة إيجاد قطع الغيار للآلات وعدم توفر اليد العاملة المؤهلة، مما استدعى الوجود الأجنبي في هذا المصنع بشكل دائم، وبهذا لم

¹ Azzam Mahjoub, Economie et société : la formation du sous développement, l'évolution socio-économique de la Tunisie,

² المرجع السابق.

³ F.Goldtammer, Note géographique et commerciale sur l'empire du Maroc, imprimerie typographique de A. Pougin 1878, p5.

تتمكن المغرب من التخلص من تبعيتها للغرب في هذا المجال بالذات.¹ كما حاولت أيضا خوض تجربة صناعة السيارات، التي كانت في بداياتها حتى في أوروبا، لكنها لم تفلح في ذلك.²

وقد كان الاقتصاد المغربي زراعيا ورعويا، وشهد خلال القرن التاسع عشر أزمات عدة من جراء الجفاف والجراد مما أدى إلى عدم القدرة على سد الحاجيات الأساسية للمجتمع المغربي ولاسيما ما يتعلق منها بالحبوب.³

وبهذا شهدت المملكة المغربية مجاعات شديدة وقاسية خلال القرن التاسع عشر، وقد ورد في مذكرات المؤرخ "أبرهام بندولاك" (A. Bendelac) (Le journal de Bendelac) كيف كان القناصلة الأوروبيين من فرنسيين وهولنديين وصردينيين يوزعون الخبز "على جياع طنجة مما جذب الجياع القسريين فوفدوا إليها من كل فج عميق طلبا للخبز واستمر ذلك إلى نهاية عام 1829م، فطرد الوافدون الجياع ثم أشاروا إلى اضطرار هؤلاء الجائعين إلى أكل الأطفال والجيف ونبش القبور وتناول الجثث والكلاب حتى اختفت هذه الأخيرة...وقد ردت الهيئة القنصلية حصيلة الوباء والمجاعة في مدينة طنجة لوحدها بـ 1300 قتيلا".⁴

¹ Mohamed Enaji, Reforme et modernisation technique dans le Maroc du 19^{ème} siècle, Revue des mondes musulmans et de la méditerranée, Année 1994, n°72, Edisud, p76.

² المرجع السابق ص 79، 80.

³ Sylvie Denoise et Nicolas Michel, une économie de subsistance, Le Maroc précolonial, IFAO, Le Caire 1997, Revue des mondes musulmans et de la méditerranée (en ligne) 87-88 mis en ligne le 12 novembre 2004.

⁴ نور الدين الزيتوني، تاريخ الكوارث: المجاعات الأوروبية في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، مجلة الحوار، المتمدن، العدد 4142

إضافة إلى ما سبق شهد المغرب عدة أوبئة خطيرة وقاتلة كوباء الطاعون الذي كان يفتك بمئات الأرواح وخاصة فيما بين 1818 و1820م¹ وكذا الكوليرا الذي ظهر أول مرة في المغرب عام 1834م ثم عاد مرة ثانية في منتصف القرن التاسع عشر ليحصد أعدادا هائلة من الأرواح لتصل إلى حوالي 300 أو 400 ضحية في اليوم الواحد.²

هكذا كان حال دول المغرب العربي قبل الاحتلال الفرنسي مزيجا من الرقي والازدهار في المجال الصناعي التقليدي والزراعي والتجاري والضعف والفشل على المستوى السياسي والاجتماعي بسبب الحروب والأزمات السياسية خاصة مع البلدان الأوروبية ولاسيما ما يخص المملكة المغربية زد على ذلك المجاعات التي كانت بسبب الجفاف وأسراب الجراد التي كانت تشهدها هذه المنطقة فيما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كما حلت بها أوبئة خطيرة وفتاكة قضت على العديد من الأرواح ، لقد كانت هذه الظروف مما شجع المحتل الفرنسي على اقتحام هذه المنطقة إضافة إلى ثرواتها الطبيعية وموقعها الاستراتيجي.

2 (أوضاع الاحتلال الفرنسي لمنطقة المغرب العربي:

بعدما فقدت فرنسا مكانتها السياسية والعسكرية التي كانت تحظى بها في القرنين السابع عشر و الثامن عشر، وبعدما أدركت أنها بحاجة ماسة إلى موارد طاقوية ومواد طبيعية و أولية من أجل مصانعها في عصر الثورة الصناعية ونظرا لافتقار أراضيها إلى ما يكفيها من تلك الموارد، بدأت فرنسا في التفكير في ضرورة اللجوء إلى التوسع الاستعماري، الذي بدأ يظهر بشكل كبير في أوروبا حينذاك وباتت تعمل بها كبريات

¹ ينظر محمد الأمين بزاز ، تاريخ الأوبئة و المجاعات خلال القرن الثامن عشر و التاسع عشر ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء 1992 ، ص 111-119.

² المرجع السابق ص 187.

البلدان الأوروبية مع مطلع القرن التاسع عشر، لأنها الوسيلة المثلى لتحقيق ما تصبو إليه.

مع الملاحظة أنه لم تحظ منطقة المغرب العربي بأي حضور في أذهان الفرنسيين إلا ابتداءً من النصف الأول للقرن التاسع عشر.¹ كما كان الفرنسيون "يجهلون الجزائر وطبيعتها ويُعتقد أنها شبيهة بالمستعمرات الحارة. [حيث يمكن زراعة] القطن والأرز وقصب السكر وما يلي ذلك من الزرع الصالح في البلدان الحارة. إذا كانت معرفة الفرنسيين بالجزائر - وهي الهدف الأول - على هذا الشكل"² فما بالك بالمغرب وتونس. ومن هنا نستنتج أن معرفة الأوروبيين بمنطقة المغرب العربي بما فيها من تضاريس و مناخ كانت جد محدودة بل مشوهة نظرا لطبيعة العلاقة بين المنطقتين التي كانت "علاقات حرب وعداوة منذ القدم"³ كالحروب الفينيقية والصليبية وسقوط الأندلس والهجمات التي شنتها الأساطيل الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإنجليزية على سواحل هذه المنطقة (المغربية).

ولعل من أهم العوامل الدافعة بالشعوب الأوروبية إلى التوسعات الاستعمارية: الاكتشافات الجغرافية التي ابتدأت في القرن السادس عشر حين اكتشفت قارات ومناطق جديدة وغنية من حيث الثروات الطبيعية والمعادن النفيسة والمحاصيل الزراعية خاصة منها التوابل، وزد على ذلك اليد العاملة الرخيصة والأسواق التي يمكن تسويق بضائعها ومنتجاتها فيها وهذا خاصة بعد الثورة الصناعية، وهكذا بدأت أولى الاتصالات بين فرنسا والدول المغربية بهدف "افتداء أسرى عمليات القرصنة وهكذا بدأت فرنسا تحصل على

¹ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع سنة 2013، ط2، ص11.

² المرجع السابق ص11.

³ المرجع السابق ص12.

الامتيازات التجارية في الجزائر ومراكش وتونس حيث وجدت الفرصة السانحة لأن الحكام المغربية لم يكونوا في مستوى السياسة العالمية آنذاك".¹

وبعدما اقتربت فرنسا من البلدان المغربية ورأت المنطقة عن كثب واكتشفت كنوزها وثرواتها، شرعت في التخطيط لاحتلالها ومن هنا "أرسلت الجواسيس وكونت الشركات بالدسائس وحصلت على امتيازات قنصلية هامة حتى صار الجو صالحا لإنجاز مخططها".²

وقد كانت الجزائر هي البلاد المغربية الأولى التي تم احتلالها من الفرنسيين وكان ذلك سنة 1830م ومنذ ذلك الوقت، شرعت فرنسا في التفكير في كيفية الاستيلاء على جارتها تونس والمغرب الأقصى، ومن ثم بدأت فرنسا تعمل جادة على قطع صلة تونس بالباب العالي في الأستانة (تركيا) وبدأت تكثف تهديداتها العسكرية البحرية وتعمل على خلق مشاكل سياسية بين تونس والدولة العثمانية حتى لا تأتي هذه الأخيرة لنجدها في حال تعرضها للغزو الفرنسي،³ ومن هنا كانت تونس ثاني دولة مغربية تدخلها سنة 1881م عن طريق فرضها لحمايتها عليها ويذكر "جورج هاردي" أن سبب دخول فرنسا إلى تونس هو وضع حد لأعمال قبائل الحدود "فعندما أرسلت فرنسا سنة 1881م فرقا لوضع حد لنشاطات قبائل الحدود لم تجد نفسها أمام حكومة حقيقية مسئولة على أعمال الشغب"،⁴ وكانت تلك الفرصة المثالية التي توفرت لها لاحتلال تونس فلم تضيعها بل قامت على الفور باحتلالها.

أما المغرب الأقصى فقد كان الوجود الفرنسي فيه أقدم مما كان عليه في الجزائر وتونس اللتان كانتا تابعتين للدولة العثمانية ولم يكن بإمكان الفرنسيين القيام بأي نشاط تجاري

¹ عبد المجيد حنون، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية ، ص12.

² المرجع السابق ص16.

³ محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر ط1، ص23، 24.

⁴ عبد المجيد حنون، ص17.

فيهما إلا إذا عادوا إلى السلطة العثمانية أما المغرب فقد كان مستقلا وكانت الاتفاقيات بينه وبين الفرنسيين تتم بشكل مباشر، ففي سنة 1767م مثلاً، "وقعت فرنسا وسلطان مراكش اتفاقية أصبحت بموجبها صلاحية دائرة محاكم القنصلية، خلافا لاتفاقيات 1631م، وحيدة الطرف، أي ينتفع منها الرعايا الفرنسيون المقيمون في مراكش دون أن تشمل الرعايا المراكشيين المقيمين في فرنسا واستناداً لاتفاقية 1767م توسعت أيضاً امتيازات التجار والمقيمين الفرنسيين والمستوطنين توسعاً كبيراً، إذ أنهم أصبحوا لا يتمتعون بالحصانة القضائية فحسب بل وأيضاً [...] بالحصانة الضرائبية".¹

وعلى هذا النحو، استطاعت فرنسا أن تتغلغل في اقتصاد المغرب وفي إدارتها وحتى في قضائها، ولولا النزاعات الحادة التي كانت بين الدول الأوروبية حول المغرب لاحتلتها فرنسا منذ أمد طويل،² هذا وقد "استمرت المناوشات بين فرنسا والمغرب الأقصى مع تغلغل الشركات الفرنسية والإرساليات في الوسط المغربي مع استمرار حصولها على الامتيازات حتى كانت الحماية سنة 1912م".³

3 (الاحتلال الفرنسي لمنطقة المغرب العربي :

قال "ألير ميمي" (Albert Memmi) موضحاً الأسباب والدوافع التي تدفع بأي بلد للجوء إلى الاحتلال، في أنها "تربح أكثر مما تنفق، [...] ولأن الأوضاع مضمونة والمرتببات مرتفعة والوظائف متوفرة والأعمال مثمرة أكثر؛ تعطى الوظائف للشباب المتخرج و يرقى

¹ لوتسكي فلاديمير بوريسوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة غيفعة البستاني، دار التقدم موسكو سنة 1975م، ص344.

² المرجع السابق ص15.

³ المرجع السابق ص19.

الموظفون إلى سلم أعلى وللتجار تخفيضات كبيرة ولرجال الأعمال المواد الأولية واليد العاملة الرخيصة".¹

و من هذا المنطلق قررت فرنسا الاتجاه نحو منطقة الشمال الإفريقي للاستيلاء على أراضيها و خيراتها .

1.3 (الاحتلال الفرنسي للجزائر:

في 30 جانفي عام 1830م "قررت الحكومة الفرنسية التي كانت تحت رئاسة "دي بولينياك" أن تبعث حملة ضد الجزائر وقد بررت هذه الحركة بعدة أسباب منها الانتقام من الجزائر الذي أهان الداي حاكمها [...] و وقف القرصنة وتخليص أوروبا من مصدر القلق والاضطراب"²، ولكن هناك دوافع أخرى أهم، تتفادى فرنسا ذكرها وتتمثل في "زيادة شعبية الملك "شارل العاشر غير المحبوب والفرار من دفع دين كانت الجزائر قد أعطته إلى فرنسا بدون فائدة عام 1797م [...] وأخيرا مزاحمة الدول الأوروبية الأخرى وخصوصا بريطانيا على خلق إمبراطورية جديدة".³ و زد على ذلك، كانت فرنسا تسعى إلى تحويل المنطقة الوسطى من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة فرنسية "لأنها الوسيلة المثلى للتغلب على إنجلترا القوية والمتعجرفة، وهي (إنجلترا) لا تكف عن بسط إمبراطوريتها [...] وتأثيرها على العالم،⁴ وقد أكد الجنرال "جيرار" (Gérard) ،وزير الحرب غداة ثورة جويلية 1830 وهو مقتنع أن: "الحفاظ على النظام العام في فرنسا وفي أوروبا متوقف على غزو الجزائر المقدر لها أن تكون منفذا كبيرا للفائض من سكاننا".

¹ Albert Memmi, Portrait du colonisé, Edition ANEP, 2006, Alger, p12.

² أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الآداب بيروت، 1969م، ط1، ص12.

³ عبد المجيد حنون، ص17.

⁴ Belaïd Abane, Résistances Algériennes Abane Ramdane et les fusils de la rébellion, Casbah éditions , 2011, pp73, 74.

وعليه فإن الجزائر مدعوة للحفاظ على الأمن الاجتماعي في فرنسا من خلال امتصاصها للفائض من اليد العاملة الفرنسية.¹

ومن هنا باتت قضية احتلال الجزائر قضية حيوية بالنسبة لفرنسا لذا عملت كل ما بوسعها لتحقيق هدفها.

2.3 (الاحتلال الفرنسي لتونس:

بعد بضع سنوات من احتلالها للجزائر، بدأت فرنسا تهتم بالبلدان المجاورة لها ومن بينها تونس التي هجمت عليها سنة 1837م و"خربت بعض القرى وأحرقت المحاصيل واستُخدم النزاع الذي كان قد نشب أثناء تخطيط الحدود الجزائرية التونسية ذريعة لهذا الهجوم الوحشي وكذلك مسألة الخراج الذي كان يقوم بدفعه باي تونس إلى الجزائر في وقت من الأوقات وتحت ضغط إنجلترا اضطرت القوات الفرنسية في آخر المطاف إلى الجلاء عن الأرض التونسية"²

ورغم فشلها في احتلال تونس سنة 1837م إلا أنها لم تستسلم بل كانت تعمل جاهدة لتحقيق ذلك، ومن بين الوسائل التي استعملتها للدخول إلى تونس: الشركات التجارية والإرساليات العلمية، حتى تتعرف على البلاد بصورة دقيقة وكذا على سكانها، وهكذا جاءت قضية حماية الحدود الجزائرية التي كانت الفرصة الذهبية لها لاحتلال تونس وكان ذلك في ماي من عام 1881 إلا أن المعاهدة كانت تؤكد على أن يكون تواجد القوات الفرنسية مؤقتا في تونس وأن "تحتل جهات على الحدود والشواطئ تراها لازمة لتوطيد الأمن وأن هذه القوات سوف ترحل عندما تكون الإدارة التونسية قادرة على حفظ الراحة

¹ Belaïd Abane, Résistances Algériennes Abane Ramdane et les fusils de la rébellion, p74.

² لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ص 220، 221.

والأمن والنظام [...] وأن على حكومة الباي أن تتعهد بمنع إدخال الأسلحة والمهمات الحربية من جزيرة جربة ومرسى قابس [...] وذلك وقاية لبلد الجزائر التي تملكها فرنسا".¹

هكذا وبعدم استقرت الجيوش الفرنسية في الأراضي التونسية لم تخرج منها إلا بعد استقلالها سنة 1956م، وبهذا وسعت فرنسا رقعة احتلالها لمنطقة المغرب العربي ولكنها لم تكتف بذلك بل كانت تسعى إلى ما هو أكبر وهو احتلال المغرب الأقصى.

3.3 الاحتلال الفرنسي للمغرب الأقصى:

وفي العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر، اشتد الصراع والمنافسة بين البلدان الأوروبية الاستعمارية على فرض سلطتها على المملكة المغربية، وكانت كل الوسائل صالحة ومبررة لتحقيق الهدف، وكانت "كل دولة ترقب الأخرى [...] لتنفيذ سياستها المختلفة صورة والمتفقة هدفا في المغرب الشمالي والغربي: تؤلف الشركات للمتاجرة في البلاد وتسعى لتعزيزها تارة بالامتيازات وطورا بالمؤامرات. تدس بعضها الدسائس لبعض بواسطة قناصلها وأعوانها في البلاد. تجامل الحكومة الشرفية حيناً وتجهها حيناً آخر، [...] ترسل بواخرها للنزهة على الشواطئ الإفريقية غرباً وشمالاً فتحتل ميناءها هنا وآخر هناك، باسم التجارة والمحافظة على رعاياها، [...] وترسل [...] التجار والقناصل [...] فيتجسسون ويفسدون ويثيرون الفتن تحقيقاً لمآربهم الخاصة ولمآرب دولهم العامة، وكلها استثمارية استثنائية".²

هذا وقد اغتتم مولاي الحسن فرصة انهزام فرنسا في إحدى معاركها ضد ألمانيا سنة 1870م، فحاول أن يخفف من سلطتها على بلاده، ولأجل ذلك سعى لعقد مؤتمر دولي

¹ الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، مكتبة الجماهير، بيروت سنة 1976م، ط1، ص23، 24.

² أمين الريحاني، المغرب الأقصى، مؤسسة دار الريحاني بيروت ودار الثقافة بيروت، ط2، سنة 1975م، ص27،

سنة 1880م في مدريد بإسبانيا، حضرته أربع دول استعمارية أوروبية هي: فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا وكان يطالبها بعدم التدخل في شؤون المغرب، ونتيجة لذلك، قامت تلك الدول بإثبات "حق رعاياها في امتلاك الأراضي في المغرب وحق قناصلها في استخدام من يرون فيه الذكاء من أهل البلاد، [...] وأن يُمنح القناصل من يريدون من الأهالي [...] حماية دولتهم وأن يكون لهؤلاء المحميين [...] الحق بأن يحاكموا في قضاياهم المدنية والجزائية في محاكم قنصلية".¹

وبناء على ذلك، كان أهل المغرب ولاسيما التجار والفلاحين، الذين كانوا يشركون الأجانب في تجارتهم وأملاكهم، يطالبون بالحماية الأجنبية حتى يتخلصوا من ظلم حكاهم، وهكذا "استمرت الحماية في الانتشار بالرغم من مساعي الانكليز لوقف طغيانها، فامتدت من المدن إلى الأرياف، وصار الأوروبيون ولاسيما الفرنسيون المشاركون للأهالي، أصحاب أملاك واسعة في البلاد".²

وفي عهد مولاي عبد العزيز، وهو الابن الأصغر للملك الحسن، تمكن الفرنسيون من التغلغل أكثر في الأراضي المغربية وفي شؤونها، وذلك بالتقرب من الملك والعمل على كسب ثقته من خلال إغداقه بالهدايا النفيسة ووعده بالمساعدة والتأييد عند الحاجة إلى ذلك، عالمين أنه سيلجأ إليهم إن عاجلا أو آجلا لأنه ملك غير ناضج وغير حكيم على الإطلاق، وقد كانت حياته كلها لهو وبذخ وتبذير للأموال "حتى أفرغ الخزائن من الأموال وهكذا بدأ يستجد بالأجانب فكانت فرنسا سبابة لنجدته و[...] استدان من الفرنسيين الذين أمضوه على أوراق الضمان".³

إضافة إلى تلك الديون، لجأت فرنسا مرة أخرى إلى حيلة حماية الحدود الجزائرية المغربية، وهذا ما يفسر الهجمات الفرنسية المتكررة على المغرب، وفي سنة 1844م

¹ أمين الريحاني، المغرب الأقصى، ص31.

² المرجع السابق ص32.

³ المرجع السابق، ص38.

اقتحم الفرنسيون الأراضي المغربية بدعوى متابعة آثار الأمير عبد القادر الجزائري ولكنها رغم ذلك فشلت في احتلال المغرب و"استمرت المناوشات بين فرنسا والمغرب الأقصى مع تغلغل الشركات الفرنسية والإرساليات في الوسط المغربي مع استمرار حصولها على الامتيازات حتى كانت الحماية سنة 1912م".¹

وهكذا "دخلت فرنسا أقطار المغرب العربي [...] محقة أطماعها، فحققت الأسواق لسلعها والمواد الخام لمصانعها والأراضي لمعمرها والشركات لأصحاب الأموال واليد العاملة للمصانع كما صرفت أنظار الشعب الفرنسي عن مشاكل الحكم".²

4 (سياسة المحتل الفرنسي في منطقة المغرب العربي:

قال الفيلسوف والأديب الفرنسي "جان بول سارتر" وهو يصف السياسة التي انتهجتها فرنسا فور احتلالها لدول المغرب العربي: "تم الاحتلال بالعنف والاستغلال والضغط يتطلب التمسك بالعنف، أي الحضور العسكري. وهكذا فلا عجب إذا عم الرعب فوق التراب المغربي: ولكن المعمر يتمتع هناك في الوطن الأم بالحقوق الديمقراطية التي يرفضها الجهاز الاستعماري للمستعمرين".³

وعلى هذا المنوال، ساد العنف والظلم والاستبداد واللاءعدل وسلب الناس حقوقهم وأموالهم وحریتهم وحتى كرامتهم، فانتشر الخوف والقلق وعدم الإحساس بالأمان بصورة فعلية وعميقة في منطقة المغرب العربي ابتداءً من سنة 1830م.

¹ عبد المجيد حنون، ص 19.

² المرجع السابق ص 19.

³ Albert Memmi, Portrait du colonisé, Payot, Paris 1973, p25

1.4 (سياسة المحتل الفرنسي في الجزائر :

فور نزول الجيوش الفرنسية بميناء "سيدي فرج" غرب العاصمة، سنة 1830م، وجدوا أنفسهم أمام "شعب يختلف عنهم تماما في اللغة والدين والتقاليد ودرجة الحضارة وهكذا بدأوا يحكمون بطريقة مباشرة نظرا لانعدام ظل أية واسطة بينهم وبين الشعب".¹⁴³

هذا ولم تكن مملكة جويلية الفرنسية عارفة بالسياسة التي يمكنها انتهاجها في الجزائر غداة احتلالها، ففي جوان من عام 1831م أفصح الوزير الفرنسي "كازيمير بيرري" (Casimir Périer) عن رغبته في مد الاحتلال الفرنسي على كل التراب الجزائري، ولكن سرعان ما عاد التردد إلى الواجهة حتى يوم 22 جويلية عام 1834م وهو تاريخ إنشاء الحكومة العامة للممتلكات الفرنسية في الشمال الإفريقي، وكانت هذه الممتلكات مقتصرة في تلك الأوقات المستعجلة على وهران و بجاية و عنابة".²

هذا ومنذ سقوط الوصاية التركية على الجزائر سنة 1830م وحتى سنة 1871م، سلك الجيش الاستعماري الفرنسي سياسة محو الأطر الاقتصادية والسياسية التقليدية للجزائر التي بقيت طيلة هذه الفترة تحت الحكم العسكري ونظام الملكية المطلقة،³ كما قام الفرنسيون ببعض التغييرات والتنظيمات على المستوى الإداري حتى يتمكنوا من تسيير شؤون البلاد التي آلت إليهم.

¹ عبد المجيد حنون ، ص 20

² Ageron Charles Robert, Histoire de L'Algérie contemporaine (1830-1969), Tafat éditions, 2016, p 17.

³ Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie (1830 – 1954), collection Repères histoire, hibr édition, 2012, p 19.

1.1.4) التنظيمات الإدارية الفرنسية في الجزائر بعد الاحتلال:

قام الفرنسيون بإدخال عدة تعديلات على الأنظمة الإدارية الموجودة في الجزائر حينذاك وذلك بصورة تدريجية حتى وصلوا إلى التغييرات المرجوة والمنتظرة منها، وبهذا قاموا أول الأمر بإنشاء آغا للعرب (للجزائريين) ثم مكتب للعرب كان ينشطه "لاموريسيير" (La Moricière) فيما بين 1833 و1834م ولكن سرعان ما تحول هذا المكتب إلى مديرية لشؤون العرب وقد أسندت مهامه لـ"بيليسي دي رينو" (Pélissier de Reynaud)، فيما بين 1837 و1839م وقد ألغيت هذه المديرية سنة 1839م، مما ألهم الفرنسيين آنذاك بنظام الحماية المعتمد من قبل "فاليه" (Valée) في منطقة قسنطينة وكذا تقسيم الجزائر إلى أقاليم مدنية متاحة للأوروبيين وأقاليم عسكرية ممنوعة من الاحتلال، وقد اكتفى خلفاء "فاليه" بتوسيع مجال هذه التغييرات لتشمل مجموع المناطق الجزائرية المحتلة، كما قام المدير الجديد لشؤون العرب "دوماس" (Daumas) فيما بين 1841 و1847م بإقناع الجنرال "بيجو" (Bugeaud) باستخدام نظام حكومي غير مباشر يسند لمسؤولين عرب من النبلاء: عسكريين منهم أو دينيين.

وقد حافظ النظام العسكري أيضا على التنظيمات الخاصة جدا بكل مدينة أو قرية و قد أبقوا على التنظيمات التي وضعها الأمير عبد القادر في الجزائر العاصمة ووهران وعلى التنظيمات التركية في قسنطينة، كما حافظ الأمازيغ أو القبائل بعد ذلك على مؤسساتهم بعد الاحتلال.

وقد قسمت المحافظات الثلاث الكبرى التي كان يقودها الجنرالات إلى أقسام ثم إلى أقسام فرعية، ومع ذلك بقيت القبيلة هي الوحدة الأساسية في كل هذه التقسيمات، وهي ذاتها تتكون من فرق تضم كل واحدة منها مجموعة من الدواوير، وكان الآغات والباشاغات هم

من يعينون الشيوخ الذين سيتأرون هذه المناطق، وكانت مهمتهم الأساسية هي ضمان الخضوع والطاعة للسلطات الفرنسية وجمع الضرائب والعشور.¹

وعلى العموم، لم يعرف الجزائريون، بعد الاحتلال إلا نوعين من الأنظمة الإدارية هما: النظام العسكري والنظام المدني.

أما النظام العسكري فقد ساد بشكل قوي وملحوظ من عام 1830م إلى عام 1870م ومن خلاله حاول الجيش الاستعماري محو الأطر الاقتصادية والسياسية التقليدية بالتدريج.

وأما نظام الحكم المدني فقد كان من عام 1871م إلى عام 1954م "ولم يطبق هذا الأخير إلا في نطاق محدود وفي صالح المعمرين، هذان النظامان تميزت بهما الجزائر المحتلة عن جارتها.²

وبعد سنة 1871، أصبح النظام الإداري الجزائري امتداداً للنظام الفرنسي، إذ قسمت الجزائر إلى ثلاث محافظات (ولايات) هي: الجزائر وقسنطينة ووهران، وقررت فرنسا حينها فرنسة هذه المنطقة إلى الأبد كما أزاحت من ذهنها أي فكرة للرجوع إلى الوراء وإمكانية الحماية بل كانت تهدف إلى الاستبعاد المطلق والكامل لليد العاملة المحلية (للأهالي) من أجل مصالح المحتل واحتياجاته.³

ومن أهم القوانين التي سنتها الحكومة الفرنسية في الجزائر: "قانون كريميو" (La loi de Crémieux) وهي نسبة للوزير الفرنسي للعدل "أدولف كريميو" (Adolphe Crémieux)، الذي أصدرته حكومة الدفاع الوطني يوم 24 أكتوبر سنة

¹ Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine (1830–1969), Tafat éditions, 2016, p 32– 34

² حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره (1915–1998م) مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المجتمع المغربي الحديث والمعاصر، تحت إشراف د/ عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري قسنطينة، ص3.

³ Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie (1830 – 1954), collection Repères histoire, hibr édition, 2012, p 20.

1870م بمدينة "تور" (Tour) الفرنسية وقررت ما يلي: "إن جميع الإسرائيليين الأهالي في عمالات الجزائر قد أصبحوا مواطنين فرنسيين وسوف ينتظم قانونهم الحقيقي والشخصي ابتداءً من إصدار هذا القانون الفرنسي، وسوف يحتفظون بجميع الحقوق التي اكتسبوها. وإن كل التشريعات وكل القوانين الصادرة عن مجلس الشيوخ والأمراء أو القوانين المخالفة لهذا القرار تعتبر لاغية".¹

وقد انتقد هذا القانون بشدة من قبل ضباط الجيش الفرنسي، ولكن، من خلاله، رفعت فرنسا عدد سكانها في الجزائر بـ 37 ألف مواطنا جديدا، وكانت مدة الأربعين سنة كافية لإنشاء جيل جديد، عاش حياتين: طفولة يهودية عربية ومرحلة نضج فرنسية.

لقد أحدثت عملية التجنيس الجماعي والفجائي لليهود الجزائري صدمة في حياة هؤلاء، إذ كان ينبغي اقتلاعهم من المجتمع العربي الذي كانوا جزءا منه وغرسهم في المجتمع الفرنسي الغريب عنهم تماما.²

وبهذا الشكل، نجحت فرنسا في التفريق بين الجزائريين واليهود الذين كانوا يشكلون شعبا واحدا حتى تضمهم إليها وتحرم الجزائريين من دعمهم لهم والوقوف إلى جانبهم في مقاومتهم للفرنسيين.

هذا ولم تكتف السلطات الفرنسية بكل القوانين والتشريعات التي أصدرتها حتى تهينهم وتقضي عليهم فأصدرت قانونا جديدا أطلقت عليه اسم "قانون الإنديجينا" أو قانون الأهالي كان هدفه إخضاع الجزائريين للمحتل بشكل تام وكامل، ومن بين الأسباب التي

¹ Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie (1830 – 1954), p 32.

المرجع السابق، ص 33.²

أدت إلى إصدار هذا القانون حسب الفرنسيين هي: "عدم توفر الأمن واضطراب الأوضاع في الأرياف الجزائرية"¹

ومن خلال هذا القانون، كانت الحكومة الفرنسية تعتبر الشعب الجزائري ملكية خاصة حصلت عليها بفعل الاحتلال، [...] الجزائر أرض مفتوحة، على حد تعبير مؤرخي المدرسة الاستعمارية، والجزائريون لا يستحقون أي حق من حقوق المساواة، وعليه فإن سنة 1830م هي السنة التي ظهرت فيها القوانين الاستثنائية الرهيبة في حق الجزائريين"² وقد كان قانون "الإنديجينا" أحد هذه القوانين الردعية الكثيرة المسطرة على الجزائريين [...] ولم يخص فئة الفلاحين فقط بل كان يخص كل الجزائريين"³.

هذا ويحتوي قانون "الأهالي" على واحد وأربعين مخالفة تستحق العقوبة الشديدة لمن يقتربها بدون أي شكل من أشكال التوجيهات أو التعليمات المنصفة والعادلة للدفاع ولا للمحاكمة.⁴ وقد كان هذا القانون ينص على أن سلطة الحاكم العام هي التي تصدر العقوبات دون محاكمة وهذا من أجل الحفاظ على الأمن العام، ثم الأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية، فالفرد وحده لا يعينهم إذا ارتكب جريمة أو حريقا بل كل سكان تلك القرية أو القبيلة مسئولون، كما يملك المتصرفون الإداريون ورؤساء البلديات سلطة حبس الأشخاص ومصادرة أملاكهم دون حكم قضائي وغيرها من القوانين الجائرة، كان الهدف منها فرض النظام والانضباط في أوساط المسلمين الذين يتعين عليهم إظهار الولاء والطاعة المطلقة للأوروبيين، وقد أجبر الجزائريون على التقيد بهذا القانون وأضافوا لهم

¹ كريم ولد النبية، سياسة الإخضاع وقوانين الأنديجينا من خلال أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، العدد: 2 لشهر ديسمبر 2011، ص 60.

المرجع السابق، ص 60.²

المرجع السابق، ص 62.³

⁴ Bouchène A., Peysoulou J.P., Tengour O.S., Thénault, Histoire de l'Algérie à la période coloniale, 1830 – 1962, p 200.

فيما بعد قانونا آخر وهو التجنيد الإجباري سنة 1912م، و كان كل من لا يمثل له ستكون عقوبته السجن أو دفع غرامة أو مصادرة ممتلكاته.¹

وكان المؤرخ الفرنسي "شارل روبير آجيرون" يطلق على قانون "الأهالي" اسم "قانون التبعية الأهلية وعرفه بأنه سلسلة من العقوبات غير المألوفة في القانون العام، كان عددها واحدا وأربعين مخالفة خفضت إلى واحد وعشرين عقوبة سنة 1890م [...] وظل الجزائريون طيلة الاحتلال الفرنسي خاضعين لعقوبات خاصة من اعتقال إداري [...] وغرامات مالية فردية أو جماعية ورخص التنقل..."²

وقد ظلت فرنسا تعمل بهذا القانون وتطبقه على الجزائريين حتى سنة 1962م ولاسيما فيما يتعلق بحرية التنقل والعمل والإقامة في مكان الاختيار، وهكذا كان الأهالي يولدون من أجل خدمة المحتل وطاعته.³

وبهذا كان الفرنسيون يميزون بين الجزائريين والفرنسيين، إذ لا يطبقون نفس الأحكام والقوانين عليهم كما لم يكونوا يحاكمون في نفس المحاكم بل كانت هناك أحكام قاسية واستثنائية لا تطبق إلا على الجزائريين.⁴ وهكذا كان المحتل ينظم الإدارة في الجزائر حتى يتسنى له فرض نفوذه أكثر وإذلال الجزائريين والقضاء على هويتهم وأصالتهم والاستيلاء على أراضيهم.

¹ Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine (1830-1969), pp90 – 92.

حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 5.²

³ Belaïd Abane, Résistances Algériennes, p 182.

⁴ Camus Albert, Misère de la Kabylie, Editions la pensée, 2014, p 100.

2.1.4 (سياسة العنف والدمار :

لقد شن المحتل الفرنسي منذ السنوات الأولى من الاحتلال حربا ضروسا ضد الجزائريين الذين لا حول لهم ولا قوة ولا أسلحة للدفاع عن أنفسهم وقد "كان الضباط أنفسهم يكتبون عنها بكثير من التفاصيل وفي شيء من الزهو والتلذذ، وبفضل كتاباتهم تلك، صار بين أيدي الباحثين اليوم شهادات تاريخية على قدر كبير من الدقة".¹

هذا وقد استعمل الفرنسيون "في هذه الحرب كل وسائل الدمار والتقتيل الجماعي للأهالي العزل [...] وتجردت الحملات العسكرية من كل الأخلاق والقيم الإنسانية، وتفنن ضباط الجيش الفرنسي في وضع مخططات الموت واختراع وسائل الإبادة وتنافسوا في نشر الخراب والدمار".²

وقد كانت عمليات العنف والإبادة تتم بطريقة غير منظمة في السنوات الأولى من الاحتلال ولكن ابتداءً من العشرية الثانية وبالذات عند مجيء الجنرال "بيجو" أصبحت منظمة بشكل دقيق جدا، "كما تطورت فيها أدوات القتل، وتعددت وسائل الإبادة، واستعملت فيها كل أنواع الأسلحة مثل القتل المباشر بالرصاص أو بالسيف أو بسلاح النار أو الخنق بالدخان أو بغيره من وسائل القتل وتدمير القرى وحرق المحاصيل ومصادرة المواشي"،³

ولعل من أولى المجازر التي اقترفها الفرنسيون في حق الجزائريين، مجزرة قبيلة "العوفية" في ضواحي الحراش غير بعيد عن الجزائر العاصمة وكان ذلك يوم 6 أفريل 1832م ليلا، حين اقتحم الجنود الفرنسيون أهل القبيلة وهم في سبات عميق وأبادوهم عن آخرهم

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013 ص30.

المرجع السابق، ص 29.

أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، ص 31.

"دون تمييز في الجنس أو العمر، [...] وعند عودة الجنود من هذه المهمة "المخزية" حسب تعبير أحد الكتاب (كان فرساننا يحملون الرؤوس الآدمية على أسنة حراهم).¹

ويصرح ضباط الجيش الفرنسي ذاتهم أنهم كانوا يحرقون القرى وكل الأرياف ويحطمون المنازل على سكانها وينهبون خيراتها، "وكم من امرأة وطفل هرب إلى جبال الأطلس المغطاة بالثلوج حينذاك وماتوا من البرد ومن البؤس. نحن نحطم ونحرق وننهب [...] وهناك عدد هائل من الجثث المتراسة فوق بعضها البعض من الموتى الذين تجمدوا هناك أثناء الليل".²

وفيما بين 1841 و 1847م تسلم الجنرال "بيجو" (Bugeaud) مقاليد الجيش الفرنسي وأصبح حاكما عاما على الجزائر و قد عمل على تصعيد عمليات العنف على الجزائريين أكثر، فهو من وضع شعار "السيف والمحراث" و "سياسة الأرض المحروقة" وقد قام بحرق قرى بأكملها وإتلاف المحاصيل الزراعية وقطع الأشجار المثمرة والاستيلاء على القطعان والمواشي،³ كما صرح (بيجو) بأن "الحرب هي اصطياد للبشر".⁴

وفي دراسته المعنونة بـ "سيكولوجية الغزو" يشير مصطفى الأشرف إلى بعض الأحداث البليغة جدا والخطيرة التي ارتكبتها الفرنسيون فور احتلالهم للجزائر، ففي سنة 1842م قام "سانت آرنو" (Saint Arnaud) بتدمير جزء من مدينة البليدة كما دشّن القائد الفرنسي "كافيناك" (Cavaignac) "المدخنات" (Les enfumades) من خلال خنقه للمتمردين في مغارة في الضفة اليسرى من منطقة الشلف، كما قام "كانروبير" (Canrobert)

¹ Megherbi Abdelghani, La paysannerie Algerienne face à la colonisation, ENAP, Alger 1973, p 28

² Belkhodja Amar, Misère, crimes et famine en temps coloniaux, El kalima éditions, Alger 2013, pp 167, 168.

أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها ، ص 29.

⁴ Ageron Charles Robert, Histoire de l'Algérie contemporaine (1830-1969), p 30.

بتدمير قرية عن آخرها في منطقة الأوراس لكي يربع القرى والقبائل الأخرى، كما ملأ "بيليسي" (Pélissier) مغارة بالدخان وقتل حوالي ألف رجل هارب إلى المغارات وهم من قبيلة "أولاد رياح"، وقد حملت هذه الأفعال الشنيعة أحد أعضاء اللجنة المكلفة بالبحث المعينة من المملكة الفرنسية سنة 1833م إلى القول: "لقد تجاوزنا همجية الهمج الذين أتينا لكي نلقنهم التحضر".¹

كما يُروى عن الجنرال "سانت آرنو" أنه كان لا يفتأ يردد الكلمات التالية: "لن أترك شجرة واحدة واقفة في بساتينهم ولا رأسا واحدة على كتفي هؤلاء العرب الأشقياء"،² وقد سلك خليفته الماريشال "راندون" (Randon) المسلك نفسه، و"يمكن أن نذكر هنا من سجلات هؤلاء العسكريين [...] ما فعلوه بسكان واحة "الزعاطشة" الذين أبادوهم عن آخرهم في نوفمبر 1849م وما فعلوه بسكان مدينة "الأغواط" أثناء احتلالهم لها سنة 1852م حيث قُتل معظم قاطنيها وخُرب عمرانها وأُتلف زرعها وكذا ما فعلوه بسكان "تقرت" سنة 1854م و ما ارتكبه الماريشال "راندون" من فظائع سنة 1857م في بلاد القبائل".³

وهكذا كانت مشاهد العنف والدمار تتواصل بل وتتصاعد أكثر فأكثر، وفي هذا السياق قال "فريدريش إنجلر" (Friedrich Engels): "لا يأتي أي حاكم إلا لتجديد أحداث العنف التي قام بها سلفه"⁴ هذا وقد وجدت أعمال العنف والتتكيل تلك من كان يرحب بها ويشجعها، وقد قام الدكتور "أوجين بوديشون" (E. Bodichon) بتلخيص تلك الآراء فيما يلي:

"لا يهم أن تخرج فرنسا من مسلكها السياسي أحيانا عن حدود الأخلاقيات السوقية فالمهم هو أن تنشئ مستعمرة قارة، [...] وحين يكون هناك عمل يعود بالفائدة على الإنسانية فإن

¹ Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie (1830 – 1954), pp 17, 18.

أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياها، ص 34.

المرجع السابق، ص 34.

⁴ Belaïd Abane, Résistances Algériennes, p 88.

أقصر الطرق هي أفضلها والحال هنا أن أقصر الطرق هو استعمال العنف [...] فدون أن نخرق مبادئ الأخلاق والقوانين الدولية، نستطيع أن نحارب أعداءنا الأفارقة بسلاح البارود والحديد، مقرونا بسلاح الجوع وإشاعة الفرقة بينهم بالحرب بين العرب والقبائل وبين عشائر التل وعشائر الصحراء وبالخمور والرشوة ونشر الفوضى في صفوفهم...¹

كما كان "لوسيان فرانسوا دي مونتانيك" (Lucien François de Montagnac) يعطي بعض التوضيحات عن كيفية القضاء على العرب، ويتجلى ذلك في قوله: "يجب قتل الرجال حتى سن الخامس عشرة سنة وأخذ النساء والأطفال ووضعهم في سفن كبيرة وإبعادهم إلى جزر الماركيز أو إلى مكان آخر، وباختصار يجب القضاء على كل ما يمكن أن يزحف عند أقدامنا كالكلاب".²

إضافة إلى ذلك، كان أعضاء البرلمان الفرنسي ينادون علانية ويدعون إلى حرب إبادة في الجزائر وكان الأنثروبولوجيون يتناقشون في باريس عن إمكانية إزالة سكان الجزائر، وقد كان الدكتور "أوجين بوديشون" يعبر عن أمنيته في رؤية جزائر بدون جزائريين في يوم من الأيام، ولكن لم تعتمد فرنسا سياسة الإزالة الكاملة للشعب الجزائري من بلده، بل وضعت خططا أخرى من أجل قهره ومصادرة أراضيه وعرضها في السوق ودفع الملاك من الجزائريين ليصبحوا مجرد عمال عند المعمرين وفي هذا السياق يقول الدكتور "أوغوست فارنيي" (Auguste Warnier) أنه ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي ستقدم فيه اليد العاملة الجزائرية، وهي تحت تأثير البؤس، خدماتها في السوق وحين يصبح الجزائريون أدوات طيعة في يد المعمرين الفرنسيين.³

¹ Francis et Colette Jeanson, L'Algerie hors la loi, ENAG ,Alger 1993, p33

² Bouchène, Peyroulou, Tengour, Thénault, histoire de l'Algerie a la période coloniale, p59

المرجع السابق، ص 61.³

ومن هنا تتجلى لنا سياسة العنف والدمار التي انتهجها المحتل الفرنسي منذ وطئت قدماه أرض الجزائر التي أراد أن يجعل منها ملكية خاصة به ومن شعبها عبيدا عنده.

3.1.4 (سياسة التعمير والاستيطان:

لقد كان الاحتلال الفرنسي للجزائر استيطانيا، إذ كان هدفه هو القضاء على الجزائر ككيان ثقافي واجتماعي وفكري وحضاري وحتى بشري، وقد كان "كلوزيل" (Clauzel) من "أكثر الحكام في هذا العهد تحمسا لسياسة الاستيطان، فقد بدأ حياته العملية في الولايات المتحدة حيث رأى ما حققه الجنس الأنجلوسكسوني في هذه الحضارة العريقة يمكن أن تشبه بالقارة الجديدة التي تسكنها أجناس متأخرة مثل الهنود الحمر".¹

ومن أجل تحقيق ذلك، قام "كلوزيل" بإصدار عدة قرارات، ففي الثامن من سبتمبر عام 1830م "أصدر الأوامر بالاستيلاء على أملاك الدولة [...] وأملاك الحبوس (الأوقاف) المخصصة لأغراض دينية [...] كما حول أمر الحراسة على أموال الأتراك إلى مصادرة صريحة، وهكذا انفتح المجال أمام المهاجرين الأوروبيين لاستغلال موارد البلاد"،² لقد كانت عملية الاستيطان والتعمير من أهم أهداف الغزو والاحتلال بالنسبة للفرنسيين ولذلك سخرت كل الأسباب اللازمة لتحقيقه ومنها العسكرية.

هذا ويتفق "بيجو" مع "كلوزيل" في "تصوره أن القوة العسكرية لا معنى لها بدون استيطان الأرض ولذلك صرف كل جهده طوال فترة بقاءه كحاكم عام وكقائد أعلى للجيش ليجعل من قوة الجيش درعا للاستيطان تشجعه وتحميه وتعمل دوما على توسيع رقعته. وقد أنشأ

¹ صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر: الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلوالمصرية، ط6، 1933، ص 132.

المرجع السابق، ص 132.²

في ظرف سبع سنوات من حكمه خمسة عشر ألف مستوطنة ريفية وبلغ عدد المستوطنين الأوروبيين في نهاية حكمه مائة وتسعة آلاف وأربعمائة.¹ زيادة على ذلك، أوصى "بيجو" خليفته "كافيناك" بضرورة الاهتمام بعملية التعمير والاستيطان وبتسخير القوات العسكرية في سبيل ذلك.²

كما نادى الكونت "راوسي بولبون" (Raousset Boulbon) إلى احتلال الجزائر في قوله: "احتلوا الجزائر!" [...] نعم احتلوا، اقتلعوا بسرعة من أرض الجزائر وأحشائها الخيرات التي ستعطي للطبقة العمالية الراحة ولكم السلام (للاقتصاديين) وللـكل الرفاهية".³ وبناء على هذا، بات احتلال الجزائر وتعميرها أمرا ضروريا بل حيويا بالنسبة لفرنسا نظرا للآزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعيشها حينذاك، إضافة إلى نقشي البؤس والفقر بشكل كبير ومحير وكل الآفات الناجمة عنها كالسرقة والإجرام وأعمال العنف وغيرها.

وفي سنة 1831م رأى أحد مسؤولي الشرطة الباريسية و البارون "بود" (Le Baron Baude) أن عملية الاستيطان هي نوع من التطهير للأراضي الفرنسية، والجزائر هي بالنسبة لفرنسا ومختلف الدول الأوروبية الأخرى العضو المطهر لكل المشاعر المزعجة، أي أنها (الجزائر) تقوم بعملية تفريغ الأراضي الفرنسية من الفضلات الاجتماعية الناتجة عن الثورة الصناعية، ويذهب "راوسي بولبون" إلى أنه من المستحيل أن تجد فرنسا حلا لكل مشاكلها الناتجة عن الفقر ولا يمكنها تسديد احتياجاتها الضخمة بسبب قدراتها المحدودة على المستويين الفلاحي والصناعي إضافة إلى الأوضاع الأخرى

¹.40 أحمد منور، ص

².40 المرجع السابق، ص

³ Grandmaison Olivier Lecour, coloniser, Exterminer sur la guerre et l'état colonial, Casbah Editions, Alger, 2005, p 303.

التي لا يمكن أن تجد لها مخرجا منها إلا عن طريق المستوطنة وما يمكن أن توفره لها من ثروات باطنية وواردات فلاحية تعتبر ضمانات كبيرة لفرنسا.¹

ويعتبر "هاين" (Hain) أحد مؤسسي المجتمع الكولونيالي في الجزائر، تعمير الجزائر هو الوسيلة الأساسية للتخلص من تلك الفئة من العناصر الضارة وغير الصالحة، وكذا الفقراء والبطالين الذين كانوا في تزايد مستمر في فرنسا و أوروبا عامة ، ثم إن إبعادهم إلى الضفة الأخرى من المتوسط سيعزل المشاغبين ويجعل أعمالهم غير مجدية،² أما "دي لابرومييس" (H. de La Promesse) فيشبه الجزائر بغرفة الجلوس بالنسبة لفرنسا، فعندما يتحرر المساجين ويرسلون إلى الجزائر وتمنح لهم الامتيازات وكل فرص النجاح سيشجعون بدورهم الآخرين للذهاب إلى هناك وبهذا سينخفض عدد الفقراء وكذا نسبة قدماء المسجونين الذين غالبا ما كانوا يجدون صعوبة في العثور على عمل مستقر، في بلدهم فرنسا، يسمح لهم بإعالة أنفسهم و هذا ما جعلهم مصدرا لكل فساد وشغب ومساس بأمن وسلامة الممتلكات والأشخاص.³

وفي أواخر القرن التاسع عشر، شهدت الجزائر قدوم حشود كبيرة من المهاجرين المقبلين من سواحل البحر الأبيض المتوسط: لقد بلغ عدد المهاجرين الأسبان عام 1849م حوالي 35 ألف مهاجرا، وارتفع هذا العدد إلى 160 ألف واستقروا خاصة في منطقة وهران وفي عام 1851م قدم إلى أرزيو حوالي 700 إسبانيا و170 فرنسا، وفي سنة 1911م بلغ عدد الفرنسيين في منطقة الغرب الجزائري 95 ألفا و عدد الإسبان الذين أخذوا الجنسية الفرنسية 92 ألفا و الذين تمسكوا بجنسيتهم الأصلية 93 ألفا، كما بلغ عدد الإيطاليين

¹ Grandmaison Olivier Lecour, coloniser, Exterminer sur la guerre et l'état colonial, pp 300, 301.

المرجع السابق، ص 303.

المرجع السابق، ص 296.

في منطقة قسنطينة وعنابة سنة 1886م 35 ألفا، وعدد المالطيين الذين استقروا خاصة في الشرق والوسط وخاصة حول الموانئ، حوالي 15,533 في السنة ذاتها.¹

هذا وقد كان همُّ الحكومة في الجمهورية الثالثة هو نقل الأعداد الهائلة من المهاجرين الفرنسيين قصد "تحقيق التوازن بين العنصر الفرنسي وبقية العناصر الأوروبية الأخرى ثم الاستيلاء ومصادرة الأراضي الجديدة لإغراء هؤلاء المهاجرين بالثروة التي لا تتوفر لهم في أوروبا".²

وتعتبر الفترة الممتدة ما بين 1871م و 1881م من "أنشط فترات الهجرة، فقد ارتفع عدد المستوطنين من 246 ألفا إلى 376 ألفا بمعدل 13 ألف سنويا [...] ووجدت الحكومة الفرنسية في الجزائر المهجر الطبيعي الذي تستطيع أن تعوض به أهل "الألزاس" و"اللورين" عما فقدوه من أملاك، فنظمت لهم مراكز زراعية ورَحَّلَتْ على نفقتها 1038 أسرة منهم".³ وفي سنة 1926م بلغ عدد المستوطنين الفرنسيين في الجزائر حوالي 833 ألفا ولقد ارتفع هذا العدد إلى 984 ألفا عام 1954م، ومن الناحية الاقتصادية، كان 14,4 من المعمرين ينتمون إلى القطاع الفلاحي و 28,6% إلى القطاع الصناعي و 57% إلى قطاع الخدمات.⁴

ومع ارتفاع نسبة المستوطنين ونمو ثروتهم "توسعت مصالحهم وتعاضم شأنهم وأصبحوا يشكلون قوة ضاغطة، ولهم نفوذ في فرنسا نفسها وأصبح لهم ممثلون في البرلمان الفرنسي، فكان في إمكانهم إملاء القوانين وتعيين الحاكم العام وعزله. [...] وبمجيء

¹ Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie (1830 – 1954), pp 27, 28.

² صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 146.

³ المرجع السابق، ص 146.

⁴ Ageron Charles Robert, Histoire de l'algérie contemporaine (1830–1969), pp107, 108.

الحكم المدني ازداد نفوذ المستعمرين أكثر من ذي قبل وظل يتعاضم باستمرار إلى أن أصبح في إمكانهم أن يؤثروا على مجريات الأمور في فرنسا نفسها".¹

وكانت الامتيازات الهائلة التي قدمت للمهاجرين الأوروبيين، سببا في تضاعف الأعداد القادمة إلى الجزائر فيما بعد، ففي سنة 1861م "اتجهت الحكومة إلى منح الأراضي المستولى عليها إلى جمعيات رأسمالية كبيرة في نظير تعهده هذه الجمعيات بتنفيذ مشروعات هامة كإنشاء السدود وتعبيد الطرق، [...] ومن أكبر الجمعيات التي استفادت من سياسية الإمبراطورية الثانية، جمعية جنيف التي منحت امتيازًا لاستغلال 20 ألف هكتار والجمعية الجزائرية العامة التي منحت 100 ألف هكتار، كما حصلت جمعية الغابات على امتياز لاستغلال الغابات الجزائرية مدة تسعين سنة في مساحة قدرها 160 ألف هكتار".²

وقد كانت هذه الجمعيات تفضل اليد العاملة الجزائرية بدل الأوروبية لأنها غير مكلفة كما كانت تعمل مع البعض بنظام المخامسة أي يمنح للعامل خمس المحصول أو ما يعادله من المال.

وهكذا تواصلت عملية الاستيلاء والاستحواذ على الأراضي الزراعية في الأرياف الجزائرية من قبل المعمرين الذين لا يجدون أي مانع من استغلال الفلاح الجزائري بطريقة وحشية ولا إنسانية في معظم الأوقات إذ كانت حقوقه مهضومة. يعمل كثيرا مقابل أجر زهيد جدا لا يكاد يسد احتياجاته واحتياجات عائلته اليومية.

زيادة على ذلك، كان المعمرون يحظون بكل الامتيازات و يفوزون بكل المساعدات فلهم تقدم القروض الفلاحية و لهم الأولوية في كل الميادين أما الأهالي فيأتون دائما في

أحمد منور، ص 43، 44.¹

صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 140.²

الصف الأخير¹ وكثيرا ما تقابل طلباتهم للمساعدة بالتجاهل واللامبالاة أو بالرفض لهذا كانت أوضاع المعمرين في تطور وتحسن مستمر بينما كان الأهالي يغرقون أكثر فأكثر في فقرهم وبؤسهم ومآسيهم.

وهكذا كان المحتل يميز بين الأهالي والمعمرين بشكل رهيب وفاضح جدا.

وعلى هذا الأساس، وُصف المعمر على أنه: "سيد عظيم الشأن مالك من ذوي الجاه والنفوذ، شخص انتهازي، يحب الأبهة يعاملك بمنتهى الوقاحة، أناني، شديد المكر بالآخرين، تسامى فوق كل المؤسسات".²

وقد يكون هذا الوصف أحسن دليل على مدى غرور وعجرفة المستوطن الفرنسي الذي كان يعاني الجزائريون كثيرا من سوء معاملته ومن ظلمه.

ومن أجل توسيع عملية الاستيطان، دعا الجنرال "بيجو" سنة 1841م إلى ضرورة التغلغل في المناطق الداخلية للجزائر واحتلالها ثم تعميرها، ورأى أن المرور من الاحتلال الضيق والمحدود إلى الاحتلال الاستيطاني يغير بشكل أساسي الأحكام الخاصة بالأهالي كما تتطلب سياسة التعمير مراقبة صارمة للأشخاص والأراضي معا، ثم إن مفهوم الاستيطان يولد أفكارا معينة كإزالة السكان الأصليين أو تقليص عددهم ؛ وكان العقداء الفرنسيون يشيرون إلى ضرورة استخدام القوة العسكرية في سبيل ذلك، كما لا ينبغي استعمالها (القوة) بهدف تحقيق الانتصارات على العدو بل من أجل إبعاد الجزائريين أو قتلهم باستمرار.³

¹ Belkhodja Amar, Misère, crimes et famine en temps coloniaux, p 184.

² حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 20.

³ Bouchène A., Peysoulou J.P., Tengour O.S., Thénault, Histoire de l'Algérie à la période coloniale, 1830 – 1962, p 59.

4.1.4) سياسة سلب الأراضي وتدميرها:

كانت الجزائر بلادا فلاحية بامتياز، وذلك بفضل سهولها الواسعة وأراضيها الخصبة ومناخها المعتدل خاصة في المناطق الشمالية، وهذا ما جعل منها خزاناً لفرنسا وإيطاليا للحبوب والقمح على وجه الخصوص، وكانت هذه من بين العوامل التي زادت من أطماع فرنسا لاحتلال الجزائر حتى تضمن أمنها الغذائي.

ونظرا لكون الاحتلال الفرنسي للجزائر استيطانيا، عمل منذ الوهلة الأولى على الاستيلاء على أجود الأراضي والمزارع وسلبها من أصحابها ومنحها للمعمرين حتى تكون بين أيديهم وتحت تصرفهم.

وكانت الأرض أعز ما يملكه الفلاح الجزائري وفقدانها يعني فقدان الوطن والملجأ وكذا الفقر والضياع والتشرد والموت أحيانا، وعليه كان المحتل لا يفتأ يحتجز ممتلكات وأراضي العائلات التي وقفت في وجهه وقاومته، وقد كان الاحتجاز من أفزع الأسلحة المستخدمة ضد الفلاح الجزائري، وزد على ذلك أن الاحتجاز لم يكن سوى مصادرة مقنعة، وفي 1 ديسمبر من عام 1840م، أصدر الحاكم العام قرارا يضع تحت الحجز كل الممتلكات العقارية والممتلكات المنقولة لكل من يغادر بلده أو حيه لالتحاق بالمقاومة . هذا وقد كانت الإدارة الاستعمارية تحاول إقناع الجزائريين أن فرض الحراسة على أراضيهم لا يعني المصادرة النهائية لها على الإطلاق، وأنه لا يقوم بذلك إلا لمنعهم من الاستفادة والاستمتاع بأراضيهم وممتلكاتهم، وأنه بإمكانهم أن يحصلوا على رفع الحجز في آجال محددة، ولكن عليهم أن يثبتوا أنهم لن يتمردوا على المحتل وأن ولاءهم مقبول من قبل السلطات العسكرية الفرنسية ، ولكن في حقيقة الأمر، كثيرا ما كان الحجز يطول

ويتحول إلى مصادرة نهائية لتلك الممتلكات التي غالبا ما كانت تمنح للمعمرين القادمين من أوروبا.¹

علاوة على احتجاز الأراضي والممتلكات سلط المحتل على ثوار أحداث سنة 1871م غرامات مالية مشتركة مست أكثر من 800 ألفا من الفلاحين مما أدى إلى إفلاس أغلبية القبائل واستغراق البعض الآخر من الفلاحين عشرين سنة ليتمكنوا من تسديد كل ديونهم، و في تلك الأثناء كانت قرى المعمرين تزدهر على أنقاض الفلاحين الجزائريين.

وقد بلغت عملية الاستيلاء والنهب ذروتها عند إصدار قانون "فارنيي" (Warnier) سنة 1873م وهذا ما سمح للمحتل بالاستيلاء على نصف مليون هكتار من الأراضي التي أصبحت ملكا للمعمرين في ظرف عشرة سنوات (1871-1880م)، وقد كان ذلك النهب الشديد سببا في إيقاع الجزائريين في حال من البؤس الشديد، لقد جُردوا من كل وسائل العيش وهذا ما منعهم من التفكير في حرب مسلحة ضد العدو.²

و جراء ذلك، كان الفلاحون الجزائريون يتكومون بأعداد هائلة في مزارع صغيرة جدا وقد كانت هذه المرحلة هي مرحلة البقاء على قيد الحياة والتي استمرت حتى سنة 1954، لقد كان هؤلاء الفلاحون من أصحاب الأملاك والأراضي قبل الاحتلال ولكن بعده باتوا يجولون في مختلف أنحاء البلاد ليقدموا خدماتهم وخبراتهم مقابل لقمة عيش تبقّهم على قيد الحياة، ولم يفوت المضاربون و المرابون تلك الفرصة الذهبية بالنسبة إليهم بل كانوا يتربصون بالفلاحين كالغربان ويغتنمون فرصة ضعفهم وتعبهم ويأسهم حتى يقرضوهم

¹ Belkhodja Amar, pp 169, 170.

المرجع السابق، ص 170، 171.²

مبالغ من الأموال وهم على دراية بأنهم عاجزون على تسديدها وبهذا كانوا يستولون على ما تبقى من ممتلكاتهم.¹

وهكذا كان الفلاح الجزائري يلجأ إلى الاستدانة حتى يوفر الحد الأدنى من الأكل واللباس، وقد استمرت هذه الأوضاع حتى النصف الأول من القرن العشرين.

كما كان البعض الآخر من الفلاحين يتجهون نحو رهن بعض القطع الصغيرة من أراضيهم المتبقية لديهم والتي غالبا ما كانوا يفقدونها لأنه لم يكن بإمكانهم تسديد ديونهم . لقد بقي الفلاح الجزائري تحت رحمة المرابين و المضاربين حتى تاريخ اندلاع حرب التحرير و من جهة أخرى هناك من الفلاحين من كانوا يلجئون إلى القروض التعاقدية أمام أطراف أخرى، ولكن لم تزدهم هذه الوسيلة إلا تورطا في الديون، إذ كلما عجز أحدهم على تسديد ما عليه من المبالغ، كان يُتابع أمام العدالة التي كانت تعلن لا محالة عن أحكام ضده بالحجز والبيع لممتلكاته في المزاد العلني² ؛ وكان القانون يضع على عاتق المدين تكاليف المحاكمة كلما أجل المزاد، وهكذا كانت المبالغ تتراكم وترتفع باستمرار مما كان يقلق كثيرا الفلاح الذي كان لا يفتأ يتساءل عن كيفية توصله إلى تسديد ديونه ؛ وقد كان المضاربون والمرابون يتربصون بالفلاحين خاصة أثناء موسم الحصاد حين يكونون في حاجة ماسة إلى المزيد من الأموال من أجل ذلك.

¹ Belkhodja Amar, p 172.

المرجع السابق، ص 172، 173.²

لقد أسهمت هذه الأوضاع كلها في فقر الفلاح كما سمحت للمرابين والمضاربين والمؤسسات المختلفة التي تقدم قروضا من الاستحواذ على الممتلكات القليلة الباقية في حوزته.¹

هذا ولم يتوقف جنون المستوطن الفرنسي عند هذا الحد بل لم يدخر أي جهد في الاستيلاء على المقابر التي قام بقلبها وحرثها وتحطيم القبور فيها وهذا كله تحت أنظار السكان المتألمين بصمت في أعماق ذاتهم معتبرين ذلك قمة التدنيس لمقدساتهم.²

مع الملاحظة أن المحتل الفرنسي لم يكتف بالمصادرة والسلب والنهب بل قام أيضا بممارسة سياسة الأرض المحروقة التي كان يتزعمها الجنرال "بيجو" الذي كان يتحدث بكل فخر عن تدميره للبساتين وتحطيمها في منطقتي القبائل والمتيجة الشرقية في قوله: "هذه أشجار البرتقال الجميلة التي ستدمرها همجيتي ... أنا أقوم اليوم بحرق قرى بن سالم وبلقاسم أوقاسي".³

وفي أحد تقاريره كان العقيد "فوري" (Forey) يصف جمال الجزائر وطبيعتها الخلابة قبل أن يشرع في تخريبها في قوله: "لم يسبق لي وأن رأيت [...] مراكز كبيرة للسكان مثل التي رأيتها في جبال "بني بوعيش" و"بني بومليك"، يوجد بها الكثير من الأكواخ المعزولة وقراها تشبه القرى الفرنسية، فهي كلها محاطة ببساتين وغابات زيتون ضخمة وجميلة، ولكن كان عليّ تطبيق الأوامر، وأظن أنني قد أدت مهمتي على أحسن وجه، فلم أترك قرية واقفة ولا شجرة ولا حقلا، إن الضرر الذي ألحقته بها لا حصر له"⁴ وفي السياق نفسه يقول

¹ Belkhodja Amar, p 174.

² Belaïd Abane, Résistances Algériennes, p 81.

³ المرجع السابق، ص 110.

⁴ المرجع السابق، ص 110.

"سانت آرنو": "لقد تركت حريقا مهولا على طريقي، لقد أحرقت كل القرى وهي تبلغ حوالي مائتي قرية، وقد أحرقت كل البساتين وخربتها كما قطعت أشجار الزيتون".¹

وفي عام 1842م يسترجع الرائد الفرنسي "بوتيو" (Bouteilloux) ذكرياته في مدينة البليدة في قوله: "ابتداءً من شهر مارس تحركت الجيوش (الفرنسية) لتقضي على المحاصيل الزراعية لقد ألحقنا أضرارا كبيرة بالمزارعين وبالأشخاص المسالمين"² كما يصرح الجنرال "بيجو" بأنهم (الجيوش الفرنسية) نهبوا أكثر من 3 آلاف رأسا من الماشية وأحرقوا أكثر من 10 آلاف من أشجار الزيتون والتين.³

وقد قام "رونيه غاليسو" (René Gallissot) بوصف الحال الذي آلت إليه الجزائر بعد كل تلك الممارسات قائلًا: "لقد أصبحت المدن مهجورة، لقد دمرت سهول وهران والشلف عدة مرات... وقد غادر سكان القرى مساكنهم ولجئوا إلى الجبال ليختبئوا في الكهوف... وقد أخلّت التدمير المتكررة للمحاصيل الزراعية بتوازن السكان في هذه المنطقة الزراعية، لقد دمرت القطعان، إضافة إلى النهب والغرامات والضرائب... لقد حل البؤس بالسكان وقد استنفذت عائدات المؤسسات الدينية كما اندثرت الزوايا، وبهذا الشكل تم إضعاف الشعب جسديا وثقافيا معا".⁴

وهكذا أصبح الفلاح الجزائري مجرد عامل بسيط وبائس مقابل أجر زهيد جدا أو خماس عند أحد المعمرين بعد أن كان سيدا في أراضيه ، ومن هنا نستنتج عدم وفاء الفرنسيين بالوعود التي قدمها وزير الحرب فور سقوط الجزائر، بأنهم سيحافظون على حرية ممارسة الديانة المحمدية وحرية كل الطبقات الشعبية وديانتهم وممتلكاتهم وعلى حرمة وكرامة

¹ Belaïd Abane, Résistances Algériennes, p 110.

المرجع السابق، ص 111.

المرجع السابق، ص 110.

المرجع السابق، ص 111، 112.

نسائهم، وقد تعهد كبير الجنرالات "دي بورمون" (De Bourmont) بشرفه على تطبيق كل ذلك.¹

وبهذا يتأكد لنا عدم امتلاك المحتل لأي شرف أو كرامة أو مبادئ، لأنه قام بعكس ما وعد به تماما.

ولقد "استمر مخطط الاستيلاء على الأراضي الفلاحية وتجريد الجزائريين من أراضيهم بشتى الطرق والأساليب القهرية بحيث بلغ العدد الإجمالي للأراضي المنتزعة منهم في الفترة ما بين 1871 و 1900م وحدها حوالي 687 ألف هكتار، وقد أدى مخطط انتزاع الأراضي الفلاحية والغابية من الجزائريين على المدى الطويل إلى نتائج خطيرة انعكست على حياة الناس، على كل المستويات، فقد حرّموا من وسيلة عيشهم الأولى، التي هي الفلاحة [...] ومنعوا من رعي أغنامهم ودوابهم بعد أن صارت الأرض والغابات ملكا للدولة أو المعمرين".²

وهكذا قضى المحتل على الفلاح والفلاحة في الجزائر معا، فبعدما صادر نسبة كبيرة من أراضيهم واستولى على البعض منها ودمر البعض الآخر وجعل منها مساحات قاحلة، وحول ما تبقى منها إلى زراعات خاصة بها كزراعة الكروم المستعملة في صناعة الخمر التي تفكر فرنسا في تسويقها إلى البلدان الأوروبية الأخرى حتى تنعش تجارتها واقتصادها، وكل ذلك على حساب الفلاح الجزائري الذي تدهورت حاله المعيشية بعدما فقد كل ممتلكاته وبلغ "مرحلة الفاقة والجوع [...] ونزل معدل تزود الجزائري بالقوت سنويا من خمسة قناطير من القمح والشعير قبل 1871 إلى قنطارين في سنة 1900م ونزل هذا المقدار إلى أقل من قنطارين في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وتحول

¹ Belaïd Abane, Résistances Algériennes, p 78.

² أحمد منور ، ص 45

الفلاحون إلى متشردين ومتسولين [...] ويقتاتون على ما يصادفونه في طريقهم من الحشائش وثمار الأشجار البرية وجذورها".¹

وفي خضم هذه الظروف الصعبة باتت حياة الفلاح الجزائري لا تطاق مما دفعه إلى اللجوء إلى عدة حلول كانت الأنسب في نظره حينذاك.

4.1.4.1 نتائج سياسة المصادرة والتدمير:

لقد أثرت سياسة السلب والمصادرة والتدمير بشكل سلبي وعميق على حياة الفلاح الجزائري وذلك على شتى الأصعدة.

1.1.4.1.4 على المستوى الاجتماعي:

لقد حولت سياسة السلب والمصادرة الفلاح الجزائري إلى إنسان فقير ومتشرد، بعدما كان صاحب أملاك وأراضي وهذا ما أدى إلى ظهور كم هائل من اليد العاملة الرخيصة التي لم تكن تجد من يشغلها ولاسيما بعد ما أدخل المعمرون المكننة على الزراعة، وبهذا كان الفلاحون يتدفقون بكثرة على المدن الكبرى ويتكومون في أحياء قصديرية فقيرة ولم يكن لهم الحظ في الإدماج في الاقتصاد الاستعماري الحضري الذي كثيرا ما كان يتحول إلى مجرد مضاربات تجارية وعقارية وهذا ما دفع بهؤلاء إلى الهجرة وبأعداد كبيرة نحو أوروبا خاصة.²

¹ Belaïd Abane, Résistances Algériennes, p 45.

² Sari Djilali, La dépossession de Fellahs (1830 – 1962), ENAG éditions Alger 2012, 2ème édition, p 139.

2.1.4.1.4 على المستوى الاقتصادي:

أدت عمليات الإبعاد والطرْد التي تعرض إليها الفلاحون من خلال مصادرة أراضيهم إضافة إلى قلة الأراضي الفلاحية إلى اختلال في القطاع الزراعي التقليدي وذلك من خلال تراجع زراعة الأشجار وزراعة الحبوب التي توسعت نحو المناطق الهامشية التي كانت تسجل تساقط كميات غير كافية من الأمطار غير المنتظمة، كما كانت حال المراعي في تدهور مستمر.¹

"وما كاد يحل الاحتفال بمرور قرن على الاحتلال حتى فقدت الجزائر قدرتها على تحقيق الاكتفاء الغذائي الذاتي وتحولت من منتج للحبوب ومصدر لها إلى بلد مضطر لاستيراد المواد الغذائية الضرورية لحاجات سكانه".²

ويعود ذلك إلى عدة عوامل نذكر منها:

- عدم معرفة المعمرين الفرنسيين بتقنيات الفلاحة وأسرارها بما فيه الكفاية، مما أدى إلى إساءة استغلالهم للكثير من الأراضي الفلاحية.
- اهتمام المعمرين بتحقيق الأرباح من خلال الفلاحة ولهذا لم يجدوا أي مانع من استغلال كل الوسائل المتاحة لديهم لبلوغ هدفهم.
- عدم اهتمام الفرنسيين باستصلاح الأراضي البور ولا باستغلال المياه الجوفية التي يكثر بها الجنوب الجزائري واكتفوا بما يوجد في الشمال من الأراضي.
- استغلال المستوطنين لأخصب المساحات في الجزائر في زراعة الكروم المنتجة للخمور قصد تسويقها وتحقيق أرباح كبير وكذا الأمر نفسه بالنسبة للحوامض التي تشتهر بها الجزائر وكل ذلك كان على حساب زراعة القمح والشعير، إضافة إلى قضاء

¹.Sari Djilali, La dépossession de Fellahs (1830 – 1962), p 139.

محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ص 18.²

الفرنسيين، في منطقة معسكر وشمال شرق الجزائر، على زراعة الأرز والبقول والعدس وغيرها من المواد ذات الاستهلاك الواسع لدى الجزائريين.¹

هكذا ومع ارتفاع عدد سكان الجزائر وتزايد حاجياتهم تحولت إلى "مستعمرة لا يستفيد منها سوى الكولون الذين اجتمعت بين أيديهم حوالي ثلاثة ملايين هكتار من أخصب الأراضي".² وعلى هذا النحو، جعل المستوطنون الفلاحين "غنيمة حرب فعاملوهم معاملة العبيد، واستغلوهم أبشع استغلال وعملوا على قهرهم بكل الوسائل وعلى تجريدهم من كل حق".³ ومن هنا باتت الجزائر عشية سنة 1954م بلدا للبطالين كما أضحت حالتها الاقتصادية هشة وضعيفة جدا.⁴

وبقيت حال الجزائري في المدن وفي الأرياف قاسية وصعبة حتى أثناء حرب التحرير مما دفع بالعديد إلى الهجرة الداخلية أولا ثم الخارجية فيما بعد.

3.1.4.1.4 (على المستوى الطبيعي:

لم يسلم الجانب البيئي والطبيعي من النتائج الوخيمة لسياسة السلب والمصادرة، لقد أدى الاقتصاد المعيشي الذي كان عاجزا على تلبية طلبات الكل إلى إزالة الغابات وتدهور حال السهول والغطاء النباتي، كما كانت التعرية السريعة للتربة وانجرافها يمتد إلى العديد من الأراضي وكانت نتائجها وخيمة، زد على ذلك تراكم الطين في السدود وتدمير جزء

محمد العربي الزبيري، تاريخ الجزائر المعاصر، ج 1، ص 18، 19.¹

المرجع السابق، ص 19.²

أحمد منور، ص 46.³

⁴ Belkhodja Amar, Misère, crimes et famine en temps coloniaux, p 173.

من البنى التحتية للطرق¹ وغيرها من الكوارث التي تسبب فيها المعمر نظرا لسوء استغلاله للأراضي.

5.1.4) سياسة التجهيل والتجويع:

1.5.1.4) سياسة التجهيل:

كانت الجزائر، حسب مزاعم البعض من الفرنسيين، بلدا متخلفا قبل الاحتلال سنة 1830م وكان فيه عدد هائل من الأمية، وعليه جاء المحتل ليرفع من مستواه ويخلصه من براثن التخلف ويرتقى به إلى مصاف البلدان المتطورة ولكن سرعان ما صادفتنا مجموعة من التصريحات من بعض الفرنسيين الذين أثبتوا عكس ذلك تماما ومن بينهم الجنرال "دوماس" (Dumas) الذي قال : "كان التعليم الابتدائي أكثر انتشارا في الجزائر وذلك على عكس الاعتقاد السائد آنذاك، ولقد أثبتت معرفتنا للسكان الأصليين في المقاطعات الثلاث أن نسبة الذكور الذين يحسنون القراءة والكتابة كانت على الأقل مساوية لتلك التي تذكرها الإحصائيات عن نسبة المتعلمين في أرياف فرنسا أي حوالي 40%".²

وفي السياق نفسه قال "روزي" (Roset) أن الجزائريين "كانوا أكثر تعلما من الشعب الفرنسي حيث أن كل الرجال تقريبا يعرفون القراءة والكتابة والحساب، وأنه كان بمدينة الجزائر مائة مدرسة عمومية وخاصة يتراوح عدد تلامذتها ما بين 10 و 15 تلميذا في

¹ Sari Djilali, La dépossession de Fellahs, p 140.

² أحمد بن داود، المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب من خلال التعليم (1920 - 1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، بإشراف د/ بوشيخي شيخ، جامعة أحمد بن بلة وهران 1، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، 2016 / 2017، ص2 عن الباسط دردور، المغرب العربي وتحديا الغزو الثقافي الغربي.

المدرسة".¹ ويذهب البعض الآخر إلى أن "عدد الجزائريين الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة أكثر من الفرنسيين".²

ومن خلال ما سبق، تتجلى لنا افتراءات الفرنسيين على الجزائر والجزائريين منذ البداية حتى يبرروا احتلالهم لها.

هذا ولم تهتم فرنسا في الخمسين سنة الأولى من احتلالها للجزائر بقضية التعليم، إذ لم يكن لها "سياسة تعليمية [...] أو تجربة هادفة، بل اعتمدت على مجموعة من التجارب [...] وذلك بسبب انشغال سلطات الاحتلال بعمليات إخضاع مختلف نواحي البلاد لسيطرتها والقضاء على الثورات الشعبية.³ وفي عام 1883م أصدر قانون 13 فيفري، تحت وزارة "جول فيري" (Jules Ferry) الذي كان ينص على مجانية التعليم وتعميمه بين الجزائريين.⁴ ولكن لم يسهم هذا القانون في تطوير التعليم في الجزائر الذي كان لا يفتأ يتناقص ويتراجع وكان ذلك مقصودا من السلطات الفرنسية التي كانت تهدف إلى تجهيل الشعب الجزائري حتى يسهل القضاء على ثقافته وشخصيته، وفي هذا السياق، قال المؤرخ الفرنسي "مارسيل إيميريت" (Marcel Emerit) : "كان العربي في 1830 يعرف القراءة والكتابة ولكنه أصبح يتخبط في ظلمات الجهل عندما مضى نصف قرن من الاحتلال".⁵

وهكذا لم يطبق قانون 13 فيفري 1883 على الجزائريين، إذ لم يكن المحتل الفرنسي يقبل كل أبناء الأهالي في مدارسهم كما كان يصر على غلق جل المدارس الموجودة قبل

أحمد بن داود، ص 2.1

² Emerit Marcel, L'Etat intellectuel de l'Algerie en 1830, in revue d'histoire moderne et contemporaine, Juillet- Septembre 1954, p207

المرجع السابق، ص 34.3

⁴ أحمد بن داود، ص 34 عن (سعيد عليوان، المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي في الجزائر خلال الثورة التحريرية المباركة، مجلة المعيار، العدد 10، 2005، ص 246.
حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 28.5

الاحتلال حيث كان التدريس فيها باللغة العربية، وكان يشدد الحراسة على البعض الآخر حتى تسير حسب تعاليمها، كما كانت "تهدد الأولياء الذين يرسلون أبناءهم إليها [...] وأوعزت إلى الشركات الكبيرة بمنع تعويضات المنح العائلية عن موظفيها الذين يرسلون أولادهم إلى مدارس الجمعية بحجة أن هذه المدارس غير خاضعة للتعليم الرسمي".¹

هذا وقد قسمت السلطات الفرنسية التعليم في الجزائر إلى قسمين: "التعليم الخاص بأبناء المعمرين والتعليم الخاص بالأهالي الموجه أساسا إلى أبناء طبقة [...] الباشاغات (كذا) الإقطاعيون، التجار الكبار، أما الشريحة الكبرى من أبناء الشعب الجزائري فهمشت [...] كما لجأ المستوطنون إلى لغة الأرقام لتبرير عدم قدرة فرنسا على الاهتمام بالأطفال في سن الدراسة".² وقد لوحظ سنة 1930م أي بعد قرن من الاحتلال أن 67 ألفا من بين 900 ألف طفل جزائري فقط هم من كان يسمح لهم بالالتحاق بالمدارس العمومية بحجة عدم وجود العدد الكافي من المدارس والمعلمين لذلك.³

ولقد سجلت الفترة الممتدة ما بين 1892 و 1912م توقفا في بناء المدارس ولاسيما في منطقة القبائل، كما أوقف مشروع "جولي جان ماري" (Joly Jean Marie) الذي كان سيبنى العديد من المدارس و أوقف أيضا مشروع آخر أعلن عليه الحاكم العام "لوتان" (Lutand) في يوم 7 فيفري عام 1914م ويتمثل في بناء 62 قسما و 22 مدرسة كل سنة في الجزائر، ولو أنجز نصف هذا المشروع لتمكن التسعمائة ألف طفل جزائري من التمدريس.⁴

حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 29، 30.¹

المرجع السابق، ص 28، 29.²

³ عمار هلال، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 - 1962)، ديوان المطبوعات الجامعية،

1995، 118 - 122.

⁴ Camus Albert, Misère de la Kabylie, p 51.

إضافة إلى ذلك، كانت المدارس والأقسام حينذاك، تشهد اكتظاظا خانقا إذ كان عدد التلاميذ في قسم واحد يتجاوز الستين وأحيانا الثمانين تلميذا، وقد نقل "ألبير كامو" في كتابه "بؤس منطقة القبائل" (Misère de Kabylie)، أن المعلمين كانوا يرفضون حوالي عشرة تلاميذ في كل قسم من هذه الأقسام المكتظة، كما كان يصف لنا كيفية توزيع التلاميذ في قسم يضم 86 تلميذا بمنطقة بني دواله (منطقة القبائل)، فهناك من أجلس مابين الطاولات والآخرين فوق المصطبات والبعض الآخر واقفا وهلم جرا.¹

ومن هنا نستنتج أن حتى العدد القليل جدا من التلاميذ الجزائريين الذين كانوا يحظون بمكان في المدارس فإنهم يدرسون في ظروف صعبة للغاية، وهذا ما يؤثر سلبا على نوعية تكوينهم وعرقلة وصولهم إلى المستويات العليا، وعلى هذا المنوال كان الفرنسيون يمارسون سياسة التجهيل على الجزائريين حتى يتمكنوا منهم ويقضون على عقولهم وتفكيرهم ويصبحون أدوات طيعة في أيديهم حتى لا نقول عبيدا عندهم وبهذا يضمنون البقاء في هذا البلد ويستولون على كل خيراته بدون أدنى مقاومة أو تصدي.

2.5.1.4 (سياسة التجويع:

تعرضت نسبة كبيرة من الجزائريين إلى البطالة بسبب عملية الاستيطان التي سلبتهم أراضيهم وصادرتها ومنحتها للمعمرين القادمين من أوروبا ليجعلوا منهم أثرياء وأصحاب أملاك وأراضي بعدما كانوا يعانون من البؤس والحرمان في بلادهم، وذلك حتى يغروهم ويقنعوهم بالبقاء في الجزائر من أجل تعميرها.

وقال "ألبير كامو" أن نصف السكان الجزائريين في منطقة القبائل عاطلون عن العمل وثلاثة أرباعهم يعانون من سوء التغذية وحتى القلة القليلة من الذين يعملون فلم تكن

¹ Camus Albert, Misère de la Kabylie, p 51 – 54.

أجورهم تسمح لهم بإعالة أبنائهم وعائلاتهم لأنها كانت زهيدة جدا، ويقول في هذا المجال: "إن نظام العمل في منطقة القبائل هو نظام العبودية ولا أجد وصفا آخر يمكنني استعماله فيما يخص عمل يعمل فيه العامل من 10 إلى 12 ساعة في اليوم مقابل أجر يتراوح بين 6 و 10 فرنكا فرنسيا،¹ "ومن مظاهر الظلم الاجتماعي للاستعمار (أيضا) غلقه أبواب الكسب الكبيرة في وجوه الجزائريين وفتحها لأبنائه وقصرها على نفسه وحرَم الجزائريين من مصادر الرزق بل عودهم على البطالة وفتح لهم أبواب الفساد الخلفي ودفعهم إليها".²

كما أصر المستعمر على إبقاء الجزائر متخلفة صناعيا، فلم يَقم بأي خطوة لتطوير الصناعات التي وجدها في الجزائر ولم يعمل خاصة على إدخال صناعات حديثة ولا بناء مصانع جديدة فيها حتى يخلق مناصب شغل جديدة للعمال الجزائريين وحتى يتعلموا مهارات جديدة، لأن ذلك "سيرفع من المستوى المادي والاجتماعي [للجزائريين] وينشر الوعي العمالي وبالتالي فقدان المعمرين لليد العاملة الرخيصة [...] وتصبح الصناعة في الجزائر منافسة لمثيلتها في الوطن الأم" (فرنسا)،³ وقد أوضح مدير الشؤون الاقتصادية في هذا الصدد قائلا: "ليس علينا الشروع في تصنيع الجزائر فإن ذلك من شأنه يضعنا بصفتنا -مستعمرة- في موقف عدائي بالنسبة للصناعة الفرنسية"،⁴ وعليه فَضَّلَ المحتل أن يُبقي على الجزائر مجرد خزان للموارد الطبيعية والمواد الأولية والطاقة التي تسيّر المصانع الفرنسية وتعمل على تطوير صناعاتها وتوسيعها، أما في المجال التجاري،

¹ Camus Albert, Misère de la Kabylie, p 44 – 47.

² محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921 – 1975)، ج1، دار البعث قسنطينة، ط1، 1974، ص25.

³ حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 14.

⁴ المرجع السابق، ص 14، 15.

"فكانت الجزائر ملحقا تجاريا فرنسيا، يسيطر عليه المعمرون الذين يلعبون دور الأسياذ والأهالي دور العبيد [...] في حين هم القوة المحركة للاقتصاد الاستيطاني".¹

ومن جراء كل هذه الظروف، كان معظم الجزائريين أثناء فترة الاحتلال يعيشون في حالة مزرية من البؤس الشديد والفقر المدقع إضافة إلى المواد الغذائية التي كانت غير متوفرة إلا لفئة قليلة من المجتمع، فكانت "أيام الشعب محدودة [...] وهي أيام الأعياد والمواسم"،² حين وجود فيها البعض من الجزائريين على إخوانهم الفقراء بقليل من الطعام.

وفي سنة 1936م كان سكان "عين التوتة" و"بريكة" بالجنوب الجزائري يقتاتون من الحشائش البرية "كالقريوة" و"تالغودة" حتى يبقوا على قيد الحياة، وعند "مرور لجنة البحث البرلمانية في مارس 1937م "بعين مليلة"، كان عشرون ألفا من الأهالي يسرعون الخطى في أنهج القرية وهم غاية في النحافة كالأشباح التي لا تزال حية، وقد أسرعوا الخطى لينادوا أمام أعضاء اللجنة أننا نموت جوعا ولم نجد شيئا نأكله حتى جذور "تالغودة" و "الحشيش"، إننا نفضل أن نموت أمامكم، فدوسونا بسياراتكم فإن القياد والحاكم الفرنسي هم الذين صيروننا إلى هذه الحالة القصوى".³

ويُعد هذا المشهد مجرد عينة بسيطة مما كان يعيشه الجزائريون أثناء فترة الاحتلال، وفي السياق نفسه ينقل إلينا أحد الجنرالات الفرنسية وهو "دوكاستيلان" ما شهدته في قوله: كانوا رجالا ينتحرون ، تأكلهم الحمى ، يلبسون أطمارا ، يغطيهم القمل و يغوصون في الوحل ، يتصارعون مع الموت ، كانوا بلا زاد ، يتنازعون فيما بينهم على أحشاء الحيوانات الميتة⁴ كما حدثنا الكاردينال "لافيجري" عن حال الجزائريين المأساوية أثناء مجاعة 1867 و1868م في قوله: "منذ شهور عديدة يوجد عدد كبير من العرب لا يعيشون إلا على

حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 15. ¹

² محمد الصالح بن عتيق، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر 1990، ص 31.

حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره، ص 20، 21. ³

⁴ Colette et Francis Jeanson, L'Algerie hors la loi, pp 33, 34

حشائش الحقول أو ورق الشجر التي كانوا يقضمونها كالبهائم، إنهم يموتون جوعاً، تراهم عرايا إلا من أطمار، ينتقلون جماعات في الطرقات بجوار المدن، فيعمد إلى طردهم تجنباً لأي نوع من خرق النظام وتشاهدهم ينتظرون عربات القمامة ليتنازعوها على ما بداخلها ويلتهموه".¹

هذا وقد شهدت الجزائر العديد من المجاعات التي أنهكتها وأزهقت العديد من الأرواح، ونذكر أهمها:

- المجاعة الكبرى التي عاشها الجزائريون فيما بين 1845م و 1850م والتي أطلق عليها اسم سنوات البؤس.
 - مجاعة 1867م و 1869م التي راح ضحيتها ما بين خمسمائة أو ستمائة ألف شخص.
 - مجاعة سنة 1893م و 1897م كذا 1920م.²
- وكان المتسبب الرئيسي في هذه المجاعات هو الجفاف الذي شهدته الجزائر هذه السنوات.

وكثيراً ما كانت هذه المجاعات تأتي مصحوبة بأمراض وأوبئة خطيرة جداً كـ"الكوليرا" و"التيفوس" مما كان يرفع من عدد الضحايا. و في عام 1868 أحدث وباء التيفوس دماراً في مختلف نواحي البلاد، وقد تفاقم الوضع أكثر في السنة الموالية أي في عام 1869م إذ اجتمعت فيه المجاعة والكوليرا والتيفوس، التي انتشرت في كل البلد، لقد كان الموت يضرب في كل مكان، حتى ظن البعض أنها نهاية العالم، لقد كانت عائلات الفلاحين لا تقف تبحث عن مخرج لها في كل الاتجاهات، "لقد كان مشهد لا ينسى لهؤلاء الناس الذين

¹ Colette et Francis Jeanson, L'Algerie hors la loi, p 36.

المرجع السابق، ص 35.

تحولوا إلى هياكل عظمية، لقد كانوا يجرون أنفسهم بمشقة، بفعل ضعفهم الشديد وتعبهم الذي كان يقطع شهيتهم، لقد كانت معداتهم ترفض أي غذاء، كما كانت الحشرات والطفيليات (القمل) تغمرهم إلى درجة تحسبها تخرج من أجسادهم، لقد كان عدد الموتى منهم كبير".¹

إضافة إلى ذلك، عرفت الجزائر عدة غزوات مدمرة من قبل أسراب من الجراد خاصة في عام 1867م وعام 1869م حيث قضت على الأخضر واليابس، وكانت جثث تلك الحشرات الكثيرة والمتعفنة، فيما بعد، أحد الأسباب الأساسية للعديد من الأوبئة التي ضربت الجزائر حينذاك.²

كانت هذه حال الجزائريين و وضعيتهم المأساوية والمزرية، وقد كان الفلاحون وسكان القرى عامة أكثر تضررا من هذه الظروف مما دفع بأغليبيتهم إلى الهجرة نحو المدن الكبرى بحثا عن عمل لهم وعن مدارس لأبنائهم وعن قوت لعائلاتهم.

6.1.4 (ظاهرة الهجرة:

شهدت الجزائر أثناء فترة الاحتلال نوعين من الهجرات: الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية.

1.6.1.4 (الهجرة الداخلية:

كان سكان القرى يغادرون قراهم جماعات جماعات نحو المدن الكبرى حيث تكون فرص العمل أوفر والحصول عليها أسهل ولكن سرعان ما استقبلوا بالرفض والتصدي، نظرا

¹ Belkhodja Amar, Misère, crimes et famine en temps coloniaux, pp 9, 10.

² المرجع السابق، ص 14، 15. ينظر أيضا

Ageron Charles Robert, Histoire de l'algérie contemporaine (1830-1969), pp 43, 60.

لخوف سكان المدن من هؤلاء المتشردين والمتسولين على أمنهم وسلامتهم وحتى على صحتهم لأن هؤلاء كانوا يحملون بعض الأمراض والأوبئة المنتشرة في قراهم وينشرونها في المدن ولهذا كانوا يعاملون بقسوة وبطريقة سيئة وغالبا ما كانوا يجبرون على العودة إلى قراهم.¹

هكذا وبعد قرن من الاحتلال الفرنسي، كان الجزائريون يهجرون قراهم بدافع من البؤس الشديد وهروبا من الموت الأكيد ليعمروا الأحياء الفقيرة والمعزولة في المدن، أحياء الجوعى والبطالين ومراكز الاحتلال حيث يطمحون إلى إيجاد شيء من الشفقة، وما يسد رمقهم ويشبع جوعهم.² وبهذا الشكل، كانت الأحياء القصديرية حول المدن الكبرى تنمو بسرعة فائقة، وقد صرح "جاك شوفاليي" (Jacques Chevalier) رئيس بلدية الجزائر العاصمة أنه لم يكن عدد المسلمين القاطنين في الأحياء القصديرية في مدينة الجزائر يتجاوز 4800 ساكنا سنة 1938م وقد ارتفع العدد إلى 125 ألف ساكنا سنة 1953م وهو ما يعادل 25 مرة أكثر ؛ كما يوجد بمدينة الجزائر لوحدها حوالي 120 ألف حي قصديري، وكانت هذه الأحياء تنمو كالبرص، حسب المؤلف، وهي تنتشر في كل المساحات المتاحة، وتضم حوالي 80 ألفا من السكان المسلمين المكдسين فيها بشكل غريب وفي ظروف سيئة جدا، وقد كانت القسبة الممتدة على مساحة قدرها 20 هكتارا تأوي ما يربو عن 70 ألف ساكن وبهذا تكون قد حطمت الرقم القياسي العالمي من حيث الكثافة السكانية.³

وبناء على ما سبق، لم تكن الهجرة الداخلية حلا ناجعا لمشاكل الفلاحين والقرويين بل غالبا ما كانت تزيد وضعيتهم صعوبة وحالهم سوءا مما دفع بهم إلى التفكير في حل آخر يتمثل في الهجرة نحو أوروبا وفرنسا على وجه الخصوص.

¹ Belkhodja Amar, Misère, crimes et famine en temps coloniaux, pp 27, 28, 30, 31.

المرجع السابق، ص 77 و ص 92، 93.²

³ Stora Benjamin, Histoire de la guerre d'Algérie (1830 – 1954), p 45, 96, 97, 98.

2.6.1.4 (الهجرة الخارجية:

بعد فترة وجيزة من الاستعمار الفرنسي للجزائر، وبسبب مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، شَدَّ العديد من الجزائريين الرحال نحو المغرب الأقصى أولاً ثم تونس "ولعل القسم الأكبر منهم قد اتجه نحو المشرق العربي، وبالضبط نحو بلاد الشام وخاصة بعد فشل مقاومة الأمير عبد القادر. و تطورت هذه الحركة قبيل الحرب العالمية الأولى وخاصة بعد فرض قانون التجنيد الإجباري. [...] ولكن هذه الهجرات اتخذت شكلاً آخر في فترة ما بين الحربين، وكانت هذه الهجرات في أغلبها نحو البلدان الأوروبية وبالضبط نحو فرنسا".¹ قد كان عام 1871م هو الفترة التي عرف فيها الجزائريون هجرة منظمة نحو فرنسا ولكن بشروط، ولم تعرف بعض التسهيلات إلا سنة 1913م، وفي 1916م "قامت وزارة الحربية الفرنسية بإنشاء مصلحة عمال المستعمرات التي كُلِّفت بتوظيف اليد العاملة، وتوزيعها بفرنسا، وفي 1919م، كان بفرنسا أكثر من 10 آلاف جزائري مستقر بأراضيها [...] وبعد أن كانت الهجرة السابقة فردية يمارسها الرجال فقط [...] ستصبح عائلية بعد 1945م".²

هذا وقد كانت الصناعة الفرنسية في هذه الفترة في أوجها وكانت في حاجة ماسة إلى اليد العاملة وهذا ما جعل فرنسا "تفتح لهؤلاء الفلاحين غداة الحرب العالمية الأولى باب الهجرة [...] لإدارة عجلة مصانع السلاح والذخيرة الحربية، والتحق بهم عدد هام من الجنود المسرحين من الخدمة العسكرية ليشكلوا قاعدة الطبقة العمالية الجزائرية بفرنسا التي ما فتئت تنمو منذ ذلك الحين وتتكاثر إلى أن أصبح أفرادها يُعدون بمئات الآلاف".³

¹ قريشي محمد، الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى (1945 - 1954)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تحت إشراف د/ بن سلطان عمار، جامعة الجزائر، كلية العلوم الانسانية قسم التاريخ، 2001/ 2002، ص 169.

المرجع السابق، ص 170، 171. ²

أحمد منور، ص 46. ³

كما كان العدد الأكبر من هؤلاء المهاجرين من منطقة القبائل التي كان أهلها يعانون الأمرين من ويلات الاستعمار،¹ وقد كان معظم هؤلاء يستقرون في "مرسيليا" حيث مصانع الزيت والصابون، ثم في باريس حيث مصانع الغاز والمواد الكيميائية ومنطقة "بادي كالي" (Pas de Calais) في شمال فرنسا حيث المناجم.² كما كانت منطقة "نانتير" (Nanterre) على وجه الخصوص تجلب أعدادا هائلة من المهاجرين الجزائريين ولاسيما في فترة الثلاثينيات لأنها بلدية شيوعية يسارية منذ 1935م.³

وهكذا عملت فرنسا كل ما بوسعها للقضاء على الجزائريين والجزائريين من خلال سلبهم لأراضيهم وتهجيرهم من مدنهم وقراهم وتجهيلهم وتجويعهم وتشريدهم وقتلهم واضطهادهم حتى يستسلموا ويرضوا بفرنسا سيده عليهم.

2.4 (سياسة المحتل الفرنسي في تونس:

بعدما وطئت أقدام الفرنسيين أرض تونس في ماي من عام 1881م، وقع الباي على المعاهدة التي تنص على "أن الاحتلال مؤقت وأن القوات الفرنسية سوف تحتل جهات على الحدود والشواطئ تراها لازمة لتوطيد الأمن وأن هذه القوات سوف ترحل عندما تكون الإدارة التونسية قادرة على حفظ الراحة والأمن والنظام [...] وأن على حكومة الباي أن تتعهد بمنع إدخال الأسلحة والمهمات الحربية [...] وذلك وقاية لبلاد الجزائر التي تملكها فرنسا".⁴

¹ Camus Albert, Misère de la Kabylie, pp 70, 71.

² Bouchène A., Peysoulou J.P., Tengour O.S., Thénault, Histoire de l'Algérie à la période coloniale, pp 591– 593.

المرجع السابق، ص 582، 583.³

الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، ص 23، 24.⁴

وقد انتهج المحتل الفرنسي سياسة مشابهة للسياسة المتبعة في الجزائر رغم تواجد تونس تحت الحماية وليس الاحتلال الاستيطاني كالجزائر، فقد تمكنت من احتواء كل النشاطات المحلية واستولت على تجهيز واقتصاد البلاد من غير واسطة، وحشت البلاد بالمؤسسات الخيرية، وأقامت جنب المدارس الإسلامية جهاز تدريس مشابه تماما للتعليم في الجزائر، ونتيجة لضعف الموارد المحلية، فقد كانت كل هذه تتم بصورة مصغرة و بشيء من الصعوبة¹

أما فيما يتعلق بالتعمير وسلب الأراضي، فقد انتهجت فرنسا الطريقة نفسها التي سلكتها في الجزائر "ولكن بطرق أنجع وأفيد وأذكى لأن فرنسا استفادت من تجربتها في الجزائر".² و"على غرار ما حصل في الجزائر، جرى نهب الأراضي في تونس على نطاق واسع إلا أنه سار بوتائر أسرع، وعملت السلطات الاستعمارية كل ما في وسعها لتشجيع و حتى لتنظيم الاستيطان الفرنسي [...] واستحوذ الفرنسيون على معظم الأراضي بطريقة خاصة وبدون معونة مباشرة من السلطات".³

وعليه، قامت السلطات الفرنسية بعد الحماية مباشرة بالعمل على تشجيع الفرنسيين والأوروبيين على الهجرة إلى تونس "دون مراعاة اختلاف الوضع القانوني بين المحمية والمستعمرة"،⁴ إضافة إلى ذلك، كانت عملية التعمير هذه تشكل خطورة كبيرة على تونس نظرا لقلّة الكثافة السكانية فيها، فلم يكن عدد سكانها يتجاوز المليون ونصف المليون

¹ Hardy Georges, Histoire sociale de la colonisation française ,Editions Larose, Paris 1953, p 162

عبد المجيد حنون، ص 26.²

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 336.³

⁴ صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 197.

نسمة عند فرض الحماية عليها ولم يتزايد كثيرا بعد ذلك نظرا "لاستيلاء الأوروبيين على قسم كبير من الثروة الزراعية ومعظم الصناعة ثم الثروة المعدنية بأكملها".¹

وبهذا الشكل ، كانت الحماية تتحول شيئا فشيئا إلى استعمار ، ولعل أول خطوة اتخذتها فرنسا في هذا المجال هو "إصدار مرسوم في فبراير 1892، يقضي بضم الأراضي البور إلى ملكية الدولة، وقد أدى ذلك إلى الاستيلاء على مساحات شاسعة في جنوب صفاقس حيث استطاع الأوروبيون أن يشاركوا في إنتاج الزيتون، [...] والخطوة الثانية هي الاستيلاء على الأوقاف الخيرية [...] والخطوة الثالثة هي التوسع في تفسير الأملاك الأميرية أو الدومين.

فعندما وضعت الحماية سنة 1881م، كانت أملاك الدولة لا تتجاوز 100 ألف هكتار وسرعان ما ابتلعها الاستعمار الأوروبي وبحث عن مصادر جديدة. [...] وقد استمرت الحماية على أتباع سياسة اغتصاب الأراضي حتى بلغ مجموع ما يمتلكه الأوروبيون بعد الحرب العالمية الثانية 770500 هكتار".²

كما قام المحتل بإنشاء أربع جمعيات زراعية رأسمالية استحوذت على مساحة قدرها 34 ألف هكتار، وفي عام 1897م قدر عدد ملاك الأراضي من الأوروبيين في تونس بحوالي 275 مالكا لمساحة تبلغ 476 ألف هكتار.

زيادة على ذلك، احتكر المستعمر الفرنسي مختلف الأراضي الغنية بالمعادن كالحديد والفوسفات وضمها إلى الأملاك العمومية ثم سرعان ما تولى عنها للشركات الفرنسية لتقوم باستغلالها مقابل مبالغ زهيدة جدا.³

صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 198، 199. ¹

² المرجع السابق، ص 199، 200.

المرجع السابق، ص 200، 201. ³

ومن هنا تتجلى السياسة الفرنسية في تونس والتي لا تختلف في جوهرها عما هي في الجزائر "رغم اختلاف الأوضاع السياسية، فقد تمكنت من احتواء كل النشاطات المحلية واستولت على تجهيز واقتصاد البلاد من غير واسطة، وحشت البلاد بالمؤسسات الخيرية لضعف الموارد المحلية".¹

وبهذا حرم العديد من الفلاحين التونسيين من أراضيهم وجعلوا منهم يدا عاملة حرة للزراعة والمناجم والصناعة والمواصلات لأنهم لم يعودوا يملكون سوى أيديهم وخدماتهم وصحتهم التي باتوا يعرضونها على أصحاب العمل (المحتل) عليهم يفوزون بوظيفة لديهم،² الوظيفة التي كانت صعبة المنال حينذاك لقد كانت فئة قليلة من أصحاب المزارع الكبيرة والأُملاك الضخمة هي المتحكمة في سوق العمل وكانت تسيّره حسب ما يناسب مصالحها وعليه كان معظم الفلاحين التونسيين يعيشون في بطالة وحتى الذين يعملون لم تكن حالهم تختلف كثيرا نظرا للأجور الزهيدة جدا التي كانوا يتقاضونها، وجراء ذلك كان الكثير منهم يعيشون في حالة مزرية بل ومرعبة ولاسيما فيما يتعلق بالجانب الغذائي وقد كشفت دراسة الدكتور "بورنيت" (Burnet) في سنة 1937 و1938 أن 11 شخصا من كل 100 عائلة لا يملك الحد الأدنى من الغذاء اليومي و 15 شخصا آخر يعاني من سوء التغذية و 22 منهم يعانون من سوء تغذية شديدة و 17 منهم يعيشون في حالة البؤس الغذائي لأنهم لا يصلون إلى الحصول على 1000 سعرة حرارية في اليوم.³ هذا وقد "تلقى الاقتصاد التونسي ضربة قاصمة عندما غُمرت الأسواق التونسية بالبضائع الفرنسية، فاحتضر الإنتاج الحرفي وبذلك حرم الكثير من التونسيين من العمل".⁴

¹ Hardy Georges, Histoire sociale de la colonisation française, p 162.

² Charles André Julien, L'Afrique du nord en marche, Algérie, Tunisie, Maroc (1880 – 1952), Omnibus, 2002, p 55.

المرجع السابق، ص 55.³

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث ، ص 329⁴

وبهذا تقضي فرنسا على الفلاح والحرفي التونسي بشكل نهائي وهذا ما يفسر درجة الفقر والبطس والحرمان التي بلغها التونسيون حينذاك، وكانت هذه الأوضاع الصعبة أحد الأسباب الأساسية التي دفعت التونسيين إلى الهجرة نحو أوروبا عليهم يخرجون من تلك الوضعية ويضمنوا، على الأقل، الحد الأدنى من الظروف المعيشية الكريمة لهم ولأسرهم، وقد بلغ عدد المهاجرين التونسيين إلى فرنسا 10 آلاف مهاجرا سنة 1924م وقد ارتفعت هذه النسبة بعد الحرب العالمية الثانية كما لم يتوقف ذلك الوابل من البشر الذين كانوا يتدفقون على أوروبا حتى بعد الاستقلال حيث بلغ عددهم 100 ألف مهاجرا عام 1971م، حسب وزارة الداخلية الفرنسية.¹

3.4 سياسة المحتل الفرنسي في المغرب الأقصى:

تعود العلاقات الفرنسية المغربية إلى زمن بعيد أي إلى حوالي القرن السابع عشر، وكانت طبيعة هذه العلاقات تجارية بالدرجة الأولى ولعل السبب في ذلك يعود إلى كون المغرب مملكة مستقلة عن الدولة العثمانية التي كانت تحت حمايتها كل من الجزائر وتونس ولهذا كانت الاتفاقيات والعقود وغيرها من التعاملات تتم بشكل مباشر ودون أي وسيط، وفي عام 1767 "وقعت فرنسا وسلطان مراكش اتفاقية [...] خلافا لاتفاقية 1631 وحيدة الطرف، أي ينتفع منها الرعايا الفرنسيون المقيمون في مراكش دون أن تشمل الرعايا المراكشيين المقيمين في فرنسا، واستنادا لاتفاقية 1767 توسعت أيضا امتيازات التجار والمقيمين الفرنسيين والمستوطنين توسعا كبيرا إذ أنهم أصبحوا لا يتمتعون بالحصانة القضائية فحسب بل وأيضا بالإعفاءات الضرائبية".²

¹ Simon Gildas, Noin Daniel, La migration maghrébine vers l'Europe, in Cahiers d'outre-mer n°99, 25^{ème} année, Juillet-septembre 1972, p 245.

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ص 344.²

هذا وقد تنافست العديد من الدول الأوروبية على المغرب أمثال إيطاليا وانجلترا وفرنسا، ولولا هذه المنافسة الشديدة لاستولت عليها قبل عام 1912م بكثير.¹

وقد أسهم الماريشال "أوبير ليوتي" (Hubert Lyautey) في وضع الحماية الفرنسية على المغرب وقد عين كأول مقيم عام للمغرب من 1912 إلى 1925، كما صرح بأن "الدولة المحمية تحتفظ بأنظمتها وحكومتها الخاصة وأن تحكم نفسها بنفسها عن طريق هيئاتها المنظمة... ومراكز دولة مستقلة تعهدت فرنسا بحمايته على أن تظل تحت سيادة السلطان مع الاحتفاظ بنظام الحكم الذي اتخذته".²

ويرى البعض من الدارسين أن "ليوتي" كان من أنصار الحكم الملكي ولهذا "أراد أن يختفي وراء النظام الملكي المغربي حتى يمارس سياسته ويطبق آراءه، كما احترم [...] روح الحماية فأبقى على أجهزة الإدارة الوطنية دون المساس بها [...] ولكن يمكن القول بأنه أبقى عليها كتراث تاريخي يحافظ عليه كما يحافظ على الآثار".³

وبعدما استقر الفرنسيون في المغرب بدأ المقيم العام الفرنسي "ليوتي" ببعض التعديلات على الإدارة المغربية التي قسمها إلى ثلاثة أقسام كُلٌّ منها مستقل عن الآخر. ويتمثل القسم الأول في إدارة المملكة المغربية التي حافظ عليها كما هي. أما القسم الثاني فهو خاص بالإدارة الشريفة ويتولاها المثقفون المغربيون.

وأما القسم الثالث وهو خاص بالإقامة العامة التي تسيطر على كل السياسة المغربية لأنها تمسك بيدها أهم المناصب والأجهزة في البلاد: كالدفاع والخارجية والأمن وغيرها كما كان يشرف عليها الأوروبيون.

لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ، ص 15.¹

صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 279.²

المرجع السابق، ص 279.³

هكذا جعل ليوتي كل الأجهزة المهمة والحساسة في يد الفرنسيين مع ترك الفئات للمغاربة حتى يوهمهم أنهم غير محتلين.¹

إضافة إلى ذلك، "لم يشجع ليوتي" الهجرة الأوروبية، ولا سيما الاستيطان الزراعي [...] ومع ذلك فقد كان تيار السياسة الاستعمارية أقوى من أن يقاومه "ليوتي"، فدخل مراكش في عهده نحو 1000 مستوطن زراعي، علاوة على عدد أكبر من أصحاب الحرف ورجال الأعمال والتجارة في المدن، وقدم "ليوتي" نفسه مساحة الأراضي التي تملكوها في عهده 400000 هكتار.² وفي عام 1926م استقال "ليوتي" من منصبه، وبعده شُكِّلَ مجلس للحكومة الذي كان خاصا بالدرجة الأولى بالأوروبيين المتواجدين في المغرب وفي عام 1948 أضيف إليه قسم مغربي.

وقد كان هذا المجلس يخالف السياسة التي ينبغي سلوكها تحت إطار الحماية، ولم يكن "ليوتي" راض على ذلك المجلس وتلك السياسة معا، ويتجلى هذا في التصريح الذي قدمه يوم 24 نوفمبر 1929 في اجتماع الغرف التجارية والزراعية الفرنسية: "إن مراكش دولة مستقلة وهي بوصفها هذا تظل تحت سيادة السلطان ولا محل للنظم السياسية الفرنسية في هذه البلاد، ولمواطنيها الفرنسيين أن ينشئوا لأنفسهم هيئات في هذه البلاد كما أن لهم أن يتمتعوا بالحقوق المهنية لكن ليس من حقهم أن يتمتعوا في مراكش بالحقوق السياسية"³ ولكن لم يحافظ الحكام الفرنسيون الذين تسلموا السلطة في المغرب بعد "ليوتي" على قوانين الحماية التي كانت تتراجع شيئاً فشيئاً لتحل محلها السياسة الفرنسية وقوانينها التي كانت تفرض ذاتها أكثر فأكثر على الساحة السياسية المغربية، إضافة إلى فتح باب الهجرة واسعا لتعمير المغرب.⁴

صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 279، 280.¹

المرجع السابق، ص 280، 281.²

صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 281.³

⁴ Weibel Ernest, Occident Maghreb 13 siècles d'histoire, Ellipses, p 484.

وقد كان المعمرون الفرنسيون لا يفتئون يبررون تواجدهم في المغرب بكونهم هم الذين جعلوا من المغرب دولة حديثة سياسيا و اقتصاديا و هم "الذين وسعوا رقعة الأراضي المزروعة ونقبوا عن المعادن الوفيرة في البلاد [...] إلا أن الوطنيين المغاربة قدموا الأرقام التي تثبت أن الجزء الأكبر من هذه الثروة كان يذهب إلى خزائن الفرنسيين من رجال الصناعة والزراعة".¹

وفي العقد الثاني من القرن العشرين "أنشأت قوانين لاقتطاع الأراضي من المغاربة باسم الاستعمار ومنحها للمعمرين الأوروبيين [...] وأخذت الدولة تشجع هؤلاء المعمرين باقتطاع الأراضي وبالقروض والعطاءات والإصلاحات العمرانية التي تجعل حياتهم في رفاه، وكل ذلك على حساب المواطن المغربي الذي كان يزداد بؤسا كلما تمكن الأجنبي القادم من فرنسا من تنظيم حياته الاقتصادية ليزداد غنى".²

وهكذا كان المحتل الفرنسي يستولي على خيرات المغرب ويحرم أهله الأصليين منها، مما صعب حياتهم أكثر وباتوا غير قادرين على ضمان معيش أسرهم ولاسيما في القرى حيث كان العدد منهم يتنازلون عن أراضيهم الخصبة والغنية، كقبيلة "بني مطير" في سهول "مكناس" التي وجدت نفسها مرغمة على الاتجاه نحو الهضاب والجروف وكان أهلها يقومون بخدش المساحات الصخرية علهم يتمكنوا من إيجاد ما يسمح لهم بربح بعض الأموال القليلة جدا، وذلك بعدما استقر المعمرون في تجمعات خاصة بالأهالي وكانوا يستغلون أراضيهم بأسعار زهيدة جدا بفضل نظام الكراء أو الاستئجار الدائم، إضافة إلى ذلك حُرِم الرحالة من البدو في الأطلس الأوسط من استعمال المراعي التي دأبوا الرعي فيها منذ عهود طويلة كما مُنِع سكان الجنوب من الأمازيغ من أراضيهم ومن استغلال منابع المياه، وهما مصدران حيويان بالنسبة إليهم، وهذا بعدما استولى عليها الإقطاعيون

صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص 282.¹

² عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الشركة المغربية للطبع والنشر، الدار البيضاء المغرب، 1976، ص 31.

ممن كانوا من المقربين للفرنسيين،¹ كما كانت بعض القبائل من منطقة "الريف" تعيش في بؤس شديد جراء الاحتلال الأوروبي (الفرنسي) للمغرب، أما الإقطاعيون فكانوا يعيشون من تجارة الرقيق.²

وعلى هذا المنوال، كان سكان القرى والأرياف في المغرب يعيشون حياة قاسية جدا جراء الاحتلال: من قبل المعمرين تارة ومن قبل الإقطاعيين المقربين من الفرنسيين تارة أخرى، ولعل ما زاد الأوضاع تفاقمًا هو النمو الديمغرافي السريع الذي شهده المغرب في النصف الأول من القرن العشرين مما زاد الفقراء فقرًا وجوعًا وتعبًا، وقد كان أحد الفلاحين في منطقة "الظهير" عام 1945، حسب أحد المؤرخين، يدفع المحراث بصعوبة شديدة وهو يتمايل يمينا ويسارا من شدة الضعف وكأنه في حالة من السكر أو التخدير. وزد على ذلك ارتفاع نسبة وفيات الأطفال وانتشار الأمراض المختلفة ولأسيما التتاسلية كداء الزهري.³

وإلى جانب ذلك، كان التعليم في المغرب كما هو في الجزائر وتونس تعليمًا تقليديًا يمارس في المساجد والجوامع وعندما فرضت الحماية على المغرب حاول المحتل تعويضها بمدارس حديثة تعتمد أساسًا على البرامج الفرنسية الموجهة للأطفال الفرنسيين أما المغربيين فلم يكونوا معنيين بها كالتاريخ الفرنسي والعادات والتقاليد الفرنسية المختلفة تمامًا عن الواقع المغربي وثقافته، كما لم يكن يسمح لكل أطفال المغرب بالالتحاق بتلك المدارس لأنها عاجزة عن احتوائهم كلهم.⁴

وعليه وجد المغاربة أنفسهم أمام خيارين صعبين: البقاء في البؤس والفقر والجهل والمرض أو الهجرة بحثًا عن أوضاع أحسن.

¹ Charles André Julien, L'Afrique du nord en marche, p 56.

² المرجع السابق ، ص 35

³ المرجع السابق ، ص 56 ، 57

عبد المجيد حنون، ص 28، 29.

وبناء على ذلك كانت الآلاف من المغربيين يتجهون نحو المدن الكبرى طلبا للقامة العيش الكريمة ولظروف حياتية أحسن، فقصدوا الأحياء التي يسكنها الأهالي وهي في الغالب أحياء قصديرية فقيرة أو أكواخ قذرة تعكس حال سكانها، لقد كان أملهم هو الحصول على وظيفة وتوفير المال الكافي والعودة مرة أخرى إلى قراهم حيث أهلهم وذويهم واسترجاع أراضيهم المسلوبة منهم أو شراء أراضي أخرى ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ولا البساطة إذ صادفتهم عراقيل كثيرة في المدن مما زاد من سوء حالهم وهذا ما دفع بهم إلى الهجرة نحو أوروبا (فرنسا) حيث كانت صناعاتها في ازدهار وكانت مصانعها لا تفتأ تطلب المزيد من اليد العاملة، ولكن سرعان ما صادفتهم مشاكل أخرى لأنهم كانوا يفتقرون إلى الكفاءة المهنية مما جعلهم يتجهون نحو حرف أخرى كالتجارة أو بعض الحرف التقليدية التي لم تكن مربحة خاصة قبل الحرب العالمية الأولى.¹

وتعود هجرة المغربيين إلى أوروبا إلى حوالي 1909 و1910م أي قبيل فرض الحماية الفرنسية على بلدهم و كانت محتشمة جدا ولكن سرعان ما بدأت الأعداد تتزايد بعد الحماية مباشرة،² وتضاعفت بعد الحربين العالميتين بفضل إزالة بعض العراقيل الإدارية التي كانت تعرقل هذه العملية ثم طلب الصناعة الفرنسية للمزيد من اليد العاملة.

وقد شهدت المغرب موجتان كبيرتان من الهجرة: كانت الأولى فيما بين 1919 و1931، والثانية فيما بين 1931 و1942.³

¹ Charles André Julien, L'Afrique du nord en marche, p 57.

² Bokbot Mmed Moha, Fareh Ali, un siècle d'émigration marocaine vers la France, Aperçu historique, université Sidi Mohamed, B. Abdellah, Fès, Papels de Geografia , 2010, p 57.

³ المرجع السابق، ص 60.

5 (نهضة سكان المغرب الكبير:

لقد استطاع المحتل الفرنسي أن يدمر سكان منطقة المغرب الكبير ماديًا ومعنويًا مما أدى بهم إلى الاستسلام للأمر الواقع وقبوله كقدر مكتوب عليهم ولا يملكون أي وسيلة أو قدرة على رده، وبقي الحال على ما هو عليه حتى الأربعينات من القرن العشرين حين انتفض هؤلاء، كُلٌّ في بلده، لقد هبوا كلهم وناضلوا سياسيًا ثم عسكريًا ضد المستعمر الغاشم. ولم يكن بإمكانهم أن يصلوا إلى ذلك المستوى لولا بعض العوامل التي أسهمت بقوة في توعيتهم ودفعهم إلى الثورة على أوضاعهم المزرية بهدف التغيير والاستقلال، ومن بين هذه العوامل نذكر:

1.5 (تأثيرات الهجرة إلى أوروبا:

لعل أول ما فتح أعين المغاربة على واقعهم هو هجرتهم إلى أوروبا حيث اختلطوا بالعمال الأوروبيين الذين كانوا يتحدثون عن حقوق الإنسان وحقوق العامل (العمال) خاصة من خلال بعض النقابات العمالية حينذاك، زيادة على ظهور بعض الأحزاب السياسية التي كانت تتادي ببعض الأفكار التحررية ولاسيما اليسارية منها وكذا بعض الصحف وغيرها.

2.5 (تأثير النهضة الروحية في المشرق:

لقد كان للحركة الروحية في المشرق العربي بقيادة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده "أثر كبير في المغرب العربي: في بداية القرن العشرين كان لمرور الشيخ محمد عبده بالجزائر أثر مشجع على بعض الأوساط وبعض الطبقات الشعبية".¹

عبد المجيد حنون، ص 38.¹

3.5 (تأثير الحرب العالمية الأولى:

لقد تركت الحرب العالمية الأولى (1914-1918) أثرا إيجابيا على سكان الشمال الإفريقي خاصة بعد هجرة الوفود الكبيرة منهم إلى فرنسا حيث احتكوا "بالقيادات السياسية الجديدة وبأنماط الحياة وتأثروا بالغ الأثر بما رأوا وما سمعوا"،¹ كما تعلموا لغات جديدة واطلعوا على عادات وتقاليد وأفكار غير معروفة لديهم أسهمت في "تنمية وعيهم وتعميق إدراكهم".²

4.5 (تأثير الحرب العالمية الثانية:

أزاحت الحرب العالمية الثانية كل غموض أو لبس على الكثير من الأمور والقضايا التي لم تكن واضحة ولا مفهومة لدى المغاربة من قبل، ومن خلالها لاحظوا مدى "ضعف فرنسا التي لم تستطع حماية نفسها أمام ألمانيا، كما لم تستطع حماية مستعمراتها"³ و أدركوا أيضا مدى "لهفة الفرنسيين على حريتهم ومع ذلك فلم يتغير شيء، بل زادت سطوة الفرنسيين وخاب أمل المغاربة نهائيا في فرنسا التي شرعت في سياسة جديدة دعامتها الأساسية التتكيل بالأهالي"،⁴ وهذا ما حدث بالفعل في الجزائر من خلال مجازر 8 ماي 1945م والتي استشهد فيها حوالي 45 ألف جزائري، ومن هنا "انكشفت الشعارات واتضحت التمويهات، ورأى الجزائريون الحقيقة عارية، كل وعود فرنسا كاذبة [...] لقد كانت تهاجم الفاشية والنازية والاستعمار ولم تنزع عنها صفة المستعمر لقد خابت كل الآمال"،⁵ ولم يبق لديها سوى الكفاح المسلح لأن ما أخذ بالقوة لا يمكن أن يُسترجع إلا بالقوة وهكذا بدأ الكفاح المسلح في مختلف أقطار المغرب العربي ولم يتوقف حتى حازت

عبد المجيد حنون، ص 40.¹

المرجع السابق، ص 41.²

المرجع السابق، ص 41.³

المرجع السابق، ص 42.⁴

المرجع السابق، ص 44.⁵

هذه البلدان كلها على استقلالها في عام 1956م بالنسبة لتونس والمغرب وفي عام 1962م بالنسبة للجزائر.

لقد عاث المحتل الفرنسي فساداً في المنطقة المغربية فور دخوله إليها، لقد سلب الفلاحين أراضيهم وقضى على التجارة والصناعة وحطم التعليم ونشر الجهل والبطالة والفقر والجوع والأمراض والأوبئة الخطيرة كما جرد المواطن المغربي من كل حقوقه وهو في وطنه حيث كان يشعر بالعجز والغربة والإحباط مما دفعه إلى الهجرة إلى أوروبا حيث احتك بعمال أوروبيين وأدرك وجود العديد من القوانين المدافعة عن حقوق الإنسان وحقوق العامل إضافة إلى مشاركته في الحربين العالميتين الأولى والثانية وما تبعهما من أحداث عنف وتتكيل بهذه الشعوب التي لم يعد أمامها من خيار سوى التفكير في كيفية استرجاع استقلالها وسيادتها وحقوقها من أجل العيش الكريم.

6 (الرواية المغربية في القرن العشرين:

وفي خضم هذه الظروف الصعبة والقاسية ظهر فن الرواية في الأدب المغربي وبرز بشكل كبير لأنه هو القادر على مواكبة مختلف التغيرات والمنعطفات التي كانت تشهدها منطقة المغرب الكبير على مختلف الأصعدة حينذاك. وقد مر فن الرواية بمراحل عدة قبل أن يصل إلى مرحلة النضج والإبداع و من أهمها نذكر:

1.6 المرحلة الأولى للرواية المغربية :

لقد حاول روائيو هذه الفترة الممتدة من بداية القرن العشرين إلى منتصفه (1900- 1950م) حسب جان ديجو،¹ أن يثبتوا قدرتهم على الكتابة بلغة فرنسية سليمة وراقية وأن يصوروا مجتمعاتهم لكن من الخارج ومن خلال عيون الآخرين لها ودون التغلغل إلى

¹ Déjeux Jean, La littérature algérienne contemporaine, PUF, 1975, p 59.

الأعماق حتى يبينوا محاسن ومساوئ المحتل على واقعهم وأن يبهروا الآخر بفولكلورهم وعاداتهم وتقاليدهم وتراثهم العجيب.¹

ومن أهم ممثلي هذه الحقبة نذكر:

القائد محمد بن شريف برواية "أحمد بن مصطفى غوميه" عام 1920 وحاج حمو برواية "زهرة زوجة المنجمي" عام 1925 ومحمد ولد الشيخ وعيسى زهار وماري لويز طاوس عمروش بروايتها "الياقوتية السوداء" (Le Jacinthe noir) عام 1945م وجميلة دباش برواية "ليلي، شابة من الجزائر" عام 1947م وغيرهم،² ومن تونس يتجلى لنا بشير خريف وعلي الدوعاجي ومحمود مسعدي، ومن المغرب نذكر تهامي الوزاني برواية "الزاوية" عام 1942 وعبد المجيد بن جلون برواية "الطفولة" 1949.³ ولعل أهم إشكال واجه هؤلاء الروائيين هو "كيف يمكننا أن نبقي كما نحن ونكون كالآخر في الوقت نفسه؟"⁴ وعليه كانت هذه المرحلة مرحلة تقليد للرواية الفرنسية سواء لمن كتب باللغة العربية أو بالفرنسية.⁵

وهناك البعض الآخر من الدارسين الذين لا يعتقدون كثيرا بهذه الروايات لأنها تمثل الإرهاصات أو البدايات الأولى للرواية المغربية، ومن هنا كانت المرحلة الأولى للرواية المغربية لديهم تنحصر ما بين 1945 و1953م فهي تمثل البداية الفعلية لها، وقد "سادت في هذه الحقبة التاريخية الرواية الأنتوغرافية التي لا تزيد على وصف ما تراه العين يوميا. [...] فواقعيتها كانت واقعية انتقادية مع الإشارة هنا إلى كثير من الكتابات

¹ Déjeux Jean, La littérature algérienne contemporaine,, p 60.

² المرجع السابق، ص 60.

³ جمال الدين بن شيخ، معجم آداب اللغة العربية والأدب الفرنكوفوني المغربي ترجمة د/ مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 2008، ص 258.

⁴ Déjeux Jean, Maghreb littérature de langue française, Arcantère éditions ,Paris 1993, p32.

⁵ المرجع السابق، ص 35.

التي تجاوزت بعض التعريفات المتحجرة للواقعية "الفوتوغرافية" فراحت تقوم بعملية انتقاء واعية للأحداث باحثة عن الجوهر في العالم الذي تصوره".¹

ومن أهم ممثلي هذه المرحلة: أحمد رضا حوحو برواية "غادة أم القرى" في عام 1947 وعبد المجيد الشافعي برواية "الطالب المنكوب" ومولود فرعون بروايتيه: "ابن الفقير" عام 1950 و"الأرض والدم" في عام 1953، ومحمد ديب برواية الدار الكبيرة في عام 1952 ومولود معمري برواية "الربوة المنسية" عام 1952.

2.6 (المرحلة الثانية للرواية المغربية :

ويحصرها "جان ديغو" فيما بين 1950 و1956م، وهي تمثل حسب رأيه، مرحلة البوح عن الانزعاج المسيطر على المجتمع الجزائري جراء أحداث 8 ماي 1945م ووضعيات البؤس والفقر وتصاعد التيار الوطني ونشاط الأحزاب الوطنية العاملة لأجل الاستقلال الذي بات يتضح أكثر فأكثر ويؤثر في أوساط المثقفين: كالمفكرين والمتعلمين والكتاب والروائيين الذين أصبحوا يطرحون في اغترابهم المشكل الأكبر المتمثل في الهوية: من أكون؟²

ومن أهم أدباء هذه المرحلة نذكر: مولود فرعون ومحمد ديب ومولود معمري من الجزائر و أحمد سفريفيوي و إدريس شرايبي من المغرب وألبير ميمي (A. Memmi) من تونس.³

وهناك من يحصر هذه المرحلة فيما بين 1954 و1958م، ويرى أن الرواية المغربية عامة والجزائرية خاصة أصبحت أكثر نضجا في هذه الفترة، "فقد دخل الكاتب أجيج الثورة

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 75. ¹

² Déjeux Jean, La littérature algérienne contemporaine, pp 62, 63.

المرجع السابق، ص 63. ³

محاولا البحث عن أسلحة أكثر فعالية وأساليب أكثر بساطة لإيصالها إلى الجمهور مساهمة منه في تحريكه نحو "الفعل الثوري" الفعال".¹

3.6 (المرحلة الثالثة للرواية المغربية :

وتمتد حسب "جان ديجو" من سنة 1956م إلى سنة 1964م، وقد كانت هذه الحقبة مرحلة إثبات للذات وللنضال، كما تواصل فيها نشر الأعمال "الملتزمة" والخاصة بمعالجة موضوع الثورة حتى بعد استقلال شعوب المغرب الكبير.² ومن أهم أدباء هذه الفترة مولود فرعون ومحمد ديب ومولود معمري وكاتب ياسين الذي برز بروايته الشهيرة "نجمة" التي لم تعكس الواقع الثوري من خلال مضامينها فحسب بل الثورة على المستوى الفني أيضا.

وهناك أيضا من يحصر هذه الفترة فيما بين 1958 و 1962، وفيها تطور "أدب المقاومة أكثر واخذ أبعاداً أكثر شمولية واتساعا، فبعد أن كان يبشر بالحرب في بدايته أصبح يقدس الشهادة في سبيل الوطن ويمجد بها ويرسم تباشير الاستقلال التي بدأت تلوح في الأفق".³

وبعد استقلال منطقة المغرب الكبير، شهدت الرواية سواء المكتوبة منها بالفرنسة أو العربية تطورات وتغيرات كثيرة سواء على مستوى المضامين والموضوعات أو على المستوى الفني والجمالي، لقد بات الأدباء يبحثون عن قضايا جديدة في واقعهم الجديد وأرادوا التخلص من موضوعات الثورة والمحتل والبحث عن كيفية الخروج من قوقعة الماضي والاهتمام بالواقع الجديد وبمختلف قضاياها و ودخول عوالم الإبداع الجديدة بكل

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 76.¹

² Déjeux Jean, La littérature algérienne contemporaine, p 72.

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 76.³

جرأة وثقة والعمل على تطوير فنونها الأدبية ولاسيما فن الرواية الذي تخلص من القوالب التقليدية التي تجاوزها الزمن.

وقد عرفت هذه الفترة العديد من الأسماء الكبيرة أمثال عبد الحميد بن هدوقة ورشيد بوجدره ورشيد ميموني والطاهر وطار، كما طور محمد ديب كتاباته سواء في مجال الشعر أو في الرواية، إضافة إلى عبد اللطيف اللّبي ومحمد شكري ومحمد خير الدين، والطاهر بن جلون في المغرب ومحمد العروسي المطوي و محمد مدب وغيرهما في تونس.

هكذا كانت الرواية المغربية منذ بداية القرن العشرين تتبّع واقعها المعيش بكل دقة وأمانة وكانت تسعى جاهدة إلى نقله والكشف عن أهم حقائقه مهما كانت صعبة أو خطيرة.

هذا وقد ولدت الرواية المغربية بفضل الاحتكاك بينها وبين الرواية الفرنسية بحكم الاحتلال الذي تعرضت إليه شعوب المغرب الكبير و قد اقتفى الروائيون المغاربة آثار الروائيين الفرنسيين ولاسيما الكبار منهم وحذوا حذوهم خاصة في تناولهم لظاهرتي الفقر والبطس المنتشرتان بشكل ملحوظ في كلا المجتمعين، وهذا ما سنتطرق إليه وإلى مختلف تفاصيله في الأجزاء الموالية من البحث.

ثانياً:

القسم التطبيقي

الباب الثالث:

ظاهرتا الفقر والبؤس في

الروايتين الفرنسية والمغربية

الباب الثالث

الفصل الأول:

ظاهرة الفقر في الروايتين

الفرنسية والمغاربية

كان القرن التاسع عشر في فرنسا حافلا بالأحداث في مختلف الأصعدة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية، كما كان عصر الثورة الصناعية والابتكارات العلمية وكذا الصراعات السياسية والاجتماعية والثورات على الأنظمة المختلفة من نظام إمبراطوري إلى نظام ملكي إلى نظام جمهوري، كما شهدت هذه الحقبة الزمنية أيضا أكبر النضالات العمالية ضد أرباب العمل وأصحاب الأموال الذين يحتكرون سوق العمل حينذاك وكانوا يستغلون العمال بصورة لا إنسانية إذ كانوا يشغلونهم لفترات طويلة قد تتجاوز الإثني عشرة ساعة في اليوم وفي أوضاع صعبة وشاقة ولاسيما عمال المصانع والمناجم مقابل أجور زهيدة جدا مما جعل أحوال العمال وأبناء الطبقات الشعبية البسيطة في اندثار مستمر بعد أن ظنوا أنهم تخلصوا من النظام الإقطاعي وجوره واستبداده و بدئوا يحلمون بحياة أفضل ويقتنعون أنهم سيخرجون من حياة الفقر والبؤس وأن شعار الثورة الفرنسية المتمثل في "الحرية والأخوة والمساواة" سيتحقق على أرض الواقع ولكنهم سرعان ما اصطدموا بحقيقة صعبة ومريرة تتمثل في وقوف أصحاب الجاه والنفوذ في أوجههم والحلول دون تحقيق طموحاتهم بل والعمل على إبقائهم على حال الفقر والعوز وبهذا تدهورت حالهم وأصبحوا عاجزين على توفير قوت يومهم وقد بات الخبز حينذاك حلم الكثيرين منهم، هذا الخبز بالذات كان من بين العوامل الأساسية التي أدت إلى اندلاع الثورة الفرنسية عام 1789م والتي أطلق عليها أيضا اسم ثورة الخبز نظرا للحادثة الشهيرة التي تناقلها المؤرخون والمتمثلة في تساؤل ملكة فرنسا "ماري أنطوانيت" (Marie Antoinette) زوجة الملك لويس السادس عشر عن مصدر الضجيج الذي يصل إلى أسماعها من خارج القصر وقيل لها: إنه الشعب الذي يطالب بالخبز، وقالت: أعطوه الخبز، وقيل لها ليس هناك خبز، فأجابت: إذن أعطوه كعكاً!!!، وهذا ما يعكس الهوة العميقة والشاسعة الفاصلة بين الحكام والشعب حينذاك.

وعلى هذا الأساس وجد الشعب الفرنسي نفسه ينتفض مرة أخرى على الطبقة البورجوازية التي أخلفت كل وعودها ورفضت احترام مبادئ الثورة الفرنسية وشعارها والالتزام بما ورد في الوثيقة العالمية لحقوق الإنسان المعلنة عام 1789م مفضلة بذلك تحقيق مصالحها وصنع مجدها وسعادتها على حساب الطبقة الشعبية المعدمة والبنائسة.

وفي المقابل كانت منطقة المغرب الكبير تعيش تحت نير الاحتلال الفرنسي وذلك منذ عام 1830م وهو تاريخ احتلال الجزائر ومن ثم فرض الحماية الفرنسية على تونس عام 1881م ثم على المغرب عام 1912م.

لقد كان الاحتلال الفرنسي من أصعب ما تعرضت إليه هذه المنطقة ولاسيما الجزائر التي شهدت استعماراً استيطانياً قاسياً عمل كل ما بوسعه للقضاء على الشعب الجزائري عن طريق الإبادة الجماعية للعديد من القرى ومن خلال سلبه لممتلكاته وأراضيه وتحويله من مالك وسيد إلى عامل أو عبد مجرد من كل حقوقه ومستغل بأبشع الطرق كما كان المحتل يطلق على الجزائريين لقب "الأهالي" وهذا ليس بمعنى السكان الأصليين للبلاد فحسب وإنما بمعنى أنهم أناس من الدرجة الثانية أو الثالثة وأسقطت عنهم سمة المواطنة.

إضافة إلى انتهاج المحتل لسياسة الإفكار والتجويع ضد هذه الشعوب حتى تستسلم له وتقع تحت رحمته وتصبح أدوات طيعة بين يديه، وبهذه الطريقة استطاع المحتل فعلاً أن يقضي على هؤلاء المستضعفين الذين باتوا لا يفكرون سوى في الخبز وفي كيفية الحصول عليه من أجل إسكات آلام بطونهم الفارغة

هكذا كان حال الطبقات الشعبية في المجتمعين الفرنسي والمغربي متقاربة جداً في تلك الفترات الزمنية، إذ كان الفقر ملازماً لها وبات هو سيد الموقف في كل شيء من حياتها. و قد عمل الروائيون في كلتا الثقافتين على تسخير أعمالهم للكشف عن الحقائق المفزعة

المنتشرة في بيئاتهم نتيجة الأنظمة الجائرة السائدة فيها إذ لا يمكن لأي أديب أن يتغاضى عما يدور في واقعه الذي هو جزء منه و من هنا كان الأدب بدوره انعكاسا لواقعه .

1) الرواية والواقع الاجتماعي:

قال أحد الدارسين: "إن الروائي لا يَخْلُق بل هو الذي يُخْلَق إذ هناك واقع اجتماعي يحيط به ويضغط عليه... وكل قضية اجتماعية هي مؤثر في حد ذاتها".¹ ويقول دارس آخر: "لقد رددنا كثيرا أن الأدب هو تعبير عن المجتمع".²

وهنا نستخلص أن هناك علاقة وطيدة بين الأدب والواقع وبين فن الرواية و بين واقع اجتماعي معين ، لأن الأديب هو ابن بيئته فهو يتأثر بها ويتشرب من كل الأحداث والوقائع والأفكار السائدة فيها ومن ثم يُخرج عملا فنيا يعكس جزءا من ذلك الواقع من خلال نظريته الخاصة له وبهذا ظهرت الرواية الاجتماعية التي تهدف إلى فضح واقع اجتماعي معين وتذهب أحيانا إلى حد اقتراح بعض الوسائل المساعدة على تحسين أوضاعه، فهي لا تتوقف عند حد الملاحظة وإعادة تصوير موضوعات معينة وإنما تقوم بنوع من المرافعة والدفاع عنها بهدف إيجاد حلول لها وبهذا تؤدي الرواية الاجتماعية نفس مهمة المحامي غير أنها ليست مطالبة بالإتيان بالدليل لأنها لا تحتاج إلا إلى إقناع المتلقي بما تقدمه له.³

¹ Brun Charles, Le roman social en France au 19^{ème} siècle, Slatkine Reprints, Genève, 2012, p 11.

² المرجع السابق، ص 12.

³ Johannet René, L'évolution du roman social au 19^{ème} siècle, Slatkine Reprints, Genève, 2011, pp 10, 11.

هذا وتتميز الرواية الاجتماعية بجرأتها الكبيرة في طرق الموضوعات الحساسة والمحرمة لدى بعض المجتمعات كموضوع البغاء وسوء معاملة الأطفال وقذارة الأحياء الشعبية وحالهم المزرية والصعبة.¹

مع الملاحظة أن الرواية الاجتماعية لا تنتمي إلى مدرسة فنية معينة، فقد تكون واقعية أو مثالية أو تاريخية إلى غير ذلك، حسب اتجاه الأديب ومزاجه،² وهي أيضا ليست ملكا لأدب أو ثقافة بعينها بل هي متواجدة في كل العصور والآداب، وتحت هذا الإطار يمكننا إدراج الروايات الفرنسية والمغربية التي ستكون محل دراستنا في هذا البحث.

(2) موضوع الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية:

لقد سخر معظم الروائيين الفرنسيين في القرن التاسع عشر أقلامهم - رغم اختلاف اتجاهاتهم الفنية: "فيكتور هوغو" أحد أقطاب المدرسة الرومانسية الفرنسية و"هونوري دي بالزاك" عميد الواقعية النقدية و "إميل زولا" ممثل الواقعية الطبيعية - للتعبير عن الواقع الفرنسي حينذاك، لقد اقتربوا من الطبقات الشعبية الفقيرة والمعدمة ومن العمال البسطاء وحتى ممن يسمونهم بالطبقات الخطيرة وحاولوا التغلغل في هذه الأوساط حتى يفضحوا مختلف الممنوعات والآفات والعيوب والمشاكل والقضايا الحساسة وكل ما لم يكن أدباء العصور السابقة يتجرؤون على إثارته وكل ما لم يكن ضمن اهتماماتهم ولا اهتمامات المتلقين.

¹ Roman Myriam, Victor Hugo et le roman philosophique, du drame dans les faits au drame dans les idées, Honoré Champion éditions, Paris, 1999, p 264.

² Johannet René, L'évolution du roman social au 19 ème siècle, p 12.

وعلى هذا الأساس كانت رواية "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" رواية اجتماعية قصد بها "هوغو" التنبيه إلى المظالم التي يرضخ تحت عبئها أصحاب الطبقة الكادحة التي تمثل الأغلبية من الشعب الفرنسي باسم النظام حيناً وباسم العدالة حيناً وباسم الأخلاق حيناً وباسم الشعب دائماً [...] وقد رصد "هوغو" من خلال روايته التباين الاجتماعي الواضح بين طبقة برجوازية غنية طموحة، تتشكل من رجال الصناعة والمال وأصحاب المصانع [...] وتمثلت في شخصية "ماريوس" وجده "غيلنورمان" وطبقة كادحة تتعرض لشتى أشكال الاستغلال وتعيش ظروفًا اجتماعية غاية في السوء، لها قدرة إنسانية مذهلة على الكفاح والصبر على الظلم برزت ملامحها في شخصية "فانتين"، "كوزيت"، "جان فالجان".¹

كما قام "هوغو" بتسليط الضوء على مختلف الأحياء الباريسية وحتى الخطيرة منها وقدم صورة دقيقة عن كل خفايا مدينة باريس حتى ما هو موجود تحت أرضها، لقد تطرق "هوغو" إلى أهم قضايا عصره المتمثلة في: تدهور حال الإنسان بفعل البروليتاريا وسقوط المرأة بسبب الجوع وتأخر الطفل في النمو، ولقد أجزم أحد الدارسين أنه ما دام هذا الاختناق الاجتماعي موجوداً في بعض المناطق ومادام هناك جهل وبؤس ستكون هذه النوعية من الكتب رائجة.²

لقد كانت رواية البؤساء ملحمة مطولة وحكاية شعب، وقد صرح "هوغو" لـ "شارل إدموند" بعدما فرغ من كتابتها قائلاً: "لقد صنع دانتى جحيماً بالشعر أما أنا فقد حاولت أن اصنعه عن طريق الواقع"،³ لقد استلهم "هوغو" أحداث روايته من صميم الواقع الفرنسي حينذاك ومن حياته هو ذاته، وقد كان "ماريوس" صورة مصغرة لحياة هوغو ذاته الذي

¹ بقدر إكرام البؤساء والمعذبون في الأرض، دراسة فنية مقارنة، رسالة دكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد زمري، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب و اللغات قسم اللغة والأدب العربي، 2017/ 2018، ص 128.

² Brun Charles, Le roman social en France au 19^{ème} siècle, p 114.

³ ينظر المرجع السابق، ص 114.

كان ابن جنرال إذ عاش حياة الرفاهية ولكنه سرعان ما تخطى عنه الكل في فترة من حياته وكان عليه أن يعيش بمبلغ سبعمائة فرنكا فرنسيا لمدة سنة كاملة مثل "ماريوس" الذي جرب الفقر والاحتياج خاصة بعدما غدر به جده.¹

هكذا كان الصراع من أجل البقاء على قيد الحياة مستمرا في رواية "البؤساء" إذ شمل "جان فالجان" في شبابه والأم العزباء "فانتين" والطفل "غافروش" وأخته "إيبونين" (Eponine) وغيرهم من الشخصيات والأطفال خاصة أطفال باريس الذين أفنوا حياتهم في البحث عن وسيلة تضمن لهم العيش.

هذا وقد كان "بالزاك" من بين الأدباء الذين تميزوا بملاحظتهم الدقيقة للطبيعة البشرية في كل تنوعها، لقد اهتم بالعيوب والمزايا من خلال وصفه لأهم الوقائع والمشاعر وتصويره للطبائع والأمزجة واختياره للأحداث الهامة في المجتمع وقد تساءل: "هل بإمكانني التوصل إلى كتابة التاريخ الذي نسيه العديد من المؤرخين: تاريخ العادات والأعراف في هذا المجتمع الذي هو مجتمع الثورة والإمبراطورية وغيرها من الأحداث".²

وقد صور "بالزاك" حياة المجتمع الفرنسي في القرية وفي المدينة ولاسيما باريس ولم يهمل الحياة السياسية والحياة العسكرية، لقد كان يهدف إلى إظهار الميكانيزمات المتحركة في هذه الحيوانات المختلفة مع تقديم شروح لها.³

لقد جمع "بالزاك" مختلف أعماله الروائية في عمل ضخم تحت عنوان "الكوميديا البشرية" التي أشاد بها "إنكلز" (Engels) في قوله: "لقد قدم بالزاك في الكوميديا البشرية التاريخ الواقعي الأكثر روعة وإذهالا للمجتمع الفرنسي وذلك على شكل سجلات تاريخية من عام

¹ Brun Charles, Le roman social en France au 19^{ème} siècle, p 114, 115.

² Narteau Carol, Nouailhac Irène, La littérature française au 19^{ème} siècle, Librio, E.J.L, 2009, p 50.

المرجع السابق، ص 50.³

1816م إلى عام 1848م، وقد تطرق إلى مختلف الضغوط التي كانت تمارسها الطبقة البورجوازية المتصاعدة على طبقة النبلاء بعد 1815م وكيفية اندثار ذلك المجتمع المثالي بالنسبة لبالزاك [...] لقد جمع حول هذا المشهد الرئيسي تاريخ كل المجتمع الفرنسي ومن خلاله أدركت تفاصيل الحالة الاقتصادية التي لم أعثر عليها في كتب التاريخ أو الإحصاء المؤلفة عن ذلك العصر".¹

إضافة إلى ذلك، لقد شعر "بالزاك" بعمق الآلام اللاحقة بكل طبقات الشعب من جراء الانتقال إلى الإنتاج الرأسمالي والانهيال الروحي والأخلاقي العميق الذي كان ضروريا في تطور كل طبقات المجتمع، ومع ذلك فإن "بالزاك" لم يشعر فقط [...] بمثل تلك البلبلة الاجتماعية بل أيضا بحقيقة طبيعتها التاريخية التي كانت - في المحصلة - تقديمية".²

وكذا قام "إميل زولا" من خلال مجموعته الروائية "آل روغون ماكار" (Les Rougon Macquarts) التي كرسها لإعادة بعث جزء من التاريخ الفرنسي مركزا في ذلك على أهم الأحداث السياسية والاجتماعية، ففي روايتي "الخمارة" (L'Assommoir) و "المال" (L'Argent) رسم "زولا" لوحة قاتمة للأحياء الشعبية الفقيرة حيث يتجلى البؤس البشري، هذه الأحياء التي نتسلق فيها الأدراج المتقلقلة ونجتس الجدران المتسخة ونجد المشاجرات نفسها: زوج يضرب زوجته، والروائح النتنة ذاتها... كما لا ينسى "زولا" مصير العامل العجوز المنهك من العمل والمثير للشفقة".³

¹ Biet Christian et Brighelli Jean-Paul, Rispaill Jean-Luc, 19^{ème} siècle, Collection textes et contextes, Editions Magnard 1981, p 63.

² جورج لوكاتش، بلزاك والواقعية الفرنسية، ترجمة محمد علي اليوسفي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ط1، 1985، ص 22.

³ Kranorowski Nathan, Paris dans les romans d'Emile Zola, Presses universitaires de France, 1968, pp 140, 141.

كما قدم "زولا" صورة دقيقة وعميقة عن معاناة عمال المناجم خاصة في رواية "جيرمينال" (Germinal) التي تفضح الحال المزرية والقاسية التي كان يعيشها عمال المناجم وعائلاتهم من خلال ظروف العمل القاسية جداً، إذ كانوا يعملون لمدة تتجاوز الأربع عشرة ساعة أحياناً وفي أجواء خانقة جراء الحرارة والرطوبة وبعض الغازات المنبعثة من الأعماق إلى غير ذلك مقابل أجور زهيدة جداً لا تكاد تسد احتياجاتهم الأسبوعية مما كان يدفع بالعديد من العائلات إلى إرسال أطفالها إلى العمل للإسهام في تزويد مداخلها مقابل حرمانهم من التعليم كل هذا بسبب الفقر.

لقد التقى هؤلاء الأدباء الثلاثة "هوغو" و"بالزاك" و"زولا" في تخصيص أقلامهم للكشف عن الحال المزرية للطبقات الفقيرة من المجتمع وتسليط الأضواء على معاناتها اليومية القاسية بهدف جذب الأنظار إليها والتعاطف معها والاهتمام بقضاياها عليها تجد حلاً.

وفي المقابل سخر الروائيون المغاربة بدورهم أقلامهم للتعبير عن واقعهم الذي لا يقل قسوة ولا بشاعة عن الواقع الفرنسي بل قد يكون أسوأ بكثير لأن المنطقة المغربية كانت تحت الاحتلال الفرنسي . لقد قاموا ولاسيما في الخمسينيات من القرن الماضي بالعمل على فضح الممارسات الاستعمارية وسياسية القمع والاضطهاد التي كانت تمارسها ضد شعوب هذه المنطقة المستضعفة وذلك من خلال العائلات والشخصيات الممثلة لمختلف الشرائح الاجتماعية حينذاك سواء في المدن أو في القرى أو في بلاد المهجر.

وفي هذا الصدد تساءل أحد الدارسين فيما إذا لا يوجد هناك شبه بين الثورة الفرنسية والثورة الجزائرية لأن كليهما كانتا تهدفان إلى تحرير الإنسان من كل أنواع السيطرة والهيمنة والعمل على تعزيز تحرره¹؟

¹ Guétarni Mohammed, Littérature de combat chez Dib, Kateb et Feraoun, Editions Dar El Gharb, 2006, p 129.

وقد شهدت فترة الخمسينيات من القرن الماضي البداية الفعلية للرواية المغربية وذلك بظهور كوكبة من الأدباء ممن تأثروا بالرواية العالمية وقد أسهم في ذلك بعض الروائيين الفرنسيين الذين عاشوا في هذه المنطقة، وفي هذا السياق قال "مولود فرعون": "لقد كان "كامو" و"روبلنس"* وغيرهما أول من فتح لنا أفقا أدبيا كان مغلقا وذلك بمواهبهم الأدبية".¹

وعندما بدأ القادة الوطنيون يأخذون على عاتقهم إثارة المشكلة السياسية، "وقتها بدأ الروائيون ينظرون داخل أنفسهم بحثا عن كيان فردي، فقد شعروا بالضياح بين زحام حضارتين، تصارع إحداها الأخرى على أرض وطنهم وتسبب الاختلال في مجتمعهم بتأليب جيل ضد جيل آخر، جيل قديم أُمي لكنه غني بتراثه وتقاليده وخبرته وجيل شاب تلقن التعاليم الفلسفية من الأساتذة الفرنسيين".²

هذا ومن أهم العوامل التي أسهمت أيضا في عملية التأثير الفرنسي على الثقافة المغربية هو فرض التعليم باللغة الفرنسية وإغلاق المدارس القرآنية وتلك التي تدرس باللغة العربية وخاصة في الجزائر حتى تسيطر على العقول وتطمس الشخصية القومية وتقضي على الثقافة المغربية العريقة وهذا ما تفتن إليه أغلبية الشعب ممن رفضوا إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس خوفا عليهم وعلى ثقافتهم ولكن عندما عجزوا عن إيجاد البديل لهم عن ذلك وحينما بات الشرط الأساسي للحصول على وظيفة محترمة متوقفا على عامل التعليم خاصة في المدارس الفرنسية اضطر العديد من الآباء إلى تغيير رأيهم والرجوع عن قراراتهم ومن هنا كان إرسال الأطفال إلى المدارس الفرنسية ولكنهم كانوا لا يفتنون

* روبلس: هو أديب فرنسي وصديق مولود فرعون في مدرسة المعلمين ببوزريعة.

¹ Feraoun Mouloud, Lettres à ses amis , ENAG Editions , 1992, p 187.

عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 – 1967)، ص 58.

يحذرونهم من خطورة تلك اللغة وتلك الثقافة خاصة لأنها ثقافة المحتل، ولم يتوقعوا يوما أن أبناءهم سيصلون إلى حد الكتابة الإبداعية بالفرنسية.¹

وبالرغم من الدور الذي لعبه التعليم في الصراع بين الأجيال [...] فإن التعليم كان أكثر نفعا من ضرره [...] ذلك أنه مهد الطريق أمام اليقظة الوطنية وبالتالي أدى إلى استقلالهم وتحررهم، وهذا ما كشفه رمضان [إحدى شخصيات رواية الأفيون والعصا لمولود معمري] حينما شرح الأثر الذي تركه التعليم في المدارس الفرنسية على شخصه [...] وهكذا وبعد أن تعلم كل ذلك في المدرسة الفرنسية التحق أخيرا بالحزب وتطوع مناضلا في سبيل تحرير الجزائر".²

وبفضل التعليم استطاع المبدعون المغاربة من الشباب فهم واقعهم المعيشي بصورة أعمق كما باتوا أكثر وعيا بأوضاعهم المزرية والصعبة، إضافة إلى مخلفات الحرب العالمية الثانية التي كانت مدمرة على مستوى النفوس والأرواح والعمران والاقتصاد ولكنها أيضا كانت صفة قوية للشعوب المستعمرة في المنطقة المغربية التي اقتنعت بحلول الوقت المناسب للثورة على المحتل الذي هضم حقوقهم واستولى على ممتلكاتهم وسلب حريتهم وقضى على كرامتهم، ومن صميم هذه الأحداث والأوضاع ومع مطلع الخمسينات من القرن العشرين ولدت كوكبة من الأدباء الذين قرروا أن يحملوا على عاتقهم مهمة فضح السياسة الاستعمارية الظالمة التي كانوا من بين ضحاياها، لقد كان "كاتب ياسين" مثلا ينحدر من وسط فقير وقد كان "عاملا في الموانئ وفي الزراعة قبل أن يمارس الكتابة [...] والشيء نفسه [...] عند الكاتب المغربي "إدريس الشرايبي" [...] وما يقال

¹ Berque Augustin, Les intellectuels Algériens, Revue Africaine, n° 410, 411, 2^{ème} trimestre, 1947, p 131.

عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 - 1967)، ص 109، 2.110

عن ياسين يمكن أن يقال عن "محمد ديب" [الذي] عمل في معامل النسيج بتلمسان وفي أقبيتها الباردة ثم عمل محاسبا ومعلما فصحفيا".¹

لقد بدأ احتكاك "محمد ديب" بالأدب الفرنسي وهو في المدرسة وقد صرح بذلك في قوله: "فكان اكتشاف الأدب أولا عن طريق القطع المختارة في الكتب المدرسية لأنني مثل جميع الجزائريين الذين تعلموا، فقد كانت دراستي في المدرسة الإعدادية باللغة الفرنسية ثم بين الرابعة والخامسة عشر كان اكتشاف الكتاب الفرنسيين والأجانب".² ولم يتوقف "محمد ديب" عند ذلك المستوى رغم الظروف الصعبة التي لم تكن لتشجعه على الدراسة وتطوير قدراته الفكرية والفنية إلا أنه "انكب على إثراء معارفه بمطالعة الأدب الفرنسي قديمه وحديثه والاحتكاك بأدباء عصره، وفي هذا المضمار يقول: "بعد الحرب العالمية الثانية، دعيت إلى ملتقى بنواحي مدينة البليدة لجماعة من الكتاب الفرنسيين اليساريين... وأنا مدين لهذا الملتقى لكاتب سألني، ماذا تنوي أن تكتب؟ وبأي طريقة؟ وما هي الأشكال التي تستعملها؟ فأجبت بـأنني سأكتب قصة طويلة... فأجابني: إذا كتبت قصة طويلة وجمعت فيها كل ما تريد أن تقوله ستتوقف عن الكتابة بعد هذه القصة... ومن المفيد أن تكتب كتبا صغيرة تشرح في كل واحد منها قضية... وهكذا يمكنك أن تستمر في الكتابة وهنا جاءتني فكرة الثلاثية...".³

وقد حضر هذا الملتقى مجموعة من الأدباء الكبار أمثال "ألبر كامو" (Albert Camus) و"لويس جيو" (Louis Guilloux) و "جان سيناك" (Jean Sénac) و "مولود فرعون".⁴

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 72، 73.¹

² عايدة أديب بامية، ص 78.

محمد قنانش، مع محمد ديب، مجلة الرواية، العدد الأول، جانفي 1990، ص 34، 35.³

⁴ ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، دار المل للطباعة والنشر والتوزيع المدينة الجديدة تيزي وزو،

2002، ص 15.

ومن رحم هذه الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، ولد "محمد ديب" أديبا مبدعا وثوريا وفنانا "يغمس ريشته، ريشة الرسام الصادق في الدم والعرق والعذاب والجنون والحكمة والتمرد والمرض والتناقض والثورة فيخرج منها ألوانا يصبغ بها لوحته"،¹ ولاسيما ثلاثية الجزائر التي قال عنها "لويس أراغون" (Louis Aragon) أنها تمثل "مذكرات الشعب الجزائري فاستحق محمد ديب اسم بالزك الجزائري عن جدارة وبفضل مجهوداته الإبداعية الجادة التي لم تخرج في يوم من الأيام عن طموحات الشعب الجزائري الكبرى".² هذا وقد انتهج "محمد ديب" نهجا شبيها بذلك الذي سلكه كتاب الواقعية في فرنسا في القرن التاسع عشر وذلك بإدراجه لشخصيات من صميم الواقع الشعبي لمدينة تلمسان في ثلاثيته.³ وهكذا أرسى "محمد ديب" وأبناء جيله "لبنات الواقعية الانتقادية في الأدب الجزائري بل وكثيرا ما تجاوزوها ليفتحوا أبوابا أكثر اتساعا في وجهها".⁴

وقد قام "محمد ديب" في ثلاثيته وعلى منوال "بالزك" بالكشف عن حال الفقر الذي كان يعيشه أبناء جلدته سواء في المدن كما في رواية "الأب غوريو" أو في الريف كرواية "طبيب القرية" و"الفلاحون" وغيرها، إضافة إلى الظروف السياسية والتاريخية التي وجدت فيها هذه المجتمعات، لقد كانت رواية الدار الكبيرة رمزا لمدينة تلمسان "الغارقة في فقر مدقع وحيف وحرمان وعمر البطل الجائع اليتيم [...] وأم عمر رمز الصمود والتشبث بالحياة [...] ويمثل الجزء الثاني (الحريق) عالم الريف وهو عمق الجزائر وما حل به من نهب وسلب لأراضي الفلاحين الجزائريين وديارهم، فقرية "بويلان" واجهة للريف الجزائري المحاصر [...] أما في الجزء الثالث (النول) فكان الدور لطبقة العمال وسعي أم عمر

محمد ديب، الدار الكبيرة، مقدمة المترجم سامي الدروبي، دار الهلال أكتوبر 1970، ص 10، 11.¹

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 73.²

³ Benyekhlef Djamel, Les femmes à la frontière de l'histoire dans la trilogie de Mohammed Dib, Algérie littérature/ Action n°55, 56, Novembre, décembre 2001, édité par MARSA éditions, Paris, p 211.

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 74.⁴

إلى إلحاق ابنها بأحد المصانع وقد صور الكاتب ازدياد الوعي لدى العمال بمصدر
بؤسهم وشقائهم¹. كما يلتقي مع "إميل زولا" في تصويره لظاهرة الجوع، التي صورها
"محمد ديب" بطريقة بارعة مع إبراز أسبابها ونتائجها ومختلف صورها و يتجلى ذلك
خاصة في رواية "الدار الكبيرة" القريبة جدا من رواية "جيرمينال" لـ"إميل زولا"، وكذا ظاهرة
الإدمان على شرب الخمر التي تعكس هروب الإنسان ويأسه من أوضاعه الصعبة عندما
يعجز عن مواجهتها ويظهر ذلك في روايتي "الدار الكبيرة" ورواية "الخمارة" لـ"إميل زولا".
إضافة إلى ذلك كان "مولود فرعون" صاحب رواية "ابن الفقير" بدوره يسير على خطى
الروائيين الفرنسيين ولاسيما في القرن الثامن عشر والتاسع عشر.

ينتمي "مولود فرعون" إلى أسرة فقيرة، تتكون من ثمانية أطفال توفي منهم ثلاثة. لقد كان
حال والده كحال الفلاحين الجزائريين في بدايات القرن العشرين في سوء الأوضاع المالية
مما دفعه إلى الهجرة إلى مدينة قفصة في تونس حيث عمل في مناجم الفوسفات ثم عاد
إلى قسنطينة وبعدها إلى متيجة وابتداءً من سنة 1910م قام بما يربو عن عشرين زيارة
لفرنسا وكان آخرها فيما بين 1927م و1928م التي انتهت بحادثة أليمة كادت تقضي
عليه².

ورغم بعد المسافة بين قريته والمدرسة الابتدائية أصر والده على تسجيله بها حتى يتعلم
ويكون مصيره أحسن من مصير عائلته و بهذا يتم أول احتكاك بين "مولود فرعون
والثقافة الفرنسية وقد توطدت هذه العلاقة أكثر بعد التحاقه بمدرسة المعلمين ببوزريعة
بالجزائر العاصمة ومن ثم تعرف على بعض الكتاب الفرنسيين الذين أصبحوا أصدقاء له
أمثال: "إيمانويل روبليس" (Emmanuel Roblès) و"ألير كامو" وغيرهما ممن كان

¹ ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، ص 30، 32، 31.

² Feraoun Mouloud, Lettres à ses amis, pp 106 – 107.

لهما الفضل في توجيهه الأدبي، إضافة إلى قراءاته لـ "بالزاك" و"زولا" و"ألفونس دودي" (Alphonse Daudet) وغيرهم ممن تركوا بصمتهم على أعماله، لقد كان اتجاه "مولود فرعون" في أعماله واقعياً لأن هدفه هو تسليط الضوء على حال الأسر الجزائرية في القرى ولاسيما في منطقة القبائل التي يعد معظم سكانها من الفئات الفقيرة والمعدمة، لذا كانت أول رواية "فرعون" تحمل عنوان "ابن الفقير"، هذا الفقير الذي وصفه بأنه: "ليس له أرض أو له منها القليل. يتسلى بها عندما يكون في بطالة. ويكتفي في مسكنه بقطعة واحدة ويقتسم الفناء الصغير مع الجيران المعدمين أمثاله، ويقتسم تاجماعت مع الجميع. [...] يمكن للفقراء أن يكسبوا الحيوانات مثل الأغنياء. حيوانات لا يشترونها لكن توكل لهم من قبل الآخرين. وعندما تباع تقتطع منها الفائدة. يستطيع الفقير أن يعمل كأجير يومي. يعمل من أجل أن يعيش عيشة حسنة".¹

وأتبعها بروايتي "الأرض والدم سنة 1953م و "الدروب الوعة" عام 1957م اللتين تجسدان أيضاً حال الفقر والجوع الذي جعل العديد من سكان منطقة القبائل يهاجرون إلى فرنسا أمثال "أمر أوقاسي" في رواية "الأرض والدم" بحثاً عن حياة أفضل وأوضاع أحسن وبهذا يلتقي بـ "فيكتور هوغو" الذي طرح قضية الهجرة إلى المدن الكبرى بحثاً عن العمل و الهروب من سوء المعيشة وقد جسدها "قانتين" التي تركت قريتها وقدمت إلى باريس لكي تعمل وتعيش حياة كريمة وكذا عائلة "تيناردييه" التي غادرت بلدها الصغيرة بعدما أفلس الفندق الصغير الذي كانت تملكه إضافة إلى "إميل زولا" الذي صور في رواية "الخمارة" هجرة "جيرفيز" و"لانتييه" رفقة ابنيهما إلى باريس من أجل العمل والازدهار والخروج من حال الفقر الذي سئموا منه.

¹ مولود فرعون، ابن الفقير، ترجمة عبد الرزاق عبيد، دار تلاتنقيت للنشر، بجاية، 2016، ص 19.

* نشرت هذه الرواية عام 1950.

أما "مولود معمري" فقد عُرف خاصة بروايتيه "الربوة المنسية" التي نشرت عام 1952م و"نوم العادل"، عام 1955م في هذه الفترة، لقد حاول هو الآخر وعلى طريقة الروائيين الفرنسيين الواقعيين نزع اللثام على مختلف المشاكل المادية والمعنوية وحتى الروحية التي كان يتخبط فيها المجتمع الجزائري المحتل من قبل الفرنسيين، لقد كانت حياة الجزائريين حينذاك جد قاسية كما كانت البطالة منتشرة بشكل كبير مما دفع بالعديد من الشباب إلى الهجرة سواء من القرى إلى المدن الكبرى أو إلى أوروبا ولاسيما فرنسا.

وكان "إدريس شرايبي" إضافة إلى ذلك ممن كرسوا قلمهم خاصة في روايتيه الأوليين "الماضي البسيط" و "التيوس" للكشف عن الواقع المرير للمغتربين المغاربة الذين كانوا يعيشون في أوضاع مزرية: الفقر والجهل والسكن في أكواخ أو بيوت من الصفيح.

وبهذا تلتقي الرواية الفرنسية بالرواية المغربية في سعيها لتعريف الواقع المعيش خاصة واقع الطبقات الشعبية البسيطة وصراعاها المستمر من أجل البقاء .

3) أسباب الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية:

لقد عرفت الفئات الاجتماعية البسيطة في المجتمعين الفرنسي و المغربي أوضاع معيشية جد عسيرة بفعل الفقر الذي أنهك كاهلها و أسهمت في ذلك مجموعة من العوامل نذكر منها :

1.3 (ظهور الروح الفردية:

لم يكن الإنسان في العصور الماضية يتصور نفسه خارج إطار قبيلته أو عائلته أو إثنيته لأن الخروج عنها يعني الموت ولكن مع مرور الزمن تطورت المجتمعات وتغيرت الذهنيات وخاصة في أوروبا و مع ظهور الثورة الصناعية بالذات التي جعلت من الإنسان شخصا ماديا وأنانيا فلم يعد يبحث إلا عن مصلحته الشخصية ومن هنا بدأت الروح الفردية أو النزعة الفردية تظهر إلى الوجود شيئا فشيئا وقد شملت مجالات عدة "فعلى الصعيد الاقتصادي رفعت البورجوازية شعارها المعروف "دعه يفعل... دعه يمر" وعلى الصعيد الأدبي وجد شعار آخر يوازيه هو دعه يعبر عن ذاته، لقد أصبح الفرد والفردية حجر الزاوية في المجتمع البورجوازي الجديد".¹

لقد بات "للفرد كامل الحرية في الذهاب والإياب في البيع والشراء في التعبير عن آرائه وأفكاره وميوله وعواطفه ومشاعره بغض النظر عن انتمائه العائلي، فالإنسان يعرف هنا بأنه الإنسان دون انتمائه الاجتماعي [...] فالفرد عالم قائم بذاته أو دنيا مستقلة وجوهره الأصل الحرية، الشعور والوجدان"،² بدأت هذه الأفكار في البروز للوجود في القرن الثامن عشر أو فيما يسمى بعصر الأنوار الذي اكتشفت فيه فلسفات جديدة كـ "الفلسفة المثالية الذاتية" التي تتادي بـ "الوجود الأولي للذات أو للوعي الإنساني أما العالم الموضوعي فمن خلق هذه الذات [...] وهذا يعني أن الذاتي يخلق الموضوعي وأن العالم الداخلي للذات العارفة هو أساس صورة العالم الخارجي لديها وما دام الأمر كذلك فلا بد أن يقدم الشعور والوجدان والعاطفة على العقل والخبرة والتجربة".³ ومن أهم رواد هذه الفلسفة الفيلسوفان الألمانيان: "كانط" (Kant) (1724-1804م) و"هيجل" (Hegel) (1770-1831م).

¹ شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ، ص50.

² المرجع السابق، ص51.

³ المرجع السابق، ص52.

وقد كان معظم أدباء عصر الأنوار يمجّدون العواطف والذات الفردية إلى درجة الكفر بأيّ إله ما عدا الإنسان الذي يملك قوى فكرية وعاطفية خارقة يستطيع من خلالها القيام بعملية الخلق والاختراع ويمكنه صنع مصيره بنفسه ولا يحتاج إلى أيّ قوة أخرى ومن هنا شرع في عبادة ذاته مما أدى إلى ظهور تيار الإلحاد بشكل قوي وهذا ما جرد الإنسان من إنسانيته وتفكيره في الغير ولاسيما أرباب العمل وأصحاب الأموال الذين كانوا يستغلون العمال بوحشية كبيرة.

لقد استطاعت الثورة البورجوازية "بإمكاناتها الهائلة التي وفرتها لها الطبقات الأكثر بؤسا أن تسحق المصالح الفردية الإقطاعية و لكن سرعان ما خانت كل طروحاتها الثورية عن العدالة والمساواة والإخاء وبدأت تسطر صفحة سوداء في تاريخها بمحاربتها واضطهادها للعمال والفلاحين والفئات الشعبية الأخرى".¹

وهكذا كانت "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لـ "إميل زولا" تعمل عند السيدة "فوكونيي" (Fouconnier) كغسالة للملابس، إذ كانت الحرفة الوحيدة التي تعلمتها ويمكنها ممارستها بإتقان، لمدة إثني عشرة ساعة في اليوم، لقد كانت تحلم بحياة بسيطة تتمثل في سقف يأويها وفي وجود ما يشبع جوعها كل يوم، وكذا كان "غوجيه" (Goujet) في الرواية نفسها، وهو حداد ومختص في صناعة اللوالب، يعمل طويلا وكان حدادا محترفا، ولكن المكننة كانت تهدد بقاءهم لأنها لا تقفأ تأخذ مكان العمال مما يؤدي إلى تقليص أجورهم أو الاستغناء عنهم.²

هذا وقد كان حال عمال المناجم في رواية "جيرمينال" لإميل زولا أحسن دليل على أنانية أرباب العمل الذين كانوا يستغلون العمال من مختلف الأعمار من رجال ونساء وشيوخ وأطفال وتشغلهم لمدة إثني عشرة ساعة ولا يتوانى المسؤولون في الاقتطاع من مرتبات

الأعرج واسيني ، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص18.¹

² L'assommoir in www.comptoirilitteraire.com, p21.

العمال الذين يتأخرون عن العمل دون أن يغيبوا عنه وهنا يتجلى جور هؤلاء وظلمهم، ويتخلّى ذلك في السيد "ماهو" الذي تفاجأ بأجرته الضعيفة التي كان يتقاضاها في آخر كل أسبوعين ناقصة بأكثر من نصفها بحجة الغياب و بعض الخسائر التي تسبب فيها حسب زعم المسئول.¹

هكذا كان مصير أي عامل يتغيب عن عمله ولم يتمكن من إخبار المسئولين ، لقد كان يعاقب بغرامة مالية قدرها فرنكا واحدا أو يتعرض للفصل المؤقت لمدة يوم واحد وإن كان أحدهم مريضا في الليل وكان بعيدا عن المنجم ولا يستطيع إخبار أرباب العمل أو المشرفين عليه فإنه يتعرض لاقطاع مبلغ عشرين فلسا،² إضافة إلى غرامات أخرى مثل الغرامة على الفحم الوسخ والغرامة من أجل التأخر في الرجوع بسرعة إلى محل العربات والأخرى من أجل عدم التخشيب والأخرى لعدم احترام إشارات المناورات ولعدم احترام المسئولين، فكل عامل معرض لاقطاع غرامة قدرها عشرين فلسا من مرتبه كل أسبوعين. كما كان أجر "جان فالجان" خمسة عشر فلسا مقابل عمله في نقل البضائع وثلاثين فلسا لـ"شان ماتيو" (Champmathieu) والقليل لابنته العاملة في محل الغسيل إلى غيرهم، لقد كانت أجور كل البؤساء بائسة.³

وفي المقابل كان المحتل الفرنسي والمتمثل في المعمرين أو الكولون في المنطقة المغربية ولاسيما في الجزائر يسلكون نفس مسلك أرباب العمل في فرنسا، فأول ما وطئت أقدامهم تلك الأراضي استولوا على أخصب السهول والورش والمصانع، وقد كان سكان هذه المنطقة يعملون كالعبيد لدى هؤلاء الذين كانوا يعتبرونهم مخلوقات منحطة ومن الدرجة

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp200,201.

² Jean-Pierre Vincent, Michel Deutsh et Jacques Blanc, *Germinal*, Projet sur un roman, Christian Bourgeois Editeur, 1975, p 92.

³ David Charles, Hugo, le travail et la misère, in le travail et les hommes, Actes du 127^{ème} congrès des sociétés historiques et scientifiques, Nancy 2002, CTHS et université de Nancy 2, Editions du CTHS 2005, pp 2 ,3.

الدنيا،¹ لهذا كان العمال والفلاحون في ريف تلمسان وورشه يستغلون بطريقة وحشية ويعاملون كالحيوانات وينعتون بأسوأ النعوت.² كما كانوا يعملون من شروق الشمس إلى غروبها مقابل أجور زهيدة جدا لا تتجاوز عشرة فرنكا في اليوم.³ لقد كانت "عيني" في "الدار الكبيرة" تقوم بخياطة النعال لساعات طويلة من النهار والليل حتى تنجز أكبر قدر منها لترفع من قيمة أجرتها الضعيفة جدا ورغم ذلك فهي لا تتوصل إلى تغطية مصاريف الخبز والدقيق، لقد كان المعمر "غونزاليس" (Gonzalès) يستغلها ومثيلاتها حتى يحقق أرباحا كبيرة على عاتقهن.⁴ وكم كانت "عيني" تشتكي من تعبها الشديد جراء العمل الشاق الذي تمارسه يوميا حتى تسد احتياجات أبنائها وعائلتها.⁵

هذا وقد كان أصحاب الأعمال لا يتوانون في تشغيل الأطفال الصغار لأنهم أقل كلفة من الكبار إذ كانوا يقومون تقريبا بنفس عمل الكبار مقابل أجرة أقل، لقد كان عدد الأطفال الذين يعملون في منجم "الفورو" في رواية "جيرمينال" جد مرتفع ومن بينهم نذكر الطفل "جانلان" (Jeanlin) ابن عائلة "ماهو" وزميله "بيبير" (Bébert) وزميلتهما "ليديا" (Lydie).⁶

وكثيرا ما كان هؤلاء يتعرضون لحوادث خطيرة غالبا ما تخلف لديهم عاهات دائمة مثل الطفل "جانلان ماهو" الذي تعرض إلى حادث خطير داخل المنجم أدى إلى كسر رجليه⁷

¹ Akbal mehenni, Mohammed Dib conférencier, Maurice Monnoyer témoin, éditions El-Amel, 2009, p 32.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 121.

المصدر السابق، ص 40، 41. ³

المصدر السابق، ص 131، 132. ⁴

المصدر السابق، ص 134، 135. ⁵

⁶ Zola Emile, Germinal, p 40.

المصدر السابق، ص 213. ⁷

و لم يشف منه تماما بل أصبح أعرجا، ولكن أوضاع عائلته المزرية دفعته للعودة إلى العمل في مكان آخر غير المنجم.¹

وفي المقابل قررت "عيني" منع ابنها "عمر" من العودة إلى الدراسة في الموسم المقبل لأنها لم تعد قادرة على دفع تكاليف دراسته ورأت أنه من الأحسن له وللعائلة أن يتعلم حرفة معينة حتى يُمكنه من إيجاد عمل لائق ويسهم في مصاريف البيت التي باتت تتجاوز قدرات والدته، لقد كان عمر حينذاك يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة.² وبالفعل استطاعت "عيني" أن تدخل ابنها إلى ورشة النسيج الموجودة بالمدينة ليتعلم فيها صناعة النسيج والعمل في الوقت نفسه،³ لقد تحمل "عمر" جراء ذلك سوء معاملة بعض العمال له وكذا أجواء المنسج المظلمة والخائقة بفعل الرطوبة فيها وهو الذي اعتاد الجري في الطرقات والحقول واستنشاق الهواء النقي والمنعش.

هكذا كان هؤلاء الأطفال سواء في الرواية الفرنسية أو المغربية يحرمون بسبب الفقر والبؤس من طفولتهم ومن دراستهم ويرسلون إلى المناجم و الورش لممارسة أعمال تتجاوز سنهم وقدراتهم الجسدية ويستغلهم أرباب العمل بوحشية لا نظير لها ويستنزفونهم إلى أقصى درجات الاستنزاف.

ومن هنا تتجلى لنا الروح الفردية التي كانت مسيطرة على أرباب العمل سواء في الرواية الفرنسية أو المغربية إذ بات همهم الوحيد هو تحقيق مصلحتهم الشخصية من خلال رفع مستوى أرباحهم ورؤوس أموالهم حتى وإن كان ذلك على حساب العمال وصحتهم وأوضاعهم المادية.

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 51.

² Dib Mohammed, *Le métier à tisser*, Editions Dahleb ,Editions Bouchène, Alger 1995, p 9.

³ المصدر السابق، ص23.

2.3 انتشار الأمية:

تعتبر الأمية من أهم العوامل المتسببة في الفقر، فهي تحد من قدرات الإنسان الفكرية والمعرفية لقد انتشرت هذه الظاهرة في الأوساط الشعبية البسيطة وضمن الطبقات العمالية في فرنسا أثناء القرن التاسع عشر بشكل ملحوظ وقد تعمدت سلطات البلاد بمختلف أنظمتها حينذاك (النظام الملكي والإمبراطوري والجمهوري) بتهميش هذه الطبقة وإهمالها على مستويات عدة حتى تبقى دائماً خاضعة لها وتكون تحت سيطرتها ولا تطالب بأدنى حقوقها ولا تسعى إلى تغيير أوضاعها بل تستسلم لأوضاعها وترسخ لمصيرها، لأن العلم يُنَوِّر الأذهان ويوعي الإنسان ويعرفه بحقوقه وواجباته ويرشده إلى حل ناجع لمشاكله.

وتتجلى ظاهرة الأمية من خلال شخصيتي "جان فالجان" و"فانيتن" في رواية "البؤساء لـ فيكتور هوغو". لقد كان "جان فالجان" كما قدمه "فيكتور هوغو"، "جاهلاً ولكن غير غبي، لقد كان النور الطبيعي مشعاً من داخله [...] تحت تأثير العصا والأغلال والزنزنة والتعب تحت الشمس القاحلة في السجن وفوق فراش من ألواح مخصص للمساجين، لقد انطوى على ذاته محكماً ضميره وبدأ في التفكير في حاله، لقد شكل محكمة في داخله وشرع في محاكمة نفسه بنفسه، وهنا يعترف أنه لم يكن بريئاً ولا مظلوماً وأنه قام بفعل سيء وملام عليه ولو كان قد طلب رغيف الخبز ذاك ربما ما كان يُرفض له، وعلى كل حال كان ينبغي انتظار هذا الرغيف سواء عن طريق الإحسان والشفقة أو عن طريق العمل".¹ لقد أدرك "فالجان" أن سبب مأساته وعدم حكمته وتريثه هو الأمية وعليه قرر وهو في سن الأربعين تعلم القراءة والكتابة حتى يستتير أكثر ويفيد نفسه والآخرين، "لقد كان في طولون مدرسة للسجناء يشرف عليها بعض الإخوان من الرهبان ذوي مستوى محدود، كانوا يلقنون المعلومات الأساسية لهؤلاء البائسين الذين كان لديهم إرادة ورغبة في

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 115.

التعلم، لقد كان "جان فالجان" واحدا من بين هؤلاء، لقد دخل المدرسة وهو في سن الأربعين وتعلم القراءة والكتابة والحساب...¹

أما "فانتين" فقد كانت فتاة يتيمة مجهولة الأبوين، عاشت حياة صعبة وبأئسة لم تكن تعرف من القراءة إلا القليل جدا أما الكتابة فلم تتعلم في طفولتها سوى كتابة اسمها.² مما صعب عليها إيجاد عمل يضمن لها الحياة الكريمة ومن هنا قررت بيع كل ما لديها ومغادرة باريس إلى مسقط رأسها علها تجد فيه عملا يلائمها.³

إضافة إلى ذلك، كانت شخصية "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لـ "إميل زولا" تقوم بغسل الملابس وكما قال المؤلف "هذه هي الحرفة الوحيدة التي تعلمتها وتعرف القيام بها بإتقان"⁴ ولم يذكر أنها امرأة متعلمة.

وكذا كانت شخصيات رواية "جيرمينال" لـ "إميل زولا" تشتغل في منجم "الفورو" بقرية "مونتسو" ولم يعرف عنها أنها كانت على قدر معين من التعليم أو حتى قدر بسيط منه، وقد كانت جل عائلات تلك القرية ومن بينها عائلة السيد والسيدة "ماهو" تفضل إرسال أبنائها إلى العمل في المنجم بدل إرسالهم إلى المدرسة التي كانت مكلفة بالنسبة إليها نظرا لمداخلها الضعيفة و كان لابد على هؤلاء الأطفال أن يسهموا في مصاريف عائلاتهم و يحسنوا ولو قليلا في أوضاعهم المادية، وهكذا كان الأهل يفضلون تشغيل أبنائهم في المنجم لأن العمل في نظرهم أهم من التعليم، بسبب جهلهم لم يتمكنوا من اختيار الأحسن لأبنائهم إذ الحاضر بالنسبة إليهم كان أهم من المستقبل الذي كان في عالم الغيب ونتائجه غير مضمونة، وبناء على ذلك كانت كل الوظائف التي يحصلون عليها هي وظائف بسيطة وبأئسة لا تسمح لهم إلا بأكل الخبز والبقاء على قيد الحياة.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 117.

² المصدر السابق، ص176.

³ المصدر السابق، ص177.

⁴ Zola Emile, Germinal, p 29 et pp 35, 36.

وفي المقابل كان المحتل الفرنسي يمارس سياسة التجهيل على نطاق واسع ضد شعوب مستعمراتها حتى يتمكن منها ويسيطر على عقولها وأذهانها كما سيطر على أراضيها وأوطانها.

لقد كانت "عيني" في "الدار الكبيرة"، امرأة أمية لا تعرف حتى الحساب لذا كانت كلما حان وقت تقاضي أجرتها تصطحب معها ابنها "عمر" حتى يقوم بالحسابات ليؤكد لها إن كان السيد "غونزاليس" قد دفع لها ثمن كل النعال التي أخاطتها له و لم يغشها في الحساب.¹

وكذا كان والد "فورولو" في رواية "ابن الفقير" لـ "مولود فرعون" يجهل القراءة والكتابة مما صعب عليه عملية البحث عن العمل وحتى عندما عثر على وظيفة كان لا يفقه ما كان صاحب العمل يطالبه به كما كان وهو بباريس لا يفتأ يتوه في شوارعها لأنه كان عاجزا عن قراءة اللافتات الدالة على الاتجاه الذي ينبغي سلوكه حتى يصل إلى مبتغاه.² إضافة إلى ذلك لم يكن حظ الأطفال في قرية "فورولو" أحسن من حظه إذ الأغلبية منهم كانوا محرومين من الدراسة فكان البعض منهم يرفع الأغنام التي كانت فئة من العائلات في القرية تمتلكها والبعض الآخر كان يساعد أهله في زراعة مساحات الأرض الصغيرة التي بقيت لديهم، وقد كان هؤلاء لا يجدون أي مانع من الإسراع في الذهاب كل يوم لملاقة التلاميذ المتمدرسين عند خروجهم من المدرسة حتى يثيروا غيرتهم ويشعروهم بأنهم أحسن حالا منهم لأنهم أحرار ويمكنهم اصطيد الطيور كما يحلو لهم واللعب كما يرغبون في ذلك وليس مثلهم يبقون طول اليوم سجناء داخل جدران الأقسام والمدارس وهذا بالطبع ما يعكس التفكير السطحي والسادج لهؤلاء الصغار.³

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 132.

² Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, p 251.

³ المرجع السابق، ص 251.

زيادة على ذلك، كانت الدراسة في عصر "فورولو" تتطلب مبالغ مالية معتبرة خاصة بالنسبة لجل العائلات حينذاك التي كانت فقيرة جدا، وعليه لم يكن بإمكان كل الجزائريين الدخول إلى المدارس والتعلم اللهم إلا المتفوقين منهم الذين يتمكنون من الفوز بمنحة دراسية مثل "فورولو"، وقد كان والده يحدثه عن المشاريع التي كان يهيئها له وكيف يمكنه مساعدته في الحقل وهذا كله عندما تأخر رد إدارة المدرسة على موافقتها على إعطائه منحة دراسية وقال والد "فورولو" لابنه: "انتهت العطلة ولم يصلك أي مكتوب من قبلهم. أظن أننا أهل للمدارس؟ نحن فقراء والدراسة مخصصة للأغنياء فقط".¹

وكذا كان الطفل "عمر" في رواية "المنسج" ل "محمد ديب" الذي أرغم على مغادرة المدرسة بقرار من والدته "عيني" بدعوى أنه لا جدوى من الدراسة لفقراء مثلهم وأنها لا تستطيع دفع مصاريف الدراسة من كتب وكراريس وأقلام ومحافظ ومآزر بل يستحسن أن يعمل ليسهم في مصاريف البيت التي لم تعد قادرة عليها بمفردها.²

بناء على ما سبق نستنتج أن الأمية كانت منتشرة في الأوساط الشعبية الفقيرة سواء في فرنسا أو في مستعمراتها من بلدان الشمال الإفريقي ولاسيما الجزائر مما زاد من فقرهم وبؤسهم أكثر.

مع الإشارة إلى أن للعلم دورا مهما وأساسيا في إخراج الفرد من البؤس و الأمية والفقر وقد كان هذا حال "جان فالجان" في رواية "البؤساء" الذي استطاع بفضل علمه أن يرتقي إلى مستويات اجتماعية مرموقة وأن يتبوأ منصب رئيس بلدية بعد خروجه من السجن، لقد تغير تفكيره وسلوكه وأصبح لبقا ونبيلاً وهذا كله بفضل العلم، وكذا تمكن الطفل "فورولو" في رواية "ابن الفقير" أن ينجو من مصير والده وعمه وجل أهل قريته البائس ويخرج إلى عالم أحسن واعتلى مراتب محترمة وقد وصل إلى أن عُيِّن مسئول في الجزائر العاصمة

¹ Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, p262.

² Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 21.

وكان ذلك بسبب اجتهاده وتعلمه، لقد كان "فورولو" من الأهالي، فقير ينطلق في مضمار الحياة من الصفر وليس له من زاد سوى الشجاعة والعزيمة، فيجتاز العقبات ويلتحق بركب ذوي الامتيازات. إنه ولد من عامة الناس يرتقي إلى درجة النخبة [...] فالتفأول الملحوظ في "ابن الفقير" مرجعه إلى المدرسة"¹ وفي نفس الرواية يقول احد الدارسين أن أهم ما فيها كونها "تحمل في ثناياها ما يشبه الرسالة، رسالة رجل يؤمن إيماناً ساذجاً وعميقاً في نفس الوقت بأن المدرسة قادرة على تحرير الإنسان"² لذا كان "مولود فرعون" واحداً من "تلك الفئة الفقيرة في وطننا التي شقت طريقها بعناد على درب الحياة، فصارعت فقرها وواقعها المتخلف وبصرها مشدود إلى الأمام تعمل وتتعلم متجاوزة واقعها البائس حتى حققت ذاتها عاملة متفانية ارتبط لديها العلم بالعمل كضرورة تراها سبيلاً لكل رقي حضاري"³.

هكذا كان العلم هو السبيل الوحيد للتحرر من قيود الفقر و العبودية .

3.3 انتشار البطالة:

لعل من أهم انجازات الثورة الصناعية في أوروبا هو إدخال الآلة إلى الورش والمصانع لأنها هي الجديرة برفع نسبة الإنتاج في وقت قياسي وبأقل كلفة لأنها لا تتطلب عدداً كبيراً من اليد العاملة مما يذري أرباحاً كبيرة على أرباب العمل و لكنه كثيراً ما كان يتسبب في انتشار البطالة خاصة في أوساط الطبقات الشعبية البسيطة والمعدمة إذ بات العديد من العمال مهددين بالطرد والفصل .

¹ نسيب يوسف ،مولود فرعون حياته و أعماله، ترجمة حنفي بن عيسى ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991، ص43.

² المرجع السابق، ص 44.

³ بن قينة عمر ، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، أعلام و قضايا و مواقف، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990، ص279.

لقد كان الحداد "غوجيه" في رواية "الخمارة" لـ "إميل زولا" عاملاً مؤهلاً كما كان على قدر من الوعي والاعتدال والجدية ولكنه رغم ذلك كان دائماً يشعر بتهديد الآلة الملح لمنصبه ويتجلى ذلك في قوله: "أؤكد أن المكننة ستقتل العامل في يوم من الأيام وستحل آلة صناعة اللوالب محل العامل الحداد".¹ كما أدى إدخال الآلة إلى جعل الوظائف مؤقتة وغير ثابتة وإلى الاقتطاع التعسفي لأجور الموظفين مثلما وقع للحداد "غوجيه" و هذا ما دفعه إلى الانخراط في الحركات العمالية المناضلة من أجل الحصول على حقوق العمال.²

هذا وقد كانت المكننة تتطلب حداً أدنى من العلم والمعرفة للتمكن من تشغيلها والعمل بها وكما ذكر سالفاً فإن أغلبية العمال أميين أو أشباه أميين وعليه لم يكن الأمر بالهين على هؤلاء لإيجاد عمل وبهذا زادت نسبة البطالة في الأوساط الشعبية البسيطة التي كانت تؤدي بدورها إلى انعدام الدخل المادي لهؤلاء مما كان يوقعهم في الفقر والحاجة.

لقد بلور عالم الاقتصاد السويسري "جان دي سيسموندي" (Jean de Sismondi) في مبادئه الجديدة للاقتصاد السياسي عام 1820م، ثلاث أفكار رئيسية تتمثل في : حصر الأموال والأعمال بسبب المكننة والفائض في الإنتاج وأزماته ثم عدم تمكن الطبقة الشعبية الفقيرة من امتصاص زيادة الإنتاج تلك مما أدى إلى أزمة اقتصادية كبيرة وخائفة تسببت في فصل العديد من العمال من مناصبهم وهذا ما زاد من رفع نسبة البطالة بشكل كبير.³

وقد كانت الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها فرنسا أثناء القرن التاسع عشر أحد العوامل الأساسية التي دفعت بها إلى البحث عن أسواق جديدة لها خارج فرنسا لتمتص

¹ L'assommoire d'Emile Zola ,www.comptoirilitteraire.com

² ينظر المصدر السابق.

³ Tadié Jean-Yves, La création littéraire au 19eme siècle ,Armand Colin,Paris 2011,p

الفائض من الإنتاج الذي أنتجته المصانع والورش وكذا التخلص من الأعداد الهائلة من العمال الذين كانوا في حال من البطالة ومن الفقر الشديد الذي أدى إلى انتشار الآفات الاجتماعية المختلفة كالسرقة والقتل والإدمان وغير ذلك وبهذا بدأت فرنسا في توسعاتها الاستعمارية وبدأت من بلدان الشمال الإفريقي وعلى رأسهم الجزائر - نظرا لقربها جغرافيا منها- التي استغلت خيراتها الباطنية وأراضيها الزراعية الخصبة و تسببت في إفقار أهاليها و تشريدهم .

لقد ركز "محمد ديب" بدوره في رواية "المنسج" على ظاهرة البطالة "التي" انتشرت وتسببت في انتشار التسول، بل حتى الذين اشتغلوا في الحرف اليدوية كانوا لا يعملون إلا مدة نصف سنة فقط ثم يتوقفون خلال الأسابيع الأخيرة من الربيع وخلال الصيف كله ، فعلمهم مرتبط بأهل القرى الذين يقدمون على الشراء حينما يفرغون من الحصاد، وقد جعلت وتيرة العمل هذه بعضهم يمارس الموسيقى فيعزف في الأعراس وفي حفلات الختان وفي المقاهي خلال شهر رمضان سعيا لجمع بعض المال ولكن المؤسف أن هذا العمل الإضافي لم يمنع عن أبنائهم الفقر والجوع".¹

كما كانت "زليخة" إحدى جارات "عيني" في "الدار الكبيرة" لا تفتأ تشتكي من البطالة التي يعاني منها أبنائها، مما جعلها ترثي لحالهم باستمرار خاصة و أن عائلتها تتشكل من تسعة أفراد ولا يعمل منهم سوى واحد ولقد قالت في ذلك : "عدد الجوعى كثير أما عدد العمال قليل".² إضافة إلى والد "فورولو" في رواية "ابن الفقير" لـ "مولود فرعون" الذي كان

جور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، ص 267.¹

Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 135.

² Dib Mohammed, La grande maison, pp 57, 58.

في معظم الأوقات عاطلا عن العمل بسبب عدم توفر أي فرصة للتوظيف في القرية أو في المدن المجاورة مما دفعه إلى الهجرة إلى فرنسا.¹

ومن خلال ما سبق، يتبين لنا المفعول السلبي للبطالة على الطبقات الشعبية في البيئتين الفرنسية والمغربية ومدى تسببها في فقر هؤلاء وبؤسهم.

4.3) الأوضاع السياسية واندلاع الحروب:

كانت الظروف السياسية المضطربة و غير المستقرة و لا تزال من بين العوامل الأساسية المتسببة في ظهور الفقر في المجتمعات المختلفة.

لقد عاشت فرنسا خلال القرن التاسع عشر فترة من عدم الاستقرار السياسي بفعل أنظمة الحكم الكثيرة والمتنوعة التي عرفتها فرنسا حينذاك، من النظام الإمبراطوري إلى النظام الملكي فالجمهوري إضافة إلى مجموع الاتجاهات والتيارات كالتيار الملكي والجمهوري والوطني والاشتراكي كما شهدت عدة صراعات سياسية وإيديولوجية وحلت الملكية البورجوازية محل الملكية الإقطاعية ، لقد كان البورجوازيون "يضعون العمال الضروريين لسير "المانفكتورات" [المصانع] تحت تصرف البورجوازية الصناعية كما كانوا من ناحية أخرى قادرين على إعطاء الزراعة مستوى من التطور مناسباً لحالة الصناعة والتجارة".² و من هنا كان التحالف بين طبقة الملاكين الكبار والطبقة البورجوازية أمراً منطقياً وعادياً ولا تتناقض فيه، ويرى "بالزاك" أن "عصر الثورات لم ينته بتاتا مع تموز 1830م [و أن] النتيجة المنطقية لمواصلة تطور الرأسمالية ومواصلة التطور الموازي للديمقراطية ينبغي

¹ Akbal mehenni, Mohammed Dib conférencier, Le Prolétariat des villes , conférence présentée par Mohammed Dib , p 30.

جورج لوكاتش، بلزاك والواقعية الفرنسية، ص 30.

أن تؤدي حتما إلى ثورات يغرق فيها المجتمع البورجوازي ضرورة لمدة قد تطول أو تقصر".¹

إضافة إلى ما سبق كان القرن التاسع عشر عصر الصراعات والحروب الكثيرة ونذكر على سبيل المثال الثورات العديدة التي قادها "نابليون بونابرت" خاصة على الشعوب الأوروبية الأخرى حتى يضمها إلى فرنسا ويولي نفسه إمبراطورا عليها مثل حربه ضد روسيا وضد إيطاليا وضد إنجلترا إلى غير ذلك، إضافة إلى مشاركة فرنسا في الحرب الأهلية الأمريكية التي كانت نتائجها جد سلبية على فرنسا إذ "تأثرت ميزانيتها إلى درجة كبيرة بسبب النفقات الباهظة التي تكبدتها فرنسا خلال تلك الحرب"،² وقد أثار العجز "بونمور" في رواية "جيرمينال" لـ"إميل زولا" هذه القضية حينما كان يتساءل عن جدوى مشاركة الإمبراطور في الحرب الأمريكية.³ لم يكن "بونمور" يشكك في الإمبراطور ولم يكن يُلَمِّه إلا على انشغاله بمعارك بعيدة بدل تركيز جهوده بقوة في سبيل إنهاء البؤس البروليتاري الذي ينهش بلده.⁴

هذا وقد كان الانقلاب الذي وقع بين الثوار ورجال الحرس الوطني في متاريس شارع "سانت أنطوان" وضواحيه، من المعارك الخالدة والأكثر دموية في تاريخ الثورة الفرنسية الثانية التي وقعت عام 1830م والمعروفة أيضا باسم ثورة جويلية.⁵

لقد كانت هذه الحروب جد مكلفة بالنسبة لفرنسا وكانت نتائجها وخيمة على المستويين الاجتماعي والاقتصادي مما أدى إلى تفشي الفقر والبؤس والشقاء والإجرام والسرقة إلى

¹ جورج لوكتاش، بلزاك والواقعية الفرنسية، ص 31.

² عبد العزيز سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين ، التاريخ الأوروبي الحديث ،من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ،دار الفكر العربي ، مصر 1999 ،ص288

³ Zola Emile, Germinal, p17.

⁴ Vial André Marc ,Germinal et le socialisme de Zola, Editions sociales ,Paris 1975,p56

⁵ المصدر السابق، ص 141.

غير ذلك و يتجلى ذلك في الكلام الذي ورد على لسان العجوز "بونمور ماهو" في رواية "جيرمينال" حين قال: "شهدت منطقة مونتسو فترة رخاء ورفاهية في الماضي ولكن في الأوقات الراهنة وبسبب حروب نابوليون وخاصة مشاركته في الحرب الأمريكية تدهورت أحوال البلاد وأغلقت العديد من المعامل والورش وعن قريب ستمتلئ الشوارع بالمتسولين".¹

لقد اهتم كتاب الواقعية بتصوير الفقر وتجسيد آثاره السلبية لأن "الحديث عن الفقر باعتباره مشكلة اجتماعية وأزمة اقتصادية أوسع دلالة عندما تتناول الأعمال الإبداعية، والملفت للنظر أن الكتاب أصبحوا يعبرون بشجاعة عن الصلة الوثيقة بين الفقر ومآسي الحياة والمظالم الموجودة على أرض الواقع وخاصة المتعلقة بالجوانب السياسية. فالأزمة السياسية تكون في الغالب هي المسؤولة عن الأزمات الأخرى، ونجد أن معظم الأزمات السياسية مرتبطة بالتواجد الاستعماري".²

وفي العقد الثالث من القرن التاسع عشر تعرضت المناطق المغربية ولاسيما الجزائر إلى الاحتلال الفرنسي "وعلى الرغم من التطور الهائل الذي حدث في الأجهزة السياسية والاقتصادية والثقافية للبرجوازية الفرنسية، فلم يفدها ذلك في تغيير نظرتها للدول المتخلفة التي أقدمت على استعمارها بحجة "نشر الحضارة" أو الوقوف في وجه "الزحف الشيوعي" بقدر ما أسهم في تعميق النزعة الاحتكارية لديها بإنشاء الإنتاج الضخم على حساب الإنتاج الصغير والضروري لحياة المواطن، ويتطور الأساليب القمعية لممارسة الاضطهاد بالوسائل الأكثر حداثة وإتقاناً وترك الجماهير الشعبية على هامش الحياة السياسية التي كانت تعيشها البلاد".³

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 16, 17.

جور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، ص 261.

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 19.

ومن هنا قامت البورجوازية الفرنسية بتحويل أرض الجزائر منذ البداية إلى "مصدر لاستثماراتها ومشاريعها ونقل اقتصادها وعلاقات الإنتاج السائدة بفرنسا إلى الجزائر التي توجهت مرغمة توجها جعل منها جمهورية فرنسية صغيرة حيث لا يحسب فيها حساب إلا لمصالح الكولون الفرنسي فتكوّن في النهاية ما سمي بالاقتصاد الكولونيالي الذي حمل الخصائص الجوهرية التالية:

- الغلبة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأقلية الاستعمارية.
- بقاء الجماهير المستعمرة في حالة دائمة من الانحطاط على المستويات الأساسية للوجود الإنساني (التغذية، الثقافة، مجالات العمل، الحريات الأساسية للمواطن...)
- التسويق المباشر للخيرات الطبيعية للبلاد، بدل استغلالها في أرض الوطن.
- احتكار أجود الأراضي والمغروسات الأكثر مردودا وتوجيه الإنتاج الزراعي بما يتلاءم والمصالح الكبرى للاستعمار".¹

فمنذ "إقامة المعمرين الأوائل فوق التراب الجزائري كان الميزان دائما لمصلحة المستوطنين الفرنسيين وخسارة السكان المحليين. فالمعمرون يمثلون بالنسبة لفرنسا الطفل المدلل".² وفي هذا السياق قال "موريس فيوليت": "إن كافة الممتلكات الخاصة بالكروم ومزارع الحمضيات والقطن والأراضي الخصبة التي تزرع بالحبوب كلها في يد الأوروبيين كما أن هؤلاء يمتلكون من جهة أخرى كامل النشاط الصناعي وثلاثة أرباع النشاط التجاري".³

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 20.¹

عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 - 1967)، ص 19.²

المرجع السابق، ص 23.³

وعليه لم يعد الفلاحون "يملكون سوى الأراضي الرديئة الصخرية وكان الثلث من هؤلاء السكان قد أصبحوا من البروليتارية الرثة البائسة دون عمل منتظم لا يجدون الخبز في أغلب الأحيان".¹

إضافة إلى سلبه للأراضي، قام المحتل الفرنسي بمكننة الفلاحة "التي أغنت الغني وأفقرت الفقير، لقد قضى على طرق العمل التقليدية التي كانت تضمن سلامة [الفلاحين] الاقتصادية"،² لقد كان هدف المحتل هو تكوين "إقطاعية بورجوازية يصبح له فيها دور السيد وللأهالي الأصليين دور الخدم".³

هذا وقد زادت الحرب العالمية الثانية الأوضاع تفاقمًا وفي هذا الصدد كتب "مولود معمري" قائلاً: "كانت الأوضاع المعيشة قبل الحرب قاسية أما حالياً فلم يعد المرء يصمد إلا بفضل الأولياء الصالحين الذين يحرسون البلاد بسلطتهم الخارقة"⁴ وكانت رواية "ابن الفقير" لـ "مولود فرعون" تكشف عن معاناة المجتمع الجزائري في منطقة القبائل أثناء السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الأولى وحتى نهاية العشرينات من القرن العشرين.

ولعل ما زاد الطين بلة اندلاع الحرب العالمية الثانية التي استمدت فيها وطأة الفقر والجوع و"أضحت الأسر الجزائرية تدبر أموراً لتتمكن من إنهاء الشهر، أما اللحم فأصبح من السلع النادرة في البيوت وناب عنه الكسكس كطعام يتقاسمه الجميع [...] ويحكى أن النساء [...] لم يكن يملكن إلا فستاناً واحداً يتداول بينهن، فإن خرجت إحداهن انتظرت الأخريات رجوعها لتتمكن الواحدة منهن - بدورها - من الخروج، ويحكى كذلك أن أحد

الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 26.¹

² المرجع السابق، ص 25.

³ المرجع السابق، ص 25، 26.

⁴ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 236, 237.

الأطباء وجد في بطن شاب -عُثر عليه ميتا على قارعة الطريق- حزمة من العشب الذي لا يهضم".¹

لقد جاءت الحرب لتزعج منطقة القبائل المغلقة والمحمية، لقد أخبر "أكلي" زوجته "دافدا" في رواية "الربوة المنسية" لـ "مولود معمري" باندلاع الحرب العالمية الثانية وقامت هي بنشر الخبر بين النساء الأخريات وبهذا أصبح موضوع الحرب هو الحديث المشوق والمثير للعائلات كل ليلة.² لقد كان الكل ينتظر التغيير مع اندلاع الحرب ولكن الواقع كان عكس المنتظر، إذ زاد عدد الفقراء والمتسولين والمشردين الذين كانوا يحضرون إلى قرية "تاسغا" وكانت "دافدا" تجود عليهم مما عندها دون أي بخل أو تردد ولكنها لم تكن قادرة على مواجهة الفقر والبؤس الذي حل بقريتها.³

لقد كان الكل في قرية "تاسغا" يتساءل عن سبب تدهور أوضاع القرية، هل هي الحرب فعلا؟ لم يكن أحد يفهم شيئا وفي آخر المناقشات كان الكل يضع كل اللوم على عاتق حكومة فوضوية ومحايدة تسمح "لأكلي" أن يضغف ثروته بينما يموت الآخرون من الجوع أمثال إبراهيم وزوجته سكورة وأطفالهما.⁴

وقد أكد "مولود فرعون" المعلومة السابقة، مبينا أن الأوضاع المعيشية باتت لا تطاق، فقد وصل ثمن فستان نسائي قبائلي نفس ثمن فستان صمم في أحسن دور الخياطة بباريس.⁵

كما كان الاحتلال الفرنسي والحرب العالمية الثانية سببا في تدهور المستوى المعيشي لسكان "دار سبيطار" في رواية "الدار الكبيرة" وفلاحى قرية "بني بوبلن" بريف تلمسان في

جبور أم الخير، الرواية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، ص 265.¹

Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 62.

² Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 25.

³ المصدر السابق، ص 61، 62.

⁴ المصدر السابق، ص 62.

جبور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، ص 265.⁵

رواية "الحريق" وعاملي مصنع النسيج في رواية "المنسج" لـ "محمد ديب"، لقد كان الكل جائعا وباردا، لقد كثر العاطلين عن العمل والذين يعملون طول النهار مقابل أجر ضعيف لا يكفيه لسد احتياجات عائلته اليومية.

هكذا أسهمت الحروب في خلق أزمات اقتصادية واجتماعية حرمت الفئات الشعبية من حقوقها واستغلتها إلى أقصى درجات الاستغلال سواء في المجتمع الفرنسي أو المجتمع المغربي.

5.3) انتشار ظاهرة الإدمان:

يُعتبر الإدمان من بين الآفات الأكثر سلبية نظرا لعواقبها الوخيمة على صاحبها و على المجتمع ككل ،لقد خصص إميل زولا رواية كاملة لهذا الموضوع و تتمثل في رواية "الخمارة" التي ركز من خلالها على آفة الإدمان على الخمر التي وقعت فيها "جيرفيز" و زوجها "كوبو"،لقد كان هذان الزوجان يعيشان حياة سعيدة و مريحة ، كان "كوبو" يعمل في الحدادة أما "جيرفيز" فكانت تعمل في محل لغسل الملابس و لقد استطاعا أن يوفرا معا مبلغا كافيا يسمح لجيرفيز بتحقيق حلمها وإنجاز مشروعها المتمثل في فتح محل خاص بها لغسل الملابس و لكن تعرض "كوبو" لحادث خطير حال دون ذلك إذ أنفق كل المبلغ في علاجه.¹ و من ثم وقع كوبو في حال من الاكتئاب الشديد ففقد ثقته بنفسه و لم تعد لديه الجرأة الكافية للعودة إلى عمله مما جعله يلجأ إلى شرب الخمر حتى يهرب من واقعه المرير² ، أما جيرفيز فقد نجحت في فتح محلها و ذلك بعدما أقرضها جاراها الحداد "غوجيه"المبلغ اللازم للإيجار³ و كانت ناجحة في عملها و لكن إدمان زوجها أثر

¹ Zola Emile, L'assommoir, pp 146 ,147 et p 155

المصدر السابق، ص 186.

³ المصدر السابق ، ص 156، 157.

فيها سلبا مما جعلها تهمل عملها شيئا فشيئا حتى فقدت كل زبائن¹ها و هكذا حتى أغلقت محلها و سقطت هي الأخرى في آفة الإدمان على الخمر.

وبهذا تتحول حياتهما إلى كابوس مرعب لقد فقدتا كل شيء حتى مسكنهما إذ أجبرا على الانتقال إلى مسكن أصغر من حيث المساحة في الطابق العلوي لأن إيجاره أقل تكلفة و قد زاد ذلك من ضيق "جيرفيز" ومأساتها² ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد بل وصلت بها إلى درجة العجز عن إيجاد ما تأكله فقد كانت تكتفي أحيانا برغيف من الخبز طول النهار أو تبقى صائمة لعدة أيام³ ، لقد كان الإدمان لايفتا ينزل بهم إلى الهاوية إلى أن مات "كوبو" في مصحة للأمراض العقلية بعدما أصيب بالجنون بسبب الإدمان⁴ وماتت "جيرفيز" بعد فترة وجيزة من ذلك بفعل البرد والجوع⁵ و هذا بعدما فقدت مسكنها وأصبحت تعيش في زاوية من رواق العمارة و هو المكان الذي كان يسكن فيه "الأب برو" العجوز المعدم حتى مات فيه.

هكذا يعمل الإدمان على القضاء على الإنسان ماديا ومعنويا، لقد سلب "كوبو" و "جيرفيز" أموالهما وعمليهما وسمعتيهما، لقد فقدتا احترام الناس لهما بل وحتى احترامهما لنفسهما.

و في المقابل كان زوج عيني في الدار الكبيرة نجارا ماهرا فهو من صنع تقريبا كل الأعمال الخشبية للمنازل الفاخرة و الجميلة آنذاك و لكنه كان مدمنا على شرب الخمر مما أدى إلى ضعف صحته و تدهورها شيئا فشيئا إلى أن مات⁶.

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 169, 170.

² المصدر السابق، ص 371، 372.

³ المصدر السابق، ص 462، 463.

⁴ المصدر السابق، ص 514.

⁵ المصدر السابق، ص 416.

⁶ Dib Mohammed, La grande maison, p 137.

كما كان "محمد شراك" في الرواية نفسها من أحسن عمال النسيج حينذاك و من أشهر الرياضيين في مدينته و لكنه سرعان ما فقد كل شيء عندما شرع في شرب الخمر و الإدمان عليه ، لقد ضيع سمعته إذ أصبح الأطفال يجرون وراءه و يرمونه بالحجارة و يشتمونه ، لقد كانوا يرددون عبارة "ديدو بوراشيو" حتى يستفزونه أكثر¹، و قد حاول "سي صالح" أحد الرجال الصالحين و الحكماء أن ينصحه و يقنعه بضرورة الإقلاع عن تلك العادة السيئة التي صيرته إنسانا منحطا و فقيرا و لكنه سرعان ما تفاجأ برد فعله السلبي و عدم ندمه على سلوكه أما عن المال فهو موجود لديه و بدأ برمي قطع من الدراهم حوله في الشارع و سارع الأطفال إلى جمعها.²

إضافة إلى "مصطفى رزاق" في رواية المنسج الذي لا يكاد يفيق من سكره و عندما سأله المفتش "نفاف" (Nefnaf) و هو يخرج من باب الزنزانة قائلا: "ألا تخجل من نفسك و أنت تمضي كل حياتك في السكر؟ يجيبه: "لقد عملت طول حياتي لأحسن من أوضاعي و لكن لا شيء تغير و عليه قررت أن أعمل حتى أتحصل على ما يكفيني لشرب الخمر". ثم رد عليه المفتش و هو يدفعه خارج الزنزانة: "أنت ستهلك يا مصطفى". فأجابه مصطفى: "ما فائدة الحياة؟ لا شيء إذن فأنا سأشرب حتى أنسى حمق الناس".³ هذا وقد كان المغتربون من شمال إفريقيا أو كما يُلقبون بـ (Les norafs) في رواية "التيوس" لإدريس شرايبي غالبا ما يدمنون شرب الخمر ليهربوا من واقعهم المرير ، لقد كانوا يعيشون مع بعضهم البعض و يتشاجرون و يضحكون و يكون و كان كل منهم مقتنع أنه لا يتشاجر مع إخوانه من المنطقة المغربية بل كان يتصارع مع حياته البائسة

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 136.

المصدر السابق، 137.

³ Dib Mohammed , Le métier à tisser ,p92.

و المنبوذة .¹ و قد قال بطل الرواية "يلعن والديك" : "إن شرب الخمر هو وسيلة لقتل كل أمل في الرجوع إلى الذات و الحفاظ على صورة المنبوذ (Le bicot) في ذاكرتي".²

كما كان الأديب التونسي "محمد العروسي المطوي" في روايته "التوت المر" يطرح قضية الإدمان و لكن ليس على الخمر بل على الحشيش أو المخدرات التي أطلق عليها اسم "التكروري" و هو لا يقل ضررا عن الخمر ، لقد قدم لنا الأديب شخصية "سي حميدة" و هو جالس في ركن من أركان المقهى و هو "منهمك في تفنيت التكروري و خلطه بالسوفي".³

لقد كان "سي حميدة" منذ عشر سنوات "زينة القرية وحديث المجالس والدكاكين... تاجر كبير في الأقمشة والكتان، مَنْ مِنْ أهل القرية لم يقتن من فاخر ألبسته وبيدع قماشه؟ كل ديار القرية مدينة لـ "سي حميدة"، الحوالات البريدية تتوارد عليه من تونس وسوق الأربعاء وتوزر..."⁴، لقد ذهب "سي حميدة" إلى المدينة حيث صنع ثورته ثم عاد مرة أخرى إلى قريته "منتفخ الجيوب بالفلوس واللويز الأحمر... وتدور الأيام! وإذا النجم إلى أفول، يهوي على الأرض لا جذوة فيه... انقضت الهالة التي كانت تحيط به... وعادت القرية إلى الحديث من جديد عن "سي حميدة" فر عنه الأصدقاء و المتزلفون... جفاه الأقارب والأبعاد... صديق واحد ظل وفيا له... السبسي... سبسي التكروري! سبب العلة واصل البلية"،⁵ لقد خسر "سي حميدة" تجارته و "فقد ماله وجاهه... وأي شيء بعد كل ذلك؟"⁶

¹ Chraïbi Driss , Les boucs ,p 136

² المصدر السابق، ص 155.

³ محمد العروسي المطوي، التوت المر، ص 144.

⁴ المصدر السابق، ص 145.

⁵ المصدر السابق، ص 145.

⁶ محمد العروسي المطوي، ص 145.

من هنا يتجلى لنا ذلك التقارب الشديد بين قصة "جيرفيز" وقصة "سي حميدة" ، لقد استطاع كل منهما أن يرتقي إلى أعلى المستويات ماديا ومعنويا لقد كان كل منهما مسئولا عن عمله ويملك عمالا تحت مسؤوليته لقد كان لهما أمولا وسمعة حسنة وكذا لم يقعا في الإدمان هكذا من تلقاء نفسيهما بل كان هناك من دفعهما وساعدهما على السقوط، لقد كان "كوبو" هو المتسبب الرئيسي في سقوط "جيرفيز" في الإدمان لقد كانت دائما تتفادى الدخول إلى الحانات أو التردد على مجالس يوجد فيها خمر ولكن زوجها جرّها إلى هناك وشجعها على شرب الخمر إضافة إلى مختلف المشاكل التي كان يخلتها وكانت دائما تنغص عليها حياتها وهكذا حتى سقطت في الإدمان وأضاعته كل شيء جميل فيها وفي كل حياتها لقد أصبحت بدينة وفقدت كل أناعتها وجمالها كما فقدت كل أموالها ووصل بها الأمر إلى حد التسول وكذا كان "سبسي التكروري" هو السبب في إيقاع "سي حميدة" في الإدمان والقضاء على حياته ومستقبله، فبعدما كان ثريا وصاحب أملاك أصبح فقيرا ومعدما.

وهكذا تلقي الشخصيات الروائية سواء الفرنسية منها أو المغربية في كونها اتجهت نحو الإدمان لتهرب من واقعها المرير ومعاناتها القاسية ولكن سرعان ما أفقدهم ذلك كل ما كانوا يملكونه من غنى مادي ومعنوي فعرفوا الفقر الحقيقي.

4 (مظاهر الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية:

لم يكتف الأدباء الفرنسيون والمغربيون معا بوصف ظاهرة الفقر فحسب بل تغلغلوا إلى أعماقها ليصوروها من زواياها المختلفة حتى يقدموا للمتلقي صورة شاملة ومتكاملة عنها. ومن أهم مظاهر الفقر البارزة في الروايتين الفرنسية والمغربية نذكر:

1.4 (ظاهرة التشرد:

لقد كانت ظاهرة التشرد من أهم مظاهر الفقر البارزة في الروايتين الفرنسية والمغربية، وتتجلى خاصة في رواية "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" وبالذات في شخصية "جان فالجان" بطل الرواية الذي قضى العديد من سنوات عمره في السجن وقد عرف التشرد وعاشه فور خروجه إلى العالم الخارجي إذ لم يكن لديه بيت أو أسرة يأوي إليه ولم يكن لديه أي مصدر للمال أو للرزق، لقد كان ينتقل من مكان إلى آخر وقد رفض أصحاب المطاعم والنزل إيواءه وتقديم وجبة دافئة له، لقد رفضه الكل خاصة عندما اكتشفوا أنه سجين سابق،¹ وعندما يؤس واصل طريقه ولكنه سرعان ما عثر على بيت صغير مخصص للكلاب وأوى إليه حتى يأخذ قسطاً من الراحة لأنه كان منهكاً، ولم تمر إلا بضع لحظات على ذلك حتى حضر الكلب وبدأ بالنباح عليه حتى يخرج من بيته وهو ما زاده هما وحزنا لأنه لم يسلم حتى من الكلب الذي رفضه وطرده.²

إضافة إلى "جان فالجان"، قدم لنا "فيكتور هوغو" صورة مفصلة عن أطفال الشوارع الذين كانت أزقة باريس تعج بهم ، لقد أطلق عليهم "هوغو" اسم أطفال باريس أو بصيغة أدق "طفل باريس"، وقال عنه: "هو قزم تلك العملاقة، القزم هو الطفل والعملاقة هي مدينة باريس،"³ كان هؤلاء الأطفال المشردون يعكسون درجة الفقر التي يعيشونها: فإن كان لهم قميص فليس لديهم سوى قميص واحد، وأحياناً كانوا يملكون أحذية ولكن بدون نعال، وهناك من كانت لديهم منازل يحبونها لأنها تضم أمهاتهم ولكنهم يفضلون الشارع لأنهم يجدون فيه الحرية، يمتلك أطفال الشوارع ألعابهم الخاصة وحيلهم ومكرهم ودهاءهم مما جعل البورجوازيون يكرهونهم، لأطفال الشوارع لغتهم الخاصة وهي لغة رمزية مجازية لا

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 87 – 94.

² المصدر السابق، ص 100، 101.

³ المصدر السابق، ص 105.

يمكن لأي خارج وسطهم فهمها ولديهم حرف خاصة كإحضار سيارات الأجرة لكل من يطلبها منهم ومساعدة بعض المسافرين من نزول درج العربات في الطرق العامة...¹

ينحدر هؤلاء الأطفال من عائلات فقيرة ومعدمة، لقد كان الفضاء الخارجي متفسمهم الوحيد وكانت الضواحي ملكهم وقد جعلوا منها مأواهم عند هروبهم من المدرسة، يرددون فيها أغانيهم الدنيئة، إنهم يتواجدون هناك بعيدا عن كل الأنظار، وفي أجواء شهر ماي أو جوان الدافئة يجتمعون حول حفرة ليلعبوا "الكريات" وعندما يلحون أي شخص غريب عنهم يهرعون إليه حتى يعرضوا عليه ما لديهم من بضاعة كجوارب قديمة أو باقات من الليمون . وفي وسط هؤلاء الذكور نلمح بعض البنات الصغيرات و اللاتي يقتربن من سن الشباب، فهل هن أخوات لهؤلاء الذكور؟ إنهن ضعيفات ومرهقات يعلوهن نمش وعلى رؤوسهن سنابل الجودار وشقائق النعمان، سعيدات حافيات، وفي المساء تُسمع ضحكاتهن في تلك الأجواء الدافئة والمضيئة بضوء النهار الساطع.²

وقد كان الطفل "غافروش" أحد هؤلاء الأطفال المشردين، لقد كان منبوذاً من عائلته، عائلة "تيناردييه" التي رفضته وألقت به في الشارع الذي احتضنه وآواه وكان نادرا ما يذهب لزيارة أهله وعندما يُسأل من أين جاء؟ يجيبهم من الشارع وعندما ينصرف يسألونه أيضا: إلى أين أنت ذاهب؟ يجيبهم إلى الشارع،³ لم يكن "غافروش" يشعر بالراحة إلا في الشارع، لم يكن لديه الخبز ولا الدفء ولا المنزل ولا المحبة ولكنه كان سعيدا لأنه كان حرا.⁴

هكذا كانت ظاهرة تشرد الأطفال في الأدب الفرنسي بارزة خاصة عند "فيكتور هوغو" الذي كان حريصا على نقل الواقع الفرنسي، صحيح أنه كان في معظم الأوقات ينظر إلى

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 1, p 105.

² المصدر السابق، ص 109، 110.

³ المصدر السابق، ص 124.

⁴ المصدر السابق، ص 123.

هؤلاء بنظرة الأديب الرومانسي المشفق عليهم لأنهم ضحايا المجتمع الرأسمالي الذي جعل الأموال والثروات في يد فئة من الشعب وهي الطبقة البورجوازية التي كانت قريبة من الشعب في الماضي لكن سرعان ما تخلت عن مبادئها الإنسانية وانقلبت على الضعفاء من الشعب من عمال وفلاحين بسطاء أي من أبناء الطبقة الشعبية أو البروليتارية وما هؤلاء الأطفال المشردين في شوارع باريس وضواحيها إلا نتيجة للأوضاع المزرية التي كانت تتخبط فيها العائلات الفرنسية حينذاك والتي لم تكن قادرة على إعالة أطفالها فبمجرد بلوغهم سن العاشرة أو الحادي عشر من عمرهم يغادرون الأسرة سواء بمحض إرادتهم أو رغما عنهم حتى يتكفلوا بأنفسهم ويخففوا الضغط على عائلاتهم.

وفي المقابل قدم "محمد ديب" في روايته "الدار الكبيرة" و "الحريق" صورة حية عن أطفال الشوارع في مدينة تلمسان و ضواحيها و كانت قريبة من الصورة التي رسمها "هوغو" لأطفال باريس و ضواحيها. كان الأطفال في رواية "الدار الكبيرة" عادة يلتقون أمام المدرسة عند خروج التلاميذ على الساعة الحادية عشر ومن ثم ينقسمون إلى فريقين وتبدأ معركة الحجارة التي تدوم عدة ساعات وغالبا ما كانت دامية،¹ يتشكل الفريقان من أطفال ينتمون لأحياء مختلفة وكان من بينهم قناصين بارعين، لقد كان فريق "عمر" يفوز في معظم الأوقات بفضل مهارته وتهوره وعندما نذكر أطفال "الرحبية" وكأننا ذكرنا الشياطين فلم يكن بإمكان أي شخص أن يعيدهم إلى رشدهم وكم من مرة طاردوا خصومهم حتى وسط المدينة وإلى الحوض الكبير وهم يزرعون الذعر وسط سكان المدينة الهادئين. وفي أيام فصل الشتاء البارد كانوا كعصابة من الذئاب يغزون الورش ويقتلعون الألواح الخشبية ليحرقوها، لقد كانوا يشعلون النيران ويجتمعون كلهم حولها ، صغارا وكبارا، ويطلقون صرخات غريبة حتى يمزقوا الصمت المحيط بهم.²

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 27.

المصدر السابق، ص 25، 26.

كما كانت علامات الفقر والبؤس تبدو عليهم مثل أطفال باريس في رواية "البؤساء" لقد كانوا يشبهون الجراد في نحافتهم وعصبيتهم، لقد كانت ملابسهم عبارة عن كومة من الخرق البالية وكانوا يحمون أرجلهم بجلود الخرفان التي يشدون بها بخيوط من الحلفاء وغالبا ما كانوا يجرون حفاة.¹ وغالبا ما كان هؤلاء يبدون قلة احترامهم للأشخاص المحترمين الذين كانوا ينعنونهم بعديمي الفائدة ولكنهم لم يكونوا يأبهون لذلك.² لقد كانوا يتواجدون في الشوارع المختلفة، يقفزون بأرجل حافية و كانت شفاههم سوداء وأطرافهم كأطراف العنكبوت وعيونهم كانت تبرق من جراء الحمى.³

كما كان هؤلاء الأطفال مثل أطفال "فيكتور هوغو" ينحدرون من عائلات فقيرة ومعدمة وحتى بيوتهم كانت تفتقر إلى أدنى شروط الراحة فلم تكن تصلح إلا للنوم وعليه كان الأهل يحبذون إمضاء أبنائهم اليوم كله في الشارع و لكنهم سرعان ما ينتابهم القلق كلما حل الليل دون رجوعهم و قد كانت "عيني" من بين هؤلاء الأهل الذين يشعرون بالانزعاج الشديد كلما رأت أبنائها في البيت مع بعضهم وكانت لا تفتأ تنتهرهم وتدعي عليهم بالشر لأن رؤيتهم تذكرها بفقرها وعجزها على توفيرها الخبز لهم . لذا كانت لا تفتأ تنتهر "عمر" كلما تأخر في الخروج من البيت وتصفه بالفتاة و لم تكن تجد أي مانع من ضربه بصورة وحشية أحيانا.⁴

لقد كان "عمر" على غرار "غافروش" في رواية "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" يحب الشارع كثيرا لأنه يشعره بنوع من الحرية وغالبا ما كان يحس بالضيق خاصة في "دار سبيطار" التي يشبهها بالسجن،⁵ لقد كان وهو في الشارع يجري تارة ويغني تارة أخرى ويشتم أخرى،

¹ Mohammed Dib. L'incendie, p 8.

² Dib Mohammed, La grande maison, pp 26, 27.

³ المصدر السابق، ص 28.

⁴ المصدر السابق، ص 12.

⁵ المصدر السابق، ص 115.

إلا أنه لم يكن بنفس سعادة "غافروش" بل كان دائما يشعر في قرارة نفسه بعدم الرضا عن حاله و أوضاعه و كان يطمح إلى ما هو أفضل إلى حرية وطنه مثلا.

ومما سبق يتضح أمامنا درجة الاقتراب بين صورة أطفال الشوارع سواء عند "محمد ديب" أو عند "هوغو" نظرا للتشابه الكبير في أوضاعهم المعيشة ولاسيما حال الفقر ولكن يختلف "محمد ديب" عن "هوغو" ولاسيما في "الدار الكبيرة" حين جعل الأطفال يبدون أكثر عنفا من أطفال باريس وقد يعود ذلك إلى شعورهم بالرفض على المستوى الداخلي من قبل أهلهم وعائلاتهم وعلى المستوى الخارجي من قبل المجتمع الكبير وسلطات المحتل الفرنسي وكذا المعمرين، لقد كان الكل يرفضهم ويشتمهم وينعتهم بأبشع الصفات وهذا ما يبرر ردود أفعالهم تلك.

إضافة إلى ذلك لم يدرج محمد ديب العنصر الأنثوي ضمن هذه المجموعات من الأطفال مثلما هو لدى "فيكتور هوغو" نظرا للاختلاف في الذهنيات، لقد كانت العادات الجزائرية والثقافة العربية الإسلامية خاصة ترفض اختلاط البنات بالأولاد وكذا خروجهن خارج بيوتهن حتى من أجل الدراسة فكم من فتاة حرمت من نعمة التعليم بسبب العادات والتقاليد ولم يكن يُسمح لهن بالخروج إلا في ظروف استثنائية وكنن دائما مرفقات بأبائهن أو إخوانهن.

2.4 الفقر وسوء التغذية:

كثيرا ما يرتبط الفقر بسوء التغذية أو بعبارة أدق بالجوع، لقد اهتم العديد من الأدباء في مختلف العصور والأزمنة بهذه الظاهرة لأنها موجودة في كل زمان حتى في البلدان الغنية ، فالتغذية مرتبطة بحياة الإنسان فلا يمكن لأي مخلوق على وجه الأرض أن يستغني عن الطعام حتى الزهاد والمتصوفون الذين يقضون معظم وقتهم في الصيام.

لقد خصص الروائيون الفرنسيون وكذا المغاربة مساحة معتبرة لطرح هذا الإشكال الحساس والعويص ويتجلى ذلك في رواية "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" وبالذات من خلال شخصية "جان فالجان" بطل هذه الرواية الذي قضى حوالي تسع عشرة سنة من عمره في السجن بسبب الجوع، لقد كان "فالجان" يساعد أخته في تربية أبنائها وقد توقف عن العمل نظرا لقلة الشغل في تلك المنطقة ووجد صعوبة في إعالة أبناء أخته الذين ساءت أحوالهم وتغذيتهم خاصة وذات يوم لم يكن في البيت أي شيء يؤكل ولم يحتمل "فالجان" رؤيتهم يتضورون من الجوع وقد حاول طول النهار إيجاد عمل ما ليربح منه القليل من المال ليشتري لهم بعضا من الزاد و لكن دون نتيجة مما دفعه إلى كسر واجهة مخبزة وسرقة رغيف خبز و هذا ما أدى إلى سجنه لعدة سنوات.¹

لقد كانت تغذية هؤلاء الصغار سيئة وناقصة منذ سنوات لذا كثيرا ما كانوا يذهبون إلى إحدى الجارات، وهي مزارعة وصاحبة أبقار، ليطلبوا منها القليل من الحليب باسم والدتهم حتى تلبي طلبهم وكانوا بعدما يتحصلون على الحليب يختبئون في مكان معين ثم يشربونه وقد كان "جان فالجان" يسد مبلغ الحليب للمزارعة دون علم أخته حتى لا تعاقبهم.²

كما كان الأب "مابوف" (Mabeuf) في رواية "البؤساء" - وهو بستاني يهتم بزراعة أشجار النيلة ويبلغ من العمر ثلاثين سنة- لا يكاد يجد قوت يومه ففي إحدى وجباته لم يكن لديه سوى عظم فيه القليل جدا من اللحم ورغيف خبز.³

وكذا كان الطفل "غافروش" لا يأكل كل يوم حتى وإن أكل فهو لا يشبع و"ذات مساء و هو مختلي بنفسه يتذكر أنه لم يتناول وجبة العشاء و لا وجبة الأمس أيضا".¹

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 111.

² المصدر السابق، ص 111.

³ المصدر السابق، الجزء الثاني، المجلد الأول، ص 398.

كما قدم لنا "فيكتور هوغو" في الرواية نفسها مشهدا مؤثرا عن طفلين جائعين لمحا كعكة كبيرة في حوض البجعات كان قد رمى بها طفل ثري لأنها لم ترقه وانقض الطفل الأكبر على الكعكة وسحبها إليه بسرعة بواسطة عصا قبل وصول البجعات إليها و الانقضاض عليها و من ثم مباشرة أعطى الحصة الأكبر لأخيه الأصغر وترك القطعة الصغرى له وقد التهماها بسرعة رغم أنها كانت مبللة لأنهما كانا جد جائعين.²

وزد على ذلك صورة الطفل الجائع الذي لم يكن يبكي أو يئن من شدة الجوع ولكنه كان دائما يُرى أمام مدفأة معطلة وبالضبط حيث الأنبوب المثبت بتراب أصفر، لقد كان ينتزع بأنامله الرقيقة شيئا من هذا التراب كل يوم ليأكله،³ وهكذا إلى أن توفي وعند تشريح جثته وجد الطبيب نوعا من الطين في معدته وبقايا الرماد عالق بين أسنانه.⁴

إضافة إلى رواية البؤساء، لقد خصص "إميل زولا" مجالا مهما في روايته "الخمارة" و "جيرمينال" لطرح قضية الجوع وسوء التغذية ويتضح ذلك جليا في شخصية "جيرفيز" بطل رواية "الخمارة" التي كانت تبقى جائعة لمدة طويلة، وتقول أنها بقيت ذات مرة لمدة ست وثلاثين ساعة بدون وضع أي شيء في فمها،⁵ وذلك بعد أن سقطت في آفة الإدمان على شرب الخمر وفقدت عملها. لقد كانت "جيرفيز" تحلم بوجبة ساخنة في عز الشتاء البارد،⁶ لقد أصبح الأكل بالنسبة إليها شيئا غاليا وحلما بعيد المنال، لقد تألمت كثيرا من شدة الجوع،⁷ وقد بقيت على تلك الحال إلى أن لقيت حتفها.⁸

¹Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 1, p. 445

²المصدر السابق، الجزء الثالث، المجلد الثاني، ص 252.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, p 211.

⁴المصدر السابق، ص 212.

⁵ Zola Emile, L'assommoir, p 416.

⁶المصدر السابق، ص 462.

⁷المصدر السابق، ص 466 و ص 476.

⁸المصدر السابق، ص 515، 516.

هذا وقد عاشت عائلة "ماهو" أيضا في رواية "جيرمينال" لـ "زولا" أياما عويصة وعرفت الجوع الحقيقي خاصة أثناء الإضراب الذي دام عدة أيام،¹ مع العلم أن أوضاع عائلات عمال المناجم بمنطقة "مونتسو" ومن بينهم عائلة ماهو لم تكن أحسن حالا قبل الإضراب بل كانوا لا يجدون دائما ما يسد رمقهم ولا يأكلون حتى يشبعوا وكانوا يكملون الأيام الأخيرة قبل تقاضي أجورهم بصعوبة شديدة،² لقد كان الخبز دائما ناقصا.³

وعلى غرار الروايات الفرنسية، اهتمت الروايات المغربية ولاسيما الجزائرية منها بهذا الموضوع، وتعد رواية "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب" من أهم الروايات التي طرحت قضية سوء التغذية أو نقص التغذية بمعنى أدق، لقد سميت برواية الخبز إذ افتتح الروائي عمله بمشهد يمثل تصارع التلاميذ وهم في فناء المدرسة الابتدائية على رغيف من الخبز،⁴ لقد كان للطفل "عمر" بطل هذه الرواية طرق خاصة للحصول على الخبز، لقد كان يدافع عن بعض الأطفال الضعفاء الذين كانوا يكافئونه بقطعة من الخبز.⁵

و كانت الفصول الأولى من رواية "الدار الكبيرة" تركز على الجوع وسط هؤلاء الأطفال المتمدرسين للكشف عن معاناتهم اليومية وصراهم المستمر مع الحاجة الدائمة إلى الأكل، و لكي يوضح المشهد بشكل أدق قدم "محمد ديب" صورة لطفل بدين وثري ينتمي إلى الطبقة الراقية من المجتمع وقد كان لا يفتأ يفتخر أمام زملائه بلمجته الفاخرة كما كان يعدد مختلف الأطباق الشهية التي تناولها في اليوم السابق،⁶ وذلك كله حتى يبين المفارقة الكبرى بين الفقراء والأثرياء وحتى يبرز أكثر صورة الأطفال الفقراء والجوعى.

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 355.

² المصدر السابق، ص 17، 18، 23.

³ المصدر السابق، ص 21 وص 32.

⁴ Dib Mohammed, *La grande maison*, pp 7, 8.

⁵ المصدر السابق، ص 9.

⁶ المصدر السابق، ص 14، 15.

لقد كان الطفل "عمر" دائما جائعا وكان الجوع أحيانا يبلغ به إلى درجة جفاف ريقه في فمه، لقد كان شغله الشاغل هو الحصول على قدر من الأكل الذي يسمح له بالبقاء على قيد الحياة، لقد ألف "عمر" جوعه حتى نشأ بينهما نوع من الألفة و الحميمية حتى بات يكلمه ويخاطبه كصديق له¹ و لم تتوقف علاقته تلك عند ذلك الحد بل وصلت إلى درجة الحميمية و بات يعتبره كأمه العزيزة و يتضح ذلك في قوله : "الجوع أيها الأم العزيزة، لقد خصصت لك الكلمات الأكثر رقة".²

ومن هنا نستنتج استسلام "عمر" للأمر الواقع و الرضا بمصيره المحتوم ولم يجد أي سبيل آخر للخروج من محنة الفقر والجوع إلا التعايش معه.

لقد كانت عائلات "دار سبيطار" تعيش في فقر مدقع وكان البعض منها غالبا ما يبيتون بدون عشاء ومن بينهم عائلة "عيني" التي كانت تحاول استغلال أبنائها ومخادعتهم - عندما يغيب الزاد كليا عن البيت - بوضع قدر مملوء بالماء على النار حتى توهمهم بأنها بصدد تحضير العشاء لهم وكلما سألوها عن الأكل تجيبهم بأنه سيكون جاهزا بعد لحظات وهكذا حتى يستولى عليهم النعاس ثم ينامون ،³ وفي مرات أخر كانت "عيني" تُسكن جوع أبنائها بقطعة من خيار وشيء من الملح وبعض من قطع الخبز اليابس،⁴ كما كانت تحضر لهم "الرشطة" وتضع لها الكثير من الفلفل الحار حتى يشربوا الكثير من الماء ويشبعوا ولاسيما أنها كانت تقدم لهم الطبق وهو على دراجة حرارة عالية.⁵

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p109

² المصدر السابق، ص 110.

³ المصدر السابق، ص 56.

⁴ المصدر السابق، ص 112.

⁵ المصدر السابق، ص 54.

وكذا كانت جارة "عيني" "زليخة" تلهي أبناءها وتحاول أن تنسيهم جوعهم برمي حفنة من الفاصوليا اليابسة في الغرفة ويتسارع أبنائها لتتبع الحبات في مختلف أنحاء الغرفة ليجمعوها ويأكلونها في صمت و هدوء.¹

وتؤكد قضية سوء التغذية هذه من خلال الحوار الذي دار بين "عيني" وجارتها "زليخة" و"زينة" حول تناول فطور الصباح والأكل عامة وقالت كل واحدة منهن بأنها لا تقوم إلا بمخادعة الجوع والتحايل عليه وذلك عن طريق أكل القدر القليل جدا من الزاد حتى تشعر بأنها أكلت أو توهم نفسها بذلك² وهذا حال جل سكان "دار سبيطار" و معظم الجزائريين حينذاك.

وبهذا يلتقي الروائيون الفرنسيون والمغربيون في تصوير قضية سوء التغذية التي كان المجتمعان الفرنسي والمغربي يعانيان منها كما لم يجدوا أي مانع من تقديم بعض المشاهد الصعبة جدا والصادمة التي عاشها بعض الأشخاص أو بعض العائلات حتى تبين درجة معاناة هؤلاء اليومية للحصول على الحد الأدنى من الأكل للبقاء على قيد الحياة.

3.4 الفقر ونقص الرعاية الصحية:

لقد شهدت المجتمعات الفقيرة والبسيطة والمستضعفة، سواء في فرنسا أثناء القرن التاسع عشر أو في المغرب الكبير ابتداءً من الثلث الأول من القرن العشرين فترات عصيبة جدا فبالإضافة إلى البطالة ونقص المؤونة وسوء التغذية والمسكن حلت بهم أوبئة خطيرة قضت على حياة العديد من الناس كوباء الكوليرا والتيفوس وغيرها.

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 56, 57.

² المصدر السابق، ص 57.

لقد عرف سكان إحدى قرى فرنسا حيث أرسل الأسقف "ميريال" في رواية البؤساء انتشار وباء "التيفوس" وأول ما قام به الأسقف عند وصوله إلى القرية هو زيارة المستشفى وتفقد حال المرضى ووجد أوضاعهم صعبة جدا ومزرية وقد أخبره المدير أن الإمكانيات قليلة جدا ولا تكفي للتكفل الحسن بكل المرضى وأن وباء "الملاريا" الذي حل بالقرية من سنتين أودى بحياة العديد من القرويين،¹ وهذا ما جعل الأسقف يقترح انتقال المرضى إلى بيته الفخم حيث الهواء والغرف الواسعة مما سيسهل شفاءهم.²

وكذا كانت حال "فانتين" المزرية هي ما زاد من تدهور وضعها الصحي لأنها كانت تجهد نفسها طول اليوم لتعمل أكثر حتى تكسب المزيد من المال لتتمكن من تسديد ديونها لآل "تيناردييه" الذين كانوا يتكفلون بابنتها "كوزيت"، وهكذا إلى أن التقى بها السيد "مادلين" (جان فالجان) الذي كان رئيس بلدية تلك المنطقة وأنقذها من بين مخالب المفتش "جافير" الذي أراد سجنها لأنها تشاجرت مع أحد البورجوازيين الذي وضع كرة ثلج في ظهرها وهي كانت مريضة، أخذها السيد "مادلين" إلى بيته وأوكلها إلى ممرضة كما أحضر لها طبيبا ولكن وضعها الصحي تدهور إلى درجة لم يعد العلاج ولا الأدوية تفيد وهكذا إلى أن فارقت الحياة.³

وفي أحد مشاهد رواية "البؤساء"، جاء أحد الأطفال إلى محل عمل أحد الفلاحين ليخبره بوفاة زوجته وعندما سأله أحد الرجال هناك عن سبب عدم إحضارهم الطبيب لإسعافها، أجابه الطفل: "ماذا تريد سيدي، نحن الفقراء نموت بهذه الطريقة."⁴ هكذا ألف الفقراء الموت بأمراضهم فلم يكونوا قادرين على استدعاء الأطباء ولا شراء الدواء لأن أوضاعهم المزرية كانت دائما تحول دون ذلك.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome1, Volume 1, p 29.

² المصدر السابق، ص 29 وص 37.

³ المصدر السابق، ص 324.

⁴ المصدر السابق، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص 113.

كما كان "إميل زولا" في رواية "جيرمينال" يعدد مختلف الأمراض التي كانت تصيب عمال المناجم حينذاك، على لسان إحدى الشخصيات قائلاً: "أهم أمراض العمال هي فقر الدم وداء الخنازير (Les scrofules) والالتهابات الشُعبية السوداء والربو الذي يقطع النفس وداء المفاصل المتسبب في الشلل".¹

هذا وقد كان العجوز "بونمور ماهو" الذي أمضى كل عمره في العمل بالمنجم و هو في سن الثامن والخمسين يشكو من أمراض كثيرة من بينها ألم شديد في الساقين بسبب الماء الذي تسرب إلى داخل جلده إضافة إلى نوبات السعال التي كانت تنتابه من حين لآخر وغالباً ما تكون مصحوبة ببصاق أسود،² إضافة إلى تعرضه العديد من المرات إلى حوادث خطيرة كادت أن تقضي عليه لذا لُقّب بلقب "بونمور" الذي يعني الموت الحسن. لقد كان العجوز "بونمور" يعمل رغم آلامه وأمراضه ولم يعرض نفسه على أي طبيب كما لم يرد أن يطلب الإحالة على التقاعد حتى لا يخسر بعض الأموال التي كان يسهم بها في مصاريف الكثيرة لعائلته ، هكذا كان الفقر يمنع الفقراء من التوقف عن العمل ومن العلاج لأن ذلك كان جد مكلف لهم.³

كما كانت الطفلة "ألزير" ابنة عائلة "ماهو" معوقة ومريضة ولم يكن أهلها قادرين على علاجها لأنه يفوق قدراتهم المادية وهكذا كانت صحتها في تدهور مستمر إلى أن ماتت بسبب المرض وكذا الجوع والبرد.⁴

وفي المقابل كانت والدّة "عيني" في رواية "الدار الكبيرة" عجوز مريضة ومقعّدة ولا تكاد تتحرك إلا بمساعدة ابنتها أو أبناء "عيني"، لقد كانت حالها تسوء يوماً عن يوم وكانت ابنتها تزداد قلقاً وانفعالاً وغضباً عليها لأنها لا تستطيع التخفيف عنها كما أنها أصبحت

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 313.

² المصدر السابق، ص 19، 20.

³ المصدر السابق، ص 21.

⁴ المصدر السابق، ص 425.

عبئاً ثقيلاً عليها هي التي لا تستطيع حتى أن تضمن لقمة العيش لأبنائها فما بالك بعرضها على الطبيب أو معالجتها.¹

إضافة إلى العجوز "كامومة" في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون" التي عاشت حياة جد قاسية فقد عرفت آلام الوضع وسهر الليالي والمرض دون علاج.² لقد كان حالها هو نفس حال أهل قريتها حينذاك لاسيما مع الاحتلال الفرنسي واندلاع الحرب العالمية الأولى التي زادت تلك المنطقة النائية المنسية هناك وسط جبال منطقة القبائل بؤساً وفقراً، لقد كان سكان القرية يتصارعون كل يوم مع أوضاعهم الصعبة حتى يتمكنوا من الحصول على لقمة العيش فكيف كان بإمكانهم أن يفكروا في الطبيب والعلاج والأدوية التي كانت فوق طاقتهم.

وكذا كانت "سكورة" زوجة "إبراهيم" في رواية "الربوة المنسية" لـ "مولود معمرى"، مريضة جدا ولم يكن بوسع زوجها عرضها على الطبيب وقد كان ذلك يؤلمه كثيرا خاصة عندما كانت حالها في تدهور مستمر إلى أن شعرت في قرارة نفسها أنها ستموت فأخبرت زوجها إبراهيم بذلك مما دفعه رغم أوضاعه القاسية إلى إحضار طبيب لمعاينتها وعلاجها ولقد عمل كثيرا واقترض مبلغا من المال من صاحب العمل ورغم ذلك لم يتوصل إلى تسديد المبلغ الضخم الذي طالبه به الطبيب إلى أن لجأ إلى صديقه "آكلي" الذي أقرضه المبلغ الباقي.³ لقد اكتشف الطبيب أن "سكورة" كانت تعاني من وباء "التيفويد" إضافة إلى حالة من الضعف العام مما يستلزم دخولها المستشفى حيث أمضت أربعة عشر يوما وبعد علاج بالحمامات الباردة والحقن والحمية الخاصة، شفيت "سكورة" وغادرت المستشفى وعادت إلى بيتها ولكن "إبراهيم" كان عاجزا على توفير الأكل الجيد الذي نصح به الطبيب لها حتى لا تتعرض لمضاعفات جراء المرض بل بالعكس كان مجبرا على

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 165, 166.

² Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 13.

³ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p86

التكشف في الأكل و في مختلف مصاريف البيت حتى يتمكن من تسديد الديون الكثيرة التي كانت عليه.¹

وهكذا كان الفقر عائقا بين الفقراء المرضى ووسائل العلاج، لقد كان جلهم يعاني في صمت حتى يشفوا من تلقاء أنفسهم أو يبقوا مرضى ومقعدين إلى أن يفارقوا الحياة مثل العجوز "بونمور" في رواية "جيرمينال" والعجوز "ماما" والددة "عيني" في رواية "الدار الكبيرة" والعجوز "كامومة" في "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون".

4.4) الفقر وسوء الاعتناء بالمظهر:

يعد الهندام والمظهر الخارجي الواجهة التي تعكس الوضعية المادية والنفسية والعاطفية لأي شخصية من الشخصيات الروائية.

لقد كان "جان فالجان" في رواية "البؤساء" يرتدي قبعة واجهتها من الجلد وقد كانت تخفي جزءا من وجهه المحترق تحت أشعة الشمس والعرق المتصبب منه وكان قميصه من القماش الخشن ذو لون أصفر مربوط عند العنق بمرساة فضية صغيرة تكشف عن صدره الممتلئ بالشعر كما كان يرتدي ربطة عنق معوجة على شكل حبل وسروال من نسيج محبك أزرق تالف وبالي وهو مبيض عند إحدى الركبتين ومثقوب في الأخرى، إضافة إلى معطف رمادي ممزق ومملوء بالرقع في أحد مرفقيه² وكان أيضا يرتدي أحذية حديدية بدون جوارب.³

¹ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 86, 87.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 85.

³ المصدر السابق، ص 85.

كما قدم لنا "هوغو" صورتين مختلفتين و متناقضتين عن المظهر الخارجي لـ "فانتين" ومدى أناقتها وجمالها قبل سقوطها في الفقر¹ ثم كيف تغيرت أحوالها تماما بعدما أصبحت فقيرة ومعدمة إذ لم تعد ترى أي مانع من الخروج بقبعات متسخة إما بسبب انعدام الوقت لديها لتغسلها أو لعدم مبالاتها بالأمر، كما لم تكن تخطط لملابسها الممزقة إضافة إلى كعب أحذيتها المتآكل و كانت تضع رقعا لمشد الخصر الذي كان قديما ومهترئا.²

وكذا كانت ملابس أطفال الشوارع عند "هوغو" جد معبرة عن فقرهم وبؤسهم، هناك من كان يرتدي سروال أبيه الكبير الذي يغطي كعبه وكل رجليه وقبعة قديمة لأحد الآباء كانت أكبر من مقاسه وفردة واحدة من الحمالات ذات اللون الأصفر على أطرافها.³

كما كان "ماريوس" حفيد العجوز الثري "بونميرسي" أنيقا إلى حد كبير ولكنه سرعان ما تغيرت هيئته بعدما غادر منزل جده وسكن بمفرده، لقد كانت ملابسه مثقوبة عند المرفق وكانت قبعته القديمة تثير سخرية البنات عليه.⁴

كما كانت إحدى بنات عائلة "تيناردييه" التي تدعى "إيبونين" تمشي حافية القدمين وترتدي ملابس رثة وقد كبرت ثقوب ملابسها أكثر لأنها لم تكن تملك سوى ذلك القميص.⁵

وكانت صاحبة نزل "فوكير" في رواية "الأب غوريو" لـ "بالزاك" غير أنيقة وتدل على أحوالها المادية الجد متواضعة، لقد كانت تنورتها الصوفية تتجاوز تنورتها الأولى المصنوعة من قماش لفستان قديم كانت تخرج منه بعض الخيوط من القطن.¹

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 15.

² المصدر السابق، ص 214.

³ المصدر السابق، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص 104.

⁴ المصدر السابق، ص 207.

⁵ المصدر السابق، ص 402، 403.

كما كان "الأب غوريو" يرتدي ملابس وجواهر فاخرة قبل أن يبيعها ليعطي أموالها لابنتيه ثم سرعان ما قام بشراء ملابس جد متواضعة وغير جميلة ولا أنيقة حتى يتكشف في المال "لقد كان يرتدي سترة من القماش الرديء، ذات اللون البني وصدريّة من وبر الماعز وسروالا رماديا من الصوف الرديء".²

وفي المقابل اهتم الروائيون المغاربة ولاسيما "محمد ديب" بالمظهر الخارجي لشخصياته نظرا لأهميته الكبيرة في الكشف عن أوضاعهم المادية خاصة، لقد كان الطفل الذي أطلق عليه "عمر" في رواية "الدار الكبيرة" لقب صاحب "سترة الكاكي" يرتدي سترة من القماش الصيني الخفيف ذي اللون الأصفر الزاهب نحو السمرة (كاكي) وسروالا طويلا جدا أكبر من مقاسه.³ وكذا كانت "عيني" تلبس سروالا تقليديا طويلا من القماش مفتوحا على الجانبين وسترة و على كتفيها وشاح رث و مهترىء.⁴

وكانت أيضا "سكورة" في رواية "الربوة المنسية" التي لم تشتتر أي فستان منذ زمن بعيد أي منذ أن فقد زوجها إبراهيم عمله.⁵

وبهذا يكون الهدام والمظهر الخارجي عامة قد حمل بعدا دلاليا عميقا في إظهار أوضاع الفقر المدقع التي كانت تعيشه الشخصيات الروائية المختلفة سواء في الرواية الفرنسية أو المغربية.

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 28.

² المصدر السابق، ص 48.

³ Dib Mohammed, La grande maison, p 10.

⁴ المصدر السابق، ص 29.

⁵ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 80.

5 نتائج الفقر:

الفقر معاناة قاسية جدا قد يتعرض إليه الإنسان بشكل دائم أو مؤقت ولكن عواقبه عليه وخيمة جدا إذ غالبا ما تدفعه أوضاعه المزرية إلى ارتكاب بعض الأفعال والسلوك السلبي و منها نذكر:

1.5 الاستدانة وبيع الممتلكات:

لعل أول ما يتبادر إلى ذهن الشخص الفقير والمحتاج خاصة عندما يتعرض إلى الأزمات الصعبة كالمرض أو الجوع هو الاستدانة من الأقارب أو المعارف أو الأصدقاء.

لقد كانت "فانتين" في رواية "البؤساء" تتقاضى أجرا زهيدا جدا لا يمكنها من سد كل حاجياتها وخاصة طلبات "آل تيناردييه" - الذين كانوا يأوون ابنتها كوزيت - الكثيرة والمتكررة مما دفعها إلى شراء بعض قطع من الأثاث القديمة بالتقسيط،¹ وحتى بعدما فصلت عن عملها لم يكن باستطاعتها مغادرة تلك المدينة لأنها كانت مدينة لبائع الأثاث كما كانت مدينة بإيجارها لصاحب المنزل الذي كانت تسكن فيه.²

وكذا كان العجوز "مابوف" في رواية "البؤساء" أيضا - وهو بستانى فقير - مديونا بتسعة أشهر من الإيجار لصاحب البيت وكذا بائعة الفواكه والخباز إلي غير ذلك، لقد كان دائما يسخر من أوضاعه البائسة.³

وكانت شخصية "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لـ"إميل زولا"، مديونة لجارها السيد "غوجيه" الذي كان حدادا وكان قد أقرضها المبلغ الذي استأجرت به محلا لتمارس فيه حرفة غسل

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 210, 211.

² المصدر السابق، ص 208.

³ المصدر السابق، الجزء الثاني، المجلد الثاني، ص 466.

الملابس، وقد كانت والدّة السيد "غوجيه" لا تقفأ تطالبها بالمبلغ وكانت تقترح عليها طريقة سهلة تمكنها من تسديد دينها¹ كما كان صاحب المنزل الذي كانت تقطن به رفقة زوجها "كوبو" لا يتوقف عن تهديدهم بالطرد لأنهما لم يدفعوا إيجار ستة أشهر وكان قد أعطاهما مهلة أسبوع ليسددا دينهما وإلا سيكون مآلهما الطرد.²

علاوة على السيدة "ماهو" في رواية "جيرمينال" التي كانت دائماً تشتري موادها الغذائية عند بقال القرية على سبيل القرض وهذا خاصة في أيام الإضراب حين كان المال غائباً عنهم بسبب توقف العمال عن العمل في المنجم مع الملاحظة أن عائلة "ماهو" كانت مدينة للبقال بستين فرنكا من سنتين مضت.³

وفي المقابل لجأ "قاسي" زوج العجوز "كامومة" في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون" إلى الاستدانة لأنه لم يكن قادراً على العمل ولم يكن له أي مورد آخر لجلب المال.⁴

وكان "إبراهيم" أيضاً في "الربوة المنسية" لـ "مولود معمري" قد اضطر للاستدانة من صاحب عمله الذي كان قد أقرضه على سبيل الربا ليدفع مصاريف الطبيب والعلاج لزوجته "سكورة" المريضة جداً.⁵

إضافة إلى الاستدانة كان الفقراء سواء في المجتمع الفرنسي أو في المجتمع المغربي يقومون ببيع ممتلكاتهم وأثاثهم حتى يأكلوا ويتجلى ذلك في رواية "الخمارة" لـ "إميل زولا" حيث قامت البطلة "جيرفيز" ببيع أثاثها شيئاً فشيئاً بسبب الفقر والجوع، ففي يوم من أيام الشتاء البارد بقيت "جيرفيز" بدون أكل لمدة ستة وثلاثين ساعة وقبل ذلك كانت تكفي

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 335.

² المصدر السابق، ص 463.

³ Zola Emile, Germinal, pp 103, 109, 110.

⁴ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 17.

⁵ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 86.

بأكل رغيف خبز بوزن رطل كل يوم ، لقد كانت تتألم كثيرا من شدة الجوع،¹ ولم يرد زوجها "كوبو" أن يحضر لها الطعام بل كان يفضل إنفاق أمواله في شرب الخمر وعندما أغلقت كل الأبواب في وجهها لجأت إلى بيع أثاث بيتها، لقد بدأت ببيع الصوف الموجود في الفراش، لقد كانت في كل مرة تأخذ جزءا من تلك الصوف وتبيعها بعشرة فلس للرطل الواحد وبعدها أفرغت كل الفراش قامت ببيع القماش الخاص به ثم تلتها الوسادات الواحدة تلو الأخرى كما قامت بمساعدة زوجها بفك السرير وبيع حطبه بشكل متقطع وهكذا أفرغت البيت كله من أثاثه ولم يبق لديها سوى حصيرة وضعت عليها بعضا من القش حتى تجلس أو تنام عليها، ورغم كل ذلك لم تضع "جيرفيز" حدا لجوعها فلم تكن قادرة على ضمان قوت يومها لأنها كانت دائما تلجأ إلى إيجاد حلول مؤقتة.²

كما كان "ماريوس" في رواية "البؤساء" يتميز بعزة النفس فلم يرد أن يقترض من أي شخص بل فضل بيع البعض من ملابسه الفاخرة التي كان محتفظا بها من الفترة التي كان يعيش فيها مع جده الأرستقراطي كما باع ساعته الثمينة حتى يأكل ويحافظ على كرامته.³

وكذا كانت "فانتين" في رواية "البؤساء" أيضا تقوم ببيع شعرها ثم أسنانها الأمامية حتى ترسل المال لعائلة "تيناردييه" التي كانت لا تقفأ تطالبها بإرسال المزيد من الأموال لشراء ملابس دافئة لابنتها "كوزيت" أو لعلاجها لأنها مصابة بمرض خطير.⁴

وكانت عائلة "ماهو" بدورها في رواية "جيرمينال" قد باعت كل ما تملكه من أثاث وكل ما يمكن بيعه حتى يأكلوا خاصة أثناء فترة الإضراب.¹

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 461.

المرجع السابق، ص 462، 463.²

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 2, p 207.

المصدر السابق، الجزء الأول، المجلد الأول، ص 211 و ص 213.⁴

وفي المقابل كان العجوز "قاسي" وزوجته "كامومة" في رواية "الأرض والدم" قد اضطرا إلى بيع بعض القطع من الأراضي التي كانت جد غالية على قلوبهما لأنهما كانا يطمحان أن يتركاها لابنهما الوحيد "أعمر" ليحافظ عليها ويعمل فيها ويعيلهما ويتكفل بهما في شيخوختهما ولكن بعد هجرته إلى فرنسا شعرا بأنهما قد فقداه إلى الأبد وفقدا معه المعيل والمعين والأمل لذا كان الشيخ "قاسي" في كل مرة يبيع قطعة من أرضه حتى يتمكن من شراء المؤونة وكل ما يحتاجه في حياتهما اليومية وهكذا حتى باعا كل أراضيهم.² وبعد وفاة زوجها لم يعد أمام العجوز "كامومة" إلا بيع ما تبقى لها من أواني وأثاث منزلها حتى تجلب بعض الطعام بعدما تخلص منها الكل.³

هذا وقد كانت "زينة" جارة "عيني" في "الدار الكبيرة" تحكي مأساتها ومأساة أبنائها مع الفقر والجوع عندما كان زوجها مشغولا بالسياسة ولم يكن لديه عملا مستقرا ولا مصدرا للرزق ليعيل أبنائه، فكم من مرة بات هؤلاء وهم جوعى وكم من مرة بكوا من شدة الجوع مما دفع زوجها إلى بيع الأثاث وكل ما يمكن بيعه حتى يطعم أطفاله وكان عندما مات لم يترك لهم أي شيء حتى عشاء يومهم ذاك.⁴

وبهذا يلتقي الروائيون الفرنسيون والمغربيون - لاسيما الجزائريون - في سلوك المسلك نفسه من أجل إيجاد حل لمشكلة الفقر والجوع الذي كانوا يتخبطون فيه يوميا وكان يهدد صحتهم وحياتهم لقد لجأ هؤلاء إلى الاستدانة وإلى بيع ممتلكاتهم وأثاثهم عن مضض ومن هنا يتجلى لنا نبل هذه الشخصيات وورزانتها لأنها لم تلجأ إلى السرقة أو إلى أي فعل منحط للحصول على لقمة العيش.

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 281, 282.

² Feraoun Mouloud, *La terre et le sang*, pp 15 – 17.

³ المصدر السابق، ص 18.

⁴ Dib Mohammed, *La grande maison*, pp 66, 67.

2.5) انتشار آفة السرقة:

من بين النتائج السلبية التي يمكنها أن تتجم عن الفقر هي آفة السرقة التي وقع فيها العديد من الشخصيات الروائية سواء في الروايات الفرنسية أو المغربية و ذلك عندما توصل في وجهها كل أبواب الرزق، وتتجسد هذه الآفة خاصة من خلال شخصية "جان فالجان" في رواية "البؤساء" الذي اتجه نحو السرقة دون أي تفكير أو تريث فهو لم يحتمل رؤية أبناء أخته الصغار و هم جائعون بينما لا حول له و لا قوة في الأمر ونظرا لعدم كونه سارقا محترفا تمكن الخباز من القبض عليه ومن ثم تسليمه للشرطة ليجد نفسه بعد ذلك في السجن.¹

وكذا قام الطفل "غافروش" في الرواية نفسها، وبدافع من الفقر والجوع، بقطف تفاحة من بستان في أحد البيوت لأنه لم يذق طعام الأكل منذ يومين،² كما كان في إحدى المرات أيضا يتربص أحد المحلات حتى يتمكن من سرقة قطعة من الصابون الذي كان يفكر في بيعها لأحد الحلاقين في ضواحي باريس بفلس واحد ليتمكن من شراء البعض من الأكل.³

هذا وقد كان الطفل "جانلان ماهو" في رواية "جيرمينال" لـ "زولا" يحرض رفاقه على السرقة وفي إحدى المرات صادفته أخته الكبرى "كاترين" التي صفعته وانتهرته وقالت: إن هؤلاء الأطفال الشياطين سينتهي بهم الأمر في السجن،⁴ ولم يكن "جانلان" يأبه لذلك بل كان يواصل سلوكه ذاك وقد كان هو قائد جماعة الأطفال تلك وكان أيضا لا يجد أي إخراج من إرسالهم للسطو على حقول البصل ونهب البساتين كما أقنع ذات يوم رفيقته الصغيرة "ليديا" على سرقة كمية من حلوى الذرى من والدتها و كذا كان يجبر رفيقيه

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 111.

² المصدر السابق، الجزء الثاني، المجلد الثاني ، ص 445.

³ المصدر السابق، ص 475.

⁴ Zola Emile, Germinal, 172.

"ليديا" و"بيير" على تسليمه كل المسروقات وكان هو يأخذ الحصة الكبرى ويوزع عليهما الباقي منها.¹ لقد نصب "جانلان" نفسه قائداً على جماعة أصدقائه لأنه كان متأكداً في قرارة نفسه أن البقاء للأقوى أو للذي يستقوي على الضعفاء.

وفي المقابل كان المهاجرون المغاربة في رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" يعيشون في فقر مدقع وفي حالة نفسية صعبة لذا قرروا التضامن مع بعض لشراء مذياع صغير حتى يؤنسهم في غربتهم المريرة وينقل إليهم أخبار أهاليهم وصوت بلدانهم وقد أخفى "والديك" بطل الرواية المبلغ تحت بلاطات الأرض وعندما عاد إلى المكان لأخذ المبلغ لشراء المذياع وجد العلبة فارغة بينما غادر رفاقه في البؤس المكان وأدرك أنهم هربوا بالمبلغ المخصص للمذياع.²

وكانت جماعة الأطفال أيضاً في رواية "الحريق" تخطط لكيفية الإقدام على سرقة حقول المعمرين المزدانة بأشجار الكرز وكان البعض منهم يقترحون بعض الخطط لتسهيل عملية الدخول إلى الحقول وقطف الثمار دون أن يمسك بهم الحراس ولكن "عمر" رفض ذلك لأنها تتعارض مع مبادئه فهو لم يسبق له وأن سرق في الماضي ولن يسرق في الحاضر ولا في المستقبل وخاصة عندما يتعلق الأمر بسرقة الأوربيين، فهو لا يريد أن يلطخ سمعته أمامهم ومن خلاله سمعة كل الجزائريين بل يريد أن يحافظ على كرامته وكبريائه.³

ومن خلال ما سبق، نستنتج أن معظم الشخصيات الروائية السالفة الذكر قد أقدمت على السرقة عن مضمض لأن الفقر والجوع أقوى من الإنسان ومبادئه أحيانا ولكن هناك من كان يندم على ذلك بعد فوات الأوان لأن السرقة لا تحل مشكل الفقر على الإطلاق أمثال

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 291, 292.

² Chraïbi Driss, *Les boucs*, p 136.

³ Mohammed Dib, *L'incendie*, pp 23, 24.

"جان فالجان" في البؤساء" وهناك أيضا من كانت أخلاقه الراقية وكرامته ووعيه بخطورة الفعل يرفض الإقدام عليه مهما كانت أوضاعه وحاجته الماسة للمأكل والملبس.

3.5) انتشار آفة التسول:

إلى جانب آفة السرقة، تعد آفة التسول من بين الآفات التي تمس أيضا كرامة الإنسان وسمعته ولم تكن الشخصيات الروائية تلجأ إلى التسول إلا عندما تفشل في إيجاد عمل أو أي وسيلة أخرى من وسائل الاسترزاق ويتجلى ذلك في أحد مشاهد رواية "البؤساء" الذي كان يُمثل طفلين تائهيين أحدهما ابن سبع سنوات والآخر ابن خمس ، لقد جاعا كثيرا وتعبا وكانا خائفين وجاهلين لما سيحل بهما فلجأ إلى التسول على الأقل لحل مشكل الجوع لديهما، لقد كانا يتسولان بكل خجل لأنهما لم يعتادا على ذلك، وعند مرورهما بمحل حلالة دخلا إلى الداخل وطلبا إحسانا من صاحب المحل الذي صرخ في وجهيهما وطردهما خارجا وذهبا باكيين ولكن سرعان ما رأهما "غافروش" ولحق بهما وسألهما عن مشكلهما وأجابه الأكبر منهما بأنه ليس لديهما مأوى وأنهما جائعان وقرر "غافروش" مساعدتهما وفي طريقهم التقوا بفتاة فقيرة كانت هي الأخرى تتسول وكان مظهرها بائسا جدا مما دفعه إلى نزع وشاحه الصوفي وإلقائه على كتفها في ذلك الجو البارد، وواصل "غافروش" طريقه رفقة الطفلين وكان قد عثر على فلس سيمكنهم من شراء شيء يأكلونه.¹

كما وجدت "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لـ "زولا" مجبرة على التسول و بهذا تتحول حياتها من سيدة مالكة لمحل لغسل الملابس إلى متسولة بائسة في شوارع باريس، فهي لم تجد أي مانع من طلب الإحسان من صاحب مطعم فاضل كان يجود عليها ببقايا الأكل كما

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome2, Volume1, pp 475 – 479.

كانت تفتش أمام أبواب التجار عليها تجد ما يمكنها أخذه،¹ وكانت في بعض الأحيان تطلب بعض المال من جيرانها الذين كانوا يرفضون منحها أي فلس لأنهم متيقنون أنها لن تصرفه على الأكل بل على شرب الخمر.² وذات يوم وهي تتسول في أحد الشوارع تلتقي بالأب "برو" العجوز الذي كان يسكن في ركن من أحد أروقة العمارة التي تقطن فيها و كانت تساعده في الماضي لأنه فقير جدا ويعيش على صدقات الآخرين له، لقد وجدت نفسها في نفس مستوى ذلك العجوز وهذا قمة الانحدار الذي يمكنه أن تصل إليه "جيرفيز".³

وفي المقابل كانت أوضاع الحرب العالمية الأولى غير مستقرة سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي إذ كان الفقر والجوع منتشران بصورة كبيرة في مختلف أنحاء الجزائر وقد كانت قرية "تاسغا" إحدى القرى في منطقة القبائل التي كان أهلها يعانون الأمرين جراء الفقر مما أدى إلى ظهور جماعات من المتسولين في الشوارع بشكل ملفت للنظر لقد كانوا يقدمون من أماكن مختلفة وكانوا يقصدون خاصة منزل "دافدا" التي لم تكن ترد أي منهم بل كانت تجود عليهم بما عندها من الزاد.⁴

كما كان هؤلاء الشحاذون حاضرون في العرس الذي أقامه أهل القرية وبالذات "أكلي" زوج "دافدا" بمناسبة نهاية الحصاد حيث ذُبحت الخرفان وأكل هؤلاء المتسولون.⁵

أما في رواية "المنسج" صور لنا "محمد ديب" غزو الجموع الغفيرة من المتسولين لمدينة تلمسان إذ كانوا يجولون في كل شوارعها صباح مساء.⁶ وكانت السلطات الفرنسية جد

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 465.

² المصدر السابق، ص 468.

³ المصدر السابق، ص 489.

⁴ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 61, 62.

⁵ المصدر السابق، ص 68، 69.

⁶ Dib Mohammed, Le métier à tisser, pp 41, 42.

مستاءة من هذه الظاهرة لذا كانت ترجعهم دائما إلى قراهم ومساكنهم ولكنهم سرعان ما كانوا يعودون وبأعداد أكبر و هذا ما زاد من استغراب أهل تلمسان¹ الذين لم يكونوا يضيّقون ذرعا منهم بل بالعكس كانوا يساعدهم حسب طاقتهم المادية،² بينما لم يكن المعمرون يحبونهم لذا لم يكونوا يقدمون لهم أي مساعدة وحتى المتسولون لم يكونوا يطلبون منهم أي شيء.³ وقد كانت "عيني" بدورها تعتبرهم إخوانا لهم ومن الواجب مساعدتهم.⁴

بناء على ما سبق نستنتج أن كلا من الشخصيات الروائية الفرنسية والمغربية قد اتجهت نحو التسول عندما يئست من إيجاد حل لمشاكلها، مع الملاحظة أن التسول عند "محمد ديب" و"مولود معمري" كان ظاهرة وليس مجرد سلوك، إذ غزا المتسولون القرى والمدن وهذا بفعل الاحتلال الفرنسي الذي سلب من هؤلاء أراضيهم ولم يكن قادرا على تشغيلهم كلهم مما جعلهم فقراء وغير قادرين حتى على توفير لقمة عيشهم

4.5 انتشار ظاهرة العنف وسوء المعاملة:

العنف هو سلوك غريزي في الإنسان ولكنه ليس بعشوائي فهو غالبا ما يتحكم فيه بعقله وحكمته ورزاقته، وكلما تطور الإنسان فكريا وروحيا وعاطفيا كلما نضج أكثر ونضجت معه عواطفه وانفعالاته وتمكن من السيطرة على ردود أفعاله وعليه لا يمكن للإنسان أن يكون عنيفا إلا إذا توفرت بعض العوامل أو تعرض إلى بعض المواقف التي يمكنها أن تثير غضبه الذي قد يتحول إلى عنف، والعنف قسمان: مادي (جسدي) ومعنوي (نفسى).

¹ Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 77.

² المصدر السابق، ص 78، 79.

³ المصدر السابق، ص 79.

⁴ المصدر السابق، ص 79.

وفي إطار دراستنا لظاهرتي الفقر والبؤس في الروايتين الفرنسية والمغربية لاحظنا مدى إسهام الأوضاع المعيشية المزرية للبعض من الشخصيات الأساسية والثانوية أحيانا في تحويلها من شخصيات مسالمة وهادئة إلى شخصيات عنيفة وثائرة.

لقد أصبح "كوبو" في رواية "الخمارة" لـ "زولا" عنيفا مع زوجته "جيرفيز" وذلك بعدما تعرض لحادث خطير أثناء ممارسته لعمله وكاد أن يقضي عليه ولكن رغم نجاته وشفائه إلا أنه انكسر نفسيا و فقد الثقة في ذاته ولم يعد قادرا على العودة إلى عمله، فبعدما كان عاملا نشيطا ومجتهدا وماهرا وكان مسئولاً على أسرته أصبح محبطا وكسولا وعالة على زوجته مما جعله يتردد على الحانات حتى يهرب من واقعه الذي لم يعد يتحمله حتى سقط في آفة الإدمان على شرب الخمر مما زاد حاله سوءاً وبعدما كان يعامل زوجته معاملة حسنة إذ كان يحبها ويحترمها بات لا يحتملها بل غالبا ما كان يصب غضبه عليها ويقوم بتعنيفها وانتهازها وشتمها ونعتها بأبشع الصفات كلما كان في حالة سكر،¹ وهكذا شيئاً فشيئاً حتى أصبح يضربها لأبسط الأسباب وأضحى ذلك السلوك عادة ينتهجها معها كل يوم حتى وهو في وعيه، إضافة إلى إدمانه على شرب الخمر أدمن "كوبو" أيضا الضرب والتعنيف لزوجته² ؛ لقد كانت "جيرفيز" كلما طالبت زوجها بإطعامها كلما أجابها بالضرب والعنف والشتم.³

وكذا كان أحد جيران "كوبو"، المدعو "الأب بيجار" (Le père Bijard) مدمنا على شرب الخمر هو أيضا هروبا من أوضاعه المزرية وفي أحد الأيام بينما هو في حال من السكر العميق وقف في أسفل العمارة يرتقب عودة زوجته من المغسل حيث كانت تعمل رفقة "جيرفيز" وفور وصولها انقض عليها باللكمات المتتالية وهي تصعد درج العمارة

¹ Zola Emile, L'assommoir, pp235, 236.

² المصدر السابق، ص 464.

³ المصدر السابق، ص 477.

وعند دخولها البيت ازدادت ضرباته ولكماته لها وكانت صرخاتها من شدة الألم تملأ المكان وكانت ابنتها مرعوبتين من هول ذلك المشهد.¹

هذا وقد كانت رواية "جيرمينال" لـ "زولا" تزخر بمشاهد العنف اللفظي والجسدي معا لقد كانت السيدة "ماهو" ساخطة على أوضاعها المزرية بسبب الأجور الزهيدة التي يتقاضاها زوجها وحموها وأبناؤها معا لأنها لا تسد حاجيات البيت ومتطلبات أعضاء أسرتها ولهذا كانت تغضب كثيرا وتلعن الأقدار كلما تعرض احد أفراد عائلتها إلى مرض أو حادث.² ولعل ما زاد من غضب السيدة "ماهو" هو تدهور أوضاع عائلتها خاصة أثناء الإضراب حين كانت في حاجة ماسة إلى تعاون كل أعضاء أسرتها حتى يتجاوزوا تلك الشدة ولقد انتهت ابنتها "كاترين" وعنفها كثيرا لأنها هربت مع صديقها "شافال" وتركت عائلتها تعاني الأمرين وعند قدومها بعد فترة طويلة من الغياب أحضرت للعائلة البعض من السكر والقهوة وعاتبها كثيرا لأنها كانت تتمنى لو بقيت معهم لتساعدهم على الحصول على الخبز بدل هذه الكماليات،³ ولم تتوقف السيدة "ماهو" عند هذا الحد بل حاولت صفعها في موقف آخر لولا تدخل والدها.⁴

إضافة إلى الشجارات المتكررة بين "شافال" صديق "كاترين" و"إيتيين" وهو منافسه فيها.⁵

كما كان العمال المضربون في صراعات دائمة مع العمال غير المضربين إذ كثيرا ما كانوا يشتموهم ويصفوهم بالخونة مما كان يدفعهم إلى الفرار منهم وتقادي الدخول في مواجهات معهم.⁶ وكانوا من الناحية الثانية لا يفتنون يهاجمون البورجوازيين من أرباب

¹ Zola Emile, L'assommoir, pp233, 234.

² Zola Emile, Germinal, p 215.

³ المصدر السابق، ص 252، 253.

⁴ المصدر السابق، ص 351.

⁵ المصدر السابق، ص 254.

⁶ المصدر السابق، ص 350.

الأعمال، لقد تعرضت "سيسيل" ابنة السيد "غريغوار" أحد ملاك المناجم بـ "مونتسو" إلى هجوم من نساء المنطقة اللائي ثرن عليها وأردن تعريتها من ملابسها الفاخرة وكانت الفتاة تتوسل إليهن بألا تسئن إليها.¹

ولعل من أبشع صور العنف هي صورة الهجوم على البقال "ميغرا" الذي كان يتحرش بالنساء حتى يعطينهن ما تحتجن إليه من البضائع فبعد هجوم العمال على محله هرب وصعد إلى سطح المنزل ثم سرعان ما تدرج منه وسقط أرضاً لاقياً حتفه² وقد نكلت النساء بجثته بشكل بشع ولاإنساني مما يعكس ثورتهن وغضبهن الشديد عليه وعلى أمثاله من البورجوازيين الظالمين.³

وفي المقابل كان "محمد شراك" في رواية "الدار الكبيرة" وعلى غرار "كوبو" في رواية "الخمارة" لـ "زولا" يضيع كل شيء بسبب الإدمان على شرب الخمر الذي لم يزد إلا سوءاً وعليه أصبح الكل يسخر منه ولاسيما الأطفال الذين كانوا يُغضبونه ويستقزونهم حتى يفعل ويصبح عنيفاً إذ كان يشتمهم ويسبهم و يتلفظ بكلام ساقط وبذيء وينكر أنه سكير، لقد وصفهم بالأوغاد وبرر سبب اتجاهه نحو شرب الخمر وأكد لهم أنه سيشرب أيضاً لأنه لا يوجد هناك ما يغير من أوضاعه.⁴

وكانت "عيني" في "الدار الكبيرة" على غرار السيدة "ماهو" في رواية "جيرمينال" في حالة غضب وانفعال مستمر نظراً لأوضاعها المزرية وعجزها عن إعالة أطفالها وتأمين لهم الحياة الكريمة، لقد كانت تثور على كل المحيطين بها ولا تفتأ تعنفهم : تشتمهم و تلعنهم وتصفهم بأبشع الصفات منها أنهم كالتفيليات العالقة دائماً بجسدها ولا هي

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 388, 389.

² المصدر السابق، ص 392، 393.

³ المصدر السابق، ص 394، 395.

⁴ Dib Mohammed, *La grande maison*, p 136.

تمتص دماءها باستمرار،¹ ولم تتوقف "عيني" عند هذا الحد بل بلغ بها الأمر إلى ضرب "عمر" بالسكين وإصابته في رجله² ولم تسلم والدتها العجوز المقعدة والمشلولة من لسانها السليط فكانت دائما تشعرها أنها عبء ثقیل عليها.³

وعلى غرار عمال المناجم في رواية "جيرمينال" كان فلاحو قرية "بني بوبلن" في رواية "الحريق" لـ "محمد ديب" مستاءون كثيرا من أوضاعهم الصعبة ومن جور المعمرين عليهم⁴ إضافة إلى سوء معاملة "قارة علي" - عميل المعمرين الفرنسيين وأحد أثرياء قرية بني بوبلن - لهم، لقد كان دائما يشتمهم ويهينهم ويسب والديهم وأفراد عائلتهم كما كان ينعتهم بالحمير ويشكك حتى في امتلاكهم أرواح كسائر البشر.⁵ ونتيجة لذلك قرر الفلاحون واتفقوا على الدخول في إضراب مما أثار غضب العمرين و سلطات الاحتلال الذين قاموا عن طريق رجال الدرك بتعنيفهم و سجنهم⁶ و من بينهم تعرض الفلاح "شارف محمد" إلى ضرب شديد بالعصا و هو في مزرعة المعمر "مارقوس" أحدث جرحا عميقا في رأسه و كانت دماؤه تغطي كل وجهه و ملابسه كما تعرض أربعة فلاحين إلى السجن و كان "مارقوس" يأمر الفلاحين بالعودة إلى أعمالهم مهددا إياهم بالسلاح⁷ و قد حذا المعمرون الآخرون حذوه إذ كانوا يذهبون إلى المقاهي ليأخذوا منها الفلاحين المضربين و يجبروهم على العودة إلى أعمالهم في الحقول.⁸

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 30.

² المصدر السابق، ص 12.

³ المصدر السابق، ص 143، 144.

⁴ Mohammed Dib. L'incendie ,pp 47, 55.

المصدر السابق، ص 59 - 61.⁵

⁶ المصدر السابق ، ص 128.

⁷ المصدر السابق، ص 125.

⁸ المصدر السابق، ص 128.

كما تعرض "حميد سراج" بعد اعتقاله إلى الضرب المبرح تسبب له بجروح خاصة على مستوى الوجه إضافة إلى الشتم والإهانة ،لأنه هو من قام بتوعية الفلاحين بحقوقهم و تشجيعهم على مواجهة المحتل بكل سلمية و المطالبة بتحسين أوضاعهم.¹

هذا وقد كان "قارة علي" الشخصية المتجربة والقاسية لا يفتأ يضرب زوجته ويعاملها معاملة سيئة للغاية على غرار "كوبو" في رواية "الخمارة" لـ "زولا"، كان "قارة علي" يضرب زوجته بقسوة شديدة - إلى درجة إحداث جروح في جسدها وكم من مرة امتلأت ملابسها بالدماء جراء الضربات واللكمات القوية-² لم يكن ذلك بسبب الفقر لأنه كان ثريا أو بسبب الجوع لأنه كان يأكل حتى التخمة بل كان يكره كل من يتحدث عن حق الفلاحين ويهاجم الفرنسيين .

إضافة إلى رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" التي تزخر بمشاهد العنف اللفظي والجسدي معا سواء من قبل الأوروبيين الذين كانوا يحتقرون المغتربين خاصة من منطقة الشمال الإفريقي وكانوا يهينونهم كلما سنحت لهم الفرصة بذلك لقد لقبوهم بالجداء لأنهم كانوا كالحيوانات في نظرهم وأما المغتربون فكانوا يبدون غيظهم ورفضهم لأوضاعهم البائسة عن طريق لغتهم وأفعالهم التي يسودها العنف ليس فقط في تعاملهم مع الأوروبيين بل حتى في علاقاتهم ببعضهم البعض ولم تسلم منهم حتى الحيوانات والأشياء.

افتتح "شرايبي" روايته بمشهد عنيف جدا يقول فيه السارد: "لقد فتح أحد الباب بركلة من قدمه، لم أر أحدا، رأيت رجلا نحيفة طويلة ترتدي حذاءً ضخما من جلد البقر. لقد ركل برجله الأرضية الإسمنتية -وقد تردد ذلك الصوت في السبع والعشرين مترا مكعبا للغرفة كطلة بندقية- وقد أفرغ غيظه في بطن القط الذي رأيت ذيله يطير في الهواء [...]"

¹ Dib Mohammed , L'incendie ,pp 108 ,109.

² المصدر السابق، ص 186.

وبكعبه أغلق الباب.¹ و كان البطل حينما جاع و اشتهى أن يأكل اللحم و لم يكن لديه المال اللازم فقام بسرقة قطعة من اللحم و لكنه لم يكتف بالهروب بل قبل ذلك فضل أن يضرب الجزار بلكمة قوية.²

هذا وقد قال أحد المغترين: "سأعطل عن العمل وسأتشرد وسأسرق وأقتل... لأن العالم وأوروبا [...] لا يريدون احترامنا نحن الجداء.³ وقال أيضا: "كنا ننام ونمشي وننظر ونسمع ونحيا... عن طريق العنف والكره".⁴ لقد كانت كل ذاتهم تعبر عن الكره الشديد المصحوب بالعنف سواء في كلا مهم أو في حركاتهم أو في سلوكهم وفي نظراتهم وفي كل كيانههم.⁵

ومن خلال ما سبق نتوصل إلى أن ظاهرة العنف لدى الشخصيات سواء في الرواية الفرنسية أو المغربية كانت نتيجة أوضاعهم الصعبة والبائسة التي كانوا يعيشونها سواء على المستوى المادي أو المعنوي (الفكري أو العاطفي) لقد كان العنف بالنسبة إليهم عبارة عن ردود أفعال منطقية لطبيعة الحياة التي كانوا يحيونها من رفض وحرمان وازدراء وإهانة وفقر، قسوة أوضاعهم ولدت لديهم الثورة والغضب والعنف.

5.5 استغلال الطفولة:

لقد كانت بعض العائلات الفقيرة تجد نفسها مجبرة على توقيف أبنائها من الدراسة لكي يدخلوا عالم الشغل ويسهموا في مصاريف البيت التي أضحت ثقيلة جدا على عاتق

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, p 11.

² المصدر السابق، ص 12.

³ المصدر السابق، ص 18.

⁴ المصدر السابق، ص 19.

⁵ المصدر السابق، ص 19.

الوالدين، ففي رواية "جيرمينال" كانت عائلة "ماهو" ترسل كل أبنائها القادرين على العمل إلى المنجم كـ "جانلان" الذي كان يعمل في المنجم رغم صغر سنه، وقد تعرض فيه لحادث خطير كاد أن يفقده حياته،¹ لقد خرج "جانلان" بكسور في رجله وقال الطبيب أن هناك احتمالا لبتتر الساق اليمنى² ولكن بعد ثلاثة أسابيع من العلاج نجح الأطباء في تفادي ذلك ولكنه بقي أعرجا و لكن لم يمنعه ذلك من العودة إلى العمل في المنجم بحكم الظروف القاسية لعائلته.³ وفي نهاية الرواية تظهر السيدة "ماهو" التي عادت إلى العمل في المنجم وذلك بعد وفاة زوجها وابنيها "زكري" و"كاترين" وقالت أنها ستنتظر وصول ابنيها الصغيرين للسن التي تسمح لهم بالعمل في المنجم ليلتحقوا بها لأنه هذا هو قدرهما.⁴

وفي المقابل كانت عيني قد أرسلت ابنتيها "عويشة" و "مريم" إلى المشغل الخاص بحياسة السجاد (الزراعي) للعمل فيه وبعد مرور شهرين على ذلك بدأتا تتقاضيان أجرتهما، لقد كانت "عويشة" الابنة الكبرى تتقاضى أجرا عاديا أما الصغرى فكان أجرها أقل لأنها لا تزال صغيرة، لقد كانتا تقدمان مالهما لوالدتهما "عيني" التي كانت تنتظر ذلك بفارغ الصبر لأنها لم تعد أجرتها تسمح لها بإعالتهم ؛ وقد كانت البنات تشعران بسعادة كبيرة لأنهما باتتا تساهمان في مصاريف البيت كما أصبحتا تحلمان بحياة أفضل وبنوعية أحسن من الأكل لقد كانتا تتمنيان شراء المزيد من الخبز والقليل من اللحم من حين لآخر أو البيض لأنه أقل تكلفة من اللحم إضافة إلى شيء من الفاصولياء والأرز وغير ذلك.⁵

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 209, 210.

² المصدر السابق، ص 211.

³ المصدر السابق، ص 551.

⁴ المصدر السابق، ص 551.

⁵ Dib Mohammed, *La grande maison*, pp 151, 152.

أما "عمر" فقد كان حُرْم هو الآخر من مواصلة تعليمه، رغم رغبته الشديدة في ذلك، لأن والدته لم تعد قادرة على تحمل مصاريف الدراسة من كتب وأدوات وحتى اللباس وكانت ترغب في إرساله إلى العمل في إحدى ورشات النسيج في المنطقة.¹

لقد كان "عمر" يبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة عندما دخل عالم الشغل لقد عمل مع أحد التجار ولكن لفترة قصيرة لأنه سرعان ما أغلق الدكان وسُجن صاحبه ومن هنا بدأت "عيني" تبحث له عن عمل آخر وذهبت إلى بيت أحد أصحاب ورشات النسيج السيد "ماحي بوعنان" لتتوسل إليه حتى يوافق على تشغيل "عمر" في معمله.² وقد شرع "عمر" في العمل في ورشة النسيج وهو صاحب الخمسة عشر ربيعاً³ وكذا كان الطفل "زباش" - وهو تقريباً من سن عمر - الذي استقبل "عمر" في الورشة و أخذ له ليريه عمله ويعرفه بالمكان.⁴

وكذلك كان الأطفال في رواية "نوم العادل" لـ "مولود معمري" يُستغلون في مراسيم جني الكرم لأن أجورهم قليلة جداً بالمقارنة مع الكبار.⁵

هكذا كان الأطفال في المجتمعين الفرنسي والمغربي تحت تأثير الفقر والعوز يحرمون من طفولتهم ومن دراستهم ويحملون مسؤولية أكبر منهم على المستويين الفيزيولوجي والنفسي معاً، لقد شغلتهم أوضاعهم المزرية بمسائل الكبار وعلمتهم التفكير في العائلة وشغلتهم بالتفكير في كيفية الإسهام في مصاريفها كما علمتهم حمل الأعباء الثقيلة على أجسادهم الهزيلة التي كثيراً ما كانت تتعرض لبعض الحوادث التي قد تبقيهم معاقين مدى الحياة.

¹ Dib Mohammed , Le métier à tisser, p 9.

المصدر السابق، ص 20، 21.

³ المصدر السابق، ص 23.

⁴ المصدر السابق، ص 25.

⁵ Mammeri Mouloud, Le sommeil du juste, p 65.

6.5) الهجرة ومآسيها:

غالبا ما كان الفقر المدقع والأوضاع البائسة تدفع بالعديد إلى البحث عن الخروج من أوطانهم أو من قُراهم طلبا للرزق، مع الملاحظة أن الهجرة الداخلية ظهرت أكثر في الروايات الفرنسية أما المغربية منها فقد اهتمت خاصة بالهجرة الخارجية لأنه لم يكن هناك فرق بين حال المدن والقرى فيها نظرا لسيطرة المعمرين على كل شيء و تهْميشهم للسكان الأصليين فلم يتركوا أمامهم سوى مغادرة الأوطان والهجرة إلى بلدان أخرى غريبة وبعيدة عن بلدانهم.

ففي رواية "البؤساء" لـ "هوغو" تترك "فانتين" قريتها ومسقط رأسها وتهاجر إلى باريس وهي ابنة الخمس عشرة سنة لقد ذهبت لتبحث عن العمل وعن المال لقد كانت ترغب في أوضاع معيشية أفضل.¹

وكذا قدم "أوجين دي راستينياك" في رواية "الأب غوريو" لبالزاك من منطقة "أنغولام" (Angoulême) إلى باريس المدينة الكبيرة ليواصل دراسته في الحقوق وليتعلم عادات وسلوك المجتمعات الراقية حتى يصبح عضوا منها لأنه لم يكن يفكر في العودة إلى قريته.²

كما غادر كل من "جيرفيز" و"لانتيه" (Lantier) بلدتهما الصغيرة إلى باريس بحثا عن حياة أفضل، لقد كان "لانتيه" الذي ورث سبعة عشر مئة فرنكا عن والدته يرغب في إنجاز مشروع مربح بها أما "جيرفيز" فقد هربت من سوء معاملة والدها لها ومن أوضاعها

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome1, Volume1, p 151.

² Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 29.

المزرية.¹ لقد كان "لانتيه" يحلم أن يجعل من "جيرفيز" غسالة محترفة في باريس ومن نفسه مسئولاً عن عمل مربح لحسابه.²

و قد سافر "إيتين" في رواية "جيرمينال" أيضاً من منطقة "مارشيان" (Marchienne) إلى منطقة "مونتسو" بحثاً عن عمل مناسب له بعدما سادت البطالة في باريس بسبب الحروب والأزمات الاقتصادية.³

وفي المقابل كانت الهجرة بنوعها الداخلية والخارجية مطروحة بشكل ملحوظ في الروايات المغربية وذلك بسبب البطالة والأجور الزهيدة وانتشار الأمراض وسوء التغذية وتفشي الأمية والفقر المدقع إلى غير ذلك.

وبناء على ذلك، لم يكن باستطاعة "فورولو" في رواية "ابن الفقير" لـ "مولود فرعون" مواصلة دراسته بعد نجاحه بتفوق في شهادة التعليم الابتدائي إلا بانتقاله إلى الجزائر العاصمة و ذلك بعدما تحصل على منحة دراسية.⁴ كما وجد "إبراهيم" زوج "سكورة" في رواية "الربوة المنسية" لـ مولود معمري نفسه مجبراً على ترك زوجته وأبنائه وذهابه إلى بوسعادة للعمل بالتجارة هناك،⁵ كما كان سكان منطقة القبائل عامة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى يسافرون إلى منطقة سكيكدة للعمل في مستثمرات الفلين كما كان البعض الآخر منهم يشترك في حفر مناجم الفوسفات بضواحي قسنطينة وقد كان المعمرون علاوة على ذلك، يستأجرون العديد من الجزائريين للعمل في مزارع المتيجة.⁶

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 37.

² المصدر السابق، ص 37.

³ المصدر السابق، ص 13.

⁴ Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, pp263, 264.

⁵ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 178, 179.

⁶ Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, p 43.

ولكن بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى بدأ الجزائريون يكتشفون فرنسا كأرض ومكان يمكنهم الهجرة إليه من أجل العمل نظرا لحاجة المصانع والورشات الكبرى فيها إلى اليد العاملة وخاصة اليد العاملة الرخيصة، ومن بين هؤلاء كان والد "فورولو" في رواية "ابن الفقير" مضطرا لترك قريته وعائلته والسفر إلى فرنسا ليحسن أوضاعه المادية والمعيشية وقد قدم لنا السارد صورة الأب الخائف من المجهول لأنه متجه نحو بلد غير معروف تماما لديه ولا يعلم ما سيكون مصيره هناك ومصير عائلته في القرية من دونه وعليه قضى "رمضان" والد "فورولو" ليلته الأخيرة في بيته في الدعاء والصلاة وقد كان يطلب العناية الإلهية وإزاحة كل العقبات والحوادث عن سبيله.¹

وكذا كان "أعمر" في "الأرض والدم" عازما ومضرا على الهجرة إلى فرنسا ولكن والده "قاسي" كان جد متخوف من ذلك لأنه كان صغير السن ولم تكن له أي خبرة في الحياة لذا كان يبحث عن بعض معارفه ممن عاشوا في فرنسا وجاءوا في زيارة لأهاليهم في القرية حتى يصطحبوه معهم لأن الهجرة تتطلب شجاعة كبيرة.²

كما كان الشباب في رواية "الربوة المنسية" أيضا يهاجرون بأعداد كبيرة إلى فرنسا لأن أرضهم لم تعد تكفيهم لسد كل احتياجاتهم ، وقد قال أحدهم: "لقد كان لأجدادنا نسبة أقل بمرتين من احتياجاتنا وأربع مرات أكثر من الأراضي التي نمتلكها"،³ لقد بدأت الهجرة في قرية "تاسغا" من خلال ابني الإسكافي وذلك بعد وفاة والدهما ثم "مبارك" ف "واعلي" و "إيدر"،⁴ وبهذا أفرغت الطرقات من الشباب المزعج والعنيف وأيضا الهاديء والبشوش، لم يعد هناك من ينتظر الفتيات على الساحات وهن عائدات من المنبع.⁵

¹ Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, p 243.

² Feraoun Mouloud, La terre et le sang, pp 43, 44.

³ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 27.

⁴ المصدر السابق، ص 27، 28.

⁵ المصدر السابق، ص 28.

هذا وقد خصص "إدريس شرابي" رواية كاملة بعنوان "التيوس" لطرح موضوع الهجرة ومعاناة المهاجرين من منطقة الشمال الإفريقي خاصة في أرض المهجر من رفض وتمييز عنصري...

وكذا تطرق الروائي التونسي "محمد العروسي المطوي" في روايته "التوت المر" إلى موضوع الهجرة من خلال عائلة "الشيخ مفتاح" الذي اضطر إلى ترك بلده الأصلي ليبيا والهجرة إلى تونس بسبب الاستعمار الأوروبي الذي حرم السكان الأصليين من ممتلكاتهم وجعلهم فقراء ومعوذين،¹ يقول الشيخ "مفتاح" عن ذلك: "خربت بيوتنا... قصفها الطليان بالمدافع... أحرقها بالنار [...] إن هذا الجبار يزداد قوة كل يوم".²

وهكذا تلتقي الشخصيات الروائية سواء في الرواية الفرنسية أو الرواية المغربية في لجوئها مضطرة إلى الهجرة بحثا عن عالم أفضل وسعيا إلى تحسين أوضاعها وأوضاع ذويها مع الملاحظ أن معظم المهاجرين المغاربة خاصة لم يسلموا من صدمة التغيير فور وطء أقدامهم للمدن الكبرى، فقد اصطدموا بالعادات والعقليات وأنظمة العيش المختلفة تماما عن التي عهدوها إضافة إلى صعوبة المعيشة وتعقدها والازدحام والضوضاء والبنائيات الضخمة والمصانع ووسائل المواصلات إلى غير ذلك.

لقد ظهرت الثورة الصناعية في أوروبا و"كانت المدينة هي مهدها الطبيعي حيث شهدت لندن وباريس وغيرها انقلابات عظيمة في ميدان العلوم والتكنولوجيا و ما عقبها من تغيرات صميمية في أمور الحياة فما لبثت أن تعقدت المعيشة وخرجت عن طبيعتها الفطرية واستحدثت كماليات فتحت أعين الناس على حاجات جديدة وطرق حديثة للرفاهية والثرى وفي المقابل زادت الكثافة السكانية وتكدست الأحياء وضافت الأرض بمن عليها

¹ العروسي المطوي محمد، التوت المر، ص 18

² المصدر السابق، ص 8.

وتحول الفرد في خضمها إلى كائن ضئيل، ضائع، مغترب عن ذاته وعن طبيعته الأساسية".¹

هكذا وجد "أعمر" في رواية الأرض والدم "نفسه تائها بمجرد وصوله إلى محطة القطار "بليون" وسط حشود كبيرة تفوق كل تخيلاته "لقد ضاع في الجماهير الكبيرة وكأن المجتمع كله قد استيقظ، لقد عانى معاناة كبيرة خوفا من الضياع ومن فقدان مرافقيه وقد تنبه أحدهم إليه فأخذه من يده وواصلوا المسير معا. لقد كان "أعمر" خجولا وخائفا وعند خروجهم من المحطة فوجئ بقوافل عديدة من العربات والسيارات والحافلات بمختلف أنواعها، لقد كان المكان يعج بالناس: أطفال ونساء ورجال يظهرون كلهم على عجلة من أمرهم وكل منهم كان له هدف ينبغي بلوغه بسرعة".²

كما ضاعت "فانتين" أيضا في رواية "البؤساء"، لقد قدمت إلى باريس وكلها أمل في تحقيق طموحاتها من خلال إيجاد عمل وربما زوج وتكوين أسرة ولكن المدينة سلبتها فرحتها وأحلامها وبراءتها وجمالها وعفتها ووجدت نفسها أمًا عزباء مما زاد أوضاعها تعقيدا وصعوبة.

وكذا ضاعت "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لـ "زولا" في المدينة التي جاءت إليها لكي تغير من أوضاعها وتعيش حياة سعيدة ومريحة ولكنها سرعان ما سقطت في الإدمان على شرب الخمر وأضاعت كل شيء حتى نفسها وكذلك سقط "بلعيد" في رواية "الأفيون والعصا" لـ "مولود معمري" في آفة الإدمان على شرب الخمر هو الذي هاجر إلى فرنسا ليعمل ويربح المزيد من الأموال ويتمكن من تسديد ديونه وإعالة أبنائه الذين تركهم هناك بعيدا في إحدى القرى بمنطقة القبائل.³

عتيق مديحة، أسطورة العالم الآخر في الشعر العربي الحديث و المعاصر، دار ميم للنشر الجزائر 2010، ص 139¹

² Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p45.

³ Mammeri Mouloud, L'opium et le baton, pp 72-75

هكذا كانت الهجرة بالنسبة للعديد من هذه الشخصيات نقمة وليس نعمة.

6 مكافحة الفقر والثورة على الأوضاع المزرية:

يتشكل معظم الفقراء والمعوزين سواء في المجتمع الفرنسي أو في المجتمعات المغربية من العمال والفلاحين من أبناء الطبقات الشعبية البسيطة، لقد كان هؤلاء يمارسون كل أنواع الأعمال الشاقة ويرضون بالظروف الصعبة من ساعات العمل الطويلة في أجواء غير صحية وخائفة مع قسوة أرباب العمل الذين كانوا لا يفتنون يقطعون من رواتبهم الزهيدة بمجرد ارتكابهم لأدنى هفوة، لقد تحمل هؤلاء العمال كل هذه الأنواع من الضغوط آملين في تحسن أوضاعهم المعيشية مستقبلا ولكن الواقع كان عكس ذلك تماما إذ كانت الأمور تزداد تفاقمًا وتدهوا مما أدى إلى غضبهم الشديد ورفضهم لواقعهم التعيس ولعل ما شجعهم أكثر على الاستفاقة من نومهم العميق والخروج من سلبيتهم هو دخول بعض المناضلين من التيار الشيوعي في وسطهم الذين كانوا يناصرون قضايا العمال والطبقة البروليتارية ويقفون في صف المظلومين وينادون بضرورة إقامة العدالة الاجتماعية في المصانع والشركات وتوزيع الأرباح على المنتجين الفعليين وتقليص نفوذ أرباب العمل والقضاء على استغلالهم للعمال والمستضعفين.

هذا وقد ظهرت الشيوعية في أوروبا أثناء القرن التاسع عشر بقيادة "كارل ماركس" ثم سرعان ما انتقل صيتها وتأثيرها إلى مختلف أنحاء العالم ومن بينها البلدان المغربية خاصة أثناء فترة الاحتلال الفرنسي لها ولاسيما مع بداية العشرينات من القرن الماضي.

ومن أهم هؤلاء المناضلين نذكر "إيتيين" في رواية "جيرمينال" لـ "زولا" و"حميد سراج" في رواية "الحريق" لـ "محمد ديب".

هكذا وفي مكان ضيق ومظلم وعلى بعد ستة مئة مترا تحت سطح الأرض بدأت أصوات العمال تتعالى، لقد كان هؤلاء الرجال الملطخون بالفحم والمتجمدون بفعل الانتظار في الأجواء الباردة يتهمون شركة المناجم برغبتها في قتلهم هناك في أعماق المنجم وقتل البقية الأخرى منهم بالجوع.¹ وقد قدم لنا السارد في موضع آخر من الرواية صورة حية عن غضب العمال وثورتهم على أوضاعهم في قوله: "كان يُلقى بهؤلاء البؤساء في مخالب المكناات ويُرمى بهم كقطعان من المواشي، لقد كانت الشركات الكبرى تمتصهم شيئاً فشيئاً [...] لم يعد عمال المناجم هؤلاء الجهلاء ولا المتوحشين المسحوقين في أعماق الأرض".²

وفي المقابل بدأ الفلاحون في رواية "الحريق" لـ "محمد ديب" يستفيقون من سباتهم ويخرجون من سلبيتهم بمطالبتهم بتحسين ظروفهم المعيشية عن طريق الرفع من أجورهم التي ينبغي أن تكون معادلة للأعمال الشاقة و القاسية التي يمارسونها حتى يتمكنوا من إطعام أطفالهم الذين لا يفتئون يكون من شدة الجوع، لقد اتفق الفلاحون هذه المرة على كلمة واحدة وبدوا وكأنهم متحدون ووضعوا أيديهم في أيدي بعضهم البعض حتى يثوروا على أوضاعهم المزرية.³

لقد بدأ "إيتيين" في رواية "جيرمينال" لـ "زولا" بالحديث عن حقوق العمال في العمل في ظروف حسنة مقابل أجور مناسبة لعملهم وفي العلاج وعن عدم استغلال الأطفال الصغار إلى غير ذلك كما تطرق إلى ضرورة اللجوء إلى الإضراب كوسيلة للضغط على السلطات من أجل اقتلاع بعض الحقوق الاجتماعية للعمال وقد أبدى "إيتيين" إصراره على ذلك أكثر بعدما تلقى رسالة من "الجمعية الدولية للعمال" التي أنشئت في لندن والتي يمكن لأفكارها، حسب رأيه، أن تنتشر في كل المعمورة في ظرف قياسي وتفرض على

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 72.

² المصدر السابق، ص 313.

³ Mohammed Dib, *L'incendie*, p 36.

أرباب العمل تغيير سلوكهم مع العمال،¹ وقد كان "إيتيين" يسعى إلى إنشاء فرع لهذه الجمعية في منطقة "مونتسو" وهذا ما كان يصبو إليه أيضا السيد "بلوشار" (Pluchart) أمين فيديرالية الشمال للعمال.² هكذا بدأ "إيتيين" يستعد للإضراب وشرع في تحضير "خزينة النجدة" لمساعدة العمال أثناء الإضراب.³

وفي المقابل كان "حميد سراج" في رواية الحريق"، ينظم اجتماعات مع الفلاحين وكان يلتقي بهم ويستمع إلى آرائهم وانشغالاتهم حتى يقوم بتوعيتهم بطريقة حكيمة وسليمة وبهذا بدأ الفلاحون يدركون حقيقة أوضاعهم والمتسبب الفعلي لها ويتضح ذلك في كلام بعض الفلاحين ومنهم "بن سالم عدة" الذي كان يتحدث بصوت مرتفع وهو واثق من نفسه قائلاً: "لماذا لا نتحدثون عن الكولون؟ كل ما تقولونه هو حكيم ورزين ولكن فيم يفيدنا كل هذا؟ أنتم لا تنبسون بكلمة عمّن هم السبب في تعاستنا، لأنه إن تحدثتم عن الألم ولم تقولوا أي شيء عن المسؤولين الفعليين عنه فإنكم لا تفيّدونا في أي شيء".⁴ و من هنا بدأت تتدفق الآراء حول وضعية الفلاحين وحياتهم الكئيبة، لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تحدث فيها الفلاحون بذلك الشكل الصريح و الشفاف مما ولد فيهم شعورا جميلا، لقد أحسوا أنهم تطهروا من أعماقهم واستراحوا من أعبائهم وقال "الكولوغلي الأكبر": "إنه يجب أن يكون هناك وعيا جديدا".⁵

وبهذا يكون العمال في رواية "جيرمينال" والفلاحون في رواية "الحريق" قد أدركوا حقيقة أوضاعهم وهضم المسؤولين والكولون لحقوقهم واستغلالهم كالعبيد فقرروا الدخول في إضراب ، الأمر الذي فاجأ مدير منجم "الفورو" في رواية "جيرمينال" لأنه لم يلحظ أي

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 158, 159.

² المصدر السابق، ص 159.

³ المصدر السابق، ص 195.

⁴ Mohammed Dib, *L'incendie*, p 90.

⁵ المصدر السابق، ص 95.

علامة ظاهرة على وجوه العمال تعبر بالرضا أو بالرفض عندما تقاضوا أجورهم في آخر الأسبوع.¹ أما السيد "غريغوار" و هو أحد بورجوازي المنطقة وملاك أحد المناجم فلم يكن مهتما بالإضراب ولم ينزعج تماما لأنه يدرك جيدا حقيقة أوضاع الفلاحين الذين لن يتمكنوا من الصمود طويلا.²

بالفعل كانت ظروف الإضراب جد صعبة على عمال المناجم وعائلاتهم فبعد أسبوع من الإضراب بدئوا يشعرون بالجوع والبرد ونقص المؤونة،³ ومنهم من لم يستطع المقاومة وفارق الحياة كالطفلة "الزير".⁴ ولعل ما زاد الطين بلة هو اقتحام الشرطة لأماكن الإضراب حتى يمنعوا نشوب أي صراعات بين المضربين وغير المضربين،⁵ و لكنهم فشلوا في ذلك فلم يتوصلوا إلى منع مضربين في الهجوم على غير المضربين وعلى المسؤولين وحتى على الشرطة الذين كانوا يحاولون منعهم عن رميهم بالحجارة مما زاد من انفعالهم و أدى إلى الهجوم حتى عليهم⁶ مما أجبر رجال الأمن على إطلاق النار عليهم و هذا ما أدى إلى مقتل العديد من المضربين أمثال السيد "ماهو" والسيدة "موكات" وغيرهما،⁷ وقد أوردت إحدى الصحف في باريس أن عدد الموتى بلغ أربعة عشر ميتا من بينهم طفلين وثلاثة نساء وخمسة وعشرين جريحا ولقد تلقت الشركة الأوامر بإخفاء الأمر والتستر عليه وكذا توقيف الإضراب الذي قد يكون خطرا على المجتمع إن طالت مدته أكثر.⁸ وفي المقابل دخل الفلاحون في منطقة "بني بوبلن" في رواية "الحريق" في إضراب ليعبروا عن رفضهم وغيظهم من مصادرة أراضيهم وفرض ضرائب كثيرة أثقلت كاهلهم

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 219.

المصدر السابق، ص 278².

³ المصدر السابق، ص 278.

المصدر السابق، ص 425⁴.

⁵ المصدر السابق، ص 372، 373.

⁶ المصدر السابق، ص 460، 461.

⁷ المصدر السابق، ص 462، 463.

⁸ المصدر السابق، ص 467.

مما كان يجبرهم على التنازل عن ممتلكاتهم،¹ إضافة إلى حوادث العمل الكثيرة التي كانت تتسبب فيها الآلات الفلاحية الجديدة التي كان الفلاحون يجهلون استعمالها ومخاطرها.²

وقد كانت عواقب الإضراب على فلاحي "بني بوبلن" جد صعبة وهي تقترب كثيرا من أوضاع عمال المناجم في رواية "جيرمينال" إذ كانوا في حال أسوأ مما كانوا عليه في السابق، لقد تعرضوا للجوع والحرمان وقد قال أحدهم: " أنا وعائلتي نشعر دائما بالجوع [...] أطفال ييموتون جوعا".³

لقد استاء المعمرون كثيرا من إضراب الفلاحين وكان من بينهم من كان يجبر الفلاحين بقوة السلاح للعودة إلى العمل أمثال المعمر "ماركوس"، كما تعرض أحد الشباب أيضا إلى الضرب المبرح مما تسبب له في جروح خطيرة على مستوى الرأس وهذا ما استدعى أخذه إلى كوخ أحد الفلاحين وإخفائه هناك خوفا من القضاء عليه إضافة إلى سجن العديد من الفلاحين المضربين الذي صمدوا ولم يستجيبوا لرغبة المعمرين ولم يرضخوا لأوامرهم.⁴ وقد كان هؤلاء المسجونون يستجوبون بالقوة لمعرفة قادة الإضراب وكانوا كلهم يجيبون كرجل واحد: "المسؤول الأول عن الإضراب هو البؤس".⁵

هذا وقد أُتبع الإضراب في رواية "الحريق" بحريق مهول اندلع في مزرعة أحد المعمرين و بالذات في أكواخ الفلاحين الذين كانوا يعملون عنده وكانوا مضربون عن العمل.⁶

¹ Mohammed Dib, L'incendie, pp 31, 54, 75, 79.

² المصدر السابق، ص 76، 77.

³ المصدر السابق، ص 126.

⁴ المصدر السابق، ص 125.

⁵ المصدر السابق، ص 128.

⁶ المصدر السابق، ص 130 و 144.

وقد كان ذلك الحريق نوعاً من العقاب للفلاحين الذين رفضوا الالتحاق بالعمل وكذا توريطهم واتهامهم بحرق مزرعة أحد المعمرين حتى يُعاقبوا، وقد نجم عن ذلك الحريق وفاة البعض من الفلاحين وذويهم كالفلاح "عزوز" الذي فقد زوجته.¹

هكذا كانت أوضاع الإضراب تكشف عن الظلم الاجتماعي الذي كان يعيشه العمال في أوروبا وبالذات في فرنسا في أواخر القرن التاسع عشر وضعف النقابات العمالية والجمعيات التي كانت تناضل في سبيل ضمان حقوق العمال التي كانت في بداياتها الأولى ولم تكتسب أي تجربة في هذا المجال بعد، وكذا أوضاع العمال والفلاحين خاصة في الجزائر المحتلة من قبل الفرنسيين الذين حرّموا من كل حقوقهم ولم يكونوا يتوانون في قمعهم بالقوة لردعهم.

ولعل الأمر الملفت للانتباه فعلاً في هذين العاملين هم نهايتيهما - رغم الأجواء السوداء والقائمة التي سادتهما - اللتان توحيان بالتقاؤل بمستقبل أفضل وأجمل، تنتهي رواية "جيرمينال" بمشهد الأرض التي بدأت تُخرج براعم جديدة في شهر مارس مع بدايات فصل الربيع الذي تولد فيه الأرض من جديد فهو ينبؤ ببداية جديدة لهؤلاء العمال الذين سيستفيدون من تجاربهم ويتعلمون من أخطائهم ونقائصهم ولن يكرروا الأخطاء التي وقعوا فيها في الماضي،² أما رواية الحريق فهي تعج بمقاطع تتحدث عن موت الزمن الماضي وانقضائه وانتهاء الجوع والفقر والمعاناة،³ وقبل ذلك كان "كومندار" لا يفتأ يصرح لعمر بأنه يشعر بوقوع حدث عظيم وجديد سيكون شأنه عظيماً على واقعهم المعيشي.⁴

وبناء على ما سبق نلاحظ التقارب الشديد بين الروايتين الفرنسية والمغربية في تحديد أسباب الفقر ومظاهره ونتائجه وحتى ردود أفعال بعض الشخصيات الروائية اتجاه بعض القضايا والمعضلات وكيفية التعامل معها ولكن هذا لا يعني انصهار الروائيين المغاربة

¹ Mohammed Dib, L'incendie, p 137.

² Emile Zola, Germinal, p 558.

³ Mohammed Dib, L'incendie, p 137.

⁴ المصدر السابق، ص 64.

في الثقافة الفرنسية لأن كل موضوعاتهم مأخوذة من صميم الواقع المغربي وكانت تعكس البيئة المغربية في طبيعتها وتضاريسها وأريافها وجبالها وقراها ومدنها وكذا في أفكارها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وحتى بعض الخرافات المنتشرة فيها وهي تختلف تماما عن الأجواء الغربية والفرنسية على وجه الخصوص والحاضرة بشكل كبير في الروايات الفرنسية ومن هنا نصل إل أن الروائيين المغاربة تأثروا بصورة إيجابية بالروايات الفرنسية.

الباب الثالث

الفصل الثاني:

ظاهرة البؤس في الروايتين

الفرنسية والمغاربية

معظم الفقراء بؤساء ولكن ليس كل البؤساء فقراء إذ البؤس يرتبط دائما بالفقر أو بالأحرى هو إحدى نتائجه ولا يقتصر البؤس على الجانب المادي فحسب بل غالبا ما يمس الجانب النفسي والعاطفي والفكري والثقافي وغيرها.

والبائس هو الذي نزلت به بلية أو المبتلى كما ورد في معجم تاج العروس¹ ويرى "كارل ماركس" أن البؤساء هم المحرومون من المأوى ومن الدفء ومن الانتماء ومن الحقوق.² وعليه فإن البائس هو الإنسان التعيس والعاجز على تحقيق ذاته وطموحاته وهو من سلبت منه أحلامه وآماله في الحياة ومن ثم فهو الشخص المحطم ماديا ومعنويا.

وقد اهتم الروائيون الفرنسيون والمغربيون بهذه الظاهرة و خاضوا في مختلف تفاصيلها وحيثياتها و لعل أول ما يصادفنا فيها هو سعيهم إلى تقديم أهم الأسباب والعوامل المسهمة في حدوثها.

1) أسباب البؤس في الروايتين الفرنسية والمغربية:

تتعدد الأسباب والعوامل المؤدية إلى البؤس حسب ما ورد في الروايات الفرنسية والمغربية المدروسة ومن بينها نذكر:

1.1) الفقر:

غالبا ما يؤدي الافتقار للوسائل المادية والمعنوية لتحقيق حياة متوازنة على مختلف الأصعدة: الاجتماعية والنفسية والعاطفية والفكرية إلى غير ذلك. مع الملاحظة أن جل

¹ ينظر محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تاج العروس ، الجزء 15 ص435

² Labbens Jean ,Sociologie de la pauvreté, p306

البؤساء في الروايتين الفرنسية والمغربية كانوا من الفقراء بل من المعدمين أحيانا، لقد كان "جان فالجان" بطل رواية البؤساء لـ "فيكتور هوغو" ينتمي إلى عائلة فلاحية فقيرة جدا من منطقة البري (Le Brie) بفرنسا، لقد كان أميا وعندما كبر أصبح مشدبا بمنطقة "فافرول" (Faverolle) كما كان يتيم الأبوين مما دفع بأخته الكبرى إلى التكفل به رفقة زوجها الذي توفي سنوات من بعد تاركا سبعة أطفال يتامى تولى "جان فالجان" بدوره إعالتهم وفي سبيل ذلك مارس العديد من الأعمال لكي يوفر لهم خبزهم اليومي ولكن أوضاعهم كانت سيئة للغاية مما دفعه إلى السرقة ومن ثم إلى السجن.¹ لقد أمضى "فالجان" أجمل سنوات شبابه في السجن وفقد معها ذاته واسمه إذ أصبح مجرد رقم من بين أرقام أخرى كثيرة،² كما ضيع كل المشاعر الإنسانية الدافئة التي كانت في داخله، لقد أصبح مجردا من كل الأحاسيس وكان حاقدا على الحياة التي ظلمته على كل الأصعدة لقد كان الألم ملازما له طول حياته لقد فقد كل أحبائه ومنذ ذلك الحين لم تصادفه أي كلمة طيبة أو نظرة حنونة وفي الأخير استنتج أن الحياة معركة وكان هو المنهزم الوحيد والدائم فيها ومن ثم لم يكن أمامه إلا سلاح واحد وهو الحقد عليها.³ لقد بات "جان فالجان" إنسانا قاسيا وكئيبيا وملعوننا، غالبا ما كان ينظر إلى السماء بقسوة رهيبة وكأنه كان يعاتب الله أو يدينه بسبب مصيره البائس وأي خبير يراه كذلك سيؤكد البؤس الأبدي الغارق فيه.⁴

إضافة إلى "جان فالجان"، كانت الشخصية البائسة الثانية في رواية "فيكتور هوغو" بفعل الفقر هي "فانتين" والددة "كوزيت"، لقد نشأت في الشارع وكان الكل يناديها بـ "فانتين"

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 110, 111.

² المصدر السابق، ص112.

المصدر السابق، ص116، 117.³

المصدر السابق، ص 118.⁴

الصغيرة لم يكن لها بيت يأويها ولا أسرة تتكفل بها وتتولى تربيتها وفي سن العاشرة من عمرها غادرت مكان تواجدتها لتعمل في المزارع المجاورة وفي سن الخامسة عشر رحلت إلى باريس للبحث عن المال، لقد كانت جميلة وأنيقة وكانت تعمل لتعيش حياة كريمة إلى أن التقت بشاب يدعى "طولومياس" (Tholomyès) وقد كان طالبا جامعيا ثريا يحب اللهو والمرح رغم أنه كان في أواخر مرحلة شبابه،¹ لقد كانت "فانتين" ترى فيه الشخص المخلص لها من مخالب الفقر وعذابه، لقد كانت تتمنى أن يتزوج بها حتى تكون معه الأسرة التي طالما كانت تحلم بها وتكتسب اسما كسائر الناس، أما هو فقد استغل سذاجتها وحاجتها الماسة إلى الحب والحنان فأوقعها في حبه ثم جعلها تسقط في الرذيلة وقد كانت الصدمة عنيفة جدا على "فانتين" عندما اكتشفت أنها حامل من "طولومياس" الذي هجرها وتخلي عنها.²

ومن هنا تبدأ رحلتها مع العذاب ، لقد باتت مسئولة على طفلة صغيرة ومجبرة على العمل كثيرا حتى تضمن لها حياة كريمة، لقد كان الحمل ثقيلًا جدا على كاهلها لأنه لم يكن بإمكانها إيجاد أي عمل وبين ذراعيها فتاة رضيعة مما أجبرها على تركها عند إحدى العائلات في إحدى القرى ومن ثم كانت مسائلها المادية تزداد صعوبة لأنها سرعان ما فصلت من عملها³ ولم يكن بإمكانها فيما بعد إرسال المبالغ المالية التي وعدت بها العائلة المتكلفة بابنتها مما جعلها تمارس أعمال صعبة و مرهقة ولكن دون ربح كبير كما حملت على التنقش في المأكّل والملبس والتدفئة في فصل الشتاء البارد،⁴ لقد ضحت بشعرها وبأسنانها الأمامية حتى تدبر المبالغ المالية التي كان يطالبها بها "آل تيناردييه"

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 150, 151.

² المصدر السابق، ص 171، 172.

³ المصدر السابق، ص 207.

⁴ المصدر السابق، ص 209.

تارة بحجة أن "كوزيت" بحاجة إلى ملابس دافئة في فصل الشتاء وتارة أخرى بحجة إصابتها بمرض خطير قد يقضي عليها إن لم ترسل المبلغ المطلوب لعلاجها.

لقد كان الفقر لا يفتأ يدفع بها نحو السقوط والانحدار أكثر فأكثر مما زاد من بؤسها إذ بعدما ضاقت بها سبل الحياة اتخذت عشيقا ظنا منها أنه سيتكفل بمصاريفها ومصاريف ابنتها ولكنه بالعكس كان شخصا بائسا ومعدوما وتافها وكان يضربها باستمرار.¹ وبهذا تصل "فانتين" إلى قمة البؤس لأنها ضيعت كل شيء جميل فيها كما أصبحت هي ذاتها مصدرا للشقاء.²

وفي المقابل كانت "عيني" في ثلاثية "محمد ديب" امرأة بائسة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى وقد كان الفقر المدقع الذي غرقت فيه هو العامل الأساسي المتسبب في بؤسها وشقائها لقد فقدت زوجها وهي في ريعان شبابها وترك لها ثلاثة أيتام صغار وكانت هي العائل الوحيد لهم وكم من مرة فشلت في إطعامهم وتلبية حاجاتهم الأساسية مما زاد في بؤسها ومعاناتها وجعلها تنثور على كل من يحيطون بها ولم يسلم منها حتى زوجها المتوفى ومن بين أقوالها نذكر كلامها مع ابنها "عمر" قائلة: "هذا هو كل ما تركه لنا أبوك، هذا العديم القيمة: البؤس! كانت حصتي هي التعاسة طول حياتي! هو مستريح في قبره ولم يفكر أبدا في ادخار بعض المال وقد التصقتم أنتم أيضا بي كالطفيليات، لقد كنت غبية وكان عليّ أن أترككم في الشارع وأهرب إلى جبل خال."³ وقالت أيضا: "لقد سلطكم الله عليّ كالحشرات لتلتهموني."⁴ لقد عاشت "عيني" حياة بائسة وحزينة لمدة زمنية

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 211– 214.

² المصدر السابق، ص 216.

³ Dib Mohammed, La grande maison, p 30.

⁴ المصدر السابق، ص 32.

طويلة¹ مما دفعها إلى التفكير في ممارسة التجارة غير القانونية رغم مخاطرها الكثيرة لأن أرباحها كانت مضمونة.²

وهكذا كان الفقر هو المتسبب الأول في بؤس هذه الشخصيات سواء في الرواية الفرنسية أو المغربية.

2.1 (الاستغلال والجشع:

الأنانية سمة سلبية في الإنسان وهي تبرز خاصة عند الأطفال إلا أنها تتناقص فيه كلما كبر أكثر ونضج ولكنها سرعان ما تظهر جلية عندما يستولي الطمع والطموح غير الصحي عليه لأنه في هذه الحال سيضرب عرض الحائط بكل المبادئ والمشاعر الإنسانية النبيلة ليترك المجال للجشع وحب الاستغلال ليظهرها ويسيطر عليه ومن ثم لن يتوانى في استنزاف كل من يمكنهم تزويده بالأموال أو الأفكار والمشاعر أحيانا في سبيل تحقيق أهدافه ولا يتردد في تجريد هؤلاء من كل ما لديهم والقضاء عليهم تماما وسلبهم كل ما كان يسمح لهم بالعيش بكرامة ويجعلهم بؤساء وفقراء وأشقياء.

هكذا كان "آل تيناردييه" يستغلون "فانتين" بوحشية عندما كانوا يطالبونها باستمرار بمبالغ مالية كبيرة تفوق كل إمكانياتها فكانوا لا يتوقفون عن اختراع الحجج لإرغامها على الاستجابة لطلباتهم، فتارة بحجة احتياج "كوزيت" للملابس الدافئة مع حلول فصل الشتاء³ وتارة أخرى بحجة مرضها الخطير يقضي و لكنها كانت مجرد خدعة لسلبها

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 111.

² ينظر المصدر السابق، ص 158 – 160.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome1, Volume1, p211

المزيد من الأموال،¹ وقد كانوا على يقين أنها ستبذل كل ما بوسعها لتوفير لابنتها كل ما تحتاج إليه لأنها تحبها كثيرا ولا يمكنها الاستغناء عنها لأنها أغلى ما عندها في الوجود.² وبهذه الطريقة قضى "آل تينارييه" على "فانتين" التي كانت قد فقدت عملها و ضاع مورد رزقها ومالها وواجهتها عراقيل كبيرة في سبيل تدبير الأموال التي تسمح لها بالعيش، لقد كانت تتكشف في كل شيء في المأكل والملبس وحتى في الشموع و لم تجد أي مانع من بيع شعرها³ وبعدها أسنانها الأمامية⁴ كما كان كل الذين أقرضوها المال يلاحقونها في كل مكان⁵ و بذلك تكون قد بلغت إلى قمة البؤس والشقاء.

إضافة إلى "فانتين" كان "الأب غوريو" محل استغلال بشع من قبل ابنتيه. لقد كان السيد "غوريو" قبل الثورة الفرنسية مجرد تاجر للعجائن، الشعيريات على وجه الخصوص وقد كان يتميز بالفتنة والذكاء وقد استقر بعد الثورة في أحد أحياء باريس الفاخرة واعتلى منصب رئيس الفرع التجاري الذي ينتمي إليه حتى يحمي تجارته من الأشخاص الخطيرين والمؤثرين سلبا ولاسيما في تلك الحقبة الزمنية الحساسة جدا، لقد كانت حكمته هي العامل الأساسي في تكوين ثروته إذ استغل أوضاع الأزمة حينذاك لتوسيع تجارته وجمع ثروته الكبيرة التي أخفاها عن الأنظار ولم يبيع بها إلا بعدما زالت عليه كل المخاطر والعراقيل، لم يكن له نظير في تجارة الحبوب.⁶

لقد كان "غوريو" متزوجا بامرأة فاضلة ابنة مزارع غني وقد كان كثير الحب لها وشديد التعلق بها ولكنه سرعان ما فُجع بوفااتها بعد سبع سنوات من الزواج السعيد والحياة الهنيئة تاركة له ابنتين وفي هذه الأثناء تفجرت عواطف الأبوة فيه بصورة غير عادية، لقد

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome1, Volume1, p 214.

² المصدر السابق، ص 211.

³ المصدر السابق، ص 211.

⁴ المصدر السابق، ص 214.

⁵ المصدر السابق، ص 214، 215.

⁶ Balzac Honoré de, Le père Goriot, pp 107, 108.

أضحى كل شيء في حياته التي كرسها كلها من أجل إسعادهما، لقد غمرهما بحبه وحنانه واستقدم لهما أكفأ المعلمين والأساتذة لتلقينهما مختلف العلوم والآداب إضافة إلى مربية و مرافقة لهما، لقد وضع تحت تصرفهما حصانا وسيارة، لقد عاشتا في رفاة كبيرة وعند بلوغهما سن الزواج ترك لهما حرية الاختيار مع الملاحظة أنه خصص لكل واحدة منهما نصف ثروته والمقدرة بحوالي ثلاثين ألف ليرة كمهر لها.

لقد اختارت "دلفين" (Delphine) المحبة للمال الزواج بمصرفي (un banquier) ثري وهو من أصل ألماني ويدعى السيد "نوسينجان" (Nucingen) أما "أناستازيا" (Anastasia) التي كان يستهويها عالم الأرستقراطية والحياة الراقية اختارت الزواج بنبيل بلقب "كونت" ويدعى "الكونت دي ريسستو" (Le comte de Restaud) .

وقد رفض صهره فيما بعد مواصلة العمل في مجال تجارة الحبوب والعجائن لأن ذلك لا يناسب مستواهما الاجتماعي وبعد إلحاحهما الشديد عليه رضخ لهما وتوقف عن عمله الذي كان كل حياته بعد ابنتيه مما دفعه إلى الذهاب إلى نزل السيدة "فوكير" (Vauquer) آخذا معه كل ما تبقى من أمواله جراء بيعه لمتجره.¹ لقد استقر "غوريو" في نزل متواضع جدا حتى يقتصد في أجرة المسكن وفي المأكل والملبس وهذا كله حتى يكون دائما مستعدا لمساعدة ابنتيه في حال لجوءهما إليه وقد قال "غوريو" رغم سلوك ابنتيه السلبية ورغم عقوقهما: "ابنتاي هما كل حياتي، [...] فلا أكرث لما ألبسه ولا حيث أنام لأنني لا أشعر بالبرد إذا كانتا في الدفء ولا أحزن إلا لحزنهما، عندما ستصبح أبا ستقول عندما تسمع أطفالك يصدحون أمامك: إنهم جزء مني! وعندما تشعر أن دمائك تسري في هذه المخلوقات الصغيرة [...] ستشعر أنهم جزء منك وستحس بحركتهم عندما

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, pp 110 ,111.

يمشون [...] وكل نظرة حزينة منهم تجمد دماءك في عروقك، وستدرك يوما أنك تسعد لسعادتهم أكثر مما تسعد لسعادتك أنت.¹

وقال "غوريو" أيضا: "يجب على الآباء أن يقدموا كل ما لديهم ليكونوا سعداء وهذا ما يجعل منّا آباء."²

هذا وقد كانت ابنتا السيد "غوريو" تلجئان إليه كلما كانتا في حاجة إليه أو بالأحرى إلى أمواله وهكذا قدم "غوريو" مبلغا معتبرا لابنته "دلفين" بعدما باع تحفة من التحف التي كان محتفظا بها إضافة إلى البعض من مدخراته لتسديد ديونها وكذا جاءت ابنته الأخرى "أناستازيا" لتستجد بأبيها حتى يساعدها على تسديد فاتورات عشيقها "ماكسيم"³ ولكنه عندما عجز على جمع المبلغ المطلوب منه بدأ يلوم في نفسه ويعاتبها بقسوة شديدة إلى درجة أنه قال لنفسه أنه غير جدير بأن يكون أبا لأنه غير قادر على توفير المبلغ الذي تحتاجه ابنته.⁴

وهكذا لم تكن ابنتا "غوريو" تتذكرانه إلا في وقت الحاجة لمساعداته سواء لحل مشاكلهما المادية أو العاطفية⁵ وعليه قال لهما: "يا ملكاي، لماذا لا تجتمعان عندي إلا بسبب المشاكل والمصائب."⁶

وفي الأخير عندما كان "الأب غوريو" يحتضر لم تحضرا لرؤيته رغم أنه أرسل في طلبهما، لقد فضلنا أن تمضيا وقتهما في حفل. وجراء ذلك قال "الأب غوريو" ناصحا من كان برفقته: "آه! يا صديقي، لا تتزوج ولا تتجب أطفالا! ستعطي لهم الحياة وسيعطونك

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 154.

المصدر السابق، ص 235.²

³ المصدر السابق، ص 256.

المصدر السابق، ص 263 و ص 267.⁴

المصدر السابق، ص 255، 256.⁵

المصدر السابق، ص 257.⁶

أنت الموت. أنت تدخلهم إلى العالم بينما هم فيخرجونك منه. وعن ابنتيه قال: "لن تحضرا! لقد أدركت ذلك منذ عشر سنوات و كنت أردده كثيرا في أعماق نفسي ولكني لم أقتنع به. آه! لو كنت غنيا، لو احتفظت بثروتي لنفسي ولم أسلمها لهما لحضرتا الآن ولقَبَلتا رِجليَّ وخديَّ، ولكنك سكنت في فندق فخم وكان لي غرفة فخمة وخداما يخدمونني وتدفئة، ولكانتا ستبكيان عليَّ رفقة أزواجهما وأطفالهما، لأن المال يمنحك كل شيء حتى البنات. آه! أين مالي؟"¹

هكذا كان "الأب غوريو" يرثى لحاله ويعبر عن ندمه في تبديد لماله ولكل ثروته على ابنتيه اللتين لم تعودا تهتمان به لأن الأنانية والجشع قد جردتهما من كل عاطفة رقيقة وجميلة ومن كل إنسانية فلم تحركا ساكنا عندما رأتا والدهما يسكن في نزل بائس ويلبس ثيابا قديمة وغير لائقة ويكتفي بأكل القليل جدا من الطعام حتى يبقى على قيد الحياة، لقد كانتا السبب الرئيس في بؤس والدهما الذي كان بإمكانه أن يحيا حياة سعيدة وكريمة ومريحة.

لقد بقي "غوريو" يتحسر على ابنتيه وعلى أنانيتهما حتى فارق الحياة، لقد قال: "إنهما لا تحباني بل لم تحباني يوما وهذا واضح جدا لأنهما لم تحضرا لرؤيتي فأنا متيقن أنهما لن تحضرا أبدا."²

وفي المقابل كان المعمرون الفرنسيون في رواية "الحريق" لـ "محمد ديب" الذين قدموا إلى قرية "بني بوبلن" بتلمسان حيث قاموا بمصادرة أراضي فلاحيه واستولوا عليها بالقوة وطردها أصحابها منها ومن بين هؤلاء نذكر الفلاح العجوز "بادعدوش" الذي كان يقص قصة حياته على أحد الفلاحين الشباب وكيف كانت لديه أرض وبقرة صغيرة وكيف كان

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, pp 288, 289.

المصدر السابق، ص 292.

يعيش في هناء رفقة زوجته وابنته الصغيرة "ريم" ولكن سرعان ما استولى الكولون على أرضه وطردوه منها وأصبح مجرد عامل عندهم.

كان المعمرون يستغلون الفلاحين أبشع استغلال أمثال "بادعدوش" الذي أمضى حياته كلها وهو يعمل في أراضي الكولون الذين قد يستغنون عنه بعدما أصبح عجوزا وغير قادر على العمل مثلما كان عليه في السابق وتناقص إنتاجه فإنهم يفضلون استبداله بفلاح شاب حتى تكون المردودية أكبر¹ إذ لم يكن همّ المعمرين إلا الربح المادي ولا يأبهون لحال الفلاحين الصحية ولا لوضعيتهم المادية وبهذا يكون المعمرون قد تسببوا في فقر الفلاحين وبؤسهم ماديا و معنويا لأنهم فقدوا أراضيهم وهي أعز ما يملكون والأمر من ذلك أنهم بقوا في تلك القرية و هم يبصرون الغرباء يتحكمون في أراضيهم وأراضي أجدادهم ويتصرفون فيها بكل حرية ويأمرون وينهون الفلاحين الذين أصبحوا خدما بل عبيدا لديهم.

إضافة إلى ذلك كان بعض أرباب العمل يستغلون فرصة وقوع أحد العمال في ضيقة مالية حتى يضغطوا عليه و يستغلوه أبشع استغلال، لقد وقع "إبراهيم" زوج "سكورة" في رواية "الربوة المنسية" لـ "مولود معمري" تحت رحمة صاحب العمل الذي كان يعمل عنده حين مرضت زوجته وكانت حالها تستوجب استقدام الطبيب وشراء الأدوية اللازمة لها وقد كانت أحوال "إبراهيم" المادية مزرية فلم يكن يملك المبلغ الكافي لذلك وعليه لجأ إلى صاحب العمل حتى يقرضه البعض من المال ولكنه دبر حيلة خسيصة حتى يقرضه على سبيل الربا، لقد ادعى أنه لا يملك المبلغ الكافي حتى يقرضه ولكنه سيطلب من أخيه أن يعطيه المال مع العلم أن أخاه هذا لم يكن شخصا صالحا ولم يكن يعمل² وفي اليوم الموالي عاد إليه مدعيا أن أخاه القاسي القلب رضي إقرضه المال الذي يحتاجه ولكن

¹ Dib Mohammed, L'incendie, pp54, 55.

² المصدر السابق، ص 85.

بنسبة عشرين بالمئة من الفوائد وطلب منه أن ينظر في الأمر وأن يفكر فيه إن كان ذلك يناسبه أم لا وأجابه "إبراهيم" في الحين قائلاً أنه موافق دون شك لأن صحة الإنسان لا يضاهيها أي ثمن.¹

وبهذا لم يشفق صاحب العمل على "إبراهيم" الذي كان يعمل بجد وأمانة طول الوقت بل أسهم في تدهور أوضاعه أكثر بدخوله في حال من البؤس المادي والنفسي معا لأنه كان يشعر بالعجز الكبير على إعالة أسرته الصغيرة وعلى ضمان معيشة كريمة لهم.

وعلى هذا الأساس نلاحظ مدى تقارب الروائيين الفرنسيين والمغربيين في تصوير مدى إسهام الأنانية والجشع في تجريد الأشخاص الضعفاء و الفقراء من أموالهم وعواطفهم وسعادتهم وشعورهم بالأمان والسلام وإدخالهم في حال من البؤس الشديد.

3.1 (الرفض والإقصاء من المجتمع:

يقال إن الإنسان حيوان اجتماعي خلق لكي يعيش وسط مجتمع من بني جلدته وعندما خلق الله تعالى آدم رأى أنه ليس حسن أن يبقى لوحده لذا خلق له حواء لتكون معينا ورفيقا له في هذه الحياة كما جعل المحبة من أنبل المشاعر الإنسانية التي تجمع بين البشر وتجعلهم يعيشون في سعادة وتناغم ووثام وعليه فإن أي قاعدة مخالفة لهذه ستكون شاذة ودخيلة على حياة الإنسان وطبيعته وتكون سببا في تعاسته وعليه كان رفض الإنسان وإقصائه من عائلته أو مجتمعه أو قبيلته هو موت بالنسبة إليه. وقد تعرضت العديد من الشخصيات الروائية سواء في الأدب الفرنسي أو في الأدب المغربي إلى الرفض و الإقصاء مما جعلها شخصيات شقية وبائسة لأنها لا تفتأ تتعارك وحيدة مع كل مسائل الحياة ومعضلاتها.

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 86.

ومن أهم تلك الشخصيات نذكر "جان فالجان" في رواية "البؤساء" الذي ذاق مرارة الرفض والإقصاء من مجتمعه ومواطنيه خاصة بعد خروجه من السجن، فبعد يوم كامل من السير على الأقدام أراد "جان فالجان" التوجه إلى أحد النزل أو الفنادق حتى يتغذى ويستريح من عناء السير لقد كان يحلم بوجبة ساخنة وفراش مريح وقد طرق أبواب العديد منها ولكن دون جدوى لقد رفض الكل استقباله وإيواءه. لقد رفض صاحب النزل الأول أن يعطيه مكانا حتى في إسطبل الحيوانات أو في العلية (Le grenier).¹ وبعدها رفض كل أصحاب الفنادق استقباله اتجه إلى الملاهي (الكاباريات) أو الحانات عليها تسمح له بالدخول، لقد رحب به صاحب الملاهي الأول ولكن لسوء حظه كان هناك أحد الحاضرين الذي التقى به في صباح ذلك اليوم وعلم أنه سجين سابق و أخبر صاحب الحانة بذلك فغير أسلوب حديثه معه فجأة وطلب منه مغادرة المكان في الحين.² كما قبل رب أسرة استقباله في بيته وإيوائه وإطعامه مقابل مبلغ من المال ولكنه سرعان ما غير رأيه بعدما ساوره الشك وطلب منه الذهاب إلى أحد الفنادق وأخبره "فالجان" أن الكل رفض استقباله ومن ثم تذكر الرجل ما سمعه في ذلك اليوم من أن هناك سجيناً غادر السجن للتو يجول في شوارع المدينة ومن ثم غير نبرة صوته وطلب منه المغادرة بسرعة ورفض أن يناوله حتى كأسا من الماء.³

لقد كان "جان فالجان" يائسا ومتعبا وبلغ به الأمر إلى أن قرع باب أحد السجون وطلب من الحارس أن يسمح له بالدخول لقضاء ليلته هناك ولكنه رفض بشدة وقال له أن السجن ليس بمأوى وأنه عليه أن يرتكب جنحة حتى يدخل إليه وبهذا كانت كل الأبواب موصدة في وجهه.⁴

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 88.

² المصدر السابق، ص 90، 91.

³ المصدر السابق، ص 92، 93.

⁴ المصدر السابق، ص 91.

و قد واصل "جان فالجان" مسيرته نحو اتجاه مجهول وكان شعوره بالجوع والبرد في تزايد وكان الليل يحل عليه شيئاً فشيئاً إلى أن عثر على كوخ خشبي صغير في أحد البساتين على حافة الطريق ودخل إليه حتى يحتمي فيه من البرد القارس ويستريح من عناء المشي وفجأة سمع صوتاً مرعباً وإذا بخيال كلب يظهر له عند مدخل الكوخ الصغير وأدرك في حينه أنه اقتحم بيت كلب ومن ثم خرج مسرعاً وهو في قمة اليأس والبؤس إذ لم يتمكن حتى من الحصول على ذلك الفراش من القش ليستريح قليلاً مما جعله يشعر بانهايار نفسي وجسدي فسقط أرضاً وهو يصرخ: "أنا لست حتى كلباً!!"¹

وفي الأخير عثر على مقعد حجري أمام مطبعة وجلس عليه ومن شدة تعبته نام ولكن سرعان ما خرجت امرأة من كنيسة قريبة من هناك وشاهدت ذلك المشهد واقتربت منه وقالت له : "ما أنت فاعل هنا يا صديقي؟ فأجابها بقسوة وغضب: أنا نائم كما ترين أيتها المرأة الفاضلة وقالت : على هذا المقعد؟ ثم أجابها: لقد كان لدي فراش من حطب طيلة تسعة عشر سنة أما اليوم فأنا على فراش من حجر".²

ثم سألته عن سبب تواجده هناك وعن عدم توجهه إلى أي نزل أو فندق في المدينة وأخبرها بأن الكل رفض استقباله ومن ثم أشارت إلى منزل صغير في الناحية الأخرى من الساحة أمام الأسقفية وقالت له: هل طرقت تلك الباب؟ فأجابها فالجان بالنفي وقالت له: أطرقها إذن".³

وكذا كان الطفل "غافروش" أحد أطفال شوارع باريس ضحية رفض من قبل والديه ولاسيما أمه التي كانت تفضل ابنتها عليه مما جعلها تلقي به إلى الشارع مع الأطفال

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 94.

² المصدر السابق، ص 95.

³ المصدر السابق، ص 96.

المشردين، لقد عرف البؤس بأنواعه المختلفة كما شارك في ثورة المتاريس التي قُتل فيها وهو يغني وينادي بالحقوق المدنية لكل الناس.¹

إضافة إلى الأب "غوريو" الذي رفضته ابنتيه اللتين كانتا كل شيء في حياته وقدم لهما كل ما يملكه من محبة ومال ولكنهما رفضتا استقباله في بيتيهما لأنه لم يكن أرستوقراطيا نبيلًا ولم يتعلم سلوك وعادات أبناء تلك الطبقة التي باتتا تنتميان إليها وعليه كانتا تستحيان به وقد أخرجتاه من حياتيهما تقريبا وقد أدرك الأب "غوريو" ذلك جيدا لأنه كان لا يتوقف عن لوم نفسه على إعطائهما تربية وثقافة وسمحت لهما بالدخول عالم غير عالمه.²

لقد كان السيد "غوريو" يعيش في حال من البؤس الشديد من جراء ذلك، ولعل ما زاد الأمور سوءا هو عدم حضورهما لرؤيته عندما كان يحتضر³ ولم تحضرا أيضا جنازته التي نظمها وحضرها جاره في الفندق الطالب "دي راستينياك" وزميله.⁴

وفي المقابل تطرق "مولود فرعون" في روايته "الدروب الشاقة" إلى قضية الرفض ويتجلى ذلك من خلال شخصية "أعمر نعمر" الذي ولد في قرية "إيغيل نزمان" وتربى هناك ولكن أطفال القرية كانوا يشعرون أنه مختلف عنهم لأن والدته فرنسية لذا كانوا دائما يلقبونه بـ "ابن السيدة" أو بـ "ابن الكافرة".⁵ وكان معظمهم يسخرون منه ويشتمونه،⁶ لقد كان "أعمر نعمر" مرفوضا وكان من حين لآخر يثور على ذلك الوضع قائلا: "أين تريدونني أن أذهب؟" وهل تظنون أن أخوالي من الفرنسيين يرحبون بي؟ خطأ! اسألوا أبناءكم ليخبروكم

¹ Hugo Victor, Les misérables, tome 3, volume 2, pp 244, 245.

² Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 290.

المصدر السابق، ص 296 – 298.³

المصدر السابق، ص 307، 308.⁴

⁵ Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, p 117.

المصدر السابق، ص 112.⁶

كيف كان سلوكي عندما كنت بفرنسا عند أخوالي، هل تخلّيت عن هويتي ألم أشاركهم في الإهانة وفي الغرفة وفي الحساء [...] أنتم مجموعة من الأغبياء، إنني أكرهكم ولكني أحب أبناءكم لأنهم إخوتي.¹

هذا وقد كان "أمر نعمر" مرفوضاً أيضاً من قبل الفرنسيين أخواله كما ورد آنفاً ويتضح ذلك في قوله: "هناك [بفرنسا] يوجد الأثرياء والفقراء، المجرمون والمشردون ولكنّا نحن لا ندرج في أي من هذه الفئات، هناك نُدعى سكان الشمال الإفريقي (Les Norafs) [...] رغم أننا لا نختلف عن باقي المهاجرين الآخرين بفرنسا ولكنهم يعتبروننا دائماً أقل شأنًا من الكل."²

لقد كانت مأساة "أمر نعمر" كبيرة وعميقة لأنه عاش الرفض مع أهله في بلد والده وفي القرية التي ولد وكبر فيها وكذا في بلد والدته الفرنسية حيث كانوا ينظرون إليه بازدراء شديد، عندما يذهب إلى فرنسا تطرده السلطات الفرنسية وتطالبه بالعودة إلى بلده بقولهم: "هيا عد إلى بلدك أيها الفأر!"³ وقد أدرك "أمر" شيئاً مهماً جداً من خلال ذلك وعلق قائلاً: "ومن هنا فهمت أنه لدي وطن ومن دونه لن أكون إلا غريباً."⁴

وإلى جانب "أمر" كانت "ذهبية" في الرواية نفسها وهي شابة ولدت في قرية "آيت واضو" وهي مجاورة لقرية "إيغيل نزمان"، لم تكن "ذهبية" تحب مسقط رأسها ولم تكن تحب أو تستلطف أيّاً من سكانها،⁵ لقد رُفضت من قبل عائلتها لأنها كانت مسيحية وقد اعتبرتها عارا عليهم وأن ذلك سيجلب كلام الناس عليهم وسيسيء إلى سمعتهم.

¹ Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, p 114.

المصدر السابق، ص 118، 119.²

المصدر السابق، ص 120.³

المصدر السابق، ص 120.⁴

المصدر السابق، ص 25.⁵

هذا وقد كانت والدتها "مالحة" ابنة قرية "إيغيل نزمان" ولكنها خرجت عن طوع عائلتها وساءت سمعتها أمام أهل القرية مما أدى إلى تزويجها من شخص غريب عن قريتها،¹ ولكن سرعان ما عادت إلى "إيغيل نزمان" رفقة ابنتها الوحيدة "ذهبية" وذلك بعد وفاة زوجها و لكن لم يرحب بها أهل القرية كثيرا ولم ينسوا تماما سلوكها وأفعالها ولعل ما زاد الطين بلة هو اكتشافهم لمعتقد ابنتها مما جعل الكل ينظر إليها نظرة احتقار ولم يكن أي شاب من القرية يفكر في الزواج منها رغم جمالها ورقتها بل كانت نظرتهم إليها نظرة حيوانية شهوانية لجسدها الجميل وليس أكثر ولم تكن هي الأخرى تفكر في أي شاب من أبناء تلك القرية لأنهم لا يرقون لها اللهم إلا "أعمر نعمر" الذي كان مختلفا عن الكل وكانت أوضاعه مشابهة جدا لأوضاعها، لقد أحبته كثيرا وحزنت حزنا شديدا لوفاته لقد شعرت بأنها فقدت كل شيء مما زاد في بؤسها وعذابها.

إضافة إلى ذلك، كان المغتربون من منطقة شمال إفريقيا في رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" قد تعرضوا للرفض من قبل الفرنسيين لقد كانوا يوصفون بأبشع الصفات وكانوا يلقبون بـ "التيوس" وفي هذا الصدد قال بطل الرواية الحامل للقب "يلعن والديك": "أنا لن أعمل بل سأتسكع وسأسرق وسأقتل ... لأن العالم وأوروبا والعالم الغربي عامة بل يرغبون فيّ. إنهم لا ينظرون إلينا نحن التيوس إلا من خلال نافذة ضيقة وصغيرة و على قضبان علقوا لافتة مكتوب فيها هذا هو العربي الحقيقي والخالص : [...] مجرم، عربي، حقير، نوراف (شمال إفريقي)..."²

وعليه كان بطل الرواية "يلعن والديك" في حالة من البؤس العميق وفقدان الأمل من إيجاد أي احترام أو ترحيب من قبل الفرنسيين مهما فعل ومهما أنجز من أعمال مفيدة وإيجابية لذا قرر أن يتمرد ويكون حسب الصورة التي رسموها له. كما كان الفرنسيون أيضا

¹ Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, pp 131, 132, 135.

² Chraïbi Driss, Les boucs, p 18.

يرفضون تشغيل المغتربين المغاربة رغم حاجتهم لليد العاملة، لقد رفض أحد المسؤولين عن مشروع بناء في رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" تشغيل أحد المغتربين عندما ذهب لطلب العمل بناء على إعلان كان قد وضعه صاحب المشروع، وكان جوابه بأنه مر على الإعلان يومان وأنه قد شغل عمالا ومن هنا أدرك المغترب أنه حتى وإن لم يكن صادقا في كلامه فإنه لا يريد تيسا (مغتربا عربيا) وقال المغترب إثر ذلك: "أنا جائع والإعلان لا يزال موجودا إذن أنت في حاجة إلى عمال وأن أي ضربة فأس أو حفنة تراب تجهل العنصرية، نعم سيدي، وإن كانت المسألة هي مسألة مردودية فأنا مستعد أن أعمل لفترة معينة بالمجان كفترة تدريبية، كما قلت له: أين هم العمال الذين وظفتهم؟ أين هم، أرهم لي فأنا لا أصدقك لأنني لا أرى أحدا".¹

هكذا كان المغتربون المغاربة يجدون صعوبة كبيرة في إيجاد عمل يضمن لهم الحياة الكريمة في فرنسا وأوروبا بشكل عام لهذا كانت حياتهم بائسة لأن هذه الأوضاع المزرية كانت تدفعهم إلى السرقة والقتل إلى غير ذلك من السلوك السلبي.

وكذا تعرض "يلعن والديك" ذات مرة بعدما تعددت زيارته لمحافظ الشرطة السيد "دي بون" (Dupont) ليستلم بطاقة البطالة الخاصة به إلى الطرد قائلا له: "لا تعود أبدا إلى هنا، لا يوجد هناك عمل ولا مأوى ولا مساعدة ولا أخوة بل هناك استجابات وتحقيقات عن الهوية وبطاقة البطالة [...] ليس أكثر من هذا".²

كما رُفض "يلعن والديك" حتى من عشيقته الفرنسية "سيمون" (Simone) ومن قبل "التيوس" من أبناء جلدته ومن مكاتب اليد العاملة ومن سجون مدينة "نانتير" (Nanterre)

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, p 31.

المصدر السابق، ص 114. ²

ومن "ماكوماك" (Mac o Mac) ومن الرهبان ومن كل مسيحيي فرنسا وحتى من صديقه "راوس" (Raus) الذي كان يدينه باستمرار.¹

لقد كان "يلعن والديك" مرفوضا من قبل الكل وهذه قمة البؤس والمأساة.

وكانت أيضا العجوز "كامومة" وزوجها "قاسي" في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون" قد تعرضا للرفض وعرفا الوحدة والتهميش في قريتهما ووسط أهلها وذويهما وذلك خاصة بعدما تركهما ابنهما الوحيد وقرة عينهما "أعمر" و هاجر إلى فرنسا حتى يُحسّن أوضاعه الاجتماعية والمادية مما أدخلهما في حال من الإحباط الشديد واليأس العميق.

كما كان العجوزان مجبران على اتخاذ قرار بيع قطع الأراضي التي يمتلكانها بعدما أيقنا أن ابنهما "أعمر" قد تركهما إلى الأبد وفقد أي أمل في رجوعه، وهذا حتى يتمكن من شراء بعض المواد الغذائية لهما حتى يبقيا على قيد الحياة. لقد كانت قطع الأرض تلك جد غالية على قلوبهما وكانا يطمحان إلى اليوم الذي كان ابنهما سيستلم فيه المشعل ويتولى زراعة تلك الأراضي و خدمتها ولكن حال اليأس والبؤس والفقر دفعهما إلى التخلي عنها وبيعها بأرخس الأثمان ولإيجاد أي مبررات لذلك قالت "كامومة" لزوجها "قاسي" حتى تخفف عنه: "إن أشجار التين قد يبست مثلنا ولم تعد تعطي الثمار وكل عام يختفي التراب ليترك المجال للحجارة واختفت معه الحواجز والحدود الفاصلة بين أراضينا وأراضي جيراننا وصار الرعاة يسخرون منا ولا أحد يحترم حدودنا وأنت لم تعد قادرا على الحرث أو على الشذب"²

هذا وقد ازدادت حال "كامومة" سوءاً بعد وفاة زوجها "قاسي" إذ وجدت نفسها وحيدة ومهجورة من قبل أهل القرية وحتى الأقرباء منهم وذلك بسبب ابنها "أعمر" الذي انتشر خبر تسببه في موت أحد أبناء عمومتها مما جعلها تتمنى لو أنها ماتت قبل زوجها وغالبا

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, 165.

² Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 15.

ما كانت عيناها تغروقان بالدموع كلما تذكرته.¹ ولعل ما كان يعمق شعور "كامومة" بالوحدة والعزلة ورفض أهل القرية لها هو حلول الأعياد الدينية حين يجتمع الكل مع الأبناء والأحبة والأقارب فتجد نفسها وحيدة في بيتها الصغير وشقية رفقة همومها وأحزانها وذاكراتها المؤلمة.²

4.1 (تأثيرات السن والحالة الصحية:

عندما يتخطى الإنسان مرحلة الشيخوخة وتقل معها قدراته العقلية (الفكرية) والجسدية ويتعرض لأمراض غالبا ما تكون مزمنة ومن ثم يكون في حاجة ماسة لمن يرافقه ويساعده في حياته اليومية وخاصة بالنسبة للذين يصابون بالعجز إذ يفقدون استقلاليتهم ويصبحون عالة على الآخرين و لاسيما الأبناء الذين غالبا ما يريدون إخضاعهم لنمط معيشي مختلف عن الذي اعتادوا عليه ويدخلون تغييرات كثيرة على حياتهم مما يشعروهم بعدم الرضا والحزن والغضب أحيانا وهذا ما ينتج عنه شجارات وصدامات بينهم ويوقع هؤلاء المسنين في حال من الاكتئاب والحزن الشديد.

ومن أهم الشخصيات المجسدة لهذه الظاهرة نذكر العجوز "ماهو" في رواية "جيرمينال" لـ "إميل زولا" الذي كان من أقدم العمال في منجم "الفورو" بمدينة "مونتسو"³ وقد كان عمله الطويل في المنجم قد تسبب له في أمراض مزمنة كثيرة منها مرض على مستوى الرئتين الناجمة عن عمله المتواصل لسنوات عديدة في أجواء خانقة يسودها الغبار المتطاير من مادة الفحم السامة مما تسبب له في نوبات سعال حادة غالبا ما كان يجد صعوبة كبيرة في استرجاع أنفاسه من جرائها كما كان لا يفتأ يبصق بصاقا أسودا نظرا لتركز الفحم في

¹ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 18.

² المصدر السابق، ص 21، 22.

³ Zola Emile, Germinal, p 185.

رئتيه.¹ كما أسهمت الرطوبة الشديدة في أعماق المنجم في إصابته بداء المفاصل الذي جعل ساقيه عاجزتين على حمل جسده ² مما أدى إلى توقيفه عن العمل وذلك قبل السن القانونية لذلك ومن هنا ساءت أحوال العجوز "ماهو" الذي أصبح يشعر بعدم الجدوى من وجوده لأنه لم يعد يفيد أحدا ولا حتى نفسه وهذا ما جعله ينغلق على ذاته ويغيب عن الواقع بفكره وروحه، غالبا ما كانت عيناه مفتوحتين ولكنهما فارغتين تعكسان فراغه الداخلي وموته العاطفي والروحي كما أصبح باردا وفارغا من كل المشاعر الإيجابية منها والسلبية وبات كلامه شبه منعدما وعلى العموم أضحى منظره مخيفا جدا.³

إضافة إلى ذلك كان الأب "برو" (Le père Bru) في رواية "الخمارة" لـ "زولا" يعيش وحيدا وتعيسا وكانت أوضاعه المادية أيضا مزرية إذ لم يكن له أي مورد للرزق ولا بيت يأويه لقد كان يسكن في زاوية أحد أروقة العمارة التي كانت تسكن فيها "جيرفيز"، لقد كان هزيلا وشاحبا من قلة الأكل ومن شرب الخمر لقد فقد أبناءه في معركة "القرم" وكان دائما يتمنى لو بقوا على قيد الحياة أكيد أن أوضاعه ستكون أفضل وقال أنه مع تقدمه في السن لا أحد يقبل طلباته للعمل فحيثما ذهب يقابل بالرفض وكلما دخل إلى ورشة من الورش إلا وضحك منه العمال الشباب وقالوا له بتهكم: "هل أنت الذي صبغت أحذية الملك هنري الرابع"... وفي السنة الماضية كلف بدهن جسر مقابل ثلاثين فلسا في اليوم وقد كان عليه أن يبقى طول اليوم ممددا على الظهر بينما كان الوادي يجري في الأسفل. لقد أصيب بسعال مزمن منذ ذلك الحين أما الآن فكل شيء قد انتهى، لقد فصلوه ورفضوه من كل مكان.⁴ وأضاف قائلا وهو يتأمل في يديه الصلبتين: "هذا منطقي، لأنني لا أصلح لأي شيء... إنهم محقون [...] أترون المصيبة إنني لم أمت بعد، نعم الخطأ

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 16, 521.

المصدر السابق، ص 215، 236، 283.

المصدر السابق، ص 520، 522.

المصدر السابق، ص 265، 266.

خطئي، فيجب أن نموت عندما نصبح عاجزين عن العمل".¹ وهكذا ينطوي الأب "برو" على ذاته بعدما وجد نفسه وحيدا في ذلك المجتمع الكبير وتلك المدينة الواسعة لقد كان ميتا نفسيا وروحيا لأنه كان يشعر بعدم الفائدة فوجوده كعدمه وهذا ما زاد من بؤسه وشقائه.

وفي المقابل كانت والدته "عيني" في رواية "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب" التي أصيبت بالشلل وأصبحت عاجزة عن الحركة وباتت غير مستقلة وغير قادرة على القيام بكل وظائفها الفيزيولوجية والبيولوجية مما زاد في بؤسها وشعورها بالكآبة.² ولعل ما زاد الأوضاع صعوبة ومأساوية هو الإلقاء بهذه العجوز عند ابنتها الأرملة الفقيرة المعذمة التي لم تكن قادرة على إطعام أطفالها فكيف يمكنها أن تتصرف اتجاه الوضع الجديد؟ لقد كانت "عيني" لا تكف عن لوم إخوتها والسخط عليهم لأنهم رفضوا التكفل بها رغم أوضاعهم المادية الحسنة ووجدت "عيني" نفسها مجبرة على تنظيفها وإطعامها إلى غير ذلك، وعليه كانت كلما سمعت أنين الأم أو شكواها تثور ثورتها وتبدأ في شتم الكل وسبهم. لقد كانت الأم عبئا ثقيلا على كاهلها فكلما نظرت إليها تذكرت ضعفها و عجزها لذا قررت ذات يوم إخراجها من بيتها ونقلها بمعية ابنتها "عمر" إلى غرفة بعيدة عنها تسمى بالمطبخ حتى لا تراها أو تسمع صوتها الذي كان يزعجها كثيرا ويؤلمها.³

لقد كان المطبخ بارداً ومخيفا وكانت العجوز خائفة جدا لأنها تركت هناك لوحدها وهذا ما زاد من آلامها ومعاناتها.⁴

وقد كانت مخاوف العجوز وآلامها تزداد خاصة عند حلول الليل ونزول الظلام الذي كان يغطي كل المكان ويزيده وحشية ورهبة مما كان يزعجها ويجعلها تصرخ بأعلى صوتها

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 266.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 31.

المصدر السابق، ص 32، 33.

المصدر السابق، ص 33.

طالبة المساعدة من ابنتها وقد كان صراخها يملأ المكان ليصل إلى آذان "عمر" ليوقظه من نومه، لقد كان يشعر بمخاوف جدته هناك في عزلتها و كان شديد التألم لأجلها.¹

ونظرا لبؤسها الشديد كانت "عيني" بدورها تسيء معاملة كل من يحيطون بها لذا لم تكن تهتم تماما لصرخات والدتها كما كانت لا تتردد في تقديم الطعام لها في صحن قدر يشبه الصحن التي يُقدم فيه الأكل للكلاب وللحيوانات الأخرى ولم تكن ترى أي داع لتنظيفه فكانت دائما تضيف الطعام الجديد على بقايا الطعام القديم.²

وقد كانت العجوز تخاف مثل طفل صغير من الضرب وسوء المعاملة لذا لم تكن تتوانى في معاتبة ابنتها على تعنيفها لها كلما أتيحت لها الفرصة لذلك مع الملاحظة أن العجوز كانت ضعيفة جدا إلى درجة أنها لم تكن قادرة على مسك رأسها بل ينبغي إسنادها حتى تتمكن من تناول الطعام.³ لقد كانت جد منكسرة جسديا وعاطفيا.

وبعد فترة أصبحت العجوز في شبه غيبوبة فلم تكن تعي ما يحدث حولها ولعل الشيء الوحيد الذي كانت تنتبه إليه هو وقت تقديم الأكل لها، وكان حالها يزداد سوءا إلى درجة أنها كانت ترى الكلاب يأتون إليها ليأكلوها، فكان صراخها يعلو كلما حل الظلام طالبة النجدة من ابنتها "عيني" التي لم تكن تصدقها بتاتا وكانت تظن أنها مجرد خطة لجلب انتباهها وإثارة شفتها عليها ولكن ذات ليلة صادف "عمر" ذلك الكلب وهو متجه نحو غرفة جدته وكان يبدو عملاقا على ضوء الشمع ومن ثم قام "عمر" بطرده و بهذا أدركوا أن العجوز كانت صادقة وقد تكون بقايا الطعام في صحنها أو رائحة قدميها العفنتين هو ما جلب الكلاب إليها.⁴

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 140.

² المصدر السابق، ص 141.

³ المصدر السابق، ص 141، 142.

⁴ المصدر السابق، ص 145، 146.

وبهذا تقترب صورة والدّة "عيني" من صورة العجوز "ماهو" في رواية "جيرمينال" إذ كان كلاهما مصيبا في رجليه و باتت حركته قليلة جدا أو منعدمة و من جراء ذلك كان كل منهما منطويا على ذاته ولم يكن بينه وبين أفراد عائلته أي تواصل إلا في بعض الأوقات القليلة جدا، فلم يكن ينتبه إلى وجودهما أيّ من المقربين إليهما، لقد كانا يعيشان في وحدة قاتلة و إحباط شديد فكان كل منهما ينتظر الموت عله يخلص من عذابه ذاك .

5.1 (غياب رب الأسرة وعائلها:

قد تجبر الأوضاع القاسية البعض من أرباب الأسر على الابتعاد عن عائلاتهم ومغادرة بيوتهم وقراهم أو بلدانهم سواء عن طريق الهجرة أو اللّامبالاة أو الموت وتبقى النساء وأطفالهن بدون عائل أو مسئول عنهم مما يحوّل حياتهن و حياة أبنائهن إلى شقاء وتعاسة مع الملاحظة أن جل النساء في الروايات الفرنسية أوالمغربية كن غير متعلّقات ولعل الحرفة الوحيدة التي كن يتقنها هي الخياطة أو الطبخ أو غسل الملابس إلى غير ذلك من أشغال البيت لأن معظمهن كنّ ماكثات في بيوتهن وعند غياب الأزواج كنن تجدن أنفسهن مجبرات على مواجهة كل عوادي الدهر وأعباء الحياة بمفردهن كما أصبحت مهمة إعالة الأطفال والسهر عليهم وعلى تربيتهم من مهمة النساء الأمهات بمفردهن وهكذا كانت النساء الوحيدات والمهجورات مضطرات إلى الخروج من بيوتهن وتحدي كل الصعوبات في سبيل إيجاد أي عمل يمكنهن القيام به حتى تطعن أطفالهن و ذلك في انتظار عودة الأزواج ولكن المؤسف في الأمر أن جلهم لا يعودون سواء لأنهم وجدوا حياة و أوضاعا أحسن غالبا ما كانت تنسيهم حياة البؤس والشقاء التي كانوا يحيونها من قبل أو ينشغلون بمسائل أخرى وخاصة المهاجرون منهم وتبقى المرأة والأطفال هم من يعانون من الفقر المدقع والبؤس الشديد.

ومن بين هؤلاء النساء نذكر "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لزولا¹ التي هجرها عشيقها "لانتيه" (Lantier) وأبو طفلها "كلود" (Claude) و "إيتين" (Etienne) بصورة مفاجئة ودون أي سابق إنذار.

لقد سبق لهذه العائلة أن قدمت إلى مدينة باريس للبحث عن حياة أفضل وأوضاع أحسن ولكنه سرعان ما تغير سلوك "لانتيه" في تلك المدينة الكبيرة وبات يغيب عن البيت طويلا وكان يقضي ليااليه خارجا مما أحزن كثيرا "جيرفيز" ولكنها لم تكن تتوقع أبدا أنه سيتخلى عنها وعن ابنها دون رجوع. وذات يوم عندما ذهبت "جيرفيز" إلى المغسل لغسل ملابسها وملابس طفلها هرب "لانتيه" من البيت بعدما أخذ كل ملابسه وترك ابنه لوحدهما في البيت ولكنهما سرعان ما خرجا وذهبا لإخبار والدتهما بالأمر وقد صعقت لسماع ذلك الخبر،² وأحست بانهايار كل شيء حولها وعند عودتها إلى البيت صادفها منظر المكان الموحش والبائس وفجأة سمعت ضحكات ابنها الواقفين أمام النافذة وذهبت إليهما لتضمهما إلى صدرها وهي تتأمل في شوارع المدينة الواسعة حيث ألقى بها وحيدة رفقة ابنها وشعرت حينها بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقها وقد انتابها شعور بالخوف من المستقبل المجهول.³

وبعدها مباشرة حاولت "جيرفيز" أن تسترجع ثقتها بنفسها ولم تعد تفكر إلا في طفلها وفي تربيتها وتوفير كل ما يحتاج إليه،⁴ لقد أصبح هدفها في الحياة هو العمل لتوفير الخبز والحصول على مسكن وتربية أطفالها والموت على فراشها⁵.

هذا وقد تعرضت "فانتين" في رواية "البؤساء" إلى هجر حبيبها "طولومياس" بعدما أوهمها بحبه لها، وقد ظنت أنها عثرت على فارس أحلامها الذي سيحقق لها كل ما كانت

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 42.

المصدر السابق، ص 53.

المصدر السابق، ص 56.

⁴ المصدر السابق، ص 64.

تصبو إليه من اسم و سمعة ولكنها سرعان ما أصيبت بخيبة أمل كبيرة عندما هجرها وعاد إلى مدينته وأدركت أنها لم تكن إلا نزوة عابرة في حياته ولعل ما زاد حزنها وتعاستها أكثر هو اكتشافها أنها حامل وأن مولودها سيلقى نفس مصيرها أي لا أب ولا اسم عائلة ومن هنا قررت أن تعيش من أجل ابنتها و تعمل كل ما بإمكانها حتى توفر لها الحياة الكريمة وتعوضها عن حنان الأب الذي لم تعرفه. وقد عانت "فانتين" جراء ذلك الأمرين، إذ كانت الحياة جد قاسية عليها فلم يكن من السهل عليها الحصول على عمل وعلى المال الذي كان "آل تيناردييه" دائما يطالبونها به لقد كانت حياتها جحيما على الأرض لقد كلفها كل ذلك جمالها وأناقته وصحتها فحياتها.

وفي المقابل شهدت هذه الظاهرة انتشارا كبيرا في المجتمعات المغربية المحتلة من قبل الفرنسيين الذين سيطروا على تلك المنطقة وسلبوا أهاليها كل ممتلكاتهم وتسببوا في تجويعهم وإفقارهم مما أرغم العديد من أرباب العائلات على مغادرة قراهم وأوطانهم والهجرة سواء إلى المدن الكبرى أو إلى فرنسا حيث يمكنهم إيجاد عمل مناسب يسمح لهم بالحصول على البعض من المال يمكنهم من العيش وإرسال البعض الآخر منه إلى عائلاتهم لفك شدتهم وبؤسهم.

لقد عزم أب "فورولو" في رواية "ابن الفقير" لـ "مولود فرعون" على مغادرة أهله وقريته ليذهب إلى فرنسا حتى يجد عملا مربحا أكثر لأن العمل في الفلاحة لم يعد كاف لإعالة أطفاله وأسرتة الصغيرة.

وسافر أيضا "أمر أوقاسي" في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون" إلى فرنسا حتى يحسن من ظروفه ويبنى مستقبله فترك والديه العجوزين وحيدين.¹

¹ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 14.

إضافة إلى "بلعيد" في رواية "الأفيون والعصا" لـ "مولود معمري" الذي كان مجبرا على الهجرة إلى فرنسا لأن أوضاعه وأوضاع عائلته كانت مزرية¹ إضافة إلى ديونه الكثيرة التي لو بقي في قريته لما استطاع تسديدها.²

لقد عمل "بلعيد" بجد ونشاط طيلة السنة الأولى من هجرته إلى فرنسا وكان لا يفتأ يرسل المال لعائلته لحل كل مشاكلها المادية من أكل ولباس وأعراس إلى غير ذلك ولكنه سرعان ما أدرك بعد كل ذلك الكد والعمل أنه لم يتمكن من تسديد ديونه ولم يتوصل إلى فك الرهان عن حقوله التي أصبحت ملكا للغرباء ولم يحسن كثيرا من أوضاع أبنائه وزوجته الذين كانوا دائما فقراء ومن هنا أصيب بإحباط شديد واتجه نحو شرب الخمر حتى يهرب من واقعه وينسى مرارته³ على غرار "كوبو" في رواية "الخمارة" لـ "زولا"، ومن هنا انقطعت أخباره عن عائلته⁴ وبعد مدة طويلة قرر ابنه الأكبر "واعلي" السفر للبحث عنه وإقناعه بالرجوع إليهم لأنهم في أمس الحاجة إليه. لقد رفض "بلعيد" الرجوع وقال له: "لقد عشت معكم أربعين سنة هناك في قرية "ثالا" وأنا أتمرغ في طينكم وبؤسكم..."⁵.

وهناك البعض من أرباب الأسر الذين غيبتهم الموت عن أسرهم أمثال "أحمد دزيري" زوج "عيني" في رواية "الدار الكبيرة" الذي كان نجارا ناجحا ولكن مع ذلك لم تكن أوضاعه جيدة بل مقبولة لأنه كان مدمنا على شرب الخمر إلى أن أصيب بمرض خطير سرعان ما قضى على حياته ، لقد كان غائبا غايبا معنويا إذ لم يستطع أن يدخر مبلغا من المال لأبنائه ولزوجته ليجدوه في الأيام العصيبة. لقد مات وتركهم في حال من البؤس الشديد لذا لم تكن "عيني" تذكره إلا بالسوء ولقد جاءت إحدى قريباتها التي سألتها عما إذا كانت

¹ Mammeri Mouloud, L'opium et le bâton, p 72.

المصدر السابق، ص 72.

المصدر السابق، ص 72.

المصدر السابق، ص 73.

المصدر السابق، ص 75.

تزور قبر زوجها وردت عليها قائلة: "وما الغرض من ذهابي إلى المقبرة، لالة؟ [...]
فصاحب القبر المزمع أن أزوره لم يترك لي لا مزرعة ولا منزلا حتى أبكيه".¹

وكذا كان زوج "زينة" جارة "عيني" وصديقتها مشغولا عن عائلته بممارسته للسياسة التي كانت همه الوحيد في الحياة أما أبنائه وزوجته فلم يكديفكر فيهم إلا نادرا، لقد باع كل أثاث بيته وكل ما يملكه لإعالتهم وعند موته لم يترك لهم حتى عشاء تلك الليلة".²

ومن جراء غياب هؤلاء الرجال عن عائلاتهم وذويهم الذين باتت أوضاعهم صعبة للغاية مما أجبرت الزوجات على الخروج إلى العمل حتى تعلن أطفالهن ولم يكن ذلك بالأمر الهين خاصة في القرى المحافظة جدا والرافضة لعمل المرأة خارج بيتها ومن هنا تحملت هؤلاء النسوة نظرة المجتمع الجارحة لهن وكذا عناء العمل الشاق وسوء معاملة أرباب العمل لهن ومنحهن أجورا زهيدة وأقل بكثير من أجور الرجال وهكذا كانت معاناتهن معقدة وصعبة: مادية (جسدية ومالية) ومعنوية (عاطفية ونفسية).

لقد خرجت زوجة "بلعيد" للعمل فكانت تخرج من الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل، لقد كانت تمارس مهام كثيرة ومتعددة طول النهار من حفر وحمل لرزم من السماد على ظهرها لتوصلها إلى الحقول و من مساعدة في الحصاد وفي جني الزيتون وجمعه وكذا التين وفي الليل عندما ينام الكل تجلس وراء منسجها لتشتغل عليه حتى أوقات متأخرة جدا من الليل"،³ لقد كان الحمل ثقيلا جدا عليها.

وكذا كانت "عيني" تعمل طول النهار والليل حتى تتمكن من شراء الخبز لأبنائها لقد بذلت كل شبابها وحياتها وصحتها من أجل أبنائها وهي كلها قناعة أن ذلك حقهم".⁴

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 84.

المصدر السابق، ص 67.

³ Mammeri Mouloud, L'opium et le bâton, pp 73,77.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, pp 59, 60.

وبناء على ما سبق نستنتج مدى التقارب بين الروايتين الفرنسية والمغربية في طرح قضية غياب رب الأسرة عنها الذي غالبا ما كان من الأسباب الرئيسية في بؤس وشقاء عائلاتهم.

(2) أنواع البؤس في الروايتين الفرنسية و المغربية:

الإنسان البائس هو من يجد صعوبة في التأقلم مع مختلف أوضاعه المعيشية سواء على المستوى المادي أو المعنوي والبؤس ظاهرة تشمل مختلف مجالات الحياة وهو أنواع نذكر من بينها:

(1.2) البؤس العاطفي والنفسي:

وهو غالبا ما يمس مشاعر الإنسان جراء الأوضاع السيئة والقاسية التي يتواجد فيها على مختلف المستويات ويتجلى البؤس العاطفي والنفسي من خلال العديد من الحالات حسبما ورد في الروايتين الفرنسية و المغربية :

(1.1.2) العزلة والانطواء على الذات:

يعيش البائس العاطفي والنفسي في حزن شديد وعميق غالبا ما يسبب له فقدان الثقة في كل من يحيطون به مما يؤدي به إلى الانغلاق على ذاته ثم الانعزال عن الناس وعن المجتمع والابتعاد عن الأصدقاء والرفاق وكل الأقرباء إلى نفسه ويعيش وحيدا غارقا في همومه وأحزانه ومع مرور الزمن يبدو إنسانا غريبا يهاب الناس من الاقتراب منه.

ولعل أحسن مثال على ذلك شخصية "جان فالجان" في رواية "البؤساء" الذي كان كثير التأمل ووحيدا دون أصدقاء ولم يكن يجد الوقت حتى لاتخاذ حبيبة له كما كان قليل الكلام، فلم يكن يتحدث مع أخته أو مع أبنائها ممن كان يعيش معهم تحت سقف واحد وكان عند رجوعه إلى البيت في كل مساء يكتفي بتناول حسائه دون أن ينبس بكلمة لقد كان يأكل وهو منحي الرأس و كان رأسه تقريبا يلامس حساءه وكانت خصلات شعره الطويل تسقط حول صحنه.¹ لقد كان "جان فالجان" شخصية عابسة فهو لا يضحك إلا نادرا فلا تتجاوز عدد ضحكاته واحدة أو اثنتان في السنة كلها وكانت مخيفة لأنها صدى لضحكات الشيطان.² وكل من يراه يحسبه مشغولا بالنظر الدائم إلى شيء فظيع، فمن خلال تصورات المرضية وشخصيته غير المكتملة [...] كان يشعر بخوف شديد ظنا منه أن هناك شيئا رهيبا سيحل عليه.

وفي ظل هذه العتمة الداكنة حيث كان يزحف كان يرى حيثما أدار رأسه مجموعة من الأشياء المترصة فوق بعضها البعض تتصاعد أمامه وبشكل مربع تتمثل في القوانين والأحكام المسبقة والرجال والأحداث وكانت هذه الكتلة تخيفه كثيرا وهي لم تكن سوى ذلك الهرم المذهل المسمى بالحضارة.³

هذا ولم يكن العالم الخارجي موجودا بالنسبة لـ "جان فالجان" ودون مبالغة حتى الشمس لم يكن لها وجود بالنسبة إليه ولا أيام الصيف الجميلة ولاسيما المشعة منها ولا فجر نضر من أيام شهر أفريل.⁴ وبعد تسع عشرة سنة من السجن بات قادرا على ارتكاب نوعين من الأفعال الرديئة أولهما الثأر للظلم الذي سلط عليه وثانيهما فعل خطير خضع لمناقشة

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome1, Volume1, pp110, 111.

² المصدر السابق، ص 119، 120.

³ المصدر السابق، ص 120.

⁴ المرجع السابق، ص 121.

الضمير وقرره انطلاقا من أفكار خاطئة.¹ لقد دخل "جان فالجان" إلى السجن وهو في حال من اليأس وخرج منه وهو فاقد لكل إحساس.²

وفي المقابل كانت "ذهبية" في رواية "الدروب الوعرة" لـ "مولود فرعون" قد عاشت هذا النوع من الانطواء على الذات والتهميش والوحدة التي عايشها "فالجان" إذ بعد وفاة والدها قررت والدتها العودة إلى مسقط رأسها بقرية "إيغيل نزمان" لتعيش وسط أهلها وذويها ولم تكن "ذهبية" تشعر بأي ندم على مغادرة قرية أبيها وموطن مولدها قرية "آث واضو" لأنها لم تكن تحب أي شخص هناك كما لم يكن أحد متمسكا بها أيضا، لقد أخذت معها كل الأوسمة الممثلة لمريم العذراء ووضعتها في صندوق كما أخذت المسيح في قلبها فهي لم تتدم أبدا على مغادرتها للكنيسة ولا للآباء الكهنة والأخوات الراهبات رغم حبها لهم، لقد كانت تحب الكنيسة لأنها بيت الله وكل من فيها لأنهم جزء من ذلك البيت وليس لذاتهم كأشخاص لأن لا أحد منهم قد لاحظ وجودها ولا تميزها أو حاول التقرب منها وفهمها بل بالعكس كانوا يلاحظون تكبرها وهذا خطيئة كبرى وكانوا لا يفتنون يلومونها على ذلك ويحاولون حملها على تغيير طباعها. لقد اصطحبت "ذهبية" والدتها إلى قرية "إيغيل نزمان" وقلبها مليء بالمرارة فلم تكن خائفة من أن تجبر على العيش كمسلمة هناك لأنها ورغم ظاهرها الضعيف فهي تملك ما يكفيها من قوة معنوية وذكاء قوي لتبقى وفيه لإلهها كما أنها لم تكن تفكر في الإفصاح عن عقيدتها وإيمانها.³

هذا وقد كان "أعمر نعمر" في الرواية نفسها لا يكف عن القول أنه مقتنع أن لا أحد يحبه في قريته ولا في عائلته بل كان أهل القرية يحملون له شرا كبيرا في قلوبهم، لقد تخلى الكل عن جدته "كامومة" فور وفاة جده "قاسي" كما اتسعت الهوة بين أهل القرية

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 121.

² المصدر السابق، ص 114.

³ Mammeri Mouloud, Les chemins qui montent, pp 25, 26.

وعائلة "أعمر" بعدما كان خبر تسبب والده في قتل أحد أقاربه في فرنسا ومما زاد الأمور تفاقمًا هو عودة والده إلى القرية رفقة زوجته الفرنسية.

لقد كان "أعمر نعمر" ينتمي إلى هذه العائلة المغضوب عليها في القرية ويتجلى ذلك في قول "أعمر نعمر": "كنت أرى هذه العداوة كما أرى الطقس وهو يحل به الظلام أو الأشجار وهي تفقد أوراقها".¹ ويواصل "أعمر نعمر" كلامه قائلاً: "لقد كانت مخاوف صباي قد أثرت عليّ طول حياتي كان الأمر فظيعة، لم يكن لدي أي رفيق خارج البيت، كانت جدتي وهي متكئة على عصاها تصل دائماً متأخرة لتتدخل حين أتشاجر مع الأطفال، كانت تأخذني من يدي وتجريني إلى البيت لتواسيني بينما كان لهؤلاء الأطفال من كان يشجعهم أو يساعدهم في المكان ذاته".²

وقد كان "أعمر نعمر" في طفولته أيضاً محروماً من الحلوى ومن اللباس الجميل ومن الأب لقد كان يعاني من فراغ رهيب لم يكن بإمكان أي شيء ملؤه لقد كانت آماله خائبة وأمانيه غير محققة وطموحات وأحلام سرية وساذجة لم يكن لديه أي شيء ماعدا تلك الحياة القاسية التي يحياها أطفال قريته، لقد كان شغلهم الشاغل هو الحديث عن الكسكس والخبز والشجار في تاجماعت وفي المدرسة. لقد كان عليه أن يدبر كل أمواله بنفسه، عندما كان يمرض كان ينتظر أن يشفى دون طلب المساعدة من أحد لقد كان يحمل ضعفه كعاهة مزعجة وينتظر بفارغ الصبر حتى يصبح قويا.³

هكذا كان كل من "جان فالجان" و "ذهبية" و "أعمر نعمر" يعيشون في حال من الوحدة والعزلة والغربة الروحية رغم تواجدهم وسط أهلهم وذويهم مع الإشارة إلى أن "جان فالجان"

¹Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, p 111.

²المصدر السابق، ص 111.

³المصدر السابق، ص 148.

أمضى تسع عشرة سنة من أجمل سنوات عمره في السجن مما عمق وحدته وعزلته وزاد من بؤسه العاطفي أكثر.

2.1.2) العلاقات الأسرية المشتتة:

غالبا ما تتحكم الأوضاع المادية في الأنظمة الحيوية للناس إذ قد يؤدي الفقر المدقع والغنى الفاحش إلى صراعات بين أفراد الأسرة الواحدة وكثيرا ما يتسبب في الانفصال بينهم كهجرة الآباء للأبناء أو العكس وكالطلاق بين الزوجين المؤدي إلى تشتت الأطفال إن وجدوا.

و تتجسد هذه الظاهرة في علاقة "الأب غوريو" بابنتيه اللتين تخلتا عنه بعدما أفنى كل حياته في خدمتهما و تلبية كل طلباتهما إلى أن دخلتا عالم الطبقة الأرستقراطية بكل أبهتها و حقتا أحلامهما و حينها فقط قررتا التخلي عن والدهما بعدما أصبح مريضا و فقيرا ، لقد ابتعدت ابنتا "غوريو" عن والديهما لأنه كان عاملا بسيطا فهو لم يكن من الطبقة الأرستقراطية الراقية ولم يكن يحمل لقبا من ألقاب النبلاء وطلبتا منه عدم زيارتهما لأنهما تستحيان به.¹

لقد عانى الأب "غوريو" كثيرا جراء هذا الفراق ولكنه كان مقدرا لأوضاعهما الجديدة ، لقد عاش الأب "غوريو" بعد ذلك حياة بائسة وصعبة إلى أن مات وحيدا.

وكذا عاشت "فانتين" في رواية "البؤساء" حياة بؤس وحرمان جراء ابتعادها عن ابنتها بفعل الظروف القاسية التي أجبرتها على تركها عند إحدى العائلات في قرية "مونفرماي" والذهاب إلى مدينة أخرى من أجل العمل حتى تتمكن من إرسال المبالغ المالية الشهرية التي ينبغي أن ترسلها لآل "تيناردييه" الذين يتكفلون بابنتها ريثما تسترجعها لتعيش معها

¹ Balzac Honoré de ,Le Père Goriot ,p 95

ولكن الحظ لم يحالفها في ذلك إذ سرعان ما فصلت من وظيفتها وهكذا وجدت "فانتين" نفسها بدون عمل وبدون أي مورد للمال ومن هنا تضاعف الأمل لديها في إمكانية استرجاع ابنتها مما جعلها تدخل في حال من الحزن و اليأس الشديدين و هذا ما أسهم بدوره في تدهور صحتها الجسدية إلى أن ماتت دون أن تلتقي بابنتها "كوزيت".¹

وفي المقابل كانت "منون" في "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب" تعيش حياة بائسة وشقية بعدما مرضت وقرر زوجها الاستغناء عنها فأخذها إلى بيت أهلها واحتفظ هو بأبنائه في بيته وبهذا تكون عائلة "منون" قد تعرضت إلى التمزق والتشتت مع الملاحظة أنها كانت شديدة التعلق بأبنائها وقد بات حلمها في الحياة هو رؤيتهم مرة أخرى لتضمهم إلى صدرها قبل أن تموت وهنا تلتقي "منون" بـ "فانتين" التي كانت تنتظر رؤية ابنتها قبيل وفاتها بفارغ الصبر.²

لقد كانت حال "منون" على غرار "فانتين" تزداد سوءًا بسبب إبعادها عن أبنائها، لقد كانت كل يوم تبكي بشدة وكانت والدتها "لاله الزهراء" لا تقفأ تواسيها وتحاول التخفيف من آلامها وأحزانها ومما كانت تقوله لها: "ستبرئين يا حبيبتي، بعد شهر ستعودين إلى أبنائك، إن بقيت هادئة كما قال الطبيب..."³ لقد كانت لاله الزهراء تكلم ابنتها "منون" وتعاملها كطفل صغير في أمس الحاجة إلى الحنان والحب والرعاية وحالها كحال "فانتين" التي كان "فالجبان" يعاملها كذلك.⁴ لقد كانت "لاله الزهراء" دائما تعمل على إعادة الأمل إلى قلب ابنتها "منون" الحزينة واليائسة من الحياة وهذا ما جعلها تطلق العنان لقريحتها لتتشد أغنية تحمل في طياتها الكثير من التفاؤل بمستقبل زاهر وسعيد.⁵

¹ Hugo Victor, Les misérables ,Tome 1 ,Volume 1, p 324.

² المصدر السابق ، ص 284

³ Dib Mohammed, La grande maison, p 46.

⁴ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 324.

⁵ Dib Mohammed ,La grande maison, p 47.

مع العلم أن كليتهما أيضا - فانتين ومنون - كانتا تتلفظان من حين لآخر وفي حال من الهلوسة بكلام غير مفهوم وغير منطقي يدل على اضطرابهما النفسي بفعل الأوضاع الصعبة التي كانت كليتهما تمر بها.¹

وإذا دققنا النظر في النشيدتين اللذين كانتا تتشدانهما، للاحظنا بروز النزعة التفاضلية لغد أفضل²

3.1.2) الثورة على الأوضاع:

كثيرا ما يؤدي البؤس العاطفي بصاحبه إلى الثورة على أوضاعه المزرية بعدما يكون قد بذل كل طاقته ونفذ صبره في التحمل ومحاولة التعايش مع أحواله الصعبة.

ولعل أحسن من يجسد ذلك السيدة "ماهو" في رواية "جيرمينال" لـ "زولا" التي كانت هي المسؤولة الأولى عن عائلتها وعلى تدبير أمور بيتها من تحضير الأكل وشراء المؤونة الكافية لمدة معينة، لقد كان زوجها يسلمها أجرته القليلة إضافة إلى أجور أولادها وحماها³ التي لا تكاد تكفيها بل غالبا ما كانت تلجأ إلى الاستدانة سواء من البقال أو من الجيران لقد كانت تجد صعوبة كبيرة في تحضير غذاء وعشاء مقبولين، فلم يكونوا يأكلون حتى يشبعون وهذا ما كان يزعجها كثيرا و يتعب أعصابها خاصة أنها لم تكن ترى أي تغيير في الأوضاع ولا أي تحسن فيها بل بالعكس لذا قالت في أحد المقاطع السردية: "عندما نكون في سن الشباب نتصور أن السعادة آتية وأنه بإمكاننا تحقيق طموحاتنا ولكن البؤس

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1 , pp314- 316.

Dib Mohammed, La grande maison, pp 48, 49.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 281, 282.

Dib Mohammed, La grande maison, pp 47 - 51.

³ Zola Emile, Germinal, p 192.

سرعان ما يعود مرة أخرى ونغلق نحن على أنفسنا أنا لا أتمنى الشر لأي أحد ولكن في بعض المرات أجد نفسي ثائرة بسبب اللاعدالة".¹

كما أنها لم تكن تتوانى في الثورة على كل من يفكر في مغادرة بيت العائلة لأنه سيأخذ أجرته معه وهذا ما لم تكن السيدة "ماهو" تتقبله على الإطلاق لقد غضبت غضبا شديدا على ابنها الأكبر "زكري" عندما سمعت أنه كان يفكر في الزواج ومغادرة السكن العائلي وقالت عنه وعن خطيبته: "أنا ألعنهما إن تزوجا. وهل زكري غير مجبر على احترامنا؟ لقد كلفنا الكثير، أليس كذلك؟ حسنا! إذن يجب أن يعوضنا قبل أن ينشغل بزوجه و عائلته ... ماذا سيكون مصيرنا، قل؟ إن كان أبناءنا منذ الآن يعملون من أجل الآخرين؟ فالأحسن إذن أن نهلك".² كما كانت تتأسف باستمرار عن إمكانية الحرمان من أجرة حماها العجوز "بونمور" نظرا لأوضاعه الصحية البائسة وإثر ذلك صرخت صرخة قوية تعبر عن قلقها الشديد قائلة: "يا إلهي! سنموت كلنا عن قريب إن بقينا على هذه الحال".³

وبعد تعرض ابنها "جانلان" إلى حادث خطير في المنجم كاد أن يفقده رجله، ثارت السيدة "ماهو" على تلك المصيبة الجديدة التي حلت بها فهي بدل أن تبكي على ابنها وتتأسف على مصيره، كانت تلعن مصيرها وتتساءل قائلة: "أين تريدون أن أجد المال لإطعام هؤلاء المقعدين، ألم يكف العجوز فهاهو الآن الطفل بدوره يُضَيِّع رجله".⁴

ولعل ما زاد الأمور تفاقمًا هو مغادرة "كاترين" البيت رفقة صديقها وبهذا تكون السيدة "ماهو" قد فقدت أجرة البنت أيضا مما زادها سخطا على أوضاعها المزرية وهاهي ترثي على حالها وهي تعدد مصائبها قائلة: "أولا كان ينبغي تزويج زكري ثم إعالة العجوز "بونمور" الموجود هنا على كرسيه وبساقيه المعوجتين ثم "جانلان" الذي لن يتمكن

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 184.

المصدر السابق، ص 116، 117، 192.

المصدر السابق، ص 193.

⁴ المصدر السابق، ص 213.

من مغادرة غرفته قبل عشرة أيام [...] وفي الختام جاءت ضربة هذه الساقطة "كاترين" التي ذهبت مع رجل و تركتنا ! كل العائلة تحطمت ولم يبق سوى الأب في المنجم. كيف يمكن إطعام سبعة أشخاص، دون ذكر " إيسيتل" الرضيعة بأجرة الأب المقدرة بثلاثة فرنكات ؟ فمن الأحسن لنا أن نلقي بأنفسنا جميعا في القنال.¹

و كذا كانت السيدة "ماهو" أثناء الإضراب تثور على كل من يحاول إبداء رغبته في العودة إلى المنجم وخاصة إن تعلق الأمر بزوجها ومما كانت تقوله حينها : "ماذا تقول؟ أنت الذي تتلفظ بهذا الكلام يا إلهي! [...] لا تكرر هذا الكلام، يا إلهي! أنا كامرأة سأصفعك...، إذن بعد معاناة طويلة لمدة شهرين وبعد التضحيات المقدمة من قبلنا وبعدما أصيب أطفالنا بالمرض و لم يتغير أي شيء وستعود اللأعدالة من جديد!... آه! أترى، عندما أفكر في هذا الموضوع أشعر بالدماء تخنقني. لا! لا! سأحرق كل شيء وسأقتل الكل بدل الاستسلام".² ثم تواصل قائلة: "اسمع هذا، إذا عاد زوجي إلى المنجم، فأنا التي سأنتظره في الطريق لأبصق على وجهه ولأنعته بالجبان".³

وقد بُهت "إيتيين" بمنظر السيدة "ماهو" التي كانت جد منفعلة وغاضبة فلم يسبق له أن رآها بذلك المنظر من قبل، فلم يعد السيد "ماهو" هو من يتحدث عن السياسة بل زوجته التي أرادت أن تتخلص من نير الطبقة وظلم أرباب العمل وتسلطهم على الفئات العمالية الضعيفة.

وفي المقابل كانت "عيني" في "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب" لا تقتأ تبدي رفضها لأوضاعها القاسية وسخطها على حياتها وحالها البائسة والتعيسة لقد كانت "عيني" في حال من الغضب المتواصل لقد كانت تنفجر على أبنائها لأدنى الأسباب ولم يسلم منها

¹ Zola Emile, Germinal, p 215.

² المصدر السابق، ص 423

³ المصدر السابق، ص 423.

حتى زوجها المتوفى ويتجلى ذلك في قولها: "إن نصيبي كان التعاسة، فهو الآن مرتاح في قبره فهو لم يفكر أبدا في ادخار أي فلس وأنتم الآن تتشبثون بي كالعلق الممتصة لدمي. لقد كنت غبية. كان عليّ أن أُلقي بكم للشارع وأهرب إلى جبل خال".¹

وأمام هذا المنظر كان "عمر" يتساءل وهو حائر: "يا إلهي من يستطيع إيقافها الآن؟ وكانت نظراتها السوداء القلقة وهي تنبس: "قدي التعس"، لقد علق "عمر" قائلا على ذلك: أكيد أنها كانت حاقدة على أحد ولكن على من؟ [...] هل هناك شخص آخر في الغرفة؟"² لقد كانت "عيني" لا تتوقف في التعبير عن غضبها خاصة اتجاه ابنها "عمر" الذي كان يفضل دوما الهروب إلى خارج البيت حتى يتجنب صراخها وكلماتها الجارحة وكان كلما عاد في آخر المساء إلى البيت يتجنب الظهور أمامها قدر الإمكان، وذات يوم تأخر "عمر" في خروجه من البيت وانتهرته بشدة ووصفته بالفتاة المجبرة على المكوث في البيت ثم فجأة ضربته بالسكين الذي كانت تقشر به الخرشوف ودخل في ساقه وأحدث جرحا فيه وهرب "عمر" في الوقت ذاته إلى الشارع وساقه تنزف دما³ وقد اختفى "عمر" في بهو إحدى العمارات وكان خائفا جدا من العودة إلى البيت، والملاحظ أن "عيني" لم تبد أي تأثير أو قلق على ذلك المشهد بل واصلت شتمها له كما أنها لم تبحث عليه طول النهار إلى أن حل الليل.⁴

هذا ولم تكن "عيني" تتوقف عند هذا الحد بل كثيرا ما كانت تعنف أبناءها وتضربهم بكل وحشية وكانت تتشاجر مع كل من يحاول التدخل في ذلك ويهدئها ويتضح ذلك في قولها: "كيف، ألا أستطيع أن أضربهم؟ أليسوا أبناءي؟ ماذا تقولين؟ ألا أستطيع؟ من ذا الذي يمكن أن يمنعني من ضربهم؟ أليسوا لي؟ [...] إنني أعرف كيف أربي أولادي، أعرف

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 30.

المصدر السابق، ص 30، 31.

المصدر السابق، ص 12.

المصدر السابق، ص 35.

كيف أنشئهم على احترام الآخرين. هل تظنون أنني واحدة من تلك النساء اللاتي يدعن أولادهن بغير تهذيب؟¹

إضافة إلى ذلك لم تكن "عيني" تقوت أدنى فرصة للتشاجر مع جاراتها من نساء دار سبيطار، لقد تخاصمت مع صاحبة البيت وأمطرتها بوابل من الشتائم² كما ثارت على الجارات اللواتي لُمنها على تشغيلها لآلة الخياطة حتى وقت متأخر من الليل مما يمنع أزواجهن من النوم حتى يستيقظوا باكرا في الصباح ليذهبوا إلى ممارسة مهامهم.³ وقد تشاجرت أيضا مع الجارات التي انتقدن الإزعاج الذي سببه أبنائها الذين كانت تأمرهم بإحضار الماء وسكبه على أرضية البيت عله يلطف من حرارة الجو الشديدة.⁴

وبهذا كانت أوضاع السيدة "ماهو" و "عيني" جد متقاربة لذا كانت ردود أفعالهما جد متشابهة فقد كانتا ترفضان أوضاعهما المزرية ولا تتوقفان عن الرثاء لحالهما وحال أبنائهما ولا تكفان عن الثورة على كل من يحيطون بهما من أبناء وأزواج وجيران وقد وصل بهما الأمر إلى طلب الموت لأنه السبيل الوحيد لتخليصهم من كل تلك الأعباء الثقيلة ويضع حدا لعجزهما المستمر على إيجاد حل أو مخرج لهما من تلك الأوضاع المفروضة عليهما.

2.2) البؤس الاجتماعي:

كثيرا ما يجد الإنسان خاصة في العصر الحديث صعوبة في العيش بشكل متناغم في البيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها ويعود ذلك إلى عدة عوامل منها طبيعة الأوضاع

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 102, 103.

المصدر السابق، ص 105، 106.

المصدر السابق، ص 103، 104.

المصدر السابق، ص 104 – 106.

المعيشية المعقدة وبعض العادات والتقاليد والذهنيات الرجعية إلى غير ذلك، ويتجلى البؤس الاجتماعي من خلال:

1.2.2) النظام الطبقي:

يعود ظهور الأنظمة الاجتماعية المختلفة وتقسيم المجتمعات إلى طبقات متباينة إلى العصور القديمة جدا وهو ليس وليد الأوضاع الحديثة. لقد شهد المجتمع الفرنسي بالذات نظاما إقطاعيا جائرا فيما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر وانتهى بقيام الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر (1789م) وقد دامت تلك الثورة زهاء العشر سنوات وانتهت باستلام الطبقة البورجوازية المتوسطة لمقاليده الحكم ولكنها سرعان ما سقطت في نفس الهفوات التي سقط فيها النظام الإقطاعي سابقا، إذ أصبح البورجوازيون مهوسون بجمع الأموال وفتح المصانع والورش وابتأوا يستغلون أبناء الطبقات العمالية البسيطة بشكل لا إنساني لقد كانوا يروا فيهم مجرد وسائل لتحقيق المزيد من الأرباح، لقد كان هؤلاء العمال يعملون في المصانع والمناجم لساعات طوال مقابل أجور زهيدة جدا مما جعلهم يعيشون في حال مزرية وفي فقر مدقع وفي بؤس شديد لقد عرفوا معنى الجوع والبرد والافتقار إلى ضروريات الحياة اليومية.

لقد عملت الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر جاهدة على تصوير هذه الهوة العميقة الفاصلة بين الطبقات البورجوازية والنبيلة من ناحية والطبقات العمالية والفلاحية البسيطة والمعدمة من ناحية أخرى ولعل أحسن مثال على ذلك رواية "جيرمينال" لـ "زولا" الذي حاول أن يقدم لنا من خلالها لوحيتين مختلفتين ومتناقضتين تماما تمثل إحداها عالم البورجوازية بغناها الفاحش وبذخها المفرط سواء في المساكن أو الأثاث أو اللباس أو

الأكل أو الخدم أو العربات أو الأملاك إلى غير ذلك وثانيها عالم العمال الفقراء والبؤساء الذين يعانون الأمرين للحصول على خبزهم اليومي.

لقد كان أبناء البورجوازيين يعيشون حياة هادئة ومريحة و ينامون على أفرشة فاخرة وفي غرف واسعة ودافئة وكانوا يتعلمون مختلف العلوم والفنون على أيدي أساتذة ومعلمين من ذوي المستويات العالية وكان لكل منهم خدام يخدمونهم ويلبسون طلباتهم ويتجلى ذلك من خلال حياة الأنسة "سيسيل غريغوار" (Grégoire Cécile)¹ وهي ابنة عائلة "غريغوار" والداها أحد مالكي أسهم في أحد المناجم بمدينة "مونتسو"² لقد كان والداها ممن يحاولون تقديم الصدقات لبعض العائلات الفقيرة ومن بينها عائلة "ماهو".³

لقد كانت "سيسيل" الابنة الوحيدة لعائلة "غريغوار" و كانت كل طلباتها مستجابة لقد أحضر لها والداها حصانا ثانيا وسيارتين وألبسة فاخرة من مدينة باريس.⁴ و كان الأساتذة من مختلف التخصصات يحضرون إلى بيت "آل غريغوار" حتى يقدموا دروسهم للأنسة "سيسيل" وقد كانت كلما أزعجها سؤال من أسئلة الأساتذة تقوم برمي كتابها من النافذة.⁵

وفي المقابل كان أطفال عائلة "ماهو" ينامون في غرف جد ضيقة ومظلمة وكان لونها شاحبا من قلة الأكل والعمل الشاق.⁶

لقد كانوا يكتفون بإسكات جوعهم لأنه لم يكن بإمكانهم إيجاد الأكل الكافي الذي يشبعهم نظرا لأوضاعهم المادية المزرية.⁷ كما كانوا محرومين من التعليم لأنهم مجبرون على

¹ Zola Emile, Germinal, pp 89, 90 et p109.

المصدر السابق، ص 90، 91.

المصدر السابق، ص 105.

المصدر السابق، ص 93.

المصدر السابق، ص 93، 94.

المصدر السابق، ص 26.

المصدر السابق، ص 32، 33.

الذهاب للعمل في المنجم حتى يسهموا في مصاريف البيت الكثيرة.¹ وكانت الطفلة "الزير" المعاقة قد منعت من الدراسة أيضا نظرا لاحتياج أمها لخدماتها في البيت.²

هذا وقد كان هؤلاء البورجوازيون ينظرون إلى العمال وعائلاتهم بنظرة احتقار، فعندما ذهبت السيدة "ماهو" إلى بيت "آل غريغوار" استقبلت ببرود وكانوا ينظرون إليها بأشمئزاز، وقبل السماح لها بالدخول إلى البيت طلبت "سيسيل" الإذن من والدتها إن كان بإمكانها إدخال زوجة المنجمي وطفليها وقبل أن تجيبها سألتها السيدة "غريغوار" عما إذا لم يكونوا متسخين فأجابتها "سيسيل" ليس كثيرا وعلى كل سيتركون قبقابهم في الخارج.³ وعند دخولهم البيت صادفهم دفء غير عاد ورائحة كعك لذيذة كانت موضوعة فوق الطاولة مما زاد من جوعهم أكثر.⁴

وتتجلى نظرة الاحتقار لدى هؤلاء أكثر من خلال الحوار الذي دار بين السيدة "ماهو" والسيد والسيدة "غريغوار".

قالت السيدة "غريغوار" متوجهة بالسؤال إلى السيدة "ماهو": "هل لديك سوى هذين الطفلين؟"

وتجيب السيدة "ماهو": "لا، بل لدي سبعة أطفال"

وقد جعل هذا الجواب السيد "غريغوار" ينتفض من مكانه ويثور عليها قائلاً: "يا إلهي! لماذا سبعة؟"

وأضافت السيدة "غريغوار": "هذا عمل غير حكيم".

¹ Zola Emile, Germinal, p 29.

² المصدر السابق، ص 100.

³ المصدر السابق، ص 97.

⁴ المصدر السابق، ص 105 و ص 109.

وشعرت السيدة "ماهو" إثر ذلك بإحراج شديد وكانت تحاول إيجاد أي حجة لتبرير ذلك.¹

وبعد صمت وتأمل للطفلين الشاحبين الهزيلين والمريضين قال السيد "غريغوار": "صحيح أن الحياة صعبة ولكن ينبغي القول أن العمال ليسوا بحكماء فبدل ادخار مالهـم مثلما يفعل الفلاحون فإنهم ينفقونه في شرب الخمر بل يصلون إلى حد الاستدانة من أجل ذلك حتى يجدون أنفسهم عاجزين عن إعالة أسرهم".²

ومن هنا يتضح أماننا عمل أبناء الطبقة البورجوازية على تحسيس أصحاب الطبقات الشعبية البسيطة بأنهم هم سبب الفقر والبؤس الذين يعيشون فيه وأن الطبقة البورجوازية وأرباب الأعمال لا دخل لهم في ذلك وأن الذنب ذنبهم ولا ينبغي أن يلوموا سوى أنفسهم.

وفي المقابل كان المجتمع الجزائري فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين يعيش تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الذي سلب الأملاك والأراضي وكل خيرات الجزائر واستولى عليها كما كان يأتي بالآلاف من المعمرين الأوروبيين حتى يعمروا الأراضي الجزائرية ويجعلوا من السكان الأصليين عبيدا لهم، لقد كانوا يلقبونهم بالأندجين ويعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية و بهذا كان المجتمع الجزائري حينذاك منقسما إلى طبقتين كبيرتين هما : طبقة المستعمرين و تتمثل في المعمرين و فئة من الجزائريين الذين فضلوا الإنحياز إلى الفرنسيين أمثال "قارة علي" في روايتي "الدار الكبيرة" و "الحريق" و طبقة المستعمرين الذين يتشكلون من معظم الجزائريين الذين كان الفقر و البؤس و انعدام الحرية و انتشار الأمية و البطالة يسيطر على حياتهم .

وعلى غرار "إميل زولا" في رواية "جيرمينال" قدم محمد ديب في رواية "الدار الكبيرة" صورتين مختلفتين ومتناقضتين لطفلين أحدهما من الطبقة البورجوازية وثانيهما من الطبقة الفقيرة والمعدمة.

¹ Zola Emile, Germinal, p 106.

المصدر السابق، ص 107. ²

أما الطفل الغني فيدعى "إدريس بلخوجة" الذي كان حسب قول السارد غيبيا ومتكبرا لقد كان "أثناء كل فترة استراحة يعرض أمام زملائه لمجته التي لم تكن متكونة من الخبز فحسب بل من الفطائر والمرطبات أيضا [...] لقد كان يستند إلى جدار ومن حوله أتباعه ويقوم بالتهام طعامه بكل أريحية ومن حين لآخر كان أحدهم ينحني ليلتقط بعض الفتات الذي كان يسقط من بين يديه. ولم ير أحد "إدريس" وجود على أي أحد مما عنده ولم يكن "عمر" يفهم لماذا هو محيط بكل هؤلاء الأطفال [...] لقد كان لـ "إدريس" رفيق يحمل عنه محفظته الجلدية [...] عند الخروج من المدرسة وكان آخرون يذهبون إليه كل صباح ليرافقوه إلى المدرسة ولم يكونوا يفارقوه إلا عندما يدق الجرس [...] لقد اعتاد ساعة قبل الدخول إلى المدرسة على شراء خمسة أو ستة قراطيس من الحمض المقلي ولم يكن يعطي لرفاقه إلا حبة واحدة لكل واحد منهم وإن اشتكى أحدهم يصرخ في وجهه قائلاً: "وأنا ماذا سيبقى لي؟ أتريدون أن أعطيكم كل شيء؟" كما كان في كل صباح يسرد على رفاقه كل ما أكله من أشهى الأطباق في العشاء وفي أوقات الاستراحة وفي المساء من قطع لحم الخروف المشوية في الفرن والدجاج وحلويات اللوز بالعسل إلى غير ذلك، وكان هؤلاء الأطفال يقفون مشدوهين شاردي الذهن.¹

وأما الطفل الفقير فقد كان مجهول الاسم وكان "عمر يلقيه" بـ "صاحب سترة الكاكي" لأنه كان دائماً يرتدي نفس السترة، وهو طفل هزيل ذو وجه شاحب وحائر لقد كان دائماً يقف بعيداً عن الجماعة و كان عمر يلاحظه باستمرار وهو واقف أمام عمود من أعمدة الساحة وكانت يديه خلف ظهره لم يكن يلعب مع أي من الأطفال و لم يكن يتعارك معهم في سبيل الحصول على قطعة خبز مما جعل عمر يفكر في حيلة ذكية لإعطائه رغيفاً من الخبز دون جرح مشاعره ، هكذا كان عمر يتظاهر بالجري حول الساحة وفجأة كان يخرج من وراء شجرة الجميز ويقوم بإسقاط قطعة الخبز الصغيرة عند رجلي الطفل

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 77.

ويواصل ركضه متظاهرا بعدم الانتباه لذلك ثم يذهب بعيدا ليستمتع برؤية الطفل و هو يأخذ الخبز و يلتهمه.¹

زيادة على ذلك قدم محمد ديب أيضا صورة أخرى لفلاحي منطقة "بني بوبلن" بضواحي تلمسان الذين سلبت منهم أراضيهم و ممتلكاتهم و باتوا يعملون كالعبيد عند الكولون وكانت لغة العصا والسوط هي السائدة في تلك الحقول فلم يكن بإمكان أي فلاح أن يستريح ولو للحظات قصيرة في أوقات العمل حتى وإن كان متعبا أو مريضا لأنه في هذه الحال سيعرض نفسه لعقاب شديد ويتضح ذلك جليا عندما تعرض أحد الفلاحين إلى حادث رهيب كلفه حياته بفعل إحدى الآلات المستعملة في الحقول وإثرها سارع الفلاحون إلى رؤية زميلهم الملقى على الأرض وفجأة يأمر المعمر "ماركوس" الفلاحين بالعودة إلى أماكن عملهم وإلا سيقطع ذلك الوقت الذي لم يعملوا فيه من أجورهم.²

وقد علق المعمر "ماركوس" على الحادث أنه يعود إلى عدم أخذ الحيطة والحذر من قبل الأنديجين وكل ما يحدث لهم هم الذين يتسببون فيه حتى يجعلهم هم المسئولون عن شقائهم وبؤسهم³ وهذا بالضبط ما رأيناه في تعليق السيد "غريغوار" في رواية "جيرمينال" عن استهتار العمال وتبذيرهم لمالهم وهذا ما جعلهم فقراء وبؤساء.

علاوة على ذلك كان المعمرون وحلفاؤهم من الجزائريين ينظرون إلى الفلاحين بنظرة احتقار، لقد كان "قارة علي" ينعتهم بالقطيع الذي يُسَيَّرُ الآخرون لأن لا رأي لديهم،⁴ ويقول أيضا: "إنهم (الفلاحون) أحمرّة وليس من المؤكّد أنّ لهم روح"،⁵ ويواصل: "إن هؤلاء الفلاحين لا يتواجدون على الأرض إلا ليجعلوا كل شيء قذرا [...] الفرنسي رجل

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p10.

² Dib Mohammed, L'incendie, p77.

³ المصدر السابق، ص 77.

⁴ المصدر السابق، ص 43.

⁵ المصدر السابق، ص 61.

عظيم وحكيم ويمكن القول أنه من القدماء هنا. فهو الذي أنشأ أول مزرعة وأول كرمة في "بني بوبلن". كان يدرك جيدا ما كان يفعله، كان يدرك جيدا لذا لم ينشيء مزرعة واحدة أو كرمة واحدة بل عشرة وقريبا سيصل إلى مئة ثم ألف".¹

هكذا كان الكولون وأنصارهم يصفون الفلاحين بالأوغاد وبعديمي الفائدة وكذا بالكسالى ويتجلى ذلك في قول المعمرين: "إن لم يمت الأنديجان جوعا فإنهم لا يشعرون بالحاجة إلى العمل. وعندما يربحون ما يسمح لهم بالأكل لمدة يوم واحد فإن كسلهم يدفعهم إلى ترك العمل".²

هذا ولم يكتف هؤلاء باحتقار الفلاحين بل كانوا يسيئون معاملتهم أيضا، لقد كانت ابنة "بادعدوش" في رواية "الحريق" البالغة من العمر ست عشرة سنة تعمل كخادمة في بيت المعمر "فيلار" وبعد ست سنوات من العمل الشاق المتواصل مرضت الفتاة فقام المعمر بطردها إلى بيت أهلها وبعد فترة قصيرة توفيت ثم سأل "بادعدوش" إن كان له فتاة أخرى حتى يرسلها إلى بيته لتحل محل أختها المتوفاة وعندما رفض "بادعدوش" طرده المعمر "فيلار" رفقة كل أفراد عائلته من الكوخ الذي كان قد بناه بيديه.³

وبهذا يتجلى الانقسام الطبقي واضحا سواء في الرواية الفرنسية أو في الرواية المغربية (الجزائرية) وطبيعة العلاقة بينهما وكيف أسهم ذلك في جعل حياة الضعفاء بائسة وشاقة.

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 67.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 121.

³ Dib Mohammed, L'incendie, pp 127, 128.

2.2.2) الصراع مع المحظورات الاجتماعية:

تختلف المجتمعات في تحديد المحظورات الاجتماعية لديها وذلك حسب أفكارها ومبادئها ومعتقداتها وعاداتها وتقاليدها ويمكن لهذه المحظورات أن تتغير بتغير الذهنيات. ومن بين المحظورات الاجتماعية التي أوردها الروائيون الفرنسيون والمغربيون في أعمالهم والتي أدخلت أصحابها في البؤس الاجتماعي نذكر:

1.2.2.2) الأم العزباء:

كانت الأم العزباء ولا تزال من بين المحظورات الاجتماعية خاصة في المجتمعات المحافظة كالمجتمعات العربية والإسلامية و كذا الغربية حين كانت المسيحية سائدة فيها. لم تكن هذه المجتمعات تتقبل الأم العزباء لأنها خرجت عن مبادئها ولم تمتثل لقوانينها وأعرافها لذا غالبا ما كن هؤلاء النسوة تهمشن وترفضن من قبل المجتمع ولعل أحسن مثال على ذلك شخصية "فانتين" في رواية "البؤساء" التي كانت هي ذاتها مجهولة النسب وبدون عائلة فكانت تطمح إلى إيجاد من يحبها ويعطيها اسما وعائلة وهذا ما جعلها تقع في حب أول شاب التقت به واستطاع أو يوقعها في فخه وبعدما نال منها مبتغاه هجرها وعاد إلى مدينته وأهله وبهذا تجد "فانتين" نفسها حاملا ووحيدة في مواجهة مصيرها البائس وقد باتت حياتها معقدة أكثر بعدما وضعت ابنتها لأن مسئوليتها صارت أكبر فكان عليها أن تعمل لتعيّلها وتلبي كل حاجياتها ولكن الأمر لم يكن سهلا لأن المجتمع الفرنسي حينذاك كان يرفض تشغيل الأمهات العازبات لذا كانت مجبرة على ترك ابنتها عند إحدى العائلات لتتكفل بها مقابل مبلغ مالي شهري وعادت إلى بلدها الأصلية ومسقط رأسها حيث وجدت عملا في إحدى الورش و لكن سرعان ما فضح أمرها واكتشفت المسئولة عن الورشة أنها أم عزباء ففصلتها عن العمل ومن هنا عاشت "فانتين"

حياة بائسة جدا على المستويين المادي والمعنوي فلم تستطع مواجهة المجتمع بمفردها وبضعفها .

وفي المقابل لم يكن موضوع الأم العزباء قد طرح في الروايات المغربية بشكل كبير لأنه لم يكن متقشياً بكثرة حينذاك كما كان حتى الكلام عن هذا الموضوع يعد من المحظورات، اللهم إلا "إدريس شرايبي" الذي خصص مساحة في روايته "التيوس" لهذا الموضوع الذي يتجسد من خلال بطل الرواية "يلعن والديك" الذي كان مغترباً بفرنسا وكان على علاقة غير شرعية بإحدى الفرنسيات تدعى "سيمون" وكان له معها طفل غير شرعي.¹

ولكن لم تكن هذه العلاقة موجودة في إحدى البلدان المغربية المحافظة بل كانت في المجتمع الفرنسي كما كانت العشيقة أو الأم العزباء فرنسية مع العلم أن نظرة المجتمع الفرنسي إلى الأم العزباء أو إلى مثل هذه العلاقات خارج الزواج والأطفال غير الشرعيين لم تعد نظرة متشددة أو رافضة لها بل أصبحت ظاهرة عادية جدا وتدخل ضمن الحرية الفردية لكل شخص وذلك بعدما أصبح جل الفرنسيين من الملحدين وبانت مبادئهم إنسانية أكثر مما هي اجتماعية أو دينية. زد على ذلك أن "شرايبي" لم يركز على هذه القضية في روايته بقدر ما ركز على معاناة المغترب الشمال إفريقي من رفض وعنصرية من قبل المجتمع الفرنسي وقد أورد هذا الموضوع ضمن هذا السياق العام حتى يبين معاناته حتى على المستوى الشخصي والحميمي، إذ تعرض "يلعن والديك" إلى الرفض حتى من عشيقته التي يفترض أنها تحبه و تعيش معه ولكنها لم تتمكن من التخلص من نظرتها

العنصرية التي كانت تطفو على السطح من حين لآخر.²

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, pp 39, 40.

المصدر السابق، ص 127 و ص 167.²

2.2.2.2 آفة الإدمان:

تعتبر آفة الإدمان على شرب الخمر من بين الآفات الاجتماعية السلبية في مختلف المجتمعات وقد اهتم بها أيضا العديد من الأدباء حتى أواخر القرن العشرين ليبيّنوا مخلفاته وآثاره السلبية على المستويين الذاتي والاجتماعي معا.

ومن بين الذين اهتموا كثيرا بهذه القضية الأديب الفرنسي "إميل زولا" في روايته "الخمارة" التي شرح من خلالها ظاهرة الإدمان على شرب الخمر وذلك من خلال بطلي الرواية "كوبو" وزوجته "جيرفيز".

لقد قضى الإدمان أولا على "كوبو" الذي لم يستطع أن يعود إلى عمله وإلى نجاحه مثلما كان قبل الإدمان ولم يوفق في الاعتناء بزوجته وابنته ولا إعالتهما ولم ينجح حتى في الحفاظ على صحته التي قضى عليها الخمر تماما إذ أفقده عقله أولا ثم حياته بعد ذلك.

ومن "كوبو" انتقلت العدوى إلى "جيرفيز" التي ضيعت محلها لغسل الملابس الذي كان يذري عليها مبالغ مالية جيدة كما فقدت سمعتها الحسنة وأصبح الكل يتقادون التعامل معها ومن ثم نزلت إلى الدرك الأسفل من الجحيم وعاشت حياة بائسة جدا إلى أن فارقت الحياة.¹

وفي المقابل كانت آفة الإدمان مرفوضة في المجتمعات المغربية لأنها مجتمعات إسلامية محافظة والمعروف أن شرب الخمر حرام في الشريعة الإسلامية فما بالك بالإدمان عليه، لذا كانت الروايات المغربية تتناول هذه الظاهرة خاصة في أوساط المغتربين كما هو حال "يلعن والديك" في رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" الذي كان

¹Zola Emile, L'assommoir , p 446 et p 516,

يشرب الخمر بكثرة حتى يهرب من خلاله من حياته التعيسة وغير المحتملة وحتى ينسى ضياعه الروحي والنفسي.¹

وكذا كان "بلعيد"، في رواية "الأفيون والعصا" لـ "مولود معمري"، مدمنا على شرب الخمر بسبب أوضاعه السيئة في بلاد المهجر و فشله في الوفاء بوعوده لأبنائه و لزوجته.²

مع الملاحظة أن المدمن يقدم دائما على أنه إنسان ضعيف لا يملك الإرادة القوية لمواجهة أوضاعه وهو إنسان سلبي يفضل الهروب على المواجهة فهو شخصية إنهازمية.

يتفق "زولا" مع "شرايبي" و "معمري" في تقديمهم للصورة السلبية والبشعة للمدمن الذي غالبا ما يتسبب في تضييع حياته و حياة أبنائه وعائلته و يسهم في تعميق الهوة بينه و بين المحيطين به من أهل و أصدقاء و مواطنين.

3.2) البؤس الاقتصادي:

المقصود بالبؤس الاقتصادي هنا ليس هو المؤشر الذي يحدد المستوى الاقتصادي للبلدان ولكن الذي يعنينا هنا هو الكشف عن البؤس الذي تعيشه الطبقات الفقيرة في المجتمعين الفرنسي والمغربي على المستوى الاقتصادي ويتجلى خاصة في:

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, pp 154, 155.

² Mammeri Mouloud, L'opium et le bâton, pp 72 – 78.

1.3.2) سوء توزيع الثروات:

لقد قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر و كانت تُسمى بثورة الجياع حتى تنشر العدالة الاجتماعية وتحد من الفروق الطبقيّة الكبيرة وتقضي على استغلال المُستضعفين من أبناء الطبقات الشعبيّة الفقيرة وبهذا زال الفقر الإقطاعي وحاول الذين استلموا مقاليد الحكم فيما بعد تطبيق مبادئ الثورة الفرنسية وحقوق الإنسان ولكنهم سرعان ما وقعوا في فخ المال والأعمال وجروا نحو امتلاك المصانع والمناجم والورش الكبرى التي ظهرت بكثرة مع الثورة الصناعية التي ازدهرت كثيرا في القرن الثامن عشر ووصلت إلى مستوى عال من التطور في القرن التاسع عشر لذا أصبح هدفهم الأساسي هو تحقيق المزيد من الأرباح ولو كان ذلك على حساب العمال الصغار الذين كانوا يشتغلون أبشع استغلال إذ كانوا يشتغلون لساعات طويلة مقابل أجور زهيدة جدا لا تضمن لهم الحياة الكريمة والمريحة، فلم يكن باستطاعتهم الحصول على مسكن لائق ومريح أو على أي وسيلة نقل لقد كانوا يكتفون بشراء الأغراض الضرورية لهم وحتى هذه غالبا ما كانوا يستدينون لشرائها إضافة إلى تردي أوضاع العمل التي يعملون فيها مما تسبب للعديد منهم بأمراض مزمنة أو عاهات مستديمة.

ولعل أحسن ما يجسد سوء توزيع الثروات رواية "جيرمينال" لـ "زولا"، ففي بداية القرن الثامن عشر أعلن من منطقة "ليل" (Lille) بـ "فالونسيان" (Valencienne) عن انطلاق عملية البحث عن مناجم الفحم. وقد كان نجاح الوكلاء الذين أسسوا فيما بعد شركة "آنزين" (Anzin) محفزا لعدد من ذوي الأموال على التسارع للبحث والتنقيب عن مناجم الفحم في مختلف الأماكن من تلك المنطقة وبهذا كانت الشركات والمؤسسات تنشأ بسرعة فائقة ومن أشهر الملاك المصيرين على النجاح حينذاك البارون "ديرومو" (Desrumaux)، الذي واجه مجموعة من العقبات طيلة أربعين سنة دون كلل أو فشل، إذ كانت التنقيبات الأولى التي قام بها لم تعط أي نتيجة وكم من حفرة تخلى عنها بعد

أشهر عديدة من العمل الشاق إضافة إلى الانهيارات التي كانت تسد ثغرات المناجم وتحبس العمال في أعماق الأرض إضافة إلى بعض الفياضانات المفاجئة التي كانت تغرق العمال، لقد أنفق مئات الآلاف من الفرنكات في الأرض دون نتيجة وزد على ذلك المشاكل الإدارية ومخاوف المساهمين وبعد تلك السنين كلها توصل أخيرا إلى تأسيس شركة "ديرومو" و"فوكونوي" وشركائهم لاستغلال منطقة "مونتسو" ومن هنا بدأت تلك الحفريات تعطي بعض الأرباح.¹

وهكذا اكتشف منجم "الفورو" في منطقة مونتسو.² وقد كان السيد "غريغوار" في رواية "جيرمينال" أحد الأثرياء الذين اشتروا أسهما فيه وكان هو وأمثاله كلما التقوا لا يتحدثون إلا على موضوع الأعمال والأرباح وكيفية استغلال العمال دون أن يكتشفوا حيلهم.³

وفي هذا الإطار كان "إيتين" يتساءل مرارا: "لماذا يوجد هناك البعض من الناس بئسين والبعض الآخر أثرياء؟ ولماذا يتواجد هؤلاء دائما تحت سلطة أولئك دون أن يساورهم أدنى أمل في أخذ أماكنهم مستقبلا.⁴

كما تذكرت السيدة "ماهو" كيف مرت عليها سنة 1848م التي كانت تنعتها بالصعبة جدا، لأنها تركتها هي وزوجها في بداية حياتهما الزوجية عراة كالدود،⁵ لم يكونا يملكان فلسا واحدا ولم يكن لديهما ما يمكنهما وضعه في فيهيهما.⁶

ومن هنا يتبين واضحا ذلك التباين الشديد بين الطبقتين على المستوى الاقتصادي، لقد كان أبناء الطبقة البورجوازية يمتلكون الأموال والمصانع والورش ويطمحون إلى المزيد

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 90, 91.

المصدر السابق، ص 91، 92.

المصدر السابق، ص 96، 97.

المصدر السابق، ص 182.

المصدر السابق، ص 251.

المصدر السابق، ص 252.

بينما كان أبناء الطبقات الشعبية والعمالية يعيشون في بؤس شديد وفقير مدقع لقد كانوا يعملون في مصانع البورجوازيين ومناجمهم أعمالاً صعبة وفي أوضاع مزرية وقاسية مقابل أجور زهيدة جداً لا تكاد تكفيهم حتى للأكل.

وفي المقابل كانت الطبقة البورجوازية المتمثلة في أصحاب الأملاك وأرباب المال والأعمال في المنطقة المغربية المحتلة حينذاك في المعمرين وفئة قليلة من الجزائريين المقربين منهم. لقد كانت معظم الأراضي الخصبة والسهول الواسعة في أيديهم و كانت المصانع والورش والمحلات الكبرى ملكاً لهم، ويتجلى ذلك في حديث العجوز "كومندار" مع عمر وهو يسرد عليه قصة وصول الفلاحين وملاك الأرض الأوائل إلى منطقة "بني بوبلن" العليا والسفلى، "لقد كان لهم حقول من الشعير والتين والذرة والخضر والزيتون ولكن سرعان ما صودرت وسلبت منهم [...] ومن هنا ظهر ملاك جدد لأراضي وممتلكات "بني بوبلن" بينما هجر الشعب منها وأصبح غريباً على ترابه وما من يوم يمر إلا وترى أسرة من الأسر تقترب من المدينة تاركة تلك القرية. إنهم الآن يؤجرون أنفسهم لأولئك الذين جردوهم من أراضيهم".¹

وكذا قال "عمر" وهو يتأمل في كل ما يحيط به قائلاً: "حقول القمح ذهبية شقراء، بلون الخبز المحمص [...] وهذا هو بيت الفرنسيين المحتلين الذين يملكون كل شيء الأرض ومخازن الحصاد والأشجار والهواء والرجال والطيور وقد أكون أنا أيضاً ملكهم".²

هذا وقد كان "قارة علي" أحد كبار الأثرياء في المنطقة يقوم بإجراء عملية حسابية لأكياس القمح التي كانت تملأ مخزنه في موسم الحصاد ذاك، لقد كان الحصاد وفيراً وكذا كان محصول الزيتون لديه مما دفعه إلى القول: "ما من أحد في المنطقة يستطيع تقديره إلى أن يحين موعد الجني [...] إن الأملاك تبدأ هنا من سفح "لاله ستي" والمرتفعات المجاورة

¹ Dib Mohammed, L'incendie, pp 64, 65.

المصدر السابق، ص 75.

[...] إلى أن تنتهي بعد الطريق المؤدية إلى "سبدو" وعند القواعد الأولى من السهل. أما المزارعون فإنهم يقتاتون بالقليل من الطعام ويعيشون في فقر مدقع".¹

هكذا وعلى غرار ما ورد في رواية "جيرمينال" لـ "زولا" كان أهالي "بني بوبلن" يُستغلون من المعمرين بصورة بشعة ولعل الأصعب هنا هو أن أهالي "بني بوبلن" كانوا هم الملاك الأصليين لتلك الأراضي عكس العمال في "جيرمينال" الذين لم تكن تلك المناجم ملكا لهم لذا كان التأثير أخف على نفسياتهم وعلى كرامتهم.

وعلى غرار "إيتين" في "جيرمينال"، كان "عمر" أيضا يبحث ويتساءل حائرا عن سبب فقرهم ويظهر ذلك في قوله: "لماذا نحن فقراء؟"² و لم يتلق الأجوبة من أي شخص ويواصل تساؤلاته: "غير أن هذا هو الأمر الذي ينبغي معرفته. أحيانا هناك من يقررون أن هذا قضاء وقدر أو الله أعلم. ولكن هل هناك تفسير فعلي لتلك القضية؟ لا ، إن مثل هذه التفسيرات لا توضح شيئا، هل يعرف الكبار الجواب الصحيح؟ أم هل كانوا يريدون إخفاءه؟ ألم يكن من الأفضل الإفصاح عنه؟"³

هكذا كانت هذه الظاهرة تؤرق فكر "عمر" الصغير الذي لم يستطع استيعاب أن هناك جماعة من الأثرياء ثراء فاحشا والفقراء فقرا مدقعا. وعندما كان يتأمل حوله كان يدرك أن عدد الفقراء كبير جدا وهو لا يكاد يرى سواهم، فالكل فقير في حيه و في بيته. كل الجيران والمعارف والأهل ولكن كما قال: "هناك أيضا الأثرياء. هؤلاء يمكنهم الأكل. إن بينهم وبيننا حدود عالية وعريضة كالحصن".⁴ ويواصل "عمر" تساؤلاته التي تعكس قلقه

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 101.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 117.

المصدر السابق، ص 117.

المصدر السابق، ص 117.

الكبير من سلبية الكبار وكيفية احتمالهم لتلك الأوضاع المزرية: "لماذا لا يثورون؟ هل هم خائفون؟ وماذا يخيفهم".¹

والملاحظ أن ثورة "عمر" الصغير على الأوضاع كانت أكبر من ثورة "إيتيين" الذي كان يدافع عن مواطنيه من بني جلدتهم الذين كانوا يستغلونهم بكل وحشية، أما عمر فهو يدرك جيدا حال الاحتلال الأجنبي الذي كانت تعيشه بلاده، لقد كان "عمر" يحمل بوادر الثورة في فكره الصغير وكان متعطشا إلى الحرية والعدالة في وطنه، لقد سئم من الفقر والبؤس الذي كان يراه في دار سبيطار وفي مختلف الأحياء المحيطة به لذا كان يأمل أن يرى أبناء بلده يثورون ضد الأوضاع ويعملون على استرجاع ممتلكاتهم ويرفضون سياسة المحتل الجائرة التي سلبتهم حقوقهم وأموالهم وحتى كرامتهم.

هكذا كان كل من "محمد ديب" و"إميل زولا" يقابلان بين فئتين اجتماعيتين لم تقسم بينهما الثروات بصورة عادلة مما أدى إلى وجود عالمين مختلفين تماما عالم الأغنياء وعالم الفقراء وهما عالمان مختلفان ويمكننا القول أنهما كالخطين المتوازيين اللذين لا يمكنهما أن يلتقيا أبدا.

2.3.2) الصراع من أجل البقاء :

لم يكتف الروائيون الفرنسيون والمغربيون بتقديم نماذج كثيرة ومتنوعة من الفقراء بل قاموا أيضا بتسليط الضوء على صراعاتهم اليومية من أجل الحصول على قوتهم اليومي، فكم من مرة أجبر هؤلاء على البقاء بدون أكل تارة بسبب البطالة وتارة أخرى بسبب الأجر الضعيف إلى غير ذلك ويتضح ذلك جليا في حال عمال منجم "الفورو" خاصة أثناء فترة الإضراب ثم عائلة "عيني" والبعض من جاراتها خاصة الأرامل مثلها.

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 118.

لقد شهدت أوروبا عامة وفرنسا خاصة أزمة اقتصادية صعبة مما جعل العديد من المصانع والورش تستغني عن العديد من عمالها مما أدى إلى انتشار البطالة بشكل مخيف جدا وهذا ما جعل العديد من العمال ينتقلون من مدينة إلى مدينة أخرى بحثا عن العمل ومن بين هؤلاء نذكر "إيتيين" الذي كان يعمل في مدينة "ليل" بشمال فرنسا انتقل إلى مدينة "مونتسو" حيث العديد من المناجم الفحم عله يجد أي عمل فيها حتى يتمكن من العيش الكريم ولكنه سرعان ما يخيب أمله في ذلك عندما التقى بالعجوز "بونمور ما هو" الذي أخبره أن البطالة منتشرة أيضا بـ"مونتسو"¹ وأن هناك العديد من المصانع والورش التي أغلقت أبوابها واستغنت عن عمالها منذ شهر وقد منحوا لكل عامل منهم ستة ريالا تكفيهم لخبزهم اليومي.²

هذا وقد كان مَلَّاك المناجم وأصحاب الأسهم فيها مرعوبون من تلك الأزمة التي كانت تزداد تفاقمًا كل يوم لقد كانت بضاعتهم مكدسة في المخازن لذا لم يكونوا بحاجة إلى المزيد من الإنتاج وهكذا كانوا يحيلون العديد من عمالهم على البطالة.³

أما البقية منهم فقد كانوا يتعرضون باستمرار إلى الاقتطاعات من رواتبهم لأن أرباب العمل كانوا مجبرين على تخفيض نفقات شركاتهم حتى يحافظوا عليها من الزوال، هكذا كانت حتى خسائرهم يكابدها العمال لوحدهم.⁴ ومن هنا قررت إدارة منجم "الفورو" الاقتطاع من أجور عمالها نظرا للضغوط المفروضة عليها بدعوى تسبب العديد من العمال في إتلاف التخشب في المنجم حسب زعم المسؤولين.⁵ وهذا ما جعل "إيتيين"

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 17.

² المصدر السابق، ص 81.

³ المصدر السابق، ص 194.

⁴ المصدر السابق، ص 194.

⁵ المصدر السابق، ص 198.

يقول معبرا عن رفضه لتلك الأوضاع: "هل من الممكن أن نرهق أنفسنا في هذه الظلمات المميتة ولا نكاد نربح بالمقابل ما يكفيننا لخبزنا اليومي".¹

وبالفعل كانت أجور عمال المنجم تتعرض باستمرار للاقتطاع مثلما حدث مع السيد "ماهو" الذي اقتطعت الشركة ستة أيام من أجره وأجور أبنائه ووالده العجوز "ماهو" إضافة إلى غرامة مالية بسبب التخشب السيء.² وقد صعق السيد "ماهو" بسبب هذه الحادثة، وفي حينها أصيب بذهول شديد وبقي في حال من شبه غيبوبة لبضعة لحظات ولاسيما عندما تذكر زوجته التي كانت تنتظر منه إحضار السكر والقهوة والقليل من اللحم لأنه لا يوجد أي شيء في البيت.³

لقد كان عمال المنجم يبدون رغبتهم في المطالبة بزيادة أجورهم الزهيدة جدا وكانوا يجتمعون مرارا حتى يتفقوا عن كيفية تنظيم أنفسهم و تشكيل وفد يمكنه أن يذهب لمقابلة المسؤول الإداري لطرح مشكلة الأجور الخاصة بهم و التفاوض معه وفي تلك الأثناء نطق أحد العمال قائلا: "وهل نستطيع فعل ذلك؟ لقد حددت أجورنا بصفة قانونية ولكنها لا تلي إلا الحاجيات الضرورية للعمال ولا تكفيهم إلا لأكل الخبز اليابس وصناعة الأطفال... وإذا خفضت تلك الأجور فسيهلك العمال دون شك".⁴

ولتبرير تلك التخفيضات قال أحد مسؤولي المنجم: "أظنون أن الشركة لا تخسر أيضا مثلكم أثناء الأزمة الحالية؟ فهي لا تتحكم في الأجور بل تخضع للمنافسة وهي تحت طائلة الإفلاس [...] ولكنكم لا تريدون أن تسمعوا ولا تريدون أن تفهموا!"⁵

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 64, 65.

المصدر السابق، ص 200.²

المصدر السابق، ص 192.³

المصدر السابق، ص 161.⁴

المصدر السابق، ص 12.⁵

إلا أن هذه التبريرات لم تقنع العمال على الإطلاق بل زادتهم غضبا وثورة وقال أحدهم: "لم تزد الثورة إلا في بؤس الفقراء فلم يُترك لهم حتى عمق الأطباق ليمسحوها لكي يقولوا أنه كان للعمال حصتهم من النمو الخارق للثروة والرفاهية منذ قرن من الزمن. لقد سخروا منهم عندما أعلنوا أنهم أحرار؛ نعم أحرار ليموتوا جوعا. إن هؤلاء الذين لا يحرمون أنفسهم من أي شيء لا يضعون للعمال الخبز في صناديقهم عندما ينتخبون عليهم فإنهم يستريحون فيما بعد ولا يكثرثون لحال البؤساء".¹

هكذا كان عمال منجم "الفورو" يتصارعون باستمرار من أجل الحصول على أجورهم التي لا تسمح لهم إلا بتناول الحد الأدنى من الأكل يوميا ولهذا كانت السيدة "ماهو" تفقد أعصابها كلما تعرضت أجور أفراد عائلتها للاقتطاع أو إصابة أحدهم بمرض أو تعرضه لحادث أو عزمه على الزواج ومغادرة البيت العائلي لأنها لم تكن تتقبل تعرض ميزانية البيت الضعيفة والفقيرة إلى أي نقص لأنها في تلك الحال لن تتمكن أبدا من تعويضه وستتعرض العائلة إلى الجوع والعوز.

وفي المقابل كانت "عيني" في "الدار الكبيرة" تكد وتشقى، تعمل ليل نهار لكي تخطط أكبر عدد ممكن من النعال حتى تتمكن من الحصول على مبلغ معقول يكفيها لسد حاجيات أسرتها ولكنها كلما قبضت أجرها تعيد حسابه العديد من المرات وتطلب من ابنها "عمر" الذي كان يساعدها في عملياتها الحسابية إن كان متأكدا من عدد النعال وهل يتناسب مع المبلغ الذي قبضته ومن ثم تشرع في تقسيمه حسب حاجيات البيت فهي تبدأ أولا بنزع المبلغ الخاص بشراء الدقيق لصنع الخبز وعندها تدرك أنه لم يبق من المال إلا مبلغا قليلا جدا ولهذا كانت "عيني" دائما تشعر بالعجز عن ضمان الأكل اليومي لأبنائها وعليه كانت لا تقتأ تشور عليهم² كلما اشتبهوا أكل بعض الأصناف من المأكولات كالكسكس

¹ Zola Emile, *Germinal*, p160.

² Dib Mohammed, *La grande maison*, p133

باللحم والخضر¹ أو البيض إلى غير ذلك وكلما لاحظوا بعض النقص فيما تقدمه لهم سواء في وجبة الغذاء أو العشاء وأحيانا كانوا يبيتون دون عشاء² لعدم وجود أي طعام في البيت.

هذا وقد كان الفلاحون في رواية "الحريق" أيضا يعيشون في أوضاع صعبة للغاية لقد كانوا يعانون من مشكل البطالة التي انتشرت في قرية "بني بوبلن" وفي القرى المجاورة بشكل مخيف.³ ومن بين هؤلاء الفلاحين، كان "بادعدوش" يشكو من عدم موافقة المعمرين على تشغيله في الحقول بسبب عامل السن إضافة إلى أنه وحيد لم يكن له أولاد ليساعدوه أو ليعيلوه ولكن سرعان ما تذكر الذين لم يعملوا أبدا رغم كونهم شباب ثم يعود مرة أخرى ويقول: "ما جدوى العمل؟ وهل الذين عملوا طول حياتهم هم أسعد حالا وأريح من البطالين الذين لم يعملوا في حياتهم؟"⁴ كما كان "بادعدوش" يشتكي من العمل الشاق في حقول الكروم الذي كان يقضي على صحة الفلاحين وقال عن نفسه: "لقد عملت طول حياتي والآن عندما أصبحت عجوزا لا يوجد من يساعدني وبعد كل تلك السنوات لم أتوصل إلى توفير البعض من المال لتأمين حياتي في هذه السن لأن أجر الفلاح كان جد ضعيف وكان المحتل قد استولى على كل شيء وهو من كان يأخذ الأرباح ويدخر الأموال. [...] إن المحتل عندما يأخذ منك كل شيء: صحتك وبيتك وأرضك وكل ما لديك يرميك كالكلب".⁵

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp134, 135.

² المصدر السابق، ص 55-57.

³ Dib Mohammed, L'incendie, p 28.

⁴ المصدر السابق، ص 52، 53.

⁵ المصدر السابق، ص 54، 55.

إضافة إلى ذلك كانت الأجور التي كان يدفعها الكولون للفلاحين بائسة جدا مما جعل حياة أهل "بني بوبلن" تعيش حتى بات البعض يُقسم بأن السجن أحسن بكثير من تلك المعيشة.¹

هذا وقد كان سكان "تاسغا" في رواية "الربوة المنسية" لـ "مولود معمري" يتصارعون بشدة مع مختلف العقبات التي كانت تعرقل سبيلهم للحصول على لقمة العيش. لقد كان "إبراهيم" زوج "سكورة" يعيش وعائلته في حال من البؤس الشديد، لقد كان تاجرا ناجحا بمنطقة ندرومة بالغرب الجزائري ولكنه سرعان ما اضطر إلى إغلاق محله وبيعه والعودة إلى قريته ومن ذلك الحين وهو عاطل عن العمل لقد كان ينفق من مال متجره إلى أن نفذ لديه فعاد مرة أخرى إلى ندرومة عله يجد حلا لمشكله ولكنه وصل متأخرا لأن السلطات كانت قد وزعت على التجار كل الحصص الغذائية المخصصة لهم أما البقية ممن كانوا غائبين فاعتبروهم غير موجودين.²

لقد كان "إبراهيم" عاجزا عن إطعام أبنائه وزوجته حتى أصيبوا بالهزال وفقر الدم كما مرضت زوجته سكورة وكان عليه أن لجأ إلى الإقتراض على سبيل الربا حتى يتمكن من معالجتها³ مما كان يجبر زوجته سكورة على الذهاب إلى بيت أهلها لمدة من الزمن حتى تستعيد وأبنائها قواهم ثم تعود إلى بيتها.⁴

وهكذا كان العمال وأبناء الطبقات الشعبية البسيطة سواء في رواية "جيرمينال" أو في الروايات الجزائرية في صراع دائم مع الأوضاع المزرية والقاسية للحصول على القليل من المئونة حتى يبقوا على قيد الحياة.

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p30.

² Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 63 et p 83.

المصدر السابق، ص 103، 104.³

المصدر السابق، ص 102، 103.⁴

4.2) البؤس الفكري والثقافي:

لا يمس البؤس الجانب المادي والعاطفي للإنسان فحسب بل يشمل أيضا الجانب الفكري والثقافي و يتجلى ذلك فيما يلي:

1.4.2) شل الفكر وتغييبه:

غالبا ما يشمل هذا النوع من البؤس خاصة المجتمعات ذات الأنظمة الديكتاتورية أو المحتلة، ففي كليهما يعمل العنصر الأقوى جاهدا على تغييب تفكير العناصر الضعيفة وذلك بجعلهم يتخبطون في مشاكلهم اليومية ويرضوا بمصيرهم المحتوم.

لقد كان "جان فالجان" في رواية "البؤساء" يحمل بؤسه في أعماقه ولم يكن هناك أي وسيلة للتخفيف عنه أو إقناعه أنه شخص كالأخرين.¹ لقد عومل "فالجان" منذ طفولته بقسوة شديدة ومما زاد الأمور تعقيدا أكثر هو معاملة الناس له بعد خروجه من السجن، لقد كان الكل يرفضه ويهرب منه ولم يسلم حتى من الكلب الذي عبر عنه استيائه الشديد منه عن طريق نباحه عليه عندما وجده في كوخه الصغير.²

ولكن سرعان ما أصيب بذهول ودهشة كبيرة عندما استقلبه الأسقف "ميريال" في بيته وأحسن استقباله وعامله كإنسان محترم وأجلسه إلى طاولته ليشاركه وجبة العشاء في أوان فاخرة كما طلب من السيدة "ماغلوار" (Magloire) أن تحضر له فراشا مريحا لينام فيه ومن ثم تغيرت ملامح وجهه القاسية والمكفهرة وانطبعت عليه ملامح الدهشة والشك والفرح وأصبح في حالة غير عادية وبدأ يتمتم كالمجنون: "أصحيح؟ أتبقيني في بيتك؟ ألا تطردني؟ سجين؟ أتاديني بالسيد! ألا ترفع الكفة بيننا! و تقول لي اذهب أيها

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 107.

المصدر السابق، ص 100، 101.²

الكلب! العبارة التي يناديني بها الكل [...] سأتعشى! وسأنام على سرير عليه أفرشة وأغطية! مثل كل الناس! سرير! لم أنم على سرير منذ تسع عشرة سنة!¹

هذا وقد طلب الأسقف من السيدة "ماغلوار" إحضار الشمعدان لأن الغرفة غير منورة كفاية [...] وقد اندهش "فالجان" من كرم ضيافة الأسقف الذي كان يناديه بـ "سيدي" طول تواجده معه وقد زرعت هذه الكلمة الفرح والبهجة في نفس "فالجان".² ولم يكتف الأسقف بمناداته بـ "سيدي" بل لم يجد أي مانع من مناداته بـ "أخي" وهذا ما زال كل تعب وكل جوع لدى "جان فالجان".³ وهكذا كانت حياة اليتيم والوحدة وسنوات السجن الطويلة إضافة إلى الإهانات المستمرة الموجهة إليه تجعله مقتنعا أنه إنسان سيء وغبي وشرير وغير صالح لذا فهو لا يستحق الاحترام والتقدير فهو مجرد كلب أو أقل منه، كما يحلو للعديد من الناس أن ينعته ولكن لقاءه بالأسقف "ميريال" أزال كل غشاوة عن عينيه وأدرك أنه يمكن أن يُعامل كأبي إنسان عادٍ. وقد كان لسلوك الأسقف أثر عميق على نفسه وكان العامل الأساسي لتغيير حياته بشكل جذري فأصبح إنسانا صالحا في المجتمع وذا قيمة إذ وصل إلى منصب رئيس بلدية ولم يكن هذا بالشيء الهين بل كان إنجازا عظيما في حياته.

إضافة إلى "ماريوس بونميرسي" في رواية "البؤساء" الذي عاش في كنف جده السيد "غيلنورماند" وخالته الأنسة "غيلنورماند" اللذان توليا مهمة تربيته بعد وفاة والدته. لقد تلقى "ماريوس" تربية أرستقراطية راقية كما عُربت في فكره بعض الأفكار الرجعية والعنصرية لقد أبعد عن والده العقيد "بونميرسي" لأنه ليس من نفس طبقتهم ولأنه من أنصار تيار سياسي مخالف للتيار الذي ينتمي إليه العجوز "غيلنورماند".

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 101, 102.

المصدر السابق، ص 103.

³ المصدر السابق، ص 104.

لقد أحشى الجد والخالة فكر الطفل "ماريوس" بأفكار خاطئة وسلبية عن والده وقد أوهماه أنه لم يكن يحبه ولذا تخلى عنه وأهمله وقد صدق "ماريوس" هذه الأفكار لأنه لم ير والده قط لذا أخرجته من حياته ولم يعد يفكر فيه.

ولعل المرة الوحيدة التي كلمه فيها الجد "غيلنورماند"¹ عن والده هو عندما أمره بالذهاب لرؤيته ولم يكن يعلم سبب زيارته له إلا عند وصوله ووجده ميتاً² ولكن لم يغير ذلك أي شيء من صورة والده في ذهنه إلى أن التقى بوكيل الكنيسة التي كان يذهب إليها رفقة خالته من حين لآخر عندما كان صغيراً وقد قص عليه قصة والده الذي كان يحضر ويجلس في الصفوف الأخيرة حتى يتمكن من رؤية ابنه دون لفت الانتباه إليه.³

وهنا فقط يكتشف "ماريوس" حقيقة والده ومشاعر الحب والحنان التي كان قلبه يفيض بها اتجاهه مما جعله يغضب غضباً شديداً على جده ويقرر من ثم أن يزور قبر والده ويكي على كل السنوات التي عاشا فيها بعيدين عن بعضهما وتأسف كثيراً عن كل ما كابده والده جراء حرمانه منه وهذا ما أدى إلى غضب جده عليه وتوبيخه له مما جعل ماريوس يغادر البيت ويفضل حياة الفقر والبؤس على البقاء في ذلك الوسط الراقي حيث يسود الكذب و الرياء.⁴

وفي المقابل كان المحتل الفرنسي في الجزائر يسعى منذ أن وطئت قدماه أراضيها إلى طمس الهوية الوطنية والقضاء شيئاً فشيئاً على مقومات الشخصية القومية وعلى الثقافة الجزائرية على وجه الخصوص حيث كان الاستعمار استيطانياً، لقد عمل كل ما بوسعه لتشويه الحقائق وإقناع الأجيال الجديدة المولودة أثناء فترة الاحتلال بها. لعل أول ما أقدم

¹Hugo Victor, Les misérables, Tome3, Volume2, p154

المصدر السابق، ص 155.²

المصدر السابق، ص 157، 158.³

المصدر السابق، ص 173، 174.⁴

المحتل على فعله منذ السنوات الأولى من الاحتلال هو غلق المساجد والمدارس الجزائرية قصد القضاء على الدين الإسلامي واللغة العربية ونشر الجهل والامية وتغيب فكر الجزائريين عن طريق إغراقه في الخرافات والأساطير والأمور الغيبية.

وفي المقابل فتحت السلطات الفرنسية مدارس عمومية لتدريس التاريخ الفرنسي وأدبه وثقافته و نشر لغته و إقناع التلاميذ بأن الجزائر تابعة لفرنسا و هي جزء لا يتجزأ منها وأن هناك طبقتان في الجزائر "طبقة الأسياد المتمثلة في المعمرين والفرنسيين بشكل عام والطبقة الدنيا المتكونة من الجزائريين الذين أسمتهم بالإنديجين أو الأهالي وترى بأنهم لا يستحقون أن يكونوا مواطنين مثل المعمرين بل هم مواطنون من الدرجة الثانية أو الثالثة وقد خلقوا أو وجدوا ليكونوا خداما للأسياد المعمرين ولعملائهم .

وفي يوم من الأيام بينما كان "عمر" ورفقاؤه في القسم كان المعلم "السيد حسان" يتجول بين الصفوف ثم سرعان ما عاد إلى مكتبه وقلب في أوراق دفتره وقال: "الوطن". ولم ينتبه التلاميذ لما قاله و لم يفهموه وبقيت الكلمة تحوم في الهواء. ثم طرح المعلم السؤال: من منكم يعرف معنى هذه الكلمة: "الوطن"؟ و بدأ التلاميذ يتساءلون مما أحدث ضجة في القسم [...] لقد كان التلاميذ يبحثون حولهم لقد كانت أنظارهم تحلق بين الصفوف وعلى الجدران وعبر النوافذ وعلى السقف وعلى وجه المعلم ؛ ولم يجدوه. لم يكن الوطن في القسم [...] لقد رفع "إبراهيم بالي" إصبعه في الهواء. آه هذا! كان يعرف إذن. أكيد. لأنه معيد للسنة أكيد أنه يعرف.

وكان جوابه: "فرنسا هي وطننا الأم [...] وعند سماعهم لذلك كان كل التلاميذ يفرقون أصابعهم وكان الكل يرغب في الكلام الآن وبدون طلب الإذن وقد كانوا يرددون العبارة نفسها. وقد كان "عمر"، وهو يمضغ قطعة خبز صغيرة وشفتيه مزمومتين، يتساءل. فرنسا، عاصمتها باريس. كان يعلم هذا. وكل الفرنسيون الذين نراهم في المدينة قادمون

من ذلك البلد. ولأجل الذهاب إليه أو العودة منه يجب قطع البحر وركوب باخرة... البحر: البحر الأبيض المتوسط. لم ير البحر قط في حياته ولا باخرة [...] ولكن كيف يمكن أن تكون تلك البلاد البعيدة أمه؟ أمه موجودة في البيت، هي "عيني"، ولا يوجد هناك اثنتان. و"عيني" ليست فرنسا. وهنا يكتشف "عمر" كذبة فرنسا لم تكن بأمه. لقد كان يتعلم الأكاذيب حتى يتفادى ضربات عصا الزيتون الشهيرة. [...] كان الأطفال يرددون فيما بينهم: إن الذي يحسن الكذب، ومن كان يتقن ترتيب كذبه هو أحسن التلاميذ.¹

هذا وقد كان المعلم السيد "حسان" يمنع التلاميذ من التحدث باللغة العربية في القسم² ولكنه سرعان ما خالف تلك القاعدة و تجاوزها عندما أراد الحديث عن الوطن فلم يستطع الكلام إلا باللغة العربية ليكشف لهم كل الأكاذيب التي تعمل فرنسا على غرسها في أذهانهم الصغيرة حتى تبعدهم عن واقعهم الحقيقي وتجعلهم عبيدا لها ولكن للأسف توقف المعلم فجأة ولم يخبرهم عن وطنهم.³

وبناء على ما سبق ندرك مدى تأثير البيئة على تفكير الإنسان سواء بالسلب أو بالإيجاب : يمكنها أن تدفعه نحو اتجاهات سياسية أو اقتصادية أو إيديولوجية معينة دون سواها كما يمكنها أن تجعله محبا لوطنه أو كارها له أو محترما لنفسه أو محتقرا لها. وهذا ما رأيناه من خلال النماذج المقدمة سابقا، "جان فالجان" و "ماريوس" و "عمر".

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 19 – 21.

² المصدر السابق، ص 23.

³ المصدر السابق، ص 23.

2.4.2) الانبهار بالآخر والخضوع له:

قال "ابن خلدون": "المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده".¹

غالبا ما نعثر على هذه النوعية من البؤس الفكري في المجتمعات الفقيرة أو المحتلة التي يشعر فيها أصحابها بالضعف وبالذونية وكثيرا ما يحتقرون أنفسهم وينظرون إلى الآخر بنوع من الانبهار الذي يولد في نفوسهم اليأس والإحباط لأنهم لا يستطيعون أبداً أن يرقوا إلى مستواه .

ويتجلى ذلك في شخصية "أوجين دو راستينياك" (Eugène de Rastignac) في رواية "الأب غوريو" لـ "بالزاك"، وهو طالب جامعي قدم إلى باريس لمزاولة دراسته في الحقوق وقد كان كثير الإعجاب بمدينة باريس وببهرجها وضوضائها وأنوارها. لقد كانت عائلته تعيش على عائدات قطعة أرض صغيرة تبلغ ثلاثة آلاف فرنكا وكان يقطع منها ألفا ومئتا فرنكا سنويا وقد كانت عائلته تعلق عليه آمالا كبيرة لقد كانت أخته ووالدته تحرم أنفسهن من أشياء كثيرة حتى توفرن ذلك المبلغ له.

لقد كان "راستينياك" لا يلبث يقارن بين بيئته الأصلية وبين باريس الساحرة وبين نساء قريته ونساء باريس الأنبيقات اللائي كن يمثلن الجمال الحالم.² وقد لاحظ أن للنساء تأثير كبير على حياة المجتمعات الراقية في باريس وأدرك أنه إن أراد الدخول إلى ذلك الوسط فينبغي أن تكون له علاقات جديدة ومهمة مع من يمكنه أن يمدّه بيد العون حتى يحقق حلمه. وقد تذكر حينها أن هناك إحدى قريباته ممن لها علاقات مع أصحاب الطبقة الأرستقراطية وفكر في زيارتها وطلب المساعدة منها وبالفعل تم له ذلك إذ سلمته رسالة

¹ عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادى، الجزء الأول، خزنة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، (د،ت)، (د،ط)، ص 242.

² Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 51.

توصية إلى إحدى سيدات المجتمع الراقي السيدة "بوزي آن" (Beauséant) التي تحمل لقب "فيكونتاس" (Vicomtesse) حتى تساعد على الدخول إلى عالم الطبقة الأرستقراطية الراقية، وفور استلامها للرسالة قامت السيدة "بوزي آن" بدعوته إلى الحفل الذي كان سينظم في اليوم الموالي وقد حضره "راستينياك" و انبهر كثيرا مما رآه من جمال وأبهة وعند عودته إلى المنزل حيث يقيم بدأ يسترجع الصور الرائعة التي ترسخت في ذهنه وأدرك أن السيدة "بوزي آن" هي إحدى ملكات الموضة بباريس وأن بيتها هو أحد أهم وأجمل البيوت في ضواحي "سان جيرمان" وهو من أفخر الأحياء الباريسية. وبفضل رسالة قريبته حظي "راستينياك" باستقبال حار في بيت السيدة "بوزي آن" حيث قُدم للطبقة الأرستقراطية ومن ثم بات مسموحا له بالذهاب إلى أي بيت وحضور أي حفل من حفلات المجتمع الراقي بباريس.¹

وحين تواجده بذلك الحفل لفت انتباهه وجود سيدة أنيقة وجميلة وتعتبر من أكثر النساء رشاقة في باريس تدعى الكونتيس "أناستازيا دي ريسنو" (La comtesse Anastasia de Réstaud).² ولم يُضغ "راستينياك" فرصة محادثتها بل و مواعدها أيضا، لقد كان شابا طموحا ومتعطشا للدخول إلى ذلك العالم السحري بالنسبة إليه.³

لقد كان "راستينياك" يعتني كثيرا بمظهره الخارجي وذات يوم و هو ذاهب إلى أحد مواعيده كان يقول في نفسه: "لو كنت غنيا لذهبت بالسيارة"⁴ ولكنه لم يكن يكثر كثيرا لمن يدرك أنه غير غني. هذا وقد كانت السيدة "دو بوزي آن" تقدم له بعض النصائح

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, pp 52, 53.

المصدر السابق، ص 54.

المصدر السابق، ص 55.

⁴ المصدر السابق ، ص 75.

والتوجيهات التي ستمكنه من الاندماج في الوسط الأرستقراطي دون أي مشاكل¹ لقد أدرك "راستينياك" أن السبيل الوحيد الذي سيمكنه من الدخول إلى الطبقة الأرستقراطية هو المال لذا وظف كل ما يملكه من حيل لإقناع والدته و أختيه كل واحدة منهما على حدة حتى توافقن على مساعدته على إنجاز مشروعه حسب مزاعمه و وعدهن باستئيد ذلك المبلغ لهن في أقرب الآجال.² وبالفعل لبث كل من والدته وأختيه طلبه وأرسلت كل واحدة منهن مبلغا معينا.³ وقد فرح "راستينياك" كثيرا بذلك المبلغ الذي أكسبه ثقة في نفسه وكان يشعر أن باريس كلها باتت ملكا له،⁴ وكان يقول في نفسه: "يمكنك الآن أن تدخل إلى عالم باريس الأرستقراطي واصطياد المهور والرقص مع الكونتيسات.⁵

وهكذا كان "راستينياك" منبها ومهوسا بالمجتمعات الباريسية الراقية وبقصورهم وحفلاتهم وحياتهم وكان حلمه الوحيد هو أن يلقي القبول في هذا العالم الذي بات هدفه في الحياة، حتى دراسته لم تكن تهمة كثيرا. لقد حاول أن يظهر بمظهر غير مظهره الحقيقي حتى يتشبه بهؤلاء ويقنعهم أنه بإمكانه أن يصير منهم.

هذا وقد كان المغتربون خاصة في الروايات المغربية يشعرون بالانبهار الشديد بالمحتل وببلده وبيئته وبكل ما يخص حياته وفي الوقت نفسه يشعرون بالاحتقار لذاتهم ولمدنهم وقراهم كما كانوا يكرهون حياة البؤس والفقر التي عاشوا فيها منذ ولادتهم فلا شيء تغير بالنسبة إليهم وهذا ما دفعهم إلى الهجرة إلى بلد المحتل.

لقد كان "أمر أوقاسي" في "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون" وهو في فرنسا كلما تذكر قريته "إيغيل نزمان" تتراءى له كنقطة صغيرة لا قيمة لها فهي أبعد من الآفاق الساطعة،

¹ Balzac Honoré de, Le Père Goriot, p 92

المصدر السابق، ص 104، 105.

المصدر السابق، ص 115، 116.

المصدر السابق، ص 119.

المصدر السابق، ص 120.

زاوية متوحشة ومظلمة وقذرة حيث يختفي عن الأنظار أناس معروفون ومثيرون للشفقة وكان الخيال يزيدهم قبحا إلى حد السخافة.¹

وفي رواية "الدروب الوعة" لـ "مولود فرعون" كان "أعمر نعمر" يتمنى دائما لو ولد بفرنسا وليس في بلاد القبائل وهو يقول: "كان من الممكن ألا أولد في هذا البلد الملعون. آه لو ولدت في فرنسا، ولو عشت هناك [...] أظن أنني لن أجد ما سأعترض عليه وأنا في سن الخامسة والعشرين. سأكون رجلا وسط ملايين الرجال ، ربما سأكون تيعسا أو سعيدا رجل ككل الرجال الآخرين، أنا حاقد على والدتي التي جعلتني قبائليا واعيا بأصلي و متمسكا به، بينما كان بإمكانها مغادرة "إيغيل نزمان" لتربييني بفرنسا أو لتتخلى عني لمراكز الرعاية [...] لو خُيرت من البداية أكيد أنني لن أَرْضَى أن أكون قبائليا في هذه الفترة بالذات. ولا أدري لماذا أصبحت قبائليا؟"²

و يقول أيضا: "سأذهب إلى فرنسا لوحدي وأتيه فيها [...] وهناك سأبتعد عن أبناء "إيغيل نزمان" وعن كل القبائل لأنهم مجرد بيكو (تيوس) [...] أتساءل عمن يستطيع أن يحبنا؟ نحن الشمال إفريقيون، نخيب ظن كل من يريد الخير لنا".³

ومن هنا يتضح أماننا احتقار "أعمر نعمر" لأهل "إيغيل نزمان" ونفوره منهم ومن كل القبائل بسبب ذهنياتهم المتخلفة والبالية لذا كان يتمنى لو أخذته أمه الفرنسية إلى موطنها حتى يكبر هناك ويعيش في حرية وسلام لأن فرنسا بلد الحرية وعدم التدخل في الحياة الشخصية للغير، لقد كان شديد الإعجاب ببلد أمه الكبير والمتطور الذي كان سيسمح له بالانطلاق نحو حياة أفضل.

¹Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 10.

المصدر السابق، ص 146، 147.²

³ المصدر السابق، ص 191.

وفي رواية "الأفيون والعصا" لـ "مولود معمري" تتجلى شخصية "بلعيد" الذي هاجر إلى فرنسا ليربح المال حتى يعيل أسرته ويسدد الديون التي عليه ولكنه لم يفلح في ذلك وبقي هائما في فرنسا وتوقف عن إرسال المال والرسائل لأبنائه وزوجته الذين قلقوا كثيرا عليه مما جعل ابنه الأكبر "واعلي" الذي أصبح شابا يقرر الذهاب إليه ليحضره إلى بلده مرة أخرى ولكنه عندما التقى به رفض رفضا قاطعا اصطحابه والعودة إلى قرية "ثالا" وقال له: "أنتم كومة صغيرة من البؤس والدموع والقمل والمخاط... كلكم ، ولقد غادرت القرية لأهرب منكم كلكم، أنت وأمك وإخوانك وأخواتك... كلكم"¹ وأضاف: "أنظر! إنها باريس، هي قطعة من الفردوس الحقيقي ليس فردوس سكارى قريتك. كل ما تطلبه تجده وما عليك إلا أن تمد يدك. أنظر [...] كل ما تريده، المال والبنات والمحلات الليلية وأحسن أنواع الخمر".²

ولم يكن ابنه "واعلي" ينصت إليه وبسرعة كانت تستعرض أمامه البيوت الصغيرة والسفلية والمظلمة لقرية "ثالا" ومن غروب الشمس إلى الليل، ليل بدون أنوار كان يخيفه كثيرا في صغره [...] وعلى بضع كيلومترات من القرية يسمع نباح الكلاب أو أصوات البومات الحزين على الأشجار.³

وبهذا يبدو لنا احتقار "بلعيد" لأهله وقريته التي تمثل التعاسة والحزن والألم والبؤس وانبهاره بفرنسا حيث الرخاء والرفاهية وحيث يمكن للإنسان أن يحقق طموحاته وكل ما يصبو إليه.

هكذا كانت هذه الشخصيات الثلاث تكره واقعها وحياتها البائسة والتعيسة وتنهر ببيئات اجتماعية أخرى وبلدان غريبة عنها حيث يمكنها أن تحقق ذاتها وتعيش حياة كريمة وهادئة.

¹ Mammeri Mouloud, L'opium et le bâton, pp 81, 82.

² المصدر السابق، ص 85.

³ المصدر السابق، ص 85.

الباب الرابع:

دراسة فنية وجمالية لظاهرتي

الفقر والبؤس في الروايتين

الفرنسية والمغاربية

الباب الرابع

الفصل الأول:

البناء الفني والجمالي

للشخصيات الروائية

الأدب هو تمثيل فني وجمالي لواقع معيشي معين وفي حقبة زمنية محددة، ولا يمكن لهذا البحث أن يكتمل إلا إذا تطرقنا إلى أهم القضايا الفنية والجمالية التي وظفها الروائيون الفرنسيون والمغاربة لتجسيد ظاهرتي الفقر والبؤس في أعمالهم نظرا لأهميتها في تحديد الخصوصية القومية لكل أدب.

و لعل أول ما يمكننا أن نفتتح به هذا الموضوع هو دراسة الشخصيات وكيفية توظيفها ومختلف أبعادها ودلالاتها.

وتعتبر الشخصية من بين العناصر الأساسية في البناء الفني للرواية لأنها هي "واسطة العقد بين جميع المشكلات الأخرى"¹ فمن خلالها يتم الحوار ويشد الصراع حتى يصل إلى الذروة وهي التي تسكن المكان وتضفي عليه الحيوية والنشاط وتمنح الزمن معاني ورموزا، وهي على العموم ذلك "العالم المعقد الشديد التركيب المتباين التنوع".²

كما رأى فيليب هامون (Philippe Hamon) أن "الشخصية الروائية هي مفهوم سيميولوجي ووحدة دلالية [...] تقوم بنيتها على الأفعال والصفات وتكتسب معناها ومرجعيتها من خلال سياق الخطابات ولا تكتمل إلا حينما تنتهي الصفحة الأخيرة للنص"³ وقد كانت الشخصية الروائية، ابتداء من القرن التاسع عشر انعكاسا لمختلف الأصناف البشرية المتواجدة حينذاك كما كانت تستكشف العديد من الأماكن و المواقف والأزمنة حتى تبرر للقارئ الكم الهائل من الأصناف البشرية التي تمثلها.⁴

¹ عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، (د،ط)، 1998، ص91.

² المرجع السابق، ص73.

³ فيصل غازي النعيمي، العلامة والرواية دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، دار مجدلوي للنشر والتوزيع عمان الرذن، ط1، 2009، ص170.

⁴ Le personnage du roman depuis le 19^{ème} siècle in www.etudier.com

لقد تنوع الأبطال الروائيون في الأدب الفرنسي خلال القرن التاسع عشر من بطل رومانسي و بطل واقعي وطبيعي، ويتميز البطل الرومانسي بكونه بطل نموذجي يثير الاهتمام و كثيرا ما يبدو معزولا عن مجتمعه، وأما البطل الواقعي أو الطبيعي فغالبا ما تكون له علاقة بنماذج اجتماعية أو نفسية، لقد كانت روايات بالزك وزولا تهدف إلى تفسير الميكانيزمات المتحركة في تسيير الإنسان والمجتمع معا.¹

و لكن قبل التطرق إلى البناء الفني و الجمالي للشخصيات يجدر بنا الوقوف عند مختلف أنواع الشخصيات التي صادفتنا في الروايات المدروسة .

1) الشخصيات البطولية :

شهدت الشخصيات البطولية تنوعا كبيرا في الروايات الفرنسية والمغربية وقد تجلت في:

1.1) الشخصيات المهمشة و المعزولة :

لقد كانت جل الشخصيات البطولية في الروايات المدروسة شخصيات مرفوضة ومهمشة في مجتمعاتها وذلك بسبب فقرها وبؤسها من ناحية وبسبب طبيعتها الانعزالية والانطوائية من ناحية أخرى، ولعل أهم من يجسد التهميش هو "جان فالجان" بطل رواية البؤساء ل"فيكتور هوغو" الذي كان منعزلا حتى عن عائلته المقربة كأخته وأبنائها الذين كان يعيش معهم، فكان كلما دخل إلى البيت في آخر النهار يتناول عشاءه دون أن ينبس بكلمة رغم محاولات أخته في التقرب منه وأخذها لبعض قطع اللحم من صحنه وإعطائها لأطفالها الصغار، لم يكن "فالجان" يبالي بذلك بل لم يكن حتى يرفع رأسه من صحنه،²

¹ Le 19 ème siècle, une époque de totale remise en question

<https://excerpts.numilog.com>

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 110, 111.

لقد كان يعيش في عالمه الداخلي رفقة بؤسه ومعاناته، وكذا كان وهو في السجن بعيدا عن باقي السجناء، لقد كان وحيدا وكان الحقد والسخط على أوضاعه يزداد في داخله حتى جرده من كل عاطفة رقيقة وامتلاً قلبه بالكراهية والحقد¹ وأصبح شخصية باردة وجامدة . و في المقابل كانت شخصيتي ذهبية و اممر نعمر في رواية الدروب الشاقة لمولود فرعون لقد عرفت معنى التهميش و الانعزال عن المجتمع و الشعور بعدم الانتماء للبيئة التي ولدا و تربيا فيها لقد انعزلت ذهبية عن الواقع بسبب معتقدها فلم يكن هناك من يرحب بها أو يفهمها لقد عرفت العزلة حتى داخل الكنيسة فلم تكن تتواصل مع أي شخص حتى الكهنة أو الأخوات الراهبات² ، و عند وصولها إلى قرية إغيل نزمان حيث أهل والدتها فلم يكن لها أي اتصال أو علاقة مع الناس و لاسيما الفتيات من سنها إلا اممر نعمر الشبيه بها في عزلته و الانطواء على ذاته لقد كان يشعر بالغربة الروحية و العاطفية وسط هؤلاء الذين كانوا دائما ينادونه بابن الرومية(الفرنسية)كما كان هو أيضا مثل صديقه ذهبية لم يكن قادرا على التأقلم معهم منذ طفولته³

لقد كانت هذه الشخصيات تعيش في سجن فكري وروحي وعاطفي مما قضى على كل معنوياتها.

إضافة إلى ذلك كانت الشخصيات المسنة من بين الشخصيات التي كانت تعاني من العزلة والتهميش أكثر بسبب نقص قدرتهم على العمل والإنتاج ومن ثم تحقيق دخل إضافي للعائلة مثل العجوز "بونمور" (Bonnemort) في رواية "جيرمينال" لإميل زولا، وهو والد السيد "ماهو" الذي أمضى كل حياته في العمل في المنجم وقد كان يشكو من أمراض عدة على مستوى الرئة إذ كثيرا ما كان يصاب بنوبة سعال حادة تكون متبوعة

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 121.

² Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, pp25 ,26

³ المصدر السابق، ص 111.

ببصاق أسود إضافة إلى ساقيه اللتين كانتا تؤلماناه كثيرا إلا أن ذلك لم يحل بينه و بين العمل في المنجم رغم الأجر زهيد جدا،¹ و استمر على ذلك الحال إلى أن ساءت أوضاعه الصحية وأرغم على التقاعد والبقاء في البيت حيث أصبح شبه ميت إذ لم يعد يتكلم إلا للضرورة ولم يكن يُرى إلا نادرا فأصبح كالشبح و لم يعد حتى أهل بيته يبحثون عنه كثيرا و لم يكونوا يشعرون تقريبا بوجوده، لقد انطوى على نفسه لأنه كان يشعر بالعجز وعدم الفائدة² لأنه بات يستهلك دون أن ينتج الأمر الذي كان يزعج كثيرا زوجة ابنه السيدة "ماهو" في معظم الأوقات.

إضافة إلى "الأب غوريو" (Le père Goriot) في الرواية التي تحمل اسمه لـ "بالزاك"، الذي كان عاملا في المعجنات وربح الكثير من المال طيلة حياته المهنية ووفره لابنتيه اللتين تخلتا عنه بعد زواجهما وأخذهما لكل أمواله فبقي وحيدا وفقيرا لأنه لم تعد صحته تسمح له بالعمل والربح مثلما كان عليه في السابق ورغم ذلك لم يكف عن التفكير فيهما وضرورة توفير المال الذي تحتجان إليه وعليه قام باستئجار غرفة في نزل "فوكير" (Vauquer) البائس حتى لا يدفع إيجارا مرتفعا، لقد عاش فيه وحيدا ومنعزلا³ عن باقي السكان اللهم إلا أحد الشباب الذي يدعى "راستيناك" (Rastignac) وهو طالب كان يتردد عليه ويرغب في التعرف عليه واكتشاف أسرارهِ ولاسيما عندما أدرك أنه أب لسيدتين من الطبقة الراقية واللّتين كانتا تخجلان بوالدهما ولم تكونا تزورانهُ إلا نادرا وعندما تكونان في حاجة إلى المال، عاش الأب غوريو وحيدا ومات وحيدا ولم يَقم بدفنه سوى شابين من الساكنين في الفندق نفسه.⁴

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 19, 20 et 283.

² المصدر السابق، ص 389، 472، 520، 521.

³ Balzac Honoré de, *Le père Goriot*, pp 9 et 38.

المصدر السابق، ص 307، 308.

وفي المقابل كان العجوزان "كامومة" وزوجها "قاسي" في رواية الأرض والدم ل"مولود فرعون"، اللذان تركهما ابنهما الوحيد "أمر" وهاجر إلى فرنسا بحثاً عن حياة أفضل ومستقبل مشرق، يعيشان وحيدين هما العاجزان عن العمل وعن إعالة أنفسهما،¹ لقد شهدا أياماً صعبة: عرفا الجوع والعوز مما دفعهما إلى بيع أعز ما يملكانه وهو الأرض حتى لا يموتا جوعاً،² وكم كان ذلك يحز في نفسيهما وما كانا ليقدما على ذلك الفعل لولا يقينهما من عدم عودة ابنهما وتركه إياهما إلى الأبد ولعل ما زاد الأوضاع تفاقمًا هو موت العجوز "قاسي" تاركاً زوجته "كامومة" وحيدة في تلك القرية حيث لم يعد أي شخص يسأل عنها أو يعرض خدماته عليها بل حتى الذين كانوا يترددون على بيتها حين كان زوجها حياً هجروها وتخلوا عنها لعدم وجود أي مصلحة تجنى من وراء علاقتهم بها.³

وكذا كانت العجوز "ماما" والدة "عيني" في رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب، امرأة نشيطة وفعالة لقد كانت تقوم بكل شئون البيت من طبخ وتنظيف وحتى التسوق إلى أن أصيبت بمرض تسبب في شللها وجعلها طريحة الفراش وهنا قرر ابنها وزوجته التخلص منها وأخذها إلى بيت ابنتها "عيني" الأرملة المدممة مع الوعد بزيارتها بانتظام وتقديم المساعدات اللازمة للتكفل بها ولكن سرعان ما وجدت "عيني" نفسها هي المشرفة الوحيدة على خدماتها وتلبية حاجياتها⁴ مما جعلها هي الأخرى تضيق ذرعاً بها وبرؤيتها أو سماع أنينها لذا أخرجتها من بيتها وأخذتها إلى غرفة بعيدة عنها حتى تنساها ولو إلى حين لأن منظرها كان يتعبها ويزيد من مأساتها ويعمق معاناتها وكثيراً ما كانت تغضب عليها وتلومها على موافقتها المجيء إليها وعدم البقاء في بيت ابنها.⁵

¹ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, pp 13, 14.

² المصدر السابق، ص 15، 16.

³ المصدر السابق، ص 17، 18.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, pp 72, 73.

المصدر السابق، ص 31، 32.

هكذا كان هؤلاء المسنونون يعيشون البؤس النفسي والمعنوي إضافة إلى الفقر المادي الذي نال من صحتهم وجعلهم أعباء ثقيلة على ذويهم مما كان يدفعهم إلى الانغلاق على أنفسهم والانقطاع عن محيطهم والعيش في عالمهم الداخلي، لقد كان ذلك نوعاً من الموت المعنوي بالنسبة لهؤلاء الذين يفضلون الانسحاب من حياة أحبائهم وأقاربهم لاسيما عندما يشعرون أنهم يشكلون حملاً ثقيلاً عليهم أو حجر عثرة في سبيل تحسن أوضاعهم.

2.1 (الشخصيات القيادية:

انشغل جل الروائيين الواقعيين والطبيين في القرن التاسع عشر بقضية العمال وخصصوا لها مساحة معتبرة من أعمالهم للكشف عن واقعهم المزري جراء استغلالهم اللإنساني من قبل أرباب العمل وأصحاب المصانع والورش لقد كان هؤلاء العمال يعانون في صمت كما كانوا راضيين بمصيرهم المحتوم إذ المهم بالنسبة إليهم هو توفير خبزهم اليومي والحد الأدنى من شروط المعيشة،¹ مما أدى إلى ظهور نقابات عمالية في مختلف أنحاء أوروبا وبدأت تناضل من أجل تحسين أوضاعهم ، وقد سمح ذلك بظهور شخصيات قيادية كانت تتحرك وتعمل في الأوساط العمالية وتسعى إلى بث الوعي فيهم وتعريفهم بحقوقهم وواجباتهم وإقناعهم بضرورة رفض الأوضاع البائسة المفروضة عليهم حتى وإن كان ذلك عن طريق الإضرابات أو المظاهرات والاحتجاجات إلى غير ذلك.

ولعل أحسن ما يجسد هذه القضية رواية "جيرمينال" لإميل زولا الذي قدم من خلالها صورة حية عن معاناة عمال المناجم وتعبهم الشديد في سبيل الحصول على الحد الأدنى من الأجور وهكذا إلى أن وصل "إيتيين" (Etienne) الذي قدم من منطقة "ليل" (Lille) بشمال فرنسا حيث كان يعمل كميكانيكي بشركة للسكك الحديدية إلى منطقة "مونتسو"

¹ Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, pp 89, 90.

(Montsou) حيث اشتغل في منجم "الفورو" (Le Voreux) وعند وصوله إلى هناك كان قد ترك وراءه تجربة تسع سنوات في ميدان العمل والحياة وسط العمال و نضالهم¹ مما سمح له بالتعرف على العديد من النقابيين و المناضلين الكبار في فرنسا و خارجها و بهذا استطاع أن يحدث ثورة في وسط عمال منجم "الفورو" بمونتسو إذ فتح عيونهم على العديد من الحقائق وشجعهم على ضرورة الإقدام بكل قوة من أجل المطالبة بحقوقهم وضرورة تحسين أوضاعهم الاجتماعية والرفع من أجورهم وتقليص ساعات عملهم وهكذا حتى نجح في الأخير في تجنيد أغلبية العمال ودفعهم إلى الدخول في إضراب مفتوح.²

لقد كان "إيتيين" يقيم عند "آل ماهو" حيث كان يبث أفكاره ويتقاسم معهم أحلامه³ وقد توصل إلى التأثير فيهم وإقناعهم بإمكانية تغيير الأوضاع نحو الأحسن كما نجح أيضا في توسيع مجال تأثيره ليشمل معظم عمال المنجم الذين أصبحوا يحلمون بعالم أجمل كما تحمسوا كثيرا لفكرة الإضراب وقرروا شل المنجم وتوقيف كل نشاط فيه.

هذا ولم يتمكن "إيتيين" من تأسيس نقابة خاصة بعمال المناجم بمونتسو ولكنه كان واثقا من نفسه ومن خبرته في المسائل السياسية ولعل هذا ما جعله يفشل في تسييره وفي تحكمه في الأوضاع ولاسيما المالية منها أثناء الإضراب⁴ إذ وقعت عائلات العمال في مشاكل صعبة بعد فترة وجيزة من الإضراب فلم يكونوا يجدون الأكل بعدما نفذت كل مئونتهم⁵ وكذا المبالغ المالية البسيطة التي وفرتها هيئة "إيتيين" العالمية لهذا الشأن.⁶

¹ Lejeune Paule, *Germinal un roman antipeuple*, p 153.

² Zola Emile, *Germinal*, pp 312, 314.

³ Lejeune Paule, *Germinal un roman antipeuple*, p 158.

⁴ Psichari Henriette, *Anatomie d'un chef- d'œuvre : Germinal*, p 42.

⁵ Zola Emile, *Germinal*, pp 276, 281, 282.

المصدر السابق، ص 251، 259.⁶

وفي المقابل تتجلى شخصية "حميد سراج" في روايتي الدار الكبيرة والحريق لمحمد ديب الذي كان يمارس النضال السياسي وكان يقوم بالتوعية الجماهيرية في الأوساط الشعبية في منطقة تلمسان سواء في المدينة أو في الريف، لقد كان يجمع العمال والفلاحين ويحاول وبأساليب بسيطة اطلاعهم على حقوقهم وواجباتهم وفضح حقيقة المحتل الغاشم وإقناعهم بضرورة الثورة عليه كما كان يلقنهم كيفية تنظيم أنفسهم حتى يصلوا إلى تحقيق الاستقلال وضمان الحياة الشريفة والكرامة،¹ وقد أدركت الشرطة الفرنسية مدى خطورة أفعاله وأفكاره التقدمية والتحررية التي كان يسعى إلى نشرها في الأوساط الشعبية مما جعل السلطات الفرنسية تتابع تنقلاته وتحركاته وكانت دائما تحذره من مواصلة مشواره ولكن دون جدوى وهذا ما جعل الفرنسيين يطاردونه من مكان إلى مكان ويفتشون عليه ليسجنوه،² لقد استطاع "حميد سراج" مثلما فعله "إيتيين" أن يقنع الفلاحين في رواية "الحريق" في الدخول في إضراب حتى يبينوا غيظهم وسخطهم على السياسة الجائرة الممارسة من قبل المعمرين الذين سلبوا أراضيهم وجعلوهم عبيدا لهم.³

هذا ويختلف "حميد سراج" عن "إيتيين" أولا في السن، إذ كان إيتيين شابا في العشرينات من العمر يتسم بالاندفاع والتهور أحيانا، لقد كان عاملا في شمال فرنسا ولكنه سرعان ما تشاجر مع مسئوله وترك العمل⁴ وغادر المدينة واتجه نحو قرية "مونتسو" حيث منجم "الفورو"، أما حميد سراج فهو كهل و يتميز بالرزانة والتعقل والحكمة إضافة إلى الهدوء والسلم ولم يُسمع عنه أنه تعارك مع شخص أو أشخاص، لقد كان عدوه الوحيد هو المحتل الفرنسي الذي كان يسعى إلى مقاومته وتحرير البلاد من قبضته بينما كان

¹ Dib Mohammed , L'incendie , pp 90 – 94.

المصدر السابق، ص 107، 108.

المصدر السابق، ص 125 – 130.

⁴ Zola Emile, Germinal, pp 15, 16.

المشكل الأساسي الذي كان يواجهه "إيتيين" هو الوقوف في وجه النظام الرأسمالي الذي جعل رؤوس الأموال والخيرات في يد الأقلية من الناس زيادة على ذلك كان حميد سراج رجلا سياسيا شغوفا بالقراءة والمطالعة¹ حتى يوسع أفاقه العلمية والمعرفية ويكتشف تجارب الشعوب الأخرى التي انتصرت على أعدائها سواء سياسيا أم عسكريا، لقد كان الكل يحترمه ويقدره بل كانت حتى النساء في "دار سبيطار" تحاولن الاستماع إليه² وفك مختلف الرموز والصور المجازية التي كثيرا ما كان يوظفها في خطابه، وقد كانت تأثيرات "حميد سراج" تشمل حتى الأطفال وعلى رأسهم الطفل "عمر" الذي أعاره كتابا سياسيا حتى يقرأه ويتعلم منه أمور الحياة والسياسة وهو بعنوان "الرجال والرجال"³، وقد ساعده ذلك في إنجاح إضراب الفلاحين في رواية الحريق لمحمد ديب، بينما كانت تجربة "إيتيين" المحدودة في هذا المجال سببا في جعل عمال منجم "الفورو" يقعون في مشاكل عويصة أثناء الإضراب ولاسيما المشاكل المادية كنفاد المؤونة والفحم من أجل التدفئة... مما جعل العمال ينقلبون عليه وهذا ما دفعه إلى مغادرة "مونتسو" ولكنه كان جد متفائلا بمستقبل هؤلاء⁴ العمال الذي سيكون حسب رأيه أحسن لأنهم سيستفيدون دون شك بما عاشوه في ذلك الإضراب وسيسعون إلى عدم الوقوع في الأخطاء نفسها مستقبلا.

لقد كانت هاتان الشخصيتان من أهم الشخصيات القيادية والثورية التي استطاعت أن تحدث حركة غير عادية في الأوساط العمالية والفلاحية لقد أخرجتا هؤلاء من عزلتهم ومن سلبيتهم و شحذتا همهم حتى هبوا بكل قوة للمطالبة بحقوقهم الشرعية.

¹ Bererhi Afifa, Mohammed Dib, L'incendie, Honoré champion Paris, 2015, p 106.

² Amhis Ouksel Djoher, Dar Sbitar, p 80.

المرجع السابق، ص 81.

⁴ Zola Emile, Germinal, p 558.

ولكن يختلف المصير النهائي لكليهما، لقد كانت نهاية "إيتين" في آخر رواية "جيرمينال" نهاية إيجابية تبعث على التفاؤل فهي تنبؤ ببداية جديدة له، لقد تعلم درسا مهما من خلال تجربته مع إضراب عمال المنجم بمونتسو مما قد يفيد في عمله النضالي مستقبلا أما "حميد سراج" فكانت نهايته مأساوية إذ سُجن وعُذب¹ مثله مثل معظم المناضلين في القضية الجزائرية حينذاك ولم نعرف إن كان قد قتل أو أطلق سراحه ولكن سرعان ما ظهرت شخصية أخرى في رواية "المنسج" والمتمثلة في شخصية "عكاشة"، وهنا يلتقى أيضا محمد ديب بإميل زولا في ضمان استمرارية العمل النضالي والنقابي في كلا الروائين.

3.1 (الشخصيات النسائية:

لقد احتلت الشخصيات النسائية حيزا مهما في الروايات المدروسة نظرا للمكانة المهمة التي تشغلها المرأة في كلا المجتمعين وعليه قدم لنا هؤلاء الروائيون نماذج نسائية عدة نذكر منها:

1.3.1 (المرأة الأم:

لقد خصص "فيكتور هوغو" مساحة معتبرة في الجزء الأول من رواية البؤساء للحديث عن المرأة و قد أطلق اسم "فانتين" إحدى بطلاتها الأساسية عليه.

¹ Bererhi Afifa, Mohammed Dib, L'incendie, p 107.

لقد كانت حياة "فانتين" كلها عبارة عن فقر وبؤس ووحدة وإحباط وإخفاق وخيبة أمل، كانت مجهولة النسب لم يعرف لها أب ولا أم،¹ عاشت وحيدة ومحطمة نفسيا كانت في حاجة ماسة إلى الحب والحنان وإلى اسم وسمعة وعائلة إلى أن التقت بأحد الشباب الأثرياء الذي أحبته ولكنه لم يبادلها نفس الشعور بل كانت مجرد نزوة عابرة في حياته وقد نتج عن تلك العلاقة الفاشلة طفلة قدر لها هي الأخرى أن تولد وتعيش بدون اسم والدها وبدون نسب² ولكن مع ذلك أرجعت لها الأمومة بعضا من الأمل في الحياة وقررت أن تعيش مع ابنتها ولابنتها وتكون تلك الأسرة التي حرمت منها إلا أن القوانين الفرنسية في القرن التاسع عشر كانت ترفض توظيف الأمهات العازبات مما اضطرها إلى البحث عن مكان آمن وعائلة محترمة حيث يمكنها ترك ابنتها "كوزيت" مقابل مبلغ مالي و الذهاب للعمل بكل أمان، ولكن سرعان ما كشف أمرها وطردت من عملها³ مما أدى إلى عجزها عن تدبير المبلغ المالي الذي كانت ترسله شهريا إلى عائلة "تيناردييه" حيث توجد ابنتها وقد كانت هذه العائلة جشعة ولئيمة في الوقت نفسه، إذ لم يكن السيد تيناردييه يتوقف عن مطالبتها بمبالغ مالية وذلك لأبسط الأسباب و لم يكن يجد أي مانع من اختراع بعض الأكاذيب حتى يجبرها على دفع المزيد من الأموال له ، لقد كانوا يدعي مثلا إصابة "كوزيت" بمرض خطير يتطلب إحضار أدوية باهظة الثمن⁴ مما أجبر "فانتين" على بيع شعرها أولا ثم أسنانها الأمامية⁵ حتى تؤمن المبلغ المطلوب وترسله إلى "آل تيناردييه" ولتتخذ ابنتها من الموت، هكذا كانت "فانتين" تضحي بكل ما لديها من أجل ابنتها وكانت في سقوط مستمر إلى أن التقت ب"جان فالجان" في مخفر الشرطة حيث كانت تستجوب

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 150.

² المصدر السابق، ص 76.

³ المصدر السابق، ص 207.

⁴ المصدر السابق، ص 212.

⁵ المصدر السابق، ص 211، 214.

من قبل المفتش "جافير" الذي قرر سجنها لكن سرعان ما تدخل رئيس البلدية السيد "مادلين" (جان فالجان) لينقذها من مخالفه ووعدا أن يؤمن لها حياة كريمة وابنتها¹ التي سيذهب لإحضارها ولكن للأسف الشديد كانت "فانتين" في المنعطف الأخير من حياتها وقد ماتت وهي بائسة ودون أن ترى ابنتها التي كانت تتوق إلى رؤيتها قبل وفاتها.

هذا وقد كانت السيدة "ماهو" في رواية "جيرمينال" لإميل زولا أمًا مسئولة عن عائلتها، لقد كانت في صراع يومي مع الأوضاع المادية الصعبة التي كانت تنغص عليها حياتها بسبب الأجور الزهيدة جدا لأفراد عائلتها الذين كانوا يعملون بمنجم "الفورو"، لقد كانت مجبرة على استعمال ذكائها وكل الحيل الممكنة حتى تتمكن من التقشف ومن توفير العشاء يوميا لعائلتها،² كم من مرة لجأت إلى الاقتراض من البقال³ أو من بعض جيرانها حتى تحضر العشاء، لقد كانت الأوضاع لديها تزداد سوءاً يوماً بعد يوم وخاصة بعد دخول عمال المنجم في إضراب مفتوح ولكن الأمور لم تجر كما كانوا يتصورونها إذ سرعان ما نفذت المؤونة لديهم⁴ ومن ثم لجئوا إلى أكل النباتات البرية التي تنمو في بساتينهم.⁵

وفي المقابل كانت "عيني" في رواية "الدار الكبيرة" تظهر في صورة أم وحيدة أرملة شابة رفقة أربعة يتامى صغار سرعان ما توفي أحدهم وبقي لديها ثلاثة منهم، كانوا صغاراً غير قادرين على تحمل أي مسؤولية⁶ أو تخفيف العبء عن والدتهم فكم من ليلة ناموا

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 227.

² Zola Emile, Germinal, p 130.

³ المصدر السابق، ص 130.

⁴ المصدر السابق، ص 247.

⁵ المصدر السابق، ص 248.

⁶ Dib Mohammed, La grande maison, p 59.

فيها بدون عشاء¹ وكم من يوم بقوا فيه بدون لباس لائق خاصة في فصل الشتاء البارد، لقد كانوا يرتدون أسمالا بالية لا تكاد تستر أجسادهم الهزيلة والضعيفة، لقد باعت "عيني" كل ما يمكنها بيعه من أثاث لديها لتوفير المبلغ الذي لا يكاد يكفيها للخبز فقط، لقد كانت إحدى قريباتها البورجوازية لالة "حسنا" تأتي لزيارتهم من حين لآخر وتحضر لهم البعض من بقايا الخبز اليابس لديها² وكم كان ذلك يبهج هؤلاء الأطفال الذين كانوا يتلذذون بأكله رغم تواجد ذوق العفن في البعض من قطعه.

لقد كانت هؤلاء الأمهات يلجأن إلى السلوك في بعض الاتجاهات التي تتنافى مع المبادئ والأخلاق والقيم عندما توصل في وجوههن كل الأبواب وتيئسن من أوضاعهن المزرية؛ لقد مارست "فانتين" البغاء³ حتى تؤمن لنفسها ولابنتها البعض من المال الذي عجزت في الحصول عليه وخاصة بعدما باعت كل ما لديها حتى شعرها وأسنانها ولم يبق أمامها سوى ذلك المسلك الذي لم يسهم إلا في سقوطها في هوة أعمق ولم يحسن من أوضاعها على الإطلاق.

وفي المقابل فكرت عيني طويلا وقررت أن تمارس التجارة غير الشرعية بذهابها إلى مدينة "وجدة" على الحدود الجزائرية المغربية لتشتري القماش وتعيد بيعه حتى تجني بعض الفائدة من ذلك⁴ بهدف التحسين من ظروفها المادية والتمكن من توفير المأكل لأبنائها.

ولكن نهاية "عيني" كانت أحسن من نهاية "فانتين" التي مرضت ثم ماتت دون أن ترى ابنتها "كوزيت" وتحضنها لقد ماتت بائسة ومحرومة من كل شيء بينما نجحت "عيني" في

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 56, 57.

المصدر السابق، ص 95.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 211.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, p 89.

عايدة أديب بامية، ص 214.

إرسال أبنائها عندما بلغوا سن العمل إلى العمل بمعمل النسيج الموجود بالمدينة¹ وهذا ما يتجلى خاصة في الجزء الأخير من ثلاثية محمد ديب .

كما تلتقى هذه النماذج النسائية الثلاثة في كونهن أمهات تحمّلن مسؤولية أبنائهن وعائلاتهن وضحين بكل شيء من أجل إسعادهن لقد ضحين حتى بأنوثتهن وجمال أجسادهن لقد ضحت "فانتين" بأجل شيء في المرأة شعرها وأسنانها لتوفر الملابس الدافئة لابنتها وكذا الدواء عند مرضها حسب مزاعم "آل تيناردييه" أما السيدة "ماهو" و"عيني" فلم تكونا تهتمان بنفسيهما ولا بشكلهما وهندامهما بل كان همهما الوحيد هو توفير لقمة لأبنائهما وإبعاد شبح الجوع قدر الإمكان عنهم.

2.3.1 المرأة العاملة:

لقد كتب الفيلسوف و رجل الدولة الفرنسي جول سيمون (Jules Simon) عام 1861م كتابا بعنوان "العاملة" أو "المرأة العاملة" (L'ouvrière) لشجب أوضاع العمل والسكن والمأكل والأجور الزهيدة التي كانت تدفع بالمرأة إلى البغاء إضافة إلى مصيرهن البائس الذي كان يقضي عليهن بالبقاء حوالي إثني عشرة أو خمس عشرة ساعة أو أكثر في مقرات غير صحية من المصانع وفي أروقة رطبة من المناجم وتحت أسقف أكواخ عندما تعملن في المنازل.²

¹ Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 09.

² Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, p 172.

لقد جسد "إميل زولا" موضوع المرأة العاملة في العديد من أعماله وخاصة في روايتي "الخمارة" (L'assommoir) و"جيرمينال" (Germinal).¹

تبدأ المرأة العاملة في رواية "جيرمينال" يومها في الصباح الباكر أي في حوالي الساعة الرابعة صباحاً فهي تقوم بإيقاظ أفراد عائلتها من العمال ليحضروا أنفسهم ويصلوا إلى العمل في الوقت المحدد، وأثناء ذلك تحضر البعض من قطع الخبز التي تظليها بالجبن والزبدة ليتغذوا بها في المنجم ثم تُعد القهوة التي سيتناولونها قبل مغادرتهم المنزل.²

ولعل أول ما يفعله العمال فور وصولهم إلى المنجم هو الالتقاء في شبه قاعة كبيرة حيث يقومون بتدفئة أجسادهم حول نار قوية وذلك قبل النزول إلى المنجم، لقد كانت النساء العاملات يبقين في أعماق المنجم حوالي إثني عشرة ساعة وهن يدفعن عربات كبيرة ومليئة بالفحم.³

وفي رواية "الخمارة" قدم لنا "زولا" صورة أخرى للنساء العاملات في المدينة، فمنهن من كن يعملن في صقل المعادن أو في المحلات أو كبائعات للزهور، لقد كن يهرولن كل صباح في ملابسهن الضيقة، لقد كن يمشين جماعات من ثلاث أو أربع نساء تتحدثن بكل حيوية وحماسة وتعلوهن ابتسامة رقيقة⁴ وكانت بطلة هذه الرواية "جيرفيز" (Gervaise) تعمل كغسالة للملابس، وقد بدأت مهنتها هذه منذ سنها المبكر إذ لم تكن تتجاوز العشر سنوات من عمرها وهي في قريتها الصغيرة القريبة من مدينة مرسيلسا.⁵ لقد كانت "جيرفيز" عندما انتقلت للعيش في باريس تعمل مدة إثني عشرة ساعة

¹ Lindenberg Daniel et Vincent Jean Pierre, Deutsch Michel, Blanc Jacques, Germinal projet sur un roman, Christian Bourgeois Editeur, Paris, 1975, p 6.

² Zola Emile, Germinal, pp 24, 25, 26.

³ Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, pp 38, 39.

⁴ Zola Emile, L'assommoir, p 26.

المصدر السابق، ص 36.⁵

في محل السيدة "فوكونييه" (Fauconnier) لغسل الملابس ورغم ذلك لم تهمل بيتها الذي كان نظيفا ومرتباً دائماً.¹

لقد كانت "جيرفيز" تعمل بجد ونشاط وكذا كان زوجها "كوبو" إلى أن توصلوا إلى جمع مبلغ معتبر يكفيهما لتأجير محل لغسل الملابس تكون "جيرفيز" صاحبتة والمشرقة عليه ولكن سرعان ما تعرض زوجها لحادث خطير تطلب منها مصاريف كثيرة لأجل القيام بعلاجه ولكن طيبة "جيرفيز" جعلت جاراها الحداد "غوجيه" (Goujet) الذي كان يحبها ويحترمها كثيرا يعرض عليها مبلغا من المال يقرضها إياه على أن تسدده على دفعات، وبهذا استطاعت "جيرفيز" أن تؤجر المكان الملائم لها لتحقيق مشروعها، لقد كان لها سمعة طيبة وكانت تجارتها ناجحة.²

وأما النساء العاملات في بيوتهن فقد خصص لهن "زولا" الجزء الثاني من رواية "جيرمينال"، لم تكن مهمتهن أقل شقاء و عناء من النساء العاملات بل كن تمارسن العديد من المهام الصعبة والشاقة مثل "السيدة ماهو" التي ألقى على عاتقها مهمة الطبخ والغسيل والخياطة... لعشرة أشخاص مكدرين في غرفتين.³

بالنسبة "لأميل زولا"، يبدأ يوم النساء العاملات في بيوتهن على الساعة الثامنة صباحا أي أربع ساعات بعد مغادرة عمال المنجم إلى عملهم، بينما كان على زوجة عامل المنجم الحقيقية أن تسهر على تجهيز كل شيء لزوجها وأبنائها العمال إلى أن يغادروا البيت، من تحضير الغذاء الذي سيأخذونه معهم وكذا فطور الصباح،⁴ ولكن الواقع يبين أن في عائلة "ماهو ليست الأم هي من تنهض باكرا و توقظ أفراد عائلتها وتجهز لهم كل ما

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 124.

² المصدر السابق، ص 168.

³ Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, pp 98, 99.

⁴ المرجع السابق، ص 178.

يحتاجون إليه بل ابنتها "كاترين" العاملة هي الأخرى في المنجم كما كانت الطفلة المعاقة "الريز" (Alzire) الماكثة بالبيت لا تتوانى في مساعدة والدتها في الأعمال المنزلية المختلفة.¹

وعلى العموم كانت زوجات العمال في منجم "الفورو" يقضين صباحهن في جلب الماء من البئر والقيام بالشئون المنزلية من غسل للملابس المطلخة بالفحم و خياطة الملابس المقطعة وترقيع بعض القطع البالية ثم تحضير الحساء وكل هذا وسط بكاء وحركة الأطفال الصغار الذين هم بحاجة إلى الرعاية أيضا.²

وفي المقابل خصص محمد ديب مساحة معتبرة في ثلاثيته للمرأة العاملة بهدف رد الاعتبار لها بعدما همشها المجتمع وكان ينظر إليها بنظرة ازدراء معتبرا إياها مواطنا من الدرجة الثانية أو الثالثة.

لقد كان على "عيني" الأرملة الوحيدة التي تخلى عنها أقرباؤها أن تعمل كثيرا حتى تتمكن من توفير قوت أبنائها اليومي، لقد كانت "عيني" لا تفتأ تشتكي من العمل الشاق الذي أنهكها وقضى على صحتها، ويتضح ذلك في قولها: "لقد دمر هذا العمل صدري، لم أعد قادرة، باتت رجلي بدون قوة وكل ما أربحه لا يكفي لشراء الخبز الكافي، رغم أنني أعمل طول الوقت ولكن دون جدوى".³

لقد غيرت "عيني" عملها عدة مرات: لقد غزلت الصوف ونسجت "العَرَافِيات" *لقد مارست العديد من المهن ولكن الأجر بقي دائما زهيدا⁴ كما كانت تعمل ليل نهار حتى تزود من

¹ Lejeune Paule, *Germinal un roman antipeuple*, p 178.

المرجع السابق، ص 179.

³ Dib Mohammed, *La grande maison*, p 127.

المصدر السابق، ص 131.

*العراقيات: هي نوع من القبعات التي ترتديها الرجال في الجزائر.⁴

دخلها ولكن هيهات، وذات يوم لامتها ابنتها الصغرى "مريم" على عدم العمل كفاية حتى توفر لهم كل ما يريدونه وهذا ما أثار ثورة عيني التي انتهت لها لأنها تعلم في قرارة نفسها أنها عملت كل ما بوسعها وبذلت كل وقتها ومجهودها لترفع من أجرها ولكن دون نتيجة.¹ هذا وقد قام محمد ديب من خلال كلام "زينة" جارة "عيني" بإعادة الاعتبار لها: "أنا شديدة الإعجاب بشخصك، لقد كنت دائماً العاملة المثابرة كما عرفتكم، ينبغي أن تكوني مفخرة عائلتك وكل من يعيشون معك ممن يأكلون من عملك... أنا جد معجبة بشخصك! وتجب "عيني": "نعم أنا التي كنت أعمل من أجل الكل هنا...²

فمن خلال كلام زينة يتجلى دور "عيني" ويكتسب أهمية أكثر، كما كان هذا المقطع من المقاطع النادرة جداً في الرواية لقد أراد محمد ديب من خلاله رفع معنويات "عيني" كأم وكعاملة على أطفال يتامى وأم مقعدة.³

كما قدم مولود فرعون من خلال روايته "ابن الفقير" صورة للمرأة الريفية العاملة في الحقول لمساعدة زوجها نظراً لقسوة المعيشة، لقد كانت "حليمة" زوجة عم "فورولو" تأخذ بناتها وتذهب في موسم جني الزيتون لجمع حبات الزيتون بطريقة محكمة وتجهيزها لأخذها إلى المعصرة.⁴ إضافة إلى خالات "فورولو" اللاتي كن تعملن في مجالي الفخار و الصوف،⁵

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 134.

المصدر السابق، ص 58، 59.²

³ Kahdda Naget, Représentation de la féminité dans le roman algérien de la langue française, office des publications universitaires, Alger, 1991, p 45.

⁴ Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, pp 196, 197.

المصدر السابق، ص 164.⁵

لقد كن تبين الأواني الفخارية وتزينهن ببراعة شديدة،¹ وكذا كن تحكن الأغطية الصوفية والزرابي وتتفنن في تزيينها.²

هكذا كانت المرأة في كلا المجتمعين تكد وتتعب من أجل مساعدة زوجها وتقاسمه أعباء الحياة القاسية والشاقة التي يواجهانها إن كانت متزوجة أما إن كانت أرملة أو مطلقة فالعبء سيكون أثقل على كاهلها، لقد كانت أوضاع الفقر والبؤس التي مرت بها المجتمعات الغربية بفعل الحروب والثورات وكذا الثورة الصناعية التي كانت في حاجة إلى المزيد من اليد العاملة وإلى رؤوس الأموال والمواد الأولية مما جعل أرباب العمل يستغلون العمال أبشع الاستغلال وخاصة النساء العاملات اللاتي لم يكن لديهن نفس الحقوق ونفس الأجور مع الرجال؛ وكذا كان المحتل في المنطقة المغاربية يسيء معاملة العمال وخاصة النساء العاملات لقد كنن يُستغلن بمختلف الأساليب و بشتى الطرق ، لقد عملت المرأة في الحقول والمزارع، في الورش والمصانع، في البيوت والمناجم، لقد كانت تمارس أعمالا لا تتلاءم مع طبيعتها الفيزيولوجية أو النفسية ولكن لم يكن أمامها أدنى خيار لذلك.

3.3.1) المرأة النائرة:

لقد قدم إميل زولا خاصة من خلال روايتيه "الخمارة" و"جيرمينال" مجموعة من الشخصيات النسائية المتصفات بالإنفعال الشديد وبالعنف اللاتي كن يشغلن الصفوف الأولى في هاتين الروائيتين.

¹ Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre, pp 165, 166.

المصدر السابق، ص 169، 170.²

لقد كانت النساء في رواية "جيرمينال" هن الأكثر إصراراً على مواصلة الإضراب إلى أن تتحقق الأهداف المرجوة منه وكان على رأسهن السيدة "ماهو"،¹ وكذا كانت "جيرفيز" في رواية "الخمارة" ولاسيما في مشهد المغسل في الفصل الأول من الرواية، تتحول إلى وحش عندما تنقض على "فيرجيني" وتشبعها ضرباً بعدما شتمتها و أهانتها.²

وفي أجواء المغسل تلك التي كانت النساء تفقدن إنسانيتهن شيئاً فشيئاً وتتحولن إلى قطع من الوحوش الإنسانية، لقد كن تتشاجرن لأبسط الأسباب سواء عن طريق التراشق بالكلام أو عن طريق المواجهة الجسدية العنيفة.³

هذا وقد كانت "جيرفيز" تعيش في حي اسمه "لاغوت دور" (La goutte d'or) وهو حي شعبي حيث كان الكل يهتم بشئون الآخرين ويتجسس عليهم، لقد كانت نساء هذا الحي تستمتعن بنشر الشائعات الفاضحة عن الجيران، فعندما دعا "كوبو" زوج "جيرفيز" "لانتيه" (Lantier) صديق "جيرفيز" القديم ووالد ابنيها للعيش معهم في الشقة نفسها كانت نساء الحي تتوهم حدوث أشياء قذرة ومنحطة بين "جيرفيز" وعشيقها القديم ومن ثم بدأن ينشرن في هذه الشائعات،⁴ إضافة إلى ذلك، كان نجاح "جيرفيز" في عملها وفي تسيير محلها الجديد سبب حقد أخت زوجها "كوبو" السيدة "لوريو" (Mme Lorilleux) الساكنة في العمارة نفسها، فكانت لا تتردد في اختراع بعض الشائعات لفضح "جيرفيز" وللإساءة إلى سمعتها ، لقد ادعت أن "جيرفيز" قد اتخذت من جارها الحداد "غوجيه" (Goujet)

¹ Zola Emile, Germinal, pp 354, 355.

² Zola Emile, L'assommoir, pp 44 – 47.

³ Payet Marie, Place et rôle de la figure féminine chez Emile Zola à travers l'étude de trois œuvres : L'Assommoir, Germinal et La bête humaine, Académie de Kiado Budapest, 2002, pp 193, 194.

⁴ Kranowski Nathan, Paris dans les romans d'Emile Zola, Presses universitaires de France, Paris, 1968, p 71.

عشيقا لها حتى يوافق على إقراضها المال لتتمكن من استئجار محل لغسل الملابس.¹ وكذا كانت السيدة ماهو في رواية جيرمينال لا تفتأ تتشاجر مع كل المحيطين بها من زوج وأبناء و جيران² و ذلك بسبب ثقل المسؤولية على كاهلها إذ هي التي كانت تتولى مهمة إدارة ميزانية البيت الصعبة للغاية مما كان يشعرها دوما بالتوتر و الانفعال لاسيما عندما تجد نفسها عاجزة على توفير الأكل الكافي لأفراد عائلتها مما كان يدفعها إلى الثورة على كل المحيطين بها

وفي المقابل كانت نساء "دار سبيطار" في رواية "الدار الكبيرة" لـ"محمد ديب" تعشن في مساحة ضيقة وقد كان "عمر" يصفهن بسلطة اللسان والتوحش لأنهن كن يزعجنه كثيرا وكان يبرر ذلك بانغلاقهن طول الوقت في تلك المساحة المحدودة والضيقة.³ ولهذا كانت نساء ثلاثية "محمد ديب" يرفضن البقاء محبوسات في بيوتهن بل كن يرغبن في المشاركة في النضال من أجل تحرير الوطن وتحرير ذاتهن من نير العادات البالية⁴ وفي آخر الثلاثية لم تجدن أي مانع من خوض مسيرة ضد المحتل الفرنسي منددة بكل أفعاله وسلوكه الجائر ضد الشعب الجزائري⁵.

وكانت المشاجرات بين هؤلاء النسوة لا تكاد تتوقف كما كانت "عيني" من بين الأعضاء الفعاليين جدا فيها لقد جردها الفقر و البؤس من كل المشاعر الرقيقة و الجميلة حتى

¹ Kranowski Nathan, Paris dans les romans d'Emile Zola, p 71.

² Zola Emile, Germinal, pp116 et 250, 251

³ Benyekhlef Djamel, Les femmes à la frontière de l'histoire dans la trilogie de Mohammed Dib, Algérie littérature/ Action n°55, 56, Novembre, décembre 2021, édité par MARSA éditions, Paris, p 221.

⁴ Guétarni Mohammed, Littérature de combat chez Dib, Kateb et Feraoun, Editions Dar El Gharb, Oran 2006, p 63.

⁵ Benyekhlef Djamel, Les femmes à la frontière de l'histoire dans la trilogie de Mohammed Dib, p 227.

عاطفة الأمومة المفعمة بالحنان و العطف ،لقد باتت جد قاسية على أبنائها فكانت تثور عليهم باستمرار لكونهم الحلقة الأضعف في حياتها ،لم تكن تخاطبهم إلا بأساليب قاسية و عبارات جارحة غالبا ما تكون مصحوبة بالسب و الشتم و الدعاء عليهم بمختلف المصائب و لم تتوقف عيني عند هذا الحد من الشراسة بل بلغ بها الأمر إلى ضرب ابنها عمر ذات يوم عندما تأخر من الخروج من البيت بالسكين لتصيبه في ساقه¹ ، كما لم تكن تجد أي مانع من الثورة على والدتها العجوز المقعدة و كانت تنتهرها كلما أتيحت لها الفرصة لذلك،² و لم ينج من سخط عيني و ثورتها حتى زوجها المتوفى الذي كانت تحسده على ميته و راحته في قبره و تركها وحيدة و تعيسة في مواجهة مصيرها المأساوي³ ، لقد كان سلوك عيني ذاك ناجما عن يأسها الشديد وقنوطها من الحياة التي لا تراها تتحسن بل بالعكس كانت أوضاعها تزداد سوءًا يوما بعد يوم.⁴

وعلى غرار نساء "مونتسو" في "جيرمينال" و "لاغوت دور" في "الخمارة" كانت نساء "دار سبيطار" كثيرات النميمة على بعضهن البعض كما لم تكن تجدن أي مانع من إطلاق بعض الشائعات والأكاذيب عن هذه وعن تلك لذا كثيرا ما تظهرن وهن تهمسن بأحاديث سرية كما يظهر بين "عيني" وجارتها المفضلة "زينة".⁵

هكذا كانت حياة نساء الدار الكبيرة وشبيهاتها في رواية جيرمينال خاصة غير سهلة، لقد كان "حديثهن لا ينتهي و أصواتهن ترتفع باستمرار، تعنف وتوبخ أطفالهن وقد وجد ديب

¹ Dib Mohammed, La grande maison ,p12

المصدر السابق، ص 12، 32، 35.

المصدر السابق، ص 30، 84.

⁴ Benyekhlef Djamel, Les femmes à la frontière de l'histoire dans l trilogie de Mohammed Dib, p 220.

⁵ Dib Mohammed, La grande maison, pp 75, 76.

فيهن مخلوقات غريبة لا تعرف الراحة أبداً، وكان قلبه يمتلئ رحمة ورأفة وحنانا تجاههن ذلك أنه يرى بأن الأعمال الشاقة التي تقوم بها النساء لا تسمح لهن بوقت للراحة".¹

لقد أصر "محمد ديب" في معظم رواياته -على غرار "إميل زولا" الذي أعطى في العديد من رواياته الحصة الكبرى للمرأة- على إسناد "الأدوار الرئيسية [...] إلى المرأة، فعدد بطلاته يفوق عدد أبطاله مثل "عيني" في "الدار الكبيرة" و"عرفية" في "رقصة الملك" و"زكية" في "صيف إفريقي" [...] فلقد هيمنت "عيني" على الدار الكبيرة وقد تفوقت على الشخصيات المذكورة في الرواية حتى أن الوطني "حميد سراج" كان محجوباً بعض الشيء نتيجة سيطرة الشخصيات النسائية في "دار سبيطار" وكان الرجال هناك في ظل النساء وبدت هؤلاء وكأنهن ربات العائلات الفعليات".²

وبهذا حاول كل من "إميل زولا" و "محمد ديب" - اللذان عاشا في بيئة كانت تحتقر المرأة وتعتبرها كائناً ضعيفاً ومن الدرجة الثانية- إعادة الاعتبار للمرأة كونها نصف المجتمع والعمود الأساسي للأسرة وأي مجتمع يقمع المرأة ولا يعطيها الفرصة لتعمل وتعبّر عن أفكارها وآرائها وتسهم في بناء المجتمع وتربية النشأ تربية سليمة ونافعة فهو مجتمع أعرج ومريض وعليه كان هذان الأدبيان يهدفان إلى الوقوف في وجه كل الأفكار الرجعية والبالية التي تعمل على التقليل من شأن المرأة وجعلها مجرد آلة لصنع الأطفال لأن الله سبحانه وتعالى زودها بالعقل والمنطق والحكمة ويمكنها أن تقف أمام أخيها الرجل وتساعدته لإيجاد الحلول الناجعة للخروج من مشكل الفقر والبؤس الذي تعاني منهما مجتمعاتهم.

عايدة أديب بامية، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 - 1967)، ص 214.¹

المرجع السابق، ص 214.²

1.4 (شخصيات الأطفال:

لقد كان الطفل في المجتمعات الغربية ولاسيما في القرن التاسع عشر والمجتمعات المغاربية أثناء فترة الإحتلال الفرنسي من بين الشرائح الاجتماعية الأكثر تضررا بعد النساء، لأنه كان في حاجة إلى الحماية وإلى الغذاء الجيد وإلى الدراسة والتربية الحسنة حتى يكون فردا صالحا في المجتمع ولكن ظروف الفقر والعوز دفعته إلى تحمل المسؤولية مبكرا ليعيل نفسه ويسهم في الدخل العائلي مما أدى إلى استفحال ظاهرة تشغيل الأطفال التي سنتطرق إليها فيما يلي

1.4.1) الطفل العامل:

ولقد أقرت مجموعة من النقابيين وعلماء الاجتماع أمثال "إنجلز" (Engels) و "ماركس" (Marx) و"تريستان" (Tristin) و"بلانكي" (Blanqui) وغيرهم أن ظاهرة تشغيل الأطفال قد انتشرت بشكل لا نظير له في القرن التاسع عشر، لقد كان آلاف الأطفال ابتداءً من سن السادسة من عمرهم، يُشغلون في المصانع والورش والمناجم بهدف رفع الأرباح بأقل تكلفة ممكنة وهذه هي السياسة المنتهجة في النظام الرأسمالي الذي لا يهتم بالوسائل بل بالنتائج لقد كان أرباب العمل يلجئون إلى تشغيل الأطفال لأنهم لا يعرفون حقوقهم ولا يطالبون بها ولا يحرضون على الإضراب أو الاحتجاج، إضافة إلى أن أجورهم قليلة جدا بالمقارنة مع أجور الكبار.¹

هذا وقد ورد في مذكرات أحد العمال بمنطقة "ليون" بفرنسا وهو "نوربيرت تروكان" * (Norbert Truquin) في كتابه "مذكرات ومغامرات بروليتاري

¹ Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, p 108.

* اشتغل "نوربيرت تروكان" في مصانع النسيج بليون (فرنسا) منذ سن السابعة من عمره.

(Mémoires et" aventures d'un proletaire) أنه تحتوي كل ورشة على ست آلات للنسيج كانت تعمل عليهن شابات تقمن بنسج الحرير، لقد كن يعملن من الساعة الثالثة والنصف صباحا إلى الحادي عشر ليلا في فصل الصيف ومن الساعة الخامسة النصف صباحا إلى الحادي عشرة ليلا في فصل الشتاء، ويشير إلى أن هناك حولي سبعة آلاف ورشة من هذا النوع في منطقة ليون إضافة إلى كون أماكن العمل غير صحية على الإطلاق لقد كانت مظلمة فلا الشمس تدخلها ولا الضوء ولا الهواء بل هي كثيرة الرطوبة لذا كانت معظم الفتيات تصبن بأمراض تنفسية وهناك من بينهم من كن يشفين وهناك من يلقين حتفن.¹

مع الملاحظة أن نوبرت تروكان" من نفس جيل "إميل زولا" ونشر مذكراته عام 1887م أي سنتان بعد صدور رواية "جيرمينال" 1885 لذلك كانت كل الانتهاكات والتجاوزات التي ذكرها هي نفسها ما حدث وما ورد في رواية "جيرمينال".²

ومن أهم الأطفال العمال في رواية "جيرمينال" الطفل "جانلان" (Jeanlin) .

لقد كان "جانلان ماهو" (Jeanlin Maheu) في بداية الرواية يبلغ من العمر إحدى عشرة سنة وهو الابن الثالث ضمن سبعة أطفال لعائلة "ماهو"، وهو صغير وضعيف البنية، جاهل وشريد، وهو يتأسس جماعة من الأطفال تتشكل خاصة من الطفلين "بيبير" (Bebert) صاحب الإثنى عشرة سنة والطفلة "ليديا" (Lydie) صاحبة العشر سنوات، لقد كان "جانلان" يعمل في أعماق المنجم وقد تعرض لحادث خطير إثر انهيار حجري و أصيب في رجله مما أدى إلى إعاقة.³

¹ Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, pp 109, 110.

² المرجع السابق، ص 111

³ Psichari Henriette, Anatomie d'un chef- d'œuvre : Germinal, p 115.

لقد كانت كل عائلة "ماهو" تستيقظ على الساعة الرابعة صباحا وقد كان "جانلان" يستعد ويخرج ليلتقي برفيقه "بيبير" و"ليديا" و عندما يصلون إلى المنجم يركبون كلهم كبارا وصغارا عربات تنزلهم إلى عمق الأرض أي حوالي 554 مترا تحت الأرض ليمشوا بعد ذلك حوالي كيلومترين ليصلوا إلى مكان الحفر ثم يشرع هؤلاء الأطفال بدفع العربات المملوءة بالفحم والثقيلة جدا،¹ و يعمل هؤلاء الأطفال لمدة لا تقل عن الإثنى عشرة ساعة في اليوم² وفي المقابل كان الطفل "عمر" في رواية "المنسج" لـ"محمد ديب" يبلغ من العمر أربع عشرة سنة وهو يتيم الأب يسكن في "دار سبيطار" وهو الابن الأوسط لـ"عيني" وكانت أمه هي العائل الوحيد له ولأختيه ولكنهم عندما وصلوا السن التي تسمح لهم بالعمل، خرجوا ليعملوا في ورشات النسيج المنتشرة في مختلف أنحاء تلمسان حينذاك.

لقد كان "عمر" على غرار "جانلان" وعائلته يخرجون في الصباح الباكر أي عند الفجر ولا يعودون إلا في وقت متأخر من الليل، فبمجرد ظهور الخيط الأبيض من الفجر ينطلق "عمر" إلى سوق الغزل ليوصل الصوف ثم يعود إلى المنسج ليرتب ويهيء بعض المواد الضرورية خاصة لصباغة الصوف كما كان يحضر أيضا طلبات العمال ثم يذهب إلى بيت صاحب المنسج "ماحي بوعنان" لكي يقتني من السوق كل ما تحتاجه زوجته ومن ثم يعود إلى الورشة حيث يتابع مهامه طول النهار بكل اجتهاد، لقد كان يبذل قصارى جهده ليرضي الكل ولكن دون نتيجة.³

¹ Psichari Henriette, Anatomie d'un chef- d'œuvre : Germinal, pp 116, 117.

² المرجع السابق، ص 120.

³ المرجع السابق، ص 67، 68.

إضافة إلى ذلك كانت ورشة النسيج شبيهة إلى حد معين بالمنجم في تواجدها تحت الأرض وفي أجوائها المظلمة ورطوبتها الخانقة زد على ذلك صوت الآلات المزعج وضجيج العمال وصراخهم.¹

لقد كانت أوضاع الفقر والبؤس التي كانت عائلتا "عمر" و"جانلان" تعيشان فيها هي العامل الأساسي الذي أرغم هذان الطفلان اللذان كان ينبغي أن يكونا في المدرسة وتحت مسؤولية عائلتيهما وأن يعيشا طفولتهما ويستمتعا بحقوقهما على العمل طول اليوم في أجواء مظلمة ورطبة غالبا ما تتسبب لهما ولأمثالهما بمختلف الأمراض النفسية والجسدية.

2.4.1) الطفل والعائلة:

تعج الروايات الموجودة بين أيدينا بأطفال ينتمون كلهم إلى عائلات فقيرة وبأسة عاجزة على توفير الظروف المعيشية الملائمة لهم و التي تمكنهم من العيش الكريم وتضمن لهم نموا جسديا وعقليا ونفسيا سليما ليصبحوا أعضاء ناجحين وفعالين ونافعين لمجتمعاتهم ولكن الواقع القاسي والصعب كان عكس ذلك تماما، لقد جعل الفقر الأهل يرون أولادهم عبئا ثقيلا ملقى على كاهلهم لأنهم يستهلكون فقط ولا ينتجون لهذا كان الأهل يثرون عليهم لأبسط الأسباب ويغضبون كلما طلبوا الأكل أو اللباس أو أي احتياج آخر لأنهم كانوا يشعرون بالإفلاس والعجز عن تلبية طلباتهم.²

¹ Psichari Henriette, Anatomie d'un chef- d'œuvre : Germinal, pp 23, 67, 91.

² Dib Mohammed, La grande maison, pp 127, 128.

Zola Emile, Germinal, pp 134, 135.

وعليه كان الأهل ينتظرون بفارغ الصبر بلوغ أطفالهم السن التي تمكنهم من الالتحاق بالعمل حتى يسهموا في مصاريف البيت، هكذا كانت "السيدة ماهو" في آخر رواية "جيرمينال" تصرح لـ "إيتين" أنها تنتظر وصول الطفلين الصغيرين "لينور" (Lénoire) وهنري (Henri) السن التي تسمح لهما أيضا بالعمل وبيع المال،¹ وفي المقابل أرسلت "عيني" ابنتها إلى معمل النسيج فور بلوغهما السن المطلوب لذلك.² مع الملاحظة أن كل أبناء عائلة "ماهو" محرومون من التعليم رغم وجود مدرسة في الحي وقد استفحلت هذه الظاهرة في فرنسا عام 1865م حيث بلغ عدد الأطفال غير المتمدرسين حوالي ستمائة ألف طفلا،³ وكذا كانت ابنتا "عيني" "عويشة" و"مريم" لا تعرفان المدرسة كدأب معظم البنات الجزائريات حينذاك أي أثناء فترة الاحتلال الفرنسي

وكذا نجد السيدة "تيناردييه" في رواية "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" ترفض ابنها "غافروش" (Gaveroche) وتقرر التخلص منه و هو في سن مبكرة ملقية إياه للشارع ومحتفظة بابنتها وكان كلما قدم لزياتها تسأله عن سبب مجيئه وكانت دائما تبدي عدم رغبتها في رؤيته.⁴

وكانت "عيني" أيضا في "الدار الكبيرة" لا تشفق على أبنائها وخاصة "عمر" رغم أنه الابن الذكر الوحيد لديها وأن المجتمع الجزائري يفضل الذكر على الأنثى، ولكن "عيني" لم تكن تنظر إليه من هذه الزاوية بل كانت تراه مثل أختيه عبئا ثقيلا ألقي على كاهلها وأنهكها وحبذا لو تجد وسيلة للتخلص منه، فها هي تقول وهي في قمة الغضب: "لقد سلطكم الله عليّ مثل الدود لتلتهموني".⁵ كما أنها لم تجد أي مانع من ضرب "عمر" بالسكين الذي

¹ Zola Emile, Germinal, p 551.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 151.

³ Psichari Henriette, Anatomie d'un chef- d'œuvre : Germinal, pp 123, 124.

⁴ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, pp 123, 124.

⁵ Dib Mohammed, La grande maison, p 32.

كان في يديها لتصيبه في ساقه وتجرحه وكانت تصب عليه لعناتها عندما فر منها إلى خارج البيت،¹ إضافة إلى مشاهد أخرى و هي كثيرة تبين مدى قسوة "عيني" على أبنائها فهي لا تفتأ تلعنهم وتدعي عليهم بمختلف أنواع الشرور والمصائب.

هكذا كان الفقر والبؤس يجرّد هؤلاء الأمهات من أجمل ما في المرأة وهي عاطفة الأمومة المليئة بالحنان والمحبة والعطف والتي تجعل صاحبها في مرتبة سامية.

3.4.1 طفل الشوارع:

لقد خصص كل من "فيكتور هوغو" في رواية "البؤساء" و"محمد ديب في ثلاثية "الجزائر" فصولاً كاملة لأطفال الشوارع الذين أصبحوا ظاهرة منتشرة في المجتمعين الغربي و المغربي معاً بشكل فاضح وتعتبر من أهم النتائج الناجمة عن أوضاع الفقر والبؤس المستقلة في المجتمعين .

لقد أبدع "فيكتور هوغو" في تصوير هؤلاء الأطفال الذي لقبهم بأطفال باريس المشردين والضائعين والتائهين والبائسين والمرفوضين والمعوزين والأبرياء، لقد احتضنت باريس هؤلاء الأطفال إلى درجة أنها لو سئلت عن يكون هؤلاء الأطفال أو ذلك الطفل ستقولك إنه صغيري.² لهذا أطلق "فيكتور هوغو" على هؤلاء الأطفال لقب "فتيان باريس" أو بشكل أدق "فتى باريس" (Le gamin de Paris)،³ يهوى فتى باريس المدينة والوحدة ويمضي معظم وقته تائها وحالماً، يعرف كل أزقة باريس ولا أحد يماثله في ذلك،⁴ فتان باريس هم

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 12.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, p 104.

³ المصدر السابق، ص 105.

⁴ المصدر السابق، ص 108، 109.

الأطفال الفارون أو المطرودون من عائلاتهم، يحبذون الفضاء الخارجي حيث يتمكنون من التنفس بعمق، الضواحي هي ميدانهم ولا يفتنون يرددون أغاني ساقطة وبذيئة، إنهم يتواجدون هناك بعيدا عن كل الأنظار، يلعبون ولا يشعرون بأي مسؤولية، إنهم سعداء، وعندما يلحون شخصا غريبا يتذكرون أنه عليهم أن يعرضوا عليه بضاعتهم حتى يربحوا قوت يومهم، لقد كانت تلك البضاعة تتمثل في جورب قديم من الصوف و غيرها من الأشياء القديمة التي يعثرون عليها في الشوارع.¹

يسكن أطفال باريس في منازل مهجورة أو لم يكتمل بناؤها بعد أو تحت الجسور حيث تنطلق كل الجرائم فهي بيئة لكل الآفات،² وكانت لغتهم أيضا مشوهة وردية جدا و كان مستواهم الفكري جد محدود،³ إضافة إلى مستواهم المادي الذي كان مزرر للغاية إذ لم يكونوا يجدون ما يأكلونه إلا نادرا لهذا غالبا ما يلجئون إلى السرقة وكذا كان لباسهم مجرد أسمال بالية كانوا يلتقطونها من المزابل ليستروا بها أجسادهم النحيفة والضعيفة.⁴

أما محمد ديب فهو لم يقتصر في تصويره لأطفال الشوارع على أطفال المدن الكبرى فحسب مثلما فعله "فيكتور هوغو" وإنما قدم لنا أيضا صورة عن أطفال القرى وبالذات قرية "بني بولن" في رواية "الحريق". لقد كان هؤلاء الأطفال يستمتعون بطاقة خارقة للطبيعة ومن هنا كان السارد يتساءل عن مدى ديمومة هذه الطاقة والحيوية أو إمكانية انطفائها شيئا فشيئا بمرور السنوات وذلك بفعل الفقر والبؤس والجهل والوقوع في آفة الإدمان عن الخمر أو الدخول للسجن...⁵

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 3, p 109.

² المصدر السابق، ص 110.

³ المصدر السابق، ص 112.

⁴ المصدر السابق، ص 122.

⁵ Dib Mohammed, L'incendie, p 166.

لقد كان هؤلاء الأطفال يتدفقون من كل أنحاء القرية وهم مزودون بعزيمة كبيرة ورغبات مكبوتة، لقد كانت كل الأدوات التي يلتقطونها من الشوارع أو من المزابل كالعلب الفارغة أو المكسورة وبعض الجرائد والمجلات الدعائية التي لا تحمل أي قيمة و لكنها كانت تولد لديهم فرحا كبيرا يصل حد النشوة وقد كانوا يتنازعون حول هذه الأدوات التافهة وكان كل من يتحصل على إحداها يشعر وكأنه فاز بالجائزة الكبرى.¹

لقد كان هؤلاء الأطفال على غرار "أطفال باريس" يعيشون في فقر مدقع وكانوا أكثر بؤسا من أطفال المدينة، لقد كانوا يشبهون الجراد في نحافتهم وعصبيتهم وكانت ملابسهم عبارة عن أسمال بالية وأحذيتهم جلود أغنام مربوطة بخيوط من الحلفاء، لم تكن ألعابهم مألوفة ومعروفة في مدينة تلمسان كما كانت الحيوانات هي رفيقهم الوحيد، لقد كانوا منغلقيين على ذاتهم ومزدرين لكل ما هو ليس من القرية، لم يدخلوا المدارس وكانوا يجهلون القراءة والكتابة وكل المعارف العلمية والميكانيزمات المتحركة في الكون والطبيعة وكذا كل ما يتعلق بالحساب والرياضيات ولكنهم في المقابل كانوا يفقهون جيدا كل ما له علاقة بتربية الحيوانات وأسرار الزراعة وغرس النباتات والأشجار.²

وأما أطفال المدينة، فإنهم يتشكلون من أطفال المدارس وأطفال الشوارع معا، لقد كانوا أكثر وحشية وعنفا من أطفال القرية، لقد كانوا يتعاركون باستمرار عن طريق الحجارة وغالبا ما كانت تلك المعارك تنتهي بجروح متفاوتة الخطورة مع الإشارة إلى أن هذه الصراعات كانت تدوم أحيانا بضعة أيام، وعندما نذكر أطفال "الرحيبة" فكأننا ذكرنا الشياطين الحقيقيين، لقد كانوا يطاردون خصومهم حتى وسط المدينة حيث الحوض الكبير، لقد كانوا يزرعون الرعب والخوف في نفوس السكان كما دأبوا على إشعال النيران

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 166.

المصدر السابق، ص 8، 9.

في الأماكن المخصصة للنفايات ثم يجتمعون حولها ويصدرون أصواتا غريبة حتى يكسروا جدار الصمت بها.¹

هذا ويتميز أطفال الشوارع عند "محمد ديب" مقارنة مع "أطفال باريس" عند "فيكتور هوغو" بالعنف الذي يصل أحيانا إلى درجة الوحشية، لقد كان هؤلاء يجسدون الغضب والسخط والرفض الكامل في صدر كل جزائري تجاه الأوضاع المزرية التي كان يعيشها تحت وطأة المحتل الفرنسي الذي سلبه ممتلكاته وحرمه من كل حقوقه. وبهذا تصبح صورة الطفل الجزائري سلبية للغاية في نظر الفرنسيين إلى درجة أنهم كانوا يخيفون به أبناءهم عندما يرفضون الاستجابة لأوامرهم بقولهم: "إن لم تهدأ سأنادي الطفل العربي".² وهكذا بات الطفل العربي رمزا للتوحش والتخلف والبدائية.

ومن أهم أطفال الشوارع نذكر الطفل "غافروش" الذي لعب دورا أساسيا ومهما في رواية "البؤساء"، كما أصبح على مر العصور رمزا للفقر والبؤس والمعاناة لقد تولى عنه والداه وألقيا به للشارع الذي احتضنه وأصبح مأواه الوحيد وأضحى أطفال باريس إخوته وعائلته، لقد اعتاد على الشارع ولم يعد يشعر بالراحة إلا فيه،³ لقد كان "غافروش" طفلا مزعجا وفطنا وكان يروح ويجيء، يغني ويلعب، يضحك عندما ينادوه بالصعلوك الصغير ولكنه كان يغضب عندما ينادوه بالأزعر، لم يكن له مسكن ولا خبز ولا نار ولا محبة ولكنه كان سعيدا لأنه كان حرا طليقا.⁴ إضافة إلى ذلك، كان "غافروش" طيب القلب، حنونا على الفقراء والبؤساء مثله، لقد أسرع إلى تقديم المساعدة لطفلين صغيرين كانا تائهين مرعبين حائرين وكانا يبكيان بشدة،⁵ ذهب إليهما وحاول طمأنتهما ثم أخذهما إلى

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 25, 26.

² Dib Mohammed, L'incendie, p 166.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, p 123.

المصدر السابق، ص 123.

⁵ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, pp 476, 477.

المخبزة واشترى الخبز بالقطعة النقدية الوحيدة التي كانت في جيبه وتقاسمه معها وكان مسرورا جدا وهو يراهما يلتهمان خبزهما بشراهة نظرا لجوعهما الشديد،¹ ومن ثم أخذهما إلى ما يسميه ببيته حتى يرتاحا من المشي طول النهار، ويتمثل ذلك البيت في تمثال عملاق أجوف على شكل فيل يحتوي على فتحة تسمح بالتسرب إلى داخله،² كان "غافروش" يحاول طول الوقت أن يزرع الراحة والطمأنينة في نفس الطفلين وكان لهما بمثابة الأب والأم.³

وفي المقابل كان "عمر" إحدى الشخصيات الأساسية في ثلاثية "محمد ديب"، فقيرا وبائسا مثل "غافروش" ويمضي معظم وقته في الشارع مع رفاقه أو بمفرده، ولعل الفرق بينهما أن عمر كان يعود كل ليلة إلى بيته حيث والدته وأخته إضافة إلى ذهابه إلى المدرسة التي يتلقى فيها أساسيات القراءة والكتابة والحساب. لقد كانت والدته عمر تعمل كل صباح على تحفيزه على مغادرة البيت والالتحاق برفاقه في الشارع لقد كانت تردد دائما على مسامعه أن الرجال لا يمكثون في البيت وأن البيت للنساء والبنات فقط⁴ كم من مرة كان "عمر" يهوم في الشوارع وحيدا معبئا بحزنه وغضبه الشديد معا نتيجة سوء أحواله وكم من مرة فكر في عدم العودة إلى البيت ولكنه سرعان ما يغير رأيه بعدما يهدأ ويعود إلى رشده.

وكان "عمر" أيضا على غرار "غافروش" يشفق على الفقراء ويدافع على المستضعفين ومن بين الذين حظوا بعطفه طفل ضعيف وشاحب، خجول ومنطوي على ذاته، كان دائما يقف بعيدا عن سائر الأطفال، فلم يكن كأترابه يذهب في طلب الخبز بإلحاح من

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 479.

² المصدر السابق، ص 485، 488.

³ المصدر السابق، ص 493، 494.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, pp.11, 12.

زملائه، لم يكن "عمر" يعرف اسمه لذا لقبه بـ "صاحب سترة كاكي" لأنه كان دائماً يرتدي سترة بلون كاكي، لقد كان "عمر" يتظاهر بالجري في فناء المدرسة وكان عند وصوله أمامه يتعمد في إسقاط قطعة خبز ثم يواصل ركضه وكأنها وقعت منه عن غير قصد ثم يختبئ ليرى كيفية استيلاء "صاحب سترة كاكي" على قطعة الخبز، وكم كان شعور "عمر" بالفرح عظيماً حتى كانت عيناه تغورقان بالدموع من شدة تأثره بالمشهد، هكذا كان عمر يساعد زميله بأسلوب راق مما يظهر نبل شخصيته وسمو أخلاقه.¹

إضافة إلى ذلك لم يكن "عمر" يلجأ إلى السرقة حتى في أصعب الظروف مثلما كان يفعل "غافروش" و "أطفال باريس" في رواية "البؤساء"، لأنه كانت لديه "أساليب كثيرة تمكنه من الحصول على الطعام سواء في المدرسة أو في البيت الأسري، ففي "دار سبيطار" تعود على تقديم بعض الخدمات للجيران مقابل بقايا الطعام وهي عادة لا تزال تمارس في الأحياء الشعبية [...] ومن الخدمات التي يقدمها أن يحمل قفة إحدى الجارات أو أن يشتري لها الفحم أو أن يملأ دلوها بالماء أو يحمل لها عجينة الخبز إلى الفرن وكانت هذه الجارة تكافئه عند عودته بقطعة خبز مع فاكهة أو فلفل مشوي وإذا تبقى لها من الغذاء أو العشاء شيئاً قدمته له في طبق مع قطعة خبز".² كما اعتاد "عمر" أيضاً "على التوجه يومياً إلى السوق مباشرة بعد خروجه من المدرسة في فترة الصباح على الساعة الحادية عشر للقيام بمهمة كان يكرها ويمقتها، حاملاً معه قفة، فيبحث عن الخضر الفاسدة التي ترمى أرضاً لعدم صلاحيتها، فإذا وجد منها ما ينفع أسرع بالتقاطها

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 10.

جور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقديّة، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر 2013، ص

Dib Mohammed, La grande maison, p 9.

ودسها في قفته وبعد عودته من هذه الجولة تكون نفسه قد امتلأت غضبا وحقدا من ظلم الحياة له".¹

علاوة على ذلك، لم يكن "غافروش" يشعر بظلم الحياة له مثل "عمر" بل كان دائم البشاشة والفرح إلى آخر لحظة من حياته إذ مات وهو يغني ويرقص² وقد يعود ذلك إلى جهله وأميته وعدم اصطحابه للمناضلين الذين يوعونه ويكشفون له عن مدى بؤس حياته وتدهور أوضاعه عكس "عمر" الذي كان متعلما إلى حد معين وكان لا يفتأ يصاحب المناضلين والثوار ويجالسهم ويستمتع إليهم لذا كان مدركا لبعض الحقائق الخفية التي لا يمكن للعامة إدراكها.

مع الملاحظة أن "غافروش" شارك في معركة المتاريس وكان يساعد الثوار بإحضار الرصاص لهم، لقد اتسم بالشجاعة الخارقة رغم صغر لقد كان شديد السعادة في مساعدة رفاقه من المقاتلين بالفعل وكانت روحه الصغيرة عظيمة.³

لقد كانت مشاركة "غافروش" هذه بدافع الحماسة الزائدة والرغبة في مساعدة الثوار الذين كان يعرف البعض منهم وأراد الوقوف إلى جانبهم وتشجيعهم، صحيح أنه تأثر ببعض الأفكار المنتشرة في عصره وببعض الشعارات ولكنه لم يكن يعي كنهها ومغزاها بل كان يرددها بشكل آلي، لقد تشاجر مثلا، مع أحد الجنود وواجهه بكل قوة وشجاعة ورفض أن يناديه بالصعلوك بل أصر أن يناديه بالمواطن.⁴

جور أم الخير، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، 263، 264.¹

Dib Mohammed, La grande maison, pp 152, 153.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 5, Volume 3, pp 244, 245.

³ Narteau Carol, La littérature française au 19 ème siècle, pp 38, 39.

⁴ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 3, pp 192, 193.

أما "عمر" فقد كان أكثر وعياً بواقعه وبمأساة شعبه ويعود ذلك إلى احتكاكه الكبير بـ"حميد سراج" وهو من أهم المناضلين السياسيين في روايتي "الدار الكبيرة" و "الحريق" ومجالسته للعجوز المحنك "كومندار" في رواية الحريق الذي كان يسرد عليه قصة أهل "بني بوبلن" العليا والسفلى وكيفية استيلاء المعمرين على أراضي الفلاحين، كما كان يحدثه عن إمكانية وقوع شيء جديد عن قريب،¹ ولقد كان العجوز "كومندار" بالنسبة لـ "عمر" هو الكلمة الحية لهؤلاء الرجال الصامتين المحيطين به وهو في غياب والد "عمر"، اليد التي تمسك به وتساعد على الدخول إلى عالم الكبار.²

لقد كان مسار "عمر" في الثلاثية يزخر بآباء روحيين له، ففي "الدار الكبيرة" كان منبهاً بـ"حميد سراج" وفي "الحريق" بـ"كومندار" الذي كان يلقيه تاريخ العالم وتاريخ وطنه وفي "المنسج" كان عكاشة يعلمه احترام الذات ومعنى الكرامة، ومن خلال هذه الرحلة أدرك "عمر" التناقضات التي كان يرى من خلالها عالمين مختلفين وطبقتين اجتماعيتين متباينتين ومنفصلتين، لقد أدرك أن التعليم الذي كان يُقدم له لا يتماشى مع واقعه ولقد كانت كلمة المعلم باللغة العربية قد أيقظته بصورة مفاجئة.³ وفي نهاية الثلاثية يصبح "عمر" شاباً و"يقف بوضوح كرمز للتمرد الجزائري المتزايد، لقد شاهد ميلاد تطور الروح الثائرة للسكان بينما اكتسب هو وعياً شخصياً عن الحياة السيئة التي كان يحبها مواطنوه وهو في طريق نمائه العقلي والروحي والعاطفي والبدني، قد تعلم المعنى الحقيقي للاحترام الإنساني، لذلك فالبطل عمر قرر ألا يستريح حتى يحقق لنفسه ولل بشرية هذا الوعي

¹ Dib Mohammed, L'incendie, pp 64, 65.

² Bonn charles, La littérature algérienne, p 66.

³ Amhis Ouksel Djoher, Dar Sbitar, pp 85, 86.

والاحترام والتفرد الجديد، ويبدو أن ديب قد ركز على حاجة شعبية ملحة في استرجاع الكرامة البشرية أكثر من تركيزه على أي شيء آخر.¹

5.1 (الشخصيات البورجوازية:

رغم تركيز جل الروايات المدروسة في هذا البحث على الشخصيات الفقيرة والبائسة إلا أنها لم تهمل الشخصيات البورجوازية لأنها جزء مهم في حياة هؤلاء الفقراء، وقد تكون هي من تسببت بشكل مباشر أو غير مباشر في فقرها وبؤسها، ومن أهم هذه الشخصيات نذكر السيد "غيلنورماند" (Gillenormand) وهو جد "ماريوس" الذي تزوج "كوزيت" في رواية "البؤساء"، لقد كان عجوزا متميزا وأصيلا وبورجوازيا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى لقد تجاوز التسعين سنة وكان يمشي باستقامة ويتحدث بصوت عال ولم يكن يرتدي النظارات إلا من أجل القراءة.²

لقد كان السيد "غيلنورماند" من أتباع المذهب الملكي (Royaliste) وهو بورجوازي كبير يبغيث الثورة ونابليون، ولقد كان صهره في نظره من قطاع الطرق وإنسان مجنوم،³ رغم أنه شارك في حروب نابليون وارتقى إلى رتبة عقيد وتحصل على وسام الشرف بعدما أبلّي البلاء الحسن في معركة أوسترليتز، لقد حرّمه العجوز "غيلنورماند" من ابنه "ماريوس"، لقد كان يحضر مرة كل شهرين أو ثلاثة أشهر إلى إحدى الكنائس بباريس حيث كانت الآنسة "غيلنورماند" خالة "ماريوس" تصطحبه لحضور القداس، ولقد كان

أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 99.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, p 125.

³ Aref Mahmoud, La pensée sociale et humaine de V. Hugo dans son œuvre romanesque, étude critique et littéraire, Librairie Slatkine, Genève, Librairie Champion Paris, 1979, p 218.

يختفي وراء عمود ويتأمل في ابنه "ماريوس" وكان يبكي طول الوقت، لم يكن باستطاعته الاقتراب منه حتى لا يتسبب له في مشاكل مع جده وحتى لا يحرمه من الإرث المعتبر الذي سيرثه من خالته.¹ ولم يكتشف "ماريوس" حقيقة والده ومدى محبته له إلا بعد وفاته مما أدى إلى نشوب خصام حاد بينه وبين جده أدى به إلى مغادرة البيت.²

كما كانت عائلة "غريغوار" (Grégoire) في رواية "جيرمينال" لـ"زولا" تنتظر إلى العمال الفقراء نظرة استعلاء وازدراء، ويتجلى ذلك في المشهد الذي يبين زيارة السيدة "ماهو" إلى هذه العائلة ذات يوم عندما نفذ لديها كل شيء المال و المئونة ، لقد كانت هذه العائلة تجود عليها ببعض الملابس المستعملة لها ولأولادها ولكنها في تلك المرة كانت تطمع في أن يعطوها قطعة المئة فلسا.³ ولكنها سرعان ما فوجئت بنظرات الانزعاج والاحتقار من قبل السيد والسيدة "غريغوار" فور رؤيتها برفقة ابنيها كما أخبرتها السيدة أنها لا تعطي الفقراء الأموال أبدا مما ملأ قلب السيدة "ماهو" بالخيبة واليأس إلى حد امتلاء عينيها بالدموع من وقع الصدمة.⁴

هذا وقد كان السيد "غريغوار" ينتقد كثرة الأطفال عند عمال المناجم كما كان يلومها هي شخصيا عندما علم أن لها سبعة أطفال، ثم سرعان ما غير لهجته وحاول التظاهر بالشفقة عليها قائلاً: ولكن أيتها المرأة الصالحة يجب أن نكون صادقين، إذ العمال ليسوا بحكماء كفاية حتى يدخروا بعض الأموال ليجدوها في الأوقات الصعبة كالفلاحين بل يبدرونها في شرب الخمر مما يدفعهم غالبا إلى الاستدانة ومن ثم يعجزون على توفير قوت أطفالهم اليومي،⁵

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, pp 145, 146.

² المصدر السابق، ص 158، 159.

³ Zola Emile, Germinal, pp 104, 105.

⁴ المصدر السابق، ص 106.

⁵ المصدر السابق، ص 107.

وبهذا كان السيد "غريغوار" يلقي كل اللوم على العمال ويحملهم مسؤولية أوضاع الفقر والبؤس التي يعيشونها وليس ضعف الأجور ولا أوضاع العمل القاسية .

وكذا كانت ابنتا السيد "غوريو" في رواية "الأب غوريو" لـ"بالزاك"، وبعد زواجهما من رجال أرستقراطيين وأثرياء أصبحتا تخرجان من والديهما الذي باتتا ترياه من دون مستواههما الاجتماعي لذا ابتعدتا عنه فلم تكونا تزورانه إلا نادرا وكانتا ترفضان زيارته لهما أيضا.¹ وهكذا أنشأ الثراء هوة واسعة بين الأب وابنتيه .

وفي المقابل كانت البورجوازية "لاله حسناء" في رواية "الدار الكبيرة" تزور "عيني" من حين لآخر بحكم صفة القرابة البعيدة التي تجمعهما، لقد كانت تحضر معها بقايا الخبز اليابس الملطخة أحيانا ببعض بقايا الأكل وقد كانت "عيني" تعمل على ترطيبها عن طريق البخار حتى يتمكن أطفالها من أكلها، لقد كانت زيارات "لاله حسناء" جد منتظرة من عائلة "عيني"،² كما كان "عمر" يزورها في بيتها أحيانا ليطلب منها قطعة خبز وغالبا ما كانت تلك القطعة تحمل رائحة الرطوبة بل العفونة أحيانا ولكن رغم ذلك كان يستمتع بذوقها.³

هذا وغالبا ما كانت "لاله حسناء" تزور "عيني" لتطلب مساعدتها خاصة عندما تحضر عرس أحد أبنائها، لقد كانت تشغل "عيني" لساعات طويلة ودون أي مقابل اللهم إلا بقايا بعض المأكولات.⁴ لقد كانت "لاله حسناء"، مثل الكثير من البورجوازيين حينذاك، تنتقد بشدة السياسيين والمناضلين أمثال "حميد سراج" وغيره، ويتجلى ذلك في قولها: أليس من الأفضل له أن يتزوج ويكون عائلة بدون إضاعة وقته في خطابه التافهة التي ستقوده

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, pp 95– 99.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 97.

المصدر السابق، ص 96.³

المصدر السابق، ص 97.⁴

إلى السجن،¹ وكذا قالت عن بعض السياسيين الذين سجنوا من قبل السلطات الفرنسية: "إن هؤلاء الذين يعملون في السياسة يشوشون عقول الناس"،² كما لا تجد أي مانع من إهانتهم واحتقارهم في قولها:

"ويريدون أن يتحدوا الفرنسيين، هل لديهم أسلحة؟ هل لديهم العلم والمعرفة؟ ليس لديهم سوى جنونهم وبؤسهم، فليهدئوا فذلك أحسن لهم، وهل يستطيعون محاربة الفرنسيين؟ [...] إنهم أوغاد، هؤلاء الذين يريدون إزاحة الفرنسيين، وهل يقدرّون على تسيير أمور الدولة؟"³

ومن ثم انتقلت إلى عمر - الذي كان أمام آلة الخياطة وهو يتم بعض الأعمال التي كلفته بها والدته - قائلة: "فما بال هذا، هل يتعلم الحرفة جيدا؟ إن يأتيك بعشرة فلوس في اليوم فهذا جيد، إنه مجرد أنثى، آه! الفتاة أحسن منه، إنه طول اليوم متواجد بالبيت مسكينة أنت يا عيني! لأنك فريسة أبنائك العديمي الإحساس، إنهم يمتصون دماءك و معهم لن تحققي أي شيء".⁴

ولكن "عمر" لم يحتمل كل تلك الكلمات الجارحة والنافذة كالسم إلى أعماق النفس وخرج عن صمته قائلا: "أنا أذهب إلى المدرسة وأتعلم، أريد أن أتعلّم وعندما أكبر سأربح الكثير من المال"⁵، ولكن سرعان ما أجبتّه بتبرم قائلة: "تخلى عن هذه الأفكار، يجب عليك أن تعمل كالحيوان إن أردت فقط أن تحيا. وهل الذين لم يذهبوا إلى المدرسة ماتوا من الجوع؟ التعليم ليس لك! قمل يريد أن يرتفع إلى أعلى المستويات، أصمت يا بذرة السكير، أنت مجرد ذرة غبار، ونفاية تلتصق بنعال الشرفاء من الناس، وهل ذهب والدك إلى المدرسة؟

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 85, 86.

المصدر السابق، ص 85.

المصدر السابق، ص 84.

المصدر السابق، ص 86.

المصدر السابق، ص 86.

و جدك و أسلافك و كل عائلتك و كل الذين نعرفهم؟ يجب أن تتعلم أن تكون رجلاً وإلا ستُداس تحت الأقدام ، يجب أن تتحمل قسوة الآخرين وأن تكون مستعداً لمواجهة القسوة بالقسوة و لا تترجى السعادة، من تكون، من تكون لتترجى السعادة؟ لا تترجى أن تعيش هنيئاً".¹

لقد كانت كلمة "لالة حسناء" قاسية جداً على "عمر" الطفل صاحب الإثني عشرة سنة كما كانت مفعمة بمختلف أنواع الحقد والاحتقار، لأن "لالة حسناء" لم تكن تتقبل خروج "عمر" وعائلته ومن هم من نفس مستواهم من حال الفقر والبؤس وتتحسن أحوالهم ليرتقوا ربما إلى نفس مستواها الاجتماعي حتى لا تفقد مكانتها الراقية وقدسيته أمامهم،² لقد كانت "لالة حسناء" تحتاج إلى هؤلاء الفقراء لترضي غرورها فتتكبر عليهم وتمارس نوعاً من النفوذ والسلطة أمامهم لأنها في نظرها الأقوى والأحسن لذلك لا تجد أي مانع من إصدار أحكام قاسية عليهم أو إعطائهم أوامر يجب عليهم تنفيذها في الحين كما كانت تستغل "عيني" في تكليفها بمهام عديدة دون مقابل بالطبع³ وكانت "عيني" لا تجرؤ على الرفض أو المعارضة رغم عدم رضاها عن ذلك و لكنها كانت تكتفي بالسمع و الطاعة و التنفيذ لأنها كانت بئسة وضعيفة ومسكينة.

إضافة لما سبق، كان "قارة علي" في رواية "الحريق" أحد أعيان قرية بني بوبلن بضواحي تلمسان ويقدمه المؤلف كالتالي: "كان السيد "قارة" شاحب البشرة، رداؤه يدل على أنه ميسور الحال، شاربه يمتد على وجهه وقد كانت سمعته هي ضمان لحمايته من سكان بني بوبلن السفلى كما كان يشعر أن الفلاحين الذين ينتمون إلى أدنى الدرجات لا

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 87.

² المصدر السابق، ص 92.

³ المصدر السابق، ص 97.

يحترمونه بما فيه الكفاية".¹ لقد كان "قارة علي" شديد الغرور والكبرياء وكان يزدري الفلاحين وسكان بني بوبلن كثيرا ولا يفتأ يصفهم بأرذل الصفات ويقول أنهم "يستنجون بالحجارة بدل أن يغسلوا مثلما يليق بالمسلمين الأمناء"²، كما قال عنهم أنهم قذرين ولم يوجدوا على هذه الأرض إلا ليلوثوا كل شيء ولو ذهبوا إلى الجنة لملئوها ببرازهم³، ولم يكن الفلاحون يجرؤون على مواجهته بل كانوا يحتملون كل انتقاداته ويفضلون الصمت اللهم إلا القلة القليلة جدا من الشباب ممن يملكون الجرأة الكافية لمواجهته ومن بين هؤلاء "سليمان المسكين" الذي كان يخاطبه بكل شجاعة و يتجلى ذلك في قوله "انظر يا سيد قارة، إلى أشجار الزيتون وإلى الكروم وإلى المزارع المخضرة أليست جميلة؟ أشعر بقلبي ينفث ويتسع، سهل من الرضا ومحيط من القناعة وجبل من الفخر بل ومن الكبرياء أيضا. ومن أين يخرج هذا كله؟ من أيدي الفلاحين، هل هؤلاء هم من يلوثون الأرض؟ أكيد لا ، بل إنهم يجميلونها، يمكننا القول أن وجودهم أسهم في إنشاء هذه الجنة فوق الأرض".⁴

هكذا كانت الشخصيات البورجوازية سواء في الروايات الفرنسية أو المغاربية شخصيات مغرورة ومتكبرة وتسعى دائما إلى توسيع الهوة بينها وبين الفقراء كما لا تفتأ تشعرهم بأنهم أقل شأنًا منهم وهم ملزمون بإبداء كل مشاعر التقدير والاحترام نحوهم.

لقد وظف الروائيون هذه النوعية من الشخصيات لإبراز هذا الفرق بين عالم الغنى وعالم الفقر ولتوضيح درجة الفقر واليأس والمعاناة لدى هؤلاء المعدمين.

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 68.

المصدر السابق، ص 60.²

المصدر السابق، ص 67.³

المصدر السابق، ص 67.⁴

6.1 شخصية الشعب (البطولة الجماعية):

لم يشغل الشعب أدواراً مهمة أو أساسية في الأعمال الأدبية الفرنسية الجادة والراقية إلا بعد نهاية الثورة الفرنسية وعندما بدأت الطبقات الشعبية المتوسطة تتدخل في السياسة، وعليه فإن حضور الشعب في الرواية لم يكن ظاهرة خاصة بالجمهورية الثالثة المتميزة بعدد الإصدارات الروائية الكثيرة التي يتواجد فيها الشعب سواء في المدن أو في الأرياف والقرى، ومن أهم الأدباء الذين منحوا الأدوار الأساسية للشعب في القرن التاسع عشر نذكر: "جورج ساند" (Georges Sand) و"فيكتور هوغو" (Victor Hugo) و"بالزاك" (Balzac) و"فاليس" (Vallès) و"أوجين سو" (Eugène Sue) و"إميل زولا" (Emile Zola) وغيرهم...¹

هذا وقد قال "فيكتور هوغو" في مقدمته لرواية "البؤساء" أنه أراد من خلالها محاربة العذاب الاجتماعي الذي أنشئ بصورة مفتعلة نتيجة العادات والقوانين معرقلاً، بفعل إنساني، الأقدار الإلهية ومن هنا جاء المشكل الثلاثي الذي يطرح انحطاط الرجل عن طريق البروليتاريا وانحلال المرأة بسبب الجوع وقصور الطفل عن طريق الجهل.²

هذا وقد قدم هوغو جماعات شعبية كثيرة و متنوعة في رواية "البؤساء" نذكر منها: أصدقاء جماعة (أ،ب،ج) وإخوان وأخوات "غافروش وجنود" و"اترلو" وراهبات المعبد وسجناء سجن "لاكادين" (La cadène) والثوار المتمردون في معركة المتاريس بباريس،³ وعلى العموم لقد كان شعب باريس هو البطل الفعلي في رواية البؤساء، لقد قام "فيكتور

¹ Wolf Nelly, Le peuple dans le roman français de Zola à Céline, Presse Universitaire de France, 1990, pp 11, 12.

² Renoucrier Charles, Victor Hugo et la philosophie, Editions les champs de la liberté, p215.

³ www.groupugo.div.jussieu.fr/histoire sociale et roman de la misère, p13.

هوغو" بإحداث نوع من التقاطع بين مصائر هؤلاء البؤساء بصورة محكمة وغير قابلة للفصل :جماعة من الطلبة وعصابة الأشرار ثم عائلة مالكة لنزل تحولت إلى مجموعة من المنحرفين وسجين هارب من السجن وعجوز مهتم بالنباتات وشرطي مهمته مراقبتهم، وقد أصبح كل واحد منهم شكلا نموذجيا لسكان باريس، وإن استثنينا "آل تيناردييه" وعصابة السيد "مينات"، وسنجد كل هؤلاء في معركة المتاريس بشارع "شانفروري" للمطالبة بتحقيق الحرية والعدالة.¹

وبهذا تكون رواية "البؤساء" قد غطت تقريبا كل المجال الاجتماعي والجغرافي، ابتداء من "الملك لويس الثامن عشر" و"لويس فيليب دي أورليان" ووزرائه وولاته مروراً بمختلف أشكال البورجوازية الباريسية كالسيد "غيلنورماند" و"ماريوس" وأصدقاء ال(أ،ب،ج) وكل متغيرات البورجوازية الصغيرة التي يمثلها السيد "مابوف" (Mabeuf) و"فوشلوفان" (fauchelevent) والباعة المتجولون وأطفال باريس الذين يعيشون في الشوارع إضافة إلى البستاني وحفار القبور والأسقف إلى غير ذلك.² وبهذا يكون أهل باريس قد اتخذوا في هذه الرواية بعدا روائيا فعليا وفرضوا ذاتهم كشخصية أساسية فيها.³

علاوة على ذلك، كانت معظم الشخصيات الممثلة للشعب في رواية البؤساء من الفقراء والمعدمين والبانسين وهم كما يسميهم "هوغو" الفئات الضحلة من المجتمع وأغلبهم من المهمشين ولا يمارسون أي عمل يتقاضون أجرا عليه، لقد كان للبعض موارد مالية

¹ Laparra Marceline sous la direction de Preiss Nathalie, Pivot Jean-Marie, Yon Jean Claude ,Le peuple parisien au 19eme :entre sciences et fictions, Presses Universitaires de Strasbourg,2013, p 61

² Histoire sociale et roman de la misère ,p 2

³ Sous la direction de Bergez Daniel ,Lauvergnat-Gagnière Christian, Anne Paupert, Stalloni Yves , Vannier Gilles, Precis de la littérature française, Armand Colin ,2eme édition ,Paris 2009, p224

مجهولة المصدر والبعض الآخر يتلقى معاشات ضئيلة جداً، لقد كان عالم الشغل هو الغائب الأكبر في رواية البؤساء.¹

إضافة إلى ذلك، كان الأدباء الواقعيون أمثال "بالزاك" و"ستندال" و"تولستوي" يتحدثون دوماً (...) عن أكبر المشاكل المعاصرة في حياة الشعب، أما مغلاتهم وتفخيماتهم الأدبية فهي دائماً متسمة بهموم الشعب وآلامه.²

وقد قام "بالزاك" صاحب المجموعة الروائية الضخمة بعنوان "الكوميديا الإنسانية" بالتطرق إلى مختلف الشرائح الاجتماعية، كالطبيب والفلاح ورجل الدين والعامل والحرفي... الخ كما سلط الضوء على أهل باريس وحياتهم المليئة بالمتناقضات سواء عند البورجوازيين أو عند البسطاء من الطبقات الشعبية والفقيرة وكذا كشف لنا عن حياة أهل القرى بكل ما تحمله من صعوبات وعراقيل وآفات، ومن أهم الروايات التي كانت فيها البطولة جماعية رواية "الشوان" (Les Chouans) و"الفلاحون" (Les paysans) كما تدل عليه العناوين إضافة إلى رواية "الأب غوريو" التي كان لمقيمي نزل "فوكير" حيث كان يقطن البطل "الأب غوريو" دوراً مهماً في هذه الرواية.³

هذا وحسب الدارس "ألان كوبري" (Alain Coupri)، يبقى "إميل زولا" روائي الشعب في الذاكرة الجماعية للمتلقي الغربي بفضل السينما والبرامج الدراسية التي فتحت المجال

¹ Laparra Marceline, Le peuple parisien au 19eme siècle, p 60

² جورج لوكاتش، بلزاك والواقعية الفرنسية، ترجمة محمد علي اليوسفي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدّين، طبع بالتعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس تونس، ط1، 1985، ص 21.

³ Lacretelle de Jacques , Maurois André, Guillemin Henri, Ikor Roger, Moreau Pierre, Roy Claude, Sigaux Gilbert, Touchard Pierre-Aimé, Zumthor Paul, Victor Hugo, Librairie Hachette, Paris, 1967, p 134.

واسعا أمام روايتي "جيرمينال" (Germinal) و"الوحش البشري" (La bête humaine).¹

كما يعود اهتمام "زولا" بالشعب وإدراجه في رواياته قبل رواية "الخمارة" ورواية "جيرمينال" أي إلى عام 1871م مع رواية "لاكوريه" (La curée) التي تكشف عن خبايا أحياء باريس الشرقية وسكانها الذين سلموا أنفسهم للمضاربين وفي رواية "جوف باريس" (Le ventre de Paris) في عام 1873م يسلط الضوء على المواجهات الرمزية بين "البدنين" من بورجوازي الإمبراطورية والهزليين من المثاليين الديموقراطيين،² ولكن رغم كل ذلك فإن رواية "الخمارة" (L'assommoir) هي التي تتصدر روايات "زولا" في توظيفها للشعب، لقد كشف لنا من خلالها بدقة شديدة عن حقيقة سكان الأحياء الفقيرة لأنه كان هو ذاته قد سكن فيها فيما بين 1858 و 1862م كما بحث كثيرا وجمع معلومات كثيرة عن حي "لاغوت دور" (La goutte d'or) حيث كانت تدور أهم أحداث الرواية، كما سلط الضوء أيضا على عالم الورش والأكشاك وعمال البناء وبائعي الأزهار على الأحياء الشعبية بباريس.³

وقد كانت الطبقات العمالية أيضا في عصر "زولا" تتعت بالطبقات الخطيرة وكان الشعب يوصف بصفات سلبية كالحيوانات والأطفال والمتوحشون إلى غير ذلك، ولقد قدمت رواية "الخمارة" شعبا عنيفا ومنحطا ومعتوها ثم شريرا ومدمنا على الكحول.⁴ ولكن سرعان ما

¹ Couprie Alain, Emile Zola, Arnaud Colin, 1992, p 85.

² المرجع السابق، ص 85، 86.

³ المرجع السابق، ص 86.

⁴ Lambert Cécile, Le peuple dans le roman français de Zola à Céline, DESS en informatique documentaire sous la direction de Marie Odette Ollier, Ecole Normale Supérieure des sciences de l'information et des bibliothèques, Université Claude Bernard, Lyon, 1995, p 29.

تغير الخطاب عن الشعب مع الجمهورية الثالثة وذلك بفضل الإصلاحات الاجتماعية الكثيرة والمذاهب الرامية إلى إعادة إدماج الطبقات الشعبية في المجتمع.¹

وفي المقابل كان الشعب بمختلف شرائحه حاضرا بقوة في الروايات المغاربية من سكان يجمعهم حيز مكاني واحد مثل سكان "دار سبيطار" في رواية "الدار الكبيرة" لـ"محمد ديب" على غرار سكان نزل "فوكير" في رواية "الأب غوريو" لـ"بالزك" كما يمكن أن تجمعهم رقعة أكبر لتشمل حيا أو قرية أو مدينة بأكملها مثل عمال منجم "الفورو" بمدينة مونتسو في "جيرمينال" وعمال ورشات الخياطة في رواية "الخمارة" لـ"إميل زولا" ويقابلها مجموع الفلاحين وسكان بني بوبلن العليا والسفلى في رواية الحريق لمحمد ديب وعمال المناجم في رواية "الأرض والدم" لـ"مولود فرعون" و"التيوس" لـ"إدريس شرايبي" بالإضافة إلى سكان قرى "إبغيل نزمان" في روايتي "الأرض والدم" و"الدروب الشاقة" لـ"مولود فرعون"، وسكان الربوة المنسية (تاسغا) وسكان "ثالا" في "الأفيون والعصا" لـ"مولود معمري" وكذا عمال ورشة النسيج في رواية "المنسج" لـ"محمد ديب".

لقد قام "محمد ديب" في ثلاثيته على غرار "فيكتور هوغو" في رواية "البؤساء" برسم "لوحة ضخمة للجزائر عشية الحرب العالمية الثانية [...] يعرف القارئ العناء المادي والنفسي الذي عاشه الجزائريون كما يعرف سبب القلق الذي أشعل نار الثورة في الجزائر بعد قليل والواقع أن بطل الثلاثية الحقيقي هو الجزائر نفسها"² لهذا أطلق عليها "محمد ديب" اسم ثلاثية الجزائر، كما كانت "الدار الكبيرة رمزا لمدينة تلمسان "الغارقة في فقر مدقع وحيف وحرمان و"عمر" البطل الجائع اليتيم يرى في أسرته معاناة الجزائر في ظل إدارة استعمارية مستبدة تنهب خيراتها تاركة الإنسان الجزائري عاجزا حتى عن تأمين قوت

¹ Lambert Cécile, Le peuple dans le roman français de Zola à Céline, p 29.

² أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر والدار التونسية للنشر تونس، (د،ط)، (د،ت)، ص 98.

يومه. إن الدار الكبيرة صورة صادقة عن الحياة القاسية [...] إن الدار الكبيرة إنذار مسبق للمحتل من أن الثورة قادمة رايتها الحرية ووقودها أفراد الشعب الجزائري الذين ملوا حياة البؤس والعبودية"¹ وهكذا فتحت رواية "الدار الكبيرة" مجال الحضور والكلام لشعب بأكمله.²

أما رواية "الحريق" فقد عبرت عن "تلاحم الوطنيين المخلصين واتساع دائرة الوعي الوطني لدى الفلاحين واستغلال الأقلية الدخيلة للأغلبية الأصلية بأشنع وأشنع صورة، إن الحريق رمز للثورة المشتعلة التي ستتأصل جذور الاستعمار إلى الأبد وتكون شعبية وشاملة.³ وتسرد علينا هذه الرواية أحدث إضراب الفلاحين ضد المعمرين بعدما أدركوا استغلال هؤلاء لهم،⁴ على غرار عمال منجم "الفورو" بمونتسو الذين قرروا الدخول في إضراب للوقوف في وجه أرباب العمل الذين يستنزفون صحتهم ووقتهم وحياتهم في سبيل تحقيق أكبر نسبة من الأرباح.

وفي رواية "المنسج" (Le métier à tisser) "صور الكاتب ازدياد الوعي لدى العمال بمصدر بؤسهم وشقائهم،⁵ لقد كان هؤلاء العمال "رغم انتمائهم جميعا إلى الطبقة الشعبية الكادحة يختلفون كثيرا في الأفكار والأمزجة والأهواء وينعكس هذا في تعبيرهم عن وجهات نظرهم في مختلف القضايا الاجتماعية أو السياسية ولكنهم لا يخرجون، على أية حال، عن اتجاهات سياسية ثلاثة كانت قوية الحضور على الساحة الجزائرية في الثلاثينيات والأربعينيات فهناك الاتجاه الديني السلفي الذي كانت تمثله "جمعية العلماء"

¹ ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع المدينة الجديدة تيزي وزو، 2002، ص 30، 31.

² Amhis-Ouksel Djoher Dar Sbitar, p 17.

³ ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، ص 31، 32.

⁴ Yetiv Isaac, Le thème de l'aliénation dans le roman maghrébin d'expression française (1952 – 1956), Faculté des arts, Université de Sherbrooke, Quebec Canada, 1972, p 79.

⁵ ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، ص 32.

ونجده ممثلاً [...] في شخصية "الأمين" هناك اتجاه حزب الشعب الذي يمثله "عكاشة" إلى حد ما وهناك الاتجاه الثوري اليساري الذي يمثله "حمزة".¹

هكذا كان الشعب كله في الثلاثية في حال غليان ورفض للواقع البائس الذي فرض عليه منذ أمد بعيد وثورة بهدف تغيير الأوضاع وتأمين حياة كريمة والحصول على حقوقه المسلوبة.

وأما "مولود معمري" فقد قدم من خلال "الربوة المنسية" (La colline oubliée) صورة لمجتمع مغلق على نفسه وسكوني ، و[رواية] سبات العادل [هي] صورة لمجتمع قلق وفي تساؤل مستمر عن مصيره أما رواية "الأفيون والعصا" فهي صورة مجتمع في صراع مرير وحرب حامية الوطيس لاستعادة كرامته، فالكاتب بحسه الفني ووعيه [...] عرف كيف يعطي لنا مجتمعا في عدة أوضاع فهو القائل: النائمون في الربوة المنسية يصحون في بضعة أعوام فدائيين في الأفيون والعصا".²

إضافة إلى ذلك، قام الروائي المغربي "إدريس شرايبي" ومن خلال روايته "التيوس" (Les boucs) على تسليط الضوء على نفر من المهاجرين من شمال إفريقيا يتكون من اثنين وعشرين مهاجرا يعيشون حياة البؤس والتهميش في المجتمع الفرنسي.³ وقد كان "التيوس" هو الاسم الذي كان يطلق على هؤلاء المغتربين التي كانت حياتهم تفتقر إلى كل ما يضمن كرامة الإنسان، كما تقترب هذه الرواية من رواية "الخمارة" لـ"إميل زولا" في تقديمها للمهاجرين -هجرة داخلية- بكل ما وقعوا فيه من سلوك مشين وسيئ كالسرقة

¹ أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص 294.

مصطفى ولد يوسف، ص 57.

³ Van AertsSannerien, L'immigration maghrébine vue au miroir du roman , Driss Chraïbi, les boucs 1955 et Tahar Ben Jelloun, Au pays 2009, une étude comparée, Janvier 2016, Université de Leyde, Département de Français, p8.

والنفاق وإدمان الكحول والزنا إلى غير ذلك بفعل أوضاعهم السيئة وحياتهم القاسية جدا وصعوبة التأقلم مع أجواء المدينة الكبيرة و الغريبة. وفي المقابل كان المغتربون في رواية "التيوس" يبحثون عن ذاتهم عن هويتهم وعن حقوقهم التي سلبها منهم المحتل الفرنسي عندما احتل منطقة شمال إفريقيا ولكنهم عند وصولهم إلى بلد المحتل بلد حقوق الإنسان والحريات اصطدموا بمجتمع يرفضهم وينظر إليهم نظرة احتقار.

وبهذا توصل الشعب في المجتمعين الفرنسي والمغربي إلى فرض نفسه على الساحة العالمية بفضل خروجه إلى الشوارع للمطالبة بحقوقه وكسر جدار الخوف الذي فرضته عليه الأنظمة الإقطاعية والديكتاتورية في أوروبا والاحتلال الفرنسي في المنطقة المغربية مما دفع العديد من الروائيين إلى تجسيد ذلك من خلال أعمالهم التي خصصت للشعب حيزا مهما فيها إضافة إلى احتلاله الأدوار الهامة فيها بعدما كان غائبا أو شبه غائب في الأعمال الكلاسيكية في القرن السابع عشر وما قبلها.

(2) البناء الفني للشخصيات:

(1.2) مرجعيات الأسماء و الألقاب:

يعد الاسم من المكونات الأساسية لهوية الإنسان ومن دونه يبقى مجهولا و الاسم هو ما يميز الشخص عن سائر الأشخاص الأخرى، و من هذا المنطلق كان الروائيون يحرصون على انتقاء أسماء شخصياتهم بدقة شديدة "تختزل صفاتها لأن هناك رابطا منطقيا بين الشخصية واسم العلم الذي يدل عليها".¹ ومن خلال عملية انتقائه لأسماء شخصياته، يضع المؤلف صوب عينه مجموعة من المعطيات كبعض الخصائص الفيزيولوجية

¹ سمير روجي الفيصل، الرواية العربية، البناء والرؤيا، مقارنة نقدية، اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د، ط)، 2003،

والاجتماعية والنفسية والفكرية والعقائدية إلى غير ذلك ومن ثم فهو يعمل على أن تكون أسماء شخصياته "متناسبة ومنسجمة بحيث تحقق للنص مقروئته وللشخصية احتمالياتها ووجودها وهذا ما يؤدي إلى تنوع واختلاف أسماء الشخصيات الروائية".¹

وبالنسبة لـ "إميل زولا" فيمثل الاسم لديه أهمية قصوى ويوضح في أحد تصريحاته أنه يضع كل أنواع النوايا الأدبية في الأسماء ويقول أنه يجد صعوبة كبيرة في اختيار أسماء شخصياته لأنه يبحث دائما عن نوع من الانسجام والتناغم بين الأحرف حتى يتمكن المتلقي من اكتشاف الشخصية من خلال مجموع المقاطع التي تشكل اسمها وعندما نعثر على اسم من هذا المنوال ونألفه سيصبح في نظرنا روح هذه الشخصية ذاتها ومن ثم لا يمكننا تغيير هذا الاسم لأن ذلك يعني قتل الشخصية والقضاء عليها.²

وتحمل الأسماء العديد من الأبعاد والدلالات، نذكر منها:

1.1.2) الأسماء ودلالاتها على الانتماء الاجتماعي:

لعل العامل المشترك بين الروايات الفرنسية والروايات المغاربية هو تعيين البورجوازيين بأسمائهم العائلية مسبقة بسيد أو سيدة كعلامة احترام لهم.

لقد كان العجوز "بونمور" وهو يكلم نفسه، لم يخرج عن تلك القاعدة وقد كان وهو يتحدث عن مدير المنجم يقول عنه السيد "هينبو" (Hennebeau).³

¹ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمان، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1991، ص 247.

² Becker Colette, Emile Zola, pp 70, 71.

³ Zola Emile, Germinal, p 38.

وكذا كان السيد والسيدة "غريغوار" (Grégoire) وابنتهما "سيسيل" يلقبون بالسيد والسيدة والآنسة¹ لأنهم ينتمون إلى طبقة الأغنياء وأصحاب الأملاك.

أما عمال المناجم والتجار الصغار فقد كانوا يُعينون من خلال أسماء عائلاتهم مثل "ماهو" (Maheu) و"شافال" (Chaval) و"راسونور" (Rasseneur) و"ميغرا" (Maigrat) أو عن طريق بعض الألقاب التي أطلقها عليهم أصدقاؤهم أمثال العجوز "بونمور" (Bonnemort).

وأما زوجات عمال المناجم فكن يحملن أسماء عائلات أزواجهن، كعلامة لتبعيتهم لأزواجهن ولكن بصيغة المؤنث مثلاً كانت زوجة "ماهو" تحمل اسم زوجها بالمؤنث أي (La Maheude) وكذا زوجة "بيرون" (Pierron) (La Pierronne) ولم يكن يستخدم لقب السيدة لهن كما كان ضمير المؤنث بالنسبة لعمال المناجم يحمل معنى الدونية والابتذال.²

وفيما يخص زوجات أصحاب المحلات "كالسيد راسونور" (Rasseneur) صاحب الحانة و السيد "ميغرا" صاحب محل البقالة فكان يضاف إليهن لقب السيدة، رغم أن زوجيهما لا ينتميان إلى الطبقة البورجوازية أو النبيلة إلا أنهما يعدان من أصحاب الأملاك الصغار، والملاحظ أنه غالباً ما كان أهل "موننتسو" ينادون البقال باسم عائلته "ميغرا" دون إضافة لقب السيد ولكن الملحوظ أن زوجة "ماهو" كانت تناديه بـ"السيد ميغرا" خاصة عندما تكون بحاجة إلى أن يعطيها بعض البضاعة³ على سبيل القرض وهذا دليل على التبعية الاقتصادية لهذا البقال وسائر البقالين الآخرين التابعين لشركة المناجم وتبعاً

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 106 – 108.

² Becker Colette, *Emile Zola*, p 71.

³ Zola Emile, *Germinal*, pp 103, 104.

لأوامر الشركة كان هؤلاء البقالون يسمحون أو يرفضون القروض لعمال المناجم وعائلاتهم.¹

وقد كان الذين يشغلون وظائف اجتماعية معينة ينادونهم بأسماء عائلاتهم مسبقاً بوظيفتهم أمثال: "القس جوار" و"الطبيب فاندرهاغن".²

وفيما يتعلق بالأطفال والخدم فيستخدمون أسماءهم فحسب ، كخادمة "آل غريغوار" واسمها "هونورين"،³ إضافة إلى أبناء "ماهو" "زكري" و"جانلان" و"لينور" و"كاترين" و"اليزر" و"إيستيل".

وفي المقابل كان الروائيون المغاربة أيضاً يراعون المقامات والطبقات الاجتماعية أو الوظائف السامية التي تشغلها الشخصيات، لقد كان معظم سكان دار سبيطار وخاصة الرجال وكذا معظم الفلاحين في رواية الحريق وعمال ورشة النسيج في رواية "المنسج" إضافة إلى معظم سكان "تاسغا" في "الربوة المنسية" و"إغيل نزمان" في "الأرض والدم" غير معروفين اللهم إلا الشخصيات الأساسية والتي أسندت إليها الأدوار الأساسية أو الثانوية في الرواية أمثال "عيني" و"زينة" و"منصورية" والعجوز "ماما" و"حميد سراج" و"با دعدوش" و"بن يوب" و"بن سالم عدة" وغيرهم...

أما الأثرياء وأصحاب الأملاك فكان يضاف إليهم كلمة "سيد" أو "سيدة" أو "سي" أو "لالة" أمثال "سي صالح" مالك دار سبيطار و"لالة حسناء" العجوز الثرية التي كانت تزور "عيني" من حين لآخر في الدار الكبيرة، والسيد "قارة علي"⁴ إضافة إلى المعمرين

¹ Zola Emile, Germinal, p 72.

² Becker Colette, Emile Zola, p 72.

المرجع السابق، ص 72.

⁴ Dib Mohammed, L'incendie, p 67.

المستولين على أراضي "بن بوبلن" أمثال السيد "فيلار"¹ والسيد "ماركوس"² والسيد "أوغوست"³ في رواية الحريق، إضافة إلى "سي صالح" صاحب المزرعة في رواية "التوت المر" لـ "محمد لعروسي المطوي"⁴ وكذا كانت زوجة "أعمر أوقاسي" الفرنسية في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون" تلقب بالسيدة لأنها كانت قادمة من مجتمع مختلف ومن بلد أجنبي وخاصة والأهم أنها تنتمي إلى ثقافة المستعمر الذي كان يمثل السلطة والقوة حينذاك⁵ إضافة إلى صاحبة الحانة، التي كان المغتربون الجزائريون يترددون عليها خاصة "أعمر أوقاسي" وقريبه "رابح أوحموش"، السيدة "إيفون" لأنها كانت من أصحاب الأملاك.⁶

هذا ولم تكن النساء في معظم الروايات المغاربية تنسب إلى أزواجهن مثلما هو الحال في الروايات الفرنسية بل كن بدون ألقاب مثل "عيني" و"زينة" و"منون" عند "محمد ديب" و"عزي" و"دافدا" و"سكورة" عند "مولود معمري" و"فاطمة" و"عائشة" و"مبروكة" عند "محمد لعروسي المطوي" و"كامومة" و"شابحة" عند "مولود فرعون" إلى غير ذلك، ولعل المرأة الوحيدة التي نسبت إلى زوجها هي "سيمون" في رواية "التيوس" لـ "إدريس شرابي" حيث ذكرت في بعض المواضع من الرواية باسم "السيدة والديك"،⁷ لأنها فرنسية وتعيش في فرنسا حسب القوانين والأعراف الفرنسية أما العقلية المغاربية خاصة أثناء الاحتلال الفرنسي فكانت محافظة جدا فلم تكن المرأة تخرج للعمل إلا إذا كانت أرملة ولا معيل لها ففي هذه الحال تصبح مجبرة على الذهاب للعمل من أجل إعالة أبنائها مثل "عيني".

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 35.

المصدر السابق، ص 77.

المصدر السابق، ص 76، 77.

محمد لعروسي المطوي، التوت المر، ص 8، 12.

⁵ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, pp 26, 28.

المصدر السابق، ص 50، 62.

⁷ Chraïbi Driss, Les boucs, p 36.

أما الأطفال فلا تذكر أسماءهم في الغالب اللهم إلا البعض منهم ممن يشغلون الأدوار الرئيسية أمثال "عمر" وأخته "عويشة" و"مريم" وجارتهم "زهور" كما يعتمد فنيا على عدم إعطاء البعض أسماء مثل الطفل الفقير والخجول الذي أطلق عليه اسم "صاحب سترة كاكي" حتى يكشف عن مأساته ، أما الطفل الغني فلم يكتف "محمد ديب" بذكر اسمه فحسب بل لقبه أيضا : "إدريس بلخوجة" و هو طفل جريء وواثق من نفسه لقد نجح في جلب عدد كبير من الأطفال حوله، كُلُّ منهم يحاول عرض خدماته عليه عله يرضى عليه ويجود عليه بالقليل مما لديه.

أما الأطفال المشردون و أطفال الشوارع سواء في المدينة أو في قرية "بني بوبلن" فلم تُعرف أسماؤهم مثلهم مثل أطفال باريس في رواية البؤساء "ل" "فيكتور هوغو" الذي يصورهم وهم يتصارعون يوميا من أجل الحصول على رغيف خبز يسدون به جوعهم أو خرقة من الخرق البالية التي يلتقطونها من المزابل ليستروا بها أجسادهم الهزيلة، هكذا كان أطفال "محمد ديب" أيضا في عراك مستمر مع بعضهم البعض فكل حي يحاول أن يهزم أطفال الحي الآخر ولكن يبقى هؤلاء مجرد نكرات لأن المجتمع لفظهم فلا مكان لهم فيه.

2.1.2) الأسماء و الألقاب ذات الأبعاد الفيزيولوجية والنفسية:

قد يختار الأديب أسماء أو ألقابا لشخصياته تعكس بصورة دقيقة ومحكمة بعض السمات النفسية أو الجسدية الخاصة جدا بالشخصية حتى باتت جزءا لا يتجزأ منها وسمه جوهرية فيها.

من بين الألقاب التي وردت في رواية "جيرمينال" لـ "إميل زولا" نذكر اسم "لوفاك" (La levaque) وهي مشتقة من كلمة البقرة (L'vaque) أي (La vache) ، لقد

كانت هذه الشخصية شبيهة بالبقرة من حيث الحجم كما ورد في الرواية: لقد كانت قبيحة ومهترئة، كانت رقبتها تصل إلى بطنها وبطنها تصل إلى فخذها، شعرها رمادي ودائماً في حال من الفوضى، لقد كانت شبيهة بالبقرة على المستوى الجسدي والنفسي معاً.¹ وكذا كانت "لاموكات" (La mouquette) تعني الذبابة الصغيرة التي كانت تحوم حول "إيتين"، كما كانت زوجة "ماهو" تسمى "كونستانس" (Constance) وهو يدل على الثبات والاستقرار بدليل أنها كانت وفية لزوجها ولم تخنه أبداً رغم أن الفرص كانت متاحة لها للقيام بذلك.² إضافة إلى البقال "ميغرا" الذي يجمع اسمه بين نقيضين هما (maigre) أي ضعيف أو هزيل و (gras) ويعني سمين، لقد كان ذلك الشخص البدين يجد لذة في تجويع الضعفاء والفقراء.³

وفي المقابل كان الأدباء المغاربة أيضاً لا يفتأون ينتقون أسماء و ألقاب شخصياتهم بإتقان كبير ومن بينها نذكر:

-عيني: وهو اسم بطلانة رواية "الدار الكبيرة" لـ"محمد ديب" وهو يعني "العين" المتمثل في العضو الذي يضمن للإنسان حاسة النظر وأيضاً المنبع أي منبع الماء وهذا خاصة بالعامية الجزائرية وكلاهما يدل على الرقة والنعمومة واللفظ والحنان⁴ وهذا ما يتنافى مع سلوك "عيني" وطبيعتها الثائرة والساخطة على حالها والرافضة لأوضاعها ولعل المرة الوحيدة التي ظهرت فيها هادئة خاصة في "الدار الكبيرة" حين أحضر لها قريبها "مصطفى" قفة مليئة بكل أنواع الخضر وحتى اللحم، لقد ترك ذلك الحدث أثراً حسناً على نفسيته، لقد بقيت لمدة معينة مبتسمة وفرحة و كانت تجالس والدتها وتعاملها بحنان

¹ Becker Colette, Emile Zola, p 72.

المرجع السابق، ص 72، 73.

المرجع السابق، ص 73.

⁴ Khadda Naget, Représentation de la féminité dans le roman algérien de la langue française,

ومحبة وكانتا تستذكران معا أيامهما الجميلة.¹ ولعل هدف "محمد ديب" في ذلك هو الكشف عن صورة "عيني" الحقيقية وعن جوهرها الطيب وأن الفقر والبؤس والمعاناة اليومية وصراعاتها المستمرة من أجل توفير رغيف الخبز لأطفالها هو ما جعلها شخصية عصبية وقلقة وسليطة اللسان أحياناً.

-منون: وهي إحدى الشخصيات الثانوية في رواية "الدار الكبيرة". اشتهرت بنشيدها المطول والحزين حيث كانت تبكي فراقها لأبنائها وتعبر عن مخاوفها بعدم رؤيتهم مرة ثانية لقد كانت تعبر عن خوفها الشديد من الموت الذي كانت تعيشه على المستوى الروحي والنفسي معاً، إذ كان اسم "منون" وهو مأخوذ من "المنون" وهو جمع "منية" أي الموت. لقد كان هذا الاسم يعكس فعلاً نفسية الشخصية المحطمة والتي كانت تعيش الموت يومياً.

- سليمان مسكين: وهو إحدى الشخصيات الثانوية في رواية "الحريق" لـ "محمد ديب"، لقد كان بالفعل مسكيناً وقد قص حكايته الحزينة والمؤثرة جداً عن كيفية استيلاء القائد على حصان والده الجميل الذي كان شديد الإعجاب به ورفض والد سليمان التنازل عنه مما عرضه للاعتقال فالنفي إلى سجن "كايان"، لقد كان ذلك الحصان هو ثروته الوحيدة الذي استخسرها فيه القائد لأنه فلاح بسيط وبائس ولا يستحقه، وهكذا بقيت أمه وحيدة رفقة أطفالها الذين أصبحوا يتامى وكم كانت معاناتهم قاسية جراء ذلك.²

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 159, 160, 163, 164.

Et Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 79.

² Dib Mohammed, L'incendie, pp 69, 70.

- كامومة: وهي والدة بطل رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون"، واسم كامومة باللغة الأمازيغية يعني النحافة والصلابة والقسوة إلى حد ما، لقد كانت العجوز "كامومة" بالفعل نحيفة وقد أصبحت كالعود اليابس بفعل عوائد الزمن: موت زوجها وهجرة ابنها الوحيد وبيع قطع الأراضي التي كانت غالية جدا على قلبها وقلب زوجها.

- شابحة: وهو اسم أمازيغي ويعني الجميلة والأنيقة، لقد كانت هذه الشخصية فعلا جميلة وأنيقة وقد جمعتها قصة حب مع بطل رواية "الأرض والدم" "أعمر أوقاسي" ووصلت حد الوقوع في المحذور أي الزنا الذي اكتشفه زوجها وانتقم من "أعمر" بقتله.

- يلغن والديك: اسم بطل رواية "التيوس" لـ "إدريس شرابي"، وهذا الاسم هو عبارة تحمل معنى السب واللعنة مأخوذ من اللغة الدراجة في منطقة الشمال الإفريقي ولاسيما في المغرب والجزائر وهو يحمل عدة دلالات متعلقة بحياة صاحبه المغترب الذي عاش في فرنسا وعرف معنى الرفض والتهميش و العنصرية بسبب أصله المغربي والعربي عامة.

هكذا انتقى الروائيون الفرنسيون والمغاربة أسماء شخصياتهم بإحكام، ومن عمق بيئتهم الاجتماعية والثقافية لذا كانت البعض من هذه الأسماء تحمل صبغة المحلية ولاسيما عند "محمد ديب" و"مولود فرعون" و"مولود معمري" و"إدريس شرابي" مما يعكس الخصوصية القومية للثقافتين الفرنسية والمغربية.

3.1.2) الأسماء و الألقاب ذات الأصل الحيواني:

لقد كان "إميل زولا" يفضل استخدام بعض المجازات الحيوانية لتقديم بعض شخصياته المتميزة بنوع من الوحشية مثل المهندس " نيجريل" (Negrel) ممثل إدارة المنجم فوصفه بكونه "نمس" (un furet) ومن آكلي لحوم البشر (un carnassier) ، كان يتواجد في عمق المنجم دائما وكان همه الوحيد هو مباغطة العمال لكي يسحقهم بغرامات مالية، كما كان يشبه النمس حتى من الناحية الفيزيولوجية إذ كان يتميز بأنف حاد وعينين حادتين.¹ هذا وقد كان "زولا" يشبه عمال المنجم بالقطيع خاصة عند خروجهم في الصباح تقريبا في التوقيت نفسه وخاصة في كيفية دوسهم على الأرض.²

إضافة إلى ذلك وصفت الطفلة "ليديا" التي لا يتجاوز سنها العشر سنوات بالحشرة تارة وبالنملة تارة أخرى ويتجلى ذلك في قول "زولا": كان لها القوة الكافية لدفع عربتها المليئة بالفحم وهي كلها ملطخة بالوحل وكانت تشد على ذراعيها وساقها الشبيهة بساقي حشرة، وكانت تشبه نملة نحيفة سوداء وهي تتصارع مع عبء ثقيل جدا عليها.³ و كان أيضا يشبه الطفل "جانلان" صديق الطفلة "ليديا" بالقرود نظرا لتميزه بالخفة والحيلة.⁴

كما لقبت الطفلة "كوزيت" في رواية "البؤساء" بـ"القبرة" (L'alouette) بسبب صغرها ونحافتها وعملها الدائم في نزل "آل تيناردييه".⁵

¹ Becker Colette, Emile Zola, pp 74, 75.

² Zola Emile, Germinal, p 33.

³ المصدر السابق، ص 67.

⁴ Becker Colette, Emile Zola, p 76.

⁵ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 185.

وقد لجأ الروائيون المغاربة بدورهم إلى بعض الألقاب والتسميات الحيوانية ليطلقوها على شخصياتهم، وكان على رأس هؤلاء "إدريس شرايبي" الذي لم يجد أي مانع من عنونة روايته بـ"التيوس" وهو اللقب الذي أطلقه على المغتربين من شمال إفريقيا الذين كانوا موضوع روايته الأساسي.

تتميز التيوس بقوة تحملها للعيش في بيئات مختلفة، فهي تعيش في السهول وأعالى الجبال وحتى في الواحات والصحاري وهكذا كان تيوس "إدريس شرايبي" يبحثون عن حياة أفضل في مختلف أصقاع الأرض بعدما ضاقت بهم سبل الحياة في أوطانهم . لقد بدؤوا ببلد المحتل لأنه الأقرب جغرافيا من بلدانهم ولأنه الشعب الذي كان يعرفه أحسن من أي شعب آخر . لقد كان التيوس يتحملون كل أنواع الإهانة والرفض والتهميش والعنصرية وكانوا دائما يعملون على التصدي لمختلف هذه الصعوبات وتجاوزها حتى يصلوا إلى تحقيق مبتغاهم.

إضافة إلى ذلك، كان لقب الكلب متداولاً بشكل كبير في الروايات المغربية، مع الملاحظة أن "فيكتور هوغو" أيضاً استخدم هذا اللقب في رواية البؤساء خاصة بالنسبة لـ "جان فالجان" الذي اعتاد أن ينعى بالكلب و يعامل ككلب¹.

لقد كانت "عيني" في "الدار الكبيرة" أيضاً لا تتوانى بوصف أبنائها أو أي شخص آخر أساء معاملتها بالكلب و من بينهم أخوها الذي شتمته ووصفته بابن الكلب² لا سيما بعدما أحضر والدته المريضة عند أخته الأرملة الفقيرة و تركها دون السؤال عنها.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 102.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 32.

كما كانت تصف أبنائها بأوجه الكلاب أيضا،¹ وكانت "زهور" في رواية "الحريق" بدورها تقول عن زوج أختها "قارة علي" الذي كان ينظر إليها بنظرات شيطانية: "قارة الكلب القذر".²

كما وصف "مولود فرعون" في رواية "الأرض والدم" حياة المغتربين الجزائريين في فرنسا وبالذات حياته وحياته زوجته "ماري" الفرنسية التي كانت تشبه حياة الكلاب والكلاب الفقيرة أيضا،³ بسبب التهميش والعنصرية.

كما وردت أيضا صفة "الكلب" في العديد من المواضع في رواية "التيوس" لـ"إدريس شرايبي"، ومن بينها وصف صديق بطل الرواية "راوس" زوجة صديقه "يلعن والديك" بالكلبة بعدما ثارت عليه وأمطرته بوابل من الشتائم.⁴

وبهذا يلتقي الروائيون المغاربة بالروائيين الفرنسيين في تلقيب البعض من الشخصيات بلقب "كلب" للدلالة على مدى انحطاطها ووضاعتها.

2.2) أنواع الشخصيات في المتن الروائي:

حسب تصنيف "فيليب هامون" للشخصيات الروائية يمكننا تقسيم الشخصيات التي هي محل دراستنا إلى:

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 55.

² Dib Mohammed, L'incendie, p 174.

³ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 39.

⁴ Chraïbi Driss, Les boucs, p 47.

1.2.2) الشخصيات المرجعية:

تتمثل الشخصيات المرجعية، حسب "فيليب هامون" (Philippe Hamon) ، في " كل شخصيات التاريخ أو شخصيات الوقائع الاجتماعية أو شخصيات الأساطير"¹ و هناك شخصيات مرجعية مباشرة و غير مباشرة .

1.1.2.2) الشخصيات المرجعية المباشرة:

لقد كانت رواية "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" تزخر بالعديد من الأسماء والشخصيات والأحداث التاريخية لأنه لم يخصص هذه الرواية لطرح موضوع الفقر والبؤس في عصره فحسب وإنما قام بتسليط الضوء أيضا على أهم الأحداث التاريخية والسياسية طيلة القرن التاسع عشر وقد خصص مساحة هامة فيها لمعركة "واترلو" ولمعارك المتاريس في باريس.

ومن أهم الشخصيات التاريخية التي أوردها "هوغو" "نابليون بونابرت" الذي خصص له حيزا واسعا في الرواية وقد قال عنه أنه خطاب أوروبا الكبير.² كما ذكر القائد العسكري الانجليزي "كوك" (Cooke) وكيفية انتصاره على جيوش نابليون³ إضافة إلى "ولينغتن" (Wellington) وهو من قادة الجيش الانجليزي أيضا. إضافة إلى كوكبة من القادة الذين شاركوا في معركة "واترلو" خاصة من الانجليز أمثال "كولفيل".⁴

¹ فيليب هامون، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بركراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 2013، ص 14.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 1, p 335.

المصدر السابق، ص 335.

المصدر السابق، ص 346.

كما ورد ذكر الملك "لويس الثامن عشر" في العديد من المواضع، وقد اعتبره "هوغو" النتيجة الحسنة والإيجابية لـ"واترلو"، فبفضلها وضع الدستور واحترمه ووقع على وثيقة الإعلان العالمي عن حقوق الإنسان "بسانت أوين" وفي 18 جوان من عام 1815م أُسقط "روبيسبير" (Robespierre) من على جواده وعزله.¹

ولا تخلو الروايات المغاربية من الشخصيات المرجعية، ولعل أهم شخصية تاريخية وردت في ثلاثية "محمد ديب"، "هتلر" الذي كان الجزائريون حينذاك ينظرون إليه بنظرة إيجابية وكان يقال عنه أنه صديق المسلمين كما كانوا يعلقون عليه آمالا كبيرة إذ كانوا يرون فيه مخلصهم من المحتل الفرنسي،² كما جاء ذكر "هتلر" أيضا في رواية "الربة المنسية" لـ"مولود معمري" ولكن بصورة أخرى إذ وصف بالغول والشيطان ومدى خضوع الجيوش الألمانية له واستعداد كل الألمان للموت من أجله، وكان الشيخ الضير "بابا واعلي" يدعو الله أن يبعده عنهم وأن يسلط عليه مصيبة. أما باقي رجال ونساء "تاسغا" فكانوا ينتظرون الحرب بشغف حتى تخرجهم من الرتبة التي كانت سائدة على يومياتهم.³

هكذا كان كل من "فيكتور هوغو" و"محمد ديب" و"مولود معمري" يلتقون في توظيفهم للشخصيات التاريخية في أعمالهم و التي كانت تعكس الأوضاع الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية و موقف المجتمع البسيط والمتقف أحيانا من تلك الأوضاع.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 1, p 381, 382.

² Dib Mohammed, La grande maison, pp 117, 178.

³ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 25 et 29.

2.1.2.2) الشخصيات المرجعية الشبه مباشرة:

وهي تتمثل في الشخصيات الأسطورية، وهي قليلة عند "إميل زولا" و"بلزاك" و"فيكتور هوغو" خاصة في الروايات المدروسة اللهم إلا بعض السمات في شخصية "جان فالجان" ولاسيما عندما يصف قوته الجسدية التي تتعدى حدود المعقول، إذ كان هو الوحيد القادر على رفع عربة ركاب كبيرة بكتفه. لقد كان يقوم بمهمة الرافعة بدون أي مشكل وهذا الأمر خارق للعادة ويتجاوز القدرات البشرية للإنسان العادي.¹

أما عند "محمد ديب" فكانت شخصية "كومندار" في رواية "الحريق" شخصية غريبة و عجيبة في الوقت نفسه ، لقد شارك في الحرب القديمة ورأى النار عن كثب ومكث ثلاثة أيام وثلاث ليال دون أن ينام، و قاوم وصرخ ثلاثة أيام وثلاث ليال، و هزم الموت لوحده، لقد فقد ساقيه، وبعد عودته إلى قرية "بني بوبلن" لم يكلم أحدا سواء من البشر أو من الحيوانات إلا بصوت مرتعد.²

إضافة إلى شخصيات "الصُّلاح" الذين نجدهم خاصة في "الربوة المنسية" لـ "مولود معمري" وهي قوى خارقة أو نوع من الملائكة التي تتدخل في بعض الأحيان لحماية الأشخاص والممتلكات.³

ومن هنا نستخلص أن المرجعية الشبه مباشرة أكثر بروزا وتواجدا لدى الأدباء المغاربة منهم من الأدباء الفرنسيين وقد يعود ذلك إلى المخيال الاجتماعي المغربي الذي كان مرتبطا بالغيبيات والأساطير والتي دخلت حتى ضمن معتقداته ولاسيما أثناء فترة الاحتلال الفرنسي التي كان فيها معظم الناس أميين ومعدمين وبسطاء جدا من حيث

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 203.

² Dib Mohammed , L'incendie, p 13.

³ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 25-29 .

تفكيرهم إذ لم يكن بإمكانهم التمييز بين ما هو ديني إلهي وما هو أسطوري خيالي ، بينما كان الفرنسيون في القرن التاسع عشر يعيشون الثورة على كل المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والصناعية وحتى العقائدية. لقد كان عصر الاكتشافات والابتكارات، رغم وجود فئة معتبرة تعيش في الفقر والجهل ولكن الطابع الغالب خاصة على المستوى الفكري وحتى العقائدي هو التحرر من كل ما هو أسطوري وكل ما هو غيبي وحتى المعتقدات الدينية كانت قد تراجعت بشكل ملحوظ في هذه الفترة وكانت الدعوة للعلمانية وللإلحاد قوية جدا.

3.1.2.2) الشخصيات المرجعية غير المباشرة:

وهي تتحدد من خلال المهنة أو المكانة الاجتماعية التي تشغلها الشخصية وتتجلى في:

1.3.1.2.2) رجل الدين (الكاهن):

ويظهر في رواية البؤساء من خلال الأسقف "ميريال" الذي استقبل "جان فالجان" في بيته أحسن استقبال في الوقت الذي رفضه الكل وأشعره بأنه إنسان له قيمة و ليس بكلب مثلما كان معظم الناس يشعرونه ويعاملونه على أساسه كما علمه معنى التسامح ومقابلة السيئة بالحسنة إذ عندما ضبطه رجال الأمن وبجوزته الآنية الفضية التي سرقها من بيته فبدل أن يدينه أضاف له الشمعدانين الآخرين مما أثر كثيرا في نفسية "جان فالجان" و أدى إلى تحوله و تغييره تماما فقد طرح عنه كل الأحقاد والضغائن التي كانت تملأ قلبه ضد كل الذين ظلموه، إضافة إلى كلمات الأسقف القوية التي كانت ترن في آذانه بكل قوة وتترك أثرا عميقا في نفسه حين قال له : " أخي جان فالجان ابتداءً من الآن لم تعد

ملكا للشر بل للخير، أنا أشتري منك روحك و انتشلها من الأفكار السلبية والسوداء وروح الضياع وأسلمها لله".¹

ويقابله الكاهن رجل الدين المسيحي في رواية "التيوس" لـ"إدريس شرايبي" الذي كان له الفضل في ترك البطل المسمى بـ "يلعن والديك" لبلده حيث كان يعمل ماسحا للأحذية وكان يتمنى الاحتفاظ بمهنته تلك طول حياته ولكن سرعان ما أقنعه كاهن فرنسي كان يعيش في الجزائر في الذهاب إلى أوروبا حتى يتخلص من وضعه البائس و عند موافقته صرخ الكاهن بأعلى صوته: "لقد أنقذت نفسك".²

2.3.1.2.2) النقابي:

لقد برز دور النقابي في رواية "جيرمينال" خاصة، ويتجلى في شخصية "إيتين لانتيني" الذي قدم من شمال فرنسا بحثا عن عمل في مدينة "مونتسو" حيث اشتغل في منجم "الفورو" وشهد عن كثب استغلال العمال بطريقة وحشية مما دفعه إلى العمل على بث الوعي في الأوساط العمالية حتى يعوا حقيقة أوضاعهم المزرية ويسارعوا في المطالبة بحقوقهم وبالفعل نهض عمال المنجم وواجهوا أرباب العمل ووصلوا إلى حد الدخول في إضراب طويل.

وفي المقابل كان "حميد سراج" النقابي المثقف القادم من المدينة إلى قرية "بني بوبلن" يلتقي بالفلاحين الذين صودرت أراضيهم وباتوا يعملون كالعبيد عند المعمرين وهكذا كان حميد سراج يعمل مثل "إيتين" على بث الوعي في أوساط الفلاحين الذين أدركوا حقيقة أوضاعهم و بدئوا ينتفضون حتى دخلوا في إضراب.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 133, 134.

² Chraïbi Driss, Les boucs, p 182.

3.3.1.2.2) الشرطي:

لعل أشهر شرطي في الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر هو المفتش "جافير" الذي ظل يطارد "جان فالجان" حتى آخر الرواية، لقد كان يجسد القانون بمعناه الحرفي البعيد عن كل إنسانية، لقد كان بدون أي رحمة.¹

إضافة إلى رجال الشرطة في رواية جيرمينال الذين حضروا إلى المنجم أثناء الإضراب محاولين إرغام العمال على الرجوع إلى عملهم وغالبا ما كان ذلك يؤدي إلى مواجهات ومشاجرات بين الطرفين سرعان ما كانت تنتهي بإطلاق النار على المضربين و وفاة العديد من العمال ومن بينهم السيد "ماهو"، وفي المقابل كانت شرطة الاحتلال الفرنسي تتميز بالقسوة والصرامة الشديدة والجور في تعاملها مع الجزائريين ويتجلى ذلك في المشهد الذي يصور فيه "محمد ديب" قدوم الشرطة بشكل مفاجئ إلى دار سبيطار علمهم يصادفون "حميد سراج" ويقبضون عليه.² وكذا كانوا مع الفلاحين في رواية "الحريق" خاصة بعد اندلاع النار التي أحرقت أكوخهم ، لقد جاءوا ليحققوا في الأمر وكانت أصابع الاتهام لديهم موجهة نحو الفلاحين رغم أنهم كانوا هم المظلومين.³

4.3.1.2.2) أصحاب الورش:

ومن أهم الشخصيات التي يمكننا ذكرها في هذا المجال "السيد مادلين" (جان فالجان) في رواية "البؤساء" الذي كان له ورشتان كبيرتان إحداها للنساء والأخرى للرجال. لقد كان

¹ Langellier Jean Pierre, Dictionnaire de V. Hugo, Librairie Larousse Paris, 1970, pp 132, 133.

² Dib Mohammed, La grande maison, pp 43 – 45.

³ Dib Mohammed, L'incendie, pp 41, 42.

يوفر العمل لكل من كان في حاجة إليه¹ لقد كان محبا للفقراء والمحتاجين وكان لا يتأخر عن مساعدتهم لأنه جرب حياة الفقر والحرمان وكذا كان "ماحي بوعنان" صاحب ورشة النسيج الذي كان يشغل العديد من أبناء الفقراء ممن كانوا في حاجة ماسة إلى العمل للإسهام في تحسين الحال المادية لأسرهم مثل الطفل "عمر" ابن "عيني" الذي كان عمله حيويا بالنسبة لعائلته وقد كانت والدته تنتظر أجرته بفارغ الصبر.²

2.2.2) الشخصيات الاستذكارية:

وهي الشخصيات التي تستذكر الماضي الذي له مدلولات مهمة في الرواية وهناك من الشخصيات التي تتنبؤ بالمستقبل الخاص ببعض الشخصيات أو بمصائر بعض الشعوب.

1.2.2.2) الاسترجاع:

بعد خروج "جان فالجان" من بيت الأسقف "ميريال" الذي استقبله أحسن استقبال، التقى بطفل صغير يدعى "جيرفيه" (Gervais) الذي كان يتوسل "جان فالجان" بأن يعيد إليه قطعة نقوده التي سقطت منه ووقعت تحت حذائه ولكنه لم يشعر بوجوده إذ كان غارقا في عالمه الداخلي ولكنه بعدما استفاق من شروده استرجع صورة الطفل وبكائه وهناك فقط استيقظ ضميره وندم على فعلته تلك وتذكر كلام الأسقف له قائلا: "لقد وعدتني بأن تصبح رجلا صالحا وإنني اشتري منك نفسك، أنتزعها من الفساد وأقدمها لله".³

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 187, 188.

² Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 63.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 138, 139.

لقد كانت هذه الحادثة سببا في توبة "جان فالجان" وتغيره بصورة جذرية ونهائية وتكريس حياته لخدمة الفقراء ومساعدتهم.

وكذا كانت "فانتين" لا تفتأ تعود إلى الماضي عندما شعرت بصعوبة تحمل انتظار السيد "مادلين" الذي وعدها بإحضار ابنتها "كوزيت" وفضلت الهروب من واقعها الحزين والبائس، و لو للحظات، لتتذكر إحدى الأغاني التي كانت تغنيها لابنتها عندما كانت رضيعة، لقد كانت تغنيها بحزن وإحساس عميق جعل الراهبة التي كانت تعيدها تذرف الدموع.¹

هذا وقد كان لقاء "ماريوس" ذات يوم قداس بالكنيسة مع أحد الكهنة الذي طلب منه تغيير المكان لأنه مكانه المفضل وفي آخر القداس جاء الكاهن "مابوف" إلى "ماريوس" ليكشف له عن سبب ذلك وقص عليه قصة رجل كان في الماضي يتردد على تلك الكنيسة وكان يجلس دائما في ذلك المكان حتى يرى ابنه دون أن يلفت الانتباه، لقد كان يتأمل ابنه ويبكي طول الوقت لأنه كان يحبه حبا جما ولم يكن قادرا على التقرب منه أو البوح له بذلك لأن جد الطفل منعه من ذلك، وكان "ماريوس" في المقابل يظن أن والده هجره لا يحبه، ومن خلال هذا الاستدكار اكتشف "ماريوس" حقيقة والده مما أدى إلى تحطيم الصورة المشوهة التي زرعها جده في ذهنه عن والده مما جعله يواجه جده بالحقيقة ويغادر منزله تاركا كل الرفاهية والمال والحياة السهلة والمريحة لأنه لم يعد قادرا على العيش مع شخص كان دائما يمقت والده وينتقده لأنه كان من تيار سياسي مختلف فقط.² لقد كان هذا الاستدكار عاملا قويا في تغيير حياة "ماريوس"، إذ أصبح فقيرا وعرف معنى الجوع والحرمان، وهذا ما سمح له أيضا على المستوى الفني، بالالتقاء بـ"كوزيت" التي وقع في حبها وتزوج بها فيما بعد.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 281, 282.

المصدر السابق، ص 157، 158.²

وفي رواية "جيرمينال" لـ "إميل زولا" كان العجوز "بونمور" يستذكر الإضرابات والاحتجاجات التي عاشها منذ شبابه في منجم "الفورو" الذي قضى على جل أفراد عائلته الذين أمضوا كل حياتهم في العمل فيه، وقد استغل "إيتيين" هذا الاستذكار متوجها لرفاقه من عمال المنجم قائلاً: "هل سمعتم، ها هو أحد القدماء و هذه معاناته في الماضي وهذا ما سيعانيه أبنائنا في المستقبل إن لن نسع إلى حل مشكل العمال مع هؤلاء المسؤولين الظلمة".¹

كما كان العجوز "بونمور" في بداية الرواية وأثناء حديثه مع "إيتيين" الذي قدم إلى "مونتسو" بحثاً عن العمل، يستذكر الماضي السعيد والمزدهر الذي عرفته المنطقة عكس الحاضر الذي يزداد سوءاً وتدهوراً بسبب الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلد نتيجة للحروب التي أدخلهم فيها "نابليون"، لقد أغلقت معظم المصانع والورش أبوابها و فصل العديد من العمال عن عملهم ، لقد تأسف العجوز "بونمور" كثيراً عن الحال المزرية التي آلت إليها المنطقة مما أجبرهم على الدخول في التقشف.²

لقد سمح هذا الاستذكار بتحفيز العمال وسكان منطقة "مونتسو" على الخروج من سلبياتهم واستسلامهم للظروف والاتفاق على كيفية العمل على مواجهة تلك المشاكل التي تهدد أمنهم الغذائي وصحتهم وسلامتهم وكذا مستقبل أبنائهم، لقد أسهم هذا الاستذكار في تشجيع العمال على الإضراب الذي سيدخلون فيه لاحقاً.

وفي المقابل لجأ "محمد ديب" في ثلاثيته خاصة في "الدار الكبيرة" و"الحريق" إلى تقنية الاسترجاع أو الاستذكار حتى يكشف عن بعض الحقائق الخاصة بالشخصيات أو أحداث الرواية.

¹ Zola Emile, Germinal, pp 311, 312.

المصدر السابق، ص 16، 17.²

لقد كانت "عيني" لا تفتأ تستذكر صورة والدتها قبل مرضها وعجزها وكيف كانت تعمل بجد ونشاط وكانت تقوم بكل الشؤون المنزلية من أعمال وتسوق وطهي عندما كانت في بيت ابنها مع سوء معاملة زوجة ابنها لها ، لقد كانت تستغلها بشكل للإنساني وكم من مرة حرمتها حتى من الأكل ولكنها عندما مرضت وأصبحت عاجزة عن العمل تخلصت منها.¹ ومن خلال هذا الاسترجاع تكشف "عيني" عن مدى إسهام الأوضاع الصعبة والقاسية في القضاء على صحة الإنسان النفسية أو الجسدية أو هما معا وكيف يمكنها أن تصيره إلى إنسان عاجز أو فاشل .

وقد كانت "عيني" أيضا تستذكر طفولتها وشبابها قبل أن تتزوج كما تذكرت أهلها وأقاربها الأحياء منهم والأموات، وكم كانت سعيدة برفقتهم،² كان هذا النوع من الاستذكار يسمح لـ "عيني" بالهروب من واقعها التعيس والبائس حتى ترتاح وتنفس عن ذاتها ولو بصورة مؤقتة.

إضافة إلى ذلك، كان "كومندار" في رواية "الحريق" يسترجع أحداث الماضي ولاسيما ما يتعلق بحال الفلاحين قبل الاحتلال الفرنسي وكيف كانوا سعداء بأراضيهم و كانوا يعملون فيها ، يزرعون ويحصدون، يغرسون ويجنون كل أنواع المزروعات لقد كانوا يعيشون في رفاهية أما بعد وصول المعمرين تحولت حياتهم إلى كابوس مرعب وغرقوا في الفقر والعوز.³ هنا يلتقي "كومندار" بالعجوز "بونمور" في مقارنتهما بين الماضي السعيد والحاضر البائس لعمال منجم "الفورو" ولفلاحي "بني بوبلن".

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 163, 164.

المصدر السابق، ص 161.

³ Dib Mohammed, L'incendie, p 64.

وزد على ذلك "منون" في "الدار الكبيرة" لتي لا تتوقف عن استذكار أطفالها وحياتها معهم وتعبر عن اشتياقها الشديد لهم وخوفها من عدم تمكنها من لقائهم مرة أخرى لأنها تشعر دوما أنها ستموت دون أن تراهم أو تحضنهم كما كانت "فانتين" تستذكر صورة ابنتها "كوزيت" وتعبر أيضا عن رغبتها في رؤيتها وضمها إلى صدرها قبل أن تفارق الحياة.

ومن خلال هذا الاستذكار يتجلى لنا حرمان الأم من أبنائها الذي يرمز إلى حرمان الوطن الأم والأرض الأم من أبنائها المغيبين عنها سواء بسبب ممارسات المحتل في الجزائر أو السياسات الجائرة لأرباب العمل في فرنسا.

2.2.2.2 الاستدعاء (الاستشراق):

وفي هذا الإطار كان العجوز "بونمور" في رواية "جيرمينال" يتنبؤ بحال الفقر والأزمة الاقتصادية الصعبة والجوع والعوز الذي تقدم عليه منطقة "مونتسو" وأهلها وقال أن الشوارع ستمتلئ بالمتسولين،¹ وبالفعل جاع أهل "مونتسو" بعد الإضراب حتى أكلوا النباتات واستدانوا وتسولوا.

وفي آخر رواية "جيرمينال" يتنبؤ "إيتين"، أثناء مغادرته لمنطقة "مونتسو"، بمستقبل أجمل لهذه المنطقة وللبلد ككل. لقد كانت تجربة الإضراب تجربة صعبة على عمال منجم "الفورو" خاصة ولكنها تجربة مفيدة وستخدمهم في المستقبل عندما يفكرون في خوض غمار الإضراب أو المطالبة بحقوقهم.²

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 17.

المصدر السابق، ص 558.²

كما كان "أوجين دي راستينياك" في رواية "الأب غوريو" يتوجه إلى مدينة باريس في آخر الرواية وبعد جنازة "الأب غوريو"، راميا بنفسه في أحضانها قائلاً: "إلى كلينا الآن".¹

لقد قرر أن يقتحم عالم الطبقة الأرستقراطية بعدما كان يتردد عليها كمجرد ضيف ويصبح عضواً منها بعدما أدرك الميكانيزمات المتحركة فيها وتمكن من الوسائل التي تسمح له بالدخول بكل ثقة إلى عالمها.

وفي المقابل كان "كومندار" في رواية "الحريق" لـ "محمد ديب" يستشرف بحدوث أمر جديد في الجزائر مما سيقرب الأوضاع رأساً على عقب.² وكذا قال "سليمان مسكين" أن حريقاً، قد أشعل ولن ينطفئ أبداً وسيواصل الزحف عشوائياً وسرياً وأن ألسنته الدامية لن تنطفئ ما لم تنتشر في كل البلد.³

وبهذا يكون كل من "كومندار" و "سليمان مسكين" قد تتبأ باندلاع الثورة التحريرية التي عمت بالفعل كل أرجاء الوطن ولم تتوقف حتى أحرقت خيم المحتلين وطردتهم من بلادها واقتلعت حريتها بكل جدارة واسترجعت أراضيها.

وبناء على ما سبق، يتجلى لنا ذلك التقارب بين الروائيين الفرنسيين والروائيين المغاربة في توظيفهم الدقيق والمحكم للشخصيات التي كانت تجسد حياة الفقر والبؤس من زوايا مختلفة ومن خلال علاقاتها ببعضها البعض مع احتفاظ كل منهم بخصوصيته القومية.

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 308.

² Dib Mohammed, L'incendie, p 64.

المصدر السابق، ص 131، 132.³

الباب الرابع

الفصل الثاني:

تجليات البنى الزمانية

والمكانية واللغوية في تجسيد

ظاهرتي الفقر والبؤس

لا تقل البنى الزمنية والمكانية واللغوية أهمية عن الشخصيات التي تعتبر حجر الزاوية في الأعمال الروائية، لأن الفن القصصي ككل هو نسيج محكم ومتكامل، فكل جزئية فيه تكمل الجزئية الأخرى بدقة وإتقان وعليه لا يمكننا الاكتفاء بدراسة الشخصيات فحسب لأن هناك جوانب أخرى هي غاية في الأهمية ولا يمكنها أن تتضح إلا إذا درسناها و كشفنا عن علاقتها ببعضها البعض وكذا بالشخصيات.

1) البنية الزمنية:

يرى احد الدارسين أن "مقولة الزمن متعددة المجالات ويعطيها كل مجال دلالة خاصة ويتناولها بأدواتها التي يصوغها في حقله الفكري والنظري"¹، وفي التصور الفلسفي وبالذات عند "أفلاطون" ، فإن الزمن هو "مرحلة تمضي لحدث سابق إلى حدث لاحق بينما الزمن في تمثّل "أندري لالاند" (A. Lalande) [فهو] متصور على أنه ضرب من الخيط المتحرك الذي يجر الأحداث على مرأى من ملاحظ هو أبداً في مواجهة الحاضر، على حين أن "غيو" (Guyou) ينظر إلى الزمن على أنه لا يتشكل إلا حين تكون الأشياء مهيأة على خط بحيث لا يكون إلا بُعد واحد: هو الطول"².

سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت 1997، ص 61.¹
² عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1990، ص172.

1.1 الزمن في السرد الروائي:

يعد الزمن من أهم العناصر في البنية السردية الروائية، وقد كان الشكلايون الروس من بين النقاد الأوائل الذين قاموا بإدراك قضية الزمن في إطار النظرية الأدبية وأثناء دراستهم للبعض من النماذج الروائية، لم يركزوا على الأحداث في حد ذاتها بل على العلاقات الموجودة بينهما كما اقترحوا طريقتين في تقديم الأحداث، طريقة التسلسل المنطقي وطريقة عدم الاعتبار الزمني أي لا يراعى فيها الترتيب الزمني التسلسلي.¹

هذا وترى "مها القصراوي" أن "الزمن الروائي هو صيرورة الأحداث الروائية المتتابعة وفق منظومة لغوية معينة، بغية التعبير عن الواقع الحياتي المعيشي وفق الزمن الواقعي أو السيكلوجي"،² كما أثبت العديد من الدارسين أن "الرواية هي فن شكل الزمن بامتياز، لأنها تستطيع أن تلتقطه وتخصه في تجلياته المختلفة".³

هذا ويختلف توظيف البنية الزمنية في النصوص السردية الروائية حسب طبيعتها، إذ الزمن في الرواية التقليدية هو غيره في الرواية المعاصرة.

وقد قسم النقاد الزمن إلى ثلاثة أقسام أو أنواع هي:

– زمن الحكاية

– زمن الكتابة

– زمن القراءة⁴

¹ حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1990، ص107.

² مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية (1960 – 2000)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2004، ص41.

المرجع السابق، ص 28. ³

ينظر عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 179، 180. ⁴

2.1 (أهمية الزمن في النص السردى الروائى:

قال "زكى نجيب محمود": "الرواية بنية زمنية متخيلة خاصة داخل البنية الحديثة الواقعية أو بتعبير آخر [...] هي تاريخ متخيل خاص داخل التاريخ الموضوعي [...] وقد يكون هذا التاريخ المتخيل تاريخاً جزئياً أو عاماً، ذاتياً أو مجتمعياً، فقد يكون تاريخاً لشخص أو حدث أو لموقف أو لخبرة أو لجماعة أو للحظة تحول اجتماعي [...] ورغم الاختلاف في الطبيعة البنيوية الزمنية بين المتخيل والموضوعي، فإن بين الزمنين أو التاريخين علاقة ضرورية أكبر من تزامنها هي علاقة التفاعل بينهما"¹. وبهذا يكون الزمن من بين العناصر الأساسية التي لا يمكن للروائي الاستغناء عنها سواء في الرواية التقليدية أو المعاصرة، إذ لا بد لأي موضوع أو ظاهرة أو إشكال أن يكون قد وقع في فترة زمنية معينة سواء في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل، ولأن المتلقي أيضاً عاش ويعيش في زمن معين وفي إطار وأوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية معينة وعليه فهو لا يمكنه أن يتفاعل مع عمل أدبي خال من الزمن.

3.1 (أنواع الزمن في النص السردى الروائى:

لقد قسم الدكتور عبد الملك مرتاض الزمن الروائي إلى عدة أقسام نذكر منها:

1.3.1 الزمن المتواصل:

يمضي الزمن المتواصل، حسب الدكتور مرتاض، "متواصلاً دون إمكان إفلاته من سلطان التوقف ودون استحالة قبول الالتقاء أو الاستبدال بما سبق من الزمن وبما يلحق منه في

¹ محمود أمين العالم، أربعون عاماً من النقد التطبيقي: البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1994، (د، ط)، ص13.

التصور والفعل، ويمكن أن نطلق على هذا الضرب من الزمن "الزمن الكوني" أيضا إذ أنه الزمن السرمدى المنصرف إلى تكوين العالم وامتداد عمره وانتهاء مساره حتما إلى الفناء [...] وهو زمن طويل متواصل أبدي ولكن حركاته ذات ابتداء وذات انتهاء".¹

2.3.1 الزمن المتعاقب:

وهو زمن "دائري لا طولي ولعله أن يدور حول نفسه بحيث على الرغم من انه قد يبدو خارجه طوليا فإنه، في حقيقته، دائري مغلق. وهو تعاقبي في حركاته المتكررة [...] مثل زمن الفصول الأربعة [...] ومثل هذا الزمن [...] لا يتقدم ولا يتأخر وإنما يدور حول نفسه".²

3.3.1 الزمن المنقطع أو المتشظي:

وهو الزمن المحدد "لأعمار الناس ومدد الدول الحاكمة وفترات الفتن المضطربة ومثل هذا الزمن قد لا يكرر نفسه إلا نادرا جدا".³

4.3.1 الزمن الغائب:

ويتعلق "بأطوار الناس حيث ينامون وحيث يقعون في غيبوبة وقبل تكون الوعي بالزمن (الجنين، الرضيع) والصبي أيضا قبل إدراك السن التي تتيح له تحديد العلاقة الزمنية بين الماضي والمستقبل خصوصا".⁴

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 175.¹

المرجع السابق، ص 175.²

المرجع السابق، ص 175.³

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 175، 176.⁴

5.3.1 الزمن الذاتي:

ويسمى أيضا بالزمن النفسي وهو ذاتي بحت إذ هو إدراك ذاتي وخاص جدا له وهو ليس بالضرورة ما هو عليه فعليا وقد يطول أو يقصر حسب الحال النفسية والعاطفية للشخصيات.¹

4.1 المفارقات الزمنية (تقنيات ترتيب الزمن):

تتمثل المفارقة الزمنية في نقطة انطلاق المؤلف من الزمن الحاضر إلى الماضي أو إلى المستقبل، وعادة ما تتحدد المفارقات الزمنية من خلال العودة إلى الماضي أو الذهاب نحو المستقبل.

وتتشكل المفارقات الزمنية من الاسترجاع والاستشراف.

1.4.1 الاسترجاع:

ويسمى أيضا بالفلاش باك (Le flash-back) وغالبا ما يلجأ إليه الأديب للكشف عن بعض الجوانب الغامضة في حياة البطل و هي تؤثر بعمق في دفع الصراع الدرامي نحو التأزم أو تعميق الشخصية ويرى حسن بحراوي أن "كل عودة للماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكارا يقوم به لماضيه الخاص ويحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة".²

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 176، 178.¹

حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء الزمن، الشخصية)، ص 121.²

ويتشكل الاسترجاع من الاسترجاع الخارجي والاسترجاع الداخلي والاسترجاع المزجي.

1.1.4.1) الاسترجاع الخارجي:

ومن أهم مهامه، تسليط الضوء على ماضي الشخصية بهدف فهم حاضرها ويرى "عدنان خالد عبد الله" أنه غالباً ما يلجأ السارد إلى قطع "تسلل الحدث الزمني ليقدم خلاصة لحادثة حصلت في الماضي والارتجاع الفني مهم لفهم أحداث العمل القصصي من حيث تقديمه للقارئ معلومات إضافية تعينه على تتبع الحدث ومجريات الأمور".¹ زد على ذلك أن الاسترجاع الخارجي يأتي لتبرير سلوك ومواقف شخصية البطل اتجاه قضايا وأحداث حاضره.

2.1.4.1) الاسترجاع الداخلي:

وهو يقع "في صلب الزمن الحاضر الذي تسير فيه أحداث القصة"² أي أنه يلعب دوراً "بنائياً في سد الثغرات بين الأحداث، إما من أجل تغيير الدلالات أو من أجل تثبيتها".³ وبهذا يقوم الاسترجاع الداخلي بملء مختلف الفراغات التي تتركها العملية السردية لما هو حاضر وهذا ما يسهم أيضاً في توضيح بعض الأحداث الغامضة وتفسيرها. مع الملاحظة أن الاسترجاع الداخلي يعود إلى الماضي اللاحق لأحداث الحكاية.

عدنان خالد عبد الله، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد 1986، ص 80.¹

نفلة حسن العزي، تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني، قراءة نقدية، دار غيداء للنشر، ط1، عمان 2011، ص 57.²

³ لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي - انكليزي - فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1، لبنان، 2002، ص 21.

3.1.4.1) الاسترجاع المزجي:

وهو يمزج بين الاسترجاع الخارجي والاسترجاع الداخلي.

2.4.1) الاستباق:

وهناك من يسميه بالاستشراف أيضا، وهو يعني بإيراد بعض الأحداث التي لم تقع بعد ولكنها ستقع في المستقبل القريب أو البعيد وقد قسم "جيرار جينيت" الاستباق إلى: "استباقات داخلية وأخرى خارجية".¹

1.2.4.1) الاستباق الداخلي:

وهو الذي لا يتجاوز خاتمة الحكاية ولا يخرج عن إطارها الزمني.²

2.2.4.1) الاستباق الخارجي:

وهو الذي يتجاوز زمنه "حدود الحكاية، يبدأ بعد الخاتمة ويمتد بعدها لكشف مآل بعض المواقف والأحداث المهمة والوصول بعدد من خيوط السرد إلى نهاياتها".³

¹ جيرار جينيت، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ترجمة محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي و عمر حلي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، ط2، 1997، ص77.

لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 17.²

المرجع السابق، ص 16، 17.³

3.2.4.1 (الاستباق المختلط:

ويتشكل من الاستباق الداخلي والاستباق الخارجي.

مع الملاحظة أنه يقل استخدام الاستباق في الرواية مقارنة مع الاسترجاع لأنه يفقد الأحداث من عنصر التشويق فيها.

5.1 المفارقات الزمنية في الروايتين الفرنسية والمغربية:

1.5.1 الاسترجاع في الروايتين الفرنسية والمغربية:

1.1.5.1 الاسترجاع الخارجي:

قال أحد الدارسين إن: الزمن هو البطل الأكبر لدى "بالزاك"، إذ يبدأ بتشغيل الزمن قبل بداية أحداث الرواية مما استدعى اللجوء إلى الاسترجاع حتى يوضح للمتلقي كل التفاصيل الخاصة بالأحداث والشخصيات.¹ هذا وغالبا ما كان "بالزاك" يعود إلى الماضي في مختلف أعماله حتى يعثر على المبررات والأسباب التي أدت إلى الأحداث الحاضرة وليتمكن من الاستشراف لما سيؤول إليه المستقبل.²

فمن خلال الاسترجاع يسلط "بالزاك" الضوء على بعض الجوانب من حياة "الأب غوريو" الذي عُرف في الرواية وخاصة في بدايتها على أنه عجوز وحيد وفقير وبائس بدليل أنه كان يسكن في نزل "فوكير" المتواضع جدا ولم يكن يتحدث بتاتا عن نفسه ولكن سرعان ما نتعرف على ماضيه وعلى ابنتيه من خلال لقاء بين سيدة نبيلة والطالب "دي راستينياك" في بيت قريبته النبيلة أيضا حيث كانت إحدى بنات "غوريو" حاضرة ، وعند سماع "دي

¹ Berry Madeleine, Balzac, Editions universitaires 1972, p 131.

المرجع السابق، ص 132.²

راستينيّاك" ذاك الاسم قال إنه يعرفه لأنه يسكن معه في نفس النزل ثم تذكرت الفيكونتيسا هذا الاسم وقالت إنه كان رئيس وحدة مكلفة ببيع القمح وقد حقق أرباحا طائلة كما باع له رئيس عمال جدتي كميات هائلة من القمح، [...] أتذكر أن رئيس العمال هذا كان ينصح جدتي بإمكانية بقائها في كل أمان "بغرانفيلي" (Granvilliers) لأن قمح هذه المنطقة ذو نوعية ممتازة، آه ! جيد، لوريو (كذا) هذا الذي كان يبيع القمح للمجرمين في السلطة، كان يحب ابنتيه إلى حد العبادة، لقد زوج الأولى من ابن عائلة "ريستو" (Restaud) الأرستوقراطية وزوج الثانية ببارون "دي نوسنجن" (De Nucingen) وهو مصرفي ثري.¹

إضافة إلى ذلك لجأ "إميل زولا" وفي بداية روايته "جيرمينال" إلى الاسترجاع ليسمح للمتلقي بمعرفة ما وقع من أحداث قبل بداية الرواية، لقد افتتح روايته بوصول شخصية "إيتيين لانتييه" إلى مدينة مونتسو والقادم إليها من مدينة "ليل" بشمال فرنسا و كان أول من التقى به من أهل مونتسو هو العجوز "بونمور" الذي أخبره أنه لا يوجد هناك أي عمل لميكانيكي في المنجم وبعدها مباشرة يعود بذاكرته إلى ماضيه حين كان يعمل بورشة السكك الحديدية ثم كيف تشاجر مع رئيسه في العمل وقام بصفعه مما أدى إلى فصله من ورشة "ليل" ومن كل مكان،² ومن هنا كان يتحسر على واقعه وكيف أصبح متشردا بدون عمل أو مأوى، و بهذا يسلط المؤلف الضوء على شخصية "إيتيين" الانفعالية والعنيفة وكيف يمكنه أن يتشاجر مع أي شخص آخر من حوله وقد يصل إلى درجة العنف الجسدي في لحظة الغضب الشديد مما يبرر بعض سلوكاته وأفعاله في الأحداث الموصلة.

ويعود أيضا العجوز "بونمور" بذاكرته إلى الماضي البعيد حين تأسس منجم "الفورو" منذ مئة وست سنوات حيث عمل جده "غيوم" (Guillaume) ثم والده فأعمامه وحاليا هو وابنه

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 97.

² Zola Emile, Germinal, p 16.

وأحفاده وهذا حتى يبين أن مصيرهم شبيه بمصير هؤلاء الأسلاف الذين أمضوا كل حياتهم في العمل بالمنجم إلى أن لقوا حتفهم فيه.¹

هذا وقد أورد "زولا" المشهد الذي يسترجع فيه "سوفارين" (Souvarine) واقعة مقتل زوجته التي كانت معلمة بروسيا وحُكم عليها بالإعدام شنقا.² دون أي مقدمات أو أدنى داع، لقد استرجع "سوفارين" تلك الأحداث المأساوية حتى يتنبأ من خلالها عن عمله التخريبي والإجرامي الذي سيقدم عليه في المنجم.³

ومما يلفت الانتباه لدى "زولا" ولاسيما في رواية "جيرمينال" هو وجود هذه النوعية من الاسترجاع بنسبة عالية في القسمين الأولين من الرواية حيث كان يقدم لنا من خلالها أكبر قدر ممكن من المعلومات الماضية عن الشخصيات الأساسية.⁴

وكذا كان "جان فالجان" في رواية "البؤساء" يسترجع مختلف المشاهد التي تذكره بـ"كوزيت" حينما كانت ببيت عائلة "تيناردييه"، لقد تذكر فستانها وحذاءها و تنورتها و منظرها وجواربها، لقد كان يستحضر صورتها وهي شبه عارية وكيف كانت ترتعد من البرد الشديد،⁵ عاد "جان فالجان" بذاكرته إلى الماضي عندما بقي وحيدا وبائسا في غرفته بعد زواج "كوزيت" ومغادرتها لبيتها وأخذها لكل ملابسها، لقد بات وحيدا وتعيسا مثلما كان قبل أن يأتي بـ"كوزيت" ويتكفل بها وينتشلها من ذلك الوسط البائس.⁶

وفي المقابل كانت الرواية المغاربية قد لجأت وعلى غرار الرواية الفرنسية إلى توظيف تقنية الاسترجاع الخارجي ويتجلى ذلك في مشاهد عدة نذكر منها:

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 21.

المصدر السابق، ص 481.

³ Becker Colette, *Emile Zola*, p 85.

المرجع السابق، ص 85.

⁵ Hugo Victor, *Les misérables*, Tome 5, Volume 3, pp 411, 412.

المصدر السابق، ص 489.

الطفل الثري "إدريس بلخوجة" الذي دأب في صباح كل يوم على إعادة سرد كل أصناف المأكولات الفاخرة من لحوم وخضر وفواكه وحلويات إلى غير ذلك مما تناوله في اليوم السابق ، لقد كان الأطفال من حوله يتابعونه بإمعان كما كانت أنظارهم مصوبة نحوه، تتفحصه بدقة شديدة، وقد كان أحدهم يحاول أن يردد ما كان يقوله مثلاً: "لقد أكلت قطعة كبيرة من لحم الخروف، لحم الخروف .. والبرقوق؟ والبرقوق.."¹.

لقد كان الهدف من هذا الاسترجاع هو وصف الهوة العميقة والواسعة الفاصلة بين أبناء الشعب الفقير الذين كانوا جوعى وكان الخبز بالنسبة إليهم مادة ثمينة ونادرة بينما كان أبناء الطبقة الغنية يأكلون ما طاب ولدُّ من المأكولات، وتتمثل قوة هذا المشهد في كونه يقع مباشرة بعد المشهد الافتتاحي الذي يصور فيه "محمد ديب" تلاميذ المدرسة الابتدائية الذين يتشاجرون بل ويتقاتلون فيما بينهم وهم في فناء المدرسة وقت الاستراحة على قطعة خبز يابسة في بعض الأحيان² إضافة إلى المشهد الموالي الذي يسلط فيه الضوء على "عيني" وهي تحضر وجبة غذاء لأبنائها بالخرشوف الشوكي وهو أكل لمن لا أكل له.³

إضافة إلى ذلك كان مشهد استرجاع "زينة" جارة "عيني" التي تذكرت زوجها المتوفى منذ سنوات لأنه كان شبيهاً بـ"حميد سراج" الذي يذكرها دائماً به، لقد كرس هو أيضاً كل حياته ومجهوده ووقته لتوعية الناس بحالهم المزرية وبضرورة الثورة على أوضاعهم وتغيير واقعهم بواقع أجمل وأفضل، ولم يكن يفكر لا في الأكل ولا في الشرب ولا في النوم، لقد كان همه الوحيد اجتماعاته، لقد كان يغيب أياماً وأسابيع عن بيته ولم تكن "زينة" تجرؤ على إخباره بعدم وجود الأكل في البيت، لقد كان يعاني كثيراً ويدرك جيداً أنهم يكادون يموتون من الجوع ولكنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء من أجلهم لأن قضيته كانت أكبر من ذلك بكثير،

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 15.

المصدر السابق، ص 7.

المصدر السابق، ص 12.

وتقول "زينة" عندما كان أبنائها يبكون من شدة الجوع كان يلجأ إلى بيع أثاث البيت حتى يطعمهم وعندما مات لم يترك لهم عشاء ذلك اليوم.¹

وبهذا الاسترجاع أراد "محمد ديب" أن يكشف لنا عن المعاناة القاسية التي يعانيتها السياسيون حينذاك أمثال "حميد سراج" وزوج زينة وكيف كانوا يضحون بأنفسهم وبعائلاتهم في سبيل خدمة الشعب والوطن.

وكان عمر وهو في طريقه إلى قرية "بني بوبلن" رفقة جارتة وصديقتة "زهور"، يسترجع صورة "دار سبيطار" التي كانت تبدو له كسجن قدر إضافة إلى النسوة المقيمات فيه المتصفات بالتمرد والوحشية كما كان صراخهن وشجاراتهن لا تتوقف طول النهار،² لقد كان عمر يشعر بالتححرر من قيود جدران "دار سبيطار" وأجوائه الخانقة، لقد كان يتنفس عبق الحرية وهو يسير نحو القرية حيث يمكنه أن ينطلق ويجري في الحقول الواسعة وفي الهواء الطلق.

إضافة إلى ذلك، استرجع الراوي حادثة وفاة "أحمد دزيري" والد عمر الذي توفي منذ زمن بعيد، لقد كان نجارا ناجحا ثم سرعان ما أدمن شرب الخمر الذي ضيع عمله وصحته ثم حياته، لقد ترك أبنائه صغارا جدا في حال من الفقر والبؤس الشديدين ودون أي مصدر للرزق.³ وقد تزامن هذا الاسترجاع بمشهد "محمد شراك" الملقب بـ "ديدي بوراشو" وهو في حال سكر شديدة والأطفال من حوله يسخرون منه هو الذي كان من أحسن عمال النسيج في المنطقة ومن أبرع الرياضيين في المدينة.⁴

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 65, 66, 67.

المصدر السابق، ص 10، 11.

المصدر السابق، ص 137.

المصدر السابق، ص 136.

لقد كان المؤلف من خلال هذا الاسترجاع يقارن بين الرجلين اللذين كانا ناجحين ومحترمين في الماضي ولكن إدمانهما على الخمر أفقدهما كل شيء و أصبحا عبرة لمن يريد أن يعتبر.

وفي رواية "الحريق" كان "كومندار" يسترجع ماضي أهل "بني بولن" الذين كانوا سعداء قبل الاحتلال، لقد كان الفلاحون فيه يملكون حقول الشعير والذرى وبساتين الخضر والكروم وأشجار التين والزيتون ولكنهم سرعان ما فقدوا كل شيء بعد وصول المحتل إلى تلك الأراضي التي استولى عليها كاملة،¹ لقد كان "كومندار" مكلفا بمهمة إعادة إحياء الماضي، ماضي الفلاحين وماضي الجزائر.²

إضافة إلى ذلك كانت رواية "الدروب الشاقة" لـ"مولود فرعون" مبنية أساسا على الاسترجاع، لأنها بدأت بوفاة البطل الذي نجهل عنه أي شيء وقد جعل حبيبته "ذهبية" تسترجع مذكراته التي كانت تقرأها وتتمعن فيها علما تجد أجوبة للعديد من التساؤلات التي بقيت عالقة في ذهنها وهي في حاجة إلى أجوبة وتوضيحات.³

وقد كانت الفرنسية "ماري" زوجة "أمر أوقاسي" في رواية الأرض والدم لمولود فرعون لا تقتأ تسترجع ماضيها البائس عندما كانت في فرنسا تعيش رفقة والدتها وعشاقها الذين كانوا يتغيرون بسرعة إلى أن وجدت نفسها حاملا من أحدهم وهي قاصر، لقد سئمت من تلك الحياة التعيسة إلى أن جاء "أمر" وخلصها من ذلك الجحيم،⁴ ومن هنا كانت "ماري" تقارن بين ماضيها البائس وحاضرها المقبول إلى حد بعيد في قرية "إيغيل نزمان" حيث كان العديد

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 64.

² Chikhi Beida, Problématique de l'écriture dans l'œuvre romanesque de Mohammed Dib, OPU, janvier 1989, p114.

³ Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, p 33.

⁴ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 88.

ينظرون إليها بنظرة إعجاب وتقدير وعليه قررت أن تنسى ماضيها.¹ لقد كانت "ماري" تبحث عن الاستقرار والدفع العائلي بغض النظر عن الأمور المادية.

وكثيرا ما كان المغتربون المغاربة يسترجعون ماضيهم الذي كانوا يظنون أنه تعيس حينما كانوا في أوطانهم لذا هاجروا للبحث عن أوضاع أحسن ولكنهم سرعان ما اصطدموا بعالم رفضهم وهمشهم، لقد كانوا في الماضي يحملون على الأقل أسماء وإيصالات طلب بطاقة الهوية وبطاقة البطالة. أما الآن فقد أصبحوا "تيوسا" إذ بات الكل يرفضهم وغالبا ما كانوا يجدون أنفسهم في السجن أو في الملجأ أو في الصليب الأحمر.²

و من خلال ما سبق من مشاهد يتجلى استرجاع الشخصيات الروائية لماضيها و المقارنة بينه و بين حاضرها و لتبين جمال ذلك الماضي الذي غالبا ما تهرب إليه لتعيش بأفكارها و خيالها السعادة التي ضاعت منها و افتقدتها في حاضرها التعيس.

2.1.5.1 الاسترجاع الداخلي:

ويتجلى في استرجاع "كوزيت" لأيام طفولتها حين كانت عند "آل تيناردييه" وما مدى التعاسة المادية والمعنوية التي عرفتتها حينذاك قبل قدوم "جان فالجان" الذي حضر وانتشلها من ذلك الوسط البائس وخلصها منه.³

وكذا كانت "جيرفيز" في رواية الخمارة لـ"إميل زولا" تسترجع أيامها الأولى عند وصولها إلى باريس رفقة "لانتييه" وابنيها عند مرورها من أمام نزل "بونكور" (Boncoeur) حيث كانت تسكن لقد تذكرت تلك الأيام حين كانت شابة ومقبلة على الحياة وفي ذهنها مشاريع كثيرة

¹ Amhis–Ouksel Djoher, D'une rive à l'autre, Casbah éditions, Alger 2009, pp 26, 27.

² Chraïbi Driss, Les boucs, pp 26, 27.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome, Volume, p 419.

وكانت تطمح إلى تحقيقها، لقد مرت عشرون سنة منذ ذلك الوقت ولكن سرعان ما أحست بتعب شديد ثم انهارت وسقطت على الرصيف لأن حاضرها عكس ما كانت تتمناه إذ أصبحت مدمنة على الخمر وضيعت جراء ذلك حياتها وعملها وصحتها.¹

وفي المقابل كان عمر في رواية "الدار الكبيرة" يسترجع مشهد إخراج والدته لجدته المقعدة من غرفتهم إلى غرفة أخرى بعيدة نوعا ما عنهم وكانت العجوز تتوسل "عيني" ألا تفعل معها ذلك وقد كان أيضا "عمر" رافضا لفعل والدته مما دفعه إلى التشاجر معها ثم هروبه إلى خارج البيت لذا كان طول الوقت يستذكر ذلك المشهد ويتساءل عن حال جدته: هل ضربتها والدته وهل لا تزال على قيد الحياة أم لا؟ لقد كان "عمر" جراء ذلك جد محبط حتى بات يتمنى الموت.²

وبهذا يلتقي الروائيون المغاربة بالروائيين الفرنسيين في توظيفهم للاسترجاع بنوعيه الخارجي والداخلي الذي سلط الضوء على بعض الجوانب الغامضة في حياة الشخصيات أو في الأحداث السردية في حد ذاتها، كما كانت بعض الشخصيات تقوم من خلال الاسترجاع بعملية المقارنة بين واقعها وماضيها وما هي التغيرات الطارئة على حياتهم إيجابيا أم سلبيا، مع الملاحظة أن هناك من الشخصيات من كانت تعود إلى الماضي هروبا من قسوة الحاضر.

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 481.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 37.

2.5.1) الاستشراف في الروائيتين الفرنسية والمغربية:

إذا كانت إثارة الماضي واسترجاعه مهم في العملية السردية الروائية فإن للاستباق أو الاستشراف أيضا دورا فعالا في الكشف عن بعض الأحداث المستقبلية سواء على مستوى الأحداث الروائية في حد ذاتها أو على مستوى الواقع الفعلي المعيشي للمؤلف.

هذا وتزخر رواية "جيرمينال" بمشاهد استشرافية عديدة سواء في بدايتها أو في نهايتها، ولعل أول ما يصادفنا فيها هو الحوار الذي دار بين العجوز "بونمور" و"إيتين" الذي وصل إلى مدينة "مونتسو" ذات صباح باكر باحثا عن عمل في المنجم ويخبره العجوز "بونمور" أو الأوقات صعبة للغاية في تلك المنطقة وأنها تشكو من أزمة اقتصادية خانقة ويرى أن الأيام القادمة ستكون جد قاسية على أهل "مونتسو" فعن قريب ستمتلئ الشوارع بالمتسولين.¹ وواصل العجوز "بونمور" كلامه بأن الناس لم تعد تأكل اللحم يوميا بل أصبح اللحم حلما بعيد المنال بالنسبة للأغلبية الذين لم يعودوا يبحثون إلا عن كيفية حصولهم على خبزهم اليومي الذي بدأ يقل وقد يصبح نادرا في المستقبل . ويعلق "إيتين" قائلا : ينبغي إذن أن نموت من الجوع.² وكان "إيتين" يستمع إلى صرخة مجاعة قادمة إلى "مونتسو" والتي كانت تنقلها رياح شهر مارس في تلك القرية العارية".³

بالفعل كانت هذه التنبؤات تعلن عن الأوضاع الصعبة التي سيعيشها أهل مونتسو أثناء فترة الإضراب و المتمثلة في نفاذ المؤونة واحتياج الناس إلى الأكل الذي لم يعودوا قادرين على اقتنائه .

¹ Zola Emile, Germinal, p 17.

المصدر السابق، ص 17. ²

المصدر السابق، ص 18. ³

كما كان المشهد الأخير من الرواية نفسها والمتمثل في مغادرة "إيتيين" لمدينة "مونتسو" تاركا وراءه حطام منجم الفورو" تلك الفجوة اللعينة التي التهمت العديد من أرواح العمال، وقد التقى "إيتيين" في صباح ذلك اليوم بالعديد من العمال الذين عادوا إلى عملهم في المنجم ومن بينهم زوجة "ماهو" التي كانت مجبرة على ذلك بعدما فقدت زوجها وابنيها، لقد كان صباح ذلك اليوم المشرق بشمس شهر أفريل المشعة والباعثة بدفئها على كل الأرض التي ولدت من جديد، لقد كانت الحياة تتدفق من جوانبها والبراعم تتحول إلى أوراق والحقول تكتسي حلة خضراء ، وكذا البذور تتفتح وتتمدد وتخترق التراب في كل مكان، وكذا كان الرجال ينمون و كان الجيش الأسود المنتقم ينمو ببطء في الأخاديد، ينمو من أجل حصاد وفير في القرون القادمة.¹

لقد كان هذا المشهد يتنبؤ بمستقبل أجمل للمنطقة لأن فشلهم في ذلك الإضراب لا يمثل نهاية النضال بل كان درسا تعلم منه العمال والمناضلين و أدركوا الأخطاء والثغرات التي لم ينتبهوا إليها قبل ذلك وبهذا ستكون تجاربهم في المستقبل ناجحة وستأتي بثمارها، وبالفعل أظهر الواقع كيفية تنظيم العمال لنضالهم وكيفية انتصار الحركات العمالية في بدايات القرن العشرين وتحقيقها لإنجازات هائلة في صالح العمال.

علاوة على ذلك، كان مشهد تغيير "جيرفيز" و"كوبو"، اللذين ساءت حالهما المادية كثيرا، لمحل سكناهما لأن الإيجار كان جد مرتفع وعليه انتقلا إلى الطابق السادس وكان مسكنهما مقابلا لمسكن حفار القبور "بازوج" وغير بعيد عنها وتحت السلم الذي يقود إلى سقف العمارة كان يسكن "الأب برو" (Le père Bru)،² الذي كان شخصا معدما يعيش على حسنات الناس ، لقد كان هذا المشهد يتنبؤ بتدهور حال "كوبو" و"جيرفيز" المادية والمعنوية أكثر بسبب إدمانها على الخمر و بعد فترة قصيرة مرض "كوبو" وجن ومات في مستشفى

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 557, 558.

² Zola Emile, *L'assommoir*, p 371.

وبقيت "جيرفيز" لوحدها دون عائل أو أي مورد للمال أصبحت تتسول مثل "الأب برو" الذي أخذت مكانه تحت السلم مباشرة بعد وفاته كما تسلم "بازوج" حفار القبور بعد فترة قصيرة جثتها ليدفنها كما كان يتنبؤ لها في السابق حتى قبل أن تسوء حالتها.¹

هذا وتنتهي رواية "الأب غوريو" لـ "بالزاك" بمشهد استشرافي لا سيما بالنسبة لـ "دي راستينياك" الذي كان منبها بمدينة باريس وبحياة الترف فيها ثم بحفلات واجتماعات الطبقة الأرستقراطية الراقية، كما اعتبر من حياة "الأب غوريو" الذي مات وحيدا بعيدا عن ابنتيه اللتين لم تحضرا جنازته التي لم يتكفل بها سوى "دي راستينياك" ورفيقه "كريستوف" الساكن في نفس النزل وفي الأخير قال "دي راستينياك" موجها كلامه إلى مدينة باريس: "إلى كلينا الآن".² وبهذا يتنبؤ بدخوله بقوة للمجتمع الباريسي الراقي بعدما تعلم مختلف الحيل والوسائل التي تمكنه من نيل القبول والترحيب من قبل أبناء تلك الطبقة.

وفي المقابل وظف الروائيون المغاربة تقنية الاستشراف في رواياتهم والتي تعكس النظرة المستقبلية لأبناء الثقافة المغربية لأحوالهم وأوضاعهم، مع الملاحظة أن جل التنبؤات خاصة في رواية الدار الكبيرة كان يعلوها التشاؤم ولا سيما فيما يخص "عيني"،³ بسبب نفسياتها المحبطة وواقعها البائس فهي لم تكن قادرة على تصور مستقبل أجمل أو حتى التنبؤ به.

إضافة إلى ذلك كان استرجاع الماضي والتنبؤ بالمستقبل في الروايات المغربية مرتبطة في معظمها بقوى عجيبة و خارقة مما يعكس لنا الطمس الثقافي والفكري الذي كان يعمل المحتل على إدخال المجتمع الجزائري فيه.⁴

¹ Zola Emile, L'assommoir, p123.

² Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 308.

³ Chikhi Beida, Problématique de l'écriture, p 117.

المرجع السابق، ص 118، 119.

لقد كان المجتمع المغربي عامة غارقا في الجهل والأمية أثناء فترة الاحتلال وحتى الدين الذي كان يتخذه كمهرب له من قسوة الواقع كان ممزوجا بالخرافات والأساطير مما جعله مجتمعا مغيبا عن واقعه، لقد كان يستسلم للأوضاع المزرية المفروضة عليه ظنا منه أنه قضاء وقدر من عند الله وكان يرى حتى المحتل على أنه أمر مقدر وعليه بقبوله، هذا ما لا نجده في الروايات الفرنسية التي تقترب أكثر من الواقع وتحاول أن تواجه مشاكلها وتبحث لها عن حلول حتى تغير واقعها البائس إلى واقع أفضل لذا كانت التنبؤات الواردة فيها أكثر إيجابية وتفاؤلا.

و من أهم الشخصيات التي كانت تتنبؤ بالمستقبل في ثلاثية محمد ديب شخصيات منقطعة عن الواقع و عن المجتمع ، شخصيات تعيش في عزلة تامة أمثال "منون" في الدار الكبيرة و"كومندار" في الحريق¹.

لقد كانت "منون" امرأة بائسة طلقها زوجها و حرّمها من رؤية أبنائها مما تسبب في مرضها و تدهور حالتها النفسية ،لقد كان كلامها يشبه الهذيان و كانت كثيرا ما تغيب عن وعيها و كانت كلما استفاقت تتلفظ بكلام مبهم كله رموز و إichاءات و يتجلى ذلك في الأشعار و الأناشيد التي كانت ترددها خاصة بعد خروج الشرطة من دار السبيطار و إحداث هلع كبير وسط السكان² .

تستهل "منون" نشيدها بـ"عندما ينكسر الليل" والمقصود هنا هو ليل الاستعمار كما يتضمن فعل "ينكسر" في المستقبل هذا الفعل الذي يحمل نوعا من العنف والقوة أي أن قيد الاستعمار لن ينكسر إلا بالقوة بقوة السلاح والحرب.إن انكسار الليل وزواله يسمح بظهور الشمس التي تنشر دفئها ونورها على الجبال الحادة، والجبال هي معقل المجاهدين إبان الثورة وتقول في الجزء الثاني:

¹ Chikhi Beida, Problématique de l'écriture, p120.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 47 – 51.

ما أغرب بلدي حيث الكثير

من الأنفاس تتحرر

تضطرب أشجار الزيتون

أنا وكل ما حولي ينشد:

أيتها الأرض المحروقة السوداء

أمي الحبيبة

لن يبقى ابنك وحيدا

رفقة الزمن الذي يخدش القلب

استمع إلى صوتي

الذي يتسلل عبر الأشجار

فلتجعل الثيران تصرخ¹

تشير "منون" في هذا المقطع إلى الوعي الذي بدأ ينتشر في الأوساط الشعبية الجزائرية خاصة بعد أحداث 8 ماي 1945م، لقد بدأت العقول تتحرر وتستيقظ بل حتى أشجار الزيتون التي هي رمز للأصالة والسلام بدأت تضطرب وتتحرك لأنه حان وقت التحرر من قيود الاحتلال، وقد بات الكل يرى كم هي سوداء ومحروقة أرض الجزائر المستعمرة، ثم تتوجه إلى أرض الجزائر وتتادىها بالأم الحبيبة وتتنبؤ بأن ابنها، ابن الجزائر لن يبقى وحيدا

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 47.

ولا معزولا بعد هذا، لأنه ينبغي أن يستمع الكل إلى الصوت الذي يتسلل حتى عبر الأشجار ليصل إلى كل مكان في أرض الجزائر بل حتى يجعل الشيران تصرخ وتثور وتتمرد. يتنبؤ هذا المقطع عن ظهور الوعي الذي كان المناضلون السياسيون يعملون جاهدين على نشره في الأوساط الشعبية الجزائرية.

وفي مقطع آخر تقول "منون":

لقد وصل هذا الصباح الصيفي

أشعر أنني حامل

يا أمي الحنون

والنساء في أكوأخهن

ينتظرن صراخي¹

وفي هذا المقطع تتنبؤ "منون" بالثورة، إذ بعدما أدرك الشعب الجزائري واقعهم المزري قرروا العمل، لقد وصل الصباح، صبح يوم جديد ستحدث فيه تغييرات كثيرة، لذا فهي تشعر أنها حامل، حامل بالثورة وكل النساء ينتظرن بفارغ الصبر سماع صراخها الذي يخبر بوقت ولادتها وهنا تصور انتظار الشعب الجزائري بشغف سماع الرصاصة الأولى التي تعلن عن اندلاع الثورة التحريرية.

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 49.

وفي المقطع الموالي تقول:

أنا التي أتحدث، يا جزائر

ربما أنا هي

المرأة الأكثر بساطة من بين نسائك

ولكن صوتي لن يتوقف

على الصراخ والمناداة، في السهول وفي الجبال

أنا نازلة من الأوراس

افتحوا أبوابكن

أيتها الزوجات الحنونات

اسقوني مياهها باردة

العسل وخبز الشعير¹

يتنبؤ هذا المقطع باندلاع الثورة التحريرية التي لن تتوقف حتى تحقق أهدافها، و تخبر عن مكان اندلاعها بالأوراس و هذه حقيقة تحققت بالفعل رغم أن الرواية ألفت عام 1952 ولكنها لن تبقى هناك بل ستتزل لتعم كل نواحي البلاد وتطلب "منون" من النساء خاصة لأنهن ربات البيوت باستقبال هذه الثورة وتزويدها بالمياه الباردة والأكل الجيد حتى تتمكن من الاستمرار، وهذا ما حدث بالفعل، فالنساء هن من كن يجهزن الأكل والمئونة للمجاهدين .

¹ Dib Mohammed , La grande maison, p 50.

وفي المقطع الأخير تختم "منون" بمقطع تتنبؤ فيه عن النتائج الإيجابية للثورة فهي تقول:

لقد جئت لأراكم

ولأحمل لكم السعادة

لكم ولأطفالكم

فليكبر صبيانكم الحديثي الولادة

ولينمو قمحكم

وليختمر خبزكم

أتمنى ألا يكون هناك أي مانع في سبيلكم

ولتكن السعادة معكم¹

وفي هذا المقطع تتنبؤ "منون" بدخول الثورة إلى بيوت الجزائريين حاملة لهم معها كل الخير والنصرة للكبار وللصغار بل حتى لحديثي الولادة.

وبهذا تنتهي "منون" نشيدها بنفحة أمل رائعة تعيد التفاؤل والفرح إلى النفوس المتعبة.

ودائما في هذا السياق، يتنبؤ "سليمان مسكين" - في رواية "الحريق" الذي شهد الحريق المهول الذي اندلع في أكواخ الفلاحين - عن اندلاع الثورة التحريرية في قوله: "لقد أشعلت

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 51.

النار وهي لن تنطفئ إلى الأبد¹ مع الملاحظة أن رواية الحريق كتبت عام 1954م، قبيل اندلاع الثورة التحريرية ببضعة أشهر، وهي تحمل أمل التغيير للجزائريين.

لقد كان تتبؤ "منون" و"سليمان مسكين" مفعم بالتفاؤل بفضل رياح الثورة والتغيير التي ستهب على حياة الجزائريين و ستغيرها.

مع الملاحظة أن الأمور تغيرت بعد "منون" و "كومندار" و ذلك عند ظهور كوكبة من الشباب في المنطقة المغاربية تتميز بالفطنة و العقلانية و لا تعير اهتماما كبيرا للأمور الغيبية و يتجلى ذلك في رواية الحريق التي يظهر فيها "عمر" نائما عندما كان "كومندار" يسرد عليه حكاية الحصان الأبيض الطائر و قد قال له قبل ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حصان بهذه الأوصاف في الواقع و أن ما كان يراه مجرد أحلام أو أوهام².

هذا وقد تتبأ " يلعن والديك" بطل رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" عن حال المغتربين الذي سيكون أحسن وأجمل في المستقبل، حين قال متوجها إلى صديقه "راوس": "لن يتأخر ميلاد فصل الربيع [...] أليس كذلك؟ وسنولد كلنا من جديد"³. ويحمل هذا التتبؤ في طياته نسبة معتبرة من التفاؤل والتغيير الإيجابي عن قريب ويشبه "شرايبي" في هذا الاستشراف بما ورد في آخر رواية "جيرمينال" لـ "زولا" الذي تحدث هو الآخر عن الميلاد الجديد الآتي مع فصل الربيع ومع ميلاد الطبيعة وظهور البراعم.

وبهذا تلتقي تتبؤات "محمد ديب" و"إدريس شرايبي" بتتبؤات "بالزك" في "الأب غوريو" و "إميل زولا" في رواية "جيرمينال" المتفائلة والمبشرة بغد أفضل.

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 131.

² Chikhi Beida ,pp119 ,120

³ Chraïbi Driss, Les boucs, p153

6.1 تقنيات زمن السرد في الروايتين الفرنسية والمغربية:

تتمثل تقنيات زمن السرد في مجموعة من العناصر الفنية التي يوظفها المؤلف إما لتسريع الزمن أو لإبطائه في إطار النصوص السردية، وتتشكل تقنيات إسراع السرد من الخلاصة والحذف، أما تقنيات إبطاء العملية السردية فتتكون من المشهد السردى والوقفة الوصفية و سيتدّيح ذلك فيما يلي:

1.6.1 تقنيات تسريع السرد في الروايتين الفرنسية والمغربية:

1.1.6.1 تجليات الخلاصة:

الخلاصة هي "سرد موجز يكون فيه زمن الخطاب أصغر بكثير من زمن الحكاية وتتضمن البنى السردية تلاخيص لأحداث ووقائع جرت دون الخوض في تفاصيلها فتجيء في مقاطع سردية أو إشارات"،¹ وقد نظر "جيرار جينيت" إلى الخلاصة على أنها ضرب من "التسريع الذي يلحق القصة في بعض أجزائها بحيث تتحول من جراء تلخيصها إلى نوع من النظرات العابرة للماضي والمستقبل"،² كما تتميز الخلاصة بالاحتفاظ بالضمير المستعمل في الخطاب الذي تؤديه الشخصيات مما أدى إلى ظهورها بأسلوب مباشر.³

هذا وتتجلى تقنية الخلاصة في العديد من المشاهد والمقاطع في الروايات الفرنسية والمغربية كالتالي:

مها القصراني، الزمن في الرواية العربية (1960 – 2000)، ص 220.¹

حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ص 165.²

المرجع السابق، ص 154.³

لقد ورد في رواية "البؤساء" على لسان الراوي متحدثا عن "جان فالجان" أنه حين دخل إلى السجن دخله يائسا وغادره مظلما.¹ لقد لخص الراوي حال "جان فالجان" عند دخوله وبعد خروجه من السجن هذه المدة التي دامت حوالي تسع عشرة سنة، فهو لم يفصل في الأسباب والعوامل التي أحدثت فيه ذلك التحول الرهيب.

ويقول الراوي أيضا عن "كوزيت" الملقبة بالقبرة: "إلا أن القبرة لم تكن تغني أبدا".² وهو تلخيص لحزن "كوزيت" التي كانت تشبه القبرة في صغرها إلا أن نفسياتها المحبطة لم تكن تسمح لها بالغناء كطائر القبرة.

وفي الجزء الثالث من رواية "البؤساء" يتحدث الراوي عن ثروة جد "ماريوس" وخالته في قوله: "لم تكن ثروة الأب غيلنوماند كبيرة ولكن ثروة الأنسة "غيلنوماند" الكبيرة كانت معتبرة". وهنا يعطي الراوي فكرة عن ثروة هاتين الشخصيتين ولكن دون الدخول في تفاصيل أكثر.

وفي رواية "الخمارة" لـ"إميل زولا" يقول "غوجيه": "جار جيرفيز و أحد معجبيها حين تؤيد رأي والدته في ضرورة زواجه: "ليست كل النساء مثلك يا سيدة كوبو، لو كن النساء مثلك، فبإمكان للواحد أن يتزوج بعشرة منهن"،³ وبهذا يعبر عن إعجابه بها بصورة محترمة ودون ذكر تفاصيل أكثر.

وفي الرواية نفسها قالت "جيرفيز" متحدثة عن مسكنها الجديد الضيق جدا فهي تشكو من عدم قدرتها على ممارسة مهامها فيه كما ينبغي لأن حتى الحركة فيه محدودة جدا: "كان علينا فعل كل شيء فيه، النوم الأكل وكل ما يتبع"⁴، فهي بقولها هذا تريد وصف الضيق الشديد للمسكن دون ذكر تفاصيل أكثر وتأثير ذلك على نفسية "جيرفيز".

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 114.

المصدر السابق، ص 185.

³ Zola Emile, L'assommoir, p 152.

المصدر السابق، ص 371.

وفي رواية "جيرمينال" لـ "زولا" يقول "إيتيين" عن والدته "جيرفيز": "أمي ليست سعيدة وكنت أرسل لها من حين لآخر مبلغ مئة فلسا".¹ وبهذا يخبرنا عن تعاسة والدته وحاجتها الماسة إلى المال دون الخوض في ذكر الأسباب.

كما طلبت السيدة "غريغوار" من ابنتها "سيسيل" أن تؤدي وظيفتها نحو السيدة "ماهو" التي حضرت إليهم طالبة منهم مساعدة مالية قائلة: "بنيتي قومي بمهمتك".² فهي تدرك جيد ما ستقوم به وما ستقدمه لهم من مساعدات كما كانت عبارات: "الخبز! الخبز! الخبز!"³ المتكررة عدة مرات في رواية "جيرمينال" تدل باختصار شديد عن إحساس أهل "مونسو" بالجوع والعوز والحاجة إلى ضروريات العيش.

وفي المقابل قال الراوي في رواية "الدار الكبير" لـ "محمد ديب" على لسان السيد "حسان" أستاذ عمر إن: "الوطن ليس الأرض التي نعيش عليها فحسب وإنما هو مجموع السكان وكل ما يوجد فيه".⁴

لقد عبر عن مفهوم الوطن في كلمات وجيزة وبليغة دون الحاجة إلى الإسهاب.

وعلى غرار "جيرمينال" قالت "عيني" محببة أبناءها الذين كانوا يطلبون المزيد من الخبز: "لا مزيد من الخبز، لا يوجد خبز".⁵ وهذا يعكس عدم قدرة "عيني" على توفير الخبز لأبنائها الذي هو من ضروريات العيش والحياة اليومية للإنسان الذي لا يمكنه أن يبقى على قيد الحياة بدون الخبز خاصة في البلدان الفقيرة.

¹ Zola Emile ,Germinal, p 56.

² المصدر السابق، ص 105.

³ المصدر السابق، ص 22.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, p 22.

⁵ المصدر السابق، ص 53.

وتقول "عيني" أيضا لقريبتها "منصورية" وهي تشتكي تعبها ومعاناتها في إعالة أطفالها: "آه! لم يبق لي أي شيء لم أره".¹ تريد "عيني" من خلال هذه الجملة القصيرة أن تلخص مدى معاناتها ومختلف العراقيل والعقبات التي تصادفها وهي تجري وراء لقمة العيش.

وفي رواية "الحريق"، يقول الراوي عن دار سبيطار: "تعيش دار سبيطار مأساة شعب ممزق".² ومن خلال هذه الجملة أراد الراوي أن يقول أن سكان دار سبيطار في معاناتهم اليومية ومشاكلهم وشجاراتهم وأحزانهم ليسوا إلا صورة مصغرة لما يحدث في الجزائر حينذاك.

وقال الراوي على لسان "يلعن والديك" في رواية "التيوس" لإدريس شرابي: إن: "أرواحنا تتزف بفرنسا".³ يلخص "يلعن والديك" من خلال هذه الجملة، آلام المغتربين المغاربة في فرنسا جراء التهميش والعنصرية إلى غير ذلك.

وفي الرواية نفسها يقول الراوي "حصاد ضعيف لمن زرع في حقل الجار"⁴ تلخص هذه الجملة عدم تحقيق الإنسان الذي يعيش في غير بلده لمبتغاه بشكل كامل إذ تكون إنجازاته دائما ناقصة لأنه لا ينال حقوقه كاملة وحتى أعماله لا يكافأ عليها مثلما يكافأ الفرنسي وعليه فإن حصاده دائما ضعيف.

وفي رواية "نوم العادل" لـ"مولود معمري" يقول الراوي على لسان "سليمان": إن توزيع المئونة جد مضطرب والآن الكل جائع إلا الذي تعرف...⁵

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 57.

² Dib Mohammed, L'incendie, p 154.

³ Chraïbi Driss, Les boucs, p 15.

المصدر السابق، ص 4.34

⁵ Mammeri Mouloud, Le sommeil du juste, p 76.

وهنا يلخص سليمان حال الجوع والفقر الذي كان يعيشه المجتمع الجزائري أثناء الحرب العالمية الثانية اللهم إلا المحتل والمقربين منه فإنهم لا يشكون من نقص المؤونة أو الحاجة. وبهذا يشترك كل من الروائيين الفرنسيين والمغاربة في توظيفهم لتقنية الخلاصة أو التلخيص للتعبير بصورة وجيزة وبلغية عن معاناة المجتمعين الفرنسي والمغربي سواء على المستوى المادي كالفقر والجوع أو المستوى المعنوي كالتهميش والرفض.

2.1.6.1 تجليات الحذف في الروايتين الفرنسية والمغربية:

يتمثل الحذف في إيراد مجموعة من الأحداث والمعلومات مع حذف التفاصيل وتوظيف بعض العبارات الدالة على ذلك "ويكون الحذف من إشارات محددة أو غير محددة للفترات الزمنية التي تستغرقها الأحداث في تناميها باتجاه المستقبل أو في تراجعها نحو الماضي".¹ ويتجلى ذلك في المقاطع السردية التالية:

قال "هوغو" في رواية البؤساء: "عندما أدركت فانتين أنها حية كان لها لحظة من الفرح".² و تدل عبارة "لحظة من الفرح" على فترة قصيرة من الفرح والبهجة دون تحديد هذه اللحظة وهذا ما يسمى بالحذف.

ويقول أيضا عن فانتين: "ففي هذه البدايات (En ces commencements) رأيناها تدفع المال لعائلة تيناردييه".³ إن عبارة "في هذه البدايات" تدل عن الفترات الأولى التي تركت فيها

¹ محمد عزام، فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان)، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية سورية، ص 125.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 205.

المصدر السابق، ص 205.³

"فانتين"ابنتها عند آل تيناردية و كانت ترسل لهم المبلغ المتفق عليه بانتظام و لا نعرف المدة التي استغرقتها هذه البدايات .

وقال "هوغو" عن "جان فالجان" الذي بقي في السجن لمدة معينة، ابتعد عن أخته وأبنائها الذين كان يعيش معهم ويعمل من أجل إعالتهم والذي دخل السجن بسببهم: "وبعد مكوثه بضع سنوات في السجن نسيهم هو أيضا".¹ لقد استعمل السارد عبارة "بضع سنوات" ليشير فيها إلى الفترة التي أمضاها "فالجان" في السجن دون ذكر التفاصيل لما حدث طيلة تلك الفترة ولماذا وكيف انقطعت علاقته بأخته وأبنائها.

وكذا قال السارد في رواية "الأب غوريو" لـ "بالزاك" حين ورد الحديث عن ابنتي غوريو وعن عدم زيارتهما له يقول "غوريو": "إنهما تأتيان في بعض الأحيان".² لقد وظف عبارة "في بعض الأحيان" ليعبر عن قلة زيارتهما له لكن دون تحديد عدد المرات التي زارته فيها.

وقد وظف عبارة "الوقت الضائع" في حديثه عن الطالب "دي راستينياك" الذي يقرر تعويض الوقت الضائع بالعمل الجاد في قوله: "لكي يعوض الوقت الضائع، وعد الطالب الشجاع نفسه، أنه وهو يرقص، سيعمل حتى الصباح".³

وتدل عبارة "الوقت الضائع" عن أحداث عدة في حياة الطالب "دي راستينياك" الذي أهمل دراسته وأصبح يتردد منذ فترة على مجالس اللهو والأنس لدى الطبقة الأرستقراطية طمعا في الانضمام إليهم، ولم يورد السارد هذه التفاصيل لأنها لم تكن مهمة جدا بالنسبة للمتلقي لذا لجأ إلى تقنية الحذف.

وفي رواية الخمار لـ "إميل زولا" يقول السارد عن البطلة "جيرفيز" أنها "في غضون بضعة أسابيع، عملت في ثماني محلات لغسل الملابس".¹ لقد نابت عبارة "في غضون بضعة

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 113.

² Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 49.

المصدر السابق، ص 53.³

أسابيع" عن تفاصيل الأحداث التي وقعت لـ "جيرفيز" أثناء تلك الفترة وكيف كانت تطرد من هذه الوظائف.

وفي المقابل تزخر الرواية المغاربية بتقنية الحذف التي تسهم في تقليص الأحداث وتسريع السرد والقضاء على الرتابة والملل، ومن أهم هذه الروايات نذكر ما ورد في رواية "الدار الكبيرة" لـ محمد ديب¹ حين ورد الحديث عن أطفال الرحبية: "كم من مرة طردوا خصومهم حتى وسط المدينة"²، إذن فضل السارد استخدام عبارة "كم من مرة" حتى لا يورد تفاصيل الحادثة وعدد المرات التي وقعت فيها.

وفي الرواية نفسها ورد أن "عيني" غيرت محل سكنها العديد من المرات قبل أن تستقر بدار سبيطار: "لقد رحلوا العشرات من المرات"³ لقد نابت عبارة "العشرات من المرات" عن العدد الكبير من المرات وقد حذفت كل تفاصيل تلك الأحداث.

وكذا قالت "عيني" وهي تلوم والدتها التي قبلت المجيء إليها بعدما كانت عند ابنها حيث كانت تعمل في بيته "لمدة سنوات"⁴ تدل هذه العبارة على فترة زمنية طويلة قضتها العجوز "ماما" وهي تخدم وقد اختزل الراوي كل أحداث تلك الفترة في تلك العبارة.

وفي رواية "الحريق" قال "بن يوب": "إن الحياة التي نحيها منذ عصر أجدادنا الأوائل ليست بحياة"⁵ لقد حذف الراوي من خلال عبارة "منذ عصر أجدادنا الأوائل" كل ما حدث طيلة هذه السنوات الطويلة جدا لأنها حسب المؤلف لا تهم الملتقي وستحدث رتابة في أحداث الرواية.

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 437.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 25.

المصدر السابق، ص 26.

المصدر السابق، ص 31.

⁵ Dib Mohammed, L'incendie, p 47.

ويقول "رابح" في رواية "نوم العادل" لـ"مولود معمري": "لم تولد هذه القرية البارحة"¹، لقد نابت كلمة "البارحة" عن أحداث كثيرة حذفت لأن السارد رأى أنه ليس من الضروري سرد كل الأحداث المرتبطة بنشأة القرية لأنها كثيرة و متشعبة وليست ضرورية للبناء الفني للرواية.

يقول السارد في رواية "التيوس" لـ"إدريس شرايبي": "وفي الوقت ذاته يموت طفل وفي الوقت ذاته أنهار مثل هذا الجدار وفي الوقت ذاته يتدهور حال التيوس"² لقد قام المؤلف من خلال عبارة "وفي الوقت ذاته" بحذف كل ما حدث في هذه الفترات من مشاكل ومآسي تسبب في كل تلك الأمور، فهو يحذف أسباب التدهور والموت...

وبهذا يلتقي الروائيون المغاربة بالروائيين الفرنسيين في توظيفهم لتقنية الحذف قصد تسريع الأحداث والقضاء على الرتابة والملل.

3.1.6.1) تقنيات إبطاء السرد في الروايتين الفرنسية والمغربية:

1.3.1.6.1) تجليات المشهد السردى:

المشهد السردى هو "أسلوب العرض الذي تلجأ إليه الرواية حيث تقدم الشخصيات في حال حوار مباشر [...] فالمشهد مخصص في الرواية للأحداث المهمة"³. وفي المشهد السردى يتخلل الراوي عن السرد و"يفسح المجال للحوار الذي تعبر عبره الشخصيات عن همومها وشواغلها"⁴، كما يحتل المشهد السردى أهمية كبيرة في إطار الحركة الزمنية للنص السردى نظرا لقدرته على الحد من رتابة السرد.

¹ Mammeri Mouloud, Le sommeil du juste, p 30.

² Chraïbi Driss, Les boucs, p 39.

لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، ص 75.

عبد المنعم زكريا القاضي، البنية السردية في الرواية، مطبعة الصحوة، (د،ط)، 2008، ص 133.

لقد وظف "فيكتور هوغو" تقنية السرد المشهدي في رواية "البؤساء" ولعل أهم المقاطع المجسدة للمشهد السردى، الحوار الذي دار بين "جان فالجان" بعد خروجه من السجن والأسقف "ميريال" الذي آواه في بيته بعدما رفض أصحاب الفنادق والنزل استقباله عندما علموا أنه سجين سابق.

يتميز هذا الحوار بالطول، لأن "جان فالجان" كان يعرف الأسقف بنفسه، لقد ذكر له كل تفاصيل حياته خاصة عندما كان في السجن وبعد خروجه وقبيل وصوله إلى بيته، لذا كانت الجمل الموظفة في هذا الحوار مطولة، لقد كانت جمل إخبارية،¹ ولكن سرعان ما انفعل عندما أدرك أن الأسقف قد قبله في بيته كضيف محترم لأنه إنسان خلقه الله ويستحق الاحترام والتقدير لذا بدأ يعبر عن فرحته ودهشته جراء ذلك من خلال جمل قصيرة استفهامية تارة وتعجبية تارة أخرى.²

ويجيبه الأسقف أنه لا يهتم لاسمه ولا لهويته ولا لماضيه وأن ذلك البيت هو بيت المسيح وليس بيته هو، وأن تلك الباب لا تسأل طارقها هل يحمل اسمها؟ ولكن هل لديه انشغال أو ألم؟ هل أنت متألم؟ هل أنت جائع وعطشان؟ أهلا بك إذن، ولا تشكرني ولا تقل أنني أستقبلك في بيتي.³

لقد أشعر هذا الحوار "فالجان" بالراحة والطمأنينة عندما تحدث عن نفسه وأفشى بكل أسرارهِ دون أي خوف أو إحراج وأيضا حين رد له الأسقف اعتباره كإنسان خاصة وقت ناداه بأخيه بينما دأب الآخرون على مناداته بالكلب.⁴

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 100, 101.

المصدر السابق، ص 102، 103.²

المصدر السابق، ص 103.³

المصدر السابق، ص 103، 104.⁴

ويليه الحوار الذي دار بين السيدة "تيناردييه" و"فانتين" التي طلبت منها التكفل بابنتها "كوزيت" مقابل مبلغ من المال وكانت تتحاوران وتتفقان على الشروط التي تخدمهما معا.¹

لقد كان هذا الحوار مزيجا بين المقاطع الهادئة والجمل الطويلة وبين الجمل القصيرة التي ظهرت على شكل أسئلة وأجوبة قصيرة وسريعة خاصة عندما كانت السيدة "تيناردييه" تسأل "فانتين" عن "كوزيت" وسنها وملابسها وكذا عن مبلغ المال الذي ينبغي دفعه شهريا وفي تلك الأثناء يتدخل السيد "تيناردييه" ليملي شروطه على فانتين فيما يخص المال وهنا يظهر جليا طمع هذا الرجل و جشعه.

ومن أهم الحوارات أيضا التي وردت في رواية "البؤساء" الحوار الذي دار بين "فانتين" و"جافير" ثم بين "جافير" و"جان فالجان" (السيد مادلين) ثم بين "السيد مادلين" و"فانتين"، يتميز هذا الحوار بالطول ويكشف عن قضايا وحقائق في غاية الأهمية.

لقد تشاجرت "فانتين" ذات يوم مع أحد البورجوازيين الذي كان دائما ينتقدها ويسخر منها وفي ذلك اليوم بالذات وضع كرة ثلج في ظهرها بينما كانت مريضة مما أدى إلى ثورتها عليه ولسوء حظها كان مفتش الشرطة "جافير" متواجدا في المكان فسارع إلى القبض عليها وأخذها إلى المخفر حيث كتب تقريره بسرعة وأخبرها أنها ستسجن لمدة ستة أشهر مما أدى إلى انهيارها لأنها في تلك الحال لن تتمكن من العمل لترسل المبلغ المطلوب لـ"آل تيناردييه" حيث توجد ابنتها "كوزيت" والمدينة لهم بأكثر من مئة فرنكا، ومن هنا أصبح الحوار عبارة عن بكاء وتوسل واستعطاف من قبل "فانتين" وقسوة ولامبالاة من قبل "جافير"² ولكن فجأة يدخل "السيد مادلين" رئيس البلدية (جان فالجان) لينقذها من مخالب "جافير" ومن هنا يتحول الحوار إلى "جافير" و"السيد مادلين" الذي كان يأمره بإطلاق سراحها، وسرعان ما تتدخل أيضا "فانتين" عندما سمعت اسم "السيد مادلين" الذي كان سبب كل مآسيها -حسب ظنّها-

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 179, 180.

المصدر السابق، ص 220، 221.

لتثور عليه وتشتمه ووصل بها الأمر إلى حد البصق على وجهه ولكن "السيد مادلين" كان صبوراً ومتفهماً.¹ و من ثم اشتد الحوار الذي انقلب إلى صراع بين "جافير" و "السيد مادلين": "لقد كان" جافير" مصراً على سجن "فانتين" بينما كان "السيد مادلين" مصراً على إطلاق سراحها وهنا شهد الحوار إيقاعاً سريعاً وكانت الجملة القصيرة تدل على حال الانفعال والصراع الذي كان يسود ذلك المقطع وبعد ذلك هدأت الأوضاع والتفت "السيد مادلين" نحو "فانتين" وكلمها بهدوء واعترف أنه تسبب فعلاً فيما آلت إليه ولكن دون علمه ولكنه وعدها أنه سيعوض كل خسائرها وأنه سيسدد كل ديونها و يعيد لها ابنتها إلى حضنها ويتكفل بهما وبكل مصاريفهما، وهنا تهدأ الأوضاع وتصبح جملة الحوار مرة أخرى أطول.²

يعكس هذا الحوار التمييز الطبقي السائد في المجتمع الفرنسي حينذاك، لقد قرر "جافير" سجن "فانتين" رغم أنها كانت مظلومة لأنها تجرأت وتشاجرت مع رجل من الطبقة البورجوازية. إضافة إلى حال الانهيار والإحباط النفسي الذي كانت عليه "فانتين" الخائفة من السجن وعدم تمكنها من دفع الأقساط التي عليها لآل "تيناردييه" ثم اكتشافها لحقيقة السيد "مادلين" صاحب الورشة ورئيس البلدية الذي كان عادلاً وطيحاً ولم يكن هو السبب في فصلها عن عملها في الورشة بل السيدة المسئولة عليها.

وعلى المستوى الفني، كان هذا الحوار مزيجاً بين الهدوء والانفعال، بين البكاء ، لذا كان إيقاعه يجمع بين السرعة والبطء معاً.

وهكذا كان "فيكتور هوغو" يكثر من المقاطع الحوارية في روايته هذه إذ كان يعطي للشخصيات الحرية للتعبير عن انشغالاتها وآلامها وأفكارها والكشف عن حقيقتها بصورة واضحة .

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 222.

المصدر السابق، ص 225، 226.²

وقد كانت رواية "جيرمينال" لـ"إميل زولا" مبنية أساسا على المقاطع الحوارية بين الشخصيات، لعل أول مشهد سردي حوارى يصادفنا في الرواية هو الحوار الذي دار بين العجوز "بونمور" و "إيتيين" الذي وصل للتو إلى مدينة "مونتسو" باحثا عن العمل فيها لذا كانت جملة استفهامية استفسارية عن الأوضاع هناك، و كان العجوز "بونمور" يجيب بكل صراحة عن الحال الاقتصادية السيئة جدا للمنطقة وأن الأيام المقبلة ستكون قاسية على أهل المنطقة.¹

وآخر حوار في رواية "جيرمينال" هو الذي جرى بين "إيتيين" المغادر لمدينة "مونتسو" والسيدة "ماهو" التي كانت متوجهة إلى عملها في المنجم.²

وفي المقابل كانت رواية "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب" تزخر بالمقاطع الحوارية من بدايتها إلى نهايتها، استهل "محمد ديب" روايته بمشهد حوارى يدور في فناء مدرسة ابتدائية حيث كان التلاميذ يركضون ويتنازعون على قطعة خبز صغيرة.³ وهنا يتجلى حال التلاميذ المزرية جدا وفقدهم المدقع، إذ كانوا يتشاجرون بقوة وبكل شراسة من أجل الفوز بقطعة خبز حتى وإن كانت يابسة.

لقد كان هذا الحوار سريعا وكانت جملة قصيرة وتعجبية.

كما كان الحوار الذي دار بين "عيني" ولالة حسناء و"عمر" حول قضايا مختلفة تخص "عيني" وزيارتها لقبر زوجها والتقاءها ببعض النساء في المقبرة، لقد كانت هذه عادة اعتادت النساء خاصة على ممارستها كل يوم جمعة وكانت فرصة أيضا للالتقاء وعقد بعض الصفقات خاصة الزواج، لقد أجابت "عيني" أنها لم تعد تزور قبر زوجها الذي لم يترك لها أي شيء، ثم أثارت "لالة حسناء" قضية المناضلين السياسيين الذين سجنهم السلطات الفرنسية كما كانت تنتقدهم لأنهم مزعجين ولن يستطيعوا إخراج فرنسا من الجزائر و بدأت

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 14 – 23.

المصدر السابق، ص 550 – 553.²

³ Dib Mohammed, *La grande maison*, pp 7, 8.

تسخر منهم ثم تخبرها "عيني" أن الشرطة سجنّت "حميد سراج" وعلقت "حسنا" أنه كان من الأحسن له لو بحث عن عمل وتزوج بدل تضييع وقته،¹ ثم سرعان ما بدأت تنتقد في "عمر" الذي أجابها بأنه سيدرس ويعمل ليعيل والدته وأخته وهنا بدأت حسنا تشتمه وتقنعه أن لا حق له في الطموح في واقع أفضل ومستقبل أجمل وكذا لا ينبغي أن يفكر في الدراسة لأنه ليس أهلا لذلك بل ينبغي أن يعمل كثيرا حتى يتمكن من ربح القليل من المال لمساعدة والدته.²

وهنا أيضا كان الحوار يتراوح بين البطء والسرعة ثم بين الهدوء والانفعال مع كثرة الأسئلة الاستكارية خاصة من قبل "حسنا" التي كشفت بكل وضوح عن موقفها السلبي من المناضلين السياسيين و من الفقراء مثل عمر وعائلته الذي لا يحق لهم أن يحلموا بتغيير حالهم لأن الفقراء ينبغي أن يبقوا فقراء دائما وكذا يجب أن يبقى الأغنياء أغنياء ربما حتى يشفقوا عليهم من حين لآخر ويزدروهم في معظم الأوقات.

مع الملاحظة أن معظم المقاطع الحوارية في رواية "الدار الكبيرة" كانت عبارة عن شجارات بين "عيني" وأبنائها أو "عيني" والجيران.³

كما كانت رواية "الحريق" لـ "محمد ديب" أيضا تحتوي على مشاهد حوارية كثيرة خاصة تلك التي كانت تدور بين الفلاحين حول أوضاعهم المزرية وقلة العمل وصعوبة الأوضاع المعيشية إضافة إلى مصادرة المحتل الفرنسي لأراضيهم⁴ ، لقد كان "با دعدوش" الفلاح العجوز يتحاور مع مجموعة من الفلاحين عن جمال الجزائر وأراضيها التي سلبها المستعمر من أصحابها وجعلهم فقراء وأجراء عند الكولون.⁵ إضافة إلى الحوارات التي كانت تنقل إلينا

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 84, 85.

المصدر السابق، ص 86، 87.

ينظر المصدر السابق، ص 104، 105، 106، 110.

⁴ Dib Mohammed, L'incendie, p 35.

المصدر السابق، ص 50 – 56.

المشاجرات الحادة التي كانت تقوم عادة بين "قارة علي" الذي أعلن ولاءه للمحتل الفرنسي وبين الفلاحين.¹

أما في الروايات الباقية كرواية "الأرض والدم" و "الدروب الشاقة" لـ "مولود فرعون" وروايات "الربوة المنسية" و "نوم العادل" لـ "مولود معمري" ورواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي" فقد كانت المقاطع الحوارية قليلة مقارنة مع المقاطع السردية ولعل أهم مقطع حوار في رواية "الأرض والدم" هو الحوار الذي دار بين "أعمر أوقاسي" ووالدته "كامومة"² ثم الحوار بين "أعمر أوقاسي" وزوجته "ماري" الفرنسية.³ إضافة إلى بعض الحوارات القليلة بين "أعمر نعمر" و "ذهبية" في رواية "الدروب الشاقة"⁴.

وبهذا يتفق الروائيون المغاربة مع الروائيين الفرنسيين في توظيفهم للمقاطع الحوارية الطويلة تارة والقصيرة تارة أخرى ثم الهادئة أحيانا والمضطربة أحيانا أخرى وهذا لتسليط الضوء على الحال النفسية لبعض الشخصيات وهي تعاني من الفقر والبؤس مثل "جان فالجان" و "جيرفيز" والسيدة "ماهو" و "عيني" وجارتها "زينة" وسكان "مونتسو" وسكان "دار السبيطار" وللكشف عن بعض الجوانب الخفية لدى بعض الشخصيات أمثال "جان فالجان" (السيد مادلين) و "فانتين" و "عيني" و "لاله حسناء" و "يلعن والديك" و "التيوس" (المغتربين) وكذا للتعريف بحال بعض الأماكن مثل مدينة "مونتسو" وتقابلها قرية "بني بوبلن"، أو بعض الفئات الاجتماعية مثل عمال المناجم في "جيرمينال" والفلاحين في "بني بوبلن" أو بعض الأوضاع الاقتصادية كالمعاناة من الفقر والبطالة كما هو حال أهل "مونتسو" في "جيرمينال" وسكان "بني بوبلن" في "الحريق" وهذا كله بهدف كسر رتابة السرد والإبطاء من سرعته.

¹ Dib Mohammed, L'incendie, pp 59, 60, 61, 62, 72, 73.

² Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 26.

ينظر المصدر السابق، ص 39، 40.³

⁴ Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, pp 167, 168.

2.3.1.6.1 تجليات الوقفة الوصفية:

الوقفة الوصفية هي تقنية "زمنية فاعلة يعول عليها في إبطاء وتيرة السرد أو حتى تعطيلها كلياً"،¹ ويقوم الراوي من خلالها "بوصف مكان ما أو شخصية روائية وقد يقدم هو نفسه بذلك أو يسند المهمة لإحدى الشخصيات".²

ففي رواية البؤساء يقوم الراوي بذكر السمات الجسدية لشخصية "جان فالجان" قائلاً: "كان متوسط القامة، ممتلئاً وقويا، يتراوح سنه بين الست والأربعين والثماني والأربعين عاماً وكان يرتدي قبعة من الجلد تخفي جزءاً من وجهه الذي أحرقته أشعة الشمس، لقد كان يتصبب عرقاً وقميصه من القماش الأصفر الخشن [...] وكان يربط بحبل سرواله الأزرق المهترئ عند إحدى الركبتين والممزق عند الركبة الأخرى كما كان يرتدي سترة رمادية قديمة ممزقة ومرفقة عند أحد المرفقين بقطعة قماش خضراء [...] وكان يحمل على ظهره كيساً من الأكياس التي يحملها الجنود [...] وعصاً كبيرة ذات عُقد وينتعل حذاء مسمارياً دون جوارب وكانت رأسه محلقة ولحيته طويلة".³ ويضيف قائلاً: "لقد دخل جان فالجان إلى السجن يائساً وغادره وهو مكفهر الوجه".⁴

ثم سرعان ما وصف تغيير "جان فالجان" واستيقاظ ضميره وروحه الطيبة والخيرة بعد سلوك الأسقف "ميريال" النبيل تجاهه، و يظهر "جان فالجان" الصلب والقاسي وعديم الضمير و هو يجهد بالبكاء بعدما أدرك أنه أخطأ في حق الطفل "جيرفيه": "لقد بكى جان فالجان طويلاً، كان يبكي بكاء حاراً، كان يبكي بتنهّد، لقد كان أضعف من امرأة وأكثر خوفاً من طفل".⁵

نضال محمد الشمالي، الرواية والتاريخ، عالم الكتب الحديث الأردن، ط1، 2006، ص 182.¹

² الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي (دراسة في روايات نجيب الكيلاني) عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2010، ص 177، 178.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 85.

المصدر السابق، ص 114.⁴

المصدر السابق، ص 142.⁵

لقد أبدع "هوغو" في وصف حال "جان فالجان" وكيف كان قبل دخوله إلى السجن وهو في حال يأس وإحباط ثم كيف بات عديم الروح والإنسانية بعد خروجه منه وبعدها كيف تحول إلى إنسان خير وفرد صالح ومفيد في المجتمع.

وكانت "فانتين" الشخصية الثانية التي أحسن "هوغو" وصفها بكل دقة وبراعة وكيف تتبع مختلف مراحل حياتها، لقد وصفها أولاً عند وصولها إلى باريس من قريتها قائلاً: "لقد كانت فانتين الفرحة نفسها، كرمها الخالق بأسنان رائعة حتى يزين ضحكتها [...] وكان شعرها كثيفاً أشقراً متموجاً ومتحرراً [...] وكانت شفاتها الورديتان تتحدثان بسحر وكانت طرفاها مرفوعتين كأقنعة "إريغون" العتيقة [...] وأهدابها الطويلة تتحني على الجزء الأدنى من وجهها [...] كانت زينتها منسجمة ومتناسقة إلى حد لا يمكن وصفه، كانت ترتدي فستاناً بنفسجياً وحذاء بكعب عالٍ".¹

هكذا كانت "فانتين" قبل أن تدخل في غياهب الحياة وتقضي عليها وعلى نظارتها، ثم يصفها الراوي بعدما ولدت ابنتها وكرست حياتها من أجل تربيتها وتوفير كل أسباب الحياة الهنيئة والسعيدة لها : "كان شكلها يبين أنها فقيرة وحزينة، كانت تبدو كأنها عاملة ولكنها تشرف على أن تعود إلى ما كانت عليه سابقاً أي فلاحاً؛ كانت شابة، أكانت جميلة؟ ربما [...] لقد كانت بعض الخصلات من شعرها الأشقر تخرج من قبعتها الشبيهة بقبعة الراهبات ولكنها سرعان ما كانت تخفيها، لقد كانت ضحكتها تكشف عن أسنانها الجميلة ولكنها لم تكن تضحك قط [...] لقد كانت شاحبة بل منهكة ومريضة قليلاً".²

إضافة إلى "فانتين" اهتم "هوغو" بوصف "كوزيت" بدقة شديدة وقد أعطانا أيضاً صورة لها عندما كانت في السنوات الأولى من حياتها وهي مع أمها ثم كيف انقلبت حياتها رأساً على عقب بعدما تركتها والدتها عند "آل تيناردييه" ليتكفلوا بها مقابل مبلغ من المال.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 154.

المصدر السابق، ص 175.²

"كان عمرها يتراوح ما بين السننتين والثلاث سنوات وكانت تتنافس مع الفتاتين الأخريين في الأناقة والجمال، لقد كانت ترتدي قبة من القماش الرقيق [...] وكانت طيبة تنورتها تكشف عن فخذها الأبيض الممتلئ، كانت رائعة وردية اللون وذات صحة جيدة [...] لا نستطيع قول أي شيء عن عينيها إلا أنهما واسعتين محيطيتين بأهداب طويلة".¹

ولكن بعدما أمضت وقتا في منزل "تيناردييه" هكذا بات حالها وشكلها: "كانت كوزيت ترتدي خرقة وكانت رجلاها الحافيتان داخل قبقاب وكانت تنسج على ضوء النار جوارب من الصوف لابنتي تيناردييه"² وفي مشهد آخر يصفها الراوي بعدما تلقت لكمة من السيدة "تيناردييه": "لقد كان جفنها أسودا بفعل اللكمة التي تلقتها من السيدة تيناردييه".³

هكذا تحولت حياتها من السعادة إلى الشقاء والحزن والألم إلى أن أخرجها "جان فالجان" من تلك البؤرة ورباها أحسن تربية ووفر لها كل أسباب الحياة السعيدة.

كما اهتم "هوغو" أيضا بوصف أطفال باريس الذين يعيشون في الشوارع بعيدون عن الدفء العائلي، لقد كان ينقصهم كل شيء المأكل والملبس والمأوى، قال الراوي: "هذا المخلوق الصغير، لا يأكل كل يوم [...] لا يرتدي قميصا على جسده ولا حذاء في رجليه ولا سقف على رأسه إنه مثل ذباب السماء".⁴ ويقول أيضا: "نحن لا نبالغ حين نقول أن طفل الشوارع هذا قد يملك قميصا ولكن ليس لديه إلا واحدا وقد يملك أحذية ولكنها بدون حافر وقد يكون له منزلا يحبه لأنه فيه والدته ولكنه يفضل الشارع حيث الحرية".⁵ إضافة إلى ذلك "يقوم هذا المخلوق بالصراخ والاستهزاء والسخرية والمصارعة، يملك بعض قطع من القماش كالصبي الصغير وخرق كالفيلسوف".⁶

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 175.

المصدر السابق، ص 415.

³ المصدر السابق، ص 415.

⁴ Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 2, p 104.

المصدر السابق، ص 105.

المصدر السابق، ص 107.

هذا وقد كان الطفل "غافروش" (Gaveroche) طفل من أطفال شوارع باريس، وقال عنه الراوي أنه "لم يكن يشعر بالراحة إلا في الشارع، لقد كان الرصيف أقل قسوة من قلب أمه [...] لقد كان طفلاً مزعجاً وشاحباً ورشيقاً وفطناً وساخراً، يبدو حيويًا ومريضاً في الوقت نفسه، كان يذهب ويأتي، يغني ويلعب [...] كان يسرق قليلاً مثل القطط والعصافير، لقد كان يضحك حين نناديه بالصعلوك الصغير ولكنه كان يغضب عندما نناديه بالشرير".¹

وفي المقابل كانت الروايات المغاربية تزخر بالوقفات الوصفية وتتجلى خاصة في تقديم بعض الشخصيات أمثال "عيني" التي يقول عنها الراوي: "كان عمر يضع ساقيه البارين على البلاط، بينما كانت عيني تضع ساقها العاريتين حتى الركبتين، وكانت ترتدي قميصاً ضيقاً وقد شددت كتفها بوشاح ممزق".²

وهذا دليل على فقر "عيني". ويعمق المؤلف هذه الفكرة من خلال وصفه الفيزيولوجي لها في قوله: "لقد باتت عيني مجرد هيكل من العظام لا يكاد اللحم يكسوه، لقد فقدت كل ما يصنع جمال المرأة منذ زمن بعيد ولقد قسا صوتها وتصلبت نظرتها".³ كما كانت "عيني" عنيفة و جد منفعة إذ قامت "فجأة برمي ابنها عمر بالسكين الذي كانت تقطع به الخرشوف لتصيبه في ساقه".⁴

كما كان "محمد ديب" يلجأ إلى الوقفات الوصفية أيضاً لتقديم العجوز "ماما" والدة "عيني" في قوله: "كانت الجدة ماما مشلولة، ولكنها كانت تحتفظ بكل قواها العقلية، لقد كانت نظرتها الزرقاء الصافية من بقايا جمالها الذي كاد ينطفئ".⁵

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, p 123.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 29.

³ المصدر السابق، ص 131.

⁴ المصدر السابق، ص 12.

⁵ المصدر السابق، ص 31.

وعلى غرار "فيكتور هوغو" خصص محمد ديب في ثلاثيته وقفات وصفية لتقديم أطفال الشوارع ويتجلى ذلك في قول الراوي: "عندما نذكر أطفال الرحيبة وكأننا ذكرنا الشياطين الحقيقيين الذين لا يمكن ضبط جماعهم، وكم من مرة طاردوا خصومهم حتى وسط المدينة وبالضبط إلى الحوض الكبير وهم يزرعون الرعب في وسط السكان . وفي أيام الشتاء تلك، كانوا يغزون ورشات العمل كجماعة من الذئاب حيث كانوا يقتلعون ألواحاً ويحرقونها، لقد كانوا يجتمعون حول تلك النار صغاراً وكباراً ويصدرون أصواتاً غريبة لكسر جدار الصمت".¹

وفي رواية "الحريق" يقول الراوي عن أطفال الشوارع: إنهم جماعات من الأطفال المتهورين الذين يتصارعون مع بعضهم البعض بكل فرح في الطين أو في تراب الشوارع.² ويواصل الراوي حديثه عن أطفال الشوارع إذ يقول: "في صيف 1939، التقى عمر بأطفال أكثر بؤساً منه، أطفال كانوا يبدون كالجراد [...] لقد كان هدامهم عبارة عن مجموع من الأسماك البالية، وكانوا يحمون رجليهم بجلود الخرفان المربوطة بسيور من الحلفاء، وفي الغالب كانوا يجرون حفاة".³

هذا وقد قدم لنا أيضاً "عمر" على غرار "غافروش" في رواية "البؤساء" مع بعض الاختلافات، من خلال بعض الوقفات الوصفية، لقد قال الراوي: "لا نفتأ نصادف أطفالاً مجهولين ومتذبذبين مثل عمر في الشوارع، يقفزون في كل مكان حفاة، كانت شفاههم سوداء وكانت أطرافهم كأطراف العنكبوت، عيونهم تنقد من الحمى، كثيرون منهم يتسولون عند الأبواب وعلى الساحات، لقد كانت بيوت تلمسان تعج بهم وبإشاعاتهم".⁴

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 25, 26.

² Dib Mohammed, L'incendie, p 08.

المصدر السابق، ص 8.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, p 28.

ويقول أيضا عن "عمر": "لقد كان عمر يعود إلى المنزل وهو محبط جراء تفتيشه المستمر في أكوام القمامة في السوق المغطاة، لقد كان يبحث عن الخضر الصالحة، إن وجدت، لقد كان يجمعها ويضعها في قفته، وقد كان يعود إلى البيت وقلبه محمل بالمرارة ولقد كان عليه أن يقوم بهذه المهمة كل يوم عند خروجه من المدرسة على الساعة الحادية عشر".¹

علاوة على ذلك وظف الروائيون الفرنسيون والمغربيون معا الوقفات الوصفية لوصف بعض الأماكن التي كانت تأوي بعض الشخصيات الأساسية في الروايات المدروسة والتي كانت فقيرة بل معدمة وبائسة، ويتجلى ذلك في وصف "بالزاك" لنزل "فوكير" حيث كان الأب "غوريو" يسكن مع ثلة من مختلف الشرائح الاجتماعية الفقيرة والبائسة مثله. يقول الراوي: "تطل واجهة النزل على حديقة، ويشكل زاوية قائمة مع الشارع الجديد سانت جونيف [...]" وبين هذه الواجهة والنزل والحديقة يسود حجر في صورة وعاء مقعر رملي [...] وعلى حافتي النزل توجد أزهار مزروعة في أصيص من السيراميك الأزرق والأبيض...".²

وفي المقابل يقدم لنا أيضا "محمد ديب" وقفة وصفية مخصصة لوصف الدار الكبيرة أو دار سبيطار التي يقول عنها الراوي: "تبدو دار سبيطار بين الأزقة المنعرجة، الشبيهة بالنباتات المتسقة، مجرد شظية. هي كبيرة وعتيقة [...] لها واجهة غير متناسقة، تطل على الزقاق وكان الرواق الذي يقود إلى داخل الدار واسعا ومظلما يقع تحت الرصيف ويسمح للنساء بعدم الظهور أمام أعين المارة ويقود هذا الممر إلى فناء عتيق يتوسطه حوض كما نلاحظ أشكالاً كبيرة تزين جدران الدار الداخلية إضافة إلى الرخام الأزرق والأبيض...".³

هكذا يلتقي "محمد ديب" بـ "فيكتور هوغو" في توظيفهما للوقفات الوصفية سواء في تقديمها للشخصيات أو في وصفها للأماكن مع الملاحظة أن كلا منهما ركز على الصفات التي

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 153.

² Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 23.

³ Dib Mohammed, La grande maison, p71.

تبرز ظاهرتي الفقر والبؤس سواء في البنية الفيزيولوجية أو في الهندام أو في السلوك أو في المسكن.

وبهذا يكون كل منهما قد تمكن من إبطاء الحركة السردية في عمله.

(2) البنية المكانية:

1.2) المفهوم الفني والجمالي للمكان:

إن المكان "شأنه شأن أي عنصر من عناصر البناء الفني يتجدد عبر الممارسة الواعية للفنان فهو ليس بناءً خارجياً مرئياً ولا حيزاً محدد المساحة ولا تركيباً من غرف و أسيجة و نوافذ، بل هو كيان من الفعل المغير والمحتوى على تاريخ ما".¹

ويرى "شارل كريفال" (Charles crival) أن المكان هو "الذي يؤسس الحكي لأن الحدث في حاجة إلى مكان يقدر حاجته إلى فاعل وإلى زمن والمكان هو الذي يضيف على التخیل مظهر الحقيقة".²

وعادة ما يرتبط الإنسان بالمكان وتواجهه فيه يحتويه بوعيه وإدراكه إياه بفكره وعواطفه ونفسه "فقد بات واضحاً أن المكان يرتبط جذرياً بفعل الكينونة للعيش والوجود وفهم الحقائق وصياغة المشروع الإنساني".³

أما "يوري لوتمان" (Youri Lotmen) فيرى أن المكان هو "مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف والأشكال المتغيرة... تقوم بينها علاقات شبيهة

حنان محمد موسى، الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2004، ص 23.¹

² جبرار جينيت وآخرون، الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002، ص 137.

ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1986، ص 64.³

بالعلاقات المكانية المألوفة والعادية مثل الاتصال والمسافة.¹ وأما "غاستون باشلار" (Gaston Bachelard) فيرى أن "النقطة الأساسية التي ينطلق منها المؤلف هي أن البيت القديم، بيت الطفولة هو الألفة ومركز تكيف الخيال وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكره ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية ذلك الإحساس بالجمالية والأمن اللذين كانا يوفرهما لنا البيت القديم."² ويرى أيضا أن المكان "الذي يجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذات أبعاد هندسية وحسب فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز"³ وبهذا يؤكد "باشلار" أنه "لا يوجد موضوع دون ذات بل الخيال بالنسبة للمكان يلغي تلك الموضوعية، فهو يجعل للذات موضوعها الخاص المستقل عن الواقع لأن الإحساس بالمتناهي في الكبر يوجد داخلنا ولا يرتبط بالضرورة بشيء".⁴

2.2 أهمية المكان في النصوص السردية:

يشكل المكان أهمية كبيرة داخل النصوص السردية لأنه "مسرح الأحداث والهواجس التي تصنعها الذاكرة التاريخية فمن خلال المكان وما يحدث فيه يمكن قراءة وفهم كل أحداث وتفاعلات الشخصيات وحركيتهم مع المكان"،⁵ وهو أيضا "نقطة انطلاق الكاتب وهو المكون لأساسي لبنية النص ككل وبهذا يصبح المكان عنصرا فعالا في الرواية وفي تطورها وبنائها وفي طبيعة الشخصيات التي تتفاعل معه وفي علاقات بعضها ببعضها الآخر".⁶

يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني (المكان والدلالة)، ترجمة سيزا قاسم، مجلة ألف، العدد 6، عام 1986، ص 89.¹

غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر بيروت لبنان، ط2، 1984، ص 30.² المرجع السابق، ص 31.³

المرجع السابق، ص 33.⁴

⁵ عجوج فاطمة الزهراء، المكان ودلالته في الرواية المغربية المعاصرة، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية جامعة جيلالي ليايس، سيدس بلعباس، السنة الجامعية 2017 / 2018، ص 18.

المرجع السابق، ص 18.⁶

هذا ولا يمكن للإنسان أن يتواجد خارج إطار المكان وكذا لا يتسنى للشخصيات أن تتحرك وأن تؤدي أدوارها وتحرك الأحداث إلا داخل فضاء معين وعليه كان لابد على الشخصية وهي تؤدي أي دور أن "ترتكز على حدود المكان الذي يتم وصفه بتقنية عالية لأنه يضمها ويضم الأحداث والزمان وعليه يتشكل فضاء العمل السردى من مجموعها جميعا"¹، والمكان أيضا هو الذي "يتبنى العناصر السردية مما يجعله إطارا جامعا للعناصر الفنية بما فيها الحدث مما يكسبه تلك الخصوصية والتفردية التي تمتاز بها عن غيره من العناصر الأخرى لأنه بمثابة مسرح للحدث في حد ذاته فكلا منهما يستلزم حضور الآخر."² ومن هنا يصبح الحيز المكاني عبارة عن تجربة جمالية "يصورها المبدع بخياله أو واقعيته ليجعل منه مركزا لاستقطاب الجميع".³

وتتنوع الأماكن بتنوع الموضوعات المطروقة في الرواية، قد يكون مكانا طبيعيا (جغرافيا) يتمثل في الجبال والبحار والسهول والصحاري... وقد يكون تاريخيا أي مرتبطا باحتضان أحداث تاريخية شهيرة سواء كانت معارك أو مؤتمرات أو إمضاء معاهدات... وقد يكون واقعيًا أو حقيقيا بحيث يصوره صاحبه كما هو بحذافيره دون زيادة أو نقصان حتى لا يعرضه للتشوه أو للزيف.

وبناء على ما سبق، نستنتج أن المكان من أهم العناصر المشكلة للبناء الفني للرواية نظرا لعلاقته الوطيدة بالعناصر الفنية الأخرى كالشخصيات والأحداث ومختلف الموضوعات... وغالبا ما يعكس المكان الأحوال النفسية والسلوكية والفكرية وحتى الاقتصادية والاجتماعية للشخصيات ، ولم يهتم النقاد فحسب بدراسة المكان وإنما منظر الأدب أيضا نظرا لأهميته الكبيرة.

محمد عزام، شعرية الخطاب السردى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، (د.ط)، 2005، ص 68.¹

عجوج فاطمة الزهراء، المكان ودلالته في الرواية المغربية المعاصرة، ص 20.²

المرجع السابق، ص 20.³

3.2 البنية المكانية في الروايتين الفرنسية والمغربية:

لقد قام الروائيون الفرنسيون والمغربيون من خلال الروايات المدروسة بإضفاء أبعاد ودلالات ورموز كثيرة على الأماكن الموظفة في أعمالهم لتعكس ظاهرتي الفقر والبطس بشكل دقيق ومتقن، وتنقسم الأماكن الواردة في هذه الروايات إلى قسمين كبيرين هما: الأماكن المغلقة والأماكن المفتوحة.

1.3.2 الأماكن المغلقة:

وتتمثل في المساكن (البيوت) و المعامل و المناجم و السجون والمغاسل... إلى غير ذلك.

1.1.3.2 المساكن:

تنقسم المساكن الموظفة في الأعمال الروائية الفرنسية والمغربية إلى مساكن جماعية ومساكن فردية.

1.1.1.3.2 المساكن الجماعية:

وتتمثل في الدير الذي لجأ إليه "جان فالجان" رفقة "كوزيت" لينجو من مطاردة المفتش "جافير" له ثم نزل "فوكير" في رواية "الأب غوريو" لـ "بالزاك" وعمارة شارع "لاغوت دور" العملاقة والتي تسمى أيضا بالدار الكبيرة في رواية الخمارة لـ "إميل زولا" ويقابلها "دار سبيطار" في رواية "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب".

تشغل الدار الكبيرة شارع "لاغوت دور" (La goutte d'or) التي سكنتها "جيرفيز" رفقة زوجها "كوبو" وابنتها "نانا" حيزا مهما في الرواية لأنها تمتد من الفصل الخامس من الرواية

إلى نهايتها.¹ وقد قال الراوي عنها: "إنها تشبه مدينة صغيرة بسلايمها وممراتها الممتدة والمتقاطعة، وكانت واجهاتها رمادية بنوافذ في حال مزرية".²

وبعدما سكنت "جيرفيز" في الدار الكبيرة، تساءلت عن السلطة التي تتمتع بها الآن وعدد السكان القاطنين أسفل مسكنها و هم ثلاثمائة ساكن.³

لقد كانت واجهتها قبيحة تنفتت بفعل الأمطار، [...] لونها طيني . إضافة إلى الخرق المنشورة على نوافذها وكذا الأفرشة الموضوعة على شرفاتها كما تكسوها طبقة سمكة من القاذورات في الطابق الثالث.⁴ إضافة إلى ذلك كان محل "جيرفيز" لغسل الملابس يتواجد في أسفل العمارة نفسها، إلى جانب محلات كثيرة من بينها محل "غوجيه" للحدادة.

لقد كانت "جيرفيز" فرحة وخائفة في الوقت نفسه، لقد كانت سعيدة لأنها ستحقق أخيرا حلمها ولكنها كانت خائفة أيضا من الفشل ولا سيما من مقاومتها للجوع الذي كانت تسمع صوته من بعيد ، كانت تتصور أنها أقدمت على فعل أمر جريء وأنها تلقي بنفسها في وسط آلة تقوم بابتلاع كل شيء،⁵ وقد كانت أخت "كوبو" وزوجها يسكنان بالبناية نفسها وكان لهما مشغلا صغيرا لصناعة المقاليد الذهبية، و قد كانا يكرهان كثيرا "جيرفيز" ولا سيما السيدة "لوريو" وقد أثارت سخطها عندما كانت تهيء محلها لغسل الملابس،⁶ حسدتها كثيرا على محبة الناس لها وعلى ازدهار محلها ونجاح تجارتها.⁷

¹ Allard Jacques, Zola le chiffre du texte, lecture de l'assommoir, PUF de Grenoble, Les presses de l'université du Québec 1978, p73.

² Zola Emile, L'assommoir, p 159.

ينظر

ينظر المصدر السابق، ص 160، 161.³

⁴ Allard Jacques, Zola le chiffre du texte, lecture de l'assommoir, p 73.

ينظر

⁵ Zola Emile, L'assommoir, pp 159, 160.

Allard Jacques, Zola le chiffre du texte, lecture de l'assommoir, p 74.

⁶ Zola Emile, L'assommoir, pp 165, 166.

ينظر المصدر السابق، ص 166.⁷

هذا وقد كانت علاقة "جيرفيز" بجيرانها علاقة مصلحة ولاسيما مع أخت زوجها كما كانت تجمعها علاقة احترام ومودة مع "غوجيه" ووالدته.

كما كان نزل "فوكير" (Vauquer) يأوي السيد "جواكيم غوريو" (Joackim Goriot) صانع الشعيرية وبطل رواية "الأب غوريو" التي تحمل اسمه ويقال عنه نزل بورجوازي متواجد بالشارع الجديد للقديسة "جونفيف" وهو ملك للسيدة "فوكير"، يضم مجموعة من السكان بين شباب وكهول وشيوخ ورجال ونساء.¹ يقع هذا النزل في منحدر يقود نحو شارع "الأربليط" (L'arbalète) ولم تكن الأحصنة تصعد أو تنزل منه إلا نادرا وقد كان صمت رهيب يسود تلك الطرقات الضيقة بين قبتي "الفال دي غراس" (Val de Grace) و "البونتيون" (Panthéon) وقد زادت هاتان القبتان المكان قتامة بفضل الألوان الداكنة المنبعثة منهما، لقد كانت الأرضيات ناشفة والمجاري خالية من الماء ومن الطين وكان العشب يتسلق جدرانه، لقد كان هذا المنظر جديرا بجعل كل من يمر من هناك يشعر بالحزن والكآبة ، لقد كان صوت أي سيارة حدثا عظيما، كانت البيوت قاتمة ورائحة السجن تنبعث من جدرانها.² ومن يتغلغل إلى داخل مبنى نزل "فوكير" سيدرك أنه لا توجد هناك كآبة أكثر من رؤية غرفة الجلوس بأريكتها وكراسيها المغطاة بقماش من وبر الحيوانات المخطط بالتناوب بين الداكنة والبراقة كما كانت أرضيتها مغطاة بشكل قبيح وكانت جدرانها مغطاة بورق مبرنق يمثل أهم مشاهد قصة "تيليماك"، لقد كانت تنبعث من هذه الغرفة رائحة نتنة وعفنة بل ومقرفة، هي باردة ورطبة ولا تفتأ رطوبتها تتغلغل إلى أعماق الملابس كما كانت جدرانها قذرة فهي كلها تبعث على الغثيان.³ ومن هنا نستنتج مدى بؤس هذا المكان وتدهور حاله وعدم بعثه على الراحة لساكنيه.

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 21.

² المصدر السابق، ص 22، 23.

المصدر السابق، ص 25 - 27،³

لقد كان الأب "غوريو" يسكن في هذا النزل البائس و كانت غرفته وضیعة جدا و كانت نوافذها عارية من الستائر وورق جدرانها منفصل عنها في العديد من المواضع بفعل الرطوبة وكان الجص يظهر فيها وقد اصفر بفعل السجائر، لقد كان فراش "غوريو" حقيرا للغاية ، لم يكن لديه سوى غطاء خفيف وغطاء قطني آخر لرجليه وهو يتكون من قطع قماش لفساتين السيدة "فوكير" القديمة وكان زجاج النافذة فيها مبللا ومغطى بالتراب إضافة إلى الأثاث العتيق جدا،¹ كما كان "غوريو" يستغني عن التدفئة في فصل الشتاء حتى يوفر المبلغ المخصص لذلك.² لقد كانت هذه الغرفة بالفعل تدل على البؤس والحرمان والفقر، لقد كانت تشبه الزنزانة.³

هذا وقد كانت علاقة "غوريو" بنزلاء الفندق تتراوح بين الاحترام مثل علاقته بالطالب "يوجين دي راستينياك" وعلاقة سطحية جدا مع باقي السكان.

وفي المقابل كانت دار سبيطار في رواية "الدار الكبيرة" لـ "محمد ديب" تشبه مدينة صغيرة نظرا لسعتها و شساعة مساحتها التي تمنع من تحديد عدد سكانها، تقع دار سبيطار بين طرق صغيرة وضيقة ،ملتوية كأغصان النبات المتسلق، كانت لا تبدو للناظر إلا كقطعة قلب واحدة، هي بناية عتيقة تضم عددا هائلا من العائلات ذات المستوى الضعيف اقتصاديا وفكريا وحتى جسديا أحيانا، لقد كان همهم الوحيد هو اختصار النفقات، تقتقر واجهة دار سبيطار إلى التناسق وهي تطل على شارع ضيق صغير، وكان رواق المدخل يتميز بالسعة والظلام هو أخفض من الشارع وينعطف حتى يحجب النساء عن أنظار المارة ويتصل الرواق بفناء تتوسطه بركة ماء إضافة إلى بعض الزينة على الجدران: فسيفساء أزرق على أرضية بيضاء، لقد كانت دار سبيطار تعج بالسكان وكانت كل عائلة تقطن في غرفة واحدة

¹ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 152.

المصدر السابق، ص 152.

المصدر السابق، ص 153.

بينما كان المطبخ والحمام مشتركا ،¹ لقد كانت "عيني" و عائلتها من بين القاطنين فيها و كانت علاقتها بجيرانها تختلف من شخص إلى آخر، لقد كانت تجمعها علاقة وطيدة بجارتها "زينة" والدة "الزهوز" و "زليخة" القريبة جدا منها ماديا ، وقد كانت تتشاجر مع بعض الجارات الأخريات خاصة اللاتي يشتكين من إزعاج عيني لهن ولأزواجهن بصوت آلة الخياطة عندما كانت تعمل حتى وقت متأخر من الليل.²

وبناء على ما سبق يتجلى لنا التقارب الكبير بين هذه البيوت الكبيرة التي تضم عددا كبيرا من السكان، فهي كلها بنايات عتيقة جدا واجهاتها داكنة ومهترئة بفعل الأمطار إضافة إلى قذارة جدرانها ووضاعة غرفها وبساطة أثاثها وافتقارها إلى أغراض ضرورية كثيرة وخاصة عند الأب "غريو" و"عيني" وأبنائها التي كانت أفرشتها وأعطيتها بالية كما كان أبنائها ينامون خاصة "عمر" على جلد من جلود الأغنام ، لم يكن لديهم أغطية دافئة تقيهم من برد الشتاء مثل الأب "غريو"، مع الفرق أن الأب "غريو" هو الذي اختار الاستغناء عن الأغطية الثقيلة والتدفئة بينما "عيني" كانت مجبرة على ذلك لأنها لم تكن تملك المال الكافي لاقتناء ما تحتاجه وأبنائها من أثاث و أفرشة. كما يلتقي كل سكان هذه البيوت في كونهم اختاروا هذه السكنات المتواضعة نظرا لضعف إيجارها حتى يوفروا القليل من المال المزمع أن ينفقوه في شراء بعض الأغراض الضرورية. كما يشترك "محمد ديب" مع "إميل زولا" في تسميته لدار سبيطار بالدار الكبيرة على غرار زولا الذي أطلق اسم الدار الكبيرة على عمارة "لاغوت دور".³ كما يلتقي ديب أيضا ببالزاك في اختياره للون الأزرق و الأبيض للسيراميك الذي يتكون منه الأصيل المزين لنزل "فوكير"⁴ ثم الرخام الموجود على جدران دار سبيطار⁵. و من المعروف أن اللونين الأبيض و الأزرق يوحيان بالراحة و السكينة و لكن بالنسبة

¹ Dib Mohammed, La grande maison, pp 71, 72.

ينظر المصدر السابق، ص 103، 104.

³ Zola Emile, L'assommoir, p 159.

⁴ Balzac Honoré de, Le père Goriot , p23.

⁵ Dib Mohammed, La grande maison, p 71.

لهذين المكانين فلم يكن سكانهما على نسبة كبيرة من الهدوء و الراحة خاصة لدى محمد ديب لأن بؤسهم و شقاءهم كان يفوق مفعول ذلك اللونين .

2.1.1.3.2) المساكن الفردية:

لقد عكست المساكن الفردية بدورها شخصيات أصحابها والحال النفسية والوضعية الاقتصادية والمادية التي كانوا عليها أو مختلف مراحل حياتهم مثلا من الرخاء إلى الفقر مثل "جيرفيز" أو من الفقر إلى الرخاء مثل "جان فالجان".

- مسكن جان فالجان:

لقد تردد "جان فالجان" على مساكن عدة تعكس مختلف مراحل حياته وأوضاعه المادية. في البداية سكن "فالجان" مع أخته وأبنائها الفقراء ولكن لم ترد أي معلومة في الرواية توضح طبيعة ذلك المسكن ثم حكم عليه بخمس سنوات سجنا بعدما حاول سرقة رغيف خبز لإطعامهم ولكن سرعان ما ارتفعت عدد السنوات إلى تسع عشرة سنة بفعل العقوبات الناجمة عن محاولاته المتكررة للهروب. ثم سرعان ما تغيرت حياته بعدما التقى بالأسقف ميريال الذي استقبله في بيته و استطاع أن يعيد له ثقته بنفسه إضافة إلى الأواني الفضية التي أخذها من عنده مما أسهم في تغيير حاله المادية فأصبح ثريا ورجل أعمال كبير، لقد فتح ورشة كبيرة في ضواحي باريس حيث كان يوظف الفقراء والمحتاجين كما سمح له ذلك باعتلاء منصب رئيس بلدية وأصبح اسمه "السيد مادلين" (Mr Madeleine). وفي هذه الأثناء لم يذكر الراوي أي معلومة عن بيته، وبعد هذه المرحلة وبعدم فضح أمره وعرفت حقيقته اضطر لمغادرة تلك المدينة والذهاب إلى قرية "مونفرماي" (Montfermeil) حيث توجد "كوزيت" بمنزل عائلة "تينارديه" حتى يوفي بوعده لوالدتها "فانيتن"، ومن ثم أخذها وذهب بها إلى

باريس وبالذات إلى مكان مهجور "لم يكن بمدينة ولا بقرية كانت فيه منازل وطرق كثيرة، لم يكن بمدينة لأن شوارعه مملوءة بالعقبات وكان العشب ينمو على حوافها ولم يكن بقرية لأن المنازل فيه عالية جدا، إنه مكان خال حيث لا يوجد إلا شخص واحد ، إنه نهج بمدينة كبيرة ، شارع بباريس، موحش في الليل أكثر من الغابة وكئيب في النهار أكثر من المقبرة،¹ كما كان ذلك المكان كله "مظلمًا ومنفردًا وباهتًا وحزينًا ومخيفًا وكانت المنازل فيه تتميز بعناكبها العملاقة.² سكن "فالجان" في هذا المبنى الذي كان موزعو البريد يسمونه بالرقم (50-52) وكان معروفًا في الحي ببيت "غوربو" (Gorbeau)،³ لقد اختار "فالجان" أن يختفي فيه عن الأنظار ولاسيما أنظار المفتش "جافير" الذي لم يكن يكل من مطارته له، لقد كان بصحبة "كوزيت" التي أبدت إعجابها بذلك المكان القذر والكئيب لأنها كانت تشعر فيه بالحرية.⁴ ولكن سرعان ما كشف "جافير" مخابهما مما دفع "فالجان" إلى مغادرته رفقة الصغيرة "كوزيت" ومن ثم قادتة الأقدار إلى دير للراهبات⁵ وقد وجد صعوبة كبيرة في إقناع هؤلاء الراهبات على البقاء فيه لولا تدخل العجوز "فوشلوفون" (Fauchelevent) الذي سبق و التقى به في الماضي و قدم له خدمة جليلة . ويتميز دير الأخوات "بيرناردين" للتسبيح الأبدي بالكآبة والقسوة (الصرامة)⁶ ولكنه كان يوفر لهما الأمان و الحماية .

هكذا كان الحيز المكاني يعكس الأجواء الكئيبة والحزينة والأوضاع الخطيرة والمخيفة التي كان يعيش فيها "جان فالجان" منذ مغادرته السجن مع بعض فترات الاستقرار والأمان التي كانت قليلة جدا في حياته.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 2, p 462.

ينظر المصدر السابق، ص 464.

ينظر المصدر السابق، ص 466.

ينظر المصدر السابق، ص 52.

ينظر المصدر السابق، ص 53.

ينظر المصدر السابق، ص 9.

- مسكن فانتين:

وفي رواية "البؤساء" دائما اتخذت "فانتين" مسكنا بأئسا يتماشى مع حالها المادية ، خاصة بعدما فقدت عملها بورشة السيد "مادلين"، لقد كانت تعيش في بيت صغير و حقير يتكون من غرفتين الأولى مظلمة والثانية حالكة،¹ لقد أجبرتها أوضاعها السيئة على الاستغناء عن التدفئة في فصل الشتاء [...] وعلمتها كيف تصنع من تنورتها الداخلية لحافا لها ومن لحافها تنورة داخلية وكيف توفر شمعتها بتناولها عشائها على الضوء المنبعث من النافذة المقابلة".² و من ثم انتقلت إلى غرفة في أعلى البناية توصل بمزلاج تحت السقف إلى عليّة من تلك العليات التي يشكل سقفها زاوية مع أرضها والتي يصطدم بها رأسك كل لحظة، إن الفقير لا يستطيع أن يمضي إلى أقصى غرفته أو إلى أقصى قدره إلا إذا انحنى أكثر فأكثر على نحو موصول، فلم تعد تملك سريرا ولم يبق لديها غير خرقة بالية دعته لحافا وفراشا أرضيا وكرسيا تقطع قشه".³ لقد كان كل شيء في تلك الغرفة يبدو مخيفا إن المشهد الناجم عن التقاء السقف بالأرض يبرز جيدا شكل الجحيم لدى "دانتي" في الكوميديا الإلهية، لقد كانت دوائر الجحيم تلك لا تفتأ تتقلص وتتكمش بشكل تدريجي حتى بات الفقير غير قادر على الوصول إلى عمق غرفته مثلما لا يستطيع الوصول إلى عمق مصيره إلا وهو منحني أكثر فأكثر.⁴

وبقيت "فانتين" في تلك الغرفة البائسة إلى أن التقت بالسيد "مادلين" في المخفر أثناء استجواب المفتش "جافير" لها وبعد انفعالها الشديد سقطت على الأرض وفقدت وعيها مما

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 209.

² ينظر المصدر السابق، ص 209.

³ ينظر المصدر السابق، ص 214.

⁴ Mahmoud Aref, La pensée sociale et humaine de Victor Hugo dans son œuvre romanesque, étude critique et littéraire, librairie champion Paris, Librairie Slatkine Genève, 1979, p248.

دفع بالسيد "مادلين" إلى نقلها إلى العيادة الموجودة في بيته وأوكلها إلى إحدى الراهبات المزمع أن تسعفها وتعتني بها¹

لقد كانت غرفة العيادة تلك جد متواضعة إذ كانت تضم فراشا قديما من الحديد في حالة سيئة للغاية وكانت الراهبات تستخدمه سابقا كفراش نقال عندما كن تسهرن على المرضى.² وفي تلك العيادة وعلى ذلك الفراش الحقيق فارتقت "فانتين" العالم إلى الأبد.

- مسكن الطفل غافروش:

لقد كان "غافروش" أحد أطفال الشوارع في باريس، وهو ينتمي إلى عائلة "تيناردييه" التي رفضته وألقت به في الشارع، لذا كان عليه أن يتكفل بنفسه وأن يجد لنفسه مأوى يأويه حتى لا ينام في العراء، وهكذا اتخذ من تمثال فيل قديم ومهجور بيتا له ،لقد كان فارغا في داخله و جد مريح حسب "غافروش"، فهو أحسن من النوم تحت الجسور حيث الريح والبرد.³

وقد قدم لنا الراوي تفاصيل دقيقة عن هذا التمثال كأن: "يبلغ أربعون قدما من حيث العلو لقد كان يحمل برجه الشبيه بالمنزل على ظهره، لقد أطلي بدهان أخضر في الماضي أما الآن فقد اسود بفعل الأمطار والزمن، وكان شكل هذا الفيل تحت ضوء النجوم يمثل طيفا مدهشا ومروعا في الوقت نفسه [...] وقد كان عدد قليل من السائحين يزورون هذا المعلم، ولم يكن أحد من المارة يعره أي اهتمام. لقد كان في صدد الانهيار.⁴

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 228.

² المصدر السابق، ص 323.

³ ينظر المصدر السابق، ص 482، 483.

⁴ المصدر السابق، ص 484.

- مسكن جيرفيز:

كانت "جيرفيز" في رواية "الخمارة" لـ "إميل زولا" تسكن رفقة والد ابنيها في غرفة كئيبة بنزل فقير عندما قدموا إلى باريس، تتميز تلك الغرفة بالظلمة والبؤس لقد كان سقفها داكنا وكان الورق الذي يغطي الجدران قد انفصل عنها بفعل الرطوبة وكانت الخزنة والكراسي عرجاء ومتسخة.¹

ولكن بعد زواجها بـ "كوبو" انتقلت إلى العيش معه في عمارة كانت أقل حقارة وبؤسا من إقامتها السابقة،² ولكن سرعان ما بدأت حياتهما تتدهور بعدما سقط "كوبو" في آفة الإدمان على الخمر التي انتقلت بسرعة إلى "جيرفيز" التي بدأت تهمل عملها وتفقد زبائننها وبهذا تدهوت حالتها المادية مما أجبرهما على تغيير مسكنهما بمسكن أضيق حيث لا شمس فيه ولا هواء، لقد كانت "جيرفيز" تشعر فيه بالاختناق.³ وقد واصلت "جيرفيز" في الانحدار والسقوط إلى أن فقدت مسكنها لأنها لم تعد قادرة على دفع الإيجار وأخذت مكان الأب "برو" الذي مات مؤخرا وسكنت في زاوية من تلك العمارة إلى أن ماتت.

وهكذا كان المكان في رواية "الخمارة" يعكس بدقة حال الرقي والازدهار ثم الفشل والسقوط التي مرت بها حياة "جيرفيز".

- مساكن أهل بني بوبلن:

تبدو مساكن وأكواخ سكان قرية "بني بوبلن" جد متواضعة ويقول الراوي في هذا السياق: "ماهي حياة الفلاح؟ عند حلول فصل الشتاء يأوي إلى كوخه أو إلى أي مغامرة مظلمة .

¹ Zola Emile, L'assommoir, p 30.

ينظر المصدر السابق، ص 67، 68، 69.

المصدر السابق، ص 371، 372.

يرتجف هو وذووه من البرد. أظن أنه حال كل الفلاحين الفقراء سواء في الشمال أو في الجنوب".¹ وفي موضع آخر يقول أيضا: "... بني بوبلن ليست بالشيء الذي يسر الناظرين، فإنك لا ترى سوى الأكواخ والبيوت من القش وبعض المنازل الحجرية التي يسكنها المزارعون وهي لا تكاد تختلف كثيرا عن مساكن الفلاحين".² أما بعد الحريق فقد ازدادت الأوضاع مأساوية وبشاعة إذ "انتشر الصمت والصمت وحده [...] يا له من فقر! لا شيء، لا أحد، صمت ووحدة!"³ وقال أيضا في الأيام الموالية للحريق، "كانت البيوت تبدو لا حياة فيها، ومع الجفاف كانت مقفلة".⁴

وبهذا كانت منازل أهل "بني بوبلن" صورة حية للمأساة المادية والمعنوية التي كانوا يحيونها كل يوم.

- مسكن العجوز كامومة:

كان مسكن العجوز "كامومة" هو نفسه المنزل الذي ولد فيه ابنها "أعمر" ومات فيه زوجها "قاسي" منذ عشرات السنين "لم يتغير شيء، فيه [...] إلا أنه أصبح عتيقا دون شك، ولم يعد للباب المتسوس سوى مغلاق واحد وكان ينبغي إصلاحه، كما كانت الساحة الصغيرة تبدو له (لـ "أعمر") صغيرة جدا وقذرة إنها شبيهة بواجهة إسطنبول مهمل".⁵

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 38.

المصدر السابق، ص 30.

المصدر السابق، ص 177.

المصدر السابق، ص 177.

⁵ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 03.

- مسكن الشيخ مفتاح:

لقد كان الشيخ "مفتاح" يسكن بإحدى القرى الليبية التي دمر المحتل الإيطالي بيوت أهلها وأضرَم النيران فيها،¹ مما أجبر الشيخ مفتاح على أخذ أسرته والهجرة بها إلى تونس حيث استقر بإحدى قرأها وعمل عند أحد الأعيان وسكن في كوخ صغير، وفي هذا قال الراوي: "ورجعت [مبروكة ابنة الشيخ مفتاح] إلى جانب الكوخ لتكنس الساحة الصغيرة التي أمامه . الساحة الصغيرة هي مستراحهم ومجلسهم بالنهار... لقد تكرم عليه "سي صالح" بجذور نخل أحاطوا بها الساحة وجعلوا منها مصاطب تقيهم برد الأرض في الشتاء ويتخذون منها مقاعد في الفصول الأخرى".²

ومن خلال مختلف أنواع هذه المساكن المقدمة سواء الجماعية منها أو الفردية نستنتج دقة اختيار الروائيين الفرنسيين والمغاربة معاً لطبيعة هذه المساكن وأماكن تواجدها ومساحاتها وأشكالها التي تعكس مدى فقر وحرمان أصحابها ومدى تدهور وضعيتهم وشعورهم بالضيق النفسي والمعنوي إضافة إلى الضيق المادي.

2.1.3.2) العوالم السفلية :

لعل أهم ما يمثل العوالم السفلية بباريس هي المجاري الشهيرة التي تضم كل أسرار باريس دون أي نفاق أو خداع. لقد اضطر "جان فالجان" إلى دخولها حتى ينجو من الموت المنتشر في كل مكان ومن مطاردة المفتش "جافير" له. و يقول الراوي في هذا الصدد: هناك شبه بين باريس والبحر ومثلما هو في المحيط يمكن للغطاس أن يختفي فيه إلى الأبد. لقد كان "جان فالجان" متواجداً في مجاري باريس.³

محمد العروسي المطوي، التوت المر، ص 8.¹

المصدر السابق، ص 12.²

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 5, Volume 3, p 304.

لقد كان التحول مدهشا [...] خرج "فالجان" من المدينة وفي لمح البصر أي في الوقت الذي فتح فيه غطاء المجاري وأغلقه، انتقل من وضح النهار إلى الظلام الدامس ومن منتصف النهار إلى منتصف الليل، ومن الضوضاء إلى الصمت [...] سقوط مفاجئ في قبو واختفاء في غياهب النسيان بباريس، لقد غادر الطريق حيث الموت منتشر إلى هذه النوعية من القبور حيث الحياة، لقد كانت لحظة غريبة. لقد بقي "جان فالفان" فور نزوله إلى المجاري شارد الذهن ومذهولا وفجأة انفتح باب الخلاص السحري وأخذته الرحمة السماوية بغتة [...]. لم يكن المجروح الذي كان يحمله "جان فالفان" على ظهره في تلك الحفرة يتحرك ولم يكن يعلم إن كان حيا أو ميتا.¹

لجأ "جان فالفان" أثناء معركة المتاريس بباريس إلى المجاري للهروب والنجاة من الموت وتخليص "ماريوس" الذي كان مجروحا وفي حال جد حرجة، أراد أن يصل به إلى بر الأمان، لقد لقي "فالفان" العديد من العراقيل والحواجز مما تطلب منه مجهودا كبيرا حتى يتجاوزها بأمان ويحافظ على الجريح الذي كان يحمله على ظهره، لم يخرج "فالفان" من ذلك العالم السفلي إلا بعد عناء كبير.²

مع الملاحظة أنه لا يوجد هناك ما يقابل هذه العوالم السفلية ولاسيما عالم المجاري المائية الخاصة جدا بالمدن الكبرى ولاسيما باريس والتي لا نجدها في البلدان المغاربية نظرا لكون مدنها صغيرة، ليس من حيث المساحة بل من حيث الأهمية، وهي في طور البناء والإنجاز خاصة أثناء فترة الاحتلال.

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 5, Volume 3, p 304.

ينظر المصدر السابق، ص 305.²

2.3.1.3 (المناجم:

يعد منجم "الفورو" من أهم المناجم التي احتلت مساحة شاسعة واهتماما كبيرا من قبل "إميل زولا" الذي خصص له رواية كاملة بعنوان "جيرمينال" والتي تدور كل أحداثها حول هذا المنجم ومعاناة العمال فيه وظروفهم القاسية والنتائج السلبية على صحة العمال من خلال تسببه في أمراض خطيرة تمس خاصة الجهاز التنفسي أو العظام والمفاصل...

لقد كانت عملية نزول العمال إلى عمق المنجم صعبة جدا وقاسية، فهي غالبا ما تبدأ على الساعة الرابعة فجرا حين تصل المصاعد على شكل أقفاص يركب فيها العمال لتوصلهم إلى أعماق المنجم. لقد كانت تلك الآبار تبتلع البشر قزمة تلوى أخرى من عشرين إلى ثلاثين شخصا دفعة واحدة.¹ وفي هذا الصدد يقول أحد الدارسين: إن فضاء المنجم ومسافة النزول إليه يشعر بها الجسد قبل كل شيء، وحين يتعرض إلى هزة أثناء النزول فكل شيء فيه يتعرض للسقوط وكل ما هو حوله يتطاير أمام أعينه في حين يشعر بدوار وقلق جراء ذلك السقوط الذي يقتلع منه أحشائه.² ومن هنا تتجلى لنا معاناة عمال المنجم اليومية خاصة أثناء النزول الذي يمثل النزول إلى الجحيم.

أما داخل المنجم، فقد كانت الجدران مطلية بالجنس بطريقة بذيئة وهي محاطة بخزانات مغلقة وفي وسط القاعة كان هناك مدخنة من حديد هي نوع من الأفران بدون باب كان ممتلئا بالفحم المتوهج وكانت بعض القطع منه تنكسر بفعل الحرارة الشديدة وتقع على

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 36.

² Mitterrand Henri, *Zola l'histoire de la fiction*, PUF écrivains ,Décembre 1990, 1^{ère} édition, p132.

الأرض، ولم تكن القاعة مضاءة إلا عن طريق هذا الفرن الذي كانت انعكاساته الدامية ترقص على طول الجدران الخشبية القذرة إلى حد السقف الملطخ بغبار أسود.¹

وكذا قال عن المنجم الذي ينزل عدد هائل من العمال يوميا للعمل فيه أنه البئر الملتهم الذي ابتلع حصته اليومية من الرجال أي ما يربو عن سبعمائة عاملا ممن يعملون في ذلك الوقت في عش النمل العملاق ذاك، ثاقبين الأرض من كل ناحية كقطعة حطب ثقبها الديدان.² بهذا كان الراوي يصف منجم "الفورو" الذي اشتق اسمه من الكلمة الفرنسية (Voracité) الدالة على الشراهة والنهم أي أنه يبتلع كل يوم عددا من العمال الذين قد لا يعودون إلى أسرهم وبيوتهم.

هكذا كان عالم البالوعات الباريسية والمناجم عوالم مظلمة وحالكة تعكس الأجواء الصعبة والشاقة للذين يترددون يوميا عليها بل يمضون معظم أوقاتهم في هذه الأماكن المغلقة والبائسة.

وفي المقابل خصص الروائيون المغاربة مساحة مهمة في أعمالهم للحديث عن المناجم التي كان يعمل فيها العدد الأكبر من المغتربين المغاربة. لقد كان "أعمر أوقاسي" لا يفتأ يستذكر الأيام التي قضاها في بلاد المهجر وخاصة عمله في المنجم فهو "لا ينسى فوهة البئر السوداء وجرس الانطلاق الذي يمزق القلوب وصوت الآلات والتواء الحبال المعدنية والجدران التي تتضخ ماء والثقب السوداء للأروقة والحرارة التي تصبح شيئا فشيئا غير محتملة".³

هذا وقد كان بطل رواية "التيوس" لـ "إدريس شرايبي"، يظن أنه نجا، من البطالة والفقر، عندما نزل إلى المنجم ، الأرض الأم الطيبة التي يدفن نفسه في أحشائها بسلام عظيم،

¹ Zola Emile, Germinal, p 38.

المصدر السابق، ص 48.

³ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 49.

عندما نزل إلى الأعماق. وفي اليوم نفسه أدرك صاحب العمل أنه لا ينتمي إلى نقابة العمال ومن ثم أرسله إلى حفر أعمق، ولكنه ظن أنه نجا أكثر من السابق. لقد تعلم كيفية استخدام المعول والعربة وأن يتحرك من خلال حبال رقيقة وفي مكان ضيق، وأن يستنشق الهواء الممزوج بالرطوبة والغاز الخانق وغبرة الفحم، ومع ذلك كان يشعر بالراحة، لأنه كان في حاجة إلى مثل هذه الحفرة، وأن ما كان يستنشقه هو بالذات ما كانت رئتاه في حاجة إليه.¹

لقد كان هؤلاء "يعودون إلى بيوتهم في أوقات متأخرة من الليل، [...] وهم يرتعدون من البرد، يسعلون ويبصقون، لقد كانوا يدخنون عددا لا متناهيا من السجائر ويتباهون بالجهود التي كانوا يبذلونها كل يوم لاقتلاع أطنان من الفحم من بطن الأرض".²

لعل أهم ما يلفت الانتباه هنا هو شعور كل من بطل "مولود فرعون" و"إدريس شرايبي" بالرضى في عمله بالمنجم في أرض الهجرة، لقد كان "أعمر" وهو نازل إلى أعماق المنجم يشعر بالرجولة،³ وكان "يلعن والديك" يشعر بالنجاة من الفقر والبؤس،⁴ هذا الذي لا نجده بتاتا عند "إميل زولا" أو أي روائي فرنسي آخر كتب عن عمال المناجم، إلا أنهم يتفوقون معه (زولا) في وصف فوامة المنجم وجدران الكئيبة والمظلمة والمخيفة والعربات التي تشكل خطرا على العمال إن لم يحسنوا دفعها وأجوائه الخائفة بفعل الرطوبة والحرارة المرتفعة والغازات المنبعثة من باطن الأرض وعلى العموم المنجم هو مكان مخيف وخطير في الوقت نفسه.

كما يقترب "محمد ديب" كثيرا من "زولا" في وصفه لورشة النسيج في رواية "المنسج" الموجودة في قبو تحت الأرض وكانت أجوائه خانقة ومظلمة مثل أجواء المناجم ويتجلى

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, p 134.

المصدر السابق، ص 135.²

³ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 49.

⁴ Chraïbi Driss, Les boucs, p 134.

ذلك في قول الراوي: "لقد نزل عمر الدرجات الأخيرة من الدرج حيث توقف ليجد نفسه في وسط قبو، لقد التصقت رائحة الحيوانات بشمه حتى اختنق بفعل ذلك، إضافة إلى العتمة التي كانت تمنعه من رؤية أي شيء حوله".¹ كما كانت المركبات تصرصر والأمشاط تتصادم".² لتحدث ضجة كبيرة ومزعجة.

4.1.3.2 السجن:

السجن فضاء مغلق أيضا وهو يضم عددا كبيرا من الناس معظمهم من مرتكبي الجح كالسرقه والقتل والنصب والاحتياال إلى غير ذلك، والملاحظ أن جل السجناء فقراء ومعدمين وبائسين، وقد كان السجن يزيد من تدهور أحوالهم مثل "جان فالجان" الذي دخل السجن لأنه أقدم على سرقة رغيف من الخبز حتى يطعم أبناء أخته الجوعى، لقد حكم عليه بخمس سنوات سجنًا ورحل إلى سجن طولون في عربة لمدة سبع وعشرين يوما وقد ألبسوه لباس السجن وقد انمى بهذا كل شيء من حياته حتى اسمه لأنه لم يعد سوى رقم.³ وقد خرج من السجن في أكتوبر من عام 1815م بعدما أمضى تسع عشرة سنة في السجن، "لقد دخل فالجان السجن يائسا وخرج منه بدون روح".⁴ وبهذا يكون "فالجان" قد عرف معنى المعاناة والألم والعبودية والظلم، لقد كانت روحه ترقى وتسقط في الوقت نفسه.⁵

وفي المقابل تعرض "حميد سراج" في رواية "الحريق" للسجن بسبب نضاله السياسي وعمله على بث الوعي القومي في نفوس الجزائريين ليدركوا حقيقة أوضاعهم المزرية والبائسة.⁶

¹ Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 22.

² ينظر المصدر السابق، ص 63، وص 67.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, p 112.

⁴ المصدر السابق، ص 114.

⁵ ينظر المصدر السابق، ص 117.

⁶ Dib Mohammed, L'incendie, p 267.

مع الملاحظة أنه لم يرقم "هوغو" ولا "محمد ديب" بتقديم أي صفات مادية للسجن كفضاء يحتوي هؤلاء السجناء و لا نعرف أي شيء عن الزنانات أو عن مساحاتها أو عن نظافتها أو عن أكلها أو عن أسرتها إلى غير ذلك، لقد اكتفى كل منهما بالحديث عن السجن وعن بعض التأثيرات النفسية والروحية على السجن خاصة عند "فيكتور هوغو".

2.3.2) الأماكن المفتوحة:

تتمثل الأماكن المفتوحة في الروايات المدروسة في شوارع المدن الكبرى كشوارع باريس والبيئات الريفية كمنطقة "مونتسو" في رواية "جيرمينال".

1.2.3.2) الشارع:

الشارع هو مكان مفتوح وعام يضم كل الفئات البشرية والشرائح الاجتماعية يضم الغني والفقير، المتشرد وصاحب منزل، العامل والبطال، الطفل والكهل والعجوز إلى غير ذلك، وهو فضاء تتحرك فيه الشخصيات من أجل التواصل مع بعضها البعض أو للوصول إلى اتجاهات مختلفة.

والشارع أيضا هو "الفضاء المكاني المفتوح الذي يحتمل أحداثا كثيرة (مظاهرات، لقاءات، تسكع، سوق يومي أو أسبوعي، [...] وقد يأتي الشارع حاملا دلالة إيجابية كأن يدل على النضال"¹ مثل حرب المتاريس التي تمت في شوارع باريس الكبيرة،² وقد يكون مأوى للأطفال

¹ عبد الله توام، دلالات الفضاء الروائي في ظل معالم السيميائية، رسالة دكتوراه علوم تحت إشراف د/هواوي بلقاسم،

جامعة أحمد بن بلة وهران، كلية الآداب والفنون قسم اللغة والأدب العربي، السنة الجامعية 2015/2016، ص 63.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 5, Volume 3, pp 242– 244.

الشوارع الذين لا مأوى لهم سواه وفي هذا الصدد يقول "هوغو": لباريس طفل وللغابة طائر أما الطائر فيدعى الدوري وأما الطفل فيدعى المتشرد (Le gamin).¹

ومن بين هؤلاء الأطفال هناك من كان لديهم الأهل والمأوى أمثال "غافروش" ابن عائلة "تيناردييه" التي ألقت به للشارع و هو في سن صغيرة و كان من حين لآخر يذهب لزيارة أهله ولكنه كان يفضل الشارع حيث يجد حريته.² لقد كانت باريس بالنسبة لهؤلاء الأطفال هي مركز الدائرة والضاحية هي محيطهم و عالمهم هؤلاء إنهم لا يغامرون في الذهاب إلى ما وراءه إطلاقاً، إذ ليس باستطاعتهم البعد عن الأجواء الباريسية وشوارعها.³

كانت باريس تعج بالأطفال المشردين وتشير الإحصائيات إلى أن السلطات الأمنية لا تقبض على ما يربو عن مئتين وستين طفلاً مشرداً سنوياً في المتوسط وذلك في المساحات غير المسيجة وتحت الجسور وفي البيوت المهجورة.⁴

وفي المقابل كانت شوارع تلمسان تكتظ بأطفال الشوارع الذين يمضون كل يومهم فيها ولا يدخلون إلى بيوت أهاليهم إلا ليلاً.⁵ هذا ولم يكن الطفل "عمر" يعرف أماكن ألعاب أخرى غير الشارع وكان كلما استيقظ من النوم صباحاً يهرع إلى الشارع حيث يجد راحته ويتقذى انتقادات والدته وشتائمها اللامتناهية.⁶

هكذا بات هؤلاء الأطفال على غرار أطفال باريس عند "هوغو" جزءاً لا يتجزأ من شوارع تلمسان .

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 5, Volume 3, pp 104, 105.

المصدر السابق، ص 105.

المصدر السابق، ص 109، 110.

المصدر السابق، ص 110، 111.

⁵ Dib Mohammed, La grande maison, p 25.

المصدر السابق، ص 26.

2.2.3.2) القرية:

لم تظهر القرية هنا كفضاء مناقض أو معاكس للمدينة بضوضائها ومبانيها الفخمة ومصانعها وشركاتها بل ظهرت كطبيعة و سهول وجبال وأودية وأشجار وحقول وقطعان الحيوانات إضافة إلى بساطة أهلها على المستويين الفكري والاجتماعي وصراعاتهم اليومية من أجل الحصول على لقمة العيش التي لم تكن سهلة إطلاقاً عليهم، فكم من عائلة كانت تبيت دون عشاء وكم من عامل كان يذهب إلى العمل سواء في المنجم أو في الحقل وبطنه فارغة وفكره مشغول بأوضاعه الصعبة وكان لا يفكر في كيفية الخروج من أزماته وتوفير الحياة الكريمة لأبنائه وعائلته.

ومن أهم الروايات التي نقلت أحداثها إلى البيئة القروية رواية "جيرمينال" لـ "أميل زولا" التي تقضح الحال المزرية لسكان قرية "مونتسو" حيث منجم "الفورو" الذي كان يستنزف قواهم ويمتص صحتهم مقابل أجور زهيدة جداً لا تكاد تكفيهم لاقتناء المواد الضرورية وبالذات الأكل. يفتتح "زولا" روايته بوصفه الطريق المؤدية إلى قرية "مونتسو" حيث تبدو ثلاثة أفران مشتعلة في الهواء وكأنها معلقة، لقد كان على يمين "إيتيين" سياج خشبي كما كانت بعض الأكواخ تسد ممر السكة الحديدية بينما يقوم جسر من الخشب على اليسار تعلوها حبات الصنوبر ومن خلالها تظهر القرية بأسقفها المنخفضة والموحدة،¹ وعندما اقترب "إيتيين" أكثر من القرية بدت له كتلة ثقيلة وكومة مكدسة من البنايات يبرز من بينها ظل مدخنة مصنع وأنوار خافتة تنبعث من النوافذ القذرة وكان هناك خمسة أو ستة مصابيح كئيبة معلقة في الخارج إلى إطارات كان خشبها مسوداً.²

¹ Zola Emile, *Germinal*, pp 13, 14.

المصدر السابق، ص 14. ²

ومن هنا يبدو لنا حال قرية "مونتسو" البائس جدا الذي كان يعكس حال الفقر والبؤس والكآبة المسيطرة على المكان وعلى الناس.

وفي المقابل قدم لنا "محمد ديب" وصفا عاما لقرية "بني بوبلن" في بداية رواية "الحريق" على غرار "زولا" في رواية "جيرمينال"، ويتجلى ذلك في كلام الراوي القائل: "وما إن تصل أمام "بيت النور" حتى تشرع في تسلق تلك المنحدرات الصخرية المضروبة من الرياح. ولا تفتأ رجلك تتعثر وتنزلق على نبات الدس الخشنة، هذا هو المسلك الصعب الذي يسلكه "بنو أورنيد" وأحمرتهم الصغيرة، وهذا هو الحصن الجنوبي لمدينة المنصورة الذي لم يبق منه سوى جوانب من أبراج [...]. وإذا اتجهت نحو الشمال، تبدو لك قاعدة جبل "السطاح" مزروعا قبل أن ينخفض أمام الأراضي البكر كأنه عمود يدعم ذلك الجزء الأدنى كله الذي يشغله فلاحو "بني بوبلن" السفلى، يعيش هؤلاء على أطراف المساحات الزراعية العميقة والصالحة للزراعة والمعلقة على الجبال المعزولة عن العالم رغم أنها لا تبتعد عن تلمسان إلا بثلاث كيلومترات.¹

هذا وقد كان فلاحو منطقة "بني بوبلن" يمضون كل أوقاتهم في الزراعة والرعي عند المعمرين، لقد كانت حياتهم بدائية وكانت بسيطة حتى تكاد تحسبهم قادمين من كوكب منسي. كما كانت أراضيهم هناك في الأعالي غير صالحة للزراعة وقاحلة وكانت سكة المحراث التقليدي لا تكاد تشقها إلا بصعوبة. لقد كان الفلاحون عرضة للمجاعة وعندما يحل الليل ويغطي الظلام الدامس أكوأخهم، تخرج الذئاب وهي تعوي وتتبئ بالموت.² لم تعرف منطقة "بني بوبلن" الحضارة بتاتا، وما يظنه أهلها أنه حضارة وتطور هو مجرد خدعة.³

¹ Dib Mohammed, L'incendie, pp 7, 8.

المصدر السابق، ص 8.

ينظر المصدر السابق، ص 8.

قد تشبه قرية "بني بوبلن" قرية "مونتسو" على مستوى الطبيعة والتضاريس ولكنها تختلف عنها في كونها تفتقر إلى أدنى وسائل العمل العصرية، لقد كانت معزولة وقاحلة وتعيش بشكل بدائي جدا سواء في زراعتها أو في تنقلاتها، كل شيء فيها يوحى بالتخلف والفقر المدقع وحتى الأراضي الزراعية التي كان أهلها يزرعونها ليقننوا منها سلبها منهم المحتل ولم يترك لهم سوى الأراضي البور وغير الصالحة للزراعة. بينما تتوفر قرية "مونتسو" على مناجم عديدة بوسائل متطورة حينذاك وورش ودكاكين وحانات ومطاعم...

لقد كان بؤس آل "مونسو" يختلف عن بؤس آل "بني بوبلن"، لأن هؤلاء كانوا يعملون ويربحون قوت يومهم حتى وإن كان ذلك في ظروف صعبة ولم تكن الأجور تكفيهم ليعيشوا كما كانوا يطمحون إليه، وقد كانت لهم بيوت وتدفئة أثناء فصل الشتاء إلى غير ذلك فلم يعرفوا الجوع الحقيقي إلا أثناء الإضراب الذي لجئوا إليه حتى يحسنوا ظروف معيشتهم و يحصلوا على بعض الحقوق التي لم تكن لديهم حينذاك. أما أهل "بني بوبلن" فقد كانت سكناتهم مجرد أكواخ وبيوت من القش كما كان معظم الفلاحين لا يعملون خاصة بعدما سلبت منهم أراضيهم، لقد كانوا محرومين ومعدمين على كل المستويات.

وبهذا يلتقي الروائيون المغاربة بالروائيين الفرنسيين في توظيفهم للمكان الذي عكسوا من خلاله درجة البؤس والفقر والمعاناة اليومية لشخصياتهم وفي بيئاتهم المختلفة رغم بعض الاختلافات التي تعود إلى خصوصية كل بيئة.

(3) البيئة اللغوية:

لقد أهمل الدارسون قضية اللغة في الكتابة الروائية وأعطوا الاهتمام الأكبر للشخصيات والزمان والمكان خاصة، رغم أن كل هذه العناصر لا يمكنها أن تكون أو أن تظهر دون لغة وفي هذا يقول الأستاذ "عبد الملك مرتاض": "وإننا لنعجب أشد العجب كيف يمكن الحديث

عن الشخصية التي تنهض بالحدث أو يقع عليها الحدث أو حولها حين تضطرب في الحيز أو يقتلها الحيز أو حين تسير في نوء الزمان [...] ثم يقع الصمت من حول اللغة التي يجب أن تُخَاطَبَ بها أو تخاطب بها، [...] كيف يجب أن تكون؟ وما مستواها؟ وما وظيفتها؟ وما صفتها؟ وما علاقتها بما يضطرب في الرواية؟ وبمسألة أكثر مباشرة: بأي لغة يكتب الروائي روايته؟¹

ومن هنا طرحت قضية اللغة الفصحى والعامية واللغة الثالثة أو الوسطى وقد ذهب الأستاذ "مرتاض" إلى أن هناك بعض النظريات التي ترى أنه ينبغي أن نميز بين "مستوى السرد وتكون لغته فصيحة سليمة بل راقية ومستوى الحوار وتكون لغته متدنية وعامية في الدرجة الأرذل والدرك الأسفل. وربما تكون تلك الآراء المغلوطة هي التي كانت توجه الروائيين العرب على ذلك العهد".²

وقد عرفت هذه الظاهرة لدى بعض الأدباء الغربيين أمثال "بالزاك" و"فيكتور هوغو" وغيرهما ممن كانوا ينادون "بالويل والثبور وعظائم الأمور مما قد يلحق بالأدب الفرنسي من مصائب العاميات المحلية الفرنسية".³

وعليه لا يمكن لأي أديب أن يصل إلى تحقيق هدفه ولا أن يرقى إلى مستوى عالٍ إلا إذا تمكن من اللغة التي يكتب بها مهما كان الجنس الأدبي، لأن اللغة الأدبية هي لغة "قلقة، متحولة، متغيرة، متحفرة، زئبقية الدلالة بحكم تعامل المبدعين معها تعاملًا انزياحيًا في كثير من الأطوار، ويعلو شأن الكاتب ويعظم قدره بناءً على مدى تحكمه في لغته وبناءً على قدرته على تحميلها بالمعاني الجديدة".⁴ ومن ثم فإن عملية تنقية اللغة الروائية ليست بالأمر الهين وقد يكون الأديب المتمرس والمتمكن هو من "يعرف كيف يتلطف على لغته حتى

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 102.¹

المرجع السابق، ص 102، 103.²

المرجع السابق، ص 104.³

المرجع السابق، ص 108.⁴

يجعلها تتوزع على مستويات لكن دون أن يشعر قارئه بالاختلال المستوياتي في نسج لغته وذلك بالإبقاء عليها في مستوى فني عام موحد على نحو ما، كالبنية الكبيرة التي تجري في فلكها بنى مختلفة دون أن تتفكك بنية منها".¹

وتتشكل البنية اللغوية داخل إطار النسيج السردى الروائي من ظواهر لغوية عديدة ومختلفة ويمكننا إيرادها فيما يلي:

1.3) الظواهر اللغوية في الروايتين الفرنسية والمغربية:

في إطار دراستنا للظواهر اللغوية المختلفة الواردة في النصوص السردية المدروسة، يجدر بنا أولاً التطرق إلى دراسة مختلف الأبعاد الدلالية واللغوية للعناوين نظراً لأهميتها القصوى وكونها المفتاح الأساسي لأي عمل أدبي.

1.1.3) الأبعاد الدلالية واللغوية للعناوين:

العنوان هو أول "شيفرة رمزية (Symbolical code) يلتقي بها القارئ فهو أول ما يشد انتباهه وما يجب التركيز عليه وفحصه وتحليله بوصفه نصاً أولياً يشير أو يخبر أو يوحي بما سيأتي وعلى القراءة باعتبارها تلقياً منهجياً أن تلتفت إلى العنوان محاولة ربطه بجسد النص وهنا تبدأ عملية تأويل العنوان وبناء نصيته".² وعليه فإن العنوان ليس بعنصر زائد وإنما هو عتبة أولى من عتبات النص وعنصر مهم في تشكيل الدلالة وتفكيك الدوال الرمزية وإيضاح الخارج قصد إضاءة الداخل".³ إضافة إلى أنه "سمة العمل الفني أو الأدبي

عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 111.

محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، مصر، ص 61.

بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ط1، عام 2001، ص 53.

الأول من حيث هو يضم النص الواسع في حالة اختزال وكمون كبيرين ويخترن فيه بنيته أو دلالاته أو كليهما في آن [...] ولاشك أن العنوان يشكل نقطة مركزية أو لحظة تأسيس بكر يتم منها العبور إلى النص".¹

ومن هنا تتجلى أهمية العنوان في النص الأدبي الذي لا يمكن الاستغناء عنه، وتعد دراسة العناوين في غاية الأهمية في مجال الدراسات المقارنة، إذ قبل الشروع في أي مقارنة بين النصوص يجدر بنا أن نتوقف ونتريث ونتأمل في العناوين التي غالبا ما تكشف لنا عن درجة التقارب والتشابه بين هذه النصوص أو العكس.

وعليه، فإن دققنا في العناوين المتواجدة بحوزتنا فنتبين أنها تتراوح بين أسماء الشخصيات وألقابها مثل "الأب غوريو" لـ"بالزاك" و"التبوس" لـ"إدريس شرايبي"، وأسماء الأماكن كـ"الخمارة" لـ"إميل زولا" و"الدار الكبيرة" و"المنسج" لـ"محمد ديب" و"الدروب الوعرة" لـ"مولود فرعون" و"الربوة المنسية" لـ"مولود معمري" وعناوين لموضوعات كـ"البؤساء" لـ"فيكتور هوغو" و"جيرمينال" لـ"إميل زولا" و"الحريق" لـ"محمد ديب" و"ابن الفقير" لـ"مولود فرعون" و"نوم العادل" لـ"مولود معمري" و"التوت المر" لـ"محمد العروسي المطوي".

و إن استثنينا عنواني: "البؤساء" و"ابن الفقير" اللذان يحملان معنى الفقر والبؤس فإن العناوين الأخرى لا توحى بهذا الموضوع بتاتا.

1.1.1.3 العناوين الدالة على الفقر والبؤس:

تدل كلمة "بؤساء" عند "فيكتور هوغو" على الفقر المادي ولكنها قد تحمل أيضا معنى روحيا يتمثل في الفقر على مستوى القلب (Pauvre de cœur) كما توظف أيضا بمعنى الشفقة والتعبير عن الغضب والاستنكار. كما يمكنها أن تدل على الجريمة كذلك، ففي هذه الرواية

بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، ، ص 1.39

جمع "هوغو" بين "فانتين" الفقيرة البائسة ماديا والمجروحة عاطفيا ونفسيا وجماعة أشرار "القائد مينات" (Patron-minette) كما جمع بين سيّتي الحظ وسيّتي السمعة وحتى الأغنياء أمثال العجوز "غيلنورماند" جد "ماريوس" وابنته الكبرى اللذان يعانيان من الوحدة والبؤس رغم انتمائهما إلى الطبقة البورجوازية. لقد جمع "هوغو" بين كل من يمكنهم أن يعانون من البؤس والفقر بمعناه الواسع جدا.¹

لقد طرح "فيكتور هوغو" من خلال عنوانه "البؤساء" قضية البؤس الإنساني بمعناه الواسع لهذا لم يربطه بمجال معين ولم يضيف لكلمة "بؤساء" أي صفة أو مرادف لها لأنه أراد أن تكون عامة وأن يشعر كل من يعيش حالة البؤس في قرارة نفسه أن الرواية موجهة إليه و أنه بإمكانه أن يعثر فيها على ما يعبر عن مأساته، لأن رواية "البؤساء" هي تعبير عن مأساة الإنسان الوجودية وصراعاته اللامتناهية مع الواقع الذي يتواجد فيه.

وفي المقابل كان عنوان رواية "مولود فرعون" "ابن الفقير" تنقل حال الجزائريين المأساوية والصعبة بعد الحرب العالمية الأولى في منطقة القبائل التي كانت كسائر مناطق الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، لقد كان "مولود فرعون" من خلال روايته يتناول معاناة أرباب العائلات اليومية وشقائهم وتعبهم اليومي في سبيل الحصول على الحد الأدنى من المال الذي يمكنهم من اقتناء المواد الضرورية حتى يقاتلوا منها للبقاء على قيد الحياة، إضافة إلى ذلك، عمل المؤلف على تسليط الضوء على بعض العادات والتقاليد كموقف القرويين السلبي من الإناث وتفضيل الذكر عليهن لأنه هو الذي يحافظ على اسم العائلة وهو الذي يعيل والديه بعدما يتقدم بهم السن، إضافة إلى ذلك، يرمز الابن "هنا إلى استمرارية النسل في العائلة ولدى المجتمع الأمازيغي و الجزائري عامة، أما صفة "الفقر"

¹ Roman Myriam, Victor Hugo et le roman philosophique, du drame dans les faits au drame dans les idées, Honoré champion 1999, Paris, pp 727, 728.

فهي تعبر عن الحال المادية التي يتواجد فيها كل أب جزائري أثناء فترة الاحتلال الفرنسي.¹ ونتائجها المزرية على الأبناء ودراساتهم و مستقبلهم عامة .

ويتميز هذا العنوان بالقصر والاختصار ويثير عدة دلالات، فهو يحيلنا إلى الوضع الاجتماعي الذي يتواجد عليه المجتمع الجزائري حينذاك والمتمثل في الفقر والجوع والبيؤس² وهنا يلتقي عنوان "ابن الفقير" بـ "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" في أبعاده ودلالاته وكذا في اختصاره.

مع الملاحظة أن "مولود فرعون" صور الفقر والبيؤس في منطقة معينة من الجزائر وجعل منه قضية محلية بينما "فيكتور هوغو" طرح مشكل "البؤساء" بشكل واسع وجعل كل شخص مشابه لـ "فالجان" يرى نفسه فيه وكذا الأمر فيما يتعلق بـ "فانتين" و"غافروش" و"كوزيت" وعائلة "تيناردييه" ...

2.1.1.3) العناوين الدالة على الأسماء أو الألقاب:

لقد اعتاد الأدباء منذ العصر اليوناني القديم على وضع أسماء أبطال الأعمال القصصية بمختلف أجناسها كعناوين لها، لذا لا نستغرب وضع "بالزاك" لاسم بطله عنوانا لروايته "الأب غوريو" ويقابله "إدريس شرابيبي" الذي وضع عنوان "التيوس" لروايته "وهو لقب كان يطلق

¹ Hadj Laroussi Belkacem, Les différentes instances énonciatives dans l'œuvre de Mouloud ferraoun, Etude Lexicologique et pragmatique, Doctorat en science du langage, Université de Batna 2, Mostefa Ben Boulaïd, Faculté de Lettres et langues étrangères, Département de Français 2019/ 2020, p 105.

المرجع السابق، ص 105، 106.

على المغتربين القادمين من شمال إفريقيا إلى فرنسا، ويدرج هذا العنوان ضمن العناوين المعتمدة على المجاز المرسل والكناية المتعلقة بموضوع لا يتموقع فيه الحديث كثيرا.¹

هذا ويعد "الأب غوريو" رمزا للتضحية والتفاني من أجل إرضاء ابنتيه، لقد حرم نفسه من كل نعم الدنيا واكتفى بالضروريات فقط، هو الذي عمل جاهدا في سبيل ربح المزيد من المال حتى يدخره لهما، لقد عاش "الأب غوريو" بائسا فقيرا سواء على المستوى المادي أو المعنوي والعاطفي، كان وحيدا منعزلا بصورة شبه تامة عن الناس وعن العالم نظرا لعقوق ابنتيه له.

وفي المقابل عنون "إدريس شرايبي" روايته بـ "التيوس" وهو اللقب الذي كان المغتربون من الشمال الإفريقي يُلقبون به ويعكس لنا مدى بؤس هؤلاء وحرمانهم من كل شيء وحتى من إنسانيتهم لقد كانوا يعانون الأمرين جراء التهميش والرفض والعنصرية، ترى إحدى الدراسات أنه من المرجح أن يحمل هذا العنوان مفهوم كبش الفداء المتحمل لكل الخطايا والذنوب بصورة غير عادلة وحسب قاموس "لاروس أون لاين"، "التيوس" هو الإنسان القذر مثل شخصيات الرواية الذين فقدوا كرامتهم في خضم الظروف السيئة السائدة في فرنسا [...] وكبش الفداء هو أيضا ضحية اضطهاد جماعي أو هو أيضا من يعاني من أزمة اجتماعية وثقافية، لقد كان "تيوس" "شرايبي" يعانون من تجاهل عام.² ويدعم دارس آخر هذا الرأي إذ يرى أن عنوان رواية "التيوس" يشير بشكل مؤكد إلى دور كبش الفداء الذي لعبه المغتربون في الوضع الاقتصادي الذي تميزت به فرنسا حينذاك أي بعد الحرب العالمية الثانية

¹ عبد الحق بلعابد، جبرار جينيت نت النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم، ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف، ط1، 2008، ص 78.

² Petra Omarsdottir Awad Miriam , Les effets de la colonisation française sur la littérature maghrébine, une analyse portée sur quatre œuvres de Driss Chraïbi, SigillumUniversitatis Islandiae, 2014, p 08.

خاصة.¹ لقد استغل "شرايبي" مفهوم التضحية الجماعية للديانات السماوية الثلاث لتسليط الضوء على عالمية مفهوم الاضطهاد والقهر وضعف الإنسان والمجتمعات تجاه الله ونظام العالم كما يبين المؤلف في عمله أن العمال المغتربين في فرنسا هم دائما "تيوس فداء" وضحايا عواقب استغلال الإنسان العربي من قبل الأوروبي.² يشير عنوان "التيوس" إلى مأساة الاغتراب وإلى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، يمثل الثلاثمائة ألف من المغتربين حوالي مائتي ألف طن من الألم والعذاب والذي غالبا ما يفقدهم إنسانيتهم ويشبههم من ثم بالحيوانات.³

ويؤكد أبو القاسم سعد الله هذه الفكرة في قوله: إنهم هؤلاء الذين "جذبتهم الإعلانات في عاصمة الجزائر ووهران وغيرها من مدن المغرب الكبير، وقد دفعهم الفقر إلى الهجرة آملين أن يخففوا من وطأة الشقاء على عائلاتهم، لقد هاجروا إلى فرنسا حيث اليد العاملة مطلوبة والديمقراطية وافرة، ولكنهم بدل أن يحصلوا على عمل مربح وجدوا أنفسهم غير مرغوب فيهم وهكذا انحدرت حياتهم إلى أسفل مما كانت عليه حين كانوا فقراء في وطنهم وقد أصبح لسان حالهم هو، «ليس هناك عمل ولا مسكن ولا مساعدة ولا أخوة، لقد كان لنا اسم في الماضي، لقد كانت لنا بطاقة تعريف مؤقتة وبطاقة بطالة وبمعنى آخر لقد كانت لنا شخصية وعلامة وأمل غامض، أم الآن فنحن - بهائم - لسنا في السجن لسنا في بيت فقير، إن أحدا لا يرغب فينا حتى الصليب الأحمر»".⁴

¹ Boyer Barbara, Structure titrologique et fracture identitaire dans trois œuvres littéraires d'expression française sur l'immigration maghrébine, Gonzaga University, L'érudit Franco-Espagnol, volume n° 9, spring 2016, P29.

ينظر² المرجع السابق، ص 29.

ينظر المرجع السابق، ص 30.³

أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 100، 101.⁴

هكذا كان هذان العنوانين يحملان فيهما مختلف أنواع المعاناة القاسية بسبب المحيط الذي كان أبطال هاتين الروايتين يتواجدون ضمنها لقد امتصت طاقتهم وجردوا من إنسانيتهم وجعلوا مجرد آلات يلجئون إليها وقت الحاجة.

3.1.1.3) العناوين ذات الدلالة المكانية:

من أهم الروائيين الذين وظفوا عنوان له دلالة مكانية "إميل زولا" في روايته "الخمارة" (L'assommoir) و هو مكان يتردد عليه الزبائن من أجل شرب الخمر وقضاء أوقات مريحة مع الأصدقاء والرفقاء وهو لا يدل على الفقر ولا البؤس ، ولكننا عندما نتغلغل في أحداث الرواية ونتأمل في مصائر أبطالها ولاسيما "جيرفيز" وزوجها "كوبو" نلاحظ مدى إسهام هذا المكان في تحويل حياة هاتين الشخصيتين إلى جحيم وتجريدهما من نجاحهما وأموالهما وفرحهما وسعادتهما بل وصحتهما وحياتهما، لقد تسببت الخمارة في فقر وبؤس هذين الزوجين ثم قضت عليهما نهائيا إذ ماتا ميتة بائسة وحزينة جدا.

هذا وقد كان المفهوم اللغوي لكلمة (L'assommoir) هي الأداة التي تفقد الوعي أما مفهومها المجازي أو الإصطلاحي فهي تعني الحدث المفاجئ الذي يفزع ويوجه ضربة قاتلة.¹ ويرى "جان لوي بوري" (Jean-Louis Bory) : أنه (العنوان) يدل على الضرب القوي، وعلى فقدان الوعي والشخص الفاقد للوعي هنا لن يستيقظ أبدا، وتبقى الخمارة ذلك المذبح حيث تتردد القطعان البشرية المتعبة من جراء الضعف الجسدي ومن البؤس عليهم يستمدون بعضا من الحرارة الزائفة والفرحة المؤقتة والعابرة. قطرة من الخمر توقف الجوع أو بالأحرى تخدعه، لأن الجوع والبؤس لا يبرحانهم. إن التعاسة والوحدة واليأس هي التي تقود

¹ Dubois Jacques, L'assommoir de Zola, Editions Belin Paris, 1993, p 51.

إلى الإدمان و الإدمان بدوره يغيب المدمن عن وعيه ومن ثم لا يمكن لأي شيء أن يوقفه لأنه لم يعد يملك أي شيء و لا حتى نفسه.¹

كما يمتد مدلول العنوان إلى كل النص السردي الروائي ويتجلى ذلك في المقطع التالي الخاص بـ "جيرفيز" "لقد كان حلمها أن تعيش في مجتمع شريف لأن المجتمع السيء ، كما قالت، مثل صفعه مدوية (un coup d'assommoir) تحطم راسك وتجعلك امرأة تافهة (لا قيمة لها)، لقد كانت تشعر بالخوف من المستقبل وكانت تشبه نفسها بفلس عندما يرمى في الهواء ويسقط على أحد وجهيه".² إن الصفع المدوية هي دلالة على المجتمع الفاسد والسيء ومن هنا يبدو أن كلمة "خمارة" قد وجدت مدلولها الدقيق والصحيح لأنها ترتبط بمصدر هذا الفساد وهو المجتمع الذي سيلعب دورا مهما في دفع "جيرفيز" نحو الإدمان ومن ثم تلقي كل ضربات القدر.³

وعلى غرار "إميل زولا" استخدم "محمد ديب" عناوين تدل على المكان في روايتين من ثلاثية الجزائر هما "الدار الكبيرة" و "المنسج".

الدار الكبيرة وهي عنوان مركب يحتوي على كلمتين "الدار" وهو المكان و"الكبيرة" هي صفة لهذه الدار. وهي فضاء مغلق بفناء داخلي حيث يتكدس عدد من السكان الذين ينشغلون بقضايا ذات طابع اقتصادي واجتماعي محلي واستعماري معا ويتمثل كالتالي: فضاء عمومي/ فضاء خاص، فضاء أوروبي/ فضاء محلي.⁴

وقد أطلق على "الدار الكبيرة" اسم "دار سبيطار" باللغة المحلية الجزائرية وتتميز بشساعتها وعدد سكانها الكبير، هناك تتعايش العديد من العائلات وقد كان الاكتظاظ والتعايش

¹ Bory Jean-Louis, Préface de l'assommoir d' Emile Zola, L'assommoir, pp 10, 11.

² Zola Emile, L'assommoir, p 417.

³ Dubois Jacques, L'assommoir de Zola, pp 51, 52.

⁴ Amhis-OukselDjoher, Dar Sbitar, p 33.

يتحكمان في تسيير الحياة في تلك الدار.¹ لقد كانت "دار سبيطار" تضم بين جدرانها مجموعة من الفقراء والبؤساء ولكن بدرجات متفاوتة، لقد كانت كل عائلة من عائلات "دار سبيطار" ترمز إلى العائلات الجزائرية في مختلف أرجاء الوطن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وقبل اندلاع الثورة التحريرية، لقد كان لكل عائلة من تلك العائلات حكاية خاصة مع الفقر والبؤس المادي والمعنوي وكان أرباب هذه العائلات يعانون كثيرا في سبيل توفير رغيف الخبز لأبنائهم، لقد كان الجوع والألم وصعوبة المعيشة هو العامل المشترك الذي كان يجمع بين سكان "دار سبيطار" رغم اختلاف طباعهم، لذا كان الكل يتعاطف مع الآخر في أوقات الشدة وكانوا أيضا لا يفتنون يتشاجرون لأتفه الأسباب ولا سيما النساء اللاتي يتواجدن مع بعضهن في نفس الفضاء المغلق لساعات طويلة من اليوم، هذا المكان المغلق الجاثم على نفوسهن وقلوبهن، لقد كان تواجد هؤلاء السكان في ذلك الموضع يشبه تواجد مجموعة من المرضى في مستشفى كبير رغم اختلاف أفكارهم وأمزجتهم إلا أن هدفهم واحد في ذلك المكان وهو البحث عن الشفاء لأمراضهم ومن ثم الخروج منه ولكن في انتظار ذلك، فالكل مرغم على التعايش مع بعضهم البعض فهذه هي حياة المستشفى (السبيطار).

وهكذا أيضا كان كل من يقبل على الخمار في رواية "إميل زولا" كان يبحث عن دواء لمرضه أو حل لمشاكله أو متنفس له لكل الضغوط التي كانت تحاصره من كل جانب أو عن الهروب من واقعه المرير، ولكن الفرق بينهما يكمن في كون جل سكان دار سبيطار خرجوا سالمين من تجاربهم ومحنهم بل ربما أقوى مما كانوا عليه في السابق لأنهم اكتسبوا خبرات جديدة في الحياة أما المترددون على الخمار فإن نهاية معظمهم كانت مأساوية ومن بينهم "كوبو" و"جيرفيز".

¹ Guetarni Mohammed, Littérature de combat, p 66.

إضافة إلى ذلك كان جل المقبلين والمترددین على الخمارة كان بمحض إرادتهم أما سكان دار سبيطار وعمال المنسج فلم يختاروا تواجدهم مع بعضهم في المكان نفسه بل الأقدار ساقتهم إلى هناك وأرغمتهم على التعايش مع بعضهم البعض.

4.1.1.3) العناوين الدالة على موضوعات متنوعة:

وتحمل الروايات الأخرى المدروسة عناوين فنية مجازية ذات أبعاد ودلالات مختلفة ، فعنوان "جيرمينال" مثلا يمثل الشهر السابع من الرزنامة الجمهورية ويبدأ هذا الشهر من 21 أو 22 من شهر مارس وينتهي في 18 أو 19 من شهر أبريل، ومن هنا فإن عنوان "زولا" هذا يشير إلى الثورات (الثورة الفرنسية) التي تهدف إلى إقامة نظام جديد ، ففي شهر جيرمينال من العام الثالث انتفض الشعب الفرنسي الجائع طالبا الخبز وتطبيق دستور 1793. إلا أن المعنى الأولي لهذا العنوان "جيرمينال يرتبط بالتجديد الفصلي أو الدوري للطبيعة الذي يحدث عادة في فصل الربيع، ويشبه هذا التجديد رمزيا نهضة أو يقظة عمال المناجم ووعيمهم بأوضاعهم كما ورد في تفاصيل أحداث الفصل الأخير من الرواية مع حلول فصل الربيع، وقد أكد "زولا" ذاته في رسالة موجهة إلى مراسل هولندي بعد خمس سنوات من نشر روايته قائلا: "أما فيما يخص هذا العنوان (جيرمينال) فلم أكتبه إلا بعد وقت طويل من التردد والتأمل لأنني كنت أبحث عن عنوان معبر عن بروز رجال جدد وعمال يكدون ويعملون حتى يغيروا من أوضاعهم القاسية وصدفة خطرت على ذهني كلمة "جيرمينال" التي رفضتها أولا لأنها كانت تبدو لي غامضة ورمزية ولكنها كانت تمثل ما كنت أبحث عنه، يمثل شهر أبريل الثوري الذي شهد تصعيدات الشعب الذي تجاوزته الأحداث، وهكذا اعتدت على هذا

العنوان رغم أنه لا يزال غامضا بالنسبة للعديد من القراء أما بالنسبة إليّ فقد أصبح كشعاع شمس قوي ينير الرواية.¹

وبهذا يجعل "إميل زولا" رياح شهر أفريل وفصل الربيع عامة الذي يمثل فصل انبعاث الطبيعة من جديد بعد سبات الشتاء المظلم والغائم لينبئ بانبعث أهل قرية "مونتسو" وعزمهم على تغيير أوضاعهم والمطالبة بحقوقهم الشرعية في العمل والحياة الكريمة.

أما "محمد ديب" فقد اختار النار كوسيلة للتغيير والانبعث في رواية "الحريق"، و هو عنوان مجازي ورمزي يحمل عدة أبعاد ودلالات ولا يمكننا إدراكها إلا بعد الانتهاء من قراءة الرواية.²

إضافة إلى ذلك، قدم لنا "محمد ديب" في رواية "الحريق" وصفا لأجواء القرية الجزائرية كما كان لا يفتأ يندد بحياة الفلاحين وأوضاعهم المعيشية المزرية والقاسية جدا ومطالبهم المعبرة عن سأمهم ورفضهم للاستغلال الذي يتعرضون إليه من قبل المعمرين كما كان يوحى ويتنبأ باندلاع ثورة نوفمبر 1954م التحريرية.³ ويتجلى ذلك في قوله: "لقد أشعلت النار ولن تتطفئ أبدا [...] ولن تتوقف ألسنتها الدامية إلا إذا رمت بجرمها الكئيب في كل البلد".⁴

وبهذا يلتقي "إميل زولا" و "محمد ديب" من خلال عنواني "جيرمينال" و "الحريق" اللذين يحملان دلالات الثورة والتغيير: ثورة عمال منجم "مونتسو" على الأوضاع من خلال ممارستهم للعمل النقابي لأنه السبيل الأمثل لتحقيق أهدافهم و ثورة الفلاحين في قرية "بني بوبلن" والشعب الجزائري ككل ضد المحتل الفرنسي ليسترجع حريته وسيادته الوطنية .

¹ Lumière sur Germinal d'Emile Zola in <https://www.espacefrancais.com>

² Bererhi Afifa, Mohammed Dib l'incendie, p 91.

³ Mansouri Yacine, L'engagement dans l'Incendie de Mohammed Dib, Mémoire de magistère en sciences des textes littéraires, Université El Hadj Lakhdar Batna, Faculté des lettres et des langues, département de français, 2011/ 2012, p 08.

⁴ Dib Mohammed, L'incendie, pp 131, 132.

2.1.3 البنية اللغوية:

لقد حاول الروائيون الفرنسيون إعطاء صبغة واقعية لأعمالهم لذا جعلوا اللغة فيها تتغير وتتلون حسب اختلاف وتنوع المواقف والموضوعات فقد كانت تكسو حلة الرزانة والجدية والصرامة عندما يكون الراوي بصدد سرد أحداث المعارك والثورات أو استرجاع بعض الأحداث التاريخية الماضية المهمة التي لها علاقة بالحاضر كما كانوا يلجئون إلى اللغة العامية عندما يعطون الكلمة لأبناء الطبقة الشعبية و إلى اللغة السوقية الساقطة عندما يتكلم أطفال الشوارع وأمثالهم على سبيل المثال خصص "فيكتور هوغو" الكتاب الأول من الجزء الثاني لرواية "البؤساء" لأحداث معركة "واترلو" لقد كان يتوخى فيه الدقة في ذكر بعض الأحداث التاريخية التي وقعت فعلا في تلك الواقعة مع ذكر أسماء الأبطال ممن عاشوا في تلك الحقبة التاريخية أو ممن قادوا بعض المعارك أو أثروا تأثيرا عميقا في الأحداث.¹

ومن هنا يمكننا تقسيم الأساليب اللغوية الواردة في النصوص السردية المدروسة إلى اللغة الراقية ولغة أصحاب المهن والحرف واللغة العامية ثم اللغة السوقية.

1.2.1.3 اللغة الراقية:

تتجلى اللغة الراقية في الروايات المدروسة و خاصة في المقاطع الوصفية والسردية وفي الحوارات التي كانت تدور خاصة بين الشخصيات التي تنتمي إلى الطبقات الراقية أو الشخصيات الخلقة والمهذبة أمثال الأسقف "ميريال" في رواية "البؤساء" الذي كان أسلوبه راقيا وجميلا ويتضح ذلك خاصة من خلال الحوار الذي دار بينه وبين مدير إحدى

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 2, Volume 1, pp 333 – 391.

المستشفيات في مدينته.¹ إضافة إلى الحوار الذي دار بين الممرضة الراهبة و"فانتين" وهي على فراش المرض حول السيد "مادلين" (جان فالجان) الذي سافر حسب ظنها لإحضار ابنتها "كوزيت" التي كانت تتوق لرؤيتها قبل أن تغادر الحياة.²

هذا وقد افتتح "بالزك" روايته "الأب غوريو" بمقطع سردي ووصفي لفندق "فوكير" وصاحبه بأسلوب راق جدا³ إضافة إلى الحوارات التي كانت تدور بين "أوجين دي راستينياك" و "الأب غوريو"⁴ ثم الحوارات التي كانت بين "السيد غوريو" وإحدى بناته التي كانت تستخدم العبارات المهذبة وتتوجه إليه بضمير الجمع أنتم (Vous).⁵

وفي المقابل كان الروائيون المغاربة أيضا يوظفون لغة راقية في المقاطع السردية والوصفية لنصوصهم وأيضاً في بعض المقاطع الحوارية، ويتجلى ذلك في وصف "محمد ديب" للطفل صاحب سترة الكاكي الفقير والمنعزل والطفل الغني الذي يدعى "إدريس بلخوجة" المتكبر و المتعجرف⁶ إضافة إلى وصفه للمعلم السيد "حسن" وهو يلقي درسه حول الوطن.⁷ كما جعل "حميد سراج" يتكلم بكلام راق جداً حتى يبين مستواه العلمي والمعرفي،⁸ إضافة إلى المقطع الذي قدم فيه "ديب" وصفا رائعا للطفل "عمر" وهو يعاني من الجوع ثم كيف نشأت بينه وبين الجوع علاقة حميمة حتى كان يخاطبه ويناديه بالأم الحنون.⁹

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 1, Volume 1, pp 28, 29.

² ينظر المصدر السابق، ص 287.

³ Balzac Honoré de, Le père Goriot, pp 21, 22.

⁴ المصدر السابق، ص 198، 199.

⁵ المصدر السابق، ص 237، 238.

⁶ المصدر السابق، ص 13، 14.

⁷ المصدر السابق، ص 19، 20، 22.

⁸ Dib Mohammed, La grande maison, pp 121, 122.

⁹ ينظر المصدر السابق، ص 109، 110.

وكذا قدم "مولود فرعون" في رواياته ولاسيما الأرض والدم مقاطع سردية وصفية غاية في الجمال والراقي،¹ وقد سار أيضا مولود معمري على نهجها في رواياته و خاصة في "الربوة المنسية".²

هكذا سار الروائيون المغاربة على منهاج الروائيين الفرنسيين في توظيفهم للغة الراقية في مقاطع عدة من أعمالهم ولاسيما الوصفية والسردية منها لأنها هي التي يمكن للأديب أن يظهر فيها بشكل مباشر لأن الحوار مخصص للشخصيات ولا يمكن للأديب التدخل فيه مباشرة.

2.2.1.3 لغة أصحاب المهن والحرف:

كان الروائيون الفرنسيون خاصة الذين اهتموا بالعمال وعالمهم، يصفون على لغة الحوار في نصوصهم السردية صبغة المهنة أو الحرفة التي يمارسها أصحابها من عمال المناجم مثلا، فلغة عمال المناجم ليست هي لغة الفلاحين ولا لغة أطفال الشوارع بل هي خاصة بعمال ذلك الحقل بالذات.³

ومن هنا تتجلى لغة عمال منجم "الفورو" في رواية "جيرمينال" الذين يوظفون قاموسا لغويا خاصا بعالم المناجم من "حفر" و "مصاعد" و "سلالم" و "مكاج"... وفي هذا السياق قال "السيد ماهو" وهو يشرح بعض الأمور الخاصة بعالم المناجم لـ "إيتيين" العامل الجديد: "انظروا فوق المصعد، حيث يوجد مظلة ودعامات من حديد تغوص في المكاج ،

إيتيين : في حال انقطاع الحبال المعدنية هل يشتغل؟

¹ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, pp 7, 8 ; 25, 26.

² Mammeri Mouloud, La colline oubliée, pp 11, 12 ; 26, 27.

³ Wolf Nelly, Le peuple dans le roman français de Zola à Céline, PUF 1990, p 35.

السيد ماهو :آه! ليس دائما... نعم ينقسم البئر إلى ثلاث مقصورات مغلقة عن طريق بعض الألواح من الأعلى إلى الأسفل وفي الوسط توجد المصاعد وعلى اليسار فتحة السلالم التي تسمح بالتهوئة.¹

ويواصل السيد "ماهو" قوله: "يبلغ قطر هذه الحفرة أربعة أمتار ولكن بطانته تحتاج إلى تغيير لأن المياه تتسرب من كل مكان منه، انتبهوا! سنصل قريبا، هل تسمعون؟ وقد كان "إيتيين" يتساءل عن صوت المياه، التي تساقطت بضع قطرات منها على سقف المصعد.² وعند وصولهم علق "إيتيين" عن الحفرة قائلا: "كم هي عميقة".³

وعلى غرار عمال "جيرمينال" لـ "إميل زولا" نجد عمال المناجم في شمال فرنسا يتحدثون تقريبا نفس اللغة ويرددون نفس الكلمات في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون"، وفيما يلي يسرد لنا الراوي شعور "أعمر" وهو يدخل لأول مرة إلى المنجم: "لا يستطيع أعمر نسيان الأحاسيس التي كانت تنتابه في الأيام الأولى من نزوله إلى عمق المنجم، لا ينسى فتحة البئر السوداء وجرس الانطلاق الممزق للقلب وصوت الآلات والتواء الحبال المعدنية وقطرات الماء على الجدران والفتحات السوداء للأروقة والحرارة التي تصبح أكثر فكثر غير محتملة كلما تغلغلنا في العمق، ففي الحفرة فقط يشعر الإنسان بالرجولة".⁴

هذا وقد "كلف أعمر في بداية شغله بالمنجم بفرز الفحم ووضعه في العربات [...] ثم سرعان ما أصبح معاون معدن في آخر العربات [...] إن الأجواء الخائقة والعرق والعمل بدون انقطاع تحت نور خافت منبعث من مصابيح عمال المنجم والمسئول الذي يضغط باستمرار...⁵

¹ Zola Emile, *Germinal*, p 42.

المصدر السابق، ص 43.²

ينظر المصدر السابق، ص 44.³

⁴ Feraoun Mouloud, *La terre et le sang*, p 49.

ينظر المصدر السابق، ص 49.⁵

وهكذا كان كل من "إميل زولا" و "مولود فرعون" يتحدثان عن أجواء المناجم بلغة مشابهة وكلمات تكاد تكون نفسها، فقد تحدثا عن الحفرة العميقة والمياه التي تقطر من الجدران والعربات والحبال المعدنية، فهذه التسميات وهذه الأشياء لا توجد إلا في المناجم ولا يتحدث عنها و لا يعرفها سوى عمال المناجم.

3.2.1.3) اللغة العامية:

اهتم الروائيون الفرنسيون ابتداءً من القرن التاسع عشر بالشعب وبقضاياهم وهمومهم وارتأوا أنه لا يمكن الكتابة عن الواقع الفرنسي حينذاك دون إدخال الشعب في أعمالهم ومن هنا بدأ الشعب والشخصيات المأخوذة من الأوساط الشعبية المختلفة تأخذ مكانها في روايات ذلك العصر بل هناك من خصص أعمالاً كاملة وضخمة لها أمثال "فيكتور هوغو" في رواية "البؤساء" و "إميل زولا" في روايتي "جيرمينال" و "الخمارة"...

وعليه فكر الأدباء الفرنسيون في ضرورة إعطاء الكلمة لهؤلاء حتى يعبروا عن همومهم وانشغالاتهم بلغتهم وبكل عفوية وصدق ومن هنا بدأت اللهجة العامية تقتحم الأعمال الأدبية الراقية شيئاً فشيئاً و في هذا الصدد قال أحد الدارسين أن العامية هي لغة المعدمين والبؤساء وعندما تعطى الكلمة لهؤلاء فإنهم يعبرون عن بؤسهم الاجتماعي والعاطفي ويشاركون في فتح باب النضال من أجل تثقيف الشعب وتعليمه وكانت هذه هي معركة الجمهورية الثالثة.¹ ويرى البعض أن العامية هي لغة الطبقات الدنيا في المجتمع ولاسيما الأشرار واللصوص والمتسولين المجرمين...²

¹ Rolland-Lozachmeur Ghislaine, L'argot et la langue du peuple : procédés lexicaux et fonctions chez Victor Hugo (Les misérables) et Emile Zola (L'assommoir), Université de Bretagne occidentale Brest (France) faculté des lettres et sciences humaines « Victor Segalen », 2012, p191.

ينظر المرجع السابق، ص 185.²

أما "فيكتور هوغو" فقد قال: "إن العامية ككل هي ظاهرة أدبية ونتيجة اجتماعية اخترعها البؤساء كلغة للنضال والثورة على أوضاعهم كالعامل من أجل الحصول على حقوقهم"¹ وقال أيضاً: "العامية لغة بشعة ولكنها لغة العبيد والمعتقلات والسجون وكل ما هو مقبوت وشنيع في المجتمع"، وهي أيضاً لغة بغیضة ولا تفتأ تجعلك ترتبك"² هذا وقد ثار المتلقون على "بالزك" و"يوجين سو" (Eugène Sue) اللذين جعلوا من قطاع الطرق والمجرمين يتحدثون لغتهم الطبيعية كما فعل "فيكتور هوغو" عام 1828م حين كتب روايته "آخر يوم للمحكوم عليه"، وقالوا: ماذا هم فاعلون بنا هؤلاء؟! العامية بغیضة وتجعلك تشعر بعدم الراحة، هي لغة قبيحة وحائرة وماكرة وملتوية وسامة وفظيعة ومريبة وساقطة إنها لغة البؤس.³ وتتقسم العامية الموظفة في النصوص السردية المدروسة إلى عدة أقسام:

1.3.2.1.3 الخروج عن القواعد النحوية:

مثلاً كان البؤساء يتعدون عن القوانين كذلك كانوا يعملون على تحطيم القواعد النحوية واللغوية بهدف تشويه اللغة الرسمية وتحطيمها.⁴ ومن هنا كانت لغة البؤساء عند "فيكتور هوغو" لا تتشكل في إطار لسانی و لغوي عاد، بل كانت تعارض و بصورة كبيرة الخطاب القانوني، إذ لم يكن لديهم أي صوت يعارض السلطة ويقف في وجهها وعليه قام "هوغو" في أجواء روايته الممثلة للفقر والبؤس بتطوير لغة متاحة لهؤلاء البؤساء الذين أبعدا وهمشوا من قبل السلطة حتى يبرزوا وتكون لديهم لغة خاصة بهم.⁵

¹ <https://dicocitation.lemonde.fr> 2500 citations de Victor Hugo

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 3, p 6.

³ <https://dicocitation.lemonde.fr> 2500 citations de Victor Hugo

⁴ Catraio Arthur augusto, Langage et misère dans les misérables de V. Hugo, Revue Claireira, Université Paris I, Panthéon Sorbonne, Volume 2, N° 2, Ago-Dez/ 2015, p 5.

ينظر المرجع السابق، ص 5، 6.5

وبهذا كانت لغة هؤلاء تخرج عن القواعد النحوية السليمة كنوع من التمرد على الأوضاع، كثيرا ما كان الطفل "غافروش" يقوم بتصريف فعل ذهب (aller) في زمن الحاضر ومع ضمير المتكلم بـ (Je va) بدلا من (Je vais)¹ وكذا ورد الفعل نفسه عند "إميل زولا" بالصيغة نفسها (Je vas) في روايتي "جيرمينال"² و "الخمارة".³ إضافة إلى أسلوب الاستفهام الذي خرجت فيه الشخصيات الفقيرة و البائسة في الروايتين الفرنسية والمغربية عن قواعده ويتجلى ذلك فيما يلي:

وردت الجملة الاستفهامية في "البؤساء" على الشكل التالي:⁴ « Tu grimpes ? »

بينما الأصح هو « Grimpes-tu ? »

كما ورد عند "إميل زولا" في رواية "جيرمينال" الجملة التالية بهذه الصيغة :

⁵ « T'as pris ce petiot-là ? » والأصح « As-tu pris ce petiot-là ? »

وكذا: « Tu es seule ? »⁶ والأصح « Es-tu seule ? »

وقد وردت العديد من الجمل الاستفهامية بهذا الشكل عند "محمد ديب" و "مولود فرعون" و "مولود معمري" ويتجلى ذلك فيما يلي:

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 3, p 193 et Tome 4, Volume 2, pp 480, 481.

² Zola Emile, Germinal, p 101 et p 173.

³ Zola Emile, L'assommoir, p 512.

⁴ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 482.

⁵ Zola Emile, Germinal, p 39.

المصدر السابق، ص 169.⁶

- ¹ « Tu es fou de crier ? » والأصح « Es-tu fou de crier ? »
– ² « Tu trouves que ce n'est pas assez ? » والأصح « Trouves-tu »
– ³ « Vous voulez que j'aille faire la voleuse »
والأصح « Voulez-vous que j'aille »

وفي رواية "الحريق" وردت أيضا بعض الجمل الاستفهامية بهذه الصيغة، نذكر على سبيل المثال:

- ⁴ « Tu as faim ? » والأصوب « As-tu faim ? »
– ⁵ « Tu iras apporter du maïs ? »
والأصوب « Iras-tu apporter du maïs ? »

وكذا ورد في رواية "الأرض والدم" لـ "مولود فرعون":

- ⁶ « Mais tu te mets à la défendre ? »
والأصوب « mais te mets-tu à la défendre ? »
– ⁷ « Ah ! Il t'a dit ? » والأصح « Ah ! T'a-t-il dit ? »
– ⁸ « Il y'a longtemps que Slimane est ton gendre ? »
والأصح « Y a-t-il longtemps que Slimane est ton gendre ? »

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 33.

المصدر السابق، ص 134. ²

المصدر السابق، ص 135. ³

⁴ Dib Mohammed, L'incendie, p 11.

المصدر السابق، ص 20. ⁵

⁶ Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 101.

المصدر السابق، ص 106. ⁷

المصدر السابق، ص 107. ⁸

وقد وظف "مولود معمري" بدوره هذه الصيغة بهذا الشكل أيضا:

« Tu ne vas pas aux Bouaddou voir ta femme ? »¹ –

والأصح « Ne vas-tu pas aux Bouaddou voir ta femme ? »

« Tu ne dors pas encore ? »² –

والأصح « Ne dors-tu pas encore ? »

« Tu te rappelles ? » و الأصوب « Te rappelles-tu ? » –

وعند "إدريس شرايبي" وردت الجمل الاستفهامية الموالية على الشكل التالي:

« Tu crois que c'est lui ? » والأصوب « Crois-tu que c'est lui ? »³ –

« Il te l'a dit ? » والأصح « Te l'a-t-il dit ? »⁴ –

« Tu dors ? » والأصح « Dors-tu ? »⁵ –

وبهذا يلتقي الروائيون الفرنسيون والمغاربة في الخروج عن قواعد النحو خاصة فيما يتعلق بأسلوب الاستفهام الذي كثيرا ما يستخدم بهذا الشكل في اللغة العامية الفرنسية.

¹ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 50.

المصدر السابق، ص 48.

³ Chraïbi Driss, Les boucs, p 48.

المصدر السابق، ص 57.

المصدر السابق، ص 58.

2.3.2.1.3 تشويه الكلمات المعروفة:

لقد كان الروائيون الفرنسيون يتعمدون إيراد بعض الكلمات المعروفة والمتداولة على ألسنة هؤلاء البؤساء وخاصة أطفال الشوارع الذين يتعمدون في تشويهها وهو نوع من الثورة على ما هو موجود من قوانين ورفض لكل سلطة عليهم، ومن بين هذه الكلمات المعرضة لعملية التشويه نذكر على سبيل المثال:

- 1 – « Mamselle » والكلمة الصحيحة « Mademoiselle »
- 2 – « Keksekça ? » والأصوب « Qu'est-ce que c'est que cela ? »
- 3 – « Kekçaa ? » والأصح « Qu'est-ce que c'est que cela ? »
- 4 – « N'eille pas peur ! » والأصوب « N'aie pas peur ! »
- 5 – « Me v'la, dit-il » والأصح « Me voilà, dit-il »
- 6 – « V'la ! » الأصوب « Voilà ! »
- 7 – « En v'la une » والأصح « En voilà une »
- 8 – « V'la la cavalcade » والأصح « Voilà la cavalcade »
- 9 – « T'as donc marché » والأصح « Tu as donc marché »
- 10 – « T'as l'air d'une nourrice » والأصح « Tu as l'air d'une ... »

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 478.

المصدر السابق، ص 478.

المصدر السابق، ص 481.

Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 494. 4.494.

المصدر السابق، ص 496.

المصدر السابق، ص 490.

⁷ Zola Emile, L'assommoir, p 516.

المصدر السابق، ص 510.

المصدر السابق، ص 412.

¹⁰ المصدر السابق، ص 31.

– ¹ « Tu as pris ce petiot là ? » والأصح « T'as pris ce petiot là ? »

– ² « Tu es fou ! » والأصح « T fou ! »

– ³ « à cette heure ? » والأصح « à c't'heure ? »

بناء على الأمثلة السابقة نلاحظ أن الروائيين المغاربة لم يوظفوا أسلوب التشويه هذا في نصوصهم السردية إلا قليلا لأن هدفهم كان يختلف عن هدف الفرنسيين الذين يريدون الكشف عن رغبة البؤساء في التمرد لغويا على السلطة الفرنسية لأنهم لا يشعرون بالانتماء إلى ذلك المجتمع وتلك المؤسسات بينما كان هدف الأدباء المغاربة هو محاربة المحتل عن طريق استخدام لغته وتشويهها أحيانا ولكن عن طريق تعريب بعض الكلمات وليس أكثر مثلا أورد "محمد ديب" كلمة « champêtre » ومعناه حارس بلدي ، بصيغة⁴ « chambette » حتى يبين أيضا أن الشعب الجزائري لا يتقن اللغة الفرنسية وأن المحتل لم يتوصل إلى السيطرة ثقافيا ولغويا على الجزء الأكبر منه .

3.3.2.1.3 (التعبيرات الشفوية:

من أهم العبارات التي كانت الأكثر خضوعا للأسلوب الشفوي سواء عن الروائيين الفرنسيين أو المغاربة هي عبارة « Cela » التي غالبا ما تستخدم في اللغة العامية أو الشفوية بصيغة « ça » ، ومن أهم الأمثلة على ذلك نذكر:

¹ Zola Emile, Germinal, p 39.

² Dib Mohammed, L'incendie, p 43.

³ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 103.

⁴ Dib Mohammed, L'incendie, p 43.

« Colle toi ça dans le fusil »¹ –

والأصح « Colle toi cela dans le fusil »

« Ça ne les a pas fâchées »² –

والأصح « Cela ne les a pas fâchées »

« Si cela l'amuse »³ والأصح « Si ça l'amuse »

« Qu'est-ce que ça fiche ? »⁴ –

و الأصح « Qu'est-ce que cela fiche ? »

« Il n'a que cela à faire ? »⁵ والأصح « Il n'a que ça à faire ? »

« Tu es fou de crier comme ça ? »⁶ –

والأصح « Tu es fou de crier comme cela ? »

« Il disait cela »⁷ والأصوب « Il disait ça »

« C'est ça qu'il faut réfléchir »⁸ –

و الأصوب « C'est cela qu'il faut réfléchir »

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 479.

المصدر السابق، ص 490.

³ Zola Emile, Germinal, p 123.

المصدر السابق، ص 123.

⁵ Balzac Honoré de, Le père Goriot, p 103.

⁶ Dib Mohammed, La grande maison, p 33.

المصدر السابق، ص 60.

⁸ Dib Mohammed, L'incendie, p 140.

– ¹ « C'est ça l'important »

إضافة إلى ما سبق، كثيرا ما تصادفنا عبارات غالبا ما تستخدم في التعبير الشفوي لدى العوام وتدل على التعجب وهي: « Fichtre » وقد وردت في الأمثلة التالية من النصوص السردية الفرنسية و المغربية:

– « Fichtre ! repris gaveroche » ² عجباً! قال غافروش

– ³ « Fichtre ! fit gaveroche » عجباً! فعل غافروش

– ⁴ « Fichtre ! il ne fait pas chaud ici » عجباً! الجو غير حار هنا

– ⁵ « Le bicot (moi) n'y comprenait fichtre rien »

كانت هذه أهم التعبيرات الشفوية التي ظهرت بشكل ملفت للانتباه في الروايتين الفرنسية والمغربية.

4.3.2.1.3) التعبيرات المجازية والرمزية:

يرى أحد الدارسين أنه لا يوجد هناك أي لغة أكثر مجازية من اللغة العامية،⁶ وهي لغة البؤساء والمحرومين والمستعبدين من المجتمع وغالبا ما يُنظر إليهم على أنهم طبقة من الهمج والأُميين والمجرمين واللصوص وقد فهم هؤلاء ذلك لذا اخترعوا لغة خاصة بهم حتى يتواصلوا مع بعضهم البعض دون أن يفهمهم أحد من خارج طبقتهم ولهذا نجد الطفل

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 141.

² Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 481.

³ Hugo Victor, Les misérables, Tome 5, Volume 3, p 243.

⁴ Zola Emile, Germinal, p 41.

⁵ Chraïbi Driss, Les boucs, p 36.

⁶ Augusto Arthur, Langage et misère dans les misérables de V. Hugo, p 8.

"غافروش" يتحدث لغة خاصة مع رفاقه وقد حاول أن يلقتها لطفلين تائهيـن كان قد التقى بهما وأطعمهما وآواهما.¹

ومن بين هذه الكلمات الرمزية والمجازية نذكر:

- « la nuit » = (الليل) « la sorgue » ،
- « les sergents » = (الجنود) « les cognes » ،
- « un logement » = (مسكن) « une piole »².
- « la tête » : (الرأس) « la tronche »³
- « la corde » : (الحبل) « la veuve »
- « ma corde » : (حلي) « ma tortouse »
- « un homme » : (رجل) « un orgue »
- « un enfant » : (طفل) « un môme »
- « un petit enfant »⁴ (طفل صغير) « un mion »
- « le gamin » (الطفل)⁵
- « morfilez » (كلوا)
- « colle-toi ça dans le fusil »⁶ (كل)

¹ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, pp 479 – 492.

المصدر السابق، ص 491.

المصدر السابق، ص 493.

المصدر السابق، ص 506.

⁵ Hugo Victor, Les misérables, Tome 3, Volume 2, p 112.

⁶ Hugo Victor, Les misérables, Tome 4, Volume 2, p 479.

إضافة إلى "فيكتور هوغو" كان "إميل زولا" يوظف الأسلوب الحر الذي يسمح للروائي بإعادة إنتاج لغة الحديث الشعبي أو لغة العوام بصورة مباشرة في الرواية لقد كانت أفكار شخصياته تظهر في الخطاب السردى دون أدوات تركيب أو رسومات بيانية أو توضيحية كعلامات التنصيص أو المزدوجتين لتسمح بتوضيحات أكثر.¹

ومن الكلمات التي وردت عند "إميل زولا" نذكر ما يلي:

- « T'as pris ce petiot-la ? » وكلمة « petiot » تعني الطفل الصغير.
- « Qu'est-ce que ça te fiche ? » ماذا يعنيك؟²
- « Qu'est-ce que nous fichons là... » ماذا نفعل هنا؟³
- « son gamin » (طفله)⁴
- « Les galoches des gamins qui sortaient de l'école » وتعني كلمة "غالوش" حذاء ذو نعل خشبي.
- هذا الطفل الهزيل.⁶ « ce petiot maigre »
- « ta mère te le chipera » ستسرقه منك أمك.⁷
- « نحن أناس لا خير فيهم إن رضينا بهذا! »⁸
- « nous sommes des Jean-foutre, si nous acceptons ça ! »

¹ Giraud Frédérique, Emile Zola, Le déclassement et la lutte des places, Les rougons macquarts condensation littéraire d'un désir d'ascension sociale, Paris Honoré champion éditeur, 2016, p369.

² Zola Emile, Germinal, p 39.

المصدر السابق، ص 42.³

المصدر السابق، ص 77، 78.⁴

المصدر السابق، ص 113.⁵

⁶ Zola Emile, Germinal, p 123.

المصدر السابق، ص 139.⁷

المصدر السابق، ص 199.⁸

– ¹ « nous sommes foutus »

– سأصفحك.² « je te flanque ma main sur la figure »

وفي المقابل قام العديد من الروائيين المغاربة باستعارة بعض الكلمات من العامية الفرنسية الموظفة عند "هوغو" أو "زولا" ليعبروا من خلالها عن واقع الفقراء واليأساء في مجتمعاتهم ومن بينها نذكر على سبيل المثال:

– ³ « un pote » ومعناها طفل

– ⁴ « le gosse » الطفل

– ⁵ « quignons » أطراف الخبز

– ⁶ « le crouton » قطعة خبز يابسة

– ⁷ « un mioche » طفل

– ⁸ « gamins » أطفال

– ⁹ « ta miche » رغيفك

– ¹⁰ « gamin » طفل

– ¹ « l'eau de vie » الخمر

¹ Zola Emile, Germinal, p 244.

المصدر السابق، ص 423. ²

³ Mammeri Mouloud, Le sommeil du juste, pp 140, 141.

⁴ Dib Mohammed, La grande maison, p 7.

المصدر السابق، ص 7. ⁵

المصدر السابق، ص 7. ⁶

المصدر السابق، ص 10. ⁷

المصدر السابق، ص 25، 26. ⁸

المصدر السابق، ص 187. ⁹

¹⁰ Dib Mohammed, L'incendie, p 21.

Dib Mohammed, Le métier à tisser, pp 50, 61.

ومن خلال ما سبق يتجلى لنا مدى تأثر الروائيين المغاربة الذين كتبوا باللغة الفرنسية بلغة البؤساء وبالعامية الفرنسية التي كان أصحاب الأوساط المعدمة يتواصلون بها مع بعضهم البعض كما ورد في روايات "هوغو" و "بالزاك" و "زولا"، مع الملاحظة أن الكلمات السابقة ذكرها أوردها الروائيون المغاربة أثناء عملية الوصف والسرد، أما المقاطع الحوارية التي كانت تدور بين الشخصيات الروائية فكانت تزخر بالكلمات المأخوذة من عمق العامية الجزائرية سواء كان ذلك متعلقا بأسماء بعض الأشياء أو الأماكن أو بعض الألقاب أو بعض عبارات المدح أو الذم والشتم إلى غير ذلك، إضافة إلى الكلمات الأمازيغية التي كانت سائدة في روايات "مولود فرعون" و "مولود معمري" خاصة لأنهما كانا يصوران حال الأسر الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي في منطقة القبائل التي شهدت أوضاعا مزرية لا تقل قسوة عما كان عليه أهل تلمسان أو قسنطينة أو وهران أو الجنوب الكبير بل حتى في بلاد المهجر كما صورته لنا "إدريس شرابي" في رواية "التيوس".

ومن بين الكلمات الواردة في الروايات المغربية والمأخوذة من اللغة العامية نذكر على سبيل المثال:

– « une meida »² : مائدة

– « Torraicos »³ : حمص مقلي

– « Gorha ! Quilla ! »⁴ : قرحة! كية

– « quilla »⁵ : كية

– « Bouh ! »¹ : بوه

¹ Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 64.

² Dib Mohammed, La grande maison, p 16.

المصدر السابق، ص 14.

المصدر السابق، ص 37.

المصدر السابق، ص 42.

— ² « Bouh, Bouh » : بوه، بوه

— ³ « Lalla Zohra » : لالة زهرة

— ⁴ « Tarechta » : الرشته

— ⁵ « Ma ? » : أمي

— ⁶ « lalla » : لالة

— ⁷ « Bouh, Lalla ! » : بوه لالة

— ⁸ « Non, ya lalla » : لا، يا لالة

— ⁹ « des arraguiats » : العراقيات

— ¹⁰ « Ha hai ! » : هاي هاي

— ¹¹ « Haïk » : حايك

— ¹² « Yah » : ياه

— ¹³ « Bouh » : بوه

— ¹⁴ « Mama bent Adri » : ماما بنت آدري

¹ Zola Emile, Germinal, p 42.

المصدر السابق، ص 48، 73.

المصدر السابق، ص 48.

المصدر السابق، ص 53، 54.

المصدر السابق، ص 53 وص 155.

المصدر السابق، ص 48، 53.

المصدر السابق، ص 85، 7.

المصدر السابق، ص 93، 8.

المصدر السابق، ص 131، 9.

المصدر السابق، ص 84، 10.

¹¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 10.

المصدر السابق، ص 10، 12.

المصدر السابق، ص 11، 13.

المصدر السابق، ص 11، 14.

- 1 – « la dechra » : الدشرة
- 2 – « le kanoun » : الكانون
- 3 – « la meïda » : المائدة
- 4 – « aarch » : عرش
- 5 – « les habous » : الحابوس
- 6 – « Telghouda », « Taleb »⁷ : طالب
- 8 – « gandouras » : فندورات
- 9 – « I-yah ! I-yah ! » : إياه! إياه
- 10 – « des gourbis » : الغوربيات (الأكواخ)
- 11 – « salam » : سلام
- 12 – « de la harira » : الحريرة
- 13 – « matbkha » : مطبخة
- 14 – « Gummi » : غومي

¹ Dib Mohammed, L'incendie, p 12.

المصدر السابق، ص 20.

المصدر السابق، ص 23.

المصدر السابق، ص 65.

المصدر السابق، ص 65.

المصدر السابق، ص 70.

المصدر السابق، ص 94، 95.

المصدر السابق، ص 130.

المصدر السابق، ص 130.

المصدر السابق، ص 186.

¹¹ Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 97.

المصدر السابق، ص 97.

المصدر السابق، ص 114.

¹⁴ Chraïbi Driss, Les boucs, p 27.

– ¹ « Roh ! fissa ! »: روح فيسع

أما روايات "مولود فرعون" و "مولود معمري" فهي تزخر بالكلمات الأمازيغية مع بعض الكلمات من العامية الجزائرية وهي تتجلى في الأمثلة التالية:

– ² « Les sidis »: الأسياد

– ³ « Achou »: ماذا!

– ⁴ « nana »: نانة

– ⁵ « Achhal »: كم؟

– ⁶ « ilha »: جيد

– ⁷ « La djema »: الجماعة

– ⁸ « Dada »: عمي

– ⁹ « Ruhedthdhilhna a tharoua »: اذهبوا في سلام يا أبنائي

– ¹⁰ « timechret »: التويضة

¹ Chraïbi Driss, Les boucs, pp 105, 110.

² Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 61.

المصدر السابق، ص 110. ³

المصدر السابق، ص 110. ⁴

المصدر السابق، ص 110. ⁵

المصدر السابق، ص 111. ⁶

⁷Feraoun Mouloud, La terre et le sang, p 209.

المصدر السابق، ص 209. ⁸

⁹ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 35.

المصدر السابق، ص 60. ¹⁰

– ¹ « Iroumien »: الفرنسيون

– ² « Ouaakka ? »: من هناك؟

– ³ « Dhnek »: أنا هي

– ⁴ « Dhkem a Kou »: هل هذا أنت ياكو؟

– ⁵ « Inithakouamin »: قولوا كلكم آمين

– ⁶ « Laaslama »: عسلامة

– ⁷ « Vou-tamart »: أبو لحية

– ⁸ « mon burnous »: برنوسي

ومن خلال ما سبق، يتجلى لنا تمسك الروائيين المغاربة بثقافتهم ولغتهم وأصالتهم رغم فرض المحتل لثقافته ولغته عنوة عليهم، لقد أبى هؤلاء أن ينصهروا في ثقافة المحتل بل أرادوا إخضاع لغته للثقافة المغربية بدليل أنهم كتبوا الكثير من الكلمات والعبارات والجمل بالأحرف الفرنسية ولكن بصيغة العامية المغربية أو الأمازيغية وبهذا يكون هؤلاء الروائيون هم الذين أثروا في اللغة الفرنسية وأثروها وليس العكس بدليل أن هناك العديد من الكلمات العربية التي دخلت الآن إلى قاموس اللغة الفرنسية مثل كلمة (الطبيب) و(البرنوس).

¹ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 60.

المصدر السابق، ص 80.

المصدر السابق، ص 80.

المصدر السابق، ص 81.

المصدر السابق، ص 64.

المصدر السابق، ص 81.

المصدر السابق، ص 114.

المصدر السابق، ص 118.

ولعل ما يدعم أكثر هذه الفكرة هو مجموعة من العبارات والجمال المتداولة في الأوساط الشعبية المغاربية والتي ترجمت حرفيا إلى اللغة الفرنسية وهذا النمط من الأساليب لا نجده بتاتا في اللغة الفرنسية بل هو خاص جدا بالثقافة المغاربية.

ومن بين هذه الجمل نذكر:

– ¹ « Aini, ma fille. [...]Maudis le malin » : عيني، يا ابنتي العني الشيطان.

– ² « Le bon dieu t'accordera une fortune. Qu'il te conduise à la »

« mecque. » بمعنى: إن شاء الله تترفه. وربّي يدريك لمكة.

– ³ « Je couperai du miel dans ta bouche » : نقطع كلامك بالعدل.

– ⁴ « Grande est la terre du seigneur » : أرض الله واسعة.

– ⁵ « Que la demeure de vos aïeux s'écroule » : الله يخرب بيتك وبيوت

أجدادك.

– ⁶ « Par cette nourriture qui est près de nous » : وحق هذا النعمة.

– ⁷ « Par le sang qui est entre nous... » : وحق الدم الذي يشركنا.

– ⁸ « Allah vous vienne en aide » : الله يعاونكم.

– ¹ « Pour dieu et vos parents défunts, donnez, gens de biens »

بمعنى: صدقة على وجه ربي والوالدين يا مؤمنين

¹ Dib Mohammed, La grande maison, p 32.

المصدر السابق، ص 188. ²

³ Dib Mohammed, L'incendie, p 41.

المصدر السابق، ص 62. ⁴

المصدر السابق، ص 62. ⁵

المصدر السابق، ص 93. ⁶

المصدر السابق، ص 134. ⁷

المصدر السابق، ص 180. ⁸

- « Allah ait son â me ! »²: الله يرحمو
- « Présente-toi à dieu dans la nudité, il te vêtira »³: اخرج
لربي عريان يكسيك.
- « Rejoint le pardon de dieu »⁴: التحق برحمة الله (مات).
- « Il a le cœur d'un roumi »⁵: عندو قلب الرومي (قلب قاسي).
- « Il a mangé son père »⁶: كلا راس باباه.
- « La française est pleine de sel »⁷: الرومية معمرة بالسر.
- « Allah est grand »⁸: الله أكبر.

لقد كان إقحام الكلمات والعبارات والجمل العربية الدارجة والأمازيغية في النصوص الروائية المغاربية المكتوبة باللغة الفرنسية هو نوع من محاولة إظهار الهوية المغاربية رغم الاحتلال وحتى يبينوا للمحتل بشاعته من خلال الظروف القاسية التي تعيشها هذه المجتمعات ولكي يسمعو أصواتهم لشعوب العالم التي تجهل مأساتهم وليواجهوا المحتل بلغته وإعلان ثورتهم عليه باللغة وبالأسلوب الذي يفهمه.

¹ Dib Mohammed, Le métier à tisser, p 20.

المصدر السابق، ص 103.

المصدر السابق، ص 137.

⁴ Mammeri Mouloud, La colline oubliée, p 80.

المصدر السابق، ص 86.

⁶ Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, p 110.

المصدر السابق، ص 146.

المصدر السابق، ص 202.

خاتمة

خاتمة:

وفي ضوء ما سبق من مفاهيم مختلفة حول الفقر والبطالة وحول أسبابهما وأنواعهما ومظاهريهما والعلاقة بينهما وكيفية مكافحتهما، ومن خلال الخلفيتين التاريخيتين للمجتمعين الفرنسي و المغربي والدراسة التطبيقية المقارنة بين الروايتين الفرنسية و المغربية التي تتبعت مختلف التشابهات و الاختلافات بينهما توصلنا إلى ما يلي من النتائج:

إن آفة الفقر لا تمس الجانب المادي في حياة الإنسان فحسب بل غالبا ما تشمل الجانب الفكري والعاطفي والاجتماعي... والفقر ظاهرة لم ينج منها أي مجتمع أو بلد مهما بلغت درجة تطوره الاقتصادي أو العلمي ومن هنا لا يمكننا استغراب انتشار ظاهرتي الفقر والبطالة في المجتمع الفرنسي خلال القرن التاسع عشر رغم امتلاكه للمصانع والمناجم والورش والابتكارات، إذ كانت الرأسمالية حينذاك قد أسهمت في ظهور فئة من رجال الأعمال الذين استولوا على الشركات الكبيرة وعلى رؤوس الأموال وكان همهم الوحيد هو تحقيق الأرباح الطائلة دون الاكتراث بأحوال العمال وأوضاعهم.

لقد كان العمال حينذاك يُستغلون استغلالا وحشيا ويعاملون كالعبيد، لقد كانوا يعملون اثنا عشرة ساعة في اليوم وستة أيام في الأسبوع مقابل أجور زهيدة جدا لا تسمح لهم إلا بالبقاء على قيد الحياة مما جعلهم يدخلون أطفالهم إلى العمل حتى يسهموا في مصاريف العائلة و يحرمون من طفولتهم و من حقهم في التعليم.

وفي المقابل كان المجتمع المغربي يعيش تحت نير المحتل الفرنسي الذي مارس عليه سياسة الإفقار والتجويع والتجهيل والتدمير والتشريد والإبادة، مما دفع بالأعداد الهائلة إلى الهجرة إلى المدن الكبرى أو إلى فرنسا بحثا عن أوضاع أحسن لهم ولعائلاتهم.

ولقد كان فن الرواية من بين الفنون السردية التي ازدهرت كثيرا في أوروبا و لاسيما في القرن التاسع عشر لأنها تمكنت من مسايرة مختلف الأحداث ومواكبة وتيرة المنعطفات والتغيرات الكثيرة والسريعة التي عاشتها المجتمعات حينذاك.

ولم تظهر الرواية الاجتماعية في فرنسا إلا في حوالي منتصف القرن التاسع عشر وقد كان "فيكتور هوغو" من بين الروائيين الرومانسيين الذين برزوا فيها إضافة إلى "بالزاك" و"فلوبير" في الواقعية النقدية و"إميل زولا" في الواقعية الطبيعية. وقد سعت وتحت راية الرومانسية والواقعتين النقدية والطبيعية إلى تسليط الضوء على خبايا الواقع الاجتماعي والإنساني للطبقات الاجتماعية الدنيا بصراعاتها ومعاناتها ونضالها كل واحدة منها بأساليبها الفنية الخاصة بها.

ومع مطلع القرن العشرين ظهرت الرواية المغربية متأثرة بالرواية الفرنسية التي بلغت درجة كبيرة من النضج الفني حينذاك وانتشرت بقوة في المنطقة المغربية التي كانت تحت السلطة الفرنسية وخاصة الجزائر التي لم تكن تهدف إلى السيطرة عليها عسكريا وسياسيا واقتصاديا فحسب بل ثقافيا وفكريا خاصة.

لقد كانت الرواية الفرنسية آنذاك هي المثل الأعلى الذي كان الروائيون المغاربة المبتدئون يقتفون آثارها ويطمحون إلى محاكاة مؤلفيها والارتقاء إلى مستواهم.

وبناء على هذا لا يمكننا استغراب ذلك التقارب الكبير بين الروائيين الفرنسيين والمغربيين في طرحهم لظاهرتي الفقر والبؤس وفي كيفية معالجتهم لهما من خلال اشتراكهم في مختلف العوامل والمظاهر والنتائج الناجمة عن هاتين الظاهرتين وحتى في تفاعل بعض الشخصيات الروائية معهما، ولكن هذا لا يعني انصهار الروائيين المغاربة في الثقافة الفرنسية لأن كل موضوعاتهم مستوحاة من صميم واقعهم المعيش إذ لا نجد أي حادثة أو شخصية أو سلوك أو فكرة هجينة أو دخيلة على المجتمع المغربي أو على ثقافته حتى الأجواء الطبيعية من

مناخ وتضاريس كالجبال والوديان والسهول الشاسعة كانت كلها مغربية بحتة مما أعطى لظاهرتي الفقر والبؤس صبغة خاصة جدا بها.

هذا وقد سلك الروائيون المغاربة مسلك الروائيين الفرنسيين على المستوى الفني والجمالي ويتجلى ذلك في اختيارهم لمختلف النماذج من الشخصيات كالشخصيات البطولية المهمشة التي تظهر خاصة من خلال المسنين الذين عزلهم أبنائهم وأقرباؤهم بعدما باتوا حملا ثقيلًا عليهم مما جعلهم ينغلِقون على ذاتهم ويعيشون في حال شبيهة بالموت.

إضافة إلى الشخصيات القيادية والثورية التي تمكنت من إحداث حركة غير عادية في الأوساط العمالية والفلاحية لقد أخرجتهم من سباتهم وسلبيتهم ليدركوا حقيقة أوضاعهم مما دفعهم إلى الثورة عليها والدخول في إضراب سواء بالنسبة لعمال المناجم في "جيرمينال" أو الفلاحين في رواية "الحريق"

كما خصص هؤلاء رقعة هامة للشخصيات النسائية اللائي قدموهن من زوايا شتى وفي أوضاع مختلفة، لقد قدموا صورة للأمهات اللائي تتفانين في تحمل مسؤولية أبنائهن فهن تضحين بكل ما لديهن حتى يعيشوا في أمان ولم تكن تجدن أي مانع من انتهاج بعض السلوك السلبي والساقط أحيانا في الأوقات العصيبة جدا حتى تتقذن أبناءهن ، لقد مارست "فانتين" البغاء حتى تحصل على البعض من المال من أجل ابنتها وكذا قامت "عيني" بسرقة الأموال التي تسلمتها من بعض النساء اللائي كلفنها بشراء أقمشة فاخرة لهن عند سفرها إلى وجدة.

ثم صوروا المرأة العاملة التي كانت تعاني كثيرا على المستويين المادي (الجسدي) والمعنوي حتى تحصل على ما يكفيها لشراء البعض من الخبز، لقد كانت "عيني" على سبيل المثال تعمل ليلا ونهارا مقابل أجر زهيد جدا وهكذا كانت العاملات في منجم "الفورو" في رواية

"جيرمينال" أيضا تتعبن وتشقن طول النهار وطول الأسبوع مقابل أجر لا يكاد يسد احتياجات عائلاتهن.

لقد قدم الروائيون الفرنسيون والمغربيون صورة حية للمرأة الثائرة على أوضاعها المزرية والبايسة التي أضعفتها وأنهكتها إلى درجة أنها لم تعد تحتل أي ضغط وعليه كانت النساء في بعض الروايات لا تفتأن تتشاجرن لأبسط الأسباب ومن بينهن نساء قرية "مونتسو" من عاملات المنجم وجارات السيدة "ماهو" في رواية "جيرمينال" وكذا "جيرفيز" ونساء المغسل في رواية "الخمارة" وتقابلهن "عيني" ونساء "دار سبيطار" في الدار الكبيرة".

و من خلال ذلك حاول كل من "إميل زولا" و "محمد ديب" إعادة الاعتبار للمرأة لكونها نصف المجتمع ومقاومة الأفكار البالية والذهنيات الرجعية التي كانت تقلل من شأنها وتجعلها مجرد آلة لصناعة الأطفال.

كما اهتم الروائيون المغاربة على غرار الروائيين الفرنسيين بشخصيات الأطفال الذين كانوا أكثر الشخصيات تجسيدا للفقر والبؤس من خلال تصويرهم و هم في المعامل أو في المناجم يعملون ويحملون الأثقال على أجسادهم الضعيفة والهزيلة التي تعكس سوء التغذية لديهم إضافة إلى أطفال الشوارع المشردين الذين خصص لهم "فيكتور هوغو" مساحة هامة في رواية "البؤساء" وقد أسماهم بأطفال باريس وفي المقابل انشغل "محمد ديب" أيضا بموضوع أطفال الشوارع الذين قدم لنا صورة حية ودقيقة لهم في روايتي "الدار الكبيرة" و "الحريق"، لقد كان هؤلاء الأطفال يعيشون في فقر مدقع وكان مأواهم الوحيد هو الشارع مع الملاحظة أن أطفال "محمد ديب" كانوا يعودون كل مساء إلى بيوتهم ويقضون الليل مع ذويهم عكس أطفال "هوغو" الذين رفضهم أهلهم ورموا بهم إلى الشارع ولعل السبب الأساسي لهذا الاختلاف يعود إلى طبيعة المجتمع الجزائري الذي لم يكن في فكره ولا في عاداته أو تقاليده أو معتقداته التخلص من الأبناء بل بالعكس كانت العائلات الجزائرية تتمسك بكل أفرادها ولاسيما الأطفال لأنهم يمثلون أمل عائلاتهم ومستقبلها.

وأما الشخصيات البورجوازية فقد كانت تتميز بالتكبر والتعجرف وتعمل جاهدة على توسيع الهوة بينها وبين أبناء الطبقات الفقيرة كما لا تتوانى في إهانة هؤلاء وتحسيسهم بأنهم أقل شأنًا منهم ولا يمكنهم أن يرقوا بأي حال من الأحوال إلى مستواهم، وبهذا عمل كل من "زولا" و"هوغو" و"محمد ديب" على تسليط الضوء على المسافة الشاسعة الفاصلة بين عالم الغنى وعالم الفقر.

كما قام كل من "محمد ديب" و"مولود فرعون" و"مولود معمري" و"إدريس شرايبي" على غرار "فيكتور غوهو" و"بالزاك" و"إميل زولا" برسم لوحة شاملة ورائعة لمختلف المجموعات السكانية في مختلف المجتمعات وهي غارقة في فقرها وبؤسها وكيفية تفاعلها مع أوضاعها المزرية وردود أفعالها ومقاومتها للجوع والاستغلال اللا عدالة والاحتلال.

ويلتقي الروائيون المغاربة بالروائيين الفرنسيين أيضا في توظيفهم للمفارقات الزمانية عن طريق الاسترجاع الذي أسهم في الكشف عن بعض الجوانب الغامضة في حياة بعض الشخصيات الأساسية التي غالبا ما كانت تقوم بعملية المقارنة بين ماضيها وحاضرها لتتعرف على التغيرات أو التطورات التي لحقتها جراء أوضاع معينة.

أما الاستشراف فقد وجد بشكل كبير في الروايات المدروسة مع الملاحظة أن تلك التنبؤات كانت إيجابية تعلوها مسحة تفاؤلية.

هذا وقد كانت العمارات والبيوت الكبيرة مثل العمارة الكبيرة بشارع "لاغوت دور" في رواية "الخمارة" ونزل "فوكير" في رواية "الأب غوريو" و"دار سبيطار" لـ "محمد ديب" تتميز بكونها بنايات عتيقة وواجهاتها داكنة ومهترئة مما يعكس فقر وبؤس القاطنين فيها لأنها غير مكلفة.

كما كان لمجاري باريس حضور مهم في رواية "البؤساء"، لقد كانت بمثابة مدينة ثانية تحت مدينة باريس وهذا ما لم يكن له وجود في الروايات المغربية لأن عالم المجاري لم يكن

معروفا بالشكل الكافي آنذاك ولم يكن يشغل مكانة مهمة في الواقع المغربي وهذا دليل على التأثير الإيجابي للروائيين المغاربة بالروائيين الفرنسيين وعدم إدراجهم لأي عنصر دخيل على ثقافتهم أو مجتمعهم في رواياتهم.

لقد اختار الروائيون المغاربة على غرار الفرنسيين أماكنهم ببراعة شديدة حتى تعكس عوالم الفقر والبؤس التي كانوا يسعون إلى تصويرها وفضحها وإخراجها إلى العلن.

أما فيما يتعلق بمختلف البني اللغوية فقد التقى الروائيون المغاربة بالفرنسيين في نوعية العناوين التي وضعوها لأعمالهم فهي تحمل أسماء أو ألقاب الشخصيات الأساسية مثل "الأب غوريو" لـ "بالزاك" و"التيوس" لـ "إدريس شرايبي"، أو تدل على المكان مثل "الخمارة" لـ "إميل زولا" و"الدار الكبيرة" و"المنسج" لـ "محمد ديب" أو عناوين فنية تحمل أبعاد و دلالات غالبا ما تتعلق بالفقر والبؤس والتحرر من أغلال الاستعباد والاحتلال فـ "جيرمينال" مثلا كلمة مشتقة من فعل نما ينمو وهو يدل على خروج براعم جديدة من نباتات في حال من النمو في فصل الربيع فصل انبعاث الطبيعة من جديد، أما "الحريق" فهو يدل على اشتعال نيران حرب التحرير في الجزائر والتي لن تنطفئ كما ورد في الرواية إلى أن تحقق هدفها.

أما معنى الفقر والبؤس فلا يظهر إلا من خلال عنواني "البؤساء" لـ "فيكتور هوغو" و"ابن الفقير" لـ "مولود فرعون".

علاوة على ذلك، سار الروائيون المغاربة على نهج الروائيين الفرنسيين في توظيفهم للغة الراقية خاصة في المقاطع الوصفية والسردية لأنها هي التي تعكس براعة الأديب لأن الحوار مخصص للشخصيات التي تعبر عن ذاتها بكل عفوية.

كما شغلت اللغة العامية مساحة معتبرة في الروايات الفرنسية والمغربية، وقد خصص "فيكتور هوغو" فصلا كاملا للحديث عن العامية في رواية "البؤساء"، ووظف هؤلاء العامية

لأنها لغة الفقراء والمعدمين ولأن جلهم من الأميين والمشردين وهي أيضا اللغة التي تتناسب مع طبقتهم ومستواهم الاجتماعي وهي التي تجعل هذه الأعمال أكثر واقعية.

هذا ولم يجد الروائيون المغاربة أي مانع من استعارة بعض الألفاظ من لغة أطفال الشوارع الموظفة في روايات "هوغو" و"زولا" و"بالزاك" مثل كلمات « Quignons » الدالة على أطراف الخبز و « Crouton » الدال على قطعة خبز يابسة و « Gamins » الدال على أطفال إلى غير ذلك.

إضافة إلى اتفاق الروائيين المغاربة مع الفرنسيين في خروجهم عن قواعد اللغة الفرنسية خاصة في أسلوب الاستفهام وكذا في تشويه بعض الكلمات مثل « Mamselle » والأصح « Mademoiselle » أو « Chambête » والأصح « Champêtre » إلى غير ذلك.

لقد كان الهدف من هذا التشويه هو الثورة على المجتمع الفرنسي وإبداء هؤلاء الفقراء لرفضهم الانتماء إلى ذلك المجتمع الذي يستغلهم ويسيء إليهم ويتجاهلهم ويهينهم ويهضم كل حقوقهم أما بالنسبة للمغاربة فإنه يمثل نوعا من الثورة ضد المحتل ورفضه لسياسته ولغته وثقافته.

ولم يكتف الروائيون المغاربة بذلك بل أقحموا لغتهم العامية في رواياتهم التي كانت تزخر بالألفاظ والعبارات العربية الدارجة والأمازيغية، إضافة إلى بعض الأمثال الشعبية والحكم المتداولة في المجتمعات المغاربة وهذا يدل على إصرارهم الشديد على إثبات ذاتهم وفرض ثقافتهم ولغتهم على الساحة الثقافية المغربية عامة وعلى الفرنسيين خاصة والبرهنة لهم أن كل خططهم في القضاء على هويتهم الوطنية والسيطرة فكريا وثقافيا عليهم قد باءت بالفشل.

وهنا تظهر أصالة الروائيين المغاربة الذين نجحوا في إعطاء صبغة خاصة لرواياتهم، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل تمكنوا بالفعل من التأثير في اللغة الفرنسية ذاتها وذلك بإدخال

بعض الكلمات الدارجة إلى القاموس الفرنسي مثل: « Le toubib » و « Le bled » و « Le burnous » إلى غير ذلك.

ومن خلال ما سبق نستخلص أنه رغم اقتفاء الروائيين المغاربة لخطى الروائيين الفرنسيين الذين كانوا فعلا النماذج التي قادتهم في كتاباتهم الفنية والإبداعية إلا أنهم كتبوا بروح مغربية سواء في الموضوعات أو في الشخصيات أو في الأماكن أو في مختلف البنى اللغوية كما تمكنوا من توصيل صورة الشعوب المغربية المضطهدة بكل صدق وأمانة إلى مختلف الساحات الثقافية في العالم.

و هكذا حاولت من خلال هذا البحث المتواضع أن أجيب على الأسئلة التي طرحتها في البداية وأرجو أن أكون قد وفقت إلى حد معين في تسليط الضوء على هذا الموضوع الذي لا يزال في حاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب من قبل باحثين آخرين و خاصة في مجال الدراسات المقارنة .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم برواية ورش
2. الكتاب المقدس

المصادر العربية:

3. المطوي محمد العروسي ، التوت المر ، الدار العربية للكتاب ،تونس،(د.ط)، 2007.

المصادر باللغة الفرنسية:

المصادر المغاربية:

4. Chraïbi Driss, Les boucs, Editions Denoël, 1995.
5. Dib Mohammed , La grande maison , Editions du Seuil , Collection Méditerranée,1952.
6. Dib Mohammed , L'incendie ,Editions du Seuil, Points ,1954.
7. Dib Mohammed, Le métier à tisser, Editions Dahleb, Editions Bouchène, Alger 1995.
8. Feraoun Mouloud, Le fils du pauvre , ENAG Editions, Collection El Anis, 1992 .
9. Feraoun Mouloud, La terre et le sang ,ENAG Editions ,Collection El Anis, 1992.
10. Feraoun Mouloud, Les chemins qui montent, ENAG Editions, Collection El Anis, 1992.
11. Feraoun Mouloud, Lettres à ses amis , ENAG Editions , 1992.
12. Mammeri Mouloud, La colline oubliée, Librairie Plon 1952.
13. Mammeri Mouloud, Le sommeil du juste, Librairie Plon 1955.
14. Mammeri Mouloud, L'opium et le bâton, Librairie Plon ,1965.

المصادر الفرنسية:

15. Balzac Honoré de, Le Père Goriot, Collection Pocket Classique, Paris, 1998.
16. Hugo Victor, Les misérables, Garnier Flammarion, Paris, 1967.
17. Zola Emile, L'assommoir, Editions Gallimard, 1978.
18. Zola Emile, Germinal, ENAG Editions, Alger, 2012.

المراجع العربية:

الكتب:

19. الأب برنار أوليفيه، الفقر الإنجيلي ، ترجمه جورج إلياس عازار ، فرق السيدة.
20. ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة، تحقيق عبد السلام الشدادي، الجزء الأول ،خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، ج3، 2005.
21. أبو حلاوة محمد السعيد عبد الجواد ، تخوين الآخر وإدانتته، قراءة في سيكولوجية المشهد السياسي المصري المعاصر، إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية، 2013.
22. الأعرج واسيني، اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.
23. باشلار غاستون، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر بيروت لبنان، ط2، 1984.
24. بامية عايدة أديب ، تطور الأدب القصصي الجزائري (1925 – 1967)، ترجمة محمد صقر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1882.
25. بحراوي حسن ، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمان، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1991 .
26. البرعي أحمد حسن ، الثورة الصناعية و آثارها الاجتماعية و القانونية ، ملتزم الطبع و النشر دار الفكر العربي، القاهرة، 1982 .

27. برنامج الأمم المتحدة للبيئة ومنظمة الصحة، تحسين أحوال صحة البيئة في المستوطنات الفقيرة، أسلوب مرتكز على المجتمع لتحديد الاحتياجات والأولويات، منشورات منظمة الصحة العالمية بالأوفست رقم 100، سنة 1989م.
28. برنامج الأمم المتحدة، تقرير التنمية البشرية، التعاون الدولي على مفترق الطرق المعونة والتجارة والأمن في عالم متساو، 2005.
29. بزاز محمد الأمين، تاريخ الأوبئة و المجاعات خلال القرن الثامن عشر و التاسع عشر ، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ، 1992 .
30. بسام موسى قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ط1، 2001 .
31. بلعابد عبد الحق ، جبرار جينيت من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم، ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف، ط1، 2008.
32. بن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر ط1، 1956 .
33. بن عتيق محمد الصالح ، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، الجزائر، 1990.
34. بن قينة عم، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، أعلام و قضايا و مواقف، ديوان المطبوعات الجامعية، 1990.
35. التوهامي إبراهيم وآخرون، التهميش والعنف الحضري، مخبر الإنسان والمدينة، سلسلة الدراسات الحضرية، مخبر الإنسان والمدينة، جامعة منتوري قسنطينة ، 2004.
36. جان جاك روسو ،في العقد الاجتماعي أو مبادئ القانون السياسي ، ترجمة و تقديم عبد العزيز لببيب، المنظمة العربية للترجمة ، ط1، بيروت (لبنان)، 2011 .
37. جبور أم الخير، الرواية المكتوبة بالفرنسية، دراسة سوسيونقدية، دار ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2013.
38. الجزار محمد فكري ، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1988.
39. الجوهري محمد وآخرون، المشكلات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1995م.
40. جينيت جبرار ، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ترجمة محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي و عمر حلى، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، ط2، 1997.
41. جينيت جبرار وآخرون، الفضاء الروائي، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002.

42. حبيلة الشريف ، بنية الخطاب الروائي (دراسة في روايات نجيب الكيلاني) عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2010.
43. حسين عوض الله زينب ، علم الاقتصاد السياسي ، منشأة المعارف الإسكندرية ، 1984.
44. حنون عبد المجيد ، صورة الفرنسي والفرنسية في الرواية المغربية، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، ط2، 2013.
45. دبوز محمد علي ، أعلام الإصلاح في الجزائر (1921 - 1975)، ج1، دار البعث قسنطينة، ط1، 1974.
46. دويدار محمد حامد، أصول الاقتصاد السياسي، الجزء الثاني، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1996.
47. ديب محمد، الدار الكبيرة، مقدمة المترجم سامي الدروبي، دار الهلال أكتوبر 1970.
48. رشوان حسين عبد الحميد، أضواء على الحياة الاجتماعية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية سنة 1999م.
49. روجي الفيصل سمير، الرواية العربية، البناء والرؤيا، مقارنة نقدية، اتحاد كتاب العرب، دمشق، (د، ط)، 2003.
50. الري شهري محمد ،ميزان الحكمة ، تحقيق دار الحديث ، ط1 ، 1422 هـ .
51. الريحاني أمين ، المغرب الأقصى، مؤسسة دار الريحاني بيروت ودار الثقافة بيروت، ط2، 1975.
52. زبيري محمد العربي ، تاريخ الجزائر المعاصر (ج1)، منشورات اتحاد الكتاب العرب سنة 1999م.
53. الزيايدي عادل داليا ، النظم الاقتصادية المقارنة، كلية التجارة جامعة عين شمس، مصر، مراجعة د/أحمد مندور ، (التعليم المفتوح كلية التجارة).
54. زيدان محمد وبكدي فاطمة، دروس مستفادة من التجربة الماليزية في مكافحة الفقر، 2010.
55. سراج الدين إسماعيل، الفقر والأزمة الاقتصادية، مركز ابن خلدون ودار الأمين للنشر والتوزيع القاهرة، 1997م.
56. سعد الله أبو القاسم ، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الآداب بيروت، ط1، 1969م.
57. سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي 1500 - 1830 ، الجزء الأول ،دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1998.
58. سعد الله أبو القاسم ، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر والدار التونسية للنشر تونس، 1985. (د، ط)، (د، ت).

59. سعد الله أبو القاسم ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 1982م.
60. شكري علياء وآخرون، الحياة اليومية لفقراء المدينة، دراسة اجتماعية واقعية، جامعة عين شمس، القاهرة، 2005.
61. الطاهر عبد الله، الحركة الوطنية التونسية، مكتبة الجماهير، بيروت، ط1، 1976م.
62. الطويل نبيل صبحي، الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ط1، 1985م.
63. العالم محمود أمين، أربعون عاما من النقد التطبيقي: البنية والدلالة في القصة والرواية العربية المعاصرة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1994.
64. عبود صموئيل ، خمس مشكلات أساسية لعالم متخلف، دار الحداثة، بيروت، 1984.
65. عتيق مديحة، أسطورة العالم الآخر في الشعر العربي الحديث و المعاصر، دار ميم للنشر، الجزائر، 2010.
66. عدنان خالد عبد الله، النقد التطبيقي التحليلي، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد 1986.
67. عزام محمد، شعرية الخطاب السردى، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، (د.ط)، 2005.
68. عزام محمد، فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان)، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية سورية، 1996.
69. عطية فيليب ،أمراض الفقر و المشكلات الصحية في العالم الثالث ،المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، الكويت، 1992 .
70. العقاد صلاح ، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر: الجزائر، تونس، المغرب الأقصى، مكتبة الأنجلوالمصرية، ط6، 1933.
71. العودي محمد، فقراء زمن العولمة، منشورات دار التوحيدى ، سلسلة العلوم الإنسانية، ط1، الرباط، 2008.
72. غرامشي أنطوني، كراسات السجن، ترجمة عادل غنيم، دار المستقبل العربي، 1994.
73. غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الشركة المغربية للطبع والنشر، الدار البيضاء المغرب، 1976.
74. الفارس عبد الرزاق، الفقر و توزيع الدخل في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، 2001.
75. فرعون مولود، ابن الفقير، ترجمة عبد الرزاق عبيد، دار تلاتيقيت للنشر، بجاية، 2016.

76. قاسم محمد و حسني حسين، تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة، ط6، 1929م.
77. قاسم محمد وحسني حسين، تاريخ القرن 19 في أوروبا، مطبعة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1928 .
78. القاضي عبد المنعم زكريا ، البنية السردية في الرواية، مطبعة الصحوة، (د،ط)، 2008.
79. القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ،الجامع لأحكام القرآن و المبين لما تضمنه من السنة و آي الفرقان،تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006.
80. القصرأوي مها ، الزمن في الرواية العربية (1960 – 2000)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2004.
81. قيرة إسماعيل، عولمة الفقر، دار الفجر للنشر والتوزيع، النهضة الجديدة، القاهرة، 2003م.
82. كارلتون.ج.ه.هيز ،الثورة الصناعية، ترجمة أحمد عبد الباقي ،مطبعة العاني، ط1 ، 1950.
83. لوتسكي فلاديمير بوريسوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة عفيفة البستاني، دار التقدم موسكو، 1975م.
84. لوجلي صالح الزوي، علم الاجتماع الحضري، منشورات جامعة خان يونس بنغازي، ط1، 2002م.
85. لوكاتش جورج ، بلزاك و الواقعية الفرنسية، ترجمة محمد علي اليوسفي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، طبع بالتعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس تونس، ط1، 1985.
86. الماضي شكري عزيز، في نظرية الأدب، دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع ،ط1، لبنان، 1986.
87. مايور فريديريكو و بانديه جيروم ، عالم جديد، ترجمة خليل خلفات، دار المنار للنشر بيروت، ط1، 2002م.
88. محمد موسى حنان، الزمكانية وبنية الشعر المعاصر، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2004.
89. مذكور إبراهيم ، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة العامة للكتاب، 1975 .
90. مرتاض عبد الملك ، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت، (د،ط)، 1998.
91. مرتاض عبد الملك ، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، 1990.

92. منور أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013 .
93. نسيب يوسف، مولود فرعون حياته و أعماله، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.
94. نشاوي نسيب ، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984.
95. نضال محمد الشمالي، الرواية والتاريخ، عالم الكتب الحديث الأردن، ط1، 2006 .
96. النعيمي فيصل غازي ، العلامة والرواية دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع عمان الردين، ط1، 2009.
97. نفلة حسن العزي، تقنيات السرد وآليات تشكيله الفني، قراءة نقدية، دار غيداء للنشر، ط1، عمان 2011.
98. نوار عبد العزيز سليمان و جمال الدين محمود محمد، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مصر، 1999م.
99. نيكوليه كلود، فكرة الجمهورية في فرنسا (1789 - 1924) بحث في التاريخ النقدي ، ترجمة و تقديم محسن الخوني ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2011 .
100. هامون فيليب ، سيميولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 2013.
101. هلال عمار، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 - 1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995.
102. هلال محمد غنيمي ، الرومانتيكية، دار العود بيروت، ط6، 1981م.
103. ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع المدينة الجديدة، تيزي وزو، 2002.
104. وهب علي، خصائص الفقر و الأزمات الاقتصادية في العالم الثالث، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1996 .
105. ياسين النصير، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط 1، 1986.
106. يقطين سعيد، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، بيروت، 1997.

المعاجم:

107. ابن فارس بن زكريا أبو الحسن أحمد ، مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الجزء 4.
108. ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم ، لسان العرب، دار صادر بيروت، 2005.
109. أنيس إبراهيم، عبد الحليم منتصر، عطية الصوالحي، محمد خلف الله، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، 2004.
110. بدوي أحمد زكي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان بيروت، 1986.
111. بن شيخ جمال الدين ، معجم آداب اللغة العربية والأدب الفرانكوفوني المغاربي ترجمة د/ مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، 2008
112. الزبيدي محمد مرتضى الحسيني ، معجم تاج العروس من جواهر القاموس ، مطبعة حكومة الكويت 1394هـ / 1974م، الجزء 15.
113. زيتوني لطيف ، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي - انكليزي - فرنسي، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، ط1، لبنان، 2002.
114. الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب القاموس المحيط، تحقيق مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي ، مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر، ط 8 ، بيروت لبنان 1426هـ / 2005م.

الرسائل الجامعية:

115. بزاز عبد الكريم ، علم اجتماع بيار بورديو، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة منتوري قسنطينة، سنة 2006 - 2007.
116. بقدر إكرام ،البؤساء والمعذبون في الأرض، دراسة فنية مقارنة، رسالة دكتوراه تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد زمري، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، كلية الآداب و اللغات قسم اللغة والأدب العربي، 2017/ 2018.
117. بن داود أحمد ، المقاومة الثقافية للاستعمار الفرنسي في كل من الجزائر والمغرب من خلال التعليم (1920 - 1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم، بإشراف د/ بوشياخي شيخ، جامعة أحمد بن بلة وهران 1، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، 2016/ 2017، ص2 عن الباسط دردور، المغرب العربي وتحديا الغزو الثقافي الغربي.
118. بوساق كريمة، سياسات مكافحة الفقر بالدول النامية، حالة الجزائر، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير 2003/ 2004م.

119. توام عبد الله ، دلالات الفضاء الروائي في ظل معالم السيميائية ، رسالة دكتوراه علوم تحت إشراف د/هوارى بلقاسم، جامعة أحمد بن بلة وهران، كلية الآداب والفنون قسم اللغة والأدب العربي، السنة الجامعية 2015/2016.
120. حداد أحمد، الشيخ أحمد حماني وقضايا عصره (1915-1998م) مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المجتمع المغربي الحديث والمعاصر، تحت إشراف د/ عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري قسنطينة.
121. حصروري نادية ، تحليل و قياس الفقر في الجزائر دراسة تطبيقية في ولاية سطيف، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في العلوم الاقتصادية، جامعة منتوري قسنطينة ، 2008 -2009.
122. حفصي بونبعو ياسين، مكافحة الفقر كعامل اجتماعي في ظل التنمية المستدامة حالة صندوق الزكاة في الجزائر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، قسم العلوم الاقتصادية سنة 2010/2011.
123. الطويل يوسف العاصي ، النظام السياسي الفرنسي من الثورة إلى الجمهورية الخامسة (1789-2007م)، إشراف د/رياض العيلة جامعة الأزهر بغزة كلية الاقتصاد و العلوم الإدارية قسم العلوم السياسية (الدراسات العليا).
124. عجوج فاطمة الزهراء ، المكان ودلالاته في الرواية المغربية المعاصرة، رسالة دكتوراه (ل، م، د)، كلية الآداب واللغات والفنون، قسم اللغة العربية جامعة جيلالي لباس، سيدس بلعباس، السنة الجامعية 2017 / 2018.
125. غريسي عابد عبد الكريم ، دور الدولة في الاقتصاد (نظرة تحليلية تاريخية) دراسة حالة الجزائر، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الاقتصادية تحت إشراف البروفيسور: باركة محمد الزين، جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان، كلية العلوم الاقتصادية و التسيير و العلوم التجارية، سنة 2010/2011.
126. قريشي محمد، الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى (1945 - 1954)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تحت إشراف د/ بن سلطان عمار، جامعة الجزائر، كلية العلوم الانسانية قسم التاريخ، 2001/2002.
127. مقاوسي صليحة ، الفقر الحضري: أسبابه وأنماطه، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم اجتماع التنمية، تحت إشراف الأستاذ الدكتور إسماعيل قيرة، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية قسم علم الاجتماع والديمقراطية، جامعة منتوري قسنطينة، السنة الجامعية 2007/2008.
- الصحف والمجلات:**

128. بلخير آسيا ،الوطن العربي ومواجهة الفقر من الإرث الاستعماري إلى تحديات العولمة الاقتصادية، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية لبنان،مجلد 38 العدد 439 سبتمبر 2015.
129. الحجاري عبد القهار ، بؤس العمل الثقافي وسبل الممانعة، صحيفة المثقف، العدد 4048، 2017/10/05.
130. دريدي فاطمة و إبراهيمي قدور ، المقاربات السوسيولوجية للفقر المبرمج في الجزائر دراسة تحليلية للواقع الاجتماعي، مجلة التميز،المجلد 02 ،العدد02 ،سنة 2020 ،جامعة محمد خيضر بسكرة .
131. رمزي زكي، المشكلة السكانية والخرافة المالتوسية الجديدة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 48، 1984.
132. روبنز ريكوبيرو، الأزمة النهائية والمثلى لهذا القرن، رسالة اليونيسكو، صفقة جديدة للفقراء، منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة (اليونسكو)، العدد 17، باريس، 1999م.
133. الزيتوني نور الدين ،تاريخ الكوارث: المجاعات الأوروبية في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، مجلة الحوار، المتمدن ، العدد 4142.
134. شاكر فريد حسن ،الكتاب العرب و حالة البؤس الثقافي ،جريدة الحياة الجديدة، 4 يناير 2010.
135. طعان صادق علي ، الفقر الاقتصادي والفقر المعرفي، مقارنة اقتصادية، جامعة الكوفة، كلية الإدارة والاقتصاد، مجلة الغري للعلوم الاقتصادية والإدارية، المجلد الخامس، العدد 16، سنة 2010م .
136. عليوان سعيد، المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي في الجزائر خلال الثورة التحريرية المباركة، مجلة المعيار، العدد 10، 2005.
137. غولدمان إما ، بؤس البروليتاريا الثقافية ،ترجمة عبد الرحمن أبو ذكري ، ص 363 عن مجلة Mother Earth ,Vol 08 ,number12 ,february 1914.
138. قنانش محمد، مع محمد ديب، مجلة الرواية، العدد الأول، جانفي 1990.
139. قورين حاج قويدر ، ظاهرة الفقر في الجزائر وآثارها على النسيج الاجتماعي في ظل الطفرة المالية، البطالة والتضخم، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية قسم العلوم الاقتصادية والقانونية، العدد 12، جوان 2014.
140. كاميل حسن، مأساة البلدان النامية "الجوع في عالم الوفرة" مجلة الأمة العدد 52 عام 1405هـ،

141. كورنيل فريد ، الفقرو مسبباته، آثار وسبل الحد منه، حالة الجزائر، مجلة الاقتصاد والمناجمنت، كلية العلوم الاقتصادية والتسيير، جامعة تلمسان، العدد 02، سنة 2003م.
142. اللوح عبد السلام حمدان و عنبر محمود هاشم ، علاج مشكلة الفقر ،دراسة قرآنية موضوعية، مجلة الجامعة الإسلامية المجلد 17، العدد الأول يناير 2009.
143. المجلة المصرية للتنمية والتخطيط، معهد التخطيط القومي، مصر القاهرة، المجلد الرابع، العدد الأول، 2003.
144. مكافحة الفقر في الدول اليورومتوسطية، تقرير المجلس الاقتصادي الاجتماعي، بروكسل، سبتمبر 2006.
145. مولاييه فرانسيس وكولينز جوزيف ، صناعة الجوع، ترجمة: أحمد حسان، كتاب عالم المعرفة، العدد 64 المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1404هـ.
146. نحو مجتمع المعرفة، سلسلة دراسات يصدرها مركز الإنتاج الإعلامي جامعة الملك عبد العزيز، العدد 13، بعنوان مكافحة الفقر، جدة، 1427هـ.
147. ولد النبية كريم ، سياسة الإخضاع وقوانين الأنديجينا من خلال أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، العدد: 2 لشهر ديسمبر 2011.
148. يوري لوتمان، مشكلة المكان الفني (المكان والدلالة)، ترجمة سيزا قاسم، مجلة ألف، العدد 6، 1986.
149. بؤس الفقراء ومنة الأغنياء، جريدة "الرياض" الإثنين 6 جمادى الأولى 1426هـ - 13 يونيو 2005م، العدد 13503.
150. جريدة الأنوار البيروتية اليومية، العدد 16، تشرين الثاني نوفمبر 1982م.

الملتقيات والمقابلات:

151. بقوق محمد ، مسألة المثقف عند بيبير بورديو ، مركز الدراسات و الأبحاث العلمانية في العالم العربي ، 28 / 05 / 2017.
152. بوعويينة سليمة، ظاهرة الفقر وانتشارها في الجزائر، جامعة الجزائر كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، 2013م.
153. غياط شريف و مهري عبد المالك ، مشكلة الفقر في العالم العربي و إشكالية محاربته ، دروس مستفادة من فلسفة التجربة الماليزية ، الملتقى الدولي الثاني حول المالية الإسلامية من

تنظيم جامعة صفاقس تونس بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية جدة من 27 إلى 29 جوان 2013.

154. المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة: حقوق الإنسان والفقر المدقع، لجنة حقوق الإنسان، الدورة 55، سنة 1998م.

155. مفهوم الفقر وأنواعه، الملتقى الدولي حول الفقر، جامعة البليدة، 2 سبتمبر 2007م.

156. مكافحة الفقر وعدم المساواة: التغيير الهيكلي والسياسة الاجتماعية والسياسة العامة، معهد الأمم المتحدة للبحوث والتنمية الاجتماعية، جونييف سويسرا، 2010م.

المواقع الإلكترونية:

157. بعقلين نجيب، عدالة اجتماعية للحد من البؤس في <http://claubouchara.com> ، زيارة في 2020/06/06.

158. تعريف البؤس، <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/> ، زيارة في 2019/07/27.

159. قطوش سامية ، معضلة الفقر آثارها ومظاهرها، جامعة الجزائر، موقع <https://www.academia.edu> ، زيارة في 2020/05/13.

المراجع الأجنبية:

الكتب:

160. Ageron Charles Robert, Histoire de L'Algérie contemporaine (1830-1969), Tafat éditions, 2016.

161. Akbal mehenni, Mohammed Dib conférencier, Maurice Monnoyer témoigne, éditions El-Amel, 2009.

162. Allard Jacques, Zola le chiffre du texte, lecture de l'assommoir, PUF de Grenoble, Les presses de l'université du Québec, 1978.

163. Amhis Ouksel Djoher, Dar Sbitar, Casbah éditions, Alger, 2006.

164. Amhis–Ouksel Djoher, D'une rive à l'autre, Casbah éditions, Alger, 2009.
165. Aref Mahmoud , La pensée sociale et humaine de Victor Hugo dans son œuvre romanesque, étude critique et littéraire, librairie champion Paris, Librairie Slatkine Genève, 1979.
166. Azzam Mahjoub, Economie et société : la formation du sous développement, l'évolution socio-économique de la Tunisie, Institut de recherches et d'études sur les mondes arabes et musulmans, Éditions du CNRS, Collection « Connaissance du monde arabe », Aix-en-Provence, 1987.
167. Barjot Dominique, Chaline Jean Pierre, Encrevée André, La France au 19ème siècle(1814–1914), P U F , 1995.
168. Becker Colette, Emile Zola Germinal, études littéraire,P U F, 1988.
169. Belaïd Abane, Résistances Algériennes Abane Ramdane et les fusils de la rébellion, Casbah éditions , 2011.
170. Belkhodja Amar, Misère, crimes et famine en temps coloniaux, El kalima éditions, Alger 2013.
171. Berry Madeleine, Balzac, Editions universitaires, 1972.
172. Biet Christian et Brighelli Jean–Paul ,Rispaill Jean–Luc, 19ème siècle, Collection textes et contextes, Editions Magnard, 1981.
173. Bokbot Mmed Moha, Fareh Ali, un siècle d'émigration marocaine vers la France, Aperçu historique, université Sidi Mohamed, B. Abdellah, Fès, Papels de Geografia , 2010.
174. Bonn charles, La littérature algérienne de langue française, Editions l'Harmattan, Collection « littéraire », 1985.
175. Bory Jean–Louis, Préface de l'assommoir d' Emile Zola, Editions Gallimard, 1978.

176. Bouchène Abderrahmane, Peyroulou Jean–Pierre, Tengour Ouanassa Siari, 1830 – 1962, Edition la découverte et Editions barzakh, Paris ,Alger, 2012.
177. Brun Charles, Le roman social en France au 19ème siècle, Slatkine Reprints, Genève, 2012 .
178. Camus Albert, Misère de la Kabylie, Editions la pensée, 2014.
179. Carole Marteau et Irène Nouailhac, La littérature française, Les grands mouvements littéraires du 19ème siècle, Librio, E.J.h, 2009.
180. Charles André Julien, L’Afrique du nord en marche, Algérie, Tunisie, Maroc (1880 – 1952), Omnibus, 2002.
181. Cherbuliez Antoine Elisée, Etude sur les causes de la misère tant morale que physique et sur les moyens d’y porter remède, Paris librairie de Guillaumin et Cie, 1858.
182. Chikhi Beida, Problématique de l’écriture dans l’œuvre romanesque de Mohammed Dib, OPU, 1989.
183. Couprie Alain, Emile Zola, Arnaud Colin, 1992.
184. Déjeux Jean, Maghreb littérature de langue française, Arcantère éditions , Paris 1993
185. Dubois Jacques, L’assommoir de Zola, Editions Belin Paris, 1993.
186. Field Johan, Social capital , Routledge, Londres, 2003.
187. Gilmore Jeanne, La république clandestine (1818–1848), Aubier, 1997.
188. Giraud Frédérique, Emile Zola, Le déclassement et la lutte des places, Les rougons macquarts condensation littéraire d’un désir d’ascension sociale, Paris Honoré champion éditeur, 2016.
189. Goldtammer.F, Note géographique et commerciale sur l’empire du Maroc, imprimerie typographique de A. Pougin, 1878.
190. Goujon Bertrand, Monarchies postrévolutionnaires, 1814–1848, Paris, Seuil ,collection « L’univers historique ,Histoire de la France contemporaine », 2012.

191. Grandmaison Olivier Le cour , coloniser, Exterminer sur la guerre et l'état colonial, Casbah Editions, Alger, 2005.
192. Guetarni Mohammed, Littérature de combat chez Dib, Kateb et Feraoun, Editions Dar El Gharb, Oran (Algérie), 2006.
193. Hardy Georges, Histoire sociale de la colonisation française , Editions Larose, Paris, 1953.
194. Jean Louis ormières, Politique et religion en France, Editions complexe, 2002.
195. Jeanson Francis et Colette ,L'Algerie hors la loi, ENAG ,Alger 1993.
196. Johannet René, L'évolution du roman social au 19 ème siècle, Slatkine Reprints, Genève, 2011
197. Kahdda Naget, Représentation de la féminité dans le roman algérien de la langue française, office des publications universitaires, Alger, 1991.
198. Kranoroski Nathan , Paris dans les romans d'Emile Zola, Presses universitaires de France, 1968
199. Labbens Jean, Sociologie de la pauvreté, Le tiers monde et le quart monde, Gallimard, collection idées : Sciences humaines, 1978.
200. Lacreteille de Jacques , Maurois André, Guillemin Henri, Ikor Roger, Moreau Pierre, Roy Claude, Sigaux Gilbert, Touchard Pierre– Aimé, Zumthor Paul, Victor Hugo, Librairie Hachette, Paris, 1967.
201. Lambert Cécile, Le peuple dans le roman français de Zola à Céline, DESS en informatique documentaire sous la direction de Marie Odette Ollier, Ecole Normale Supérieure des sciences de l'information et des bibliothèques, Université Claude Bernard, Lyon, 1995.
202. Langellier Jean Pierre, Dictionnaire de V. Hugo, Librairie Larousse Paris, 1970.
203. Laparra Marceline sous la direction de Preiss Nathalie, Pivot Jean– Marie, Yon Jean Claude, Le peuple parisien au 19eme :entre sciences et fictions, Presses Universitaires de Strasbourg, 2013.

204. Lavandier Karine, contribution à l'étude de la pratique médicale en France au 19ème siècle, Université Henri Poincaré, Nancy1, Faculté de Médecine de Nancy, 2000.
205. Lindenberg Daniel, Vincent Jean Pierre, Deutsch Michel, Blanc Jacques, Germinal projet sur un roman, Christian Bourgeois Editeur, Paris, 1975.
206. Megherbi Abdelghani, La paysannerie Algerienne face à la colonisation, ENAP, Alger, 1973.
207. Memmi Albert, Portrait du colonisé, Edition ANEP, Alger, 2006.
208. Memmi Albert, Portrait du colonisé, Payot, Paris, 1973,
209. Mitterand Henri, Zola l'histoire de la fiction, PUF écrivains, 1ère édition, 1990.
210. Narteau Carol, Nouailhac Irène, La littérature française au 19ème siècle ,Librio , E.J.L, 2009.
211. Néant Hubert, La politique en France du 19ème siècle à nos jours, Paris Hachette 2010.
212. Ogien Ruwen, Théories ordinaires de la pauvreté, P U F, Paris, 1992.
213. Pascal Blaise, Les Pensées, la renaissance du livre, Paris,
214. Psichari Henriette, Anatomie d'un chef- d'œuvre : Germinal , Mercure de France, Paris 1964.
215. Renouvier Charles, Victor Hugo et la philosophie, Armand Colin et Cie, Editeurs ,Paris 1900.
216. Richet Charles, Pathologie de la misère, Société de Diffusion Médicale et Scientifique (S.D.M.S), Paris, 1957
217. Roman Myriam, Victor Hugo et le roman philosophique, du drame dans les faits au drame dans les idées, Honoré Champion éditions, Paris, 1999.

218. Samuel Hayat , Au nom du peuple français la représentation politique en question autour de la révolution de 1848 en France, Université Paris 8, Saint-Denis, 2011.
219. Sari Djilali, La dépossession de Fellahs (1830 – 1962), ENAG éditions Alger 2012, 2ème édition.
220. Siegfried Jules, La misère : son histoire, ses causes, ses remèdes. Librairie Germer Baillière et Cie, Paris, 1877.
221. Sous la direction de Bergez Daniel , Lauvergnat-Gagnière Christian, Anne Paupert, Stalloni Yves , Vannier Gilles, Précis de la littérature française, Armand Colin ,2eme édition ,Paris, 2009.
222. Stora Benjamin, Histoire de la guerre d’Algérie (1830 – 1954), collection Repères histoire, hibr édition, 2012.
223. Tadié Jean-Yves, La création littéraire au 19eme siècle , Armand Colin, Paris 2011.
224. Vial André Marc, « Germinal » et « le socialisme » de Zola, Editions sociales, Paris, 1975.
225. Vincent Jean-Pierre, Deutsh Michel et Blanc Jacques, Germinal, Projet sur un roman, Christian Bourgeois Editeur, 1975.
226. Weibel Ernest, Occident Maghreb 13 siècles d’histoire, Ellipses, 2010.
227. Wolf Nelly, Le peuple dans le roman français de Zola à Céline, Presse Universitaire de France, 1990.

المعاجم

228. Dictionnaire Larousse Encyclopédique, Librairie Larousse, 1979.

229. Le Petit Robert 2, Dictionnaire universel des noms propres dirigé par Alain Ray, Paris 1984.

230. Microsoft Encarta, 2008.

الرسائل الجامعية:

231. Anwar Younes Kaddis Youssef, La société bourgeoise Française au 19ème siècle et au 20ème siècle vu par les écrivains contemporains, Thèse de doctorat sous la direction de Michel Hau Université de Strasbourg, Ecole doctorale des sciences de l'homme et des sociétés ; Art, Histoire et Civilisation de l'Europe, Décembre 2011.

232. AWAD, Miriam Petra Ómarsdóttir. Les effets de la colonisation française sur la littérature maghrébine. Une analyse portée sur quatre œuvres de Driss Chraïbi. Thèse de doctorat, Sigillum Universitatis Islandiae, 2014.

233. Hadj Laroussi Belkacem, Les différentes instances énonciatives dans l'œuvre de Mouloud ferraoun, Etude Lexicologique et pragmatique, Doctorat en science du langage, Université de Batna 2, Mostefa Ben Boulaïd, Faculté de Lettres et langues étrangères, Département de Français 2019/ 2020.

234. Mansouri Yacine, L'engagement dans l'Incendie de Mohammed Dib, Mémoire de magistère en sciences des textes littéraires, Université El Hadj Lakhdar Batna, Faculté des lettres et des langues, département de français, 2011/ 2012.

235. Moneyang Patrick Hervé, La misère intellectuelle dans quelques fictions démographiques et littéraires de l'Afrique subsaharienne, thèse de doctorat en philosophie présenté à l'université d'Oregon en septembre 2013,

236. Rolland-Lozachmeur Ghislaine, L'argot et la langue du peuple : procédés lexicaux et fonctions chez Victor Hugo (Les misérables) et

Emile Zola (L'assommoir), Université de Bretagne occidentale Brest (France) faculté des lettres et sciences humaines « Victor Segalen », 2012.

237. Van AertsSannerien, L'immigration maghrébine vue au miroir du roman , Driss Chraïbi, les boucs 1955 et Tahar Ben Jelloun, Au pays 2009, une étude comparée, Janvier 2016, Université de Leyde, Département de Français.

238. Yetiv Isaac, Le thème de l'aliénation dans le roman maghrébin d'expression française (1952 – 1956), Faculté des arts, Université de Sherbrooke, Quebec Canada, 1972.

الصحف والمجلات

239. Augusto Arthur Catraio, Langage et misère dans les misérables de V. Hugo, revue Clareira, Université Paris 1, Panthéon Sorbonne, Volume 2, numéro 2 , 2015.

240. Benyekhlef Djamel, Les femmes à la frontière de l'histoire dans la trilogie de Mohammed Dib, Algérie littérature/ Action n°55, 56, Novembre, décembre 2001, édité par MARSA éditions, Paris.

241. Berque Augustin, Les intellectuels Algériens, Revue Africaine, n° 410, 411, 2ème trimestre, 1947.

242. Binet André et Simon Thomas, La misère physiologique et la misère sociale, l'année psychologique, Octobre, 1905 , vol. 12, no 1.

243. Boisvert Dominique , La pauvreté serait-elle l'avenir du monde ? revue « possibles » automne 2016, volume 40, n°2.

244. Bonin Hubert, La grande dépression française à la fin du 19ème siècle : réflexion sur sa datation et sur sa fonction, Histoire, économie et société, 1987, n°6-4.

245. Boyer Barbara, Structure titrologique et fracture identitaire dans trois œuvres littéraires d'expression française sur l'immigration maghrébine, Gonzaga University, L'érudit Franco-Espagnol, volume n° 9, 2016.
246. Cyprian P Blamires, A historical Encyclopedia, World Fascism, September 2006, A-K.ABC-CLIO.
247. Denoix Sylvie , « Nicolas Michel, Une économie de subsistances. Le Maroc précolonial, IFAO, Le Caire, 1997. », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, 87-88, 1999.
248. Destremau Blandine, La misère devoiement de la pauvreté, A propos de M. Rahnema et J. Robert, la puissance des pauvres, Acte sud, Revue de « la vie des Idées », 2009.
249. Emerit Marcel, L'Etat intellectuel de l'Algerie en 1830, in revue d'histoire moderne et contemporaine Juillet- Septembre 1954.
250. Enaji Mohamed, Reforme et modernisation technique dans le Maroc du 19ème siècle, Revue des mondes musulmans et de la méditerranée, Année 1994, n°72, Edisud.
251. Ensemble refusons la misère, ATD Quart monde, dossier pédagogique des enseignants, animateurs, éducateurs, 2014/ 2015.
252. La pauvreté urbaine, vice présidence relations internationales (EPFL), Ecole Polytechnique Fédérale de Lausanne, Décembre 2007, Cahier de la coopération n°5, Editeur Jean Claude Bolay.
253. Lejeune Paule, Germinal un roman antipeuple, revue Romantisme, 1979, numéros 25 ,26.
254. Leroux Pierre, De l'égalité précédé de l'individualisme et du socialisme, revue Romantisme, 1998 , numéro 101.
255. Paul Choplin, Royalismes et royalistes dans la France révolutionnaire, Annales historiques de la Révolution Française , 2021, Volume 1, n° 403.
256. Pauvreté , santé mentale, détresse psychologique : situations connexes ou pure coïncidence ? document de travail rédigée par

Monika Jekovska (agente de recherche du C R D S : comité régional en développement social, centre du Québec, Mars 2008.

257. Pyet Marie, Place et rôle de la figure féminine chez Emile Zola à travers l'étude de trois œuvres: L'assommoir, Germinal et La Bête Humaine. *Verbum*, 2002, vol. 4, no 1.
258. Simon Gildas, Noin Daniel, La migration maghrébine vers l'Europe, in Cahiers d'outre-mer n°99, 25ème année, Juillet-septembre 1972.
259. World Bank Sees Progress Against Extreme Poverty, But Flags Vulnerabilities, The World Bank, 2012.
260. Wresinski Joseph, Les plus pauvres révélateurs de l'invisibilité des Droits de l'Homme édition Quart monde, 1998.

الملتقيات:

261. Charles David, Hugo, le travail et la misère, in le travail et les hommes, Actes du 127ème congrès des sociétés historiques et scientifiques, Nancy 2002, CTHS et université de Nancy 2, Editions du CTHS 2005.
262. Mallard Bruno, Le paradoxe de la négation de la misère : Savoir et non-savoir de l'expertise internationale, séminaire international campus ATD quart monde GRESAL/MSH-Alpes, Pierrelaye, 2009.

المواقع الإلكترونية:

263. 2500 citations de Victor Hugo, <https://dicocitation.lemonde.fr> consulté le 17/09/2021.
264. Bourgeois et ouvriers au 19ème siècle, <https://lewebpedagogique.com> consulté le 20/02/2020.

265. Delpech Hélène, « La revolte des canuts », Histoire par l'image (en ligne). <http://histoire-image.org/fr/etude/revoltes-canuts> . consulté le 14/05/2021
266. Dictionnaire notre famille, <https://www.notrefamille.com/dictionnaire/définition/misère> , consulté le 18/03/2020.
267. Histoire sociale et roman de la misère, <http://groupugo.div.jussieu.fr> consulté le 19/03/2020.
268. Humanité contre la misère : le régime capitaliste est-il responsable de la pauvreté, <http://humanité.fr/> , consulté le 20/02/2020.
269. L'assommoir d'Emile Zola in <http://www.comptoir littéraire.com> , consulté le 02/03/2020.
270. La paupérisation selon Marx 1ere , 2eme, 3 eme et 4 ème partie in <https://lesmaterialistes.com> consulté le 30/04/2020.
271. La société française au 19ème siècle, <http://ekldata.com> consulté le 20/02/2020.
272. La toupie, dictionnaire en ligne <https://www.toupie.org/dictionnaire/misère.htm>
273. Le 19 ème siècle, une époque de totale remise en question, <https://excerpts.numilog.com> consulté le 20/02/2020.
274. Le mouvement ouvrier et le socialisme (résumé historique de 1789 à nos jours) Formation syndicale– solidaires industrie . <https://solidaires.org> consulté le 20/07/2020.
275. Le personnage du roman depuis le 19ème siècle , www.etudier.com consulté le 20/02/2020.
276. Les crises économiques et leurs effets sociaux et politiques dans un long vingtième siècle (1873 – 2008), <https://Ekladata.com> , consulté le 20/02/2020.
277. Lumière sur Germinal d'Emile Zola in <https://www.espacefrançais.com> consulté le 17/09/2021.

278. Mercier Charles, in <https://univ-bordeaux.academia.edu> consulté le 27/07/2019.
279. Patrice Cailleba, La genèse du concept de prolétariat chez le jeune Marx (1841–1845) in Revue de philosophie économique, Vol 18, numéro 2 2017, <https://www.cairn.info> consulté le 10/01/2020.
280. Rahnema Madjid, 2004. «Quand la misère chasse la pauvreté», <https://www.revue-quartmonde.org/2000#>, Entretien conduit par Jen Tonglet dans le cadre des Journées du livre contre la misère, Lille, 14 février 2004, consulté le 15/06/2020.
281. Histoire sociale et roman de la misère sur : www.groupugo.div.jussieu.fr/histoire, consulté le 20/02/2020.
282. Antoine Robitaille, « Pas 1929, 1873 », octobre 2008, <http://ledevoir.com> , consulté le 12/03/2021.
283. Agora..qc.ca/dossier/misère ,consulté le 20/02/2020.
284. La misère, <https://agora.qc.ca/> , consulté le 20/02/2020.
285. Le 19ème siècle, <http://ekldata.com> , consulté le 20/02/2020.
286. La crise boulangiste, <https://gallica.bnf.fr> , consulté le 18/09/2021.

فهرس الأعلام

- آبادي الفيروز: ص7.
- ابسن هنريك: ص 73.
- ابن السكيت: ص5.
- ابن خلدون عبد الرحمن: ص 383.
- ابن منظور: ص4، 6،
- أجيريون شارل روبير: ص 185.
- إدموند شارل: ص 239.
- أراغون لويس: ص 245.
- أرنو سانت: ص 187، 188، 200، 263.
- الأصمعي: ص 2.
- أفلاطون: ص 464.
- آل أورليان: ص 106.
- آل بوربون: ص 101، 106، 123.
- إمریت مارسيل: ص 206.
- انجلز فريدريش: ص 129، 188.
- أنطوانيت ماري: ص 98، 235.
- أنطونيوز جونففيغ دي غول: ص 90.
- أورليون لويس فيليب: ص 106، 107، 121، 124، 153.
- أوزانام فريدريك: ص 91.

- أوغست كونت: ص 161.

ب/

- باريس الكونت دي: ص 110.
- باسكال بلاز: ص 59.
- باشلار غاستون: ص 509.
- برنارد كلود: ص 160، 161.
- برودون بيير بول: ص 152، 158.
- البصري الحسن: ص 9.
- بلان لويس: ص 108، 126.
- بلانكي أدولف: ص 129.
- بلوخر (المارشال): ص 100.
- بلير توني: ص 51.
- بن أبي طالب علي: ص 4.
- بن العلاء أبو عمر: ص 5.
- بندولاك أبرهام: ص 171.
- بوبلون راوسي: ص 191.
- بوديشون أوجين: ص 188، 189.
- بورديو بيير: ص 64، 72.
- بورمون (الجنرال دي): ص 201.
- بورنيت فرانك ماكفارلان: ص 218.
- بوري جان لويس: ص 540.
- بولانجيه جورج: ص 123.

- بولينياك غابرييل دي: ص 105، 175.
- بونابرت نابليون: ص 99، 100، 112، 114، 263، 264، 451.
- بيجو (الجنرال): ص 181، 186، 187، 190، 191، 195، 199، 200.
- بيربي جان كازيمير: ص 119، 180.

ت/

- تروكان نوربرت: ص 413، 414.
- تيير لويس أدولف: ص 119.

ج/

- جان ماري جولي: ص 207.
- جوريس جان: ص 127.
- جول غيد: ص 153.
- جيرار (الجنرال): ص 175.
- جينيت جيرار: ص 470، 488.
- جيو لويس: ص 245.

ح/

- الحسن (مولاي): ص 177، 178.
- حوحو أحمد رضا: ص 229.

د/

- داسينز فرانسوا: ص 26.

- دانتي أليغيري: ص 239، 518.
- دريفوس ألفريد: ص 118، 123.
- دوديه ألفونس: ص 248.
- دوکاستیلان (الجنرال): ص 210.
- دیکاز إيلي: ص 103، 104.
- دیکاز إيلي: ص 103، 104.

/ر

- راندون (الماريشال): ص 188،
- رحنامه ماجد: ص 25، 28، 92.
- روبلس إيمانويل: ص 247.
- روبيس بيير: ص 452.
- روسو جان جاك: ص 142.
- رولان لودرو: ص 126.
- ريشيه شارل: ص 62، 76.
- رينو بيليسيدي: ص 181.

/س

- سارتر جان بول: ص 179.
- ساند جورج: ص 158، 432.
- ستندال هنري بایل: ص 160، 434.
- سفريوي أحمد: ص 229.
- سميث آدم: ص 22.

- سو أوجين: ص 158.
- سيجموند جول: ص 87.
- سيسموند جان دي: ص 260.
- سيمون جول: ص 158، 403.
- سيمون سان: ص 108، 125، 152.

ش/

- شارل العاشر: ص 101، 104، 106، 121، 124، 175.
- الشافعي عبد المجيد: ص 5، 7، 10، 229.
- شتراوس ليفي: ص 25.
- شنايدر أوجين: ص 149.
- شوفاليي جاك: ص 213.
- شيربولي أنطون إليزي: ص 82.

ط/

- طوكفيل ألكسي دي: ص 167.

ع/

- عبد العزيز (مولاي): ص 178.
- عبده محمد: ص 225.

غ/

- غاندي موهنداس: ص 26، 93.

- غريفي جول: ص 119، 122.
- غورفيتش جورج: ص 142.
- غولدمان إما: ص 72.
- غيزو فرانسوا: ص 104، 108، 109، 121.

ف/

- فارنيي أوغست: ص 161.
- فاليس جول: ص 432.
- فريزنسكي جوزيف: ص 89، 94.
- فلوبير غوستاف: ص 160، 570.
- فور فيليكس: ص 119.
- فوري (العقيد): ص 199.
- فوريي شارل: ص 152، 199.
- فولتير فرانسوا ماري أروي: ص 142.
- فيري جول: ص 206.

ك/

- كارنو ماري فرانسوا سادي: ص 119.
- كافينياك أوجين: ص 112، 187، 191.
- كامو ألبير: ص 208، 245، 247.
- كانط إيمانويل: ص 250.
- كريفال شارل: ص 508.
- كريميو أدولف: ص 172.

- كلوزيل بيرتراند: ص 190.
- كوك فيليب سان جورج: ص 451.
- كوكيرمان سيسيل: ص 86.

ل/

- لافيغري شارل
- لالاند أندري: ص 464.
- لوبي إميل: ص 119.
- لورو بيير: ص 126.
- لوك جون: ص 142.
- لويس الثامن عشر: ص 101، 102، 104.
- لويس السادس عشر: ص 98، 143، 235، 433، 452.
- ليوتي أوبير: ص 220.

م/

- مارتينيكاك جان باتيست سيلفير غاي دي: ص 105.
- ماري لويز طاوس عمروش: ص 228.
- مبيكي تابو: ص 38.
- محمود زكي نجيب: ص 466.
- محمود مسعودي: ص 228.
- مرتاض عبد المالك: ص 466، 532، 533.
- مكماهون باتريس دي: ص 116.
- موباسان غي دي: ص 160.

- مولان آرمان دي: ص 87.
- مولان أرماند دي: ص 87.
- مونتنياك لوسيان فرانسوا دي: ص 189.
- مونتييسكيو شارل لويس دي سوكوندات: ص 142.
- ميشليه جول: ص 158.
- ميل جون ستيوارت: ص 161.
- ميمي ألبير: ص 174، 229.
- ماركس كارل: ص 19، 22، 65، 127، 143، 311، 319، 413.
- مالتوس طوماس: ص 22، 37.

ن/

- نابليون الثالث: ص 114، 115، 154.
- نابليون لويس: ص 112، 113.

ه/

- هامون فيليب: ص 390، 450، 451.
- هتلر أدولف: ص 452.
- هنري الرابع (الملك): ص 338.
- هيغل جورج ويلهام فريدرش: ص 250.

و/

- ويتمان والت: ص 73.
- ويلينغتون (دوق دي): ص 100.

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

الإهداء

مقدمة

أولاً: القسم النظري

الباب الأول: الفقر والبؤس الماهية والواقع

الفصل الأول: الفقر الماهية والواقع

04	1 مدلولات الفقر
04	1.1 المدلول اللغوي للفقر
08	2.1 المدلول الاصطلاحي للفقر
12	3.1 المدلول الاجتماعي للفقر
15	4.1 المدلول الاقتصادي للفقر
18	2 أنواع الفقر
18	1.2 الفقر المطلق والفقر النسبي
18	1.1.2 الفقر المطلق (المدقع)
19	2.1.2 الفقر النسبي
20	2.2 الفقر الحضري والفقر الريفي
22	3.2 الفقر المادي والفقر المعنوي
23	1.3.2 الفقر المادي
24	2.3.2 الفقر الروحي (المعنوي)
25	4.2 الفقر البسيط أو السهل
26	5.2 الفقر الإرادي
28	6.2 الفقر الحداثي
29	3 مستويات الفقر و قياسه
29	1.3 خط الفقر المطلق
29	2.3 خط الفقر النسبي

29.....	(3.3) خط الفقر القومي.....
30.....	(4.3) خط الفقر الثابت.....
30.....	(5.3) خط الفقر المدقع.....
30.....	(6.3) خط فقر الغذاء.....
31.....	(4) أسباب الفقر.....
32.....	(1.4) الأسباب الاجتماعية للفقر.....
33.....	(1.1.4) معضلة الانفجار السكاني.....
34.....	(2.1.4) معضلة نقص التغذية.....
35.....	(3.1.4) معضلة التهميش والحرمان.....
35.....	(4.1.4) معضلة البطالة.....
37.....	(2.4) الأسباب الاقتصادية للفقر.....
40.....	(1.2.4) المديونية الخارجية.....
40.....	(2.2.4) التضخم.....
41.....	(3.2.4) الفساد والبيروقراطية.....
42.....	(3.4) الأسباب السياسية للفقر.....
43.....	(4.4) الأسباب البيئية للفقر.....
44.....	(5) انتشار ظاهرة الفقر في العالم.....
46.....	(6) نتائج الفقر.....
47.....	(1.6) سوء التغذية.....
47.....	(2.6) استغلال الطفولة.....
48.....	(3.6) الفقر والعنف.....
50.....	(7) مكافحة الفقر.....

الفصل الثاني: البؤس الماهية والواقع

55.....	(1) مدلولات البؤس.....
55.....	(1.1) المدلول اللغوي للبؤس.....
60.....	(2.1) المدلول الاصطلاحي للبؤس.....
61.....	(2) أنواع البؤس.....
61.....	(1.2) البؤس الجسدي.....
63.....	(2.2) البؤس المعنوي (La misère morale).....

64.....	(3.2) البؤس الاجتماعي الاقتصادي (La misère socio-économique)
68.....	(4.2) البؤس النفسي (La misère psychologique)
70.....	(5.2) البؤس الفكري (La misère intellectuelle)
71.....	(6.2) البؤس الثقافي (La misère culturelle)
75.....	3 (مظاهر البؤس.....
78.....	4 (أسباب البؤس.
78.....	(1.4) الأسباب المادية أو العرضية.
79.....	(2.4) الأسباب المعنوية أو الدائمة.
79.....	(1.2.4) إدمان السلوك السيئ.
80.....	(2.2.4) الجهل.....
80.....	(3.2.4) الكسل والخمول.
81.....	(4.2.4) عدم الحكمة والتبصر.....
81.....	(5.2.4) الأنظمة الاقتصادية الجديدة.....
83.....	5 (نتائج البؤس.
83.....	(1.5) الألم والمعاناة.....
84.....	(2.5) التحطم والانهيار.....
85.....	(3.5) التسول.....
86.....	6 (محاربة البؤس.....
88.....	(1.6) المساعدات العمومية.....
88.....	(2.6) الوسائل الوقائية.
92.....	7 (العلاقة بين الفقر والبؤس.....

الباب الثاني: ظاهرتا الفقر والبؤس في المجتمعين الفرنسي والمغربي

الفصل الأول: ظاهرتا الفقر والبؤس في المجتمع الفرنسي خلال القرن التاسع

98.....	1(الأوضاع السياسية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر.....
98.....	(1.1) الأنظمة السياسية.....
99.....	(1.1.1) نابليون بونابرت و الإمبراطورية الأولى (1804-1814م).....
100.....	(2.1.1) عودة الحكم الملكي (1815-1848م).....
110.....	(3.1.1) الجمهورية المؤقتة.....
112.....	(4.1.1) الجمهورية الثانية (1848-1852).....

114.....	5.1.1) الامبراطورية الثانية (1852-1870م).
116.....	6.1.1) الجمهورية الثالثة (1870-1940م).
120.....	2.1) التيارات السياسية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر.
120.....	1.2.1) الجمهوريون (Les Républicains).
123.....	2.2.1) الملكيون (Les Royalistes).
124.....	3.2.1) الوطنيون (Les Nationalistes).
125.....	4.2.1) الاشتراكيون (Les Socialistes).
128.....	2) الأوضاع الاقتصادية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر.
129.....	1.2) الثورة الصناعية.
130.....	1.1.2) نظام المصانع.
130.....	2.1.2) تركيز السكان في المدن.
131.....	3.1.2) تقدم وسائل النقل و الاتصال.
131.....	4.1.2) نمو التجارة الداخلية و الخارجية.
131.....	5.1.2) نمو الرأسمالية و تطورها.
131.....	6.1.2) نتائج الثورة الصناعية.
132.....	1.6.1.2) النتائج الاقتصادية.
132.....	2.6.1.2) النتائج الاجتماعية.
132.....	3.6.1.2) النتائج السياسية.
133.....	2.2) الرأسمالية (Le Capitalisme).
134.....	1.2.2) تراكم رؤوس الأموال.
134.....	2.2.2) التحرر السياسي و الديني.
135.....	3.2.2) مميزات الرأسمالية.
135.....	1.3.2.2) الملكية الفردية لوسائل الإنتاج.
135.....	2.3.2.2) الحرية الاقتصادية.
135.....	3.3.2.2) الليبرالية الفردية.
136.....	3.2) الاشتراكية (Le Socialisme).
137.....	1.3.2) الأسس الرئيسية للنظام الاشتراكي.
137.....	1.1.3.2) تدخل الدولة.
137.....	2.2.3.2) الملكية العامة.
137.....	3.2.3.2) التخطيط المركزي.

138.....	4.2.3.2) المصلحة العامة.
138.....	4.2) أزمة الكساد الكبير (La Grande Dépression).
140.....	1.4.2) نتائج أزمة الكساد الكبيرة.
141.....	3) الأوضاع الاجتماعية في فرنسا خلال القرن التاسع عشر.
142.....	1.3) البنية الاجتماعية الفرنسية.
143.....	1.1.3) الطبقة البورجوازية.
144.....	2.1.3) الطبقة البروليتارية.
146.....	1.2.1.3) الوضعية الصحية للطبقة البروليتارية.
147.....	4) نتائج الفقر والبؤس في المجتمع الفرنسي.
147.....	1.4) الزحف الريفي (التصنيع والتمدن).
149.....	2.4) النضال الاجتماعي و النقابي.
149.....	1.2.4) وضعية الطبقة العمالية.
150.....	2.2.4) التنظيمات العمالية.
152.....	3.2.4) الحركات العمالية.
153.....	4.2.4) النضالات العمالية.
157.....	5) الرواية الفرنسية في القرن التاسع عشر.

الفصل الثاني. ظاهرتا الفقر والبؤس في المجتمع المغربي أثناء فترة الاحتلال الفرنسي

165.....	1) حال المغرب العربي قبل الاحتلال الفرنسي.
171.....	2) أوضاع الاحتلال الفرنسي لمنطقة المغرب العربي.
174.....	3) الاحتلال الفرنسي لمنطقة المغرب العربي.
175.....	1.3) الاحتلال الفرنسي للجزائر.
176.....	2.3) الاحتلال الفرنسي لتونس.
177.....	3.3) الاحتلال الفرنسي للمغرب الأقصى.
179.....	4) سياسة المحتل الفرنسي في منطقة المغرب العربي.
180.....	1.4) سياسة المحتل الفرنسي في الجزائر.
181.....	1.1.4) التنظيمات الإدارية الفرنسية في الجزائر بعد الاحتلال.
186.....	2.1.4) سياسة العنف والدمار.
190.....	3.1.4) سياسة التعمير والاستيطان.
196.....	4.1.4) سياسة سلب الأراضي وتدميرها.

202.....	1.4.1.4 نتائج سياسة المصادرة والتدمير
202.....	1.1.4.1.4 على المستوى الاجتماعي
203.....	2.1.4.1.4 على المستوى الاقتصادي
204.....	3.1.4.1.4 (على المستوى الطبيعي
205.....	5.1.4 سياسة التجهيل والتجوع
205.....	1.5.1.4 سياسة التجهيل
208.....	2.5.1.4 سياسة التجوع
212.....	6.1.4 ظاهرة الهجرة
212.....	1.6.1.4 الهجرة الداخلية
214.....	2.6.1.4 الهجرة الخارجية
215.....	2.4 (سياسة المحتل الفرنسي في تونس
219.....	3.4 سياسة المحتل الفرنسي في المغرب الأقصى
225.....	5 (نهضة سكان المغرب الكبير
225.....	1.5 تأثيرات الهجرة إلى أوروبا
225.....	2.5 تأثير النهضة الروحية في المشرق
226.....	3.5 تأثير الحرب العالمية الأولى
226.....	4.5 تأثير الحرب العالمية الثانية
227.....	6 (الرواية المغربية في القرن العشرين
227.....	1.6 المرحلة الأولى للرواية المغربية
229.....	2.6 (المرحلة الثانية للرواية المغربية
230.....	3.6 (المرحلة الثالثة للرواية المغربية

ثانيا: القسم التطبيقي

الباب الثالث: ظاهرتا الفقر والبؤس في الروايتين الفرنسية والمغربية

الفصل الأول: ظاهرة الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية

235.....	1 (الرواية والواقع الاجتماعي
238.....	2 (موضوع الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية
249.....	3 (أسباب الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية
250.....	1.3 (ظهور الروح الفردية
255.....	2.3 انتشار الأمية

259.....	(3.3) انتشار البطالة.
262.....	(4.3) الأوضاع السياسية واندلاع الحروب.
268.....	(5.3) انتشار ظاهرة الإدمان.
272.....	(4) مظاهر الفقر في الروايتين الفرنسية والمغربية.
273.....	(1.4) ظاهرة التشرد.
277.....	(2.4) الفقر وسوء التغذية.
282.....	(3.4) الفقر ونقص الرعاية الصحية.
286.....	(4.4) الفقر وسوء الاعتناء بالمظهر.
289.....	(5) نتائج الفقر.
289.....	(1.5) الاستدانة وبيع الممتلكات.
293.....	(2.5) انتشار آفة السرقة.
295.....	(3.5) انتشار آفة التسول.
297.....	(4.5) انتشار ظاهرة العنف وسوء المعاملة.
303.....	(5.5) استغلال الطفولة.
306.....	(6.5) الهجرة ومآسيها.
311.....	(6) مكافحة الفقر والثورة على الأوضاع المزرية.

الفصل الثاني. ظاهرة البؤس في الروايتين الفرنسية والمغربية

319.....	(1) أسباب البؤس في الروايتين الفرنسية و المغربية.
319.....	(1.1) الفقر.
323.....	(2.1) الاستغلال والجشع.
329.....	(3.1) الرفض والإقصاء من المجتمع.
334.....	(4.1) تأثيرات السن والحالة الصحية.
341.....	(5.1) غياب رب الأسرة وعائلها.
346.....	(2) أنواع البؤس في الروايتين الفرنسية و المغربية.
346.....	(1.2) البؤس العاطفي والنفسي.
346.....	(1.1.2) العزلة والانطواء على الذات.
350.....	(2.1.2) العلاقات الأسرية المشتتة.
352.....	(3.1.2) الثورة على الأوضاع.
356.....	(2.2) البؤس الاجتماعي.

357.....	(1.2.2) النظام الطبقي.....
364.....	(2.2.2) الصراع مع المحظورات الاجتماعية.....
364.....	(1.2.2.2) الأم العزباء.....
366.....	(2.2.2.2) آفة الإدمان.....
367.....	(3.2) البؤس الاقتصادي.....
368.....	(1.3.2) سوء توزيع الثروات.....
372.....	(2.3.2) الصراع من أجل البقاء.....
378.....	(4.2) البؤس الفكري والثقافي.....
378.....	(1.4.2) شل الفكر وتغييبه.....
383.....	(2.4.2) الانبهار بالآخر والخضوع له.....

الباب الرابع: دراسة فنية وجمالية لظاهرتي الفقر والبؤس في الروايتين الفرنسية والمغربية

الفصل الأول: البناء الفني والجمالي للشخصيات الروائية

391.....	(1) الشخصيات البطولية.....
391.....	(1.1) الشخصيات المهمشة و المعزولة.....
395.....	(2.1) الشخصيات القيادية.....
399.....	(3.1) الشخصيات النسائية.....
399.....	(1.3.1) المرأة الأم.....
403.....	(2.3.1) المرأة العاملة.....
408.....	(3.3.1) المرأة الثائرة.....
413.....	(4.1) شخصيات الأطفال.....
413.....	(1.4.1) الطفل العامل.....
416.....	(2.4.1) الطفل والعائلة.....
418.....	(3.4.1) طفل الشوارع.....
426.....	(5.1) الشخصيات البورجوازية.....
432.....	(6.1) شخصية الشعب (البطولة الجماعية).....
439.....	(2) البناء الفني للشخصيات.....
439.....	(1.2) مرجعيات الأسماء و الألقاب.....
440.....	(1.1.2) الأسماء ودلالاتها على الانتماء الاجتماعي.....

444.....	(2.1.2) الأسماء و الألقاب ذات الأبعاد الفيزيولوجية والنفسية
448.....	(3.1.2) الأسماء و الألقاب ذات الأصل الحيواني
450.....	(2.2) أنواع الشخصيات في المتن الروائي
451.....	(1.2.2) الشخصيات المرجعية
451.....	(1.1.2.2) الشخصيات المرجعية المباشرة
453.....	(2.1.2.2) الشخصيات المرجعية الشبه مباشرة
454.....	(3.1.2.2) الشخصيات المرجعية غير المباشرة
454.....	(1.3.1.2.2) رجل الدين (الكاهن)
455.....	(2.3.1.2.2) النقابي
456.....	(3.3.1.2.2) الشرطي
456.....	(4.3.1.2.2) أصحاب الورش
457.....	(2.2.2) الشخصيات الاستذكارية
457.....	(1.2.2.2) الاسترجاع
461.....	(2.2.2.2) الاستدعاء (الاستشراف)

الفصل الثاني: تجليات البنى الزمانية والمكانية واللغوية في تجسيد ظاهرتي الفقر والبؤس

464.....	1 (البنية الزمنية
465.....	1.1 الزمن في السرد الروائي
466.....	2.1 أهمية الزمن في النص السردي الروائي
466.....	3.1 أنواع الزمن في النص السردي الروائي
466.....	1.3.1 الزمن المتواصل
467.....	2.3.1 الزمن المتعاقب
467.....	3.3.1 الزمن المنقطع أو المتشظي
467.....	4.3.1 الزمن الغائب
468.....	5.3.1 الزمن الذاتي
468.....	4.1 المفارقات الزمنية (تقنيات ترتيب الزمن)
468.....	1.4.1 الاسترجاع
469.....	1.1.4.1 الاسترجاع الخارجي
469.....	2.1.4.1 الاسترجاع الداخلي
470.....	3.1.4.1 الاسترجاع المزجي

470.....	(2.4.1) الاستباق
470.....	(1.2.4.1) الاستباق الداخلي
470.....	(2.2.4.1) الاستباق الخارجي
471.....	(3.2.4.1) الاستباق المختلط
471.....	(5.1) المفارقات الزمنية في الروايتين الفرنسية والمغربية
471.....	(1.5.1) الاسترجاع في الروايتين الفرنسية والمغربية
471.....	(1.1.5.1) الاسترجاع الخارجي
477.....	(2.1.5.1) الاسترجاع الداخلي
479.....	(2.5.1) الاستشراف في الروايتين الفرنسية والمغربية
488.....	(6.1) تقنيات زمن السرد في الروايتين الفرنسية والمغربية
488.....	(1.6.1) تقنيات تسريع السرد في الروايتين الفرنسية والمغربية
488	(1.1.6.1) تجليات الخلاصة
492	(2.1.6.1) تجليات الحذف في الروايتين الفرنسية والمغربية
495.....	(3.1.6.1) تقنيات إبطاء السرد في الروايتين الفرنسية والمغربية
495	(1.3.1.6.1) تجليات المشهد السردى
502.....	(2.3.1.6.1) تجليات الوقفة الوصفية
508.....	(2) البنية المكانية
508.....	(1.2) المفهوم الفني والجمالي للمكان
509.....	(2.2) أهمية المكان في النصوص السردية
511.....	(3.2) البنية المكانية في الروايتين الفرنسية والمغربية
511.....	(1.3.2) الأماكن المغلقة
511.....	(1.1.3.2) المساكن
511.....	(1.1.1.3.2) المساكن الجماعية
516.....	(2.1.1.3.2) المساكن الفردية
522.....	(2.1.3.2) العوالم السفلية
524.....	(3.1.3.2) المناجم
527.....	(4.1.3.2) السجن
528.....	(2.3.2) الأماكن المفتوحة
528.....	(1.2.3.2) الشارع
530.....	(2.2.3.2) القرية

532.....	3 (البيئة اللغوية.....
534.....	1.3) الظواهر اللغوية في الروايتين الفرنسية والمغربية.....
534.....	1.1.3) الأبعاد الدلالية واللغوية للعناوين.....
535.....	1.1.1.3) العناوين الدالة على الفقر والبؤس.....
537.....	2.1.1.3) العناوين الدالة على الأسماء أو الألقاب.....
540.....	3.1.1.3) العناوين ذات الدلالة المكانية.....
543.....	4.1.1.3) العناوين الدالة على موضوعات متنوعة.....
545.....	2.1.3) البنية اللغوية.....
545.....	1.2.1.3) اللغة الراقية.....
547.....	2.2.1.3) لغة أصحاب المهن والحرف.....
549.....	3.2.1.3) اللغة العامية.....
550.....	1.3.2.1.3) الخروج عن القواعد النحوية.....
554.....	2.3.2.1.3) تشويه الكلمات المعروفة.....
555.....	3.3.2.1.3) التعبيرات الشفوية.....
557.....	4.3.2.1.3) التعبيرات المجازية والرمزية.....
568.....	خاتمة.....
577.....	قائمة المصادر والمراجع.....
601.....	فهرس الأعلام.....
610.....	فهرس المحتويات.....
622.....	الملخص.....

المخلص

الملخص:

الفقر ظاهرة اجتماعية لم ينج منها أي بلد أو مجتمع مهما بلغت درجة تطوره ، و هو لا يشمل الجانب المادي فحسب بل المعنوي أيضا. و الفقر أنواع عدة و له أسباب ونتائج كثيرة و متنوعة وقد عملت المنظمات العالمية جاهدة على مكافحته ومن بينها الأمم المتحدة والبنك العالمي .

أما البؤس فهو حالة من الشقاء و الضيق ، و أنواعه كثيرة وهي لا ترتبط كلها بالفقر إذ ليس كل الفقراء بؤساء والعكس.

هذا وقد شهد المجتمعان الفرنسي خلال القرن التاسع عشر والمغاربي فيما بين الثلث الأول من القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين حالا من الفقر والبؤس الشديدين وذلك بسبب الأوضاع السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية غير المستقرة التي عرفتھا هذه المجتمعات . وفي محاولة للخروج من هذه الأزمة اتجهت فرنسا نحو التوسعات الاستعمارية و اختارت المنطقة المغاربية نظرا لقربها منها و لموقعها الاستراتيجي.

لقد تعرضت الجزائر بالذات للاستعمار الاستيطاني إذ قام المحتل بالعديد من التعديلات على الأنظمة الإدارية واستبدال اللغة العربية بالفرنسية إضافة إلى سياسة التعمير و مصادرة الممتلكات مما أدى إلى إفقار الجزائريين وتجويعهم. وقد انتهج سياسة مشابهة في تونس والمغرب رغم أنهما كانتا تحت الحماية الفرنسية وليس احتلالها.

لقد ظهرت الرواية الاجتماعية في الأدب المغاربي في بداية الخمسينات من القرن العشرين و خاصة مع محمد ديب و مولود معمري ... ممن تأثروا بالأدباء الفرنسيين أمثال فيكتور هوغو رائد المدرسة الرومانسية أو الواقعية أونوري دي بالزاك .

و لقد صادفتنا العديد من النقاط المشتركة بينهم و لاسيما في أساليبهم الفنية و نظرتهم و تقديمهم لظاهرتي الفقر و البؤس كما واكبوا قضايا واقعهم بكل دقة وأمانة و لكن دون أن

يقعوا في الاقتباس أو التقليد لأن كل موضوعاتهم كانت مستوحاة من صميم واقعهم إذ لا نجد أي فكرة دخيلة على الثقافة المغربية .

أما على المستوى الفني والجمالي فقد كان التقارب بينهما معتبرا و يتجلى ذلك في اختيارهم لطبيعة الشخصيات الروائية و توظيفهم لمختلف البنى الزمنية و المكانية و اللغوية التي وظف فيها الروائيون المغاربة على غرار الفرنسيين اللغة الراقية في المقاطع السردية لأنها تعكس براعة الأديب و اللغة العامية في لغة الحوار بين الشخصيات الفقيرة و البائسة لأنها الأكثر تلاؤما مع مستواها الاجتماعي كما تمنح للأعمال الروائية مصداقية أكبر، و تفسح المجال لبروز البصمة الثقافية الخاصة بكل هذه الأعمال .

في الأخير يمكننا القول أنه رغم تأثر الأدباء المغاربة بالأدب الفرنسي إلا أنهم حافظوا على أصالتهم وبصمتهم الثقافية.

Résumé:

La pauvreté est un phénomène social auquel aucun pays ni société n'a échappé quel que soit leur niveau de développement. Elle ne se limite pas qu'à l'aspect physique et matériel mais inclut également le côté moral. Elle peut prendre plusieurs formes avec différentes causes et conséquences. Plusieurs Organisations internationales telles que les Nations Unies et la Banque mondiale ont travaillé dur pour tenter de combattre ce fléau.

Quant à la misère, elle représente un état de détresse et de mal être profonds. Elle compte également plusieurs types qui ne sont pas tous liées à la pauvreté car tous les pauvres ne sont pas forcément misérables et vice-versa.

Les sociétés françaises au XIXe siècle et maghrébines entre le premier tiers du XIXe siècle et le milieu du XXe siècle ont connu un état d'extrême pauvreté et de misère en raison de l'instabilité des conditions politiques, économiques et sociales à ce moment-là.

Pour tenter de sortir de cette crise, la France est alors tournée vers la colonisation. Elle s'est notamment dirigée vers la région maghrébine en raison de sa proximité géographique et de sa position stratégique.

L'Algérie était l'un des principaux pays à subir la colonisation française. Dès leur arrivée les colons ont procédé à plusieurs changements administratifs, remplacé l'arabe par le français, et ont instauré la politique de peuplement et de confiscation des biens qui a exposé le peuple algérien à l'extrême pauvreté et la faim.

Une politique similaire a été menée en Tunisie et au Maroc, bien qu'ils aient été sous protectorat français et non colonisés.

Le roman social a émergé au Maghreb au début du 20ème siècle notamment avec Mohammed Dib et Mouloud Mammeri... Ces derniers se sont fortement inspirés des romanciers français romantiques tel que Victor Hugo ou encore réalistes comme Honoré de Balzac.

En effet, nous retrouvons plusieurs ressemblances dans leurs styles littéraires, leurs perceptions et leurs représentations de la misère et la pauvreté.

Ils sont cependant parvenus à illustrer avec précision et intégrité les conditions de vie du peuple maghrébin à cette époque là sans pour autant avoir recours à l'adaptation, car leurs sujets ont été inspirés par leur réalité et non par les livres. Nous ne trouvons donc aucun incident ou idée étrangère à la société maghrébine.

Sur le plan technique et esthétique, il y'a également d'importantes similitudes qui se manifestent dans le choix de la nature de leurs personnages et l'utilisation des différentes structures spatio-temporelles et linguistiques. Les romanciers maghrébins se sont notamment inspirés des français dans l'alternance entre langue noble et argot en fonction des niveaux sociaux des personnages dans le but d'ajouter de la crédibilité à leurs œuvres mais également afin de pouvoir transmettre leur culture, leurs traditions et même leurs caractères à travers ce vocabulaire bien spécial.

Bien que les romanciers maghrébins aient été fortement influencés par la culture et la littérature française, ils ont néanmoins gardé leur authenticité en écrivant avec un esprit maghrébin bien distinct.

